إِكْسِيرُ التَّنْمِيَة

جَدَلِيَّةُ "التَّنْمِيَةِ "و"الثَّقَافَةِ": أين الخَلَلُ؟
نَحْوَ تَأصِيلِ "الثَّقَافَةِ العِلْمِيَّةِ" في المُجْتَمَعَاتِ العَرَبِيَّة

خضر محمد عبد الرحمن الشيباني

العبيكان
obeikan

إِكْسِيرُ التَّنْمِيَة

جَدَلِيَّةُ «التَّنْمِيَةِ» و«الثَّقافَةِ»: أين الخَلَلُ؟

نَحْوَ تَأْصِيلِ «الثَّقَافَةِ العِلْمِيَّةِ» في المُجْتَمَعَاتِ العَرَبِيَّة

تأْليف

خضر محمد عبد الرحمن الشيباني

العبيكان
Obeikan

ح) خضر محمد عبد الرحمن الشّيباني، ١٤٣٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الشيباني؛ خضر محمد عبدالرحمن

إكسير التنمية./ خضر محمد عبدالرحمن الشّيباني.- الرياض، ١٤٣٧هـ

٤٢٠ ص؛ ١٦,٥ × ٢٤ سم.

ردمك: ٨-٨١٢-٠٢-٦٠٣-٩٧٨

١- العالم الإسلامي - التنمية ٢- العالم العربي - التنمية أ. العنوان

ديوي ٣٣٨,٩٠٠٩٥٣ ٤١١٦/ ١٤٣٧

الطبعة الأولى

١٤٣٧هـ/ ٢٠١٦م

امتياز التوزيع شركة العبيكان Obeikan

المملكة العربية السعودية - الرياض - المحمدية - طريق الأمير تركي بن عبدالعزيز الأول

هاتف: ٤٨٠٨٦٥٤ - فاكس: ٤٨٨٩٠٢٣ ص. ب: ٦٢٨٠٧ الرياض ١١٥٩٥


بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

- إليها.

إلى والدتي السيِّدة نفيسة بنت السيِّد أحمد الدَّاه – رحمها الله -؛ ذلك النَّبْعُ الصَّافِي من الحَنَانِ والخَيْرِ والحُبِّ؛ كان يَنْسَابُ نَقِيّاً حَفِيّاً دون طَلَبٍ بالأمْسِ، وأفْتَقِدُهُ اليوم، وأسْتَحِثُّ الخُطى في طَلَبِهِ، ولكن لا مُجِيبَ. وتَبْقَى الذِّكْرَى الغَامِرَةُ، أتَّكِئُ عليها؛ فهي مَعِينٌ زَاخِرٌ بأصْدَقِ المَشَاعِرِ وأنْبَلِهَا.

-

إلى والدي الشَّيخ محمد عبد الرَّحمن الشَّيباني – رحمه الله -؛ تَعَلَّمْتُ منه الكثير في تَجَارِبَ حَيَّةٍ من الشُّمُوخِ والإيمَانِ والتُّقَى، وما زِلْتُ أتَعَلَّمُ منه - بعد رَحِيلِهِ - في وَمَضَاتٍ كَثِيفَةِ المُحْتَوَى وعَمِيقَةِ الدَّلالات، تَكْبُرُ بها الهِمَّةُ، وتَعِزُّ بها النَّفْسُ، وتَسْمُو بها الرُّوحُ.





يَهْتَـمُّ هذا الكِتَابُ بظَاهِرَةِ ما يُعْـرَفُ بـ«إشْكَالِيّة التّنْمية» في «المُجْتمعات العربيّة»، ويَسْعَـى إلى تَفْكيكِ عناصِرها، وفَهْـمِ أَسْبابِ ذلك القُصُورِ البَيِّـنِ في هذه المُجْتمعات، وفَشَلِهَـا الذَّريعِ في مُحَاوَلاتِهـا المُتَكَرِّرَةِ والمُتَبَايِنَـةِ لتَأْسيسِ «نَهْضَـةٍ» وتَحْقيقِ «تَنْمية»؛ فعَبْرَ قَرْنَيْنِ – منْذ ما عُرِفَ باسْم «عَصْر النَّهْضَة» – تَعَدَّدَتْ المَدَارِسُ الفِكْرِيّةُ والأَنْظِمَةُ السّياسِيّـةُ والخُطَـطُ الاقْتصاديّةُ بأُطْرُوحَاتِهـا النَّهْضَويّةِ المُتَعَـدِّدَةِ ودُفُوعَاتِها التَّنْمَويّةِ المُخْتلفـة، ولكن ما تـزالُ كُلُّ الحُلُولِ التـي طَرَحَتْهَا تلـك المَدَارِسُ والأَنْظِمَـةُ والخُطَطُ عَاجِزَةً عن تَغْييرِ «الوَاقِع العربيّ» وإخْرَاجِهِ من مَأْزِقِهِ التّنْمَويّ.

فـي مُحَاوَلَـةٍ مُتَأَنّيَةٍ – عَبْرَ طَيَّاتِ هذا الكِتَـاب – يَتَقَصَّى المُؤَلِّفُ طبيعـةَ «إشْكَالِيّة التّنْمية» ودَوَاعِيها، واسْتِجْلاءَ سُبُلِ الخُرُوجِ من مَأْزِقِها، ليَخْلُصَ إلى أنّ المُعْضِلَةَ الحقيقيّة تَكْمُـنُ في العَجْزِ المُتَفَاقِمِ فـي تَأْسيسِ عَلاقَةٍ حيويّةٍ، وتلاقُحٍ فَعَّـالٍ، وتَزَاوُجٍ أصيلٍ، بين عناصِر «الثَّالُوث» النّاجِع: (التّنْمية – الثَّقافة – العِلْم).

مـن ذلـك المُنْطَلَقِ فـإنّ الأُطُرَ المُتَدَاخِلَةَ لثَالُـوثِ «التّنْمية – الثَّقافـة – العِلْم» هي الرُّبُوعُ التي يَهْتَمُّ المُؤَلِّفُ – بجُهْدِ المُقِلّ – بتَحْليلِها واسْتِكْشَافِ أَبْعَادِهَا وبَلْوَرَةِ مُقَوِّمَاتِهَا؛ ومـن المُنَاسِبِ أنْ نَسْتَشْهِدَ في اسْتِهْلالِنَا هذا بآيٍ من القرآن الكريم حول هذا «الثَّالُوثِ النَّاجِع» الذي هو مَحَلّ اهْتِمَامِ هذا الكِتَاب.

التَّنْمية

- ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١].
- ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٤].

١ ٢ ٣

الثَّقافة

- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرّعد: ١١].
- ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٥٣].

العِلْم

- ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزّمر: ٩].
- ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١].

مُحْتَوَيَاتُ الكِتَابِ

الفَصْلُ الأوَّل

إشْكَالِيَّةُ التَّنْمِيَة

الفَصْلُ الثَّاني

«الثَّقَافَة»: التَّعْرِيفُ والرُّؤيَة

الفَصْلُ الثَّالِث

«الثَّقَافَةُ العربيّة»: مَصْدَرُ الأَزْمَة

الفَصْلُ الرَّابِع

إشْكَالِيّةُ التُّرَاث والحَدَاثَة

الفَصْلُ الخَامِس

«العَقْلُ العربيّ» و«الثَّقَافَةُ التَّنْمَوِيَّة»

الفَصْلُ السَّادِس

«الثَّقَافَةُ العِلْمِيَّةُ» : وَقُودُ «الثَّقَافَة التَّنْمَوِيَّة»

الفَصْلُ السّابع

«الـثَـقَـافَـةُ الـعِـلْـمِـيَـةُ»: نَظْرَةٌ شَامِلَةٌ

الفَصْلُ الثَّامِن

الطَّرِيقُ إلى تَعْزِيزِ «الثَّقَافَة العِلْمِيَّة»

الفَصْلُ التَّاسِع

جِمَاعُ القَوْل



المُقدِّمَة

طَـوَالَ قَرْنَيْـنِ من الزَّمنِ كانتْ - وما زالتْ - القضيّـةُ الكُبْرى في حياةِ المُجْتمعات العربيّـة هي «قضيّةُ النَّهْضَة»، وكانتْ - وما زالتْ - الأسْئلةُ الكُبْرى هي «أسْئلةُ النَّهْضَة»؛ ومن كُلِّ ذلك انْبَثَقَتْ «إشْكاليّةُ النَّهْضَة»، وفي طَيّاتِهَا «إشْكَالِيّةُ الأصَالَةِ والمُعَاصَرَة» التي وصَفَهَـا محمد عابد الجابريّ بأنّها «الإشْكَالِيّةُ المِحْوَرِيّةُ في الفِكْرِ العربيّ»(١)، وهي تُمَثِّلُ ذلـك التَّشَابُكَ المُعَقَّدَ بين تداعياتٍ وِجْدَانيّةٍ، وتداخُلاتٍ تُرَاثيّةٍ، وقضيّة الهُوِيّة، والدِّفاعِ عنها ضِدَّ «الفِكْر الغَازِي» القَادِمِ من الغَرْب؛ ويَحْدُثُ كُلُّ ذلك في الوَقْتِ نفْسه الذي تَظَلُّ فيـه مُعْطياتُ ذلك الغَرْبِ - على مُخْتلف الأصْعِدَةِ - مِثَالاً مَطْلُوباً في «التّنْمية»، ونَمُوذَجاً مَرْغُوباً في «النّهْضَة».

وبالرّغْـمِ من اخْتِلافِ المَوَارِد، وتبايُـنِ تَرْكيبة المُجْتمعات، وتَعَدُّدِ الأَنْظِمَةِ في دُول العَالَم الثّالث، إلاّ أنّها جميعاً كانتْ حريصةً على تَفْعيلِ «الخِيَار العِلْميّ - التّقنيّ» ومُوَاكَبَةِ مُتَطَلَّبَـاتِ «العَصْرِ الحديث»، ولكنّها في غالبيّتها السّاحِقَةِ - باسْتِثْنَاءِ حالَتَيْنِ أو ثلاثٍ - فَشِلَتْ في تَحْقيقِ الأهْداف المَنْشُودَة في نَقْلِ مُجْتمعاتِها إلى صُفُوفِ المُجْتمعات القَادِرَةِ علـى تَحْقيقِ الحُـدُودِ الدُّنْيا من الكفـاءَةِ الاقْتصاديّة والتّقْنيةِ الفَاعِلَـةِ والحَرَاكِ العِلْميّ النَّشِـط. وهكـذا بعد عُقُودٍ من الزّمن، وخُطَـطٍ لا تَنْتَهِي في مجـالات «التّنْمية»، وبرامِج طَمُوحَـةٍ في التَّعْليم والتَّدْريب والتَّصْنيع، فإنّ «المُجْتمعات النّامية» - ومنها «المُجْتمعات العربيّـة» - ظَلَّتْ تُراوحُ مكانها، لتجـد أنّ «الفَجْوَة» بينها وبين «الـدُّول المُتَقدِّمَة» تَتَّسِعُ، وأنّهـا تَقِـفُ مَوْقِفَ «المُسْتَهْلِك» الـذي يَشْكُو دَوْماً من ضَيْم «المُنْتِـج» وغَزْوِهِ الاقْتصاديّ والعَسْكريّ والفِكْريّ.

إنّ هـذه المُفَارَقَةَ المَاثِلَـةَ للعِيَانِ تَسْتَفْحِلُ آثارُها يوماً بعد يـوم برغْم جُهُودٍ جبَّارةٍ تَبْذُلُهَـا كثيـرٌ من «الدُّول النّامية» للسَّيْطَـرَةِ على هذا التَّرَدِّي، وهي تُمَثِّـلُ إشْكَاليّةً كُبْرى فـي وَاقِعِ «الدُّول النّامية» فيما أَصْبَحَ يُعْرَفُ باسْم «إشْكَالِيّةُ التّنْمية». إنّ «أَسْئلة النَّهْضَةِ» و«إشْكَالِيّـاتِ التّنْميـة» تَتَّخِذُ أشْكَالاً مُتَعَـدِّدَةً إلاّ أنّها في صُلْبِهَـا تَتَمَحْوَرُ في «المُجْتمعات

العربيّــة» حول «حالة العَجْــزِ» في تَفْعيلِ مُتَطَلَّبَاتِ «النَّهْضَــةِ» وشُرُوطِهَا بالرّغْم من توافُرِ الأدبيّاتِ المُرَصَّعَةِ في مَدْحِهَا، والآليّاتِ المُسْتَوْرَدَةِ لإنْتَاجِهَا، والنَّمَاذِجِ الجَاهِزَةِ لتَفْعِيلِهَا، والمَوَارِدِ الحَاضِــرَةِ لدَعْمِهَا؛ وهكذا على مدى قَرْنَيْنِ من الزّمن بَقِيَتْ الأَسْئلةُ حَيْرَى تَحُومُ حول الحِمَى، ولكنّها لا تَقَعُ فيه.

ولكــي لا نَبْدَأَ من فَــرَاغٍ، ولكي يكونَ تَأْسيسُنَــا على وَاقِعٍ اجْتماعــيٍّ وثقافيٍّ وحياتيٍّ مَلْمُوسٍ، فإنّنَــا - في هذا الكِتَــابِ - نَقُــومُ بمُحَاوَلَةٍ لتَقَصِّــي طبيعة «إشْكَاليّــة التّنْمية» ودَوَاعِيهَــا، واسْتِجْــلاءِ سُبُلِ الخُرُوجِ من مَأْزِقِهَا، وذلك عبْر جَوْلَــةٍ مَدْرُوسَةٍ نَفْحَصُ فيها هَوَاجِسَ المُثقَّفين وهُمُومَ المُفكِّرين، ونَقْتَفِي آثارَهــم؛ لنَتَعَرَّفَ على رُؤاهم وإحْباطاتِهم وتَأْويلاتِهــم وطُرُوحاتِهم في مُحَاوَلَةٍ للرَّبْــطِ فيما بينها لعلَّنا نَشْتَمُّ رَائِحَةَ ذلك «الإكْسِيرِ» القَادِرِ على نَفْخِ «رُوحِ الإبْدَاعِ» في خلايا «المُجْتمعات العربيّة»، وتوليدِ «نَبْضِ الفَاعِليّةِ» في أنْسجتِهــا؛ ولعلّنا بذلك نَتَعَرَّفُ على «الحَلْقَةِ المَفْقُــودَةِ» التي تَعَثَّرَتْ عند حُدُودِهَا «قَوَافِلُ التّنْمية»، وتَبَعْثَرَتْ لغِيَابِهَا جُهُودُ السّياسيّين والعُلماء والاقْتصاديّين وغيرهم من رِجَالاتِ الأُمّة الذين جَنَّدُوا كثيراً من جُهُودِهِمْ لإخْرَاجِ الأُمّة من «عُنُقِ الزُّجَاجَةِ التّنْمَويّ».

لقــد تَعَدَّدَتْ الأَسْئلة، وتَنَوَّعَتْ الطُّرُوحات، ومنْها: (هل تَكْمُنُ المُشْكِلَةُ في إمْكاناتِ الأشْخاص وتَأْهيلهــم، أمْ في النِّظَــام السِّياسِيّ، أمْ في النِّظَام المَالــيّ والإداريّ، أمْ في التَّعْليــم ونُظُــم الاقْتصــاد، أمْ فيهــا كُلّهــا أو ربّما غيرهــا؟)؛ ولا شَكَّ فــي أنّ الدِّراسات المُتَأَنِّيَــةَ تُشِيــرُ إلى أنّ المُشْكِلــةَ تَكْمُنُ في كُلِّ ذاك، ولكنّها أيضــاً - وفْق ما يُرَوِّجُ له هذا الكِتَــابِ - أكْبــر من كُلِّ ذاك؛ فهي - فــي المقام الأوّل - «مُشْكَلَةٌ ثقافيّــةٌ» بامْتياز، عَانَتْ منهــا «الحَرَكَةُ النَّهْضَويّةُ» على مُسْتوى العَالَمِ العربيّ، فبَقِيَتْ كُلُّ الجُهُوْدِ المَبْذُولَةِ بمَنْأًى عــن ذلك «التَّحَوُّلِ النَّوْعِيّ» المَنْشُود، وفَشِلَتْ في تَحْقيقِ ما أَسْمَاهُ مالك بن نبيّ «التَّوَازُنُ الجديد»[٢].

لقــد حَرَصْــتُ - في هــذا الكِتابِ - علــى اسْتِكْشَــافِ طبيعــة «المُعْضِلَــةِ الثَّقافيّة» فــي «التَّكْوين العربيّ» عبْــر سَبْرِ «أدبيّات الثَّقافــة» نفْسها لعلّنا نُلامِسُ «الوَاقِعَ المُحَيِّرَ» الــذي يُكَبِّلُ الحَرَاكَ ويَذْبَحُ الإنْجــاز، ولكنّه في الوَقْتِ نفْسه يَسْتَنْجِــدُ بالمُنْقِذينَ ويَطْلُبُ

الخَلاصِ!. ولذا تَكْثُرُ في هذا الكِتَابِ الاسْتِشْهاداتُ والاسْتِدْلالاتُ مِن تلك «الأدبيّات» لرَصْدِ أَبْعَادِ «المُعْضِلَةِ الثَّقافيّة» كما تَرِدُ في «الخِطَابِ الثّقافيّ العربيّ» الصَّادِرِ عن المُثَقَّفين والمُفكِّرين بانْتماءاتِهم الفِكْريّة ومدارِسهم السّياسِيّة ونَزْعَاتِهِمْ الفَلْسفيّة وخَلْفيّاتِهم العِلْميّة المُتنوِّعة. ويُوضِّحُ مُلْحَقُ «مَسْرَد الأَعْلام» - الوَارِدُ في نِهاية هذا الكِتَابِ - الطَّيْفَ الوَاسِعَ مِن المُثقَّفين والمُفكِّرين على المُسْتوى القُطْرِيّ في العَالَمِ العربيّ، ويُبَيِّنُ - بإيجازٍ - ما يُمَثِّلُونَهُ من انْتماءاتٍ فِكْريّةٍ وسياسِيّةٍ مُخْتلفةٍ، وتخصُّصاتٍ عِلْميّةٍ مُتنوِّعَةٍ، وخَلْفيّاتٍ ثقافيّةٍ مُتَبَايِنَةٍ، ليُمَثِّلَ هذا الطَّيْفُ عَيِّنَاتٍ مَقْبُولَةً للاسْتِشْهَادِ بمَقُولاتِهِمْ، والاسْتِدْلالِ بأفْكَارِهِمْ.

وفي الوَقْتِ الذي نَسُوقُ فيه نَمَاذِجَ مُتَنوِّعَةً لمَقُولاتِ عَدَدٍ كبيرٍ من المُثقَّفين والمُفكِّرين العرب ورُؤاهم وهم يَتَطَارَحُونَ هذا «الهَمَّ التّنْمَويَّ» المُؤرِّق، فإنّ حقيقَتَيْنِ تتجلَّيان في تلك الاسْتِشْهادات والأُطْرُوحات؛ فهي - أوّلاً - نَمَاذِج تُفْصِحُ - في عُمُومِيَّتِهَا - عن «المَشْهَدِ الثَّقافيّ العربيّ» الذي لم يَتَغَيَّرْ كثيراً على مدى قَرْنَيْنِ من الزّمن ممّا يُمَثِّلُ - كما يُرجِّحُ المُؤلِّفُ - جُزْءاً جوهريّاً من الأَزْمَة. وأمّا الحقيقةُ الثّانيةُ فتُوَضِّحُ درجةَ التّوَتُّرِ والتّأزُّم التي بَلَغَتْ إليها «الحالُ العربيّةُ» وهي تَبْحَثُ عن مَنْفَذٍ إلى نَهْضَةٍ لم تَتَحَقَّقْ، وتَطْرَحُ رُؤىً تَنْمَويّةً ما زالتْ في مَصَافِّ التَّخيُّلات، وتَسْتَنْجِدُ بمُحَاوَلاتٍ لم تُفْلِحْ في الهُرُوبِ من المَأْزِقِ الذي أَسَرَ «الثَّقافة العربيّة» وقَيَّدَ حَرَكَتَهَا؛ ففَشِلَتْ في إحْدَاثِ «النَّقْلَة النَّوْعِيّة» في حياة الأُمّة، ليس فقط نتيجةً للقُصُورِ في مَنْهَجِيّتِها أو في وُقُوعِهَا أسيرةً لـ«الخِطَابِ الثَّقافيّ العربيّ» المَأْزُوم، بل الأهمُّ من ذلك إغْفَالُهَا لطبيعة «الدِّيناميكيّة العَالَميّة» في «رُوحِ التّنْمية»، وكذلك إهْمَالُهَا لخصائص «التَّحْديث الحقيقيّ» عند التَّحدُّثِ عن بِنَاءِ «الإنْسان العربيّ» القَادِرِ على الإنْتاج والتّعْمير والإنْجاز.

ولا بُدَّ لي - في هذا المقام - أنْ أَعْتَذِرَ للقارئ الكريم عن قَائِمَةٍ طويلةٍ مُضَمَّنَةٍ بين المَرَاجِعِ تَحْتَوِي على مقالاتٍ للمُؤلِّفِ نُشِرَتْ في وسائل عِدَّةٍ، وتَمْتَدُّ على حِقْبَةٍ طويلةٍ من الزّمن، ولكن تَضْمين هذه القَائِمَة أمْرٌ تَفْرِضُهُ شُرُوطُ «التَّوثيق المَرْجِعيّ» من ناحيةٍ، ومن ناحيةٍ أُخْرى تُمْليه حقيقةُ أنّ هذه القضيّة شَغَلَتْ المُؤلِّفَ على مدى ما يَرْبُو على رُبْعِ قَرْنٍ على الصّعيد العَامّ - تعاطيّاً وتأمُّلاً واطّلاعاً ومُتابَعَةً وكِتَابَةً ومُسَاهَمَةً -.

إنّنَا نَرْصُدُ - في طَيَّاتِ هذا الكِتَابِ - كيف يَعْبُرُ المُثقَّفون والمُفكِّرون العرب بخُيُولِهِمْ - الإنْشَائِيّ منها والتَّأَمُّلِيّ والوَعْظِيّ - على مِسَاحَاتٍ شَاسِعَةٍ من المَخَاضِ الفِكْرِيّ في مُحَاوَلاتٍ تَسْتَنْسِخُ نفْسها لمَعْرِفَةِ أَصْلِ البَلاءِ في «مُشْكَلاتِ النّهْضَة»، ولتَشْخيصِ لُبّ «الإشْكَاليّة التّنْمَويّة»، ولكنّ طُرُوحاتهم تَبْقَى عَاجِزَةً عن بُلُوغ الهدف، وتَلْتَفُّ حول نفْسها في عمليّةٍ مُشَابِهَةٍ لـ«حِوَارِ الطُّرْشَان». وفي رُبُوعِ هذه الجَوْلَةِ المَدْرُوسَةِ بيـن طُرُوحـات المُثقَّفين والمُفكِّرين - عرباً وغير عربٍ -، فـإنّ الهَمَّ الأوّلَ هو تَشْخيصُ التَّحدّيات والهَوَاجِس والهُمُوم، ووَضْعُهَا في إطَارِ «الوَاقِعِ العربيّ» وتفاعُلاته للخُلُوصِ إلى رُؤيـةٍ مُحَدَّدَةٍ تُسْهِمُ في تِبْيَانِ «الوَصْفَةِ العِلاجيّـةِ» اللازِمَةِ للخُرُوجِ من «المَأْزِقِ التّنْمَويّ» الذي انْحَشَرَتْ في دَاخِلِهِ «المُجْتمعاتُ العربيّةُ» بكُلّ إمْكَانَاتِهَا وطُمُوحَاتِهَا ومَوَارِدِهَا.

على مدى عُقُودٍ من الزّمن طويلة، وفي هذا الفضاء التّنْظيريّ الشّاسِعِ بين المُدَاولاتِ المُتَكَرِّرةِ واجْتِرَارِ الألْفَاظِ المُتَشَابِهَةِ دَاخِل شَرْنَقَةِ «الثّقافـة العربيّة»، فإنّ شيئاً ذا بَالٍ لـم يَطْرَأْ علـى «الوَعْي العربيّ»؛ وهذا مـا يُؤكِّدُهُ محمد عابد الجابـريّ بقوله: (الخِطَابُ العربـيّ الحديث والمُعَاصِر لم يُسَجِّلْ أيَّ تَقَـدُّم حقيقيٍّ في أيّة قضيّةٍ من قضاياه منذ أنْ ظَهَـرَ كخِطَـابٍ يُبَشِّرُ بـ«النّهْضَةِ» ويَدْعُـو إليها انْطلاقاً من أواسِـط القَرْن الماضي. لقد بَقِـيَ هذا الخِطَابُ طَوَالَ هذه الفَتْرَةِ - ومازال إلى اليوم - سجين «بَدَائِل» يَدُورُ في حَلْقَةٍ مُفْرَغَـةٍ لا يَتَقَدَّمُ إلاّ ليعـودَ القَهْقَرَى ليَنْتَهِيَ به الأَمْرُ - لـدى كُلّ قضيّةٍ - إمّا إلى إحالتِها إلـى «المُسْتَقْبَلِ»، وإمّا إلى الوقُوفِ عندها، مع الاعْتِرَافِ بالوقُـوعِ في «أَزْمَةٍ» والانْحِبَاسِ في «عُنُقِ الزُّجَاجَة». ومن هنا تَجَلَّى لنا زمنُ الفِكْرِ العربيّ الحديث والمُعَاصِر زمناً رَاكِداً جَامِـداً «مَيِّتـاً» أو قَابِلاً لأنْ يُعَامَلَ كزمنٍ «مَيِّتٍ»، أو على الأقـلّ لا شيء يُغَيِّرُ من مُجْرَيَاتِ الأُمُورِ فيه إذا عُومِلَ كـ«زَمَنٍ مَيِّت») [١]

وهكـذا نجدُ أنّ الهُمُومَ والإشْكَالاتِ والأَسْئلةَ ما زالتْ هِيَ هِيَ، وكأنّ شيئاً على مدى قَرْنَيْـنِ من الزّمن لـم يَسْتَجِدّ؛ فبَقِيَتْ الأَسْئلـةُ حَيْرَى تَائِهَةً منذ بُزُوغِ مـا يُسَمَّى «عَصْرُ النَّهْضَـة»، وذلك لأنّنا لـم نُغَيِّرْ من صِيَغِ الأَسْئلة، ولم نُعَدِّلْ طُرُقَ التّعَامُلِ معها، ولم نُبَدِّلْ نَمَطَ خِطَابِنَا، ولم نَقُمْ بتَفْكِيكِ الأَسْئلة ونَقْدِهَا وتَحْدِيثِهَا. وأمّا في حالاتٍ مَحْدُودَةٍ تَمَتَّعَتْ بالجُـرْأةِ والعُمْقِ - كما نجدُ في سِيَاقِ هـذا الكِتَابِ -، فإنّه بعد مُحَاوَلاتِ التَّفْكيكِ والنَّقْدِ

والتَّحْديـثِ والتَّحْليـلِ يَرْتَـدُّ «الخِطَابُ العربيُّ» من جديـدٍ إلى أُصُولِـهِ الخَطَابيّه، ومُتُونِهِ اللّغَويّة، وفي أَحْسَنِ الحالات يُغْرِقُ في المُعَالَجَاتِ الفَلْسَفِيّةِ والطُّرُوحَاتِ التَّنْظيريّة، وأمّا في أَسْوئِهَا فإنّه يُكَرِّسُ الجَدَلَ العَبَثِيّ والنَّرْجَسِيّةَ المُفْرِطَة.

لا يُمْكِـنُ لنا أنْ نُنْكِرَ وجود تَحَوُّلاتٍ لَفْظيّةٍ ومُعَالَجَـاتٍ شَكْليّةٍ، ولكنّها - في مُعْظَمِهَا - لـم تُلامِسْ شِغَافَ «الوِجْـدَانِ العربيّ»، ولـم تَسْتَثِرْ فيروسـات عَقْلِه، ولذا بَقِـيَ «الوَاقِعُ العربـيُّ» بمَنْأىً عـن الإنْجَازِ المَنْشُود. وعلى مدى قَرْنَيْنِ رَاحَـتْ الأُمّةُ العربيّةُ تَبْحَثُ عن مَوْقِعٍ لها بين الأُمَم، وتَصْطَدِمُ بأسْئلةِ «الهُوِيّة» و«النَّهْضَة» و«المُسْتَقْبَل» و«الغَزْوِ الثّقافيّ»، وتَرْنُو إلى مُقَوِّمَاتِ القُوّة وعَنَاصِرِ الحضارة وأُسُسِ الازْدهار، ويَذْهَبُ مُفكِّرُوها ومُثقّفُوها وصُنّـاعُ القَـرَارِ في ذلك الشّأْنِ كُلَّ مَذْهَـبٍ، وتَتَنَوَّعُ تَجَارِبُهُمْ العمليّـة، وتَتَعَدَّدُ مُقَارَبَاتُهُمْ النّظريّة، ولكن - بعد جَوْلاتٍ عديدةٍ وصَوْلاتٍ مديدةٍ - تعودُ هذه المُجْتمعاتُ إلى الأَسْئلة ذاتهـا، وتُجَابِـهُ التَّحدِّيات نفْسهـا، مُضِيفَةً إلـى تَجْرِبتِهَا عَنَاصِرَ ذات آثـارٍ سَلْبيّة، ومن أهمِّهـا أنّها تَرْجِـعُ بحُمُولَةٍ مُثْقَلَةٍ بالهَزَائِـمِ والإحْبَاطِ والنَّكَسَاتِ مـن ناحيةٍ، ومن ناحيةٍ أُخْـرى تعودُ إلـى «المُرَبَّعِ الأوّل» بعد أنْ أَهْدَرَتْ الكثير من المَـوَارِدِ، وأضَاعَتْ العديد من الفُرَصِ، وسَكَبَتْ الثّمين من الزّمن.

إنّنا لن نَجِدَ ظَاهِرَةً فِكْرِيّةً وَاحِدَةً - في صَخَبِ اليوم وجِدَالِه - تَخْرُجُ بشيءٍ مُخْتلفٍ عمّـا طَرَحَـهُ مُفكِّرو القَرْنِ التّاسع عشـر والقَرْن العشرين في تطلُّعاتهـم النّهْضَويّة، ولن نَسْمَـعَ صَوْتاً وَاحِداً - في صُرَاخِ اليوم ونِزَاعَاتِه - يَخْتَلِفُ بشَكْلٍ ذي مَعْنىً عمّا تَنَادَى إليه مُثقَّفـو تلك الفَتْرَةِ من أَسْئلةٍ وحَيْرَةٍ وقَلَق. وهكـذا نَسْتطيعُ أنْ نقولَ إنّ «التَّجْرِبَةَ العربيّة» أَفْلَحَتْ - عَبْرَ قَرْنَيْنِ - في المُحَافَظَةِ على «الإشْكَاليّةِ النّهْضَويّة» بخَصَائِصِهَا ومُعْضِلاتِهَا فراحتْ تُرَاوِحُ مكانها، ولم يَتَغَيَّرْ شيءٌ ونحن نَدْلِفُ إلى العَقْدِ الثّاني من «الأَلْفيّة الثّالثة»، حيـث ما زِلْنَا نَطْرَحُ ذات السُّـؤال الذي طَرَحُوهُ في القَرْنِ التّاسع عشر الميلاديّ: (لماذا تَأَخَّرْنَا وتَقَدَّمَ غيرُنا؟).

أمّا الحقيقةُ المُحْزِنَةُ فهي أنّ «الإشْكَاليّة» قد ازْدَادَتْ عُمْقاً مع تَرَاكُمَاتٍ ومُسْتَجِدَّاتٍ تتفاقَمُ بفِعْلِ «عَامِلِ الزَّمَن» لتفْرِضَ ثِقلَهَا وأَسْئِلَتَهَا وحَيْرَتَهَا وضَبَابِيّتَهَا؛ وكُلُّ تلك الحقائِق

المَاثِلَةِ للعِيَانِ تُجْبِرُنَا على أنْ نَطْرَحَ السُّؤَالَ الأهمّ: (هل المُعَالَجَاتُ السّابِقَةُ بكُلِّ تَنَوُّعَاتِهَا، والتّجَـارِبُ الماضيةُ بـكُلِّ ألْوَانِهَا، كانتْ بعيـدةً في جوهرها عن طبيعـة الإشْكَالِ وحقيقة التَّحَدِّي ممّا جعلها عَاجِزَةً عن توفيرِ الحُلُول، وتَأْمينِ الخُرُوجِ من المَأْزِقِ الكبير؟).

ولأنّني أَتَّفِقُ – ابْتِدَاءً – مع محمد عابد الجابريّ[1] في تَصَوُّرِهِ بأنّ تَجَاوُزَ أيّ إشْكَاليّةٍ نظريّةٍ يَتِمُّ بـ(نَقْد الإشْكَاليّةِ القَائِمَةِ وتَفْكِيكِهَا بصُورةٍ تُمَكِّنُ من كَسْرِ بِنْيتِهَا وتَدْشينِ قطيعةٍ معهـا)، ولأنّني أَتَّفِقُ معه فـي رُؤيتِهِ بأنّ: (مُهِمّة المُثقّفِ العربيّ فـي الظُّرُوفِ الرّاهِنَةِ هي مُهِمّةُ إعَادَةِ التَّفْكيرِ في مَشْرُوعِنَا النّهْضَويّ انْطلاقاً من مُرَاجَعَةِ المفاهيم والتَّصورات في ضَـوْءِ الوَاقِعِ وتحت ضَوْءِ سِلاحِ النَّقْد)، فـإنّ الهَمَّ الرّئيسَ – في هذا الكِتَابِ – هو مُحَاوَلَةُ التَّعَـرُّفِ على عَنَاصِـرِ «إشْكَالِيّة التّنْمية» فـي «المُجْتمعات العربيّة»، وفَهْـمُ أسْبابِ فَشَلِ الجُهُـودِ المُضْنِيَةِ علـى طريق «التَّحَوُّل النّوْعِـيّ»، وتَمْحِيصُ «آليَّات العمليّـة النَّهْضَويّة»، والسَّعْـيُ إلى بَلْوَرَةِ مَحَـاوِرِ «المَأْزِقِ التَّنْمويّ» الذي يُجَابِـهُ «المُجْتمعات العربيّة» في زمن «العَوْلَمَـةِ»، والاهْتِمَامُ بتَأْصيلِ مفاهيم تَتَنَاغَمُ مع «الوَاقِـعِ الجديد» ومُقْتضياتِه، واقْتِراحُ «آليَّاتٍ عمليّةٍ» تُسْهِمُ في تَحْجِيمِ المَأْزِقِ وتَضْيِيقِ أبْعَادِه.

يَتَبَنَّى المُؤَلِّفُ – في هذا التَّوَجُّهِ – مَبْدَأَ تَأْصيلِ أَبْعَادِ «العُنْصُرِ الثَّقافيّ» في مُقَوِّمَاتِ «التَّرْكيبـة التَّنْمَويّـة» عبْر التَّرْكيزِ على تَحْقيـقِ التّكَامُلِ بين ثَالُـوث «التّنْمية – الثَّقافة – العِلْم» الذي تَسْتَنِدُ إليه مُقَوِّمَاتُ «الحياة المُعَاصِرَة»؛ فالهدفُ هو تَأْصيلُ «التّنْمية» عِلْميّاً، ودَمْجُهَـا عُضْويّاً في تفاعُـلاتِ المُجْتمع، ورَبْطُهَـا مَنْهَجِيّاً بجَسَدِ «الثَّقافـة» وديناميّتها، وذلـك عبْر جَمْـعِ خُيُوطِ الـرُّؤى والتّداعياتِ علـى «السَّاحَـةِ الثّقافيّة العربيّـة»، والرَّبْطِ بيـن مُعْطياتِها ووَاقِعِ حالِها وتوقُّعـاتِ مُسْتَقْبَلِهَا؛ وهي خُيُـوطٌ نَنْتَزِعُهَا من رَحِمِ «الثَّقافة العربيّـة» عبْـر رِحْلَتِهَا على مـدى قَرْنَيْنِ في لُهَاثِهَـا وراء «النّهْضَـة»، لنَنْسِجَ من كُلِّ ذلك تَكَامُلاً يُشَخِّصُ «مُشْكلة الوَاقِع»، ويَسْتَوْعِبُ «تَحَدِّياتِ الحَاضِـر»، ويَنْتَظِمُ مع «مُتَطَلَّبَاتِ المُسْتَقْبَل»؛ فالقَاعِدَةُ في هذا الكِتَابِ هي: (فَتِّشْ ثُمّ انْقُشْ، وأَسِّسْ ثُمّ ابْنِ).

لقـد احْتَلَّـتْ «المَسْأَلَـةُ الثَّقافيّـةُ» مَقْعَداً خَلْفيّـاً قِيَاسـاً باللّغَطِ السّياسـيّ والجَدَلِ الكلامـيّ والاهْتِمامـاتِ الفَلْسَفِيّـة، وانْشَغَـلَ العَالَمُ العربـيُّ بمعارِكِ التّحْريـر الوطنيّة،

وخلافـاتِ «التَّغْريب» و«التّعْريب»، وقلَـقِ «العَوْلَمة»، وصِراعَاتِ «الثُّنَائِيَّـات»، مِثْل «ثُنَائِيَّة التُّـرَاث والحَدَاثَـة»، وانْحَصَـرَتْ «مُشْـكلاتُ النَّهْضَة» و«قضايـا التّنْمية» فـي تَصَوُّرَاتٍ سياسيّـةٍ وثقافيّـةٍ واجْتماعيّـةٍ تَرَاوَحَتْ بيـن التّقْليديّ والمُسْتَـوْرَدِ، وصِرَاعَـاتٍ سُلْطويّةٍ فَرَضَتْ مُغَامَرَاتِهَا على الوَاقِعِ العربيّ، وجَدَلٍ كلاميٍّ ما زال يُنْهِكُ «المُجْتمعات العربيّة»، ويَسْتَنْفِدُ جُهُودَهَا، بينما راحتْ المُشْكلاتُ تَتَفَاقَمُ، والتَّحَدِّياتُ تَعْصِفُ، والهَزَائِمُ تَتَكالَب.

يَخْلُصُ هذا الكِتَاب إلـى أنّ المُعْضِلَةَ الأساسَ التي تُعَانِي منهـا «المُجْتمعاتُ العربيّةُ» هـي: «مُعْضِلَـةٌ ثقافيّـةٌ» بامْتيازٍ، ولكـنّ «الثَّقافة المَطْلُوبَـةَ» ليستْ أيّ تَخَرُّصَـاتٍ ثقافيّةٍ أو إرْهَاصَـاتٍ فِكْريّـةٍ، أو مُزَايَـدَاتٍ لَفْظيّةٍ غَائِمَةٍ عَائِمَـةٍ في سَمَاءٍ مُلَبَّـدَةٍ بالإجْهَاضَاتِ والنَّكَسَـاتِ والإحْبَاطَاتِ، ولكنّها - بالضّـرورة - ثقافةٌ ذات نَكْهَةٍ خاصّةٍ، ومزايا مُحَدَّدَةٍ، ومُقَوِّمَـاتٍ وَاضِحَةٍ، تُحَقِّـقُ «الاسْتِجَابَةَ» اللّازمـةَ لطبيعةِ «التّحَدِّي» القَائِـم، وتَتَوَافَقُ مع «رُوحِ العَصْـر»؛ ولذا يَهْتَمُّ المُؤلِّـفُ بسَبْرِ «العُيُوب البُنْيَوِيّة» فـي «الثّقافة العربيّة»، ليُؤكِّدَ أنّهـا - في مُجْمَلِهَا - مَسْؤولةٌ عن تَفَاقُـمِ «إشْكَالِيّة التّنْمية». وفي ثَنَايَا هذا الكِتَابِ يَسْعَى المُؤلِّفُ إلى بَلْوَرَةِ «قضيّةٍ غَائِبَةٍ»، وذلك بالرّغْم من أنّها قد تَجِدُ لها تَعْبيراً هنا، وتَحْبيذاً هنـاك، وإشَادَةً عند ذا أو ذاك، ولكنّها لم تَحْظَ بعْد بالدِّراسةِ المُعَمَّقَةِ والتَّركيزِ المُكَثَّفِ والتَّأسيسِ المُنْضَبِطِ والتَّأْصيلِ الموضوعيِّ والمُعَالَجَةِ الجَادّة؛ فهناك شيءٌ ما مُضْمَرٌ في النُّفُوسِ، ومُعَلَّقٌ في الهَوَاءِ، وغَائِمٌ في العُقُولِ، وهو ما زال يَنْتَظِرُ اللّحْظةَ المُوَاتِيَةَ ليَتَجَسَّدَ ويَتَبَلْوَرَ ويَنْزِلَ إلى الأرْض من عُلُوِّهِ التَّائِهِ، وحالته المَائِعَةِ، وعُمُوميّاته الضَّبَابِيّة.

طَـوَالَ قَرْنَيْنِ تعامل مُفكِّرُونَـا ومُثقَّفُونَا وسِياسِيُّونَا مع طُرُوحَـاتِ الغَرْبِ السّياسِيّة والاقْتصاديّـة والاجْتماعيّـة؛ فحاول بعْضهم تَفْنيدَهَا من ناحيةٍ، وحـاول آخَرون تَقْليدَهَا مـن ناحيةٍ أُخْـرى، وحاولتْ فِئَةٌ أُخْرَى تَطْويعَهَا من ناحيةٍ ثالثـةٍ، وناهضتْها فِئَاتٌ أُخْرى. وفي كُلِّ الحالات أَخْفَقَتْ المُحَاوَلاتُ، وتَبَدَّدَتْ الجُهُودُ، ودَفَعَتْ الأُمّة أثْمَاناً غَالِيَةً لتجارِبَ فَاشِلَـةٍ؛ فلـم يَتَقَدَّمْ العَالَـمُ العربيُّ إلى الأمام، ولـم يَتَغَيَّرْ وَاقِعُهُ، بَـلْ ازْدَادَ اعْتِمَادُهُ على الآخَريـن، واشْتَدَّ اسْتِهْلاكُهُ لثقافتِهم الغَازِيَـةِ ومُنْتَجَاتِهِمْ المُتَطَوِّرَة؛ وفي هذا الهَمِّ يقولُ برنارد لويـس (Bernard Lewis): (أَصْحَابُ التَّحْديث، عن طريـقِ الإصْلاحِ أو الثَّوْرَة،

رَكَّـزوا جُهُودَهُمْ على ثلاثة مجالاتٍ رئيسةٍ هي: العَسْكريّـة والاقْتصاديّة والسِّياسيّة. أمّا النَّتَائِجُ التي تَحَقَّقَتْ فقد كانتْ - على أقلِّ تَقْديرٍ - مُخَيِّبَةً للآمَال)[٣].

وأمّـا تَعَامُلُ «المُجْتمعات العربيّة» مع «العلوم والتّقْنية»، فقد أَخَذَ مَنْهَجاً اسْتِهْلاكيّاً بَحْتـاً يَتَوَافَقُ مع «رُوحِ الاسْتِهْـلاكِ» الكَامِنَةِ في أَعْمَاقِ «الثّقافـة العربيّة»؛ فاعْتَقَدَتْ هذه المُجْتمعـاتُ أنّ الحَاوِيَاتِ والصَّنَادِيقَ التي تَشْتَرِيهَا بأَثْمَانٍ بَاهِظَةٍ، وأنّ البَعْثَاتِ المُتَنَوِّعَةَ - التـي بَدَأَتْ ببَعثَةِ رفاعة الطّهطـاوي في أوائِل القَرْنِ التّاسع عشـر الميلاديّ، ونَشِطَتْ فـي القَرْنِ العشرين، وبَلَغَتْ أَوْجَهَا في مَطْلَعِ القَـرْنِ الواحد والعشرين -، وأنّ الاتّفاقيّاتِ الدَّوليـة والمُسَاعَدَاتِ الأُمَميّة والمؤتمراتِ العَالَميّة والثّـرواتِ الطّبيعيّة؛ كُلُّ ذلك سيَحُلُّ الأَزْمَـةَ، ويَكْشِـفُ الكُرْبَةَ، ويُزِيلُ الغُمَّة، إلاّ أنّ الحقائِقَ الحياتيّـة اليوميّة لواقِعِ «المُوَاطِنِ العربيّ» ومُشْكلاتِ «المُجْتمعات العربيّة» تُسَجِّلُ فَشَلاً ذَرِيعاً، وتَحْكِي قِصَصاً مريرةً تُؤكِّدُ وجود خَلَلٍ عُضْويٍّ في «مُعَادَلَةِ التّنْمية».

وهكـذا بَقِيَتْ الطُّرُوحَاتُ عن «النّهْضَةِ» و«التّنْميةِ» و«المَعْرِفَةِ» و«العلوم والتّقْنية» من قِبَـلِ شرائِح المُفكِّرين والمُثقّفين والسّياسيّيـن وحَامِلِيّ الهَمّ العامّ مُغْرِقَةً في عُمُومِيَّاتِهَا، وهَائِمَةً في مُصْطَلَحَاتِهَا، ومُكَرِّسَةً لما هو مَعْلُومٌ بالضّرورة في «الحياة المُعَاصِرَة»، ولكنّها فَاقِـدَةٌ للتَّأْصيلِ البُنْيـويِّ في التّفاعُـلاتِ الحياتيّـة، والاسْتراتيجيّة المُتَضَمِّنَـةِ لأولويَّاتِ المَسْأَلَة، والآليّاتِ اللّازِمَةِ للانْخِرَاطِ في مَسَارَاتِ التّنْفيذِ والتَّفْعيل. تلك الأُطُرُ المُتَدَاخِلَةُ لثَالُوثِ «التّنْمية - الثّقافة - العِلْم» هي الرُّبُوعُ التي يَهْتَمُّ المُؤلِّفُ - بجُهْدِ المُقِلّ - بتَحْليلِهَا وتأَمُّلِهَـا وتوضيحِ مَعَالِمِهَـا واسْتِكْشَافِ أَبْعَادِهَـا وجُذُورِهَا ومُقَوِّمَاتِهَا، مُؤمِّـلاً طَرْحَ رُؤيةٍ مُوَحَّدَةٍ مُتَضَافِرَةٍ تُعَرِّي سَبَبَ الخَلَـلِ، وتُشَخِّصُ أَسْبَابَ «الإشْكَاليّة»، وتُبَلْوِرُ خُطُوطاً عامّةً لـ«مَشْـرُوعِ النَّهْضَة» المَأْزُوم، وتَدْفَعُ إلى «مَشْرُوعٍ تَنْمَويٍّ» شَامِلٍ يَسْتَطِيعُ أنْ يَتَعَامَلَ - برِفْقٍ وجِدِّيَّةٍ - مع كُلِّ تلك التَّنَاقُضَاتِ والمُفَارَقَاتِ التي تَتَكَثَّفُ في قاعِ «الثّقافة العربيّة».

فـي ثَنَايَا هذا الكِتَابِ، نَجِدُ أنّ «السُّؤَالَ الثّقافـيّ - التّنْمَويّ» يَعْبَثُ في فَرَاغٍ مُتَرَامِيَ الأَطْـرَافِ إذا فَرَّغْنَـاهُ مـن «المُحْتَـوى العِلْمـيّ»؛ فإذا كانـتْ «رُوحُ العصْرِ» هـي «العلوم والتّقْنيـة»، فإنّ هذا - بالضّرورة - يَفْرِضُ أنْ تكون «رُوحُ الثّقافةِ المُعَاصِرَةِ» هي «الثّقافة

العِلْميّــة»؛ لنَخْلُصَ إلى أنّ «الثَّقافةَ العِلْميّةَ» هي «القضيّــةُ الغَائِبَةُ» في «الجُهُودِ التّنْمَوية» بأنْواعِهــا؛ فـ«البِنْيَــةُ العِلْميّــةُ» فــي «الثَّقافة العربيّة» بِنْيــةٌ هَشَّةٌ، ممّا يَجْعَـلُ من «الثَّقافة العِلْميّــة» عُنْصُــراً في حَاجَةٍ ماسَّةٍ إلــى التَّأْصيـلِ المُسْتَمرِّ والرِّعَايَةِ الدّؤوبـةِ والتَّكْريسِ الحَازِم، وأمّــا «الإشْكَاليّةُ الحقيقيّةُ» فهي في تَرْجَمَةِ تلك الرُّؤى إلى وَاقِعٍ يَنْبِضُ بالحياة، وإنْجازاتٍ تَتْرُكُ بَصَمَاتِهَا على الأَرْض.

تَأْسيســاً علــى مــا سَبَقَ، أقــولُ إنّه لو أَفْلَحَ هــذا الكِتَابُ فــي تَأْمينِ بُــذُورٍ لمِثْلِ تلك الرُّؤيةِ الجَامِعَــةِ، وتَأْسيسِ مَنْهَجِيّةٍ مُتَرابِطَةٍ لاسْتِنْبَاتِ «الثَّقافــة العِلْميّة» دَاخِلَ «البَوْتَقَةِ الجماهيريّة»، وتَأْصِيلِهَا دَاخِـلَ «المَنْظُومَةِ الثَّقافيّة»، عبْر اسْتراتيجيّةٍ حيويّةٍ لا تَسْتَجِيبُ فقــط للاعْتِبارات العمليّة والنَّفْعِيّة، ولكن تكونُ أيضاً جُزْءاً من عمليّةِ التّفْكيرِ والمُمَارَسَةِ والسُّلُــوكِ فــي مَنْظُومَةٍ مُتَنَاغِمَةٍ مــن «الثَّقافة التّنْمَويّــة» الفَاعِلَةِ على الأَرْضِ؛ أقولُ: لو أَفْلَــحَ هذا الكِتَابُ في بَلْــوَرَةِ شيءٍ من ذلك على طريق «المُسْتَقْبَــل»، فإنّه يكونُ بذلك قد أَسْهَــمَ في قَطْعِ خُطْــوةٍ مُهِمّةٍ على طريقِ الأَلْف ميــلٍ لتَأْصِيلِ «مَفْهُــوم الثَّقافة التّنْمَويّة»، وتَرْسِيــخِ تفاعُلاتِهِ فــي «بَوْتَقَةِ الوَاقِعِ العربيّ»، وتَكْوينِ «رُؤيةٍ مَعْرفيّــةٍ» تَهْتَمُّ بإرْسَاءِ «فِكْرٍ تَنْمَويٍّ» تكونُ وَقُودَهُ ومُحَرِّكَهُ «ثقافةٌ عِلْميّةٌ» مُتَغَلْغِلَةٌ في نسيجِ المُجْتمع، ومُتَأَصِّلَةٌ في بِنْيَتِهِ الفِكْريّة، ودَاعِمَةٌ لتفاعُلاتِهِ التّنْمَويّة والإنْتاجيّة والحياتيّة.

ولأنّ مــن أهمّ مــا يَخْلُصُ إليه المُؤلِّفُ هو أنّ «التَّنميــة» – في الأساس – ثقافةٌ ذات ملامــح مُعَيَّنَةٍ وخصائص مُمَيَّزَة، ولأنّ اللّغة الحاويــة الواعية هي «المَرْكَبُ» الذي يَحْمِلُ الثّقافة ويَسْتَوْعِبُهَا ويَنْشُرُهَا، فإنّها تُصْبِحُ ذات دَوْرٍ حاسم في تأسيس «التَّنمية» والتَّكَيُّفِ مع مُتَطَلَّبَاتِهَا. لقد راع المُؤلِّفُ ما تُعَانِي منه «اللّغةُ العربيّةُ» من انْتِهَاكَاتٍ لُغَويّةٍ، وتَشَوُّهَاتٍ في النُّطْقِ، وتَسْطِيحٍ في المعاني، وامْتِهَانٍ في الاسْتِخْدَام، لا يَسْلَمُ منه جَهَابِذَةُ المُتكلِّمين ونُخَبُ المُثقَّفين وفَطَاحِلَةُ الإعْلاميّين إلاّ من رَحِمَ ربِّي. وأما أحد أبرز أسْباب تلك الرَّزايا فهــو «غِيَــابُ التَّشْكِيلِ» فــي مُختلف النُّصُوصِ المَقْرُوءِ منهــا والمَسْمُــوعِ والمَرْئِيّ؛ ولذا حَرَصَ المُؤلِّفُ على جعْل هذا الكتاب مَشْكُولاً قَــدْرَ الاسْتِطَاعَةِ وبما يفي بما هو ضروريٌّ لإيضــاحِ النُّطْقِ السَّليم للكلمات، وإبْرَازِ المَعْنَى، وتَحْقيقِ الدَّلالَةِ، وتَقْليصِ درجة «التَّلَوُّثِ السّمْعِيّ – اللّغويّ». ونأملُ أن يكون ذلك خُطْوةً تُسْهِمُ في إقْنَاعِ أهْلِ اليَرَاعِ والفِكْرِ والثَّقافةِ

والإعْـلام بالاهْتمـام بهذا الجانب وبخاصَّةٍ في ظِلِّ تَوَافُرِ التِّقْنيـاتِ والمَرَاجِعِ التي تُيَسِّرُ الأمْـرَ وتُقَلِّلُ الجُهْد. ومن نافلة القول أنّ هذا الكتَـابَ، كغيره من أعْمال البشر، لن يَسْلَمَ مـن أخْطَاءٍ مَطْبَعِيَّةٍ ولُغَوِيَّةٍ، ولكنّ المُهِمّ هو بَـذْلُ الوَسْعِ والاسْتِطَاعَةِ لاسْتِدْرَاكِ ما يُمْكِنُ اسْتِدْرَاكُـهُ وتَقْلِيصِ هذه الآفـات، ويبْقى الأمل كبيراً في تَسَامُـحِ القارئ الكريم مع هذه الأخْطَاءِ، وتَفَهُّمِهِ لطبيعتِها.

واللهُ وليُّ التّوفيق.

المُؤلّف

الرّياض في غرّة شهر جمادى الأولى ١٤٣٧هـ

الموافق ٢٠١٦/٢/١٠م



إشْكَالِيَّةُ التَّنْمِيَة

١-١) مَدْخَل:

إنّ قضيّةَ النُّهُوضِ بـ«المُجْتمعات العربيّة» والأَخْذ بها على مسارات الرُّقيِّ والازْدِهَارِ والتَّقـدُّم قضيّـةٌ قديمةٌ مُتَجَدِّدَةٌ؛ فعبْـر المراحِل التّاريخيّة المُخْتلفـة، والأُطُر السّياسيّة المُتَعَدِّدَة، والمناهِج الفِكْريّة المُتَباينة، مَرَّتْ هذه القضيّة باجْتِهاداتٍ إصْلاحيّةٍ مُتَنَوِّعَةٍ، بعْضُهـا اهْتَمَّ بتَطْوير واقِـع مُجْتمعاته بأقلِّ الأضْرارِ المُمْكِنَـةِ، مُسْتَنِداً إلى معايير قِيميّةٍ إسْلاميّـةٍ مع مُرَاعَـاةِ التّقاليد السّائِدة، وبعْضُها تبنّى مَشْرُوعـاتٍ ثَوريّةً، رأتْ أنّ التّحرُّرَ مـن رِبْقَةِ الإحْبَاطِ والتَّخَلُّفِ يَكْمُنُ في نَسْفِ الواقِـع بكُلِّ قِيَمِهِ ومفاهيمِه واعْتباراتِه ليأتي بحَاضِرٍ جديـدٍ يَتَّجِهُ نحو مكاسِب المُسْتقبَل، ويَمْتَصُّ كُلَّ مُعْطيات «الحضارة الغَرْبيّة»، ويَتَبَرّأُ من تَركَة الماضي.

وبيـن ذَيْنَك المَوْقِفَيْـن المُتضادَّيْن، تَعَدَّدَتْ المحاولاتُ - التَّوفيقـيّ منها والتّلْفيقيّ - علـى الأَصْعِدَةِ السّياسيّة والاقْتصاديّة والفِكْريّـة والتّعْليميّة والثّقافيّة، وتفاوت تَأْثيرُ هذه المُحـاولات التـي كانـتْ - بطبيعتِها - تُمَثِّـلُ «رُدود فِعْلٍ» آنيّـةٍ وإجْراءاتٍ مُؤَقَّتَـةٍ للتّعامُلِ مـع ثَـوراتٍ عَارِمَـةٍ مُتلاحِقَةٍ في مجـالات العلوم الحديثـة والتّقْنية، والتّصـدّي لطُوفانٍ مُتلاطِـم مُتَجَدِّدٍ مـن «التيّارات الفِكْريّـة» المُصَاحِبَـةِ لـ«الغُزَاة الجُـدُد» القادمين تارةً بلَبُوسِ الاسْتعمار المُباشِر، وتارةً أُخْرى عبْر آليّاتٍ اقْتصاديّـةٍ وتقنيّةٍ وسياسيّةٍ لتَحْقيقِ مصالِحِهِم الاقْتصاديّة، وتَرْسيخِ هَيْمَنَتِهِم العَالَميّة، وتوطيد نُفُوذهم الدّوليّ.

لقـد شَهِدَ القَرْنَـانُ الماضيان أشْـكَالاً مُتَنَوِّعَةً من مُحاولاتِ «الإحْيـاء» و«النُّهُوض» فـي العَالَـمِ العربيّ، وجُهُـودِ مُقاومَـةِ الاسْتِعمـار الأوروبيّ، والسَّعـي نحو إعـادةِ تَشْكيلِ

«المُجْتمعـات العربيّـة» في ضـوءِ التّطوُّراتِ والتّغيُّراتِ فـي السّاحةِ العَالَميّـة، كما بَرَزَتْ «الدَّولـةُ القُطْريّةُ» بما وَاكَبَهَا من اهْتِمام بتَحْديثها وتوطيـدِ الانْتِماء إليها؛ ولكن بالرّغْم مـن كُلِّ تلك المُحاولات والتّغيُّـرات إلاّ أنّ «السُّـؤال النّهْضَويّ المِحْـوَريّ»[١] بَقِيَ مُهَيْمِناً علـى «الفِكْـر العربيّ» الحديـث، وحائِراً لا يجـدُ جواباً شافيـاً: (لمـاذا تَأَخَّرْنَا؟ ولماذا تَقَدَّمَ غيرُنا؟).

لقـد شَغَلَ هذا السُّؤالُ - بكُلِّ تداعياته الفِكْريّـة والسّياسيّة والعِلْميّة والاجْتماعيّة - أذْهان المُفكِّرين والمُثقَّفين والنّهْضَويين من مُخْتلف المشارِب على مدى قَرْنَيْنِ، فطَرَحَهُ سليم البستانيّ عام ١٨٧٠م قائلاً: (لماذا نحن في تَأَخُّرٍ؟)[٤]، وكَتَبَ جمال الدّين الأفغانيّ ومحمد عبـده في عام ١٨٨٤م عن «انْحِطَاطِ المُسْلِميـن وسُكُوتِهِم»[٥]، وتَسَاءَلَ عبد الله النّديـم في عام ١٨٩٢م: (بِمَ تَقَدَّمُوا وتَأَخَّرْنَـا والخَلْقُ واحِدٌ؟)[٦]، وضَـجَّ بالسُّؤال شكيب أرسـلان في عـام ١٩٣١م ليَجْعَلَهُ عنواناً لكِتابه: (لمـاذا تَأَخَّرَ المُسْلِمـون، ولماذا تَقَدَّمَ غيرُهـم؟)[٧]، وغيرُهم كُثُرٌ، حيـث راح السُّؤالُ ذاته يَتَكَرَّرُ على امْتِـدادِ القَرْن العشرين عبْـر طُرُوحاتٍ مُخْتلفةٍ، وأنْماطٍ مُتباينـةٍ، وحُلُولٍ مُتعارِضَةٍ، مُتَخَفِّياً تارةً وراء مَشْرُوعاتِ «نَقْد العَقْل العربيّ»، ومُتوارياً تارةً أُخْرى في «ثُنَائِيَّة التُّرَاث والحَدَاثَة»، ومُنْدَسَّاً تارةً ثالثةً فـي ثنايـا طُرُوحاتِ «إشْكَاليّة التّنْميـة» و«أَزْمَة العَقْل العربيّ»؛ ومـا زال السُّؤالُ مَطْرُوحاً بقُـوّةٍ أكْثر إصْراراً، وأشدّ إلْحاحـاً، ومُكْتَسِباً مزيداً من العُنْفُـوانِ والاضْطِرَابِ والتّعْقيدِ ونحن نُواكِبُ العَقْد الثّاني من «الأَلْفيّة الثّالثة».

يَتَلَمَّسُ شاكر مصطفى أَبْعادَ ذلك السُّؤال المُؤرِّق فيقول: (هذا السُّؤال المصيريّ، النّـازِف كالجُـرْحِ في ضمير كُلِّ عربيٍّ مُلْتَزم، إذا كان ما يـزال يَأْخُذُ يوماً بعد يوم أبْعاداً مَأْساويّةً مُتزايدةً فلأنّه قد مَضَتْ على ارْتِطَامِ هذه الأُمّة بالحضارة الحديثة وبمُعْطياتِها وآلاتِهـا سُنُونٌ بعيدةٌ بعيـدة. كُتْلَةُ الأقاليم العربيّـة مَضَتْ عليها الفتْـرةُ الزّمنيّةُ الكافيةُ لتكـون في مُسْتوى العَصْرِ وتكنولوجيّته وفَيْضِهِ الحضاريّ. مُعْظمُهَا على الأقلّ انْطَلَقَ قبْلَ الصّين التي بَدَأَتْ منذ رُبْعِ قَرْنٍ، بعْضُها قبل روسيا التي بَدَأَتْ منذ سبعين سنة، وبعْضُها قبْلَ اليابان التي بَدَأَتْ منذ مائة سنة. ومع ذلك فهذه الأُمم وَصَلَتْ. كُلُّها وصَلَتْ، بينما لم

يَصِلْ أيُّ إقليم عربيٍّ طليعيٍّ إلى شيءٍ بعْد. مَأْساويّة السُّؤالِ إنّما تَنْبُعُ من احْتمالاتِ الأجْوبة عليـه: فهل وَصَلَتْ الأُمّـةُ حقّاً مرْحلة الشَّيخوخة فهي إلى الإدْبـارِ والعُقْمِ الحضاريّ؟، أو أَضَاعَتْ الطّريق؟، وأنَّى طريق؟، أَمْ ثَمَّة من الأمْراضِ المُعَقَّدَةِ في تَكْوينِها العامّ، ما يَشُلُّ المفاصِل أنْ تَسِيرَ السَّيْرَ الذي يَقْتَضِيهِ إيقاعُ العَصْر؟. تلك هي المَسْأَلَة)[1].

أمّا مسعود ضاهر، فإنّه يرى أنّه: (رغْم مُرُورِ أكْثر من نِصْف قَرْنٍ على اسْتقلال مُعْظَم الـدُّول العربيّـة، فإنّ أَسْئلـة «النّهْضة العربيّة» ما زالـتْ مُعَلَّقَةً أو دون حَلٍّ جِـذْريٍّ)[8]، وأمّا برنـارد لويـس فيُبْحِرُ في خِضَمٍّ هـذه «المُعْضِلَةِ النّهْضَويّةِ» الضّارِبَـةِ أطْنابها في الكِيان العربيّ اللّاهِثِ خلْـف مسارات «التَّحْديث» بأنْواعها فيتساءَل: (سِرُّ نجاح الغَرْبِ لم يُحَلّ بعْـد. هـلْ يُمْكِنُ أنْ يكون هناك شـيءٌ أكْثر من تَحْديـثِ القُوّات المُسَلَّحَـة، والدَّولة التي تَحْكُمُهُـم، والاقْتصاد الذي يُغَذِّيهم ويُجَهِّزُهُم. في كلمةٍ وَاحِدَةٍ، هلْ هناك شيءٌ أكْثر من «الحَدَاثَة»؟)[٢].

١-٢) مُشْكلة المُصْطلح: بين «النّهْضَة و«التّنْمية»:

مع إطْلالة مُصْطلح «التّنْمية» بعد «الحَرْبِ العالميّة الثّانية» ليُصْبِحَ أبْرز الاهْتمامات السّياسيّـة والاجْتماعيّة في جميـع مناطِق العَالَم[٩]، فإنّ مُحـاولاتِ «النّهْضة» في العَالَمِ العربـيّ منذ الخمسينات مـن القَرْن الماضي تَبَنَّتْ «قضيّة التّنْميـة» لتَدْخُلَ هذه القضيّة فـي إطار الشِّعَـارَاتِ المَطْرُوحةِ والأهْدَافِ القوميّةِ والتّطَلُّعَـاتِ الوطنيّة، ولتُصْبِحَ الشُّغْلَ الشّاغِـلَ للخُطَطِ الخمسيّة والبرامِج السّياسيّة والخِطَـابِ الإعْلاميّ في مُخْتلف الأقْطار العربيّـة، مُمَثِّلَـةً بذلـك العُنْصر الأبْـرز والأهمّ فـي مُقَوِّمَـاتِ «النّهْضَة» التـي يَحْلُمُ بها المُفكِّرون، ويَعْمَلُ على تَحْقيقِها السّياسيون، ويَنْتَظِرُ عَوائِدَهَا المواطنون.

وأمّـا غازي القصيبي، فيـرى أنّ «التّنْمية» هي «قضيّة القضايا» في القَرْن العشرين فيقـول: (عبْر نِصْفِ قَرْنٍ ظَهَرَتْ كِميّةٌ هائِلَةٌ من الأدبيّات يُمْكِنُ أنْ نُسَمّيها، في مُجْمَلِهَا، «عِلْـم التّنْميــة»، أو بعِبارةٍ أدقّ، «علوم التّنْميـة». تَخَصّصَ في «التّنْميــة» أساتذةٌ، وبُنِيَتْ

لـ«التّنْميـة» مراكز بَحْث، وعُقِدَتْ لـ«التّنْمية» ندواتٌ ومؤتمـراتٌ، وظَهَرَتْ لـ«التّنْمية» لُغَة. باخْتِصَـارٍ أصْبَحَـتْ «التّنْميةُ» تَمْـلأُ الدُّنيا وتَشْغَلُ النّاس. هناك مـن دَرَسَ «التّنْمية» من جَانِبهَـا الاقْتصـاديّ، وهـؤلاء يُمَثِّلون الغالبيّـة العُظْمَى من الباحِثين، وهنـاك من اهْتَمَّ بالعَوامِـلِ السّياسيّة، وهناك من رَكَّـزَ على العناصِرِ النّفْسيّة، وهنـاك من حَلَّلَ الجَوانِب الاجْتماعيّة، وهَلُمّ جَرّا. إنّ القارئ في «أدبيَّات التّنْمية» سرْعان ما يجدُ نفْسه على ساحِلِ مُحيـطٍ هَائِـلٍ من الكُتُب لـه أوّل وليس له آخِـر)[١٠]. بطبيعة الحـال ليست العِبْـرَةُ بـ«الكَمّ»، سـواءً في إنْتَـاجِ الكُتُبِ أو غيره - بالرّغْم من دَلالَتِه -، ولكـن «الكَيْف» - في نهاية المطاف - هـو المُبْتَغَى والمَطْلَب، وهذا هو الهَـمُّ الأساس لهذا الكِتاب؛ وأمّا نادر فرجاني فيرى أنّ: (مُنْتَصـف السّبعينـات «من القَـرْنِ الماضي» شَهِدَ بدايـةَ حَمْلَةٍ مُراجَعَةٍ نَقْديّـةٍ لمَفْهُوم «التّنْميـة» ونماذِجِهَا لأَزْمَةِ جُهُود «التّنْمية» في العَالَـمِ الثّالث التي فَضَحَتْ قُصُورَ الأَبْنِية النّظريّة والتّنْفيذيّة لبرامِجِ «التّنْمية»)[١١].

قد يكونُ من المُناسِبِ أنْ نتوقَّفَ وَهْلَةً أمام ما يَطْرَحُهُ بعضهم من محاولاتٍ للفَصْلِ بيـن «مَسْأَلَة النّهْضَة» و«مَسْأَلَة التّنْميـة» والتّمْييز بينهما، ولقد أَقَرَّ محمد عابد الجابريّ بعُيُـوب مِثْـل هـذا الفَصْـلِ، وإنْ حاول أنْ يضعـه في إطارٍ نظـريٍّ، فـرأى أنّ «إشْكَالِيّات النَّهْضَـة» هـي «إشْكَالِيَّاتٌ فِكْريّـةٌ» بينما قضايـا «التّنْمية» هي: (قضايـا الواقِع، قضايا الاقْتصاد والاجْتماع والتّعْمير... الـخ)[١]. وعلى أيِّ حالٍ فإنّ «الواقِعَ» لن يَسْتَقيمَ ويَصْلُحَ حاله دون اسْتِقَامَـةِ «الفِكْر» الذي يُهَيْمِنُ على ساحتِه، ويُوَجِّهُ طاقاتِه، ويُحَفِّزُ اهْتماماتِه، وفـي نهايـة المطاف فإنّه «لا مُشَاحَّة فـي الاصْطلاح» وخاصّةً وأنّ كلمـة «النَّهْضَة» التي عَبَّرَ بهـا رُوّادُ «النّهْضَة» فـي القَرْنِ التّاسع عشر الميلاديّ عن مَشْرُوعِهـم النّهْضَويّ تتلاقى عند الجابـريّ مع كلمة «التَّمَـدُّن» حيث يقول: (أنْ نَنْهَضَ مَعْناه أنْ نَتَمَـدَّنَ، وأنْ نَتَمَدَّنَ مَعْناه أنْ نُواكِـبَ عَصْرَنَا، أنْ نُسايـرَ تطوُّرَهُ وتقدُّمَـه، أنْ نَقْتَبِسَ من مُنْجزاتِـه الفِكْريّة والماديّة)[١]. وأمّا نادر فرجاني فيجدُ مَخْرَجَهُ من أَزْمَةِ «الاصْطلاح» فيقول: («التّنْمية» عندنا مُرادِفٌ لـ«النّهْضَة»، والفارِقُ الأساسيُّ بينهما هو أنّ «التّنْمية» - كما نتصوّرها - هي جُهْدٌ قَصْدِيٌّ، بينمـا «النّهْضَة» هي طَوْرٌ مُجْتمعـيٌّ يَنْشَأُ في مُجْتمعٍ ما نتيجـةً لتفاعُلِ ظُرُوفٍ موضوعيّةٍ تِلْقائيّاً. أمّا «التّنْميةُ» فهي «عمليّةُ إنْهاض»، إذا شِئْنا)[١١].

مـن الواضِـح - إذاً - أنّ مُصْطلـح «التّنْميـة» يَرْتَبِـطُ بعوامِل التّخْطيـط والتّنْفيذ والمُتابَعـة التي تُفْرِزُ - عبْـر مُعْطياتها وتراكُماتها وتفاعُلاتها - تلـك «النّهْضَة الشّامِلَة» التـي كانتْ، وما زالتْ، حُلْمَاً يُراودُ «المُجْتمعات العربيّة». إنّ مُصْطلح «التّنْمية» مُصْطلحٌ جديـدٌ في لُغَة العَصْر، ولقـد ارْتَبَطَ - في بدايته - في «الفِكْر الغَرْبيّ» بمَنْظُورٍ اقْتصاديٍّ حيث عُرِّفَتْ «التّنْمية» بأنّها: (تَنْشيطُ الاقْتصاد القوميّ وتَحْويلُهُ من حالة الرّكُودِ والثّبَاتِ إلـى مرْحلة الحركـة والدّيناميكيّة عن طريـقِ زيادةِ مَقْـدِرَةِ الاقْتصاد القومـيّ لتَحْقيقِ زيادةٍ سنويّةٍ مَلْمُوسَةٍ في إجْمالي النّاتِج القوميّ مع تَغْييرِ هياكِل الإنْتاج ووسائِله ومُسْتوى العمالـة وتزايدٍ في الاعْتِمَادِ علـى القطاع الصّناعيّ والحِرَفِـيّ)[١٢]. وبالرّغْم من هَيْمَنَةِ هـذا «المَنْظُور الاقْتصاديّ» علـى «أدبيّات التّنْميـة»، بسبب معاييره الماديّـة ومُؤشّراته الكَميّـة، إلاّ أنّ «التّنْميـة» عمليّـةٌ مُتَكامِلَةٌ فهي: (عمليّـةٌ حضاريّةٌ شَامِلَـةٌ لمُخْتلف أوجه النّشـاط في المُجْتمـع بما يُحَقِّقُ رفاه الإنْسـان وكرامته، و«التّنْمية» أيضـاً بِناءٌ للإنْسان وتَحْريـرٌ له وتَطْويرٌ لكفاءاتِـه وإطْلاقٌ لقُدراتِه للعمـلِ البَنّـاء، و«التّنْمية»كذلك اكْتِشَافٌ لمَـوارِدِ المُجْتمع وتَنْميتُها والاسْتِخْـدَامُ الأَمْثَلُ لها من أجْل بِنَاءِ الطّاقة الإنْتاجيّة القَادِرَةِ على العطاء المُسْتمرّ)[١٢].

مـن المُهِمّ - أيضاً - أنْ نَعْتَرِفَ - لأغْراضٍ عمليّـةٍ ومَنْطقيّةٍ - أنّ المُشْكلة لا تَكْمُنُ فـي المُصْطلحات، ولكن المُشْكلة تَتَجَسَّدُ في المُجْتمع الذي اسْتَفْحَلَتْ مشاكِلُهُ وتعاظمتْ تحدّياتُـهُ مهما تَنَوَّعَتْ المُصْطلحات وتوالـدتْ التّعْريفات وتَشَعَّبَتْ المَقُولات. ليس المُهِمّ هنـا المُسَمَّيات، ولكن المُهِمّ التّحقُّق من كُنْهِ المَسْأَلَـةِ وسَبْرِ أغْوَارِهَا، وهذا هو «المَنْهَجُ العِلْمـيُّ» الأصيلُ كما يُوَضِّحُ ريتشارد فاينمان (Richard Feynman) بقوله: (بإمْكانِك أنْ تَعْـرِفَ اسْـم الطَّير بكُلِّ لُغَات العَالَم، ولكنّك عندما تَنْتَهي مـن ذلك فإنّك لن تَعْرِفَ شيئاً علـى الإطْلاق عن الطَّير، ولكن دعونا نَنْظُرُ إلـى الطَّير ونَرْقُبُ ما يَفْعل، وذلك هو المُهِمّ. لقد تَعَلَّمْتُ منذ وَقْتٍ مُبَكِّرٍ الفَرْقَ بين أنْ تَعْرِفَ اسْمَ شيءٍ ما، وبين أنْ تَعْرِفَ شيئاً ما)[١٣].

١-٣) الحالة العربيّة:

لعلّ من العَجَبِ العُجَابِ في واقِعِ «المُجْتمعات العربيّة» أنّه بالرّغْم من مُرُورِ ما يَرْبُو على نِصْفِ قَرْنٍ منذ أنْ غزا مُصْطلح «التّنْمية» الأدبيّات السّياسيّة والاقْتصاديّة والاجْتماعيّة في العَالَم العربيّ، وما واكَبَ ذلك من تغيُّراتٍ سياسيّةٍ ومَشْروعاتٍ صِناعيّةٍ ومُنْجزاتٍ عِمْرانيّةٍ وتَشْييدٍ للبُنَى التّحْتيّة، إلاّ أنّ المضامين الحقيقيّة لـ«التّنْمية» في إحْداثِ قَفْزاتٍ جوهريّةٍ ونَقْلاتٍ نوعيّةٍ عبْر تَأْسيس قَاعِدَةٍ إنْتاجيّةٍ تَسْتَنِدُ إلى قُدراتٍ ذاتيّةٍ رَاسِخَةٍ ومُتَطوِّرَةٍ باسْتمرارٍ بَقِيَتْ حُلْماً يُراودُ الجميع، وسَرَاباً تَلْهَثُ وراءه الجُهُودُ وتُمَجِّدُهُ الكلماتُ حتّى إذا جاءته لم تَجِدْهُ شيئاً. أمّا أحد أبْعاد هذه «الإشْكالِيّة» فيَكْمُنُ في ظَاهِرَةِ الحالة البَائِسَة لـ«البَحْثِ العِلْميّ» في العَالَمِ العربيّ التي وَقَفَ أمامها راشد المبارك مُسْتَغْرِباً ومُتَعَجِّباً وحَائِراً حيث يُقَرِّرُ أنّه: (في البلاد العربيّة وحدها ما يَقْرُبُ من مائة وخمسين جامعةً تَضُمُّ ما لا يَقِلُّ عن ألْف كُليّةٍ جامعيّةٍ يَعْمَلُ بها ما قد يزيدُ عن مائة وخمسين ألْفاً من أعْضاء هيئة التّدريس، فإذا كان نِصْفُ هذا العَدَد يَعْمَلُ في مجالِ «العلوم البحْتة والتطْبيقيّة» مِثْل كُليّات العلوم والهنْدسة والطّب والزّراعة والصّيدلة، وكان كُلُّ عضو هيئة تدريس لا يَنْشُرُ أكْثر من بَحْثٍ وَاحِدٍ كُلّ عامين، فإنّ ذلك يَعْنِي وجود ما لا يَقِلّ عن خمسة وثلاثين ألفاً من الأبْحاث تُنْشَرُ في العام الوَاحِد، وهذا عدا ما يُمْكِنُ أنْ يُنْجَزَ في مراكِز البَحْثِ التّابِعَةِ للجامعات والمُسْتَقِلّة عنها، ويَمُدُّ المرء بصره ليرى أثر ما يجبُ أنْ يكون أو ما يُمْكِنُ أنْ يكون من تَأْثير هذه الأبْحاث في تقدُّم البلاد العربيّة العِلْميّ والصّناعيّ والاقْتصاديّ وفي المجالات الأُخْرى، فتَمْلأه الدَّهْشَةُ والذُّهُولُ لضعْف - إنْ لم يكنْ انْعدام - التَّوازُنِ بين ما يُنْتَظَرُ من هذه الأبْحاث، وبين ما عليه البلاد العربيّة من حال)[١٤].

لعلّ أبْرز مُعَوِّقَاتِ «الحركة التّنْمويّة» في العَالَمِ العربيّ ما يُقَرِّرُهُ غازي القصيبي بقوله: (لم تكنْ «التّنْمية» سوى نَقْلٍ عَشْوائيٍّ مَحْمُومٍ يَتِمُّ بدون رُؤيةٍ صافيةٍ، وبدون نَظْرَةٍ شَامِلَةٍ، وبدون أهْدافٍ وَاضِحَة. كان من المَحْتُوم، والحالة هذه، أنْ تكون النّتيجة كما رأينا نُمُوّاً غير مُنَظَّمٍ أفاد الأقليّة وترك الأغلبيّة السّاحِقَة كما وجدها. من تَحْليل نتائِج

النُّمـوّ الأعْمى برزتْ شيئاً فشيئـاً الفلْسفة الجديدة التي تُنادِي بوَضْعِ «التّنْمية» في خِدْمَةِ النّاسِ بَدَلاً من تَسْخِيرِ النّاس لخِدْمة «التّنْميـة»)[١٠]. ولعلّ تَعْريف مُصْطلح «الإشْكَاليّة» - فـي حَدِّ ذاتـه - يُلْقِي بعْض الضّوء علـى مَأْزِقِ «الفِكْـر العربيّ» فيما يَخُصُّ «المَسْأَلَةَ التّنْمَويّـة»؛ فإذا اعْتَمَدْنَا تَعْريفَ محمد عابد الجابـريّ لمُصْطلح «الإشْكَاليّة» الذي يُقَرِّرُ أنّ: («الإشْكَاليّـة» هـي مَنْظُومـةٌ من العَلاقَاتِ التـي تَنْسِجُهَا، داخِل فِكْـرٍ مُعَيَّنٍ، مشاكِل عديـدةٌ مُترابِطَةٌ لا تتوافـرُ إمْكانيّة حَلِّها مُنْفَرِدَةً ولا تَقْبَلُ الحَلّ، من النّاحية النّظريّة، إلاّ في إطـار حَلٍّ عامٍّ يَشْمَلُهَا جميعاً)[١]، فإنّنا نُدْرِكُ ساعتهـا طبيعة المُعْضِلَة التي جَابَهَتْ وتُجَابِـهُ العَالَـم العربيّ في مُحاولاته النَّهضَويّـة وتجاربه التّنْمويّة - علـى مدى قَرْنَيْن - انْتَهَتْ كُلّها بأثرٍ لا يكادُ يُذْكَرُ على مُجْمَلِ «الحالة العربيّة».

لقـد بَيَّنَ مالك بن نبيّ[٢] أنّ المُشْكلة - عبْر الحقْبة النّهضَويّة - كانت تَكْمُنُ في أنّ (كُلّ ذلـك التَّشْخيصِ لا يتناولُ في الحقيقة المَرَضَ بَلْ يَتَحَـدَّثُ عن أَعْرَاضِه)، ويُوضِّحُ مالـك بن نبـيّ التّفاصيل فيقول: (مـن المُمْكِـنِ أنْ نَفْحَصَ الآن سِجِـلاّتِ هذه الحقْبة، ففيها كثيرٌ من الوثائق والدِّراسات، ومقالات الصُّحف، والمؤتمرات التي تَتَّصِلُ بموضوع «النّهْضَـة». هذه الدِّراسات تُعالِجُ الاسْتِعْمَارَ والجَهْلَ هنا، والفقْرَ والبُؤْسَ هناك، وانْعِدَامَ التّنْظيمِ واخْتِلالَ الاقْتصادِ أو السّياسةِ في مُناسبةٍ أُخْرى، ولكن ليس فيها تَحْليلٌ مَنْهجيٌّ للمَرَض، أَعْنِي دِراسةً مَرَضِيّةً للمُجْتمع الإسْلاميّ، بحيث لا تَدَعُ مجالاً للظَنّ حول المَرَضِ الـذي يَتَأَلَّـمُ منـه منذ قُرُون). إنّه مـن المُحْزِنِ - ونحن فـي بدايات «الأَلْفيّـة الثّالثة» - أنْ نجـد أنّ الوَضْـعَ لـم يَتَغَيَّـرْ عن ذلك الوَصْـفِ الذي طَرَحَـهُ مالك بن نبيّ فـي أواخِرِ أربعينـات القَرْن الماضي، فلقد بَقِيَ التّعامُلُ مع الأعْرَاضِ دون تَشْخيصِ المَرَضِ ووَصْفِ الدَّواء، وبَقِيَتْ أبْرز صِفَـاتِ «المَشْرُوع النّهْضَويّ» بأنّه، كما يقول محمد الميلي: (مُوغِلاً فـي التّنْظيـر وشديد التَّعْميـم)[٨]؛ وهذا هو الدَّافِـعُ إلى تَأْليفِ هذا الكِتَـابِ حيث يَسْعَى المُؤلّـفُ - عبْـر فُصُوله - إلى التّعامُلِ مـع هذه «الإشْكَاليّة» بمَنْهجيّـةٍ وَاضِحَةِ العناصِر، ومُحَـدَّدَةِ الأُطُر، عبْـر صَهْرِ تفاعُلاتِ المُثقَّفيـن وطُرُوحاتِ المُفكِّريـن، وتَسْليطِ الضّوء على المُؤثِّـراتِ الحقيقيّةِ وراء تلك المُعانَـاةِ الفِكْريّةِ والمَخَاضِ التّنْمَـويّ، وبَلْوَرَةِ الرُّؤْيةِ المُسْتَقْبَلِيّةِ المُنْسَجِمَةِ مع تلك الإرْهاصات، والمُتَناغِمَةِ مع طبيعة التّحدّيات.

إنّ «تَحَـدِّي التّنْمية» لا يُجابهُ «المُجْتمعـات العربيّة» وَحْدَهَا لأنّه ليس فقط الهَاجِسَ المُقيـمَ لكُلِّ «الدُّول النّامية»، ولكنّه أيضاً حالة أَرَقٍ يوميّةٍ لـ«الدُّول المُتَقَدِّمَة» وهي تُراجِعُ - بشَـكْلٍ مُكَثَّـفٍ ودَؤوبٍ - كفاءتهـا التّنافُسيّـة ومعايير تَنْميتها ومقاييـس تقدُّمها، وهي فـي حالة قَلَـقٍ دائِمٍ خَوْفاً من الانْزِلاقِ إلى أسْفَلِ «سُلَّـم التّنْمية» بالمُقارَنَةِ مع منافسيها. ولـذا فلا صِحَّة لما قد يَعْتَقِدُهُ بعضهم - في ضوء إخْفاقات مُجْتمعاتٍ عديدةٍ في تَأْسيسِ «البِنْيـة التّنْمَويّة» الصَّلْدَة - أنّ هناك «مَنْظُومةً سِحْريّـةً» لا تَمْتَلِكُهَا إلاّ مُجْتمعاتٌ مُعَيَّنَةٌ مـن الشُّعُـوبِ المُخْتَارَةِ التـي تَقَعُ غَالِباً في النِّصْـفِ الشّماليّ من الكُـرَةِ الأرْضيّة، أو أنّ هنـاك «إجْـراءاتٍ سِرِّيّـةً» بَقِيَتْ حِقَباً من الزّمـن - وما زالتْ - في حَـوْزَةِ القُوى الغَالِبَةِ المُهَيْمِنَةِ في «الألْفيّة الثّالثة». ومن ذلك المُنْطَلَقِ فإنّ من المُهمّ - بداية - أنْ نَتَلَمَّسَ أبْعَادَ هـذه «الإشْكَاليّة التّنْمَويّة» ونَتَعَرَّف على جُذُورِها، ثـمّ نُلْقِي نَظْرَةً سريعةً على المُحاولاتِ المُتَنَوِّعَـةِ خلال القَرْنَيْـن الماضِيَيْن لانْتِشَـالِ «المُجْتمعات العربيّة» من هـذا «المَأْزِق»، والخُرُوجِ بها من متاهات التَّخَلُّفِ والإحْباط.

١-٤) أبْعَادُ «إشْكاليّة التّنْمية»:

إنّ التّعْقيـداتِ المُحيطـةَ بعمليّة «التَّنْميــة»، وتداخُلاتِها المُتَعَـدِّدَةَ المحاوِر، تَجْعَلُ مـن الصّعْبِ الإحاطة بكُلِّ التّفاصيلِ والتُّخُـومِ والرّكَائِزِ المُرْتَبِطَةِ بـ«إشْكَاليّة التّنْمية» في «المُجْتمعـات العربيّة»، فكما يقولُ أسامة عبد الرحمن: (فالتّخلُّفُ حَصِيلةٌ من الأمْراض الاجْتماعيّـة والاقْتصاديّـة والسّياسيّة والإداريّـة والثّقافيّة، وهَلْ «التّنْميــة» إلاّ تَشْخِيصٌ وعِلاجٌ لكُلِّ تلك الأمْراض، وكيف لا تكونُ «التّنْمية» بعد كُلِّ هذا عمليّةً مُعَقَّدَةً ومُسْتَعْصِيَةً، وكيـف لا تَسْقُطُ مُحاولاتُ «التّنْمية» أو يُصِيبُهَـا الإحْبَاطُ والوَهَنُ حين يكونُ هناك تهاونٌ فـي التّشْخِيصِ أو قُصُورٌ في العِـلاج، أو حين تكونُ خُطَطُ «التّنْميــة» تَصَوُّراتٍ تَبْسيطيّةً جُزْئِيّةً سَاذَجَةً قد لا تَخْرُجُ عن دَائِرَةِ الأَمَانيّ أو أضْغَاثِ الأحْلام؟)[١٢].

وهكذا يُصْبِحُ من المُهـمّ لأيّ مُعالَجَةٍ جادّةٍ لتَحْليلِ هذه القضيّة المصيريّة وفَهْمِهَا أنْ تَلْجَـأَ إلى «مُحاولاتِ التّفْكيك»؛ ولذا فإنّنا نَطْرَحُ هنا ثلاثة أَبْعَادٍ تُسْهِمُ في الكَشْفِ عن

مدى عُمْقِ هذه «الإشْكَالِيّة» وتَجَذُّرِهَا في الوجود العربيّ، وهي:

- الواقِعُ التّنْمَوِيّ في العَالَمِ العربيّ.
- البُعْدُ الفِكْرِيّ.
- البُعْدُ العَمَلِيّ.

١-٤-١) الواقِعُ التّنْمَوِيّ في العَالَم العربيّ:

إنّ المُراقِبَ للأوضاعِ في «المُجْتمعات النّامية»، بما فيها «المُجْتمعات العربيّة»، يجدُ أنّها تُعانِي – في المقام الأوّل– من مُشْكلةٍ في طرائِقِ التّعامُلِ مع أبْعَادِ «التّنْمية»؛ فهي تَتَحَوَّلُ بشَكْلٍ مُطَّرِدٍ إلى مُجْتمعاتٍ «اسْتِهْلاكيّةٍ» تَعْتَمِدُ في احْتياجاتِها المُخْتلفة، وأنْمَاطِ حياتِها المُتَنَوِّعَة، على مُعْطياتِ «الدُّول المُتَقَدِّمَة» ومُنْتَجاتِها، والمُلاحَظُ أنّ الفَجْوَةَ تَتَفَاقَمُ بشَكْلٍ مُتسارِعٍ بين «الدُّول المُتَقَدِّمَة» (دُول الشَّمال) وبين «الدُّول النَّامية» (دُول الجنوب)، وهي فَجْوَةٌ تَعْتَمِدُ في أسْبابِها على «التَّطَوُّر العِلْميّ – التّقنيّ – المَعْلُوماتيّ» الذي تُعايشُهُ وتَصْنَعُهُ «الدُّول المُتَقَدِّمَة»، بينما تُعَانِي «الدُّول النَّامية» – بدرجاتٍ مُتفاوتةٍ – من عَجْزٍ في القُدْرَةِ على اسْتيعابِ عناصِرِ هذه الحركة الدَّؤوبة، والتّعامُلِ معها مَعْرفيّاً، وثقافيّاً، وفِكْريّاً، واجْتماعيّاً، واقْتصاديّاً.

أمّا المُحْزِنُ في الأَمْرِ، فهو أنّ هذه الحال ليست بجديدةٍ على الواقِعِ العربيّ وتُخُومِهِ الإسْلاميّةِ، فهي حالةٌ اسْتَشْرَتْ في هذه المُجْتمعات، وتَفَاقَمَتْ على مدى قُرُونٍ؛ ونجدُ أنّ برنارد لويس يَصِفُ حال «الدّولة العُثْمانيّة» في القَرْنِ السّابع عشر الميلاديّ فيقول: (لقد كانتْ «المَعْرِفَةُ» شيئاً يُقْتَنَى أو يُخَزَّنُ وإنْ كان لِزاماً يُشْتَرَى، وليس شيئاً يُسْتَنْبَتُ أو يُطَوَّر)[٢]. هذه هي الحقيقة التي تَتَأَكَّدُ لدى محمد عابد الجابريّ الذي يرى أنّ: (مُشْكِل النّهْضة كما يُعانِيه العرب اليوم إنّما يجدُ مَصْدره ومُكَوّناته في التّناقُضِ الذي يُمَيِّزُ الوَضْعَ العربيّ الرّاهِن: التّناقُضُ بين مظاهِرِ الحضارة الحديثة كما يعيشونها على مُسْتوى الاسْتِهْلاك، وبين مظاهِرِ التَّخَلُّفِ كما يُعانُونها على مُسْتوى الإنْتاجِ والسُّلُوكِ والتَّفْكير)[١].

وأمّــا بالنِّسْبَةِ للمُراقِبِ العاديّ لأوضاعِ العَالَم العربيّ، فإنّه ليس في حاجَةٍ إلى دليلٍ لتَأْكيدِ حالــة «العَجْزِ العربيّ» بانْعكاساتها الحياتيّة والسّياسيّــة والاقْتصاديّة والعَسْكريّة والمعيشيّــة، ومــا يُصَاحِبُ ذلك من إحْبَاطَاتٍ ومُشْكِلاتٍ وهَــزّاتٍ على مُخْتلفِ الأصْعِدَة، وقد يكونُ الإتْيانُ بأدِلَّةٍ وشَواهِد في هذا المِضْمار هو من باب التَّحَدُّثِ عن بدهيّاتٍ فيكون الحالُ كما قال شاعرُنا:

وليس يصِحُّ في الأَفْهَامِ شيءٌ إذا احْتَاجَ النّهَارُ إلى دَليلِ

ولأنّنا هنا في مقامِ «دِراسةٍ موضوعيّةٍ» تَهْتَمُّ بالتّأْسيسِ العِلْميّ، والتّوثيقِ المُنْضَبِط؛ فمــن الضّروري إيرادُ شيءٍ مــن الأدِلّةِ والدِّراسات، واسْتِقْــرَاءُ النّتائِج من شَواهِد عِلْميّةٍ ومُؤشِّراتٍ موضوعيّة.

تُشِيــرُ «الدِّراســات التّنْمَويّة» إلــى جَوانِبِ قُصُــورٍ مُتَعَدِّدَةٍ في أوضــاعِ «المُجْتمعات العربيّــة» في مجــالاتِ «التّنْميــة» المُخْتلفة، ومــن أبْرز هــذه الدِّراسات «تَقْريــرُ التّنْمية الإنْسانيّــة العربيّــة للعام ٢٠٠٢ م»[١٥]، الصّــادر عن «برْنامج الأُمم المُتَّحــدة الإنْمائيّ»، الذي يُبْرِزُ مجْمُوعةً من السّلْبيّات من أهمِّها:

١) النُّموُّ في دَخْلِ الفَرْد العربيّ هو الأدْنَى في العَالَمِ عبْر العشرين عاماً الماضية حيث سيحْتاجُ المُواطِن العربيّ إلى ١٤٠ عاماً ليُضاعِفَ دَخْلَهُ، بينما مُواطِن شَرْق – آسيا أو الصّين يُضاعِفُ دَخْلَهُ في غُضُونِ عشرة أعْوامٍ فقط. تُوَضِّحُ الدِّراسة – أيضــاً – أنّ ممّــا يَحُدُّ مــن إمْكانيّة النُّمــوّ المُسْتقبَليّ في العَالَــم العربيّ هو «انْخفاض الإنْتاجيّة»، بَلْ وتراجُعها خلال السّنــوات الماضية بحيث أَصْبَحَتْ أقلّ ممّا هو الحال لدى مجْموعات الدُّول النَّامية الأخْرى.

٢) تَبْلُــغُ «الأُمِّيّــة» في بعْض الــدُّول العربيّة إلى حوالــي ٦٠٪، ويَبْلُغُ عَــدَد الأُمِّيّين العرب ٦٠ مليون أُمِّيٍّ من البَالِغين ومُعْظمهم من النِّساء.

٣) تُعانــي مُعْظَمُ البلدان العربيّة من مُعَدَّلات بَطَالَةٍ تزيدُ عن ١٠٪، وهي من أعْلَى النِّسَبِ في العَالَم، والفَجْــوَةُ كبيرةٌ بين مُخْرَجَاتِ النُّظُمِ التّعْليميّة واحْتياجاتِ

أسْــواق العمــل، ويزيدُ من اتِّسَاعِ الفَجْــوَةِ التّغيُّرُ السّريعُ فــي احْتياجاتِ «سُوق العمل» النّاجِمِ عن «العَوْلَمَة»، وعن مُتَطَلَّباتِ التّقْنيات سريعة التّطوُّر.

أمّــا أسْبَابُ هــذه «الأَزْمَةِ التّنْمويّةِ» فــي المَنْطقة العربيّة فيَعْزُوهــا التّقْريرُ[١٥] إلى نَواقِص ثلاثة:

١) النّقْصُ في الحُريّات السّياسيّة والمَدَنيّة.

٢) النَّقْصُ في تَمْكين المرأة.

٣) نَقْصُ القُــدرات الإنْسانيّة المُتَمَثِّلُ في قُصُورِ اكْتِسَــابِ «المَعْرِفَة»، ناهيك عن إنْتاجها.

ولقد صَدَرَتْ بعد هذا التّقْرير تقاريرُ مُتتاليةٌ تَتَقَصَّى أوجه أُخْرى للسّلبيّات، وتُفيضُ في دَلالاتِها ومُؤشِّراتِها وتَبِعَاتِهَا، إلاّ أنّ الأسْبَابَ الأهمَّ تَبْقَى مُرْتَبطةً بتلك النَّواقِص التي أَكَّدَ عليها هذا التّقرير، وأَسْهَبَتْ في تفاصيلها التّقاريرُ المُتعاقِبة.

إنّ العَامِــلَ الأبْــرزَ بين هذه النَّواقِص هو «العَامِلُ الثّالِــث»، وسيتَّضِحُ في سِياق هذا الكِتَــاب أنّ الأَسْبَــابَ التــي أَدَّتْ إلى وجوده هــي الأَسْبَــابُ نفْسها التي عَمَّقَتْ مــن تَأْثير السَّبَبَيْــن الآخَرَيْن، كما سنُبَيِّــنُ أنّ التَّغَلُّبَ على «العَامِلِ الثّالث»، وهو «النَّقْصُ المَعْرِفيّ»، يقــودُ بطبيعتِــه إلى مُعَالَجَةِ قَــدْرٍ كبيرٍ مــن النّقْصِ فــي العَامِلَيْن الآخَرَيْــن: «الحُريّات» و«تَمْكين المرأة».

١-٤-٢) البُعْدُ الفِكْريّ:

لقد انْشَغَلَتْ الأُمّةُ الإسْلاميّةُ بقضايا «النّهْضَة» و«الإصْلاح» و«التّحْديث» منذ أواخِر القَــرْن الثّامــن عشر الميلاديّ عندما بَــدَأَتْ علاماتُ الوَهَنِ والتّآكُلِ تَضْــرِبُ في أطْنَابِ الدَّولــة العُثْمانيّة[١٦]، وبَرَزَ «النّمُوذَجُ الحضــاريُّ الأوروبيُّ» بصفته نَمُوذَجاً مُهَيْمِناً بسبب إنْجــازاتِ «الثَّوْرَةِ العِلْميّة – التّقنيّة» التي هَيّأَ العَالَمُ الغَرْبيُّ أسْبابَها، واسْتَثْمَرَ مُعْطياتِها،

وحَقَّقَ - عبْرها - مكاسِب اقْتصاديّةً وهَيْمَنَةً عَسْكريّةً، وعَاصَرَ - من خلالها - تغيُّراتٍ جِذْريّةً وتطوُّراتٍ عميقةً على الأصْعِدَةِ الاجْتماعيّةِ والسّياسيّةِ والفِكْريّةِ والحياتيّة.

إنّ الوَعْيَ بحالةِ الإحْبَاطِ والتّقَهْقُر، وقَسْوَةَ الصَّدْمَةِ إزاء تَفَوُّقِ «النَّمُوذَجِ الغَرْبيِّ»، أَجْبَرَا المُفكِّرين والسّياسيين وعُلماءَ الدِّين - في العَالَمِ العربيّ - على الاهْتِمَامِ بتَشْخيصِ الحالة، وطَرْحِ وسائل للنُّهُوضِ بالأُمّة، والتَّغَلُّبِ على أسْبَابِ الضَّعْف، والتّفاعُلِ مع مصادرِ القُوّة. وفي هذا الإطار تَبْرُزُ «المُشْكلةُ الفِكْريّةُ» - بظِلالِهَا الكثيفة - عبْر «ثُنَائِيَّةِ الأَصَالَةِ والمُعَاصَرَة» التي أَرَّقَتْ «الفِكْر العربيّ» على مدى عُقُودٍ طويلةٍ، ويَتَحَدَّثُ عنها محمد عابد الجابريّ فيقول: (المُشْكِلُ الذي يُواجِهُنَا ليس مُشْكِل أنْ تَخْتَارَ بين أحد نَمُوذَجَيْنِ ولا مُشْكِل أنْ نُوَفِّقَ بينهما، بَلْ إنّ المُشْكِلَ الذي نُعانِيه هو مُشْكِلُ الازْدواجيّة التي تَطْبَعُ كُلَّ مَرافِق حياتنا الماديّة والفِكْريّة، لا، بَلْ المُشْكلة في الحقيقة هي ازْدواجيّة مَوْقِفِنَا من هذه الازْدواجيّة: نحن نَقْبَلُ هذه الازْدواجيّة على صعيد واقِعنا الاقْتصاديّ والاجْتماعيّ والسّياسيّ والتّعْليميّ فنَبْنِي مُخطّطاتِنا التّنْمَويّة على أساسِ تَنْمية هذا الواقِعِ المُزْدَوَج: نَصْرِفُ على «القطاعات العَصْريّة» من أجْل تَدْعيمها وتوسيعها باسْم «التَّحْديث»، كما نَصْرِفُ على «القطاعات التَّقْليديّة» من أجْل الإبْقَاءِ عليها وإحْيَاءِ المُنْدَثِرِ منها باسْم «الأَصَالَة» والحِفاظِ على التّقاليد، ولكننّا في الوَقْت ذاته، نَرْفُضُ هذه الازْدواجيّة على صعيدٍ آخَر: صعيد الحياة الرُّوحيّة والفِكْريّة)[١].

وهكذا في ظِلِّ الأَفْعال ورُدود الأَفْعال تَعَدَّدَتْ المَواقِفُ، وتباينتْ الاجْتِهاداتُ، وتَشَعَّبَتْ التّوجُّهاتُ، ويُمْكِنُ تَصْنيفُها - إجْمَالاً - في أنْمَاطٍ ثلاثة، هي:

١) المَدْرَسَةُ التُّراثيّة- الانْعِزاليّة.

٢) المَدْرَسَةُ الحَداثيّة - الانْبِهارِيّة.

٣) المَدْرَسَةُ التَّوفيقيّة - الإصْلاحيّة.

١-٤-٢- أ) المَدْرَسَة التُّراثيّة - الانْعزاليّة:

لقد الْتَفَّ أَصْحَابُ هذه المَدْرَسَةِ حول التّبْشيرِ بإصْلاحِ «أَحْوال الخَلَفِ» بما صَلُحَتْ بـه «أَحْوالُ السَّلَفِ»، وتَمَسَّكُوا بمَبْدَأ الرّفْضِ المُطْلَقِ لـ«النَّمُوذَجِ الغَرْبيّ» بدَعْوَى التّمَسُّك بـ«المَـورُوثِ»، ومُقَاومَةِ «التَّغْريب»، والتَّعَصُّبِ للقديم، والحِفَاظِ على «الهُوِيّةِ الإسْلاميّة»، وعملـوا جَاهِديـن على كَبْـحِ ريـاحِ التّغْيير وحَـرَاكِ التَّطْويرِ عبْـر تَضْييقِ الواسِـع، وحَجْرِ الاجْتِهـاد، ومُحَارَبَـةِ المُسْتَحْدَثَاتِ التّقنيّـة، ومُحَاوَلَةِ فَرْضِ الرُّؤى الأَحَاديّـة. لقد تَعَدَّدَتْ «رُدودُ الفِعْـل» لدى أَصْحَابِ هـذه المَدْرَسَة؛ فتَطَوَّرَتْ - بفِعْلِ الزّمـن - عن شَكْلِهَا البُدائيّ الذي كان يرى في كُلِّ تَطَوُّرٍ عِلْميٍّ، أو تَقْنيةٍ جديدةٍ، شَرّاً مُسْتطيراً، إلاّ أنّها - بشَكْلٍ عامٍّ - حَافَظَـتْ على «النَّزْعَةِ التّبْسيطيّة» التي أَهْمَلَـتْ التَّدَاخُلاتِ المُتَشَعِّبَةَ في طبيعة «التّدَافُعِ الحضاريّ» بين البشـر، وتجاهلتْ التّفاصيل الدّقيقة في «تَرْكيبة المُجْتمعات المُعَاصِرَة» ومُقَوِّمات تطوُّرها.

لم تكُنْ لمِثْلِ هذه المَدْرِسَةِ القُدْرَةُ على الصُّمُود؛ فبِفعْلِ «الطَّبيعة الاقْتِحَاميّة للعلوم والتّقْنيـة» التي تَفْرِضُ وجودها على المُجْتمعـات قَاطِبَةً عبْر توليدِ الاحْتياجـات، وتَلْبِيَةِ الطّلبات، وتوفيرِ الخِدْمَات، وتَسْهيل المُهمّات، اضْمَحَلَّ تَأْثيرُ تلك «المَدْرَسَةِ الانْغلاقيّة»، وذلـك - على الأقـلّ - فيمـا يَتَعَلَّـقُ بالتّعَامُلِ مـع مُنْتَجَاتِ «الحركـة العِلْميّـة والتّقنيّة»، والاسْتِفَـادَةِ من مُعْطياتِها، ولكنّها بَقِيَتْ تُحَـاوِلُ المُحَافَظَةَ على بعْض نُفُوذِهَا في أَشْكَالٍ فِكْريّـةٍ مُجَـرَّدَةٍ، ووَصْفَاتٍ كلاميّةٍ عامّةٍ، وخِياراتٍ سياسيّـةٍ ضيّقةٍ، وتفاعُلاتٍ اجْتماعيّةٍ صَارِمَـةٍ، وراحتْ تتفاعـلُ - ببُطْءٍ شديدٍ وحَذَرٍ بَالِغ - مع مُقْتضيـات «الحياة العَصْريّة»؛ إلاّ أنّـه مـن الواضِحِ أنّ تداعياتِ أحْداثِ العَقْد الأوّل مـن «الأَلْفيّة الثّالثة» ورياحَ ما عُرِفَ بـ«الرّبيـع العربيّ» فـي مَطْلعِ العَقْد الثّاني دَفَعَـتْ بجُلِّ مُكَوِّنَاتِ هـذه المَدْرَسَةِ إلى تَعْديلِ مَواقِفِهَـا، واسْتيعابِ المُتَغيِّراتِ والتّعَامُلِ مـع «فِقْهِ الواقِع»، فأَصْبَحَتْ بذلك تَقْتَرِبُ كثيراً من «المَدْرسة التَّوفيقيّة - الإصْلاحيّة».

١-٤-٢- ب) المَدْرَسَة الحَدَاثيّة - الانْبِهاريّة:

علـى النَّقِيضِ الآخَر لتلك «المَدْرَسَــة التُّراثيّــة – الانْعِزاليّة» بَرَزَتْ نُخَـبٌ انْبَهَرَتْ بـ«المَنْظُومَــة الغَرْبيّــة»، وتفوُّقهـا البارز في ميادين الحيـاة المُخْتلفة، فحاولـتْ أنْ تُلْغِيَ ماضــي الأُمّة، وأنْ تَبْعَـثَ فيها مفاهيم جديدةً مُسْتَوْرَدَةً من واقِـعِ الآخَرين، وانْتماءاتِهم العَقَديّة، واهْتِماماتِهم الفِكْريّة – وذلك بمزاعِم «العَقْلانيّة» و«البراجماتيّة» و«الليبراليّة» و«الدِّيموقراطيّــة» –، ودَعَـتْ إلــى اعْتِنــاقِ «النَّمُوذَجِ الحضــاريّ الغَرْبيّ» بـكُلِّ تفاصيله، والانْغِمَاسِ فــي كُلِّ مُعْطياتِه، وتَقْليـدِ الأَجْنبيّ الأوروبيّ دون تَحَفُّظٍ أو نَقْـدٍ أو تَرَدُّدٍ، وهو المَوْقِـفُ الــذي عَبَّرَ عنه طه حسيــن – أحد أبْرز رُوّاد هذه الحركة فــي القَرْن العشرين– بقولـه: (لكـن السَّبيل إلى الحضــارة ليستْ في الـكلام يُرْسَلُ إرْسَالاً، ولا فــي المظاهِرِ الكَاذِبَــةِ والأوضــاعِ المُلَفَّقَة، وإنّما هــي واضِحَةٌ بَيِّنَةٌ مُسْتَقِيمَةٌ ليس فيهــا عِوَجٌ ولا الْتِوَاء، وهــي واحِدَةٌ فَـذّةٌ ليس لها تَعَدُّد، وهي أنْ نسير سِيــرَةَ الأوروبيّين ونَسْلُكَ طريقَهم لنكون لهــم أنْدَاداً، ولنكون لهم شُرَكَاءَ في الحضارة، خَيْرِهَــا وشَرِّهَا، حُلْوِهَا ومُرِّهَا، وما يُحَبُّ منهــا وما يُكْرَهُ، وما يُحْمَدُ منها وما يُعَاب)[١٧]. أمّا «التَّيــاراتُ الرَّاديكاليّةُ»، المُتَمَثِّلَةُ في الحــركات اليساريّــة والقوميّة، فقد نَحَتْ نَحْــواً مُخَالِفاً في الاتِّجَاهِ انْطِلاقــاً من عَدَائِهَا لـ«النَّمُــوذَجِ الرَّأْسماليّ الغَرْبــيّ»، إلاّ أنّها اتَّفَقَتْ مع «النَّمُــوذَجِ الحَدَاثيّ – الليبراليّ» في ضرورة إلْغَاءِ «الذَّاكِرَةِ التَّاريخيّة» للأُمّة، وإبْدَالِ هُوّيتِها بشَكْلٍ جِذْريّ.

لقــد رَأَتْ تلـك النُّخَبُ – المُنْبَهِـرَةُ بـ«النَّمُوذَجِ الحضــاريّ الغَرْبــيّ» – أنّ «التُّرَاث» سَلاسِــلُ متينــةٌ تَمْنَعُ حركــة المُجْتمع فتُصِيبُهُ بإعَاقَــةٍ مُسْتَدِيمَــةٍ، وأنّ «التَّاريخ» ليس إلاّ مَكْمَنــاً للتَّخَلُّــفِ والتَّقَوْقُعِ، وبَشَّــرُوا باحْتِضَــانِ «المُسْتَقْبَل» عبْر نَبْذِ «الماضــي» والتَّحَرُّرِ مــن قُيُودِه، ولم يكنْ حصاد تلك المُحــاولات إلاّ مزيداً من التَّخَبُّطِ الفِكْريّ، والإحْبَاطَاتِ المُتراكِمَــة، والهزائِــم المُتتالية؛ لأنّ القَفْزَ فوق «التَّاريخ» هو «طَفْــوٌ في الفَرَاغ»، و«الطَّفْوُ فــي الفَرَاغ» حالةٌ من «انْعِـدَامِ الوَزْن» غريبةٌ وشَاذَّةٌ على الأَجْسَــامِ الماديّة، ونهايتُها هي

السُّقُـوطُ الحَتْمِيُّ والارْتِطَامُ بالأرْضِ الصُّلْبَةِ مع ما يُصَاحِبُ ذلك من أضْرَارٍ، فكيف بها إذا تَحَوَّلَتْ إلى حالةٍ فِكْرِيّةٍ، ووِجْدانيّةٍ، وقِيميّة؟.

إنّ المُراجَعَةَ المُتَأنِيّةَ في ضوء التَّطَوُّرِ التّاريخيِّ لمَزَاعِمِ «مَدْرَسَةِ الانْبِهَار» تُبَيِّنُ أنّ فَكّ الارْتِبَاطِ بين الأُمّة، وبين ما حَسَبُوهُ سَلاسِلاً تُكَبِّلُ «الرُّؤية العَقْلانيّة» في زمنِ «العَقْلِ والعِلْـمِ والتّقْنيـة»، أَفْرَزَ حالاتٍ بَائِسَةً مـن التَّشَتُّتِ الذِّهْنيّ والإرْبَـاكِ المُجْتمعيّ، وتَوَرَّطَ فـي مُحاولاتِ مَحْوِ «الذَّاكِـرَة الجَمْعيّة»، وفُقْدَانِ «البَوْصَلَةِ الفِكْريّـة» التي تَشْحَذُ الإرادة، وتَسْتَقْطِـبُ الجُهُود، وتُرَتِّبُ الأولويّات. ولا شكّ أنّنا سنجدُ من الأعْذَارِ ما يَكْفِي لأصْحَابِ هـذه «المَدْرَسَـةِ الانْبِهَارِيّة»؛ فقد كان مـن الحَتْمِيّ أنْ يُؤَدِّيَ عُمْـقُ «الهزيمة الحضاريّة»، التـي ابْتُلِيَتْ بهـا الأُمّة، إلى أَزْمَـةِ هُويّةٍ كَاسِحَـةٍ تَجَلّتْ بعضُ مظاهِرِها فـي «رُدود فِعْلٍ» مُتَمـرِّدَةٍ، ولكن لا يَمْنَعُ ذلك من طَرْحِ احْتِجَاجٍ عَقْلانيٍّ على أَصْحَابِ «المَدْرَسَة العَقْلانيّة - الانْبِهَارِيّة» بشِقَّيْهَا «الليبراليّ» و«الرَّاديكاليّ»؛ فأوّلُ مُعْطياتِ «العَقْلَنَةِ» تُؤَكِّدُ أنّ «زِرَاعَةَ الأعْضَـاءِ الغريبة» في الجِسْمِ البشـريّ عُرْضَةٌ لأنْ يَلْفِظُها الجِسْـمُ وتَرْفُضُهَا تفاعُلاتُه، فكيف إذا فَرَضْنَا هذه «الزِّرَاعَة» على نسيجِ الذّاكِرَةِ وخلايا الدّماغِ ودخائِلِ الرُّوح؟! وهل يُمْكِنُ للإنْسان أنْ يُغَيِّرَ جِلْدَهُ، ويَسْتَبْدِلَ رُوحَهُ، ويَسْتَحْوِذَ على عَقْلِ غيره؟!.

١-٤-٢- ج) المَدْرَسَة التَّوفيقيّة - الإصْلاحيّة:

لقد آثَـرَتْ هذه المَدْرَسَةُ أنْ تَجْمَـعَ بين «الحُسْنَيَيْن»؛ فحَرَصَـتْ على الحِفَاظِ على «الهُويّـة الإسْلاميّة» وقِيَمِهَا وتُرَاثِهَا، وفي الوَقْتِ نفْسه سَعَتْ إلى الاسْتِفَادَةِ من المُعْطياتِ العِلْميّـةِ والإنْجـازاتِ التّقنيّةِ في «النَّمُـوذَجِ الغَرْبيّ»، حيث رَأَتْ أنّ ذلـك من باب «الأَخْذِ بأَسْبَـابِ القُوّة»، وأنّه شَرْطٌ ضروريٌّ لتَحْقيقِ «النّهْضَـة»، فطَرَحَتْ بذلك رُؤيةً تَسْتَنِدُ إلى عمليّةِ «الانْتِقَاءِ والاخْتِيـار»، وأُسْلُوب «التَّوفيق بين التُّرَاث والحَدَاثَة»، لتَأْخُذَ ما يُنَاسِبُهَا، وتَلْفِـظَ ما يُعَارِضُهَا، وتُوَاكِبَ المُتَغيِّرَاتِ بحَذَرٍ وأَنَاة. ومن أبْرز رُوّادِ هذه المَدْرَسَةِ رفاعة رافع الطّهطاويّ (١٨٠١م - ١٨٧٣م)، وجمال الدِّين الأفغانيّ (١٨٣٩- ١٨٩٧م)، ومحمد عبـده (١٨٤٩- ١٩٠٥م) الذين أكّدُوا أنّ «التَّفَوُّقَ الغَرْبـيّ» هو نتيجةٌ طبيعيّةٌ لنَهْضَةِ تلك

المُجْتمعات في مجالاتِ «العلوم والتّقْنية»؛ وبالتّالي فإنّ المُهِمّةَ تَكْمُنُ في دِرَاسَةِ مُقَوِّمَاتِ «الحَضَارَةِ الغَرْبِيّة»، وتَمْحيصِهَا، وانْتِقَاءِ العناصِر التي يُمْكِنُ للمُجْتمعاتِ الإسْلاميّةِ أنْ تَقْتَبِسَهَا وتُوَظِّفَهَا في مسيرة «النّهْضَة» دون المَسَاسِ بالعقائِدِ الدِّينيّة والقِيَم الإسْلاميّة(١٦).

إنّ تأمُّلَ مَواقِف رِجال هذه المَدْرَسَة يَشِي بأنّهم وضعوا نَصْبَ أعْينهم «النَّمُوذَجَ الإسْلاميّ» في العَصْرَيْنِ الأمويّ والعبّاسيّ في انْفِتَاحِهِ على ثقافاتِ الأُمم المُغَايِرَة، واسْتَشْرَفُوا دَوْرَ «دار الحِكْمَة» في عَهْدِ المأمون في تَرْجَمَةِ أعْمال اليونانيّين لِيَنْهَلَ منها عُلماءُ المُسْلِمين، ويتفاعلوا - أخْذاً وعطاءً - مع مُقَوِّمَاتِهَا الفِكْريّة وعناصِرِهَا العِلْميّة. إنّ المُقارَنَةَ بذلك «النّمُوذَج» - إنْ كانتْ فَرَضِيَّتُنا باتِّخَاذِهِ نَمُوذَجاً لدى أَهْلِ «المَدْرَسَةِ الإصْلاحيّة» صحيحةً - تُعَانِي من خَلَلٍ وَاضِحٍ؛ ففي العَصْرَيْنِ الأمويّ والعبّاسيّ كان المُسْلِمون في أَوْجِ عُنْفوانِهم وحيويّتِهم، وكانوا يتعاملون من مَوْقِعِ القُوّة والرِّيادة، وفي الوَقْت نفْسه كانتْ مُعْظَمُ أعْمال اليونانيّين وغيرهم من الأُمم تَتَمَحْوَرُ حول القضايا الفلْسفيّة والتّنْظير المُجَرَّد، ولم يكنْ أيٌّ منها يَحْمِلُ مُعْطياتٍ ماديّةً تُغَيِّرُ أنْمَاطَ الحياة، وتُبَدِّلُ تفاعُلاتِ البشر، وتُؤَثِّرُ في الاقْتصادِ والمعاشِ والهَيْمَنَةِ العَسْكريّةِ ووسائِل الاتّصال وغير ذلك من انْقِلابَاتٍ جِذْريّةٍ تَمَيَّزَتْ بها «الحركة العِلْميّة التّقنيّة» التي انْبَثَقَتْ على أَرْضيّةٍ غَرْبيّةٍ في القُرُون الثّلاثة الأخيرة.

إنّ تلك المُقارَنَةَ تَفْقِدُ - أيضاً - الكثير من جِدِّيَّتِهَا عندما نُدْرِكُ أنّ التّفاعُلَ مع «الفَلْسفة اليونانيّة» لم يكنْ مُجَرَّدَ عمليّة «انْتِقَاءٍ وتَوفِيقٍ»، ولكنّها كانتْ عمليّةً فِكْريّةً عميقةً لم تَخْلُ من آثارٍ فلْسفيّةٍ وامْتِداداتٍ نظريّةٍ وإرْهاصاتٍ فِكْريّةٍ ورُدود فِعْلٍ مُتباينةٍ على المُسْتويات العَقَدِيّة والقِيميّة والكلاميّة في تاريخ المُسْلِمين، بما حَمَلَ ذلك التّفاعُلُ من سَلْبيّاتٍ وإيجابيّات. وتَفْقِدُ هذه المُقارَنَةُ ما تَبَقّى لها من جِدِّيّةٍ عندما نَأْخُذُ في الاعْتِبار أنّ العرب كانوا في مَوْقِعِ الهَيْمَنَةِ آنذاك، وكانوا يَنْهَلُون من فِكْرِ أُمّةٍ يونانيّةٍ خَمَدَتْ جَذْوَتُهَا وغَابَتْ شَمْسُهَا؛ وأمّا واقِعُ العرب اليوم فهو مُخْتلفٌ تماماً، حيث إنّهم يَتَصَدّون لعِمْلاقٍ ضَخْمٍ هَيْمَنَ على أرْجاء الحياة بنُفُوذِه وقِيَمِه ومُمارَساتِه وأنْمَاطِ حياته.

نَسْتطيعُ أنْ نقول إنّ غَالبيّةً مَلْمُوسَةً من المُثقّفين العرب انْتَهُوا إلى تَبَنِّي مَوْقِف هذه «المَدْرَسَــة» الذي يَأْخُذُ من «الحَضَارَةِ الغَالِبَةِ» ما يُوافِقُ احْتياجاته ويرى أنّ له قِيمةً ذاتيّةً ومَرْدُوداً مُفيداً، ويَنْبُذُ ما لا يَتَّفِقُ مع قناعاتِه القِيميّةِ ومَواقِفه المَبْدئيّةِ وتصوُّراتِه الحياتيّة، ويرى أحمد صدقي الدّجاني أنّ هذا «المَوْقِف» يُؤدِّي إلى أنْ: (يُحَقِّقَ هؤلاء تفاعُلاً إيجابيّاً مع تُراثِهِم الحضاريّ فَضْلاً عن التّفاعُلِ الإيجابيّ مع الحضارة الأُخْرى)[١٨].

١-٤-٢-د) اسْتِمْرارُ «الفِكْر الحَائِر»:

لا شــكّ أنّ كُلاًّ مــن تلــك «المدارس» قــد سَعَتْ إلــى تَعْميــقِ حُضُورِهَا عبْــر كُلِّ ما أُوتيــتْ من فُرَصٍ في فضاءاتِ العمل السّياســيّ أو الاجْتماعيّ أو الاقْتصاديّ أو التّعْليميّ، ولكــن الشَّواهِدَ - على مــدى عُقُودٍ مُتتاليةٍ - تُبْــرِزُ حقيقةَ اسْتِمْرَارِ «الفِكْــرِ الحَائِر» بين «التُّــرَاث والحَدَاثة»، واحْتِــدَامِ الصِّرَاعِ بينهما تارةً، ومُحــاولاتِ التَّهْدِئَةِ تارةً أُخْرى، وما يــزالُ الواقِعُ العربيّ أسير تَخَلُّفِهِ، على الرّغْم من تَنَــوُّعِ الطُّرُوحات الإنْشائيّة والمُناورات الجَدَليّــة والوَقَفَــات التّأمُّليّــة والخِطابات الوَعْظيّة، وما تــزالُ كُلُّ الحُلُولِ التــي تَطْرَحُهَا تلــك «المدارس» - عبْر الصَّوْلاتِ الخَطابيّةِ والجَــوْلاتِ الكلاميّةِ والتّحْليلاتِ التّعْميميّةِ - عَاجِــزَةً عن تَغْييرِ «الواقِع العربيّ» وإخْراجِهِ من مَأْزِقِهِ التّنْمَويّ، ممّا يَجْعَلُنَا نَتَّفِقُ مع عبد الإلــه بلقزيز فــي قوله: (إنّ «الفِكْرَ العربيّ المُعَاصِر» مــا زال يعيشُ اليوم الزّمن الفِكْريّ النَّهْضَويّ الذي ابْتَدَأَ في مُنْتصف القَرْن التّاسع عشر)[١٩].

فــي هــذا السِّياقِ يُؤَكِّدُ برنــارد لويس «الحالــة الحَائِرَة» التي تُعَانِــي منْها مُحاولات المُجْتمعــات الإسْلاميّة للنُّهُوضِ ومُنافَسَةِ «العَالَمِ الغَرْبِــيّ» فيقول: (لقد تَمّ تَجْريبُ عَدَدٍ مــن طُرُق العِــلاج: الأَسْلحة والمصانِع والمدارِس والبرلمانــات، ولكن أيّاً منْها لم يُحَقِّقْ النّتيجــة المَنْشُودة. هنا وهناك جَلَبَتْ هذه العِلاجَات بعْض التّخْفيف من المُعاناة، وحتّى بعْض المنافِع لفِئاتٍ مَحْدُودةٍ من السُّكان. ولكنّها فَشَلَتْ في عِلاجٍ أو حتّى إيقافِ التَّدَهْورِ فــي الموازين بين الإسْلام والعَالَم الغَرْبيّ)[٢]. ويُوجِزُ لنا زكي نجيب محمود هذه الحالة التــي تَــدُورُ دَوْرَاتٍ كَامِلَــةً دون أنْ تُحَقِّقَ نتيجةً عمليّــةً مُحَدَّدَةً فيقــول: (اسْتَخْرَجْتُ من

مَكْتبتــي مَجْموعــة المقالات الإصْلاحيّة التــي كتبها الشّيخ محمد عبــده لأرى ماذا يكون الفَــرْقُ بين المُشْكلات التي عَرَضَــتْ له، والمُشْكلات التي تَعْرِضُ لنا فإذا هي في جُمْلَتِهَا مُتَشَابِهَةٌ، ممّا دعاني إلى السُّؤال: «ماذا صَنَعَتْ - إذاً - كِتَابة الكُتَّاب في زمنٍ طُوله قَرْنٌ كامِــلٌ؟، فلو كُنّا قد أَدَرْنَا تَعْليمنا علــى الرَّبْطِ الوثيقِ بين الكلام الذي نقولُهُ والعمل الذي نُؤَدِّيــه، لتَغَيَّرَتْ حتّــى طريقة كلامنا نفْسه، فتَقِــلّ السُّيُولَةُ اللّفْظيّةُ التــي تَذْهَبُ هَوَاءً مع الهَوَاء، وتَبْقَى حالُنا هي حالُنا، ولا يُغَيِّرُهَا إلاّ سَواعِد العَامِلين)[٢٠].

١-٤-٣) البُعْدُ العَمَليّ:

من المُهِمّ أنْ نَتَلَمَّسَ أبْعَادَ «إشْكَاليّة التّنْمية» عبْر تَمْحيصِ آثارها المُجْتمعيّة المَاثِلَةِ للعِيان، وتَقْييمِ ظُرُوفِهَا الواقِعيّةِ المُهَيْمِنَةِ على السّاحة الحياتيّة في «المُجْتمعات العربيّة»، وهــذا يَعْنِي - بالضّــرورة - التَّوقُّفَ أمــام حقيقةٍ لا يُمْكِــنُ إنْكارها، وهــي أنّ «المَدَارِسَ الفِكْريّــة» المُخْتلفة، و«الأَنْظِمَــةَ السِّياسيّة» المُتباينة، التي تعاقبــتْ على السّاحة العربيّة طَــوَالَ القَرْنَيْنِ الماضِيَيْن لــم تتمكَّنْ من تَحْقيقِ غاياتها وتطلُّعاتهــا، ولم يكنْ هناك من نجاحٍ يُذْكَرُ على مُسْتــوى «النَّقْلَة النَّوْعيّة» المَطْلوبة في إمْكاناتِ الأُمّة، وقُدْراتِها الذّاتيّة، ونُفُوذِها بين الأُمم.

إنّ مــا يُؤَكِّــدُهُ برهان غليون[١٨] مــن فَشَلِ ما أَسْمَــاهُ «التّنْميــة البيروقراطيّة»، وهو الشّــكْلُ العمليُّ الذي اتَّخَذَتْهُ «التّنْمية» في «المُجْتمعات العربيّة»، يَطْرَحُ علاماتِ اسْتِفْهام حــول «الطَّبيعة البيروقراطيّــة» التي تَبْدُو وكأنّها تَعْمَلُ في فَــرَاغٍ، وتَنْشَأُ على وَرَقٍ، وتَنْتَقِلُ عبْر قراراتٍ لا تجدُ لها صَدَىً على الأَصْعِدَة الحياتيّة. إنّ هذا الحال يُشِيرُ - بالضّرورة - إلى أنّها تَنْميةٌ لم تَجِدْ لها جُذُوراً في مُجْتمعها، ويَبْقَى السُّؤالُ الأكْبر، الذي يُمَثِّلُ المِحْوَرَ الرّئيسَ لاهْتِمامات هذا الكِتاب، وهو: (ما الطَّريقُ إلــى تَجْذيرِ «التّنْمية»، ونَشْرِ فِكْرها، وتوطيدِ سُلُوكيّاتِها، وجَعْلِهَا جُزْءاً فاعِلاً من حركةٍ تَدِبُّ على الأرْض؟).

إنّنا نجدُ - عبْر تجارب قَرْنَيْنِ من الزّمن - اسْتِمْرَارَ المُحاولات، وتَعَدُّدَ الاسْتراتيجيّات في «المُجْتمعات العربيّة»، كما نجدُ أنّ الإجْمَاعَ مَعْقُودٌ بين سياسيّي «الدُّول النّامية» ومُفكِّريها ومُثقّفيها أنّ طريق النّجَاةِ والخَلاصِ من حالة التَّخَلُّفِ والضّعْفِ وهَيْمَنَةِ الآخرين تَكْمُنُ في «الأُفُقِ العِلْميّ- التّقنيّ»، وأَطْلَقُوا أسْمَاءً عِدَّةً على الهدف الرّئيس لـ«التّنْمية» لعلّ أشْهرها وأبْرزها هو مُصْطلح «نَقْل التّقْنية وتَوطينها». لقد أَدْرَكَ الجميعُ أنّ التّفَوُّقَ الحاليّ للدُّول المُتَقَدِّمَة ليس تَفَوُّقاً في المَواهِبِ الشِّعْريّة، ولا نُبُوغاً في مجالاتِ الخَطابَةِ والأدب، ولا تَمَيُّزاً جُغْرافيّاً، ولا طَفْرَةً وِراثِيّةً آثَرَتْهُم دون غيرهم من البشر، ولا رِفْعَةً في الأخْلاقِ والقِيَم، ولكنّه يَكْمُنُ في قضيّةٍ واحِدَةٍ هي: «المَعْرِفَةُ العِلْميّةُ والتَّمَكُّنُ التّقنيّ» بكُلِّ ما يَتَمَخَّضُ عنهما من صِناعاتٍ مُتطوِّرةٍ، وقُدُرَاتٍ عَسْكريّةٍ، ورفاهيّةٍ معيشيّةٍ، وغَزَارَةٍ إنْتاجيّةٍ، وهَيْمَنَةٍ إعْلاميّةٍ، ونُفُوذٍ فِكْريّ. ويُوجِزُ زكي نجيب محمود هذا المَوْقِفَ بقوله: (سُؤالُنا لماذا تَقَدَّمَتْ أوروبا بعد تَخَلُّفٍ وتَخَلَّفْنَا نحن بعد تَقَدُّم؟. إنّنا نَسْألُ سُؤالنا هذا، وكأنّ الجَوابَ خَافٍ عن الأبْصار، يَحْتَاجُ من الباحِثين دَرْساً وتَنْقيباً، مع أنّ الجَوابَ يَخْرِقُ العَيْن، وهو: لقد حاولتْ أوروبا منذ نَهْضتِها في القَرْن السّادس عشر أنْ تَقِفَ الوَقْفَةَ العَقْليّةَ العِلْميّةَ التي تَبْتَكِرُ بها في كُلِّ يوم حقيقةً جديدةً عن دُنْيانا هذه التي نعيشُ على أرْضِها ونتنفَّس هواءَها، بينما اتَّجَهْنَا خلال الفتْرة نفْسها نحو الماضي، نُبْدِي في نُصُوصِهِ المَكْتُوبَةِ ونُعيد)[٢٠].

لقد راح مُفكِّرونا وسياسيّونا وشُعراؤنا وكُتَّابُ المقال والرّواية يُدَاعِبُون «الأهْداف التّنْمَويّة»، ويَتَغَنّون بـ«نَقْل التّقنية وتَوطينها» في كُلِّ مُناسبةٍ ومَحْفَلٍ، وانْعكس الاهْتمام بـ«التّنْمية» ومُتطلَّباتها على مُخْتلف مُسْتويات القرار ومجالات التّنْفيذ؛ فراحتْ السُّفُنُ تجوبُ البِحَار، والطّائراتُ تَخْتَرِقُ السُّحُب، والشّاحناتُ تصولُ في الصّحارى والوديان، حَامِلَةً مُخْتلف التّجْهيزات والمُعِدَّات والأدوات في صناديق مُخْتلفةِ الأحْجَام ومُتَعَدِّدَةِ الألْوان، وأَتَتْ «وسائِلُ التّقْنية» تتهادى إلى الدُّول النّامية عبْر الشِّرَاءِ المُباشِرِ أو المُقايَضَةِ أو المِنَح، ولكن يَبْقَى السُّؤالُ المَأْزُوم: (هل تَحَقَّقَ الهدف؟، وهل اسْتَطَاعَتْ الدُّولُ النَّامية أنْ تُحْدِثَ «النَّقْلَةَ التّنْمَوِيّة» اللازِمة في مُجْتمعاتِها؟).

وفي إطار نَشْرِ «المَعْرفَةِ العِلْميّة»، وتَطْويرِ مهارات المُواطنين، ورَبْطِهم بالمُتطلَّبات العِلْميّــة والضَّوابط التّقنيّــة، حَرَصَتْ الدُّولُ العربيّةُ على تَعْليم أبنائِها وتَدْريبهم في شَتّى مجــالات «العلوم والتّقْنية»؛ فانْطَلَقَــتْ البَعْثَاتُ إلى «الدُّول المُتَقَدِّمَــة» لتَكْتَسِبَ المَعْرفة، وعــادتْ لتقوم بدَوْرِهَا فــي عمليّةِ «النّقْــلِ المَعْرفيّ» عبْر الجامعــات والمعاهد والكليّات، وبَــرَزَتْ الصِّناعاتُ في معاقِل هنا وهناك، ورَاحَــتْ بدَوْرِهَا تَحْرِصُ على اسْتيرادِ التّقْنية المُتطــوِّرة وتَدْريبِ المُواطِن وتَأْهيله. ولكــن مازال الهدفُ بعيداً، والفَجْوَةُ في اتِّسَاع، وما زال أَصْحَــابُ القرار والمُفكِّــرون والعُلماءُ والأدبــاءُ والشُّعراءُ يتحدَّثون عــن «التّحدِّيات العِلْميّــة – التّقنيّــة» التي تتنامى، واتِّسَــاعِ الفَجْوَةِ مع أَصْــدَاءِ «الثّــوْرَةِ المَعْلُوماتيّة» التي تَتَفَجَّــرُ كَونيّــاً، ومُشْكلاتِ التّعْليــمِ والصِّحَةِ والبَحْــثِ العِلْميّ والتّدْريبِ والفَقْــرِ والبَطَالَةِ التي تَتَفَاقَمُ، ويقفون على أطْلالِ الأوضاعِ في «المُجْتمعات العربيّة» ليَلْهَثُوا وراء مُنْجزاتِ الآخَريــن، وليَنْعُوا واقِعــاً أليماً، وليَصِفُوا حَاضِــراً حزيناً، وهذا ما يُشِيــرُ إليه إسماعيل صبري عبــد الله بقوله: (التَّخَلُّفُ بالمَعْنَى الاصْطلاحيّ ليس رُكُوداً وجُمُوداً، ولكنّه تَنْميةٌ مُعْوَجَّةٌ مُتَوَجِّهَةٌ إلى الخَارِجِ تُورِّثُ التَّبَعِيّة)[١١].

أمّــا على أَصْعِدَةِ عَقْــدِ المؤتمرات، وتَنْظيمِ النّدوات، وإجْــرَاءِ الدِّراسات، فحَدِّثْ ولا حَــرَج، ونجــدُ أنّ مُعْظَمَهَا يدورُ في الفلــك نفْسه من التّنْديدِ بالواقِــع، ومُنَاشَدَةِ مَنْ فــي الدَّاخِلِ والخارِجِ لدَعْمِ «التّنْمية» ومَنْحِهَــا فُرصها السّياسيّة وشُرُوطها الاقْتصاديّة وبِيئتهــا العِلْميّة، ويُلْقِي بعْضهم تارةً باللّوم على الحُــكّام، وتارةً يكون «العَدُوّ الخَارِجيّ» هــو المَسْؤول، وتُهَيْمِــنُ «نظريّةُ المؤامرة» ليَقْبَــعَ جميعهم في قفص الاتّهــام باسْتِثْنَاءِ «الذَّات العربيّة» البريئة التي لم يَتِمّ حتّى الآن تَحْديدُ سِمَاتِهَا ومُواصَفَاتِهَا وخَصَائِصِهَا وحُقُوقِهَا وواجِباتِهَا، ويُغَنِّي جميعهم على ليلى المُتَمَثِّلَةِ في شِعارات «التّنْمية المُسْتَدَامَة» و«مُجْتمــع المَعْرِفَــة» و«نَقْــل التّقْنيــة وتَوطينهــا»، ويَطْلُبون وِصَالَهَــا، ويَنْفَضُّ الجَمْعُ، وتُرْفَــعُ الأوراقُ، وتُصْــدَرُ النّشراتُ، ليتكــرَّرَ اللقاءُ في وَقْتٍ آخَر ومــكانٍ مُخْتلفٍ لسماع «الأسْطوانــة» إيّاها، بينما يتراجعُ «الوَاقِعُ التّنْمَــوِيُّ»، وتَتَرَدَّى أوجهُ الحياة المُتَعَدِّدَةُ في مُعَانَاةِ «المُواطِن العربيّ».

إذا كان محمد جابر الأنصاري قد وجد أنّ «الوَاقِع السِّياسيّ» في «المُجْتمعات العربيّة» يَتَمَيَّزُ بظَاهِرَةِ «حَرْقِ المراحل» حيث يقول: (بالنَّظَرِ إلى القُوّة المُتعاظِمَة لأوروبا الليبراليّة في ذلك الوَقْت، ولفداحة الشُّعُور بـ«التَّخَلُّف» لدى النُّخَب العربيّة الوطنيّة والقوميّة، تجاهل «الوَعْيُ النُّخْبويّ» السّائدُ عندئذٍ حقائق القَاعِدَةِ السوسيولوجيّة في البِنْية الاجْتماعيّة التي يَقِفُ عليها)(٢١)؛ فإنّنا نُبْرِزُ - في سِياق هذا الكِتاب - مُعْضِلَةً أُخْرى نرى أنّها أهمّ وأكْبر من «المُعْضِلِ السَّياسيّ» و«الإشْكَاليّةِ الاجْتماعيّة»، ولها التّأْثيرُ الأكْبَرُ على حَلْحَلَةِ «المُعْضِلِ السِّياسيّ» وتَفْكيكِ «الإشْكَاليّة الاجْتماعيّة»؛ وهي أنّ حال «الوَاقِع التّنْمَويّ العربيّ» قد أَغْفَلَ - في توجُّهاته نحو «الحركة العِلْميّة - التقنيّة» وتعامُلاته معها - حقائِق مُهِمّةً مُرْتَبِطَةً بخصائِص «التَّكْوين الثّقافيّ» في «البِنْية المُجْتمعيّة»، ممّا أدّى إلى أنْ يُرَاوِحَ هذا «الوَاقِعُ التّنْمَويُّ» مكانه - بَلْ ويَتَرَاجَعُ بمُرُورِ الأيام - بالرّغْم من برامِج التّطْوير في السّياسات، وخُطط التّوسُّع في الجامعات ومراكِز الأبْحاث، واتّساع حركة الاسْتيراد النَّشِطَة لكُلِّ ما هو جديد؛ وفي نهاية المطاف نَخْلُصُ - في هذا الكِتاب - إلى أنّ الْتِحَامَ الوَاقِعَيْن «الثَّقافيّ - التَّنْمَويّ» و«السِّياسيّ - الاجْتماعيّ» وتَأْثيراتهما المُتبَادَلَةَ يُحَدِّدَان - بالضّرورة - مُسْتَقْبَلَ «المُجْتمعات العربيّة».

إنّ «الوَاقِعَ التّنْمَويّ»، بظِلالِه وألْوانِه المُخْتلفة في غَالِبيّةِ «الدّول النّامية»، لا يَبْتَعِدُ كثيراً عمّا أَوجزه أسامة عبد الرحمن بقوله: (لقد حَقَّقَتْ «إدارة التّنْمية» بعْض الإنْجازات المُتَمَثِّلَةَ في مشاريع البِناء والتّشييد، كما حَقَّقَتْ بعْض الإنْجازات في مجال الخِدْمَاتِ وإنْ لم تكنْ بالنّوعيّة المَطْلوبة، غير أنّها أَخْفَقَتْ بصُورةٍ مَلْمُوسةٍ في إحْدَاثِ تَغْييراتٍ أساسيّةٍ في أساليب الإنْتاج، وعَلاقَاتِ الإنْتاج، وفي تَطْويرِ القُوى البشريّة، وفي إيجادِ القاعِدَةِ الصّناعيّةِ المُرْتَكِزَةِ على المَعْرِفَةِ والمَهَارَةِ الذّاتيّة)(١٢). ويرى إسماعيل صبري عبد الله أنّ: (كُلّ نُموٍّ اقْتصاديٍّ «أيْ زيادة في النّاتِج القوميّ الإجْماليّ»، أو تَنْميةٍ اقْتصاديّةٍ «أيْ تغيُّر في بِنْية الاقْتصاد أساساً عن طريق التّصْنيع» تَتِمُّ في إطار النّظام العَالَميّ الحاليّ، تُوثِّقُ الارْتبَاطَ به، وتُؤَكِّدُ التَّبَعِيّةَ والاسْتِغْلال، وتكون أيضاً تَنْميةً مُعْوَجّةً، أو شَكْلاً من التَّخَلُّفِ أكْثر تَعْقيداً من الأشْكال التّقْليديّة المَعْرُوفة)(١١). أمّا نجيب عيسى، فيَذْهَبُ

إلــى أبْعد من ذلك حيث يرى أنّ تَجْرِبَة «نَقْل التّقْنية»- في دُول العَالَم الثّالث - قَادَتْ إلى تَعْميقِ «التَّبَعِيّة» للدُّول المُتَقَدِّمَة فيقول: (حتّى الآن، لم تَتَوَصَّلْ سياسةُ «نَقْلِ التّكنولوجيا» علــى تَعَــدُّدِ أشْكالِها، إلى تَحْقيقِ الأهْداف التي حُدِّدَتْ لها أصْــلاً، والتي تَتَلَخَّصُ بتَسْريعِ «عمليّــة التّنْمية» عُمُوماً و«عمليّة التّصْنيع» خُصُوصاً في بلدان العَالَم الثّالث، على العَكْسِ مــن ذلك فقد أدَّى «نَقْــلُ التّكنولوجيا» الحديثة بالبُنــى الاقْتصاديّة والاجْتماعيّة في هذه البلدان إلى مزيدٍ من الاخْتِلالِ والتَّبَعِيّةِ تِجاه البلدان المُتَقَدِّمَة)[٢٢].

هذا هــو الإخْفَاقُ الصَّارِخُ الذي نَصْطَدِمُ به فيما يَخُصُّ «البُعْدَ العَمَلِيّ» لـ «إشْكَالِيّة التّنْمية»[١٢،٢٣،٢٤]، وذلك أينما وَجَّهْنَا وِجْهَتَنَا في العَالَمِ العربيّ، ويُمْكِنُ إيجاز هذا الإخْفَاقِ في السُّؤالِ التّالي: (لماذا تَتَمَدَّدُ - في الدُّول العربيّة - رُقْعَةُ الصِّناعات، وتَنْتَشِرُ المدارِسُ والجامعــات، وتَتَنَوَّعُ مراكِزُ التّدْريبِ والتّأهيل، وتَتَعَــدَّدُ معاقِلُ البُحُوث، وفي الوَقْتِ نفْسه تَتَّسِعُ الفَجْوَةُ العِلْميّة، وتَتَفَاقَمُ الهُوّةُ التّقنيّة، وتَنْمُو قائِمَةُ المُسْتَوردات، وتَتَعَمَّقُ «التَّبَعِيّة»، وتَتَجَلّى مَظَاهِــرُ «التَّنْمية المُعْوَجَّة»)؟). وفي مُقابِلِ هذا السُّؤالِ نَطْرَحُ سُؤالاً آخراً: (هلْ السّبَبُ الرّئيسُ وراء هذا الوَضْعِ المُتَرَدِّي في «المُجْتمعات العربيّة» هو أنّها وَضَعَتْ العَرَبَةَ أمام الحِصَانِ فما تَحَرَّكَتْ العَرَبَةُ، وذَبُلَتْ عَضَلاتُ الحِصَان؟).

١-٥) «إشْكَالِيّة التّنْمية»: مُحَاوَلَةٌ للفَهْم:

إنّ المُتَأمِّــلَ لـ«البُعْــدِ الفِكْريِّ» لـ«إشْكَاليّــة التَّنْمية» يجدُ أنّه، فــي أشْكالِه المُخْتلفة ومدارِسه المُتَنَوِّعة، ليس أكْثر من «رُدودِ فِعْلٍ» مُتفاوتِةِ الحِدَّةِ إزاء تَفَوُّق «النَّمُوذَجِ الغَرْبيِّ» الذي فَرَضَ حُضُورَهُ ونُفُوذَهُ عبْر إنْجازاتِه على الصّعيدِ الحياتيّ وفي الأُطُرِ العمليّة، ونجدُ أنّ المُحَصِّلَــةَ - على مدى قَرْنَيْنِ مــن المُحاولاتِ الفَاشِلَةِ لإحْــداثِ «النّهْضَة» في العَالَمِ العربــيّ - كانــتْ تَقَوْقُعَ «الهَــمّ الفِكْريّ» حول الثُّنَائِيّــاتِ الشّهيرة، مِثْل: ثُنَائِيّــةِ «الأصَالَة والمُعَاصَــرَة»، أو «التُّــرَاث والحَدَاثَــة»، أو «العَوْلَمَــة والخُصُوصيّة» أو «النَّقْــل والعَقْل»، أو «الأمميّــة والوطنيّة»، كما انْضَــوَتْ الحالةُ البَائِسَةُ التــي أَطْلَقُوا عليها اسْــم «أَزْمَة العَقْل

العربيّ» تحت إطار هذا الهَمّ المُتَفَاقِم، وهذا ما يُؤَكِّدُهُ نادر فرجاني بقوله: (يَتَّسِمُ الإنْتَاجُ الفِكْريُّ العربيُّ عن «مَفْهُومِ التّنْمية» بالتَّبَعْثُرِ وقِلّةِ التَّعَاضُدِ التّراكُمِيّ)[١١].

أمّـا «الوَاقِعُ التَّنْمَـوِيُّ» المَشْهُودُ لـ«المُجْتمعات العربيّة» في سِيـاقِ التَّطَوُّرِ التّاريخيّ لدُولِها في الأُطُـرِ السّياسيّةِ والاقْتصاديّةِ والفِكْريّةِ والمَعْرفيّـةِ المُخْتلفة، فإنّه يُوَضِّحُ أنّ أيّـاً من تلـك «المدارسِ النَّظريّة» لم تُفْلِـحْ في تَطْويرِ «برْنامج عمـلٍ» يَسْتطيعُ أنْ يُحْدِثَ «النَّقْلَـةَ النَّوْعيّـةَ» الّلازمَـةَ للتّفاعُلِ مع مُعْطيـاتِ العَصْـرِ - اكْتِسَاباً وإنْتَاجـاً ورِيَادَةً -. هـذا الواقِعُ المُتَرَدِّي في أحْوالِ الأُمّة قاد كثيراً مـن المُفكِّرين والمُثقَّفين إلى حالاتٍ من الحَيْـرَةِ المُؤَرِّقـة، وولَّدَ مَخَاضاً لا يَنْتَهِي، وتَتَمَثَّلُ هـذه المُعَانَاةُ - على سبيل المِثال - في صَيْحَـةٍ يُطْلِقُهَا راشـد المبارك وهو يتساءَل: (هَلْ سَبَبُ ما يُعانيـه العَالَمُ الإسْلاميُّ جُزْءٌ مـن الـذّات، أو خَارِجٌ عنهـا؟. هل هو نَابِتٌ من أرْضِـه، أمْ وَافِدٌ إليها؟. هَـلْ العِلَّةُ نُضُوبُ الطّاقـة، أمْ مُجَافَاةُ الظُّـرُوف؟. إنّ المرء ليَشْعُر بالإرْهَاقِ، لأنّه لا يَعْرِفُ هَلْ السَّبَبُ وَافِدٌ رَاحِلٌ، أمْ مُواطِنٌ مُقِيم؟)[٢٥]. ويَتَأَكَّدُ ذلك الأُفُقُ المَسْدُودُ أمام «المَشْرُوع النَّهْضَويّ» في الرُّؤيـةِ التي يَطْرَحُهَا عبد الإله بلقزيز حين يقول: (نحن في حاجَةٍ إلى بِنَاءِ نَظْرةٍ شَامِلَةٍ ومُتوازِنَـةٍ لمُجْمَلِ العَوامِلِ والأَسْبَابِ التي كانـتْ وراء إخْفاقِنا النَّهْضَويّ. نَظْرةٌ لا تتعامى عن الـدَّوْرِ المُؤثِّرِ للتّدخُّـلاتِ الأجْنبيّـةِ المُنَاهِضَةِ لـ«مَشْـرُوع النَّهْضَة العربيّـة»، وآثارِه الماديّـة الفِعْليّة في إعَاقَةِ «عمليّة النَّهْضَة» تلك؛ كمـا لا تَتَرَدَّدُ في نَقْدِ العمْران السّياسيّ والاجْتماعـيّ والثّقافيّ الذي فَرَّخَ الهزيمة، وقاد المُجْتمـع والأُمّة إلى حالة الانْسِدَادِ التي نعيشُها اليوم)[٨].

١-٥-١) السِّجَالات الفِكْريّة:

لقد كان من الطّبيعيّ - في المُجْتمعات العربيّة - أنْ يَنْخَرِطَ عُلماءُ الدِّين والمُفكِّرون والسّياسيّـون والمُهتمّون بالشّأن العامّ فـي سِجَالاتٍ كلاميّةٍ وتأمُّـلاتٍ فِكْريّةٍ تحت وَطْأةِ أوضـاعِ مُجْتمعاتِهم المُتَرَدِّيـة، وهَجْمَةِ «النَّمُـوذَجِ الغَرْبيّ» الكَاسِحَة، ومِثْـلُ هذا الجَدَلِ والاخْتِـلافِ لا مناص عنه فـي أيِّ تَجَمُّعٍ بشريٍّ يُحَاولُ فَحْصَ وَاقِعه، وتَمْحِيصَ ماضيه،

لبَلْـوَرَةِ مُسْتَقْبَـلٍ أكْثر تَوافُقاً مع احْتياجاتِـه ومُتطلَّباتِه وتطلُّعاتِه. وأمّـا الأَمْرُ الذي يُعَابُ علـى كُلِّ هذه السِّجَالات فهو أنّها اسْتَمَرّتْ لعُقُـودٍ طويلةٍ تَسْتَنْسِخُ ذاتها، وتَجْتَرُّ تأمُّلاتِها، وتُكَرِّسُ هزائِمَها، واسْتَغْرَقَتْ في الإنْشائيّات واللغويّات، وانْدَمَجَتْ في أدْوارِها النَّمَطِيّة، وتوقُّعاتِهـا التّقْليديّـة، وتحيُّزاتِها الذّاتيّـة، وانْغِلاقاتِها الفِكْريّة، ونَرْجسيّتِهـا المُتأصِّلَة، دون مُحَاوَلَـةٍ صَارِمَـةٍ للخَوْضِ في نَقْدٍ موضوعيٍّ لتَحْليلِ عناصِـر «التَّحَدِّي»، والسَّعي إلى تَحْقيـقِ «الاسْتِجَابَةِ» المُناسِبَةِ القَادِرَةِ على تَقْليصِ «الفَجْوَة» وتَحْجيم «الإشْكَاليّة»، وهذا مـا يَصِفُهُ زكي نجيب محمود بقوله: (إنّ جُهُودَنَـا كُلَّهَا تَدُورُ في دَائِرةِ «الفِكْرِ» وَحْدَهُ دون أنْ تَتَعَـدَّى ذلك إلى «الإرادة» التي تَعْمَلُ بِنَاءً على ذلك «الفِكْر»)[٢٠]. ويُؤَكِّدُ عبد الله عبد الدّائـم ما آلَتْ إليـه الحالُ فيقول: (وقد قَامَـتْ جُهُودٌ تَتْرَى في العُقُـودِ الأخيرةِ لدِرَاسَةِ الواقِـع العربيّ وتَحْليلِـه تَحْليلاً عِلْميّاً. وتَكَاثَرَتْ هذه الدِّراسـاتُ حتى كادتْ تَنُوءُ بحِماها المَكْتبـات. ومـع ذلك فمُعْظَـمُ هذه الدِّراسـاتِ قليلُ الجَـدْوى، إذْ يَكْتَفِـي بتَقْديم صُورةٍ فوتوغرافيّـةٍ عن الواقِعِ الاجْتماعيّ والاقْتِصـاديّ والثقافيّ والسّياسيّ في الوطن العربيّ، مُشيـراً إلى مُشْكِلاتِـهِ وإلى تَخَلُّفِهِ من دون أن يُقَـدِّمَ نَظْرَةً تَحْليليّةً تَرْكيبيّـةً تُبَيِّنُ السُّبُلَ المُؤَدِّيَةَ إلى تجاوزِ تلك المُشْكِلاتِ والقَضَاءِ على التَّخَلُّف)[١٨].

ولتَأْكيد عُمْقِ هذه «الإشْكَاليّة» واسْتمراريّتِها على مدى قَرْنَيْنِ في حياةِ «المُجْتمعات العربيّة» نَتَوَقَّفُ أمام مَقولاتٍ لسِتَّةٍ من المُفكِّرين الذين عاصروا مراحِل مُخْتلفة في حياةِ الأُمّـة، لنجد أنّ مَرْئياتهم تَخْلُصُ إلى حالةِ إخْفَـاقٍ بَارِزَةٍ في حياةِ «المُجْتمعات العربّية» بالرّغْم من الجُهُودِ الفِكْريّةِ والعمليّةِ التي بَذَلَتْهَا تلك المُجْتمعاتُ في سبيلِ الانْطِلاقِ على «دَرْبِ النّهْضَة»، وتَحْقيقِ الإنْجاز على «مَسَارِ التّنْمية»:

١) يقولُ جمال الدّين الأفغانيّ[١٦] وَاصِفاً الحال في زمانِه: (لا يُمْكِنُ للمعارِف التي يَكْتَسِبُهـا أبناء المُجْتمع في العلوم الخاصّة أنْ تَسْتَمِرَّ لقَرْنٍ وَاحِدٍ إذا لم يَكْتَسِبْ المُجْتمعُ فَلْسَفَةً مُنَاسِبَـةً، لذلك نرى أنّ الحكومة العُثْمانيّة والحكومة الخديويّة مُسْتَمِرَّتَيْن في تَعْليم هذه المعارِف «التَّخَصُّصِيّة» منذ ستين سنة دون أنْ تَجْنيَا ثمرةً من تَعْليمِ المعارِف هذه).

٢) يَتَوَقَّفُ طه حسين[١٧] أمام حقيقةٍ مُؤَرِّقَةٍ عن (أُمم اتَّصَلَتْ بالحياة الحديثة في الوَقْتِ الذي اتَّصَلْنَا بها فيه، ولكنّها كانتْ أَسْرع منّا إلى الانْتِفَاعِ بهذا الاتِّصال، وأقْـدر منّا علـى أنْ تَفْرِضَ نفْسها على الحياة الحديثة)، ويَبْحَثُ طه حسين عن العِلَّة ليَخْلُصَ إلى القول: (وما أظنّ أنّ هذه الأُمم قد خُلِقَتْ من جوهرٍ أرْقى من جوهرنا، أو امْتَازَتْ بمَلَكَاتٍ لم نَظْفَرْ منها بنصيب، وإنّما أُتيحتْ لها ظُرُوفٌ لم تُتَـحْ لنا، وبعْضُ هذه الظُّرُوفِ خَارِجيٌّ لا نُسْأَلُ عنـه إلاّ بمِقْدَار، وبعْضُها دَاخِليٌّ نُلامُ عليه أشدّ اللّوم).

٣) يتأمّلُ زكي نجيب محمود[٢٠] أبْعَادِ «الإشْكَالِيّةِ» القَائِمَةِ ليَخْلُصَ إلى أنّ: (الإشْكَالُ الضّخْـمُ هو إشْكَالُنَا نحن، فحضـارةُ العَصْرِ ليست مـن صُنْعِنَا ولا شاركنا في ذلـك الصُّنْعِ بكثيرٍ أو قليلٍ، بَلْ هي حضـارةٌ فَتَحْنَا بابنا، فإذا هي وَاقِفَةٌ أمامنا كائِناً عِمْلاقاً مُتَكامِلَ البِنَاءِ والأَجْزَاء، يُريدُ الدُّخُولَ في الدِّيار، أو نُريدُ له نحن مُخْتاريـن ذلك الدُّخول، فأَخَذَتْنَا الرَّبْكَةُ الشّديدة: ماذا أنا صَانِعٌ بمُحْتَوى بيتي إذا دَخَلَهُ هذا العِمْلاق؟، أأُلْقِي بذلك المُحْتَوى في البَحْرِ ليَخْلُصَ المكانُ للوَافِدِ الجبّـار، أَمْ أُسَارِعُ بإعـادةِ تَرْتيبِ المُحْتَوى بحيث لا يكون ثَمّة تعارُض بينه وبين الزَّائِـرِ الكبير؟. إنّ شيئاً كهذا يَحْدُثُ بالفِعْـلِ حين تَشَاءُ المُصَادَفَةُ للواحِدِ منّا - إذا كان يحيـا فـي بيته حيـاةً مُتواضِعـةً - أنْ يُفَاجِئَهُ زَائِرٌ عُـرِفَ عنه الثّرَاءُ الضّخْـمُ أو التّحَضُّرُ الحديث، فعندئذٍ تَأْخُذُنَا رَبْكَـةٌ فيما نحن صَانِعُوه بأنْفسنا ليَتَّفِقَ الوَضْعُ مع مَنْزِلَةِ الزَّائِرِ المُتْرَفِ المُتَحضِّر).

٤) يُؤَكِّدُ مالك بن نبيّ[٢] هذا الوَاقِعَ بقولِه: (ومن المُمْكِن أنْ نَفْحَصَ الآن سِجِلّات هذه الحِقْبَة، ففيها كثيرٌ من الوثائِق والدِّراسات ومقالات الصُّحف، والمؤتمرات التي تَتَّصِـلُ بموضوعِ «النّهْضَة». هذه الدِّراساتُ تُعالِـجُ الاسْتِعْمَارَ والجَهْلَ هنا، والفَقْـرَ والبُؤْسَ هنـاك، وانْعِدَامَ التّنْظيـم واخْتِلالَ الاقْتصـادِ أو السّياسةِ في مُنَاسَبَـةٍ أُخْرَى، ولكن ليس فيهـا تَحْليلٌ مَنْهَجِيٌّ للمَرَض، أَعْنِـي دِراسةً مَرَضِيّةً للمُجْتمـعِ الإسْلامـيّ، بحيث لا تَدَعُ مجالاً للظَـنّ حول المَرَضِ الـذي يَتَأَلَّمُ منه

منــذ قُرُون. ففــي الوثائِق نجدُ أنّ كُلَّ مُصْلِحٍ قد وَصَفَ الوَضْعَ الرّاهِنَ تَبَعاً لرأيه أو مِزاجِـه أو مِهْنتِه، فـرَأْيُ رَجُلٍ سياسيٍّ كجمال الدين الأفغانــي: «أنّ المُشْكِلَةَ سياسيّــةٌ تُحَـلُّ بوسائِل سياسيّــة»، بينما قد رأى رَجُلُ ديــنٍ كالشّيخ محمد عبده أنّ «المُشْكِلَــةَ لا تُحَلُّ إلاّ بإصْلاحِ العقيــدة والوَعْظ..الخ..» على حين أنّ كُلَّ هذا التَّشْخيصِ لا يتناولُ في الحقيقة المَرَض، بَلْ يَتَحَدَّثُ عن أَعْرَاضِه).

٥) يَتَوَقَّــفُ محمــد عابد الجابــريّ[١] أمام أنْــواعِ «الخِطَابِ العربــيّ المُعَاصِر» من خِطَــابٍ نَهْضَويٍّ، وخِطَابٍ سياســيٍّ، وخِطَابٍ قَوميٍّ، وخِطَــابٍ فَلْسفيٍّ، ليَخْلُصَ إلــى أنّ: (الخِطَابُ العربيُّ الحديــثُ والمُعَاصِرُ لم يُسَجِّــلْ أيَّ تَقَدُّمٍ حقيقيٍّ في أيّة قضيّةٍ من قضاياه منذ أنْ ظَهَرَ كخِطَابٍ يُبَشِّرُ بالنّهْضَةِ ويَدْعُو إليها انْطِلاقاً مــن أواسِطِ القَرْن الماضي. لقد بَقِيَ هذا الخِطَابُ، طَوَالَ هذه الفَتْرَة، وما زال سجين «بَدَائِل» يَدُورُ في حَلْقَةٍ مُفرغةٍ لا يَتَقَدَّمُ إلاّ ليعود القَهْقَرَى لِيَنْتَهِيَ به الأمْرُ فــي الأخير، لدى كُلِّ قضيّــة، إمّا إلى إحالتِها على «المُسْتَقْبَل»، وإمّا إلى الوقوفِ عندهــا، مع الاعْتِرَافِ بالوقوعِ في «أَزْمَة»، والانْحِبَاسِ في «عُنُقِ الزُّجاجة». ومن هنــا تَجَلّى لنا زمن الفِكْرِ العربيّ الحديــث والمُعَاصِر زمناً رَاكِداً جَامِداً «مَيِّتاً»، أو قَابِلاً لأن يُعامَلَ كـ«زَمَنٍ مَيِّتٍ»، أو على الأقلّ لا شيء يُغَيِّرُ من مُجْرَيَاتِ الأُمُور فيه إذا عُومِلَ كـ«زَمَنٍ مَيِّت»).

٦) يَتَأَمَّــلُ عبد الحميد أبــو سليمان[٢٦] – في تقييم عامٍّ – حالــة المُسْلِمين فيقول: (والمُسْلِمــون، منــذ أنْ تَبَيَّنُــوا هــذا التّحَدّي، أَخَذُوا فــي التّعَرُّفِ علــى الجُهُودِ الحضاريّــة للأُمَــم الأُخْرَى، وأقامــوا العَلاقَاتِ التي أَمَّلُوا مــن خَلْفِهَا اسْتِدْرَاكَ مــا فَاتَهُم، وللأسف فإنّهم لم يُحَقِّقُوا كثيراً ممّا كانــوا يَأْمَلُونَه، فما زالتْ الهُوَّةُ الحضاريّــةُ بينهــم وبين مــن سِواهم مــن الأُمَمِ تَــزْدَادُ وتَتَّسِعُ علــى الرّغْم من ضخامة الجُهُودِ والنَّفَقَاتِ التي أَنْفَقُوهَا للمُبَارَاةِ في سِبَاقِ الحضارةِ والقُدْرَةِ في هــذا العَصْر. ومن الواضِح أنّ المزيد من جُهُــودِ التّرْجَمَةِ العِلْميّةِ أو الأدبيّةِ من أعْمَالِ الحضارات الأُخْرى، أو المزيد من البَعْثَاتِ والمعاهِدِ والجامعاتِ لن يُغَيِّرَ

كثيـراً من الصُّـورَةِ المُؤسِفَةِ التي يعيشُها المُسْلِمون في هـذا العَصْر، ولا يَبْقَى مـن سببٍ لهذه العِلَّة إلاّ ما آلَتْ إليه العَقْليّةُ الإسْلاميّـةُ ومَنْهَجِيّتُهَا من المُتَابَعَةِ والجُزْئيّةِ وضعْفِ رُوحِ المُبَادَرَةِ واضْمِحْلالِ الحماس النّفْسيّ والعقيديّ).

١-٥-٢) أين الخَلَل؟:

فـي ضوء ما سَبَقَ نجدُ أنّ المُعالَجَاتِ الفِكْريّة، والدِّراسَـاتِ التّنْمَويّة، والمُمَارَسَاتِ العمليّـة؛ كُلُّها تُؤكِّدُ وجود «إشْكَاليّةٍ جوهريّةٍ» في «تَرْكِيبةِ المُجْتمعات العربيّة» تَعُوقُهَا عن النُّهُوض، وتُحْبِـطُ مُحاولاتِها المُتَعَدِّدَة لـ«التّنْميـة» والتَّطَوُّر، وتُبَدِّدُ جُهُودَهَـا وإمْكَانَاتِها وطاقاتِهـا، ونَتَوَقَّـفُ هنا أمام تَأَمُّلِ مالـك بن نبيّ وهو يُحاولُ «فَـكَّ الشِّفْرَة» حيث يقول: (فـي اسْتِخْدَامِنَـا للمُصْطلحاتِ البيولوجيّةِ نجدُ أنّ الحضـارة مَجْمُوعةٌ من العَلائِقِ بين المجـالِ الحيويّ «البيولوجيّ» حيث يَنْشَأُ ويَتَقَوَّى هيكلُها، وبين المجالِ الفِكْريّ حيث تُولَدُ وتَنْمُو رُوحُهَا؛ فعندما نَشْتَرِي مُنْتَجاتِها فإنّها تَمْنَحُنَا هَيْكَلَهَا وجَسَدَهَا لا رُوحَهَا)[٢].

إنّ المَدْخَـلَ المَبْدئـيّ لفَهْمِ هذه «الإشْكَاليّة» هو أنْ نُـدْرِكَ أنّ هَيْمَنَةَ «النَّمُوذَجِ الغَرْبيّ» وتَفَوُّقَهُ الكَاسِحَ في مُخْتلف مضامير الحياة هو نِتَاجٌ طبيعيٌّ لقَفَزَاتِه النّوْعيّةِ وإنْجازاتِه البَاهِرَةِ علـى صعيد «العلوم والتّقْنية»، وهذه حقيقةٌ أَصْبَحَتْ المدارِسُ الفِكْريّةُ والتّوجُّهاتُ السّياسيّة جميعهـا - لحُسْنِ الحَـظّ - تَعْتَرِفُ بها وتَقْبَلُهَا دون جَدَلٍ كبيـرٍ أو تَحَفُّظٍ ذي بالٍ، ولكن تلك القناعة وَحْدَهَا لا تَكْفِي!. في هذا الإطار يَنْبَغِي أنْ نَتأَمَّلَ بواقِعيّةٍ المَقُولَةَ التي تُعْزَى إلى مايكل سبنس (Michael Spence) - الحَائِز على «جائزة نوبل في الاقْتصـاد» -: (السِّرُّ الحقيقيُّ الكَامِـنُ وراء «التّنْميـة» هو أنّه لا تُوجَدُ أَسْرَار)، وقد تَبْدُو هـذه المَقُولَةُ تَبْسيطاً لـ«قضيّة التّنْميـة» إلاّ أنّها في جوهرها تتناغمُ مع «طبيعة التّنْميـة» لتُؤكِّدَ أنّ الصُّعُوبَةَ لا تَكْمُنُ في تَحْديـدِ مُقَوِّمَاتِ «التّنْميـة» ومُتطلَّباتِها، ولكنّها - أساساً - رَابِضَةٌ في إشْكَاليّةِ تَفْعيلِ تلك الشُّرُوطِ والمُقْتضيات. إنّ العَجْزَ الحقيقيّ، الذي يُمَثِّلُ «إشْكَاليّة التّنْمية» في «المُجْتمعات العربيّـة»، هو العَجْزُ في إجْـرَاءِ «النَّقْلَة» من «عَالَمِ الأَفْكار» إلى «عَالَـمِ الأَفْعال»، وإيجادِ صِيغة تفاعُلٍ دائمٍ بين «العمل» و«الفِكْر»، وبين «الهياكِل التّنْظيميّة» و«الأداء الفَعّال»، ممّا

يَمْنَـحُ المُجْتمعَ ثراءَه ونشاطَه، ويُكْسِبُهُ العُمْقَ والحيويّة، وهذا يُجْبِرُنَا على إدْخَالِ عُنْصر «الثّقافـة» كـ«مُعْضِلَـةٍ» في حَـدِّ ذاتها تُجَابِـهُ «المُجْتمعات العربيّة»، ولهـا ارْتباطٌ عُضْويٌّ بـ«إشْكَالِيّة التّنْمية» وتحدّياتها.

إنّ المُتَأمِّـلَ لـ«أدبيّـات التّنْمية» ومُعْضلاتِهـا سيَكْتَشِفُ أنّ هنــاك شُرُوطاً أخْلاقيّةً وسُلُوكيّةً وقِيميّةً وعَقْليّـةً وثقافيّةً ضروريّةً لاخْتِرَاقِ «تُخُوم التّنْمية»، والخَوْضِ باقْتِدَارٍ في عَالَمِ التّقَدُّمِ والازْدِهَار؛ وكُلُّ تلك القِيَمِ والمُمَارَسَاتِ والمفاهِيمِ والأدواتِ هي في انْسِجَامٍ كَامِـلٍ مع «السُّنَـن الكَوْنيّة» سواءً كانتْ علـى صعيد «العِلْم الطَّبيعـيّ» وتَطْبيقاتِه، أو على مُسْتـوى الرُّؤى السَّويّةِ في عَوالِمِ الاجْتمـاع والفِكْر والاقْتصاد؛ ولذا فإنّ «شُرُوطَ التّنْمية» لا تُحَابِي أحداً للونِه أو عِرْقِه أو دِينِه، ولكنّها تَأْتِي – طَوْعَاً أو كَرْهَاً – لمن أَخَذَ بأسْبابِها، وتَعَـرَّفَ على جوهرِها، واسْتَوْعَبَ حقائِقها. وعلى هذا الأساس فإنّ الحِواراتِ التّنْظيريّةَ فـي عُمُوميّاتٍ فِكْريّـةٍ، أو مُنْطلقاتٍ فَلْسفيّـةٍ، أو حَلَقَاتٍ وَعْظيّةٍ، أو مُزايـداتٍ لَفْظيّةٍ، في الإشَادَةِ بأهميّةِ «الحركة العِلْميّة – التّقنيّة»، قد تكون أَمْراً طبيعيّاً في حياة البشر، وجُزْءاً مَقْبُـولاً مـن تفاعُلاتِهم اليوميّة، ولكنّها لا يُمْكِنُ أنْ تُنْجِزَ وَاقِعـاً مَلْمُوساً دون انْتِقَالِهَا من حَيِّـزِ التَّنْظيرِ ونِطَاقِ التَّفْكير، إلى مُمَارَسَاتٍ عمليّةٍ وإجْرَاءَاتٍ تَطْبيقيّةٍ تتناغَمُ مع طبيعة المُشْكلة، وتتفاعلُ مع عناصِرها.

يَتَّضِحُ من الإخْفَاقَاتِ المُتَكَرِّرَةِ في مُعالَجَةِ «إشْكَالِيّة التّنْمية» أنّ «التّقَدُّمَ» و«النّهْضَةَ» ليسا مُرْتَبِطَيْـن بالقُدْرَةِ على الحُصُولِ على التّقْنيّة، وشِرَاءِ أجْهِزَتِهَـا ومُعِدَّاتِهَا، واسْتِخْدَام أدواتِها ومُشْتَقَّاتِهَـا، ولكنّهمـا يَكْمُنان في القُدْرةِ على «إنْتَـاجِ التّقْنيّة» وتَطْويعِهـا، و«امْتِلاكِ المَعْرفَة» وتَطْويرِها، وذلك هو جَوْهَرُ «التّحَدّي المُعَاصِر» وأُسُّ هذه «الإشْكَاليّة التّنْمَويّة» المُتَفاقِمَة، وهو مـا يُوَضِّحُهُ أسامة عبد الرحمن بقولـه: (إنّ الإنْسانَ الذي تَهْدِفُ «التّنْمية» إلى إكْسَابِهِ القُدْرة على الإنْتَاجِ وقَطْفِ ثِمار الإنْتَاج ما زال بعيداً عن «مِحْوَرِ التّنْمية الحقيقيّ»)[١٢].

وإذا قَبِلْنَـا هذا المَدْخَلَ لفِهْمِ هذه «الإشْكَالِيّة»، فإنّه يجب أنْ نُطِلَّ – بتأمُّلٍ عميقٍ – علـى حقيقـةٍ جوهريّةٍ سنُؤَصِّلُ لها ونُحَدِّدُ مَلامِحَهَا في سِياقِ هذا الكِتاب، وهي أنْ نُدْرِكَ

أنّ «آليّـات التّقْنيّــة والعلوم الحديثــة» لا تَسْتطيــعُ أنْ تَعْمَلَ في فَرَاغ؛ فهي فــي حَاجَةٍ إلى وَسَــطٍ يَدْعَمُهَا، ويُحَرِّكُ آليّاتِهَا، ويُكَيِّـفُ صُوَرَهَا، ويَضْبِطُ اتِّجَاهَاتِهَـا، ويُغَذِّيها بالعُقُولِ والمَواهِب، ويَسْنُدُهَا بالسّياسات والقرارات. إنّ الوَاقِعَ الحزينَ يُؤكِّدُ أنّه عبْر عُقُودٍ طويلةٍ مــن الجُهُودِ في مجـالاتِ التّصْنيعِ والبُحُـوثِ والتّدْريبِ فإنّ «المُجْتمعـات العربيّة» بَقِيَتْ حيــث هِيَ، إنْ لم تَتَقَهْقَرْ مُقارَنَةً بالتَّطَـوُّرِ المُذْهِلِ لدى الآخَرين؛ فلا هي أنْتَجَتْ، ولا هي طَـوَّرَتْ، ولا هي أبْدَعَتْ؛ وتَنْمُو «قَائِمَــةُ المُشْتريات» وتتوالدُ، بينما تعيشُ هذه المُجْتمعات «أنْمَاطــاً اسْتِهْلاكيّةً» مُتنامِيةً بمَنْأىً عــن عمليّاتِ «البَحْث والتّطْوير والإنْتاج»، وتُعَانِي من مُشْـكِلاتٍ عِدّةٍ منْها - على سبيــل المِثال - «هِجْرَةُ الأدْمِغَة» إلى «المُجْتمعات المُتَقَدِّمَة»، و«تَنْويــع مصادِرِ الدَّخْل»، وضعْف القُوّة الجَاذِبــة لـ«الاسْتِثْمَارَاتِ الأجْنبيّة» في المجالاتِ الإنْتاجيّة والصّناعيّة والتّقنيّة.

لا شَــكّ فــي أنّ أبْــرز سَلْبيّــاتِ «الفِكْــرِ التّنْمَويّ» الرّاهِــنِ هو ما وَصَفَــهُ رمزي زكي بـ«الصّياغــة الخَاطِئَــة لعمليّــة التّنْمية»[11]؛ فلقد ظَنّــتْ «المُجْتمعات العربيّــة» أنّ حركة التّقْنية والتّقَدُّمَ العِلْميّ والنّشَاطَ الإنْتاجيّ أُمُورٌ تَحْدُثُ تِلْقائيّاً، وتَنْتَشِرُ عَفْويّاً بمُجَرَّدِ فَتْحِ الصّناديق المُغْلَقَةِ ووصولِ الخُبَرَاءِ المُتَمَكِّنين، ولم تُفَكِّرْ في طبيعة «الوَسَطِ» اللّازِم لدَفْعِ عناصِــر «الحركة العِلْميّة - التّقنيّــة»، وتَفْعيلِ مُقَوِّماتِها، ولم تُــدْرِكْ أنّ «التَّغْييرَ المادّيَّ» المُتَمثِّلَ في «شَكْليّات التّنْمية» ومَظَاهِرِهَا أسْهل بكثيرٍ من «التّغْييرِ في المُمَارَسَاتِ والقِيَمِ والمفاهيــمِ الاجْتماعيّة» التــي تُمَثِّلُ جَوْهَرَ «التّنْمية» وأساسهــا الصُّلْب. إنّه من المُهِمّ أنْ نضــع أيدينا على ما أسْمَاهُ جمال الدّين الأفغاني[16] بـ(الفَلْسَفَة المُنَاسِبَة) التي يجب أنْ يَكْتَسِبَها المُجْتمع، وأنْ نَتَعَرَّفَ - عبْر التّشْخيصِ الدّقيق - على (المَرَض وليس الأَعْرَاض) وفْق طَرْحِ مالك ابن نبيّ[2]، وأنْ نَسْبُرَ أغْوَارَ تلك الظُّرُوفِ الدّاخِليّةِ التي (نُلامُ عليها أشدّ اللّوم) وفْق تَعْليلِ طه حسين[17]، وأنْ نَقْتَرِبَ من أسْبَابِ (الهُوّة الحضاريّة بيننا وبين من سِوانا من الأُمَمِ التي تَزْدادُ بالرّغْم من ضخامة الجُهُودِ والنَّفَقَاتِ التي أنْفَقْنَاهَا للمُبَارَاةِ فــي سِباقِ الحضارةِ والقُــدْرَةِ في هذا العَصْر) وفْق تَحْليلِ عبــد الحميد أبو سليمان[26]. أمّــا أنور عبد الملــك فيَشْجُبُ - في هذا السِّياق - عمليّة «التَّحْديــث» لأنّها عمليّة (تَقْليد

للغَـرْبِ دون بِنَـاءِ القُوّة الإبْداعيّة، وتَضْخيـم نَوْعٍ من النّشاطِ الاقْتصـاديّ الطُّفيليّ دون تَنْميةِ القُـوى الإنْتاجيّةِ والعِلْميّةِ والتّكنولوجيّةِ تَنْميةً إسْتراتيجيّةً على المدى البعيد)(١١)؛ وأمّا إسماعيل صبري عبد الله فيرى أنّ: («التّنْمية» بطبيعتِها عمليّةٌ شَامِلَةٌ، يُشَكِّلُ «النُّموّ الاقْتصاديّ» عمودها الفِقْريّ، ولكنّه لا يَسْتَوْعِبُها كَامِلَةً)(١١).

وهكـذا نرى في «أدبيّات التَّنْمية» في العَالَـمِ العربيّ قَلَقاً وَاضِحاً وأَزْمَةً عميقةً حول «مَفْهُـومِ التّنْمية» ومُقَوِّماتِها، كما نَشْهَدُ مُراجَعاتٍ كثيفـةً للنَّمَاذِجِ المَطْرُوحَةِ ومُؤَشِّرَاتِهَا الكَمِّيّـةِ والنَّوْعيّة(١١)، فيرى محمد لبيب شقيـر أنّ: (الوَضْع الرّاهن للفِكْر التّنْمَويّ يَتَمَثَّلُ فـي انْعِـدَامِ الثِّقَةِ في «الفِكْـرِ التّنْمَوِيّ التّقْليديّ» الـذي ظَهَرَ وسَادَ بعد الحَـرْبِ العالميّة الثّانيّة وحتّى مُنْتَصف السّتّينات، وعدم التّوصُّلِ إلى إقَامَةِ بديلٍ نَظَريٍّ مُتَكَامِلٍ يَحُلُّ مَحَلّ هـذا «الفِكْـرِ التّنْمَويّ التّقْليديّ»، ويَصْلُحُ لأنّ يَلْعَبَ - بقُوّةٍ وكَفَاءَةٍ - الدَّوْرَ الذي كان يَلْعَبُهُ هذا الأخير كإطارٍ مَرْجِعِيّ)(١١)، وأمّا نادر فرجاني فيُقَرِّرُ أنّ: (التَّوصُّل إلى تَصَوُّرٍ جديدٍ لـ«التّنْمية» هو «المُهِمّة الفِكْريّة الأولى» الجديرة بالرّعاية من المُثقَّفين العرب)(١١).

إنّ الوقـوفَ أمـام تلـك الحقائِـق بعناصِرِهـا السّياسيّـة والفِكْريّـة والمُجْتمعيّـة والتّنْظيميّـة، ومراحِـل الإخْفَاقَاتِ التي عايشتهـا «المُجْتمعات العربيّة» بمُخْتلـفِ أَلْوَانِهَا السّياسيّـةِ ومَدَارِسِهَا الفِكْريّةِ ومُحَاوَلاتِهَا التّكْديسيّةِ للمُنْتَجات العَصْريّة، تَشِي - كُلُّهَا - بخَلَلٍ رئيسٍ في طرائِق التّفْكير، ومناهِج العمل، ومَنْظُوماتِ المُمَارَسَة، وأُطُرِ التّعامُلات. ولـذا فإنّه يَنْبَغِي الخُـرُوجُ من دَوَّامَـةِ التَّأمُّلاتِ الفِكْريّـةِ العَشْوائيّةِ وسَـرَابِ المُحَاوَلاتِ الارْتِجَاليّـةِ التـي أَثْبَتَتْ فَشَلَهَا عبْر الزّمن، وأَصْبَحَ من الحَتْمِـيّ - ونحن نَقْطَعُ شَوْطاً في «الأَلْفيّـة الثّالثة» - التّفْكيرُ الجَادُّ في «طبيعة الخَلَـلِ» و«جَوْهَرِ الإشْكَاليّة» عبْر البَحْثِ عن طبيعـة ذلك «الوَسَـطِ» اللّازِمِ لتَحْقيـقِ «شُرُوط التّنْميـة»، وتَكْثِيفِ «الانْسِيـابِ المَعْرِفِيّ - العِلْمِـيّ» خلال «النَّسيـج المُجْتمعيّ»، وتَدَفُّـقِ الإبْدَاعَاتِ التّقنيّةِ عبْر قنـواتِ المُجْتمع المُخْتلفـة، وانْسِجَامِ مُمَارَسَاتِ أَفْرَادِهِ الحياتيّةِ مع «طبيعة التَّحدّي». وغَنِيٌّ عن القَوْلِ إنّ مـن مُواصَفَاتِ ذلك «الوَسَطِ» أنْ يَحْتَوِيَ على الفِكْرِ والتَّعَامُلات، ويُهَيْمِنَ على التَّفَاعُلاتِ والمُمَارَسَـات، ويَحْمِـلَ مُجْمَـلِ النّشـاط البشـريّ، ويَجْمَـعَ المفاهيـمَ السَّائِـدَةَ والقِيَمَ

المُهَيْمِنَة، ويُنَظِّمَ المَدَارِكَ والعَلاقَات، ممّا يُجْبِرُنَا على التَّوَقُّفِ أمام مُصْطلح «الثّقافة»، ويَفْرِضُ علينـا مُرَاجَعَةً فَاحِصَةً لعناصِر هذا المُصْطلح وطبيعتِـه ومُقَوِّماتِه وتفاعُلاتِه. وأمّـا الأَمْـرُ الأهمُّ من ذلـك فهو ألاّ تَبْقَى تلك الحقيقـة مُجَرَّدَ رُؤيةٍ نظريّـةٍ وحِوارٍ عقيمٍ وسَفْسَطَةٍ كلاميّةٍ، ولكن الطُّمُوحَ الأَسَاسَ هو أنْ نَتَعَرَّفَ على خصائِص «التَّكْوين الثَّقافيّ» الفَاعِلِ ومُقَوِّماتِـه وآليّاته، وأنْ نَتَلمَّسَ الوسائِلَ الفِكْريّةَ والعمليّةَ القَادِرَةَ على تَحْقيقِ تلك «التَّنْميـة الشّامِلَـة» المَنْشُودَة، والخُرُوجِ من ذلك الحال - الذي تعيشُـهُ «الحالةُ التَّنْمَويّةُ العربيّـةُ» - المُشَابِهِ لذلك الوَصْفِ الـذي أَطْلَقَهُ ماثيو أرنولد (Mathew Arnold) على نِهَايَـةِ العَصْـرِ الفيكتوريّ في بريطانيا بأنّـه يَتَأَرْجَحُ بين عَالَمَيْن: (وَاحِـدٌ مَيِّتٌ، والثَّانِي عَاجِزٌ عن أنْ يُولَد)[11].



«الثَّقَافَة»: التَّعْرِيفُ والرُّؤيَة

٢-١) مَدْخَل:

هناك شِبْهُ إجْماع بين المُثقَّفين والمُفكّرين العرب، بمُخْتلف أطْيافِهم واهْتماماتِهم، علـى أنّ «المَسْأَلَـةَ الثّقافيّةَ» تُمَثِّلُ عُنْصراً جوهريّاً في «العمليّـة النّهْضَويّة»، وهذا – على سبيـل المِثال – مـا يُؤكِّدُهُ طيِّب تيزينـي[٨] الذي يرى أنّ هناك: (ثلاثـة مَداخِل لا يَصِحُّ إغْفَالُهَـا باتِّجَـاهِ الدُّخُولِ في الفِعْـلِ النّهْضَويّ العربـيّ)؛ وهي: «المَدْخَـلُ الاقْتصاديّ»، و«المَدْخَـلُ السِّياسـيّ»، و«المَدْخَلُ الثّقافيّ» الذي لـه: (أهميّةٌ ذاتيّـةٌ خاصّةٌ على صعيد المَشْـرُوع النّهْضَويّ العربـيّ؛ ذلك أنّه يَعْمَلُ على إعادةِ بِنَاءِ الإنْسـان العربيّ عُمُوماً عبْر تَحْصينِه بالقِيَـمِ العَقْلانيّةِ والوطنيّـةِ والقوميّةِ النّقْديّة، وبمفاهيم المُسَـاوَاةِ والتَّسَامُحِ والتَّضَامُنِ والأُخُوّةِ والإنْسانيّةِ العالَميّة).

أمّـا إهمال «المَسْأَلَـةَ الثّقافيّةَ» في التّفاعُلاتِ العربيّـةِ وسياساتِها المُخْتلفةِ، فأمْرٌ يـكاد يكـون مُتَوَقَّعاً، لا لشيءٍ إلاّ لأنّ فَهْمَ مدى تَأْثيرِ «الثّقافة» على المُجْتمعات أمْرٌ حديثٌ نِسْبيّـاً على خريطة «الفِكْـر الإنْسانيّ»»، وهذا مـا يُؤكِّدُهُ فريدريـك جيمسون (Fredric Jamson) بقولـه: (لقـد تَوسَّـعَ مَفْهُومُ «الثّقافـة» توسُّعاً هائِلاً في جميـع أرْجاء المجال الاجْتماعـيّ حتّـى صار مـن المُمْكِنِ القَـول إنّ كُلَّ ما في حياتنـا الاجْتماعيّـة، من القيمةِ الاقْتصاديّـةِ وسُلْطَةِ الدّولةِ والمُمَارَسَاتِ إلى بِنْية النّفْس ذاتها، قد غدا «ثقافيّاً» بالمَعْنَى الأصْليّ للكلمة وعلى نَحْوٍ لم يُنْظَرْ له بعْد)[٢٧].

وبمَنْـأىً عن التّوصيفاتِ ذات النّكْهَاتِ الحَرَكيّةِ والصِّبْغَاتِ التّعْميميّة، فإنّ ما يُهِمُّنَا هنا هو التّأْكيدُ على مِحْوَرِيّةِ «الدَّوْرِ الثّقافيِّ» في «مَشْرُوع النَّهْضَة». ولكي نُؤسِّسَ لمُعَالَجَةٍ

موضوعيّةٍ لقضيّةِ «إشْكَاليّة التّنْمية»، التي هي مِحْوَرُ اهْتِمَام هذا الكِتاب، فإنّه من المُهِمّ أنْ نَتَعَرَّفَ – ابْتداءً – على مضامين مُصْطلح «الثّقافة»، وأنْ نَخْلُصَ إلى تَعْريفٍ مُنْضَبِطٍ لـه، حيث إنّه «لَفْظٌ طَارِئٌ» على اللّغـة العربيّة، ومن دَلالاتِـهِ اللّغويّةِ «تَقْويـمُ الاعْوِجَاج» و«الفَطَانَـةِ» و«الحِذْقِ»، وقـد جاء في «لِسَانِ العـرب»: (ثَقِفَ الشّـيء، أيْ حَذَقَهُ وفَهِمَه) [١٨،٢٨،٢٩]. لقـد تَمَّ توليـدُ مُصْطلح «الثّقافة» في اللّغـة العربيّة ليُقَابِـلَ المُصْطلح الغَرْبيّ «Culture»، وليَحْمِـلَ أبْعَاداً فِكْريّةً، ومضاميـن اجْتماعيّةً، ورُؤىً حياتيّةً، أعْمق بكْثيرٍ من دَلالاتِ المَعْنَى اللّغويّ للكلمة، ويَبْدُو أنّ سلامة موسى هو الذي سَكَّ هذا المُصْطلح ليُقَابِلَ المُصْطلـح الغرْبيّ بدَلالاتِـه الحديثةِ حيث يقول: (كنتُ أوَّل من أفْشَى لَفْظَةَ «الثّقافة» في الأدب العربـيّ الحديث ولم أكنْ أنا الـذي سَكَّهَا بنفْسه فإنّي انْتَحَلْتُهَا من ابن خلدون، إذْ وَجَدْتُهُ يَسْتَعْمِلُهَا في مَعْنىً شبيهٍ بلَفْظَةِ «كلتور» الشّائِعَةِ في الأدب الأوروبيّ حيث «الثّقافة» هـي المعارِف والعلوم والآداب والفُنُون يَتَعَلَّمُهَا النّاسُ ويَتَثَقَّفُون بها، وقد تَحْتويها الكُتُبُ ومع ذلك هي خاصّةٌ بالذِّهْن) [٣٠].

٢-٢) تَعْريفاتٌ لمُصْطلح «الثقافة»:

يَتَّسِـعُ مُصْطلحُ «الثّقافة» (Culture) في «الفِكْرِ الغَرْبـيِّ» لدَلالاتٍ فِكْريّةٍ وتاريخيّةٍ ولُغَويّـةٍ واجْتماعيّةٍ وفَلْسفيّةٍ، ويرى مالك بن نبـيّ أنّ «مَفْهُومَ الثّقافة» في «الفِكْر الغَرْبيّ» هـو: (ثَمَرَةٌ من ثِمَـارِ «عَصْرِ النَّهْضَـة» عندما شَهِـدَتْ أوروبا في القَـرْن السّادس عشر انْبثـاق مَجْمُوعـةٍ من الأعْمال الأدبيّة الجليلـة في الفنّ وفي الأدب وفـي الفِكْر) [٢٨]، كما أنّ العَلاقَـةَ الجَدَلِيّـةَ – التّبَادُليّـةَ بيـن مُصْطلحاتِ «الثّقافـة» و«الحضـارة» و«المَدَنيّة» و«المَعْرِفَـة» و«الطَّبيعـة» تُلْقِي بظِلالِهَا الكثيفةِ والمُهِمّةِ عند التّعْريـفِ والتّحْليلِ والتّقْويم والتّأْصيـل [١٨،٢٠،٢٧،٢٨،٣١]. وفـي حالة «الفِكْـر الغَرْبيّ»، نجدُ أنّ تَعْريـفَ مُصْطلح «الثّقافة» يَخْضَعُ للتّوجُّهَاتِ الفِكْريّةِ السّائِدَةِ والاهْتِماماتِ الفلْسفيّةِ المُهَيْمِنَةِ في المرْحلةِ التّاريخيّةِ المَعْنِيَّة؛ فهو عند بعْضهم «تُرَاثُ الإنْسانيّات الإغْريقيّة اللاتينيّة» [٢٨] لتكون «الثّقافة» هي «ثَمَـرَةُ الفِكْر» لتُصْبِـحَ ذات عَلاقَةٍ وظيفيّـةٍ بالإنْسان، وعند آخَرين تكـونُ «الثّقافة» هي

«فَلْسَفَـةُ المُجْتمع» لتُصْبِحَ ذات عَلاقَـةٍ وظيفيّةٍ بالجماعة[٢٨]، ويرى بعضهم أنّ «الثّقافة» تُشِيرُ إلى «أَرْفَعِ أشْكَالِ التّهْذيبِ البشريّ»[٢٧].

ومـن أقْـدم تَعْريفـات «الثّقافـة» ذلـك التَّعْريـف الـذي طَرَحَـهُ إدوارد تايلـور (Edward Taylor) في أواخِرِ القَرْن التّاسع عشر الميلاديّ، وهو يَنُصُّ على أنّ «الثّقافة» هي: (كُلٌّ مُرَكَّبٍ يَشْتَمِلُ على المَعْرفة والمُعْتقدات، والفُنُون والأَخْلاق، والقانون والعُرْف، وغيـر ذلك من العـادات التي يَكْتَسِبُهَا الإنْسـانُ باعْتِبارِهِ عُضْواً فـي المُجْتمع)[٣١]، ومن الواضِـحِ أنّ هـذا التّعْريـف يَغْرِسُ «الثّقافـة» في «التّرْكيبـة المُجْتمعيّـة» ليُصْبِحَا وَحْدَةً مُتفاعِلَـةً، ممّا يَعْنِـي أنّ «الثّقافة» لا تُوجَدُ إلاّ في وجود «المُجْتمع»، وأنّ «المُجْتمع» لا يقومُ ويَبْقَى إلاّ بـ«الثّقافة» التي تَمُدُّهُ بالأدواتِ الّلازِمَةِ لاطِّرَادِ الحياة فيه، ولا فَرْقَ في ذلك بين الثّقافات البدائيّة والحديثة. أمّا أبْرز التّعْريفاتِ المُبَكِّرَةِ لـ«الثّقافة» عند العرب فهو أنّها (الأَخْـذُ من كُلِّ شيءٍ بطَرَف)[٢٩]، وفي أوروبـا قالوا: (لا يَتِمُّ عِلْمُ المَرْءِ إلاّ إذا عَلِمَ شيئاً عـن كُلِّ شـيءٍ، وكُلَّ شيءٍ عن شـيء)[٢٩]، إلاّ أنّ التّجْرِبة الإنْسانيّـة الحديثة والمُقارَبات الفِكْريّة المُتَطَوِّرة تجـاوزتْ هذه التّعْريفات بمراحِل؛ فما عُرِفَ بـ«المُثقَّف الشُّمُوليّ»[١٨]، وهو النَّمُوذَجُ الذي نَشَأَ في القَرْن الثّامن عشر في أوروبا، قد تآكل بفِعْلِ عناصِرِ عِدَّةٍ ليس أهْونهـا بُرُوزَ أنْمَاطٍ مَعْرفيّـةٍ مُخْتلفةٍ ذات طَابَعٍ تخصُّصيٍّ وطبيعـةٍ تراكُميّةٍ وخصائِص مُتَجَدِّدَةٍ أَصْبَحَ لها التّأْثيرُ الأكْبر في حياةِ البشر وتَطَوُّرِ المُجْتمعات.

لقـد تفاعـل «مَفْهُومُ الثّقافة» مع أنْمَـاطِ «الحياة الحديثـة»، وأشْكالِها الاجْتماعيّة، وتفاعُلاتِهـا المُتَعَدِّدَة، فنجدُ - على سبيل المِثـال - أنّ تشارلز سنو (C.P.Snow)، في أواخِرِ الخمْسينات من القَرْن الماضي، يُقَرِّرُ أنّ: («الثّقافة» هي الاسْتِجَابَةُ المُتَماثِلَةُ التي تَحْـدُثُ دون تَفْكيـر)[٣٢]، وهذا يَعْنِـي أنّ «الثّقافة» هي الشّيء الذي يُصْبِـحُ شِبْهَ غريزيٍّ فـي التّفْكيـرِ والتّحْليلِ والسُّلُـوك والمُمَارَسَةِ، فهي بذلك تُصْبِحُ وفْـق التّعْبير الإنْجليزيّ: «طبيعةً ثانيةً» (Second nature). ويَلْتَقِي هذا التّعْريفُ مع رأي تيري إيجلتون (Terry Eagleton) الـذي يَعْتَبِـرُ أنّ «الثّقافة» هي: (تلك القناعات والمُيُـول المُسَلَّم بها بداهةً، والتـي لا بُدَّ مـن وجودها كي يكون بمقْدُورنـا أنْ نَتَصَرَّفَ أيّما تَصَـرُّف)[٢٧]، ويكاد هذا

التّعْريـفُ يتطابـقُ مع الرّأي الـذي رواه مالك بن نبـيّ[٣٣] عن إدوار هوريـو - عميد كلية الآداب فـي «جامعة ليون» - بقوله: («الثّقافة» هي مـا يَبْقَى عَالِقاً بالأذْهَانِ عندما نَنْسَى مـا تَعَلَّمْنَـاه)، وتَقْتَرِبُ هذه الرُّؤيةُ لـ«الثَقافة» مع ما طَرَحَـهُ توماس إليوت (T.S.Eliot) حيث يقول: («الثّقافة» هي قبل كُلِّ شيءٍ ما يَعْنِيه الأنْثروبولوجيّون؛ أيْ طريقة حياة شَعْبٍ بعينه يعيشُ معاً في بُقْعَةٍ وَاحِدَة)[٢٧]؛ وبالتّالي فإنّ «ثقافة المُجْتمع» عند إليوت هي: (ما يَجْعَلُ من هذا المُجْتمع مُجْتمعاً)[٢٧]. ويتوافقُ هذا التّعْريفُ مع اخْتيار زكي نجيب محمود إذْ يقـول: (تَجَانُسُ الشَّعْـبِ الوَاحِدِ فـي ثقافةٍ وَاحِـدَةٍ، معْنَاهُ أنّ أفْراد ذلـك الشَّعْبِ قد رَبَطَتْهُـم «اهْتماماتٌ» مُتَشابِهةٌ، يَتَّجِهُون بها جميعـاً نحو أُفُقٍ وَاحِدٍ مُشْتَرَك)[٢٠]، وتَتَعَمَّقُ الرُّؤيةُ نفْسها عند قسطنطين زريق حيث يُؤَكِّدُ أنّ «الثّقافة» هي: (جِمَاعُ حياة مُجْتمعٍ من المُجْتمعات، بُدَائيّاً كان أو مُتَقَدِّماً رَاقِياً)[١٨].

وبالإضافـة إلـى أنّ لمُصْطلح «الثّقافـة» تداعِياتٍ لُغَويّـةً وتاريخيّـةً وفَلْسفيّةً، فإنّه - أيضـاً - مَحَـلُّ صِراعٍ سياسـيٍّ؛ فيرى فريدريـك تشيللـر (Friedrich Schiller) أنّ: («الثّقافـة» هي الآليّـةُ المُحَرِّكَةُ حيث تُقَولِبُ الذّوات البشريّة تَبَعاً لحاجاتِ نَوْعٍ جديدٍ من النّظـام السّياسيّ، فتُعِيدُ صِياغتهم، وتُحَوِّلُهُمْ إلـى أدواتٍ طَيِّعةٍ ومُعْتدِلَةٍ ولا مُبالِيَة)[٢٧]، ويُمَحِّصُ ريموند ويليامز (Raymond Williams) تلك الرُّؤية لتَسْتَوْعِبَ مَفْهُوماً حركيّاً ديناميكيّـاً حيث يقـول: (إنّ المعاني المُتَشابِكـةَ المُعَقَّدَةَ التي يَنْطَـوِي عليها المُصْطلحُ تُشِيـرُ إلى سِجَالٍ مُتَشابِكٍ ومُعَقَّدٍ بشَأْنِ العَلاقَاتِ التي تَرْبط بين التّطوُّرِ الإنْسانيّ العامّ، وطريقـةِ حياةٍ مُحَدَّدَةٍ، وبين كليهما من ناحيةٍ، وبين أعْمالِ ومُمَارَسَاتِ الفنّ والذّكاء من ناحيةٍ أخْرى)[٢٧].

من المُهِمّ - في هذا السِّياق - أنْ نَتطَرَّقَ إلى تَعْريف «الثّقافة» الذي اخْتَارَهُ تشارلز سنـو[٣٢] عنـد صِياغتـه لمُصْطلـح «الثّقافَتَـان» (The Two Cultures)، فهـو يـرى أنّ «الثّقافة» تَحْمِلُ مَضْمُونَيْن؛ حيث يَقَعُ المَضْمُونُ الأوّلُ في إطارِ تَعْريفِ القاموس للمُصْطلح الـذي يُوَضِّـحُ أنّ: («الثّقافة» هي التَّطْويرُ الفِكْريُّ وتَنْميةُ العَقْـل)، وأمّا المَضْمُونُ الثّاني الـذي اخْتَارَهُ سنو فيتلخَّصُ في أنّ: («الثّقافة» هـي العاداتُ والمعاييرُ المُشْتَرَكَةُ وأنْمَاطُ

السُّلُوكِ المُوحَّدَةُ والفَرَضِيّاتُ والمُعَالَجَاتُ المُتوافِقَةُ بيـن الأفْرَادِ في المُجتَمع المَعْنِيّ) [٣٢]. وأمّـا محمد عابد الجابريّ، فيَطْرَحُ تَعْريفاً لـ«المُثقّف» يَشْمَلُ جميع (الذين يَشْتَغِلُون بـ«الثّقافـة»، إبْداعـاً وتوزيعاً وتَنْشيطاً، «الثّقافـة» بوَصْفِهَا عَالَماً من الرُّمُـوزِ يَشْمَلُ الفنّ والعِلْم والدِّين) [١٨].

نَسْتطيـعُ أنْ نَفْهَـمَ سَبَبَ تَعَدُّدِ التّعْريفـاتِ لمُصْطلح «الثّقافة» فـي ضوء اهْتماماتِ المُثقَّفين المُتَنَوِّعَة، والأنْشِطَةِ البشريّةِ المُتَعَدِّدَة، وطبيعةِ المرْحلةِ التي يعيشُها المُجْتمع، لنَخْلُصَ إلـى أنّ مُصْطلح «الثّقافة» مَرَّ بمراحِل مُخْتلفةٍ وفْـق طبيعة التّفاعُلات السّائِدة فـي البيئـات المُخْتلفة، ولعلّنا لا نُبَالِـغُ إذا قُلْنَا إنّـه كان لا بُدَّ لهـذا المُصْطلح من عُبُورِ تلـك المراحِـل حتى يَبْلُـغَ «مَرْحلة النُّضْـج»، ويَسْتطيـعَ أنْ يَسْتَوْعِبَ طبيعـة «التَّلاقُحَاتِ المُجْتمعيّـة» فـي ضوء انْفِجَـارِ «المعارِف الحديثـة»، وآثارِها العميقةِ فـي حيواتِ النّاس وتَواصُلِهـم، وأنْمَـاطِ اقْتصادهم، وضُغُوطِ الحيـاة المُعاصِرة. بطبيعـة الحال ليس من أهْـدافِ هذا الكِتَـابِ أنْ يَدْلِفَ إلـى الإشْكَالاتِ اللّغويّـةِ والفِكْريّةِ والتّاريخيّـةِ والفلْسفيّةِ لمُصْطلـح «الثّقافة»، ولا يهمّنا هنا أنْ نُغْرِقَ القـارئَ في تَعْريفاتِ «الثّقافة» التي لا حَصْرَ لهـا [٣١]؛ فالولـوجُ في «مَأْزِقِ المُصْطلـح» يَنْبَغِي أنْ يُؤخَذَ إلى نهايتـه للغَوْصِ في «أدبيَّات الثّقافة»، واستبطاناتِها الفَلْسفيّـة، وجُذُورِها التّاريخيّة، وارْتباطاتِها الماديّة، وتغيُّراتِها المُجْتمعيّة، وهذا في حَدِّ ذاته مجالٌ أكاديميٌّ وَاسِعٌ له رِجَالُهُ وفُرْسَانُه.

٢-٢-١) التّعْريفُ المُعْتَمَدُ لـ«الثّقافة»:

في رأْيي أنّ الأَمْرَ الأَهمّ والأبْرز فيما يَتَعَلَّقُ بمُصْطلح «الثّقافة» هو ما ذَكَرَهُ مالك بن نبيّ في أنّ: (مُشْكلة العالَم العربيّ والإسْلاميّ ليستْ مُنْحَصِرَةً في مُحَاوَلَةِ فَهْمِ «الثّقافة»، وإنّمـا في تَحْقيقِهَـا بصُورةٍ عمليّة) [٢٨]؛ ولذا فإنّه من المُهِـمّ أنْ نَضْبِطَ هنـا «إطار عملٍ» لهـذا المُصْطلح، وأنْ نَتَعَرَّفَ على المُصْطلح بعـد أنْ بَلَغَ «مَرْحلة النُّضْج»، ونتعارفَ على أرْضيّةٍ مُشْتَرَكَةٍ نَسْتطيعُ أنْ نَبْنِيَ عليها الفَرْضِيّاتِ والاسْتِنتاجات، ونَسْتَمِدَّ منها مُقَوِّمَاتِ التّمْحيص، وعناصِر التّحْليل، وجُذُورِ التّعْليل.

اسْتنــاداً إلــى ما سَبَق، فــإنّ التّعْريفَ الــذي سنَعْتَمِدُهُ في هذا الكِتَــابِ هو التّعْريفُ الأشْمَــلُ والأعَــمُّ الــذي طَرَحْتُــهُ في «ورقــة عمــلٍ»[٣٤]، وهو يَجْعَــلُ من هــذا المُصْطلح: (المَخْــزُونُ المَعْرفــيُّ ومُسْتَودَعُ قِيَــم المُجْتمــع وأعْرَافِهِ وأحْكَامِــهِ ومَعَاييــرِهِ ومَفَاهِيمِهِ ومُعْتَقَدَاتِــهِ السَّائِدَةِ التي يَتَأَثَّرُ بها أفْرَادُ المُجْتمــعِ بمُخْتلفِ فِئاتهِم - المُتَعَلِّمُ، والجَاهِلُ، والكَهْــلُ، والطِّفْــلُ، والمَرْأةُ، والرَّجُلُ -، وذلك بدرجاتٍ مُتفاوتــةٍ وفْق اسْتِيعابِ كُلٍّ منهم، وحسب اتِّسَاعِ مَدَارِكِه، وبالتّالي يكونُ لـ«الثّقافة» الدَّوْرُ الأبْرَزُ في تَحْدِيدِ سُلُوكيّاتِ الأفْراد، ورُدودِ أفْعالِهــم، وطرائِق تَفْكيرِهم). هذا التّعْريفُ هو الــذي اعْتَمَدَتْهُ «المُنَظَّمَةُ العربيّةُ للتَّربيــة والثَّقافــة والعلوم (أليكسو)» في تونس، وذلك في الدِّرَاسَــةِ التي نَشَرَتْهَا في عام ٢٠٠٦م تحت عنوان: (إسْتراتيجيّةُ نَشْرِ الثّقافة العِلْميّة والتّقانيّة في الوطن العربيّ)[٣٥].

بطبيعــة الحال إنّ مِثْلَ هذا «المَخْــزُونِ» من المَعْرِفَةِ والقِيَــمِ والأعْرَافِ والمفاهيم فــي أيِّ مُجْتمــعٍ لا يَنْمُو بين يــومٍ وليلةٍ، ولكنّه حَصِيلَــةُ تَرَاكُمِ خِبْرَاتٍ وتجــارِبٍ ومُؤثِّراتٍ تَفْعَــلُ فِعْلَهَا على فَتْرةٍ طويلةٍ من الزّمن؛ فتَتَجَذَّرُ بذلك في النُّفُوس، وتَرْسَخُ في اللاوعي، وتَحْتَــلُّ أغْوَارَ العَقْل، وتَتَأَصَّلُ في الوِجْدان؛ فيَرْضَعُ الإنْسانُ فِكْرَهَا صغيراً، ويَتَرَعْرَعُ على تفاعُلاتِها، ويَحْتَكِمُ إلى قَواعِدِهَا، فيَنْطَبِقُ عليها - في هذه الحالة - وَصْفُ مالك بن نبيّ حيــث يــرى أنّ: («الثّقافة» ليستْ عِلْمــاً يَتَعَلَّمُهُ الإنْسان، بَلْ هي مُحِيــطٌ يُحِيطُ به، وإطارٌ يَتَحَرَّكُ دَاخِلَــه، يُغَذِّي جنين الحضارة في أحْشَائِه، فهي «الوَسَطُ» الذي تتكوَّنُ فيه جميعُ خصائِصِ المُجْتمع المُتَحَضِّر، وهي «الوَسَطُ» الذي تَتَشَكَّلُ فيــه كُلُّ جُزْئيّةٍ من جُزْئيّاته تَبَعَاً للغايةِ العُلْيَا التي رَسَمَهَا المُجْتمعُ لنفْسه)[٢٨].

تلــك الحقيقة، التي تَجْعَلُ من «الثّقافة» بِنْيةً - تحْتيّــةً ضروريّةً للتّفاعُلاتِ البشريّةِ ووسيلةً لتَشْكيلِ «العَقْل»، يُؤكِّدُهَا محمد عابد الجابريّ بقوله: (إنّ عمليّةَ التّفْكير ذاتها لا تَتِمّ إلاّ دَاخِلَ ثقافةٍ مُعَيَّنةٍ وبواسِطَتِهَا. والتّفْكيرُ بواسِطة ثقافةٍ ما مَعْنَاهُ: التّفْكيرُ من خلال مَنْظُومَــةٍ مَرْجعِيّةٍ تَتَشَكَّلُ إحْداثياتُها الأساسيّةُ من مُحَدِّدَاتِ هذه الثّقافة ومُكَوِّناتِها، وفي مُقَدِّمَتِهَا: المَــورُوث الثقافيّ، والمُحيط الاجْتماعيّ، والنَّظْرَة إلــى المُسْتَقْبَل، بَلْ النَّظْرَة إلى العَالَم، إلى الكَوْنِ والإنْسان، كما تُحَدِّدُهَا مُكَوِّنَاتُ تلك الثّقافة. ونحن عندما نتحدَّثُ

عـن «العَقْل العربيّ» في هـذا الإطار إنّما نَعْنِي بـه «الفِكْر»، أو «القُوَّة المُفَكِّـرَة» بوَصْفِهَا أداةً للإنْتـاج النّظريّ والفنّيّ والعِلْميّ صَنَعَتْهَا ثقافةٌ مُعَيَّنَةٌ لها خُصُوصِيَّتُهَا، هـي «الثّقافة العربيّـة» بالذّات؛ الثّقافة التي تَحْمِلُ معها تاريخ العـرب الحضاريّ العامّ وتَعْكِسُ وَاقِعَهُم أو تُعَبِّرُ عنه وعن طُمُوحاتِهم المُسْتقبليّةِ كما تَحْمِلُ وتُعَبِّرُ - في الوَقْت ذاته - عن عَوائِق تقدُّمِهـم وأسْبـابِ تخلُّفِهِم الرّاهِن)[١]، وهذا ما يُكَـرِّرُهُ إبراهيم البليهي حيث يقول: (لا عَقْل دون ثقافةٍ، فعَقْلُ الإنْسان يَتَكَوَّنُ بالحضانة الثقافيّة ولو حُرِمَ من هذه الحضانة حتّى يَكْبُـرَ فإنّه سيُحْرَمُ من اللّغة ومن كُلِّ الآليّات الثّقافيّة التي يَتَكَوَّنُ بها العَقْل، وسوف تَفُوتُهُ إمْكاناتُ دُخُولِ نِطاقِ العَقْل)[٣٦].

من ذلـك المُنْطَلَقِ، فإنّ ثقافـةَ أيِّ مُجْتمعٍ تَتَّسِـعُ وتَزْدادُ عناصِرُهـا تَعْقيداً، وتَنْمُو تراكُماتُهـا وتداخُلاتُها وتَرْكيباتُها، كُلّمـا انْتَقَلَ المُجْتمعُ إلى مراحِلِ أكْثر تَقَدُّماً وتَحَضُّراً ورفاهيـةً. ولـذا فإنّه من الطّبيعـيّ أنْ يكون لتعقُّـدِ المُتَغيِّـراتِ الاقْتصاديّـةِ والسّياسيّةِ والمَعْرفيّةِ والاجْتماعيّةِ وتشابُكاتِها - في العُقُودِ الأخيرة - تَأْثيرٌ مُباشِرٌ في نُمُوِّ «الثّقافة» وتَشَكُّلِهَا وتَطَوُّرِهَا، ويَتَّفِقُ هذا مع ما يراهُ تيري إيجلتون حين يقول: (إنّ مُعْظَمَ المُجْتمعات الحديثـة هي في حقيقة الأَمْـرِ مَجْمُوعةٌ من الثّقافات التّحْتيّة أو الفَرْعيّة المُتَداخِلَةِ حيث يَغْـدُو من الصُّعُوبَةِ بمـكانٍ أنْ نُحَدِّدَ العَالَـمَ الثّقافيّ المِعْيَاريّ الـذي تَنْحَرِفُ عنه ثقافةٌ فَرْعيّـةٌ مُعَيَّنَـة)[٢٧]. فـي ذلك الإطار نَسْتطيـعُ أنْ نَخْلُصَ إلى أنّ «الثّقافـة» عِبَارَةٌ عن: (مَنْظُومَـةٌ مُتَشَعِّبَةٌ تَنْضَوِي تحت لوائِها وتتشابكُ في ساحاتِها مُخْتَلَفُ العناصِرِ المَعْرفيّة والفِكْريّـة، والمُقَوِّمَـاتُ الدِّينيّـة، والأنْمَـاطُ الحياتيّة، والعـاداتُ السّائِـدة، والسُّلُوكيّاتُ المُعْتَمَدَة، والأحْكَامُ المُهَيْمِنَة)[٣٤].

٢ - ٢ - ٢) التَّرْكيبُ العامُّ لـ«الثّقافة»:

فـي إطـار التّعْريف الـذي اعْتَمَدْنـاهُ لمُصْطلح «الثّقافـة» نَسْتطيـعُ أنْ نَتَعَرَّفَ على تَرْكيبتَيْن مُتبايِنَتَيْن لعناصِرِ «الثّقافة»؛ حيث تُهَيمِنُ على التّرْكيبةِ الأولى «عناصِر سَلْبيّة» ذات مفاهيـم ضَحْلَةٍ، وعاداتٍ عقيمـةٍ، وتَصَوُّرَاتٍ ضبابيّةٍ، تَعُوقُ حركـة المُجْتمع وتُؤدِّي

إلــى ضُمُورِ طاقاتِه وكَبْــحِ عُنْفوانِه، وهذه التَّرْكيبةُ تَدْخُلُ في إطــارِ ما أَسْمَاهُ دافيد لاندز (David S. Landes) بـ«الثَّقافات المُخَدِّرَة» لأنَّها: (عَائِقَةٌ للذين هم مُتعَلِّقين بها، وهي ثقافــاتٌ يجدُ فيهــا أصْحابُها العَزَاءَ والسّلــوان إلاّ أنّها تَعُوقُ قُدراتِهم علــى المُنَافَسَةِ في العَالَــمِ الحديث)[٣٧]. أمّــا «التَّرْكيبةُ الثَّانيةُ» من عناصِر «الثّقافــة»، فتَتَمَتَّعُ بـ«خصائِص إيجابيّــةٍ» ذات حيويّةٍ وفاعليّةٍ تكونُ بمَثَابَةِ قُوّةٍ دَافِعَةٍ للنُّمــوّ والتّرقّي والإبْداع والإنْتاج في مُخْتَلَــفِ مناحــي الحياة، وفي هــذا السِّياق يقولُ مالك بــن نبيّ: (إنّ أهميّــةَ الأفْكار في حيــاة مُجْتمعٍ مُعَيَّنٍ تَتَجَلّى في صُورَتَيْن؛ فهي إمّــا أنْ تُؤثِّر بوَصْفِهَا عَوامِلَ نُهُوضٍ بالحياة الاجْتماعيّة، وإمّا أنْ تُؤثِّرَ على عَكْسِ ذلك بوَصْفِهَا عَوامِلَ مُمْرِضَةٍ تَجْعَلُ النُّموّ الاجْتماعيّ صَعْباً أو مُسْتحيلاً)[٢٨].

وهكــذا تَدْخُلُ «ثقافــةُ الإنْسان» إلى مَطْبَخ «التَّفاعُلِ البشــريّ» لتكون له أو عليه وفْق أُسُسِ هذه «الثّقافة» ومُعْطياتِها ودرجةِ ما أَسْمَاهُ مالك بن نبي «الفَاعِليّة الاجْتماعيّة»[٢٨]؛ فـ«الثّقافــة» كائِنٌ حَيٌّ يَنْمُو ويَضْمُــر، ويَشْقَى ويَسْعَد، ويَقْوَى ويَضْعُــف، وذلك وفْق أحْوالِ أهْلِهِ ومُمَارَسَاتِهم وقِيَمِهم ومفاهيمِهم وأولويّاتِهم؛ ولذا فإنّ تَغَلْغُلَ الجراثيم إلى «أنْسِجَةِ الثّقافة» أمْرٌ وَارِدٌ، وفَتْكَهَا بقُدْرَاتِ المُجْتمع وتفاعُلاته قضيّةٌ مُحْتَمَلَةٌ، كما أنّ من المُمْكن لـ«الثّقافة» أنْ تَبْلُغَ مرْحلــةً من الهُزَالِ والشّيخُوخةِ لتَتَكَالَبَ عليها عَوامِلُ التّآكُلِ الدّاخِليّ، والانْهِيــارِ الفِكْــريّ، والهزيمــةِ الحضاريّــة. لــذا كان من الضّــروريّ أنْ تقــوم «الثّقافة» بتَحْصيــنِ نفْسهــا، وتَطْويــرِ ذاتها، وتَجْديــدِ خلاياها، لتَسْتطيــعَ أنْ تُواكِــبَ المُتَغَيِّرات، وتَتَصَدَّى للتّحدّيات، وتُطَوِّرَ الإمْكاناتِ عبْر تراكُماتٍ قَادِرَةٍ على إحْداثِ التّأْثير المَطْلُوب، وخلال آليّاتٍ فَاعِلَةٍ تَعْمَلُ في اتِّجَاهِ «سَهْمِ الزَّمن»، وتَدْفَعُ «الحَرَاكَ الثّقافيّ» نحو «الفَاعِليّة الاجْتماعيّــة»؛ فـ«الثّقافةُ» ليستْ تَرَفاً تُمارِسُــهُ المُجْتمعات، وتَتَسَلَّى به في سُويعاتِ الأُنْسِ وليالي السَّمَر، ولكنّها تفاعُلٌ حياتيٌّ، وتَنْمَويٌّ، وفِكْريٌّ، واجْتماعيّ.

من نَافِلَةِ القول إنّ أيَّ ثقافةٍ إنْسانيّةٍ تَحْتَوِي - في مَنْظُومَتِهَا - على عناصِر من كلْتا التّرْكيبَتَيْــن «السَّلْبيّــة» و«الإيجابيّة»، إلاّ أنّ تَفَوُّقَ ثقافةٍ على أُخْــرَى يَكْمُنُ في قُدْرتِها على تَقْليصِ دَوْرِ «التَّرْكيبــة السَّلبيّة» من ناحيةٍ، ومن ناحيةٍ أُخْــرى تَطْويرِ إمْكاناتِ «التّرْكيبة

الإيجابيّـة» عبْـر المُرَاجَعَـةِ الموضوعيّة، والتّقْييـم النّزيـه، والتّفاعُـلاتِ الدّيناميكيّة، لإحْـدَاثِ التّراكُمَاتِ السّليمة، وتوفيرِ العَوامِـل المُسَاعِدَةِ والمُحَفِّزَةِ على تَمْكينِ «الثقافة» الفَاعِلَةِ اجْتماعيّاً، وتَنْمَويّاً، ومعيشيّاً. عبْر تلك الرُّؤية نَسْتطيع أنْ نَتَعَرَّفَ على نَوْعَيْنِ من المُجْتمعـات؛ أحدهما تَغْلُبُ عليه خصائِصُ «ثقافةٍ مُتَخلِّفَةٍ» تُقَيِّدُ حركته، وتَخْنُقُ قُدْراته، فتَمْنَعَهُ من التَّطَوُّرِ والنُّموّ والنّهْضَة، وتَدْفَعَ به نحو «ثقافةٍ اسْتِهْلاكيّةٍ» عَاجِزَةٍ ذات طبيعةٍ اسْتِسْلاميّـةٍ وانْهِزاميّـةٍ، فهي تُكَرِّرُ ذاتهـا، وتَجْتَرُّ تخلُّفَها، وتَنْعَـى وَاقِعَها. أمّا مُجْتمعاتُ «النَّـوْع الثَّانـي» فنجدُ أنّها تَحْظَى بهَيْمَنَـةِ مُقَوِّمَاتِ «ثقافةٍ مُتَقَدِّمَةٍ» قَـادِرَةٍ على التّجاوبِ مـع احْتياجاتِ المُجْتمـع وتحدّياتِ عَصْرِه، لتكـون - في مُجْمَلِهَا - «ثقافـةً مُنْتِجَةً» ذات عناصِـر حَافِزَةٍ على الرُّقِيّ والتَّقَدُّم. وهكذا يُصْبِحُ المِحَكُّ الحقيقيُّ لجَدْوَى «الثّقافة» هو في تَمَكُّنِهَا من أداءِ «الوظيفة الاجْتماعيّة» التي تَهْتَمُّ برَفْعِ المُسْتوى الاجْتماعيّ والمعيشيّ والفِكْريّ للفَرْد والمُجْتمع.

إنّ الرُّؤيـةَ التـي طَرَحَهَا مالـك بن نبيّ[٢٨] في مـا عَرَّفَهُ بـ«التَّرْكيب العـامّ للثّقافة» مُنْطَلَـقٌ مُناسِبٌ لتَلَمُّـسِ «التَّفاعُلات الإنْسانيّة» التي تُبَلْوِرُ حيـاةَ الفَرْد، وتَصُوغُ مُجْتمعَه، وتُؤَسِّسُ قِيَمَه، فقد حَصَرَهَا مالك بن نبيّ في عناصِر أرْبعة هي:

١) «عُنْصُرُ الأخْلاق» لتَكْوينِ الصِّلاتِ الاجْتماعيّة.

٢) «عُنْصُرُ الجَمَال» لتَكْوينِ الذَّوْقِ العامّ.

٣) «المَنْطِقُ العَمَليّ» لتَحْديدِ أشْكَالِ النّشَاطِ العامّ.

٤) «الصِّنَاعَةُ» وتَشْمَلُ العلوم والتّقْنيات والمهارات والمِهَن.

٢-٣) مُشْكلة الثّقافة:

في ضوء تفاعُلِ تَرْكيبَتَيْ «الثّقافة» - السَّلْبيّ منها والإيجابيّ - نَسْتطيعُ أنْ نَتَعَرَّفَ على «مُشْكلة الثّقافة» في المُجْتمعات المُخْتلفة؛ فلهذه المُشْكِلَةِ أبْعَادُهَا التّاريخيّةُ والاجْتماعيّةُ

والتّربويّةُ والفكْريّةُ والدّينيّةُ في حُدُودِ الزّمان والمكان والخَلْفيّات والأَعْرَافِ السَّائِدَةِ في كُلٍّ من تلك المُجْتمعات، ولذا فإنّ لكُلِّ مرْحلةٍ من حياة المُجْتمع جَوانِب ثقافيّةً تُمَيِّزُ تلك المرْحلــة، وتُعَبِّرُ عن تحدّياتِها، وتَرْسُمُ قَسَمَاتِهَــا، وتُبَلْوِرُ سُلُوكيّاتِ الأَفْرَادِ ومُمَارَسَاتِهِم، وهذا ما يُؤكِّدُهُ مالك بن نبيّ فيقول: (كُلُّ واقِعٍ اجْتماعيٍّ هو في أَصْلِهِ «قِيمةٌ ثقافيّةٌ» خَرَجَتْ إلى حَيِّزِ التَّنْفيذ)[٢٨]. من ذلك المُنْطَلَقِ يُؤكِّدُ مالك بن نبيّ على طبيعة التَّطَوُّرِ الكَامِنَةِ في «التّرْكيبــة الثّقافيّة» فيقول: (يجب أنْ نُحَدِّدَ «الثّقافة» في ضوء تصوُّرنا لوَضْعِهَا التّاريخيّ بوَصْفِهَــا حركةً مُسْتَمِرّةً «صيرورة»؛ فإنّ في التّاريخ مُنْعطفــاتٍ هَائِلَةً خطيرةً يَتَحَتَّمُ فيها هذا التّعرُّف، والنَّهْضَةُ في العَالَمِ الإسْلاميّ إحْدى تلك المُنْعطفات)[٢٨]. إنّ هذا يَعْنِي أنّ طبيعة تطــوُّرِ المُجْتمعات الإنْسانيّة، وأشْكَالَ «التَّحَدّيات» التــي تُجَابِهُهَا، تَفْرِضُ ضُغُوطاً علــى «الثّقافة» السَّائِدَةِ فــي المُجْتمع، وتُمْلِــي مُعْطياتِها على ظُــرُوفِ «التَّفاعُل» وأشْكَالِ «الاسْتِجَابَة»؛ فإذا أَخْفَقَتْ «الثّقافة» في التَّكَيُّفِ مع المُتَغَيِّرَاتِ الطّارِئة، وفَشِلَتْ في إفْرَازِ عناصِــر قَادِرَةً على خَلْقِ «المُواءَمة» واسْتِعَادَةِ «التّوازُن»، فإنّها تكون قد خَذَلَتْ مُجْتمعها، حيث ضَيَّعَتْ وظيفتها وفَقَدَتْ «الفَاعِليّة الاجْتماعيّة»، وبذلك تُصْبِحُ «ثقافةً مُتَخَلِّفَةً» تَشُدُّ مُجْتمعهــا إلى الخَلْف، وتَحْجِبُ عنه عناصِر الحيويّة والنّشاط، وبذا تَتَحَوَّلُ هذه «الثّقافة» إلى جَسَدٍ هَامِدٍ يُلْقِي بثِقَلِهِ على حركةِ المُجْتمع، ويُقَيِّدُ إبْدَاعَاتِهِ وانْطِلاقَاته.

بطبيعــة الحال لا يُمْكِنُ اسْتِثْنَاء «المُجْتمعات العربيّة» من تلك التّفاعُلات الإنْسانيّة والسُّنن الكَوْنيّة، ولذا حَظِيَتْ – في العُقُودِ الأخيرة من القَرْن العشرين – «مُشْكِلَةُ الثّقافة» فــي العَالَمِ العربيّ بقَدْرٍ من الاهْتمام بين النُّخَب، واتَّخَذَتْ هذه المُشْكِلَةُ أشْكالاً مُتَعَدِّدَةً، فهي تَتَخَفَّى – أحياناً – تحت اسْم «أَزْمَة العَقْل العربيّ»، أو ثُنَائِيّات «الأَصَالَة والمُعَاصَرَة» و«العَوْلَمَــة والخُصُوصيّة» و«النَّقْل والعَقْل» و«الاتِّبَاع والإبْــدَاع» «والأمميّة والوطنيّة»، وهي تَبْــرُزُ – تــارةً – على شَــكْل تَصَادُمَاتٍ مُباشِــرَةٍ مع وَاقِــعِ الحياة السّياســيّ والاجْتماعيّ والاقْتصــاديّ، وهــي تَتَجَلَّى – هنا وهناك – فــي تَنَاقُضَاتٍ حَادَّةٍ ومُفَارَقَــاتٍ غريبةٍ تُشَوِّهُ الحياةَ السّياسيّــة والمُمَارَسَاتِ العمليّة والتّياراتِ الفِكْريّة والتّوجُّهَاتِ الاجْتماعيّة. إننّا لا نَحْتَــاجُ إلى كبير جُهْدٍ لنُــدْرِكَ أنّ «الثّقافة العربيّة» اليوم هي ثقافةٌ قَاصِرَةٌ عن فَهْمِ «رُوحِ

العَصْر»؛ فهي تَتَرَنَّحُ تحت تَأْثير «فَجْوَةٍ مَعْرفيّةٍ» خطيرةٍ تُمَثِّلُ جَوْهَرَ «التَّحَدِّي» الذي يجب أنْ تَتَصَدَّى له كُلُّ القُوى المُؤثِّرة لتَعْمَلَ على تَأْسيسِ «تَكْوينٍ ثقافيٍّ» يَحْمِلُ رُؤىً تَسْتَشْرِفُ «المُسْتَقْبَل» وتُدْرِكُ مُقْتضياتِه، وتَهْتَمُّ بتوليدِ الآليّاتِ والمُعْطياتِ القَادرَةِ على تَأْسيسِ «الخصائِص الإيجابيّة»، وعلى رَأْسِهَا الحِرْص على جَعْلِ «ثقافة العِلْم والتّقْنية» عُنْصراً مُؤثِّراً في التّفاعُلاتِ الفِكْريّة السّائِدَة.

٢-٤) «الثّقافة» بين «النّخْبويّة» و«الجماهيريّة»:

مـن أبْرز ما يُطْرَحُ من مُشْكلات «الثّقافة» هو وقُوعُهَا بين مِطْرَقَةِ «النُّخْبَة» وسِنْدَانِ «الجُمْهُور»، إلاّ أنّه من الصَّعْبِ أنْ نَتَحَدَّثَ عن «الثّقافة النُّخْبويّة» وكأنّها ثقافةٌ ذات مُواصَفاتٍ فريـدةٍ تَفْصِلُهَـا عن مُجْتمعِهـا، وتَضَعُهَا في نِطَـاقِ شريحةٍ ضيّقةٍ مَعْزُولَـةٍ عن تفاعُلاتِ مُحيطِهـا. وإذا كانتْ المراحِـلُ البُدائيّةُ من تفاعُلاتِ المُجْتمعات تَسْمَحُ بما يُسَمَّى «ثقافة النُّخْبَـة»، وتَدْفَعُ بها إلى بُرْجٍ عاجيٍّ يَعْزِلُهَا عن تفاعُلاتِ «الجماهير» وهُمُومِهم، فإنّ ذلك الوَضْـعَ لم يعُدْ مُمْكِناً في ظُروفِ «الحياة المُعَاصِرة»؛ لأنّ القطيعة بين «الثّقافة النُّخْبَويّة» و«الثّقافة الجماهيريّة» أَصْبَحَـتْ وَصْمَةً في حياة المُجْتمع الذي يُحَبِّذُهَا ويَرْعَاهَا، وعَقَبَةً علـى طريقِ «تَنْميـةِ المُجْتمع» وتَطْويره؛ فانْفِجَارُ المَعْلُومات، وثَـوْرَةُ الاتّصالات، والإعْلامُ الجديد، ومُقْتضياتُ «الحياة العَصْريّة» بتشابُكاتِها وتَعْقيداتِها، أزالتْ الكثير من الحَواجِز بيـن «الثّقافتَيْن» وأَسْهَمَـتْ في تقارُبِهما وتفاعُلِهما، بَلْ إنّ «العَوْلَمَةَ» اليوم تَفْرِضُ ما يُمْكِنُ أنْ يُسَمَّى «ثقافةً كَوْنيّةً» لها خصائِصها ومعاييرها وتَأْثيراتها.

وأمّا من النّاحية الوظيفيّة البَحْتَة، فإنّ «الثّقافة النُّخْبَويّة» تُصْبِحُ ثقافةً فَاشِلَةً إذا لم تَسْتَطِعْ أنْ تتجاوز «النُّخْبَة» لتتفاعل مع «الجُمْهُور»، فكما يرى قسطنطين زريق فإنّ: (الفَرْد والنُّخْبـة هما فـي تفاعُلٍ دائم مع مُجْتمعهمـا، فلا غِنَى لهما عن جماهيـر المُجْتمع كما لا غِنَـى لهذه الجماهير عنهما. والإنْشَاءُ الحضاريُّ يَتَطَلَّبُ تجاوباً حيّاً صادِقاً بين الفريقَيْن، ولكن هذا الإنْشَاءَ يَنْطَلِقُ دوماً من خلايا الوَعْي والإبْدَاعِ الفَاعِلَةِ في المُجْتمع) (١٨). وهذا ما يُؤَكِّدُهُ زكي نجيب محمود وهو يَضَعُ تَعْريفاً لـ«المُثَقَّف» فيقول: (هو أنْ يكون رجلاً بضاعته

أفْـكارٌ يُريـدُ بها أنْ يُغيِّرَ وَجْـهَ الحياة إلى ما هـو أَفْضَل) [٣٨]، ومن نَافِلَـةِ القول أنّ ذلك «التَّغْيير» لن يَحْدُثَ عبْر الانْعِزاليّة أو النُّخْبَويّة أو الاسْتِعْلاء؛ وكُلُّها صِفَاتٌ يَميلُ إليها كثيرٌ من المَحْسُوبين على التّيارات الثّقافيّة في العَالَمِ العربيّ.

وانْطِلاقـاً من الحقيقـة التي يَصُوغُهَـا محمد عابـد الجابـريّ [١] بقوله: (النَّهْضَةُ الثّقافيّـةُ وتَطَـوُّرُ الفِكْرِ وتَقَدُّمُـهُ إنّما يَتِمّان عبْـر عمليّة تَرَاكُم كَمِّيّ)، فـإنّ ذلك يُؤدِّي – بالضّـرورة – إلى عَلاقَـةٍ عُضْويّةٍ بين «النُّخْبَـة» و«الجُمْهُور» يراها الجابـريّ على النَّحْوِ التّالـي: (إنّ الازْدهار الثقافـيّ هو فِعْلاً من عمل النُّخْبَة، ولكـن لا النُّخْبَة التي تَطْفُو على السَّطْـحِ ويُمْكِـنُ تِعْدَادُ أفْرَادِهَا، بَـلْ النُّخْبَة التي تَلْتَحِـمُ قَاعِدَتُهَا العريضـةُ بكُلِّيَّةِ جِسْمِ المُجْتمـع لتُمَثِّلَ مُخْتلف فِئَاته وطبقاته، وتُعَبِّرَ عن آلامه وآماله، وتَعْمَلَ على تَنْشيطِ عمليّة الانْصِهَارِ دَاخِله، وتَحْريكِ مكامن القُوّةِ والخُصُوبَةِ في أحْشَائِه) [١].

ولا شـكّ في أنّ مـن أبْرز بَصَمَـاتِ «الحركة العِلْميّـة – التّقنيّة»، وما أَحْدَثَتْـهُ من آثَارٍ بليغـةٍ في حياة البشـر، أنّها أَسْهَمَتْ الإسْهَامَ الأكْبر في تَصَدُّعِ ذلك الحَاجِز الذي كان يَجْعَلُ «المُثقَّـفَ» يَأْنَسُ في بُرْجِهِ العاجيّ مُنْعَزِلاً ومُهْتَمّاً بـ«المَعْرِفَة من أجْل المَعْرِفَة»؛ فقد سَمَحَتْ وسائِـلُ الاتِّصالِ الحديثـة للجُمْهُورِ بأنْ يُسْهِمَ – عبْـر شرائِحِهِ المُتَنَوِّعَـة، ووعيه المُتزايد، واهْتماماتِـه المُتَعَدِّدَة، وتفاعُلاته المُتَداخِلَة – فـي تَشْكِيلِ «الثّقافة»، كما أنّها فَتَحَتْ النّوافِذَ على مَصَارِيعِهَا لـ«ثقافةٍ كَوْنِيّةٍ» في «عَصْرِ العَوْلَمَة». بطبيعة الحال ستكون هذه «النُّخْبَةُ» أكْثر انْعِـزالاً وأشـدّ تَقَوقُعاً إذا وَقَعَتْ تحت تَأْثير «الأُمِّيّة العِلْميّة»، فمـن السَّهْلِ لنا أنْ نَتَصَوَّرَ حال «الثّقافـة» التي يَطْرَحُهَا مِثْل ذلك «المُثقّـف النُّخْبَويّ» وهو يُبْحِرُ بعيداً عن طبيعة التّفاعُلات التـي تُشَـكِّلُ «الحياة المُعَاصِـرَة»، ويَسْبَـحُ عَكْسَ تيّار «حركـة المُجْتمع» السّاعيـة نحو آفاقٍ مُسْتقبليّةٍ تَحْملُ تحدّياتٍ مُتَجَدِّدَةٍ، ومُشْكلاتٍ عِلْميّةٍ، وقضايا تِقَنِيّةٍ، وخصائص فِكْريّة.

لقـد أَسْهَمَ اتِّسَـاعُ رُقْعَةِ التّعْليم، وانْتِشَـارُ وسائِل الإعْلام، وتَعَـدُّدُ منافِذ «التّواصُل الاجْتماعـيّ»، إسْهامـاً كبيراً فـي رَفْعِ وَعْـيِ الجماهير، وتَعْميـقِ إدْراكهـم بمُشْكلاتِهم، وفَهْـمِ طبيعة التّحدّيات المُحيطة بهم، والتّفاعُـلِ مع مُتَغيِّراتِ زمانهم وأدواتِ عَصْرهم،

واسْتِيعـابِ الفَوارِقِ الشّاسِعَةِ بين وَاقِعِهم ووَاقِعِ «المُجْتمعات المُتَقَدِّمَة»؛ ولذا فإنّنا نَشْهَدُ انْكِمَاشـاً مُطَّـرِداً لدَوْرِ «المُثقَّف النُّخْبَـويّ» الذي يَحْرِصُ على البقاء فـي بُرْجِهِ العاجيّ، مُكَرِّسَـاً حياته لفنونِه ومعارِفِه واهْتماماتِه الفِكْريّـة بمَعْزلٍ كَامِلٍ عن التّأْثيرِ في المُجْتمع والتّفاعُلِ مع قضاياه. وبتأمُّلٍ أكْبر لوَاقِعِ «الحياة المُعَاصِرَة» نجدُ أنّ «الثّقافة» ليستْ مِهْنَةً بحيث يُكَـوِّنُ «المُثقَّفُون» طَبَقَةً أو شريحةً اجْتماعيّةً مُحَـدَّدَةَ الملامِح والاهْتمام؛ فهناك مُثقَّفُون في جميع الطّبقات الاجْتماعيّة والمِهَن العمليّة في المُجْتمع؛ فقد يكون «المُثقّفُ» تَاجِـراً، أو ضَابِطـاً، أو مُهنْدسـاً، أو طبيباً، أو مُوظَّفـاً، أو عَالِمـاً، وبطبيعة الحال سوف تتفـاوتُ مُسْتوياتُ ثقافتِهـم ونَوْعِيّتها وتَوَجُّهها تَبَعـاً للخَلْفيّةِ الفِكْريّـةِ والتّأْسيسِ العِلْميّ والتّجْربـةِ الحياتيّة، ولكنّهم جميعهم يَشْتَرِكُون كـ«مُثقَّفين» في الاهْتمامِ بـ«الشَّأْن العامّ»، والتّعْبيـرِ عن هُمُومِ المُجْتمع وقضاياه، والإسْهَامِ في تَفْعيلِ أدواتِه وتوظيفِ مَوارِدِه، وهذا مـا يُؤكِّدُهُ مالك بن نبيّ بقوله: (إنّ «الثّقافة» تَتَدَخَّلُ في شُؤون الفَرْد، وفي بِنَاءِ المُجْتمع، وتُعالِجُ مشاكِل القيادة كما تُعالِجُ مشاكِل الجماهير)[٢٨].

وهكـذا نَخْلُصُ إلـى أنّ «النُّخْبَويّة» التي تُؤدِّي إلى انْفِصَـامِ «المُثقَّف» عن مُجْتمعه، وعَجْـزِهِ عن «الالْتِحَـامِ العُضْويّ» مع تطلُّعاتِ المُجْتمع وقضاياه، هـي في انْحِسَارٍ مُسْتَمرٍّ بسبـب تسارُعِ المُتَغيِّـراتِ على السّاحة العَالَميّة في كُلِّ مجـالٍ، والضُّغُوطِ المُتزايدةِ على «المُثقَّـفِ» لامْتِلاكِ القُـدْرَةِ على التّأْثير العامّ، وتوجيهِ «الحَـرَاكِ الثّقافيّ» إلى «الفَاعِليّة الاجتماعيّـة»، وتوفيرِ «البُنَى التّحْتيّة الثقافيّة» القَادِرَةِ على الاسْتِجَابَةِ للتّحدّياتِ التّنْمَويّةِ والإشْـكالاتِ المُعَاصِرَةِ والمُسْتَجِدَّاتِ العَالَميّـة. وهذا ما يُبْرِزُهُ توماس إليوت عندما يرى أنّ شَكْلَيّ الثّقافـة، «النُّخْبَويّ» و«الجماهيريّ»، يتهاجنان فيقول: (من الواجِب النَّظَرُ إلى هذا المُسْتوى الأعْلى من «الثّقافة» على أنّه قَيِّمٌ بحَدِّ ذاته، ويُمَثِّلُ إغْنَاءً للمُسْتويات الدُّنْيا فـي آنٍ معاً، وبـذا تتواصلُ حركة «الثّقافـة» في نَوْعٍ مـن الحَلْقَةِ حيث تُخَصِّـبُ كُلُّ طَبَقَةٍ الطَّبَقَةَ الأُخْرَى وتُغَذِّيها)[٢٧].

ذلـك الدَّوْرُ الأساسُ الفَاعِلُ لـ«المُثقَّف» هـو الذي رَسَمَ زكي نجيب محمود ملامِحه بشَـكْلٍ عامٍّ عندما قال: (وأظنُّهُ قد بـات وَاضِحاً ماذا تكونُ المُهِمّة الأولى للمُثقّفين؟، إذْ

هي قبل أيِّ شيءٍ آخَر، وبعد أيِّ شيءٍ آخَر، مُهِمّة «التّنْوير» التي تُضِيء ولا تُرْغِم، ونجاحُها مَرْهونٌ بأنْ تَتَوَلَّدَ في قُلُوبِ النّاس «إرادةٌ» تَرْغَبُ من تِلْقَاءِ نفْسها فيما يُرادُ لهؤلاء النّاس أنْ يَرْغَبُوا فيه، وإذا قُلْنَا ذلك فقد قُلْنَا - بجُمْلةٍ أُخْرَى - إنّ مُهِمّةَ المُثقّفين هي أنْ يَمِيلُوا بالنّاس نحو أنْ يَسْتَبْدِلُوا بمَجْمُوعَةِ قِيَم عتيقةٍ كامِنَةٍ في صُدُورهم، مَجْمُوعَةً أُخْرَى من القِيَم الجديدةِ الصّالِحَةِ للمَوْقِفِ الجديد في العَصْرِ الجديد) (٢٠). أمّا عند مالك بن نبيّ فتتلاقحُ وتتضافرُ «النُّخْبَويّة» و«الجماهيريّة» في «الثّقافة» عبْر وظيفتِها فيقول: (إذا ما أردنا إيضاحاً أوسع لوظيفة «الثّقافة» فلنُمَثِّلْ لها بوظيفة الدَّم، فهو يَتَرَكَّبُ من الكُرَيّاتِ الحمراء والبيضاء، وكِلاهُمَا يَسْبَحُ في سَائِلٍ وَاحِدٍ من «البلازما» ليُغَذِّي الجَسَدَ: فـ«الثّقافةُ» هي ذلك الدَّمُ في جِسْمِ المُجْتمع، يُغَذِّي حضارتَه، ويَحْمِلُ أفْكارَ «النُّخْبَة» كما يَحْمِلُ أفْكارَ «العَامَّة»، وكُلٌّ من هذه الأفْكارِ مُنْسَجِمٌ في سَائِلٍ وَاحِدٍ من الاسْتِعْداداتِ المُتَشابِهَة، والاتِّجاهاتِ المُوحَّدَة، والأذْواقِ المُتَناسِبة) (٢). وفي السِّياق نفْسه يَطْرَحُ إسماعيل سراج الدين دَوْرَ «المُثقَّف» ومَسْؤوليته بقوله: (يَظَلُّ «المُثقّفُ» هو العَيْنُ التي يرى من خلالها المُجْتمع ذاته. فوظيفته هي تَحْليلُ الظّواهِر، ومُناقشةُ التُّراث، وتَلْقيحُ الأفْكارِ في صُورةٍ عَصْريّةٍ، ونَقْلُ تَجْربةِ الآخَر الإبْداعيّة وتَشْكيلُها في صُورةٍ محليّةٍ، وإعادةُ صَوْغِ فِكْرِ المُجْتمع وتوجُّهاتِه، لا تَقْبَلُ الوَضْعَ الرّاهِنَ أيّاً يكنْ. لذا يجبُ أنْ يكون «المُثقَّفُ» ناقِداً لما حوله، مُتَطَلّعاً إلى الأفْضل، مُطَالِباً به) (٣٩).

٢-٥) «الثّقافة» و«العَوْلَمَة»:

لقد فَرَضَ «مَفْهُومُ العَوْلَمَة» حُضُورَهُ على السّاحة، وتناولتْهُ بالتّعْريفِ والتّحْليلِ والتّقْييمِ أقْلامٌ مُتخصّصةٌ، وأُخْرى مُهْتَمَّةٌ بأحْوالِ مُجْتمعاتِها في الشَّرْقِ والغَرْب، وبطبيعة الحال لم يكنْ «المُثقَّفون العرب» اسْتِثْنَاءً للقَاعِدَةِ حيث وجدُوا في هذا المُصْطلحِ وليمةً دَسِمَةً، فانْقَضُّوا عليها بين مُؤيِّدٍ ومُعَارِضٍ ومُتَرَدِّدٍ، وكالعادة تَمَيَّزَ «الطَّرْحُ العربيّ» بأَرْتَالٍ من الكلماتِ المُنَمَّقَةِ والعِباراتِ الجَزِلَةِ والأساليبِ البلاغيّةِ والمَزاعِمِ الحماسيّة، وكالعادة - في «الخِطَابِ العربيّ» - فَقَدَتْ الكلماتُ معانيها، وضَاعَتْ مضامينُها، في

طُوفـانِ المُبَالَغَاتِ والمُسَاجَلاتِ والسَّرْدِيَّات. إنّ المُتَابِعَ لحِـواراتِ «العَوْلَمَة» وطُرُوحاتِها في العَالَمِ العربيّ يَشْعُرُ أنّ مُعْظَمَ المُشاركين يتحدَّثُون عن مَأْزِقٍ وَقَعَتْ فيه الأُمّة؛ فمنهم مـن يرى أنّ الخُرُوجَ من المَـأْزِق، الذي فَرَضَتْهُ هَيْمَنَةٌ خَارِجيّةٌ، هـو برَفْضِ تلك الهَيْمَنَةِ وتَبِعَاتِهَـا، ومنهم من يَحْسَبُ أنّ المَأْزِقَ حقيقةٌ لا مناص عنها وليس للمُضْطَّرّ إلاّ رُكُوبُهَا؛ إمّـا عبْـر قَبُولِهَا بعُجَرِهَا وبُجَرِهَا، وإمّـا عبْر «عمليّةٍ انْتِقائيّةٍ» لا يـزالُ كثيرٌ من معالِمها خَافِيـاً علـى دُعاتِهـا ومُؤيِّديهـا لنقع - مَـرّةً أُخْرى - في شِبـاكِ تلك المُعْضِلَـةِ القديمةِ المُتَجَدِّدَةِ المَعْرُوفةِ باسْم «إشْكَالِيّة التُّرَاث والحَدَاثَة».

وكأيِّ قضيّةٍ مَطْرُوحةٍ للفَهْمِ والاسْتِجْلاء، فإنّه يَنْبَغِي تَمْحيصُ ظَاهِرَةِ «العَوْلَمَة» من وَاقِـعِ خصائِصِها ومُسَبِّباتِها وآثارِهـا ومُكَوِّناتِها؛ ولتيسيرِ «عمليّة التَّحْليل» يُمْكِنُ أنْ نَلْجَأَ إلـى عُنْصُرَيْن أسَاسَيْن في «التَّرْكيبة الذَّاتيّـة» لظَاهِرَةِ «العَوْلَمَة»: فيجبُ - أوّلاً - اعْتِبَارُ «الجَانِـبِ الإنْسانيّ» الذي تُشَكِّلُـهُ «الطَّبيعةُ البشريّة» ودَوافِعُهَـا وتفاعُلاتُها، وهو الجَانِبُ الذي يَمْنَحُ ظَاهِرَةَ «العَوْلَمَـةِ» ثِقَلَهَا الفِكْريّ والاجْتماعيّ والإعْلاميّ. وأمّا العُنْصُرُ الثّاني فـي «تَرْكيبة العَوْلَمَة» فهو ضـرورةُ التّأمُّلِ - بدِقّةٍ وانْضباطٍ - في نَوْعِ «الوَقُودِ» الذي يَمْنَحُ هـذه الظّاهِرَةَ القُوّةَ الدّافِعَة، والتّأْثيرَ المُتزايـد، والثِّقَلَ المُتنامي في مُخْتلف السّاحات. أمّـا علـى صعيد «الجَانِبِ الإنْسانيّ» البَحْت، فإنّه ممّـا يُسْتَنْكَرُ على مُثقّفينا ما أثارُوه من الصَّخَبِ والضَّجيج، وما تَمخّضَ من «رُدودِ فِعْلٍ» تعاملتْ مع «العَوْلَمَة» وكأنّها وَحْشٌ كاسِرٌ، انْقَضّ فجأةً على وعْينا الهادئ وحياتِنا المُسْتقرّة ليُهَدِّدَ مُحْتوياتِهما وأُطُرِهما؛ فالحقيقةُ أنّ «العَوْلَمَـةَ» ليسـتْ بالأمْـرِ الطّارِئ على تاريـخ البشر؛ فهي قد رافقـتْ الإنْسان - منذ البدايـة - بدرجاتٍ من التّأْثيرِ مُتفاوِتَةٍ؛ لأنّهـا تَتَمَثّلُ في نُزُوعِ «ثقافة الغَالِب» إلى الهَيْمَنَةِ وانْسِيـاقِ الآخَريـن إليها، وهذا ما أَخْبَرَنَـا به عبد الرحمن بن خلدون منـذ أمدٍ طويلٍ أنّ: (النّفْـس أبداً تَعْتَقِدُ الكَمَالَ في من غَلَبَهَا وانْقَـادَتْ إليه إمّا لِنَظَرِهِ بالكَمَالِ بما وَقَرَ عندها من تَعْظيمِه، أو لِمَا تُغَالِطُ به من أنّ انْقيادِها ليس لغُلْبٍ طبيعيٍّ، إنَّما هو لكَمَالِ الغَالِب)(٤٠).

جَوْهَـرُ القضيّـة - إذاً - أنّ «العَوْلَمَةَ» هي البَصْمَةُ التي يُصِـرُّ «الغَالِبُ» على طَبْعِهَا فـي حياةِ «المَغْلُوبِ»، وقد كان هذا هو السّائِد - وما زال - في تدافُعِ البشر وصِراعاتِهم،

وهـذا مـا يُؤكّدُهُ برهان غليون بقوله: (الاتّجاه نحو دَمْج العَالَـم في مَنْظُومةٍ وَاحِدَةٍ قديمٌ قِدَمَ الحركاتِ والتَّوسُّعاتِ الإمْبراطوريّة)(٤١). ولذا نجدُ أنّ أحد أبْرز أشْكَالِ الشّكْوى من «العَوْلَمَة» هي في اتّهامِها بأنّها «أَمْرَكَةٌ»، وتَنْطَلِقُ هذه الشّكْوى - بحِدَّةٍ - من دُول «العَالَم الثّالث»، وتَقِلُّ درجةُ حِدَّتِهَا كُلّما ارْتَفعَتْ الأُمّةُ في سُلَّم القُوّةِ والتّأْثير، فهي - على سبيل المِثال - موجودةٌ - بشَكْلٍ عامٍّ - في «الخِطَابِ الثّقافيّ الفرنسيّ»، ولكنّها أكْثر رصانةً، وأقلّ انْفعالاً، وأهْدأ نغمةً. وأمّا تَطَابُقُ مُصْطلح «العَوْلَمَةِ» مع مَفْهُوم «الأمْرَكَة» في أذْهانِ كثيرٍ من النّاس فإنّه لم يَأْتِ من فَرَاغٍ؛ فالحُضُورُ الأمريكيّ الكثيف - في مجالات الاقْتصاد والعلوم والتّقْنية والمَعْلُومات والاتّصالات والإعْلام - كان كفيلاً بتَغَلْغُلِ مُعْطياتِ «الحياة الأمريكيّة» وثقافتِها في مُخْتلفِ المجالاتِ على السّاحةِ العَالَميّة، وكما يقولُ برهان غليون فإنّ: («الثّقافة المُسَيْطِرَة» لا تَحْتَلُّ مَوْقِعَهَا المُتَفوّقَ بسبب تَفَوُّقِ مَنْظُومَةِ قِيَمِهَا الأَخْلاقيّة أو الدِّينيّة أو الفنيّة، ولكن لأنّها ثقافة «المُجْتمعات المُسَيْطِرَة»)(٤١). وأمّا ما هو أَدْهَى من ذلك وأَمَرّ، ممّا يَقَعُ في غياباته «المُثقَّفون العرب» بدرجاتٍ مُتفاوِتَةٍ، فهو أنّ دَوْرَ هذه «الثّقافة المُسَيْطِرَة» لم يَقْتَصِرْ لديهم على قَبُولِهَا والحماسِ لها في أُطُرٍ عِلْميّةٍ أو مَعْرفيّةٍ أو اقْتصاديّةٍ، ولكنّهم جعلوها معاييرَ وضَوابِطَ ومُنْطلقاتٍ يَحْكُمُون بها على المُصْطلحاتِ الشّرْعيّة، ويَبْتَسِرُون بها أَحْكَامَ الدِّين وأَعْرَافَ المُجْتمع، مِثْل بعض مفاهيم «حُقُوقِ الإنْسان» و«حُقُوقِ المَرْأة» و«حُقُوقِ الطِّفْل» و«الحُقُوقِ السِّياسيّة» وغيرها. لقد أدّى هذا المَوْقِفُ المُنْبَهِرُ والمُتَخَاذِلُ إلى أَثَرَيْن شَدِيدَيْ السَّلبيّة؛ فهو - أوّلاً - أدّى إلى تصادُم هذه «النُّخْبَة» بقِيَم مُجْتمعاتها واسْتِفْزَازِ أهْلها، وهو - ثانياً - شَجَّعَ أصْحَابُ «الثّقافة الغَالِبة» أنْ يَجْعَلُوا من مبادئِهم وسياساتِهم وقِيَمِهم ومعاييرِهم مُنْطلقاتٍ وأُسُسٍ يُحَاكِمُون عليها الدُّول والشُّعوب، ويُمْلُون شُرُوطَهُم السّياسيّة والاقْتصاديّة والحُقُوقيّة وغيرها.

ولعلّ من المُهِمّ أنْ نَلْحَظَ أنّه بالرّغْم من تَقَدُّم كثيرٍ من المُجْتمعات الأوروبيّة واشْتراكِها مع أمريكا في ثقافتِها وقِيَمِها ونِظامِها، فإنّ التَّذَمُّرَ بين شرائِح وَاسِعَةٍ في تلك المُجْتمعات - بنبراتٍ مُتفاوتَةٍ - وَاضِحٌ لذلك الحُضُورِ الأمْريكيّ المُهَيْمِن، فما بالك بمُجْتمعاتٍ مُتَخَلِّفَةٍ في عناصِر الإنْتاج، ومُخْتلفةٍ في طبيعة الثّقافة والقِيَم؟. هذه الحقيقةُ

تُعْطِـي دَلالـةً وَاضِحَةً على أنّ قضيّةَ «العَوْلَمَـة» في أحد جَوانِبها الأسـاس «قضيّةٌ إنْسانيّةٌ» حيث يَفْرِضُ «الغَالِبُ» مُعْطياته وشُرُوطَـه، ويَنْسَاقُ «المَغْلُوبُ» إليهـا بدرجاتٍ مُخْتلفةٍ من المُقاومَـة. وبالرّغْم مـن تَشَابُكِ التّأْثيراتِ وتَعَقُّدِ الظّاهِـرَةِ إلاّ أنّها - في نهاية المطاف - مُحَصِّلَـةٌ طبيعيّـةٌ لعُنْصُرَيْ «العَوْلَمَـة» بجانِبها «الإنْسانيّ» المَحْضِ مـن ناحيةٍ، و«دَفْعِها الذّاتـيّ» من ناحيةٍ أُخْرى، وذلك بواسِطَةِ «الوَقُـودِ» المُمَيِّزِ لتَرْكيبتِها، وهو الذي جعل لها دَلالاتٍ وأبْعَـاداً لم تكنْ لتَخْطُرَ على بالٍ، وهذا يقودُنا - بالضّرورة - إلى السُّؤال: (ما هو هذا «الوَقُودُ» المُمَيِّزُ لظَاهِرَةِ «العَوْلَمَة»؟).

٢-٥-١) بِداية «العَوْلَمَةِ الحديثة»: العُلُومُ الطّبيعيّة:

لكـي نَتَعَـرَّفَ على خصائِص «وَقُودِ العَوْلَمَـة» يَنْبَغِي الانْتِبَاهُ إلى أنّـه بالرّغْم من أنّ «مَفْهُـومَ العَوْلَمَة» بـدا كاسِحاً وقويّاً في العَقْـدِ الأخير من القَرْنِ العشريـن إلاّ أنّ بَوادِرَهُ بَزَغَتْ قبل ما يَرْبُو على ثلاثة قُرُونٍ عندما بدأتْ مُعْطياتُ «العلوم الطَّبيعيّة» تَتَبَلْوَرُ، وراحتْ آثارُها الحياتيّةُ والإنْتاجيّةُ تَغْـزُو مَعَاقِلَ الأنْمَاطِ القديمةِ للإنْتاجِ والتّعامُلِ والتّفْكير. لقد بَـدَأَتْ «العلومُ الطَّبيعيّةُ» بعَوْلَمَةِ نفْسها، وذلك بتوحيدِ مُصْطلحاتِها ومقاييسِها وأدواتِها؛ فانْدَفَعَتْ في رُؤيةٍ مُوَحَّدَةٍ دون تَمْييزٍ من جِنْسٍ أو عِرْقٍ أو دِينٍ، وهَزَمَتْ الحُدُودَ الجُغْرافيّةَ والمَعَاقِـلَ التّقْليديّـةَ لتُصْبِـحَ نَمُوذَجاً تتنادى إليـه المُجْتمعات؛ وحتّـى أولئك الذين لم يُسْعِفْهُـمْ وَاقِعُهم علـى اسْتيعابِها وتَطْويعِها، فإنّهم لم يُقَصِّرُوا فـي شِرَائِهَا واسْتِجْدَائِهَا واسْتِهْـلاكِ مُنْتَجَاتِهَـا. لقد حَوَّلَتْ «الثَّـوْرَةُ العِلْميّـةُ» المُجْتمعاتِ المُتَبَاعِـدَةَ - جُغْرافيّاً وثقافيّـاً وقِيميّـاً - إلى قريّـةٍ صغيرةٍ تتشابكُ فيهـا المصالِح، وتتصارعُ فيهـا التّيارات، وتتفاعـلُ معهـا المُؤثِّرات، ويَتَيَسَّرُ لها انْتِقَالُ المَعْلُومـاتِ دون قَيْدٍ أو شَرْطٍ، فبَلَغَتْ بذلك «العَوْلَمَـةُ» أشُدَّهَا، ودَخَلَتْ كُلَّ دارٍ دون اسْتِئذانٍ، وهذا ما يُشِيرُ إليه برهان غليون عندما يقول: (إنّ «العَوْلَمَةَ» لا تُرْفَضُ ولا تُتَقَبَّلُ بالمُطْلَقِ لأنّها لا تَتَعَلَّقُ فقط بظَاهِرَةٍ ذاتيّةٍ، ولكن أيضاً بظَاهِرَةٍ موضوعيّةٍ خَارِجَةٍ عن إرَادَةِ الأفْرَادِ هي «الثَّوْرَة التّقنيّة العِلْميّة»)[٤١].

وهكـذا كان مـن البدهـيّ أنْ يُمْسِـكَ بتلابيـبِ «العَوْلَمَـةِ»، ويقـودَ مسيرتَها، ذلك الطَّـرَفُ الـذي قَبَضَ على زِمَامِ «العلـوم والتِّقْنية»، وتَمَكَّنَ من تَطْويعِهـا لأَغْرَاضِهِ وفِكْرِهِ ومصالِحِـه؛ وأمّا أولئـك الذين اعْتَقَـدُوا أنّهم يتصـدّون لسَلْبيّاتِ «العَوْلَمَـةِ» بالقصائِدِ والإنْشائيّاتِ والحماسيّاتِ، فإنّهم يعيشـون خَارِجَ ضَوابِطِ «الزَّمان» و«المكان»، وسيَبْقُون مُجَـرَّدَ «ظَاهِرَةٍ صَوْتيّـةٍ» لا تُقَدِّمُ ولا تُؤخِّرُ، ولكنّها فقط تُحَـاولُ عبثاً التّصدِّي – بقَوارِبَ مُتَهالِكَـةٍ مـن خَشَبٍ – لطُوفانٍ من الأمْـواجِ مُتلاطِم. فعندما تَبَلْوَرَ «مَفْهُـومُ العَوْلَمَة» في الغَـرْب، فإنّه قد نَضِجَ على نارٍ هادِئةٍ، وانْبثَقَ عن وَاقِعٍ يَفْهمونه، ويُؤثّرون فيه، ويصوغون نتائِجه؛ وعندما صَدَمَنَا هذا المُصْطلحُ في العَالَم العربيّ، وأثار هَلَعَنَا، وأوقظ هَواجِسَنَا، كانـتْ هذه الخلجـاتُ والانْفعالاتُ تَرْجَمَةً صَادِقَـةً لوَاقِعٍ مُتخاذِلٍ يَتَأَرْجَـحُ بين «ثُنَائِيّاتٍ» غَامِضَةٍ عن «التُّرَاث والحَدَاثَة» و«العَوْلَمَة والخُصُوصيّة» وغيرهما، ويَقْتَاتُ على مُعْطياتِ الآخَريـن، ويَتَتَرَّسُ خَلْفَ حَواجِـز كثيفةٍ تَحْجِبُ عنه الرُّؤية الحقيقيّـة لما يدُورُ حوله من تَحَوُّلاتٍ مُتسارِعةٍ، وتَغَيُّرَاتٍ جِذْريّة[٤٢].

٢-٥-٢) أخْطاءُ «الخِطَاب العربيّ»:

لقد أَخْطَأَ «الخِطَابُ العربيُّ» في تَعَامُلِهِ مع «العَوْلَمَةِ» ثلاث مَرَّاتٍ؛ فهو أَخْطَأَ عندما حَسِـبَ أنّها شَـرٌّ مُطْلَقٌ يَنْبَغِـي مُحَارَبَتُه، وهو أَخْطَـأَ عندما ظَنَّ أنّها خَيـرٌ مَحْضٌ يَنْبَغِي الارْتِمَـاءُ فـي أحْضَانِه، وهو أَخْطَأَ عندمـا اعْتَقَدَ أنّه سيُفْلِحُ في «عمليّـة الانْتِقاء» فيَخْتَارُ منهـا ما يُناسِبُه، ويَمْنَعُ بجَرَّة قَلَم ما يَكْرَهُه، فراح يَتَأَرْجَحُ بين «ثُنَائيّاتٍ» مُبْهَمَةٍ، و«رُدود فِعْلٍ» مُضَّطَرِبَة. لقد أخْطَأَ «الخِطَابُ العربيُّ» في كُلِّ تلك المَواقِف؛ لأنّها – ابْتِداءً – كانتْ كالعـادة مُجَرَّدَ «رُدود فِعْـلٍ» خَاليَةً من الرُّؤية الإسْتراتيجيّـة، وخَاوِيَةً من العمل المُنَظَّم؛ ولأنّهـا – انْتِهاءً – لـم تَسْتَوْعِبْ حقيقةَ «العَوْلَمَةِ» ومضامينَها، ولـم تُدْرِكْ طبيعةَ «الوَقُودِ» الذي يَدْفَعُ هذه الظَّاهِرَة، ويُزَوِّدُهَا بالطّاقة والحيويّة.

وأمّـا قَاصِمَةُ الظَّهْر، فهي أنّ «الخِطَابَ العربـيَّ» يَعْتَقِدُ جَادّاً أنّ له في الأَمْر خِياراً، وغَابَتْ عن مداركِه أنّه لا يَمْلِكُ مفاتيحَ التّأْثيرِ في الظّاهِرَة، أو إعادةَ صِياغتِها، أو تعْديلَ

وِجْهَتِهَا؛ فبَقِيَ حالُه - في نهاية المطاف - حال العَاجِزِ الذي يَشْتَكِي ويُوَلْوِلُ، ولكنّه يَبْقَى عَاجِزاً لا حِيلة له إلاّ التّمنّي والتّنْظير، وتحمُّل العَواقِب السّلْبيّة، ودَفْع ضريبة التّخلُّف. ويُعَقِّبُ برهــان غليــون على حقيقة أنْ «لا خِيار في أمْرِ العَوْلَمَة» فيرى ضرورة أنْ يَحْصُلَ الانْخِرَاطُ فيهــا بصُورةٍ إيجابيّةٍ عبْــر: (بَلْورة إسْتراتيجيّةٍ ذاتيّــةٍ وخاصّةٍ للدُّخُولِ فــي «العَوْلَمَةِ» من مَنْطِــقِ الصِّرَاعِ من دَاخِلها في سبيل تَعْديلِ موازين القُــوى المُتَحَكِّمَة بها، وتَحْسينِ فُرَصِ السَّيطرة على جُزْءٍ من آليّاتِها، والتَّحَكُّم في نُظُمِهَا وفعّاليّاتِهَا) [٤١]. أمّا من مَنْظُورِ «صِراع الثقافــات» الذي يرى بعضهــم أنّ «العَوْلَمَة» تَسْعَى إلى تَأْجيجِ نــاره، فإنّنا نَتَّفِقُ مع برهان غليون حين يقول: (ليستْ «العَوْلَمَةُ» هي المُنْشِئَة لسَيْطَرَةِ ثقافةٍ على ثقافةٍ أُخْرى، ولكنّها مُنْشِئَــةٌ لنَمَطٍ جديدٍ من «السَّيْطَرَةِ الثّقافيّة». وليس للثّقافاتِ الأُخْرى أيُّ مُسْتَقْبَلٍ بالفِعْلِ إلاّ إذا أَدْرَكَ أصْحَابُهَا طبيعة هذا النَّمَطِ الجديدِ من «السَّيْطَرَةِ الثّقافيّة» وآليّاته، وبَلْوَرُوا الإسْتراتيجيّــاتِ المُناسِبَةَ التي تَسْمَحُ لثقافتِهم أنْ تَبْقَــى على مُسْتوى المُشاركة العَالَميّة الإبْداعيّــة، وألاّ تَتَحَــوَّلَ إلى مُجَرَّدِ ثقافاتٍ هُويّــةٍ، أو مُعَبِّرَةً عن الاسْتمراريّــةِ والدَّيمُومَةِ التّاريخيّةِ لمَجْمُوعةٍ بشريّة. وهذا يَفْتَرِضُ التَّعَمُّقَ في فَهْمِ آليّاتِ هذه «السَّيْطَرَةِ الثّقافيّة»، وتَجْديدِ أساليبِ طَرْحِ مُشْكَلاتِ تَحَوُّلِ الثّقافات والمَهَامِّ المَطْرُوحَةِ على أصْحَابِهَا للنّجاحِ فــي هذا التَّحَوُّل، والارْتفَاع بثقافاتِهم إلــى مُسْتوى مُتطلَّباتِ العَصْر) [٤١]. الهَاجِسُ نفْسُهُ يَتَكَــرَّرُ لدى ثُلَّةٍ من المُثقَّفين العرب؛ فعلى سبيــل المِثال يَتَأَمَّلُ محمد محفوظ «الظَّاهِرَةَ العَوْلَمِيّةَ» ليَخْلُصَ إلى أنّ: (المَطْلوب ليس الخُرُوج من السِّياقِ الدّولي، وإنّما العملُ على اسْتِيعابِ آليّاتِ فِعْلِه، والتّكيُّفُ الإيجابيُّ مع مُتطلَّباتِه، عبْرَ إطْلاقِ مَشْرُوعٍ وطنيٍّ مُتكامِلٍ، يَسْتَهْــدِفُ خَلْقَ الكفاءاتِ والفُرَصِ والقُــدْرَاتِ بما يُعَظِّمُ ويُنَمِّي كُلَّ إمْكاناتِنا وفُرَصِ نُموِّنا في هذا العَالَمِ المليء بالإراداتِ والقُوى) [٤٢].

وهكــذا نَقِفُ علــى «المَشْهَدِ العربــيِّ» لنَرْقُبَ كيف تَحُــومُ الأُطْروحــاتُ والهَواجِسُ حــول «شيءٍ ما» فيه «تَجْديد»، وفيه «اسْتِيعــاب»، وفيه «تَكيُّف»، وفيه «تفاعُل»؛ ولكن تَبْقَى «مَاهِيَّــةُ» هذا الشّــيء في حاجةٍ إلــى تَعْبيرٍ أقْوى وتَحْريــرٍ أوضح وتَأْصيــلٍ أمْتن. وهكذا تَجِــدُ «المُجْتمعــاتُ العربيّــةُ» نَفْسَهَا في المَوْقِعِ ذاتــه الذي كانتْ فيه فــي عَصْرِ «ما قبل

العَوْلَمَة» عندما كانتْ صيحاتُ «النَّهْضَة»، وصرخاتُ اللّحاق بركْبِ «التّقدُّم»، تَتَرَى من كُلِّ «النّهْضَويّيـن» على مُخْتلفِ مشارِبهم وانْتماءاتِهـم. ذلك «المَشْرُوعُ النّهْضَويُّ» الذي حَلَمَ به «النَّهْضَويّون» في القَرْنَيْنِ التّاسع عشر والعشرين الميلاديّ، وهذا «المَشْرُوعُ العَوْلَمِيُّ» الـذي يَرْنُو إليه «المُتَعَولِمُون» فـي مَطْلَعِ «الأَلْفيّة الثّالثة»؛ كِلاهُمَا فـي حاجةٍ إلى «وَسَطٍ» كثيـفٍ قَادِرٍ على اسْتِيعابِ «الحركة المُعَاصِرَة»، ومَزْجِهَا مع قِوَامِ المُجْتمع، وتَأْصيلِهَا في نسيجِ الحياة.

مـن أبْرز معالِـم المَأْزِقِ هو الشُّعُـورُ بوقُوعِ «الثّقافة» فيما وَصَفَـهُ تيري إيجلتون[٢٧] فـي حالةٍ تقعُ بين (مِطْرَقـةٍ كَوْنيَّةٍ مُخْتَلَّة، وبين سِنْدَانِ خُصُوصيّـاتٍ مُشَوَّهَة)، وبالرّغْم مـن أنّ إيجلتون يَتَحَـدَّثُ عن سِياقٍ مُخْتلفٍ تماماً عن واقِعِ «الثّقافة العربيّة» إلاّ أنّ الحالة المَوصُوفة تُشْبِهُ طبيعة المَأْزِقِ الذي تَتَرَدَّى فيه «الثّقافة العربيّة». وأمّا – في نهاية المطاف – فإنّـه يَنْبَغِي الاتّفَاقُ مع إيجلتون بـأنّ: («الثّقافة» كقِيمةٍ كَوْنيّةٍ، و«الثّقافة» كشَكْلٍ حياتيٍّ مَخْصُوصٍ ليستا مُتضادَّتان بالضّرورة)[٢٧]، إلاّ أنّه يَنْبَغِي أنْ نُؤَكِّدَ هنا على أهميّةِ تَأْمين «صِمَامَاتِ أمانٍ» تَضْمَنُ عدم التَّصَادُم، وتُحَقِّقُ عناصِر التَّضَافُرِ والتَّوافُقِ والتّنَاغُم.

٢-٥-٣) «وَقودُ العَوْلَمَة» والبَحْثُ عن «ثقافةٍ حيويّة»:

فـي سِياقِ «العَوْلَمَةِ» و«وَقُودها» تَبْرُزُ – بشَكْلٍ صَارِخٍ – حَتْميّةُ تَأْسيسِ «ثقافةٍ حيويّةٍ» وتَأْصيلِها وتَطْويرِها لتتجاوَبَ مع طبيعةِ آليّاتِ «العَوْلَمَةِ» وخصائِصِها ووَقُودِها، وتُفْلِحَ في التَّحكُّـمِ بأدواتِها ومُعْطياتِهـا، وتتمكَّنَ من بِنَاءِ الجُسُورِ مع «الهُويّـةِ المحليّة»، و«الانْتِمَاءِ الدِّينـيّ»، و«الخُصُوصيّةِ الثّقافيّـةِ»، و«القِيَمِ المُجْتمعيّة»؛ فتكونُ قَـادِرَةً على التّفاعُل مع ثقافةِ «العَوْلَمَةِ الغَازِيَة»، ليس بالبُكاء والعويل، أو الانْعِزال والانْغِلاق، أو التّنْظير والتّمنِّي، ولكن بالفِعْلِ الذي يَتْرُكُ بصماته على الأرْض – إنْتاجاً وتَطْويراً وتَنْميةً –، ولقد اسْتَشْرَفَ مالـك بن نبـيّ هذا الحال منـذ خمسينات القـرْن الماضي حين كتب يقـول: («الثّقافة» أَصْبَحَـتْ تتحدَّدُ أخْلاقيّاً وتاريخيّاً دَاخِل تَخْطيـطٍ عَالَميٍّ، لأنّ المنابِع التي سوف تَسْتَقِي منهـا أفْكارهـا ومشاعِرهـا، والقضايا التـي سوف تتبنَّاهـا، والاسْتِفْـزازات التي سوف

تَسْتَجِيبُ لها، والأعمال التي سوف تقومُ بها، لا تَسْتطيعُ هذه كُلُّها أنْ تَتَجَمَّعَ في أرْض الوطن)(٢٨). لقد بات وَاضِحاً أنّ الأَمْرَ الذي مَنَحَ «العَوْلَمَةَ» أبْعادها الكَاسِحَة هو «الفِكْر العِلْميّ» بما تَمَخَّضَ عنه من كُشُوفٍ عِلْميّةٍ، وتَطْبيقاتٍ تِقنيّةٍ، ومَنْظُومَاتٍ مَعْلُوماتيّةٍ، وشَبَكات اتِّصَالٍ؛ فـ«العَوْلَمَةُ» - عند التّحْليل والتّمْحيص - لا تَعْدُو أنْ تكون «التَّرْجَمَة الفِكْريّةَ والثّقافيّةَ والاقْتصاديّةَ والعَسْكريّةَ للسَّطْوَةِ العِلْميّة، وهي الفِعْلُ المُتَحَرِّكُ على الأرْض كنتيجةٍ حَتْميّةٍ للهَيْمَنَةِ التّقنيّة المُعَاصِرَة»؛ وكما يقول برهان غليون: (تَبْدُو لي «العَوْلَمَةُ» حَاصِلَ دَمْجِ مُعْطيات «الثَّوْرَةِ العِلْميّة التّقنيّة» و«إسْتراتيجيّة إعادة الهَيْكَلَةِ الرّأسماليّة» معاً)(٤١).

قُلْنَا إنّ بُزُوغَ ظَاهِرَةِ «العَوْلَمَة» لم يكنْ قبل عَقْدٍ أو عَقْدَيْن من الزَّمن، ولكنّه بدأ منذ حوالي ثلاثة قُرُونٍ، عندما أَصْبَحَتْ لُغَةُ «العلوم الطَّبيعيّة» هي «اللّغة العَالَميّة» للإنْتاج والتَّقدُّم وتَشْكيل المُجْتمعات الحديثة، وهي مَنْبَعُ القُدْرة والرِّيادة والنُّفُوذ؛ ولذا فمن الخطأ أنْ نَعْتَقِدَ أنّ «المَأْزِقَ» الذي وَقَعَتْ فيه الأُمّة العربيّة والإسلاميّة بدأ مع هَجْمَةِ «العَوْلَمَة» في لِبَاسِهَا الحديث؛ فالحقيقةُ أنّ «المَأْزِقَ» قديمٌ منذ أنْ أَهْمَلَتْ الأمّةُ «الفِكْرَ العِلْميَّ» وتَطْبيقاته، ونَسِيَتْ الأَخْذَ بـ«أَسْبَابِ القُوَّة»، وانْجَرَفَتْ في التّيارات الكلاميّة، والخِلافات الفِكْريّة، وصِراعات السُّلْطَة، وديكتاتورية الفَرْد. ولأنّ سُنَن الله لا تَتَبَدَّلُ ولا تَتَغَيَّرُ؛ فإنّ «المَأْزِقَ» سيَسْتَمِرُّ سَواءً اسْتَمَرَّتْ ظَاهِرَةُ «العَوْلَمَة» واسْتَشْرَتْ، أو دخلنا في مَرْحلة «ما بَعْد العَوْلَمَة» أيّاً كانتْ احْتمالاتُها وأشْكالُها؛ فمَأْزِقُ «المُجْتمعات العربيّة» يَكْمُنُ في ضَعْفِهَا، وليس في ما يُقَدِّمُهُ الآخَرُون من أفْكارٍ وإسْتراتيجيّاتٍ وحُلُول.

عندما تُنْتِجُ المصانعُ في الشَّرْق والغَرْب مُخْتلف مُتطلَّبات الحياة من غِذَاءٍ ودَواءٍ وكِسَاءٍ وسِلاحٍ ووسائِل، فإنّ الأثر النّاتِج عن تشابُكِ تقْنياتها، وتداخُلِ مُتطلَّباتها، وتَوحُّدِ مُواصِفاتها، لا يَتَوَقَّفُ عند الجَانِبِ الماديّ، ولكنّه يَحْمِلُ معه - بالضّرورة - مضامين ثقافةٍ، وطُرُق تَفْكيرٍ، ومُمارَسات عملٍ، وقِسْ على ذلك كُلَّ نَمَطٍ من أنْماط «الحياة المُعاصِرة»؛ فكُلُّهَا تَخْضَعُ للتّفاعُلات العِلْميّة، والابْتكارات المُتَجَدِّدَة؛ وكُلُّها تَحْمِلُ أنْساقاً ثقافيّةً، ورُؤىً فِكْريّةً، ومضامين حياتيّةً؛ وكُلُّها تُوجِزُ - في مُجْمَلِهَا - طبيعة «الثّقافة

الحيويّـة» المَنْشُودة؛ وهذا ما يُشِيرُ إليه برهان غليـون إذْ يقول: (وما دام من غير المُمْكِن للعـرب في حُـدُودِ تطوُّرهم العِلْميّ والتّقنيّ الرّاهِن التّأثير علـى الطّابع التّقنيّ للعَوْلَمَة، أَيْ الدُّخُـولُ فيها من زاوية المُشارَكـة الفعَّالة في ثَوْرَةِ المَعْلُوماتيّـة والاتّصالات، فلا يُمْكِنهم الاسْتِفادة الفِعْليّة منْها إلاّ إذا نجحوا في توفير شُرُوطٍ تَسْمَحُ بتفتُّح إمْكاناتها لديهم، وبَلْورة إسْتراتيجيّةٍ تُتِيحُ لهم السَّيْطَرَةَ على بعْض عناصِرها أو على عناصِر أساسيّة فيها)[٤١].

إنّ الحقيقـة الحزينة تقول إنّ «القُـوَّةَ الكَامِنَةَ» وراء تفاعُلاتِ «الحيـاة المُعَاصِرَة» كانـتْ آخِـر اهْتِمامـات «العَالَم العربـيّ» الحَائِـر، وحتى أولئـك الذيـن وضعوها ضمْن أولويّاتهم الخَطَابيّة والشَّكْلِيّة فَشِلُوا في تَفْعيلها، واحْتِضَانِ قِيَمِهَا، والتّفاعُلِ مع شُرُوطِها، والاحْتِكَام إلى ضَوابِطِهَا. ولا شَكّ في أنّ «المَأْزِقَ» سيَسْتَمِرُّ طالما أنّ «المُجْتمعات العربيّة» لـم تَسْتَوْعِبْ بعد طبيعة «الوَقُـود» الذي يَدْفَعُ صاروخ «العَوْلَمَة»؛ ولأنّ «العَوْلَمَة» هي «الابن الشَّرْعـيّ للعلوم والتّقْنيـة»، فإنّه ليس لدى هذه المُجْتمعات ما تهابه مـن «العَولَمَة» سوى ضَعْفها واسْتِرخائها إزاء «الحركة العِلْميّة - التّقنيّة» بكُلِّ امْتِداداتِها التّطْبيقيّة وعُنْفوانِها الفِكْـريّ وتشعُّباتِهـا الثّقافيّة، وكما يقول زيـن العابدين الرّكابي: (هنـاك حَافِزٌ إضافيٌّ يُلْهِـبُ الإرادة ويُحَفِّزُهَا علـى الاسْتِبْحَارِ فـي «الثّقافة العِلْميّة». هـذا الحَافِزُ هو «تَحَدِّي العَوْلَمَـة»؛ فإذا كانتْ «العَوْلَمَةُ» خطراً دَاهِماً فليس يُدْفَـعُ هذا الخطر إلاّ بحقائِق «العِلْم» ومُعْطياتـه، وإذا كانتْ هناك معارِف جديـدةٌ تُكْتَسَب، وعَلاقاتٌ جديدةٌ تُنْسَج، فلا سبيل لتَحْقيق ذلـك إلاّ بحقائِق «العِلْم» ومُعْطياته، وإذا كانتْ «العَوْلَمَة» «بَيْنَ بَيْن»، فإنّ التَّمْييزَ بين خَيْرِهَا وشَرِّهَا لا يكون إلاّ بحقائِق «العِلْم» ومعاييره)[١٤].

٢ - ٦) «المُثقّفُ العربيّ» والدَّوْرُ المَفْقُود:

عند الحديث عن «الثّقافة العربيّة» يُصْبِحُ الاهْتِمام بمن يُمَارِسُهَا ويُطَوِّرُهَا ويُشَكِّلُهَا أَمْـراً حَتْميّـاً ممّا يُوجِبُ تَسْليط الضّوء علـى «المُثقّف العربيّ»، وهنا تَبْـرُزُ بوضُوحٍ حَالَتَا «النَّرْجَسِيّـة» و«العُزْلَـة» التـي يتميَّزُ بها هـذا «المُثقّف» ممّا أَدَّى، وفْـق رُؤية محمود عبد الفضيـل، إلـى: (عدم نُشُـوء مدارِس فِكْريّـةٍ حقيقيّةٍ، بَـلْ «حوانيت فِكْريّـةٍ» فلقد اخْتار

المُثقَّفون العرب، في مُعْظَمهم، أُسْلوب «العَزْفِ المُنْفَرِد» في عُزْلَةٍ عن حركة الجماهير في المُجْتمع، وفي عُزْلَةِ بعْضهم عن بعْض، وانْتَشَرَتْ بينهم أمْراضُ «الفَرْديّة» و«الشُّلليّة»، وحَفَلَتْ المنْطقة العربيّة بنموذج «المُثقّف الطّاووس» يَخْتَالُ عجباً بنفْسه الذي لا يرى إلاّ نفْسه في المِرآة، ولا يَرْجِعُ سوى إلى أعْماله، ويُهْدِرُ الإشارة إلى غيره من المُثقَّفين والمُبْدعين، وبالتّالي لم يَحْدُثْ نَوْعٌ من التَّرَاكُمِ المَعْرفيّ الخَلاّق في المَنْطقة العربيّة)[١٨].

في «أدبيّات الثّقافة» اهْتِمامٌ جَلِيٌّ بطَرْحِ تَصْنيفاتٍ مُتَنَوِّعَةٍ لـ«المُثقَّف العربيّ» منذ بُروز هذا المُصْطلح في «الفِكْر العربيّ»، ويُعَبِّرُ كُلُّ تَصْنيفٍ عن مَرْحلةٍ مُعَيَّنَةٍ من مراحِل التّطوُّر التّاريخيّ في «المُجْتمعات العربيّة»؛ فنجدُ[١٨] – على سبيل المِثال– أنّ هناك «المُثقّف الاجْتراريّ»، و«مُثقّف التَّحَرُّر الوطنيّ»، و«مُثقّف النِّضَال القوميّ»، و«المُثقّف الليبراليّ»، و«المُثقّف التِّكْنوقراطيّ»، وفي حالاتٍ أُخْرى تَعْمَدُ «الأدبيَّات» إلى التّمْييز بين «مُثقّف السُّلْطَة» و«مُثقّف المُعَارَضَة»؛ ومن الوَاضِح أنّها جميعها تَكْتَسِبُ دَلالاتٍ سياسيّةً، وتَعْكِسُ تجارِب مُتَنَوِّعَةً في مُجْتمعاتٍ عربيّةٍ مُخْتلفةٍ، ولا يَخْلُو الأَمْرُ – في نهاية المطاف – من انْضِواءِ أيٍّ من هؤلاء المُثقَّفين تحت لِواء إحْدى «المدارِس الفِكْريّة» التي تَطَرَّقْنَا إليها في الفَصْل الأوّل من هذا الكِتاب.

وعلى الرّغْم من وُجُود جِذْرٍ ثقافيٍّ رَاسِخٍ في «الثّقافة العربيّة» يُكَرِّسُ «الحالة الانْفِصَاليّة» بين «المُثقّف» و«المُجْتمع» إلاّ أنّ «النّزْعَةَ الأكاديميّةَ المُفْرِطَةَ»[١٨]، وبالذّات لدى رِجال «العلوم الطَّبيعيّة» ومُتخصّصي «التّقْنية»، قامتْ بدَوْرٍ فَاعِلٍ في عَزْلِ «الثّقافة العِلْميّة» عن «الجُمْهُور»، وأدَّتْ دَوْراً فَاعِلاً في إنْجَابِ ما وَصَفَهُ عبد الإله بلقزيز[١٨] بـ«المُثقّف المُنْفَصِل». أمّا ما اشْتَهَرَ باسْم «المُثقّف الشُّمُوليّ»[١٨]، وهو (المُثقّفُ العَارِفُ بالحقيقة، ومُوقِظُ الوَعْي، وضميرُ المُواطِنين)؛ وهو النَّمُوذَجُ الذي نشأ في القَرْن الثّامن عشر الميلاديّ في أوروبا، فقد تآكل بفِعْل عناصِر عِدّةٍ ليس أهْونها بُروز أنْماطٍ مَعْرفيّةٍ مُتَنَوِّعَةٍ ذات طابعٍ تخصُّصيٍّ وطبيعةٍ تراكُميّةٍ وأنْماطٍ مُتَجَدِّدَةٍ أَصْبح لها التّأْثير الأكْبر على حياة البشر وتطوُّر المُجْتمعات.

وتماشيــاً مع سِياق هذا الكِتاب واهْتِمامه الحَضَرِيّ بـ«قضيّة التّنْميّة»، فإنّه لا بُدّ أنْ نَتَّفِقَ مع عبد الإله بلقزيز في مَيْلِهِ إلى اخْتيار ما أسْمَاهُ «التّعْريف الوظيفيّ للمُثقّف» الذي (نَنْتَبِــهُ فيه إلى ما يُكَوِّنُ عناصِر التّحْديد لدى «المُثقّف» من خلال «الشّكْل المادِّيّ» الذي تَتَجَلَّى فيه فَعّاليّته)(١٨)، ولا شَكّ أنّ هذا التّعْريف، عند السَّعي إلى إسْقَاطِهِ على «المُثقّف العربــيّ»، سيُبْرِزُ قُصُوراً فَادِحاً في «التَّكْوين الثّقافــيّ» لهذا «المُثقّف»، وهو قُصُورٌ نَزْعُمُ في هذا الكِتاب أنّه يَقَعُ في قَلْبِ «إشْكَاليّة التَّنْمية».

تَبْــرُزُ المُشْكِلَــةُ ذاتها إذا أخذنــا بذلك التّعْريف الــذي خَلَصَ إليــه جلين سيبورج (Glenn Seaborg) بقَولــه: (إنّ المُثقّف – إذاً – هو الإنْســان الذي يَمْتَلِكُ مَعْرفةً كافيةً تُلائِــمُ بيئتــه)(٤٤)؛ وبمــا أنّ لـ«البيئــة المُعاصِــرَة» مُرْتكَزاتٍ عِلْميّــةً ومُنْطلقــاتٍ تَنْمَويّةً ومُتطلَّبــاتٍ تِقنيّــةً، فإنّ هــذا التّعْريف سيُخْــرِجُ، من زُمْــرَةِ المُثقّفين، الغَالِبيّــةَ العُظْمَى مــن المَحْسُوبين على «الثّقافة» فــي العَالَم العربيّ، وبخاصّةٍ عندمــا يُذَكِّرُنَا محمود عبد الفضيــل أنّ: (التَّحَــدِّي الكبير الــذي يُواجِهُ العرب في القَرْن القَادِم هــو كيف يُمْكِنُ لهم اقْتِحَــامُ «مُجْتمــع المَعْلومات» و«التِّقانــة المُتَقَدِّمَة»، واجْتِيازُ «الحَاجِــزِ الحَرِج» نحو هذا العَالَــم الجديد من دون افْتِقادِهم الخُصُوصيّة الثقافيّة والهُويّة الحضاريّة)(١٨). في هذا السِّيــاق يُؤكِّــدُ أنيس صايغ(١٨) على ظَواهِــر مُرْتَبِطَةٍ بـ«المُثقّف العربــيّ»، ويَصِفُهَا بأنّها: (جديــرةٌ بالانْتِبَاه والتّفحُّص ليَسْتَقِيمَ الحُكْمُ في ما يتعلّقُ بالنِّتاج الثّقافيّ العربيّ)، ومن بيــن هذه الظّواهِــر: (أنّ «الثّقافة» شَــأْنٌ مُتَطَوِّرٌ لأنّه شَــأْنٌ حَيٌّ، ومن هنــا يُواجِهُ مُثقّفُنَا العربــيّ اليوم، مهْما كانتْ أحْجَامُ هُمُومِه ومُسْتويــاتُ عطائِه، تحدّياتٍ لم يَأْلَفْهَا أسْلافه مــن أهْل العِلْم والمَعْرفة من عرب الأمْس. هناك تحــدّي «النَّهْضة العِلْميّة والتّكْنولوجيّة» فــي العَالَم التي لا يجــوز لبلادنا أنْ تَبْقَى بعيــدةً عنها، بَلْ إنّها لا تَسْتطيــع أنْ تتجاهلها، لأنّها إذا فعلتْ ذلك تجاهلها التّقدُّم في حُقُول المَعْرفة، وأبْعَدَهَا عن المُشَارَكَةِ في الفِعْلِ الحضاريِّ المُعَاصِرِ والمُقْبِل).

أمّــا وَاقِعُ الحال، فيَشْهَــدُ بأنّ خِطَابَ «المُثقّف العربيّ» بَقِــيَ خِطَاباً مَهْوُوساً بذاته، مُغْرِقــاً في نَرْجَسِيّتــه، مُسْتَنْسِخاً لمُعْطياتــه، مُجْتَرّاً أحْلامه؛ وأمّــا الطَّامَةُ الأُخْرى فهي

إغْراقُ خِطَابِ «المُثقّف العربيّ» في «الجَدَلِ السّياسيّ» ليكون وفْق وَصْفِ شاكر مصطفى: (العطـاء الثّقافيّ كان سياسيّاً بالضّرورة أكْثر ممّا هـو ثقافيّ. صَبَغَتْ السّياسة الفِكْر كُلَّه بلَونِهَـا الكَالِحِ لأنّهـا أَصْبَحَتْ خُبْزَ النّاس على الرّغم منهم)[١٨]. وبقِـراءةٍ مُتَأنّيةٍ نجدُ أنّ شيئـاً ما لم يتغيّرْ في أنْماط «الحياة الثّقافيّـة» ومُمارَساتها واهْتِماماتها عبْر قُرُونٍ طويلةٍ مـن الزّمن، وكما يقول شاكر مصطفى: (فخِطَـابُ المُثقَّفين في الرُّبْعِ القَرْنَ الأخير أخذ -كما كان من قَبْل - الطَّابع الأدبيّ والفنّيّ، لا الطَّابع الفَلْسفيّ أو العِلْميّ. وإذا كان التَّوجُّهُ الأدبيّ يَسْتَقِي من تُراثٍ محلّيٍّ في الغَالِب، فقد تداخلتْ فيه وفي تَغْذيته منابِع غَرْبيّةٌ شَتّى. أمّا العطاء الثّقافيّ العِلْميّ فقد كان في مُعْظَمِهِ مُتَرْجَماً عن الإنْجليزيّة والفرنْسيّة)[١٨].

٢-٦-١) المَأْزِقُ الثقافي: بين «السِّياسة» و«العِلْم»:

إنّ «الخِطَـابَ الثقافـيّ»، الذي تَمَيَّزتْ به الحـركات النَّهْضَويّة فيمـا يُسَمَّى «عَصْر النّهْضــة» خلال القَرْنَين الماضِيَيْن، كان خِطَاباً سياسيّاً في المقام الأوَّل، واهْتَمَّ - تحت ضُغُوط الظُّرُوف السّائِدَة - بقضايا التّحرُّر من الاسْتعمار، وتَأْسيس بُنىً سياسيّةٍ تَنَوَّعَتْ بيـن دَعاوى الوَحْدَةِ والاشْتراكيّـة، واتّهاماتِ الرّجعيّة والدّكتاتوريّـة، واسْتِعادةِ فلسطين المَسْلُوبـة، لتضيـق رُقْعَـةُ المُطَالَبَـاتِ والشِّعَـارَاتِ والبُكَائِيّاتِ مـع «النَّكْبَـةِ الثّانية» في عـام ١٩٦٧م لتَقْتَصِرَ على «إزالة آثار العُدْوان»، ولتَسْتَجْدِي العَوْدَةَ إلى حُدُودِ ما قبل عام ١٩٦٧م، وما زال أُفُقُ التَّنَازُلاتِ مَفْتُوحاً!.

مـن المُهمّ أنْ نَتَوَقَّفَ هنـا أمام مُلاحَظةٍ قَيِّمةٍ يَطْرَحُهَا محمـد عابد الجابريّ عندما يقـول: (الدَّوْرُ المُحَـرِّكُ للحياة الثّقافيّة فـي التّاريخ العربيّ الإسْلامـيّ كان للسّياسة. لقد قامـتْ «السِّياسة» في السّاحة الثّقافيّة العربيّة بالـدَّوْرِ ذاته الذي قام به «العِلْم» في الثّقافة الأوروبيّـة)[١]، ويقودُنـا هذا التّحْليلُ إلى وَضْعِ إصْبعنا على السَّبَـبِ الذي أَدّى إلى انْحِطَاطِ الأُمّـة العربيّـة وتَخَلُّفِهَا، وأَدّى - في الوَقْتِ نفْسـه - إلى تَقَدُّمِ أوروبـا وتَفَوُّقِهَا؛ ففي الحالة الأولـى كانـتْ «السِّياسَةُ» تُضْرِمُ أَتُـونَ الفُرْقَةِ والصِّراعات، وتُؤَجِّجُ نـار الخِلافات ومطامِع السُّلْطَة؛ وأمّا في الحالة الثّانية فقد كان «العِلْمُ» في أوروبا يُحَقّقُ الإنْجازات المادّيّة، ويُطَوِّرُ

الاقْتصاديّـات، ويَدْفـعُ «التّنْمية»، ويُكَرّسُـ «العَقْلانيّة»، ويَضْبِطُ الانْفعـالات. وهكذا راحتْ «الثّقافـة السِّياسيّة»[٣١] – في المُجْتمعات العربيّة – تتفاعل مـع المَلَكَاتِ الأدبيّة والمهاراتِ اللفْظيّة المُهَيْمِنَة على «الثّقافة العربيّة»، وبالتّالي تَدْخُلُ في دَوَّامَاتِ المُسَاجَلاتِ والمُزايدات، وتَجْييشِ المَشَاعِـرِ والانْفعالات، لتَصْطَـدِمَ بوَاقِعِ العَصْرِ وتحدّياتـه، دون أنْ تَمْتَلِكَ أدواتٍ فَاعِلةً للتّعامُلِ مع المُتَغيِّرَاتِ المُتسارِعة في أنْمَاطِ الحياة و«مُقْتضيات التّنْمية».

وهكـذا نَصْطَـدِمُ بعَدَدٍ من الأسْئلة مـن أبْرزها: (ما أَبْعَادُ ذلك الـدَّوْرِ الذي يَنْبَغِي أنْ يَتَبَنّـاهُ «المُثقّـفُ» ويَتَحَلَّى بخصائِصِهِ ليكون له الفَاعِليّة المَطْلوبة في الخُرُوجِ من نَفَقِ الإحْبَـاطِ والعَجْزِ؟. ما «القضيّـةُ الغَائِبة»، أو «الحَلْقَـةُ المَفْقُودَة»، القَـادِرَةُ على إحْدَاثِ «النَّقْلَـةِ النَّوْعيّـة» فـي عطاء «المُثقَّـف العربـيّ» وتفاعُلاتـه وإبْداعاتـه؟). إنّ المُشْكلة الكَامِنَـة – في كُلِّ تلك الطُّرُوحات والتّفْسيـرات والتّعْريفات المُرْتَبِطَة بـ«المُثقَّف العربي» وأحْوالـه – هي أنّهـا تَدُورُ في أفْلاكِ السّياسـة، أو الفِكْرِ المُجَـرَّد، أو الهُمُومِ المُجْتمعيّة الآنيّـة، فـي رُؤىً عَشْوائيّةٍ لا تَتَعَـرَّفُ على جَوْهَرِ التّحدّيات ولا تَسْتَجِيـبُ لمُشْكلاته. ولذا فـإنّ تَعْريفـاتٍ فَضْفَاضَةً مثل تَعْريف «المُثقّـف» بأنّه «مُنْتِجُ الوَعْـي»، كما يرى عبد الإله بلقزيـز[١٨]، لا يُمْكِـنُ لها أنْ تُقَدِّمَ أو تُؤخِّرَ في حَلّ مُعْضِلَةِ «الثّقافة العربيّة»، وذلك لسببٍ جوهـريٍّ هو أنّ تلـك المسارات والتّعْريفات والمَواعِظ والإنْشائيّـات جميعها تُغْفِلُ طبيعة «الـدَّوْرِ التّنْمَـويّ» للمُثقّـف، وتُهْمِلُ خصائِص «المَـدَارَاتِ التّنْمَويّة» التـي يَنْبَغِي لـ«ثقافة الأَلْفيّـة الثّالثـة» أنْ تَنْخَرِطَ فيهـا وتتعامل معها بجِدِّيَّةٍ واهْتمام. وهكـذا نجدُ أنّ الحاجة مَاسَّـةٌ فـي «المُجْتمعات العربيّـة» إلى ما يُسَمِّيه عبـد الله عبد الدّائـم «الثّقافة الجَادَّة» التي: (تُقَدِّمُ لأبناء المُجْتمع على مُخْتلف مُسْتوياتهم أَجْوبةً وَاقِعيّةً عن مُشْكلاتِ حياتهم، وأَمْرَاضِ مُجْتمعهم، ومَطَالِبِ مُسْتَقْبَلهم)[١٨].

٢-٦-٢) البَحْثُ عن مَشَاجِب:

تميـلُ جَمْهَـرَةٌ مـن المُثقَّفين إلى إلقـاء مَسْؤوليّة مـا يُعانيه «المُثقّـف العربيّ» من يَأْسٍ وإحْبَاطٍ وعَجْزٍ علـى جِهاتٍ عِدَّةٍ؛ فالبَحْثُ عن «المَشَاجِب» تَقْليدٌ أصيلٌ في «الثّقافة

العربيّــة»؛ و«المَشَاجِـبُ» كثيرةٌ، وهي تتوالدُ مع الزَّمــن، وبكفاءَةٍ عالية، لأنّهــا تَنْبَثِقُ من الخيــال العربيّ الجَامِح والوِجْـدان الجَانِح؛ ومنْها – على سبيل المِثــال – «نِظَامُ السُّلْطَةِ البيروقراطيّــة» الــذي عزا إليــه برهان غليــون[١٨] رُوح الإحْبَــاطِ والضَّيــاعِ واليَأْسِ التي أَلَمَّــتْ بمُعْظَمِ المُثقَّفين. وأمّا القِرَاءَةُ المُتَأنِّيةُ لطبيعة التّحدّيات المُعاصِرَة، وخصائص التّفاعُلات الثقافيّة، ومُتطلَّبات «الحركة التّنْمَويّة»، فتُوَضِّحُ أنّ العَيْبَ «عَيْبٌ بُنْيويٌّ ثقافيٌّ» فــي المقام الأوَّل، وهــو عَيْبٌ لا يُمْكِنُ تَقْويمــه إلاّ بحُلُولٍ ثقافيّةٍ مُلائِمَــةٍ، ولقد وَضَعَ زكي نجيــب محمود إصْبعه على الجُــرْحِ النّازِفِ عندما قــال: (أَحْسَبُ أنّ الحقيقــة ستَصْرُخُ فــي وجوهنا صُراخاً يَسْمَعُــهُ حتّى الأصَمّ، بأنّهم هناك قد أخــذوا يَقْرؤون كِتاب الطّبيعة المَفْتُــوح، ويَقْرؤونــه على ضوء «المَنْهَــجِ العِلْميّ» المُؤدِّي حَتْماً إلــى نتائِج عمليّةٍ في حياة النّاســ، بينمــا أَخَذْنَا نحن نَقْرَأُ صحائِــف الأقْدمين لنَحْفَظَهَا حِفْظــاً، ونَشْرَحَهَا ونَشْرَحَ شُرُوحَهَا ونَكْتُبَ عنها الهَوامِش، ثم نَشْرَحُ هذه الهَوامِش في هَوامِش، إلى آخر هذا الجُهْدِ الشّاقّ الذي يَبْدَأُ بالورق، ويَنْتَهِي بالورق)[٢٠].

وهكذا يَتَّضِحُ دون لَبْسٍ أنّ «الثّقافة العربيّة» أَخْفَقَتْ في توليد «مَشْرُوعٍ نَهْضَويٍّ» شَامِلٍ – ذي نَكْهَةٍ مُعاصِرَةٍ – قَادِرٍ على اسْتِشْرَافِ المُسْتقبَل، وتَقْيِيمِ الحَاضِر، وتَنْقيحِ الماضي، ومُجارَاةِ التّفاعُلات العَالَميّة، والتَّجاوبِ مع مُتطلَّبات العَصْر، واسْتِيعابِ مُتَغَيِّراته؛ وهكذا بَقِــيَ «المُثقّف العربيّ» أسير تَكْوينه الثّقافيّ؛ نَادِباً حَظَّه، ولائِماً غيره، وبَاكِياً – كالعادة – على الأطْلال. لقد أَدْرَكَ بعْض المُهْتَمِّين بـ«المُعْضِلَة الثّقافيّة» أبْرز مَلامِح «الخَلَلِ البُنْيويّ» فــي «الثّقافة العربيّة»، وهــو ضَعْفُ «التّكْوين المَعْرفيّ» لـ«المُثقَّــف العربيّ»، وهذا ما يُشِيرُ إليه عبد الله عبد الدّائم فيقول: (إنّ فَقْرَ المُحْتوى العِلْميّ والعَقْليّ والتّغْييريّ والتّجْديديّ لعطاء «المُثقّف العربيّ» في كثيرٍ من الأحْيان، وعَجْزَهُ غَالِباً عن الغَوْصِ في أعْماق حاجات المُجْتمع من أجل إدْراك مُسْتلزمات تَغْييره، وضَعْفِ الْتزامه أحياناً بما تُمْليه عليه ثقافته، أُمُورٌ تَجْعَلُ قُدْرته على مُخَاطَبَةِ المُجْتمع مَنْقُوصَةً ومُقَصِّرَةً عن مداها)[١٨].

إذا كانتْ «الثّقافة» مُحِيطاً تَسْبَحُ فيه مُكَوِّنات المُجْتمع وخصائِصه، وكانتْ الإشْكَاليّة القَائِمــة «إشْكَاليّةً تَنْمَويّةً» بامْتِيازٍ، وكانتْ «التّنْميــة» حركةً مُجْتمعيّةً ديناميكيّةً يَنْبَغِي أنْ

تَتَحَـرَّكَ دَاخِل ذلك «المُحِيط الثّقافـيّ» وتتفاعلَ مع أَبْعادِه وأَغْـوارِه؛ وإذا كان «المُثقّفُ» هـو العُنْصُر الـذي يَحْمِلُ هَمَّ مُجْتمعـه، وصَاحِـب رأيٍ ورِسالةٍ وقضيّةٍ يَدْفَـعُ بـ«الحَرَاك الثّقافـيّ» طَامِحاً في إحْداث تَغْيير نحو الأفْضل، فإنّه من البدهي أنْ تقود تلك المُعْطيات إلـى عمليّاتٍ تَدْفَعُ بـ«المُثقّف» بعيداً عن التّنْظيرِ الغَائِم والشِّعَارَاتِ السّياسيّةِ والانْفعالاتِ المُلْتَهِبة، وتُحَرِّرُهُ من التَّقَوْقُع تارةً في أُطُرٍ فِكْريّةٍ تَقْليديّةٍ، وتارةً أُخْرى من الانْكِبَابِ على جَـدَلٍ عقيمٍ حول «حَدَاثَةٍ كلاميّةٍ» لا تَفْقَهُ أَبْجديّـات «المُعَاصَرَة»، وتُفْلِحُ فقط في أنْ تَزُجَّ بـ«المُثقّف» في صِراعٍ مُحْتَدِمٍ تارةً مع السُّلْطَة، وتارةً مع معايير المُجْتمع.

وأمّا «قضايا التّنْمية»، بشُمُوليّتِهَا وتداخُلاتِها وتَحَدّياتِها ووَاقِعيّتِها وصرامتِها، فإنّها شـيءٌ آخَرٌ تماماً، وهـي بعيـدةٌ كُلّ البُعْد عن تلك الانْفعالات والتّخيّلات والجَدَلِ والأمانيّ؛ وهي لا تَنْتَظِرُ الوَصَفَاتِ السِّحْريّةِ والتّنْظيراتِ الوَهْميّة، ولا تَعْمَلُ من وَاقِع الحُلُول السَّهْلَة والتّصـوُّرات المُرْتَجَلَة، ولكنّها - بطبيعتها الحيويّة - «قضيّةٌ تراكُميّةٌ» حيث يَرْتَفِعُ البِنَاءُ لَبِنَـةً لَبِنَـة، ويَعْضُدُ بعْضُه بعْضاً، فـلا يُلْغِي العمل ما قبله من إنْجـازاتٍ، ولا يَنْسِفُ جُهْدُ المُتَأخِّريـن عطـاءات المُتَقدِّمين. تلك «الطَّبيعـة التَّراكُميّة» تُؤدِّي - عبْـر الفَرْزِ الدّائِم والتّمْحيصِ النّزيه - إلى «عمليّةٍ عُضْويّةٍ توليديّةٍ»، حيث إنّها - ابْتِداءً - تَنْغَرِسُ في تُرْبَةِ بيئَتِهـا لتَنْمُو في تَنَاغُم مع مُقَوِّمَاتِ البِيئة ونسيـجِ المُجْتمع، ثم هي لا تَفْتَأُ تتوالدُ وتتكاثرُ عبْـر التّفاعُلات الطّبيعيّة لعمليّةٍ تَنْمَويّةٍ رَاسِخَةِ الجُذُورِ، أَصْلُهَا ثَابِتٌ وفَرْعُهَا في السَّمَاءِ لتُؤتِي أُكُلَهَا في سَخَاءٍ ونَقَاء.

مـن ذلـك المُنْطلـق، لم تكـنْ «التّنْمية الحقيقيّـة» - يوماً مـا - جُهْدَ رَجُـلٍ وَاحِدٍ، ولـم تَرْتَبِـطْ - ساعةً ما - بأَحْلام نُخْبَـةٍ دون غيرها، ولكنّها كانتْ دومـاً إرادةً جماعيّةً، وجُهُـوداً مُجْتمعيّةً، ورُؤىً مُشْتَرَكَـةً، وتلاقُحاتٍ مُتتابِعةً، وشَغَفـاً بالتّفاصيل، وتَدْقيقاً في الآليّـات؛ وهذه هي تمامـاً مُقَوِّمَاتُ «المَنْهَجِ العِلْميّ التَّجريبيّ» الـذي أَفْلَحَ - ابْتِداءً - في تَطْويـرِ علومِه ومناهِجِه وأدواتِه ليُحْدِثَ الثَّوْرَةَ الأضْخَمَ فـي حياة البشر، ثم اسْتطاع أنْ يَنْتَقِـلَ، بفِكْرِه وثقافتِه وأدواتِه ومُنْجزاتِه، إلى كُلِّ خليّةٍ من خلايا الحياة في «المُجْتمعات المُتَقدِّمَة» ليَدْفَعَ بها نحو الحيويّة والفاعِليّة والإنْجاز.

أقـول: الحاجـةُ مُلِحَّةٌ إلـى بَلْـوَرَةِ «دَوْرٍ تَنْمَـويٍّ» لـ«المُثقَّـف» يَنْتَقِلُ به مـن كُلِّ تلك الاحْتِقَانَـاتِ اللّفْظيّة، التـي تُمَيِّزُ «المُثقَّف العربيّ»، إلى فِعْلٍ يسيـرُ على الأرْض، ويُوَظِّفُ المَـوارِد، ويَصْنَـعُ الآليّات؛ وكُلُّ هـذا لا يُمْكِنُ أنْ يَتَحقَّـقَ بمَعْزِلٍ عن فَهْـمٍ عميقٍ لطبيعة «الحركـة التَّنْمَويّة»، ومُقْتضياتها المُعَاصِرَة، وأدواتها المُتَجَدِّدَة. ومن هنا يَنْبَغِي أنْ يَبْرُزَ تَصْنيـفٌ جديدٌ لـ«المُثقّف» وهو «المُثقّف التّنْمَويّ»؛ هذا «المُثقّفُ» القَادِرُ على الاضْطِلاعِ بدَوْرٍ مَلْمُوسٍ في التّفاعُلات العَالَميّة، والتّعامُلِ مع مُعْطياتِ «الفِكْرِ المُعَاصِر»، واسْتِيعابِ مُتطلَّباتِ «الحركة التّنْمَويّة» ومُقْتضياتِها ووسائِلِها.

٢-٧) توجيهُ الثّقافة:

مـن مُنْطلـق ضرورة بُـروز «المُثقّف التّنْمَويّ» فـي تفاعُلات «المُجْتمعـات النّامية» ليكون له دَوْرٌ فَاعِلٌ في إطار تلك الرُّؤية التي طَرَحَهَا تيري إيجلتون التي تُقَرِّرُ أنّ: (المُهِمّ فـي أَمْرِ «الثّقافة» هـو فِعْلُهَا التَّغْييريّ علـى مُسْتويات المُجْتمع الأُخْـرى)[٢٧]، فإنّنا نجدُ أنّـه من اللازم إبْراز مَفْهُـوم «توجيه الثّقافة»[٢] الذي طَرَحَهُ مالك بن نبيّ حيث يرى أنّ: (حَـلّ مُشْكلة الإنْسان يتكامـلُ في ثلاثة عناصِر أساسيّة هي: «توجيـهُ الثّقافة»، و«توجيهُ العمـل»، و«توجيهُ رَأْسِ المـال»)[٢]. وعندما نَتَأَمَّلُ تلك العناصِـر الثّلاثة نجد أنّ أبْرزها وأشدَّهـا تَأْثيراً هـو «توجيهُ الثّقافة» حيث تَرْسُـمُ «الثّقافة» مسار «العمـل» في المُجْتمع، وتصوغُ «أَخْلاقيّات العمل» و«ثقافـة الإنْتاج»، كما تُحَدِّدُ «الثّقافة» - بطبيعتِها وتفاعُلاتِها - مَنْحَـى الاسْتِثْمَارَات، وحركـة «رَأْسِ المال»، والحَوافِز الاجْتماعيّـة والماديّة والمَعْنويّة بحيـث يَتَّفِقُ «توجيه رَأْسِ المال» مع معاييـر «الثّقافة» وخصائِصها، فكما يقول مالك بن نبيّ: (القضيّةُ ليستْ في تَكْديسِ الثَّرْوَة، ولكن في تَحْريكِ المال وتَنْشيطِه، بتوجيه أمْوالِ الأُمّة البسيطة، وذلك بتَحْويلِ مَعْناها الاجْتماعيّ من أمْوالٍ كَاسِدَةٍ إلى رَأْسِ مالٍ مُتَحَرِّكٍ يُنَشِّطُ الفِكْر والعمل والحياة في البلاد)[٢].

مـن المُهِمّ - إذاً - أنْ نَفْحَصَ مُصْطلح «توجيه الثّقافـة»، ونَمْنَحَهُ أولويّةً بَارِزةً في «التَّخْطيـط النَّهْضَويّ» و«السِّياسات التّنْمَويّة»، وأنْ يَتِـمَّ تَطْويعُه وفْقاً للمُعْطيات الحديثة

والمُسْتَجِدَّات المَعْرفيّة؛ ففِكْرَةُ «التَّوجيه» لدى مالك بن نبيّ هي: (قُوَّةٌ في الأساس، وتَوافُقٌ في السَّيْر، ووَحْدَةٌ في الهدف، فكَمْ من طاقاتٍ وقُوىً لم تُسْتَخْدَمْ لأنّنا لا نَعْرِفُ كيف نُكَتِّلُهَا. وكَـمْ من طاقـاتٍ وقُوىً ضاعتْ فلم تُحَقِّقْ هدفها حين زَحَمَتْهَا قُوىً أُخْرى صَادِرَةً عن نفْس المَصْدر، مُتَّجِهَةً إلى نفْس الهدف. فـ«التَّوجيه» هو تَجَنُّبُ هذا الإسْرَافِ في الجُهْدِ والوَقْت. فهنـاك ملاييـن السَّواعـد العَامِلة، والعُقُـول المُفَكِّرَة في البـلاد الإسْلاميّـة، صَالِحَةً لأنْ تُسْتَخْدَمَ في كُلِّ وَقْتٍ، والمُهِمّ هو أنْ نُديرَ هذا الجِهاز الهَائِل، المُكَوَّن من ملايين السَّواعِد والعُقُول، في أحْسن ظُرُوفه الزّمنيّة والإنْتاجيّة المُناسِبة لكُلِّ عُضْوٍ من أعْضائه)[٢].

وانْطلاقـاً من تلك الرُّؤية، وفي ضوء «الحالة النّهْضَويّة» البَائِسَةِ في العَالَم العربيّ، يـرى مالك بن نبيّ: (إنّه ليجب بـادئَ الأَمْر تَصْفية عاداتنا وتقاليدنـا، وإطارنا الخُلُقيّ والاجْتماعـيّ، ممّا فيه من عَوامِـل قَتَّالَةٍ، ورِمَمٍ لا فَائِدَة منها، حتـى يَصْفُوَ الجَوّ للعَوامِل الحَيّـة والدَّاعِية إلى الحياة. إنّ هذه التَّصْفية لا تَتَأَتَّى إلاّ بفِكْرٍ جديدٍ يُحَطِّمُ ذلك الوَضْعَ المَـورُوث عن فتْرة تَدَهْورٍ مُجْتمـعٍ أَصْبَحَ يَبْحَثُ عن وَضْعٍ جديدٍ، هو «وَضْعُ النَّهْضة»)[٢]. ويرى مالك بن نبيّ أنّ: (مفْتاح المُشْكلة يَكْمُنُ في وَضْعِ برنامجٍ لـ«توجيه الثّقافة» توجيهاً يَتَّفِـقُ وسُمُـوّ الغايـة التي نَنْشُدُهَـا)[٢٨]؛ وهذا - بطبيعـة الحال - يَقْتَضِي إعـادة النَّظَرِ في تَرْكيبِ «عناصِـر الثّقافة»، ومُراجَعَةِ مُقَوِّماتِها، وغَرْبَلَـةِ أَطْيافِها، وتَمْحيصِ أُسُسِها، وتَحْديـدِ أَهْدافِها، لإضْفَاءِ الحيويّةِ والنّشـاطِ وتَحْقيقِ «الوظيفة الاجْتماعيّة» عبْر القُدْرَةِ علـى مُواجَهَةِ المُشْكلات، واسْتِيعابِ المُسْتَجِدَّات، والانْسِجام مع مُتطلَّبات المَرْحلة، وهو الأَمْرُ الذي يُحَـدِّدُهُ مالك بن نبيّ حَصْراً بطريقَتَيْن: (الأولى: سَلْبيّةٌ تَفْصِلُنَا عن رَواسِبِ الماضي، والثّانية: إيجابيّةٌ تَصِلُنَا بمُقْتَضَيَاتِ المُسْتَقْبَل)[٢].

وهكـذا تَبْـرُزُ مُهِمّةُ «توجيه الثّقافـة» كقضيّـةٍ ذات أولويّةٍ رئيسةٍ فـي «المُجْتمعات العربيّـة» فكمـا يقولُ مالك بن نبـيّ: (ليس يَكْفِـي مُطْلَقـاً أنْ نُنْتِجَ الأفْكار، بَـلْ يجب أنْ نُوَجِّهَهَا طِبْقـاً لمُهِمّتِهَا الاجْتماعيّةِ المُحَدَّدَةِ التي نُريـدُ تَحْقيقها)[٢٨]؛ وهذا يَعْنِي توفير تُرْبَـةٍ خِصْبَةٍ تُسَانِدُ نُمـوّ الأفْكَارِ والمُمَارَسَاتِ والقِيَم القَـادِرَة على توظيفِ الاسْتِعْدادات الفِطْرِيّة، وإطْلاقِ الطّاقات الكَامِنَة، ومُعالَجَةِ المُشْكلات، والنُّهُوضِ بـ«الحركة التّنْمَويّة»،

والتَّنَاغُـمِ مـع «مُقْتَضَيَاتِ العَصْـر» ومُسْتَجِدَّاتِه؛ وبهـذا يَتَحَقَّقُ «التَّوافُـقُ المَنْطقيُّ» بين الوسيلـة والغايـة، فكما يقولُ قسطنطين زريق: (فـي سبيل ثقافةٍ عربيّـةٍ أَفْضل لا بُدَّ أنْ نَرْسُمَ الخُطُوط الكُبْرى للمُجْتمع العربيّ الأَفْضل الذي نُريدُه) [١٨].

٢-٧-١) «ثقافة التّغْيير» و«تَغْيير الثّقافة»:

كنـتُ قد عَلَّقْـتُ[٤٥] على المؤتمر الثّالـث لـ«مُؤَسَّسة الفِكْر العربـيّ» الذي انْعقد في مدينـة «مراكش» - في عـام ٢٠٠٤م - تحت عنوان «العـرب بين ثقافة التَّغْييـر وتَغْيير الثّقافـة»، وتَسَاءَلْـتُ ساعتهـا: (هل نَقَعُ مَـرّةً أُخْرى في شِبَـاكِ الثُّنَائِيّـاتِ المُبْهَمَةِ التي هَيْمَنَتْ على ثقافتنا ورُدود أفْعالنا؟، وهل يُمْكِنُ لـ«ثقافةٍ» أنْ تعيش دون تَغْيير؟، وهل يُمْكِنُ أنْ يكون «التَّغْيير» نِتَاجاً محليّاً بَحْتاً بمَنْأىً عن تَأْثيرِ الآخَرين، وهَيْمَنَةِ تيّاراتِ «العَوْلَمَة»، وتفاعُـلاتِ «الزّمـان» و«المـكان»؟) . بمـا أنّ «الثّقافة» كائِنٌ حَـيٌّ يَنْمُو ويَضْمُـر، ويَشْقَى ويَسْعَـد، ويَقْوَى ويَضْعُف، وفْق أحْوالِ أهْلِـهِ ومُمَارَسَاتِهم وقِيَمِهم ونُفُوذِهم، فإنّ «التّغْيير» أَمْرٌ حَتْميٌّ لا مناص عنه، وهو لـن يكون - بالضّرورة - نحو الأَصْلح بخاصّةٍ إذا ما خلا من إرادةٍ وَاضِحَـةِ المَلامِـح، وإسْتراتيجيّةٍ ثَابِتَةِ القِوام، تُوَجِّهـان ذلك «التَّغْيير»، وتتفاعلان مـع عناصِره، وتُحَدِّدان أهْدافه. في ضوء ذلك لـن يكون السُّؤالُ المُهِمُّ - إذاً - هو: (هل نَجَـمَ «التّغْييرُ» عن «ثقافـة التَّغْيير» أو عن «تَغْيير الثّقافة»؟) ، ولكـن السُّؤالَ الحيويَّ هو: (هل جاء «التّغْييرُ» عَفْويّاً وعَشْوائيّاً، أمْ نَتَجَ عن قَصْدٍ وتَوجُّهٍ ورُؤْية؟) ، والإجابةُ عن هذا السُّؤالِ تقودُنا حَتْماً إلى مُصْطلح «توجيه الثّقافة».

نَسْتطيـعُ أنْ نقـول إنّه إذا حـدث «التّغْيير» بطريقـةٍ عَشْوائيّةٍ، فإنّـه سيَحْمِلُ حَتْماً سَلْبيّـاتٍ مَحْليّـةٍ، وقُشُوراً مُسْتورَدَةٍ، وهَيْمَنَـةَ «الغَالِب» التِّلْقائيّة، غير آبِـهٍ برِضَاءِ هذا أو انْزِعَـاجِ ذاك؛ فسُنَـنُ الحياة وقوانينُ الكَـوْن لا تَتَغَيَّر لرِضَاء إنْسـان أو غضبه مهْما بلغ مـن الورع والتّقوى. لقد أَجْمَعَ المؤتمرون فـي «مراكش» على رَفْضِ عمليّة «تَغْيير الثّقافة» وفَرْضِهَا من قبل قُوىً خَارِجيّة، ولكن فات على المؤتمرين حقيقة أنّ عمليّة «تَغْيير الثّقافة» تَحْـدُثُ دون اسْتِئْـذانٍ من أحـدٍ، وهي تَحْدُثُ لأكْثر مـن سببٍ؛ فليـس - بالضّرورة - أنْ

يَتَحَقَّقَ ذلك نتيجةً لإمْلاءاتٍ خَارِجيّةٍ وتدخُّلاتٍ عَسْكريّةٍ، ولكن إذا بَلَغَتْ أيُّ ثقافةٍ مَبْلَغاً من الهُزَالِ والشَّيخُوخة، فإنّها تُصْبِحُ جَاهِزَةً للتّآكُلِ الدَّاخِليّ، والصَّدَأ الفِكريّ، والهزيمةِ الحضاريّـة؛ فيَنْخُرُ فيها السُّوس، وتُعانِي من هَشَاشَـةِ العِظَام، وتؤولُ - بالضّرورة - إلى حالـةٍ مَرَضِيّـةٍ مُزْمِنَة. نَسْتطيـعُ أنْ نقول - أيضاً - إنّـه حتّى لو افْتَرَضْنَا جَـدَلاً إمْكانيّة بَلْـوَرَةِ «ثقافة التّغْيير» دَاخِليّاً دون التّأثُّر بالخَارِج، فإنّـه يَلْزَمُ أنْ تكون «الثّقافة»، العَازِمَةُ علـى إجْراء «التّغْيير»، مُمْتَلِكَةً لـلأدواتِ والمُقَوِّمَاتِ الكفيلةِ بتَحْقيـقِ «التّغْيير» المَنْشُود، فكما يقول مالك بن نبيّ: (إذا ما مضينا لمُواجَهَةِ «مُشْكلة الثّقافة»، وجدنا أنفسنا نُواجِهُ ضِمْناً مُشْكلة أُسْلوب الحياة ومُشْكلة السُّلُوك الذي يَنْسَجِمُ معها)[٢٨].

من المُهِمّ - إذاً - أنْ نَتَلَمَّسَ الطُّرُق والوسائِل المُناسِبة نحو «تَأْهيل المُثقَّف تَنْمَويّاً» ليكـون صَاحِبَ «مَشْـرُوعٍ تَنْمَويٍّ» ورُؤْيَةٍ عمليّةٍ قَادِراً على الإسْهَـام في دَفْعِ حركة مُجْتمعه وتَغْييـر ثقافته في اتّجاه «سَهْمِ الزّمـن»، ومُؤثِّراً في الأحْداث بإيجابيّـة وكفاءَةٍ، ولتَنْتَقِلَ تلك الـرُّؤى التّنْمَويّةُ والاهْتِمَامَاتُ الحيويّةُ عبْر أمْـوَاجِ التّواصُلِ والتّفاعُلِ إلى «المُواطِن» أيّـاً كان مَوْقِعُـهُ ودَوْرُه. ولأنّ الهدف من مُهِمّـةِ «توجيه الثّقافة» هو تَحْقيـقُ أعْلى «فاعِليّةٍ اجْتماعيّـةٍ» لهـا، فإنّ مـن المُهِمّ إنْ تكـون «نُقْطَةُ الانْطِـلاق» نحو «إسْتراتيجيّـةٍ ثقافيّةٍ حيويّةٍ هي الاعْتِـراف بأنّ «الثّقافة العربيّة» تُعَانِي من خَلَلٍ مُشِينٍ في مَنْظُومتها السُّلُوكيّة والقِيميّة والمَعْرفيّة، وأنّ عليها أنْ تَتَعَرَّفَ على أبْرز معالِم «الحياة المُعَاصِرَة»، وأنْ تَتَفَهَّمَ طبيعة أنْمَاطِ «المَعْرِفَةِ» الأكْبر تَأْثيراً في عَالَم اليوم وحيوات البشر؛ وهذه القضيّة - في الوَاقِع - هي الطّريقةُ الثّانيةُ التي وَصَفَهَا مالك بن نبيّ بأنّها: (إيجابيّةٌ تَصِلُنَا بمُقْتَضَيَاتِ المُسْتَقْبَـل)[٢]، ويُحَدِّدُ ابن نبيّ تلـك «الطَّريقة الإيجابيّة» بأنّها «المَنْهَجُ التَّجْريبيُّ» الذي هو: (في الوَاقِعِ السَّبَبُ المُبَاشِرُ لتقدُّمِ المَدَنيّة الحديثة وتقدُّمِها المادِّيّ)[٢].

وهكذا نجـدُ أنّ مَنْطِقَ الأحْداثِ العَالَميّة وفَلْسَفَةَ التّطـوّراتِ البشريّة يضعانا وَجْهاً لوَجْـه أمـام العَصَبِ الأساسِ لـ«الحيـاة المُعَاصِرَة»، ألا وهو «الحركـة العِلْميّة - التّقنيّة» التـي تَمَكّنَـتْ - في فتْرةٍ وجيزةٍ من تاريخ البشريّة الطويل - مـن أنْ تُغَيِّرَ أنْمَاطَ الحياة، وتُبَـدِّلَ وسائِـل الإنْتاج، وتَعْصِـفَ بالـرُّؤى الاجْتماعيّة، وتَقْلِـبَ المفاهيـم الاقْتصاديّة،

وتُزَعْـزِعَ المُعالَجات الفِكْريّة. إنّ المُجْتمع المُعَاصِـر المَعْرُوف بـ«مُجْتمع المَعْرِفَة» أَصْبَحَ مُرْتَبِطـاً - بشَكْلٍ غيـر قَابِلٍ للانْفِصَـام - بالاكْتشافات العِلْميّة والقفـزات التّقنيّة؛ ولذا فإنّـه من الضّروري أنْ يكون لـ«الحركة العِلْميّة - التّقنيّـة» دَوْرٌ حَاسِمٌ في تَشْكيلِ «المُنَاخِ الفِكْـريّ» عبْر توطيـن عمليّةٍ فَاعِلَـةٍ لـ«تَجَانُسٍ ثقافيٍّ» بينها وبيـن التّفاعُلات المُجْتمعيّة المُخْتلفـة، ممّـا يَسْبِرُ الأبْعَـادَ المُهِمّـةَ للسُّؤال الاسْتِنْـكاريّ الذي طَرَحَـهُ روبرت هيزن (Robert Hazen): (كيـف يُمْكِـنُ لأيِّ إنْسانٍ أنْ يَتَطَلَّعَ إلى اسْتِحْسَـانِ الخُيُوطِ العميقةِ الكَامِنَةِ للحياة الفِكْريّة في زمنه دون أنْ يَفْهَمَ العِلْمَ الذي يُصَاحِبُهَا؟)(٤٦).

بإيجازٍ؛ لقد احْتَلَّتْ «الثَّوْرَةُ العِلْميّة - التّقنيّة» مَوْقِعَ القيادة في إسْتراتيجيّات الدُّول وتفاعُـلات المُجْتمعـات، وأَصْبَحَتْ تُحَـدِّدُ مدى التّقـدُّم والقُدْرة على تَحْقيـق مُتطلَّبات الازْدهـار والاسْتقـلال والقُـوّة؛ ولكن الأَمْـرَ يَتَطَلَّبُ رُؤيـةً أعْمق، وتَحْليـلاً أشْمل، ونحن نَسْتَقْصِـي مَوْقِـعَ «الثّقافة» فـي هذا الخِضَمّ المُتَلاطِـم من تلاقُحـاتِ «المَعْرِفَة» و«ثَوْرَة المَعْلومـات» وسِياقـات الاعْتِماد المُتزايد - في مُخْتلف مناحـي الحياة - على مُنْطَلَقَاتِ «المَنْهَجِ العِلْميّ» والحُلُولِ العمليّةِ والمُنْتَجَاتِ التِّقنيّة.

٢-٨) إشْكَاليّة الثّقافَتَيْن:

مـن الطّبيعيّ أنْ تكون لـ«الحركـة العِلْميّة - التّقنيّة» تفاعُـلاتٌ جَدَلِيّةٌ - تَبَادُلِيّةٌ مع المُجْتمعـات التي تَنْتَظِـمُ بدَاخِلِهَا؛ فهي نشاطٌ بشـريٌّ يُؤثِّرُ، ويَتَأَثَّـرُ، بـ«الحالة الثّقافيّة» السّائِدَة في المُجْتمع، و«التَّجْرِبة الأوروبيّة» خير بُرْهَانٍ على ذلك؛ فـ«الثَّوْرَةُ العِلْميّةُ» التي نَبَتَتْ في القَرْن السّابع عشر الميلاديّ في أحْضَانِ «المُجْتمع الأوروبيّ» لم تُحَقِّقْ نجاحاتها وإنْجازاتهـا بسهولةٍ؛ وذلك لأنّها اصْطَدَمَتْ بـ«المَنْظُومَـةِ الثقافيّة» السّائِدَة، حيث كانتْ هنـاك مَواقِـفُ عَدَائيّةٌ، وأُخْرى حَـذِرَةٌ، وثالثةٌ ترى فيها شَـرّاً لا بُدَّ منه، ورابعـةٌ تَحْتَقِرُ العمـل اليدويّ المِهْنِيّ، وكان قَدْرٌ كبيرٌ من جُهُود العُلماء والباحِثين والمُفكّرين يَصُبُّ في محاولاتٍ جَادّةٍ لتكييف «الثّقافة السّائِدَة» مع مُقْتضيات «الفِكْر الجديد» وضَوابِطه.

إنّ مـا تَعَرَّضَـتْ له «الحركـة العِلْميّة - التّقنيّـة» من خُصُوماتٍ وعَقَبَـاتٍ في تاريخ أوروبـا أَمْرٌ لافِتٌ للانْتِباه؛ فقد كان من المُتَوقَّع أنْ يكون التّكيُّفُ معها أكْثر يُسْراً ومُرُونةً، فهـي نِتَـاجُ تلك المُجْتمعـات وتَرَعْرَعَتْ ببُـطْءٍ في سـاحاتهـا المَدَنيّة ومعاقِلهـا العِلْميّة، وكان التّـدَرُّجُ في مُعْطياتهـا هو السِّمَة الغَالِبة، حيث لم تَتَعَرَّضْ «المُجْتمعات الغَرْبيّة» لما تَعَرَّضَتْ له «المُجْتمعات العربيّة» من هَجْمَةٍ شَرِسَةٍ على شَكْلِ مَوْجَاتٍ عَارِمَةٍ ومُتتاليةٍ من العلوم والابْتكارات، ولم تُحَاصِرْهَـا أحْدث التّقْنيات والصّناعات على شَكْل طُوفانٍ هَائِجٍ تَخْدِمُـهُ مُخْتلـف وسائِل الإعْلام والاتّصالات بفَاعِليّةٍ تَزْدادُ نُمـوّاً وامْتِداداً يوماً بعد يوم، ومن المُهِمّ أنْ نُؤَكِّدَ هنا أهميّة هذه الحقيقة، فهي جديرةٌ بالتّأمُّل والتّدْقيق ونحن نَتَحَرَّى القضايا والمفاهيم العامّة المُرْتَبِطَة بـ«إشْكَالِيّة التّنْمية» ومِحْوَرِيّة «الثّقافة العِلْميّة».

لقـد كان للظُّرُوفِ السّياسيّة والدِّينيّة والاجْتماعيّـة دَوْرٌ مَلْمُوسٌ في إعاقة «الحركة العِلْميّـة» فـي أوروبا، إلاّ أنّـه لا يُمْكِنُ إهْمَالُ الـدَّوْرِ النَّاجِم عن طبيعـة «الفِكْر الجديد»؛ فـ«الفِعْلُ التّراكُمـيُّ»، و«المُكَوِّنَاتُ التَّجْريبيّةُ والرِّياضيّةُ» لـ«الثَّـوْرَةِ العِلْميّة»، أَدَّتْ بها إلى أنْ تَشُـقّ طريقـاً خاصّاً ومُخْتلفاً يَبْتَعِـدُ - تَدْريجيّاً - عـن «الثّقافة التّقْليديّـة» السّائِدَة، وتَسْتَعْصِـي مُتَابَعَتُهَـا وفَهْمُهَـا علـى «النُّخَـبِ الفِكْريّة» فـي مجـالات «الآداب» و«العلوم الإنْسانيّـة»، ناهيك عن عامَّةِ النّاس. لقد كانتْ المُصْطلحات الدّقيقة والرُّمُوز الرِّياضيّة والنَّظريّات المُنْضَبِطَة والشُّرُوط التَّجْريبيّة، إضافةً إلى التّوسُّعِ الهَائِلِ والتَّرَاكُمِ المُتسارِعِ فـي مُعْطيات «الثّـوْرَة العِلْميّة»، تُضيفُ أعْبَـاءً مُتزايدةً على عمليّة التّواصُـلِ مع «النُّخَبِ الفِكْريّة» و«الجُمْهُورِ» في «المُجْتمعات الغَرْبيّة».

بإيجـاز؛ أَحْدَثَتْ «الثّوْرَةُ العِلْميّة» - فـي العَالَم الغَرْبيّ - شَرْخاً في الانْسِجَام الفِكْريّ في «الثّقافة التّقْليديّة» المُسْتَنِدَة - أساساً - إلى الآداب والفَلْسفة والدِّراسات الإنْسانيّة، ولقد أَدْرَكَ بعض عُلماء الطَّبيعة الرُّوّاد - منذ البِدايات - حقيقةً مُهِمّةً، وهي أنّ «الحركة العِلْميّة» لا تَفْصِلُ فقـط بيـن أرْبابِها من «المُجْتمعات المُتَقَدِّمَـة»، وبين تلك «المُجْتمعـات المُتَخَلِّفَة» عن الرَّكْبِ والقَابِعَةِ علـى هَامِشِ الأحْداث، ولكنّها أيضاً - بطبيعتِها الجادّة ومَنْهَجِهَا الصّارِمِ وتَرَاكُمَاتِهَا المُتَلاحِقَـة - تُفْرِزُ فَواصِلَ دَاخِلَ المُجْتمع الوَاحِد تَتَجَلّى في فَجْوَةٍ يُعَانِي منْها «الجُمْهُور» الذي

يَجْني ثِمَارَ المُعْطيات التِّقنيّة، ويَتَمَتَّعُ بإنْجازاتِ «الفِكْرِ العِلْميّ»، إلاّ أنّه لا يتجانسُ - في التَّعامُلِ المَعْرِفيّ والتّعَاطُفِ النّفسيّ والتَّنَاغُمِ الثّقافيّ - مع تلك الحركة الرّائِدَة.

لقد اسْتَشْعَرَ رُوَّادُ «الحركة العِلْميّة» في الغَرْب خطر هذا «الانْفِصَامِ الثّقافيّ»؛ فاهْتَمّ عَدَدٌ كبيرٌ منْهم بالتّفاعُلِ مع النُّخَبِ الفِكْريّةِ والقياداتِ السّياسيّة، ومع «الجُمْهُور» بشَكْلٍ عامٍّ، في مُحاولاتٍ دَائِبَةٍ لتَبْسيطِ المفاهيم والأفْكار، وتوضيحِ المُعْطيات، وإزالةِ اللّبْس، وإبْرازِ المضامين والمعاني والدَّلالات والآثار المُرْتَبِطَة بالجُهُود العِلْميّة والنّتائِج التِّقنيّة. ومن أبْرز أولئك - في بداية القَرْن التّاسع عشر الميلاديّ - مايكل فاراداي (Michael Faraday) الذي حَرَصَ على إلْقاء المُحاضرات العامّة وتَبْسيط أعْماله العِلْميّة، واشْتَهَرَ بمهارته في الحِوار والتّشْويق والإيضاح، وبذلك أَصْبَحَ فاراداي المُتَحَدِّث باسْم «الحركة العِلْميّة» في عَصْرِه والمُرَوِّجَ لها؛ ولذا عَمَدَتْ «الجَمْعِيّة المَلَكِيّة البريطانيّة» إلى تَأْسيسِ «جَائِزة فاراداي» لتُمْنَحَ لأولئك الذين يُسْهِمُون بشَكْلٍ بَارِزٍ في مجال «التّوعية العِلْميّة». ولقد سرى هذا التّقْليد - بشَكْلٍ عامٍّ - في الغَرْبِ، فتبنَّاهُ عَدَدٌ غير قليلٍ من الرُّوّاد وأصْحاب الاخْتصاصات العِلْميّة، واهْتَمّوا بعمليّة التّواصُلِ مع «الجُمْهُور» عبْر تَأْليف الكُتُب والنّشرات المُبَسّطة، وإلْقاء المُحاضرات العامّة، والمُشارَكة في الجمعيّات والهيئات المُهْتَمَّة بهذا الجَانِب؛ والقائِمَةُ طويلةٌ ومُتنامِيةٌ، وتَشْمَلُ: ألبرت آينشتاين وتوماس هكسلي وإروين شرودنجر وريتشارد فاينمان وجلين سيبورج وليون لدرمان وكارل ساجان وإسحاق عظيموف وستيفن هوكنج وغيرهم كُثُر.

وأمّا القَرْنُ التّاسع عشر الميلاديّ في أوروبا فقد شَهِدَ ما يُمْكِنُ أنْ يُوصَفَ بأنّه تَوتُّرٌ فِكْريٌّ وقَلَقٌ مُجْتمعيٌّ بشَأْن الحَواجِز بين «العِلْم الطَّبيعيّ» من ناحيةٍ، وبين «الآداب والدِّراسات الإنْسانيّة» و«الثّقافة التَّقليديّة» للمُجْتمع من ناحيةٍ أُخْرى؛ وأمّا نِهاية الخمسينات من القرْن الماضي فقد كانتْ سنوات السَّبْقِ الرُّوسيّ عندما أَطْلَقَ الرُّوس أوّل قَمَرٍ اصْطناعيٍّ (سبوتنيك ١ـ) في عام ١٩٥٧م، ثم تلاه خلال أقلّ من شَهْرٍ «سبوتنيك ٢» مع الكلبة «لايكا»، ممّا أثار أشدّ القَلَقِ في «المُجْتمعات الغَرْبيّة» على أوضاعها العِلْميّة وقُدْراتها التِّقنيّة[٤٤].

فـي ضـوء تلك الـظُّـرُوف القَلِقَة بـرز مُصْطلح «إشْـكَالِـيّـة الثّـقـافَتَيْن» (The Two Cultures Controversy) في أدبيَّات «الفِكْر الغَرْبيّ المُعاصِر»، ويعود الفَضْلُ في طَرْحِ هذا المُصْطلح، وتَشْخيصِ هذه الإشْكَالِيّة - بشَكْلٍ جريءٍ وعميقٍ - إلى تشارلز سنو، وذلك في مُحاضرته التي ألْقاها في «جامعة كامبردج» ببريطانيا - في عام ١٩٥٩م - بعنوان «الثّقافَتَان والثَّوْرَةُ العِلْميّة»[٣٢]. لقد أَفْلَحَ تشارلز سنو في هذه المُحاضرة في تَحْقيقِ ثلاثة أُمُورٍ على أقلِّ تَقْدير:

١) صاغ مُصْطلحاً جديداً ومَفْهُوماً مُهِمّاً.

٢) طـرح مَجْمُوعةً من الأسْئلة التي يَنْبَغِي لكُلِّ مُهْتَـمٍّ بأوضاع المُجْتمعات الحديثة أنْ يَتَصَدَّى لها.

٣) بـدأ جَدَلاً واسِع النِّطاق في «المُجْتمعات الغَرْبيّة» تَمَيَّـزَ في أبْعـادِه وآثارِه وشِدَّةِ الانْفعـالات المُرْتَبِطَةِ به، ممّا تَرَتَّبَتْ عليـه سياساتٌ جديدةٌ واهْتِماماتٌ مُتَنَوِّعَةٌ ومَنَاشِط مُتَعَدِّدَة.

٢-٨-١) أُطْرُوحة تشارلز سنو:

تَتَلَخَّـصُ أُطْرُوحَـةُ تشارلز سنـو[٣٣] في أنّ «المُجْتمعـات الغَرْبيّة» تُعَانِـي من شَرْخٍ بين «ثقافَتَيْن»: «ثقافـةُ الآداب والعلوم الإنْسانيّة» من جِهةٍ، و«ثقافةُ العلوم الطَّبيعيّة» من جِهـةٍ أُخْرى، بحيث أَصْبَحَتْ «المُجْتمعاتُ الغَرْبيّة»، ونِظامُها التّعْليميّ، وحياتُها الفِكْريّة، مُسْتَقْطَبَةً على المُسْتوى الفِكْريّ بين هاتَيْن «الثّقافَتَيْن» ممّا نَجَمَ عنه حَاجِزٌ من الشُّكُوك المُتَبَادَلَـة بين المُنْتَمِين إلى كُلٍّ منهما تصـل أَحْياناً إلى درجة التَّنَافُرِ والعَدَاء، ولدى كُلِّ طَـرَفٍ صُورةٌ مُشَوَّهَةٌ عن الآخَر، وتوجُّهـات الطَّرَفَيْن مُتباينةٌ تماماً؛ وحتّى على المُسْتوى العاطِفيّ ليس لهما أَرْضيّةٌ مُشْتَرَكَةٌ كافيةٌ، ويرى تشارلز سنو أنّ أَسْبَابَ «الفَجْوَة» مُتَعَدِّدَةٌ وعميقـةٌ ومُعَقَّدَةٌ إلاّ أنّـه يَعْتَقِدُ أنّ من أبْرز العَوامِل التي أَدَّتْ إلـى تَفَاقُم «الإشْكَالِيّة» هي «التّعمُّق التّخصُّصيّ» في التّعْليم، وازْدياد أعْداد العَامِلين في المجالات العِلْميّة والتِّقنيّة.

وبالرّغْم من أنّ تَشْخيص تشارلز سنو كان تَشْخيصاً محلّيّاً في ضوء وَاقِع بريطانيٍّ بَحْتٍ إلاّ أنّ طَرْحَهُ وجد «رُدود فِعْلٍ» كبيرةً على مُسْتوى العَالَم الغَرْبيّ لأنّه كان يُشَخِّصُ حالةً مَلْمُوسةً - بدرجاتٍ مُتفاوِتَةٍ وبأشْكالٍ مُخْتلفةٍ - تَحْمِلُ في ثناياها مُشْكلة «انْفِصَام العِلْمِ عن المُجْتمع». ويرى ميشيل سير (Michel Seres)(٤٧) أنّ «الحَرْب العَالَميّة الثّانية» و«كَارِثة هيروشيما» حَدَّدَتَا بداية تَفَوُّقِ «العلوم الطَّبيعيّة» على «الدِّراسات الإنْسانيّة»، وأَبْرزتا ضرورة التّواصُلِ بين «العلوم الطَّبيعيّة» و«الدِّراسات الإنْسانيّة»، ممّا دَفَعَ المُفكّرين إلى الاهتمام بساحات التّفاعُل بين اهْتِمامات «الدِّراسات الإنْسانيّة» ومُعْطيات «العلوم الحديثة».

ويُوضِّحُ تشارلز سنو(٣٢) - في مُحاضرةٍ لاحِقَةٍ - أنّ ذلك الصّدَى العَالَميّ مع أُطْرُوحته أكَّدَ له نُقْطَتَيْن:

١) أنّ «إشْكَاليّة الثّقافَتَيْن» لمستْ وتراً حسّاساً في الحال لدى المُثقَّفين في دُولٍ مُخْتلفةٍ في العَالَم بشَكْلٍ يكاد يكون آنيّاً، وهذا يَعْنِي بالنِّسْبَةِ له أنّ الفِكْرَةَ التي أَنْتَجَتْ هذه الاسْتِجَابَةَ فِكْرَةٌ لا يُمْكِنُ لها أنْ تكون أصيلةً، فالأفْكَارُ الأصيلةُ لا تَنْتَقِلُ بهذه السُّرْعة. وهكذا بدا من الوَاضِح له أنّ كثيراً من النّاس كانوا يُفَكِّرُون حول مَلامِح هذا الموضوع وأبْعاده، فالفِكْرَةُ - وفْق تَعْبيره -: (كانتْ مُعَلَّقَةً في الهواء وتَحْتَاجُ فقط إلى من يَصُوغُهَا في كلمات)(٣٢).

٢) أنّ ذلك التَّجاوب الواسِع والمُتنامي دَلالةٌ على أنّ هناك قِيمةً مُعَيَّنَةً لهذا الطَّرْح، وهذا - في رأْيه - لا يَعْنِي بالضّرورة أنْ يكون الطَّرْحُ صحيحاً، أو أنّه ليس بالإمْكان طَرْح هذه الأفْكار بصِيغ أُخْرى، ولكن يَعْنِي أنّ الطَّرْحَ حَمَلَ بدَاخِله شيئاً ما رأى النّاسُ على مُسْتوى العَالَم أنّ له عَلاقَةً بالأوضاع السّائِدة.

لقد رأى تشارلز سنو أنّ في ذلك الاسْتِقْطَابِ القَائِم بين «الثّقافَتَيْن» خسارةً كبيرةً للمُجْتمع بأَسْره، وفي الوَقْتِ نفْسه هو خسارةٌ فِكْريّةٌ وإبْداعيّةٌ بسبب هَدْرِ الاحْتِمالاتِ الكبيرةِ الإيجابيّةِ المُتَرَتِّبَةِ على التّفاعُلِ والتّواصُلِ بينهما. من نتائِج تلك «الإشْكَاليّة»

- فـي رأي تشارلـز سنو - أنّها تُمَثِّلُ خطراً كبيراً يُهَدِّدُ رفاهيّة «المُجْتمع الغَرْبيّ» فيقول: (إنّـه من الخطر أنْ يكون لدينـا ثقافَتَان لا يُمْكِنُهُمَا التّواصُلُ فيمـا بينهما في الوَقْتِ الذي تُقَـرِّرُ فيه العلومُ الجُزْءَ الأَكْبَرَ مـن مصيرِنا) (٣٢)؛ وهكذا يرى سنو أنّ إغْلاقَ «الفَجْوَةِ» بين «الثّقافَتَيْنِ» ضرورةٌ في بُعْدِهَا الفِكْريّ المُجَرَّد، كما هي ضرورةٌ في بُعْدِهَا العمليّ المُباشِر.

٢-٨-٢) مَوْقِعُ «الثّقافة العربيّة» في «إشْكَالِيّة الثّقافَتَيْن»:

أمّـا «الثّقافـةُ العربيّةُ» فهـي - في المقام الأوّل - ثقافـةٌ أدبيّةٌ؛ فيَنْشَـأُ الطِّفْلُ فينا مُسْتَسْلِمَـاً لأُسْلُـوبِ الحِفْـظِ والرّواية، ويُغَذّي خيالـه بصُورٍ عاطِفيّـةٍ وحماسيّةٍ وجماليّةٍ سِلاحُهَـا الكلمـاتُ الرَّنانـةُ والإنْشائيّاتُ البليغة، فيَشُـبُّ على سَجيّةٍ أدبيّـةٍ خَالِصَةٍ فإذا اصْطَـدَمَ بضروراتِ «الفِكْر العِلْميّ» من مُعْطياتٍ عِلْميّةٍ مُنْضَبِطَةٍ، ودِقَّةٍ تَجْريبيّةٍ صَارِمَةٍ، كان الحماسُ ضعيفاً، والتَّحَدِّي صَعْباً، والاسْتِمْرَارُ مُعْضِلَة.

وتَتَجَلَّـى هذه «الإشْكَالِيّـةُ الثّقافيّةُ» فيما وَصَفَهُ زكي نجيب محمـود بأنّه «ازْدواجيّةٌ مُخِيفـةٌ»، مُوَضِّحـاً أبْعادها في قَوله: (ولهـذه الازْدواجيّة في حياتنـا الثّقافيّة بين العِلْم والـلا عِلْـم، نتيجةٌ تُثِيرُ الغيظَ عند المُثقّفِ الذي يَحُسُّ خطـورة رِسالته؛ وهي أنّ كثيرين من رِجـال الثّقافة منّا يَسْتَخْدِمُـون للأفْكار طريقة بروقسطيس فـي الأُسْطُورَةِ اليونانيّة القديمـة، التي يُقَالُ فيها إنّ بروقسطيس قد أقام على طريق المُسَافِرين نُزُلاً يَسْتَريحُون فيـه، لكنّه جعل الأَسِـرَّة كُلَّهَا ذات طُولٍ مُعَيَّنٍ، فإذا كان النَّـازِلُ عنْده أقْصر من السَّرير وَضَعَـهُ فـي آلـةٍ أعَدَّهَا لتَمُطَّ الجَسَـدَ حتى يُطابِقَ طُـول السَّريـر، وإذا كان النَّازِلُ عنده أطْـول من السَّرير، جَذَّ سَاقَيْهِ ليَقْصُرَا إلى الحَدِّ المَطْلوب، فلا يَنْجُو من شَرِّهِ إلاّ مُسَافِرٌ شاءتْ له المُصادَفةُ المُواتِيةُ أنْ يكون في طُولِهِ مُطابِقاً للطُّولِ المَطْلُوب) (٣٨). وأمّا راشد المبارك، فيَلْجَأُ إلى تَصْويرٍ عِلْميٍّ يُوَضِّحُ «أبْعَادَ المَأْزِق» الذي وَقَعَتْ فيه «الثّقافة العربيّة» بحُكْـمِ الهَيْمَنَةِ اللفْظيّةِ على «المِزَاجِ العربيّ» فيقـول: (لقد تَحَوَّلَ فَنُّ صِنَاعَةِ الكلامِ إلى حَقْلٍ مغْناطيسيٍّ هَائِلٍ جَذَبَ إليه الفِكْرَ والوِجْدان، ورأى النّاسُ فيه أبْعَدَ ما يتطلّعون إليه مـن آفـاقٍ تُوَجِّهُ لإجادتِه والتّفوُّقِ فيـه مُعْظَمُ طاقاتِ العَقْل ووظائفِـه، وأَصْبَحَ هو الوثيقة

التـي يُجْتَازُ بها كُلّ الحُدُودِ والمَواقِعِ والحُصُـون، إلى صُدُورِ المَجَالِس وعطاءِ السَّلاطين وكراسـي الوزارة، ونَتَجَ عن ذلك أنْ كُتِبَ في هذا الجَانِبِ أثْقَلَ ما تَنُوءُ به المَكْتبة العربيّة مـن أحْمَالٍ، وأنْ يكون أضْخم الكُتُبِ التي عرفها تاريـخ التّأليف كِتاب «صُبْحُ الأعْشَى في فَنِّ صِنَاعَةِ الإنْشَا»)(٢٥).

ذلـك «المَـأْزِقُ الفِكْريُّ» الذي تعيشُـهُ «الثّقافةُ العربيّةُ» في حَاجَةٍ إلـى وَقْفَةٍ أطْول، وتَشْخيصٍ أعْمـق، وفَهْمٍ أدَقّ، لأنّه «المَـأْزِقُ» الذي يُعِيقُ حركتَها، ويُثَبِّـطُ هِمَّتَهَا، ويَخْنُقُ تفاعُلاتِها في عمليّات التّواصُلِ مع زمنِها والتّعامُلِ مع عَصْرِهَا، ونَسْعَى في الفَصْل التّالي إلى الغَوْصِ في أعْمَاقِ هذا «المَأْزِقِ»، وتِبْيَانِ بعض تفاصِيلِه، والوُقُوفِ على أبْرَزِ مَلامِحِه.



«الثَّقَافَةُ العَرَبِيَّة»: مَصْدَرُ الأَزْمَة

٣-١) مَدْخَل:

إنّ الفَشَلَ المُتَكَرِّرَ لجُهُودِ «النَّهْضَة» وبرامِج «التّنْمية» على مدى قَرْنَيْنِ يُوجِبُ ضرورة مُرَاجَعَـةِ «الحالة الثّقافيّة»؛ فبُلُوغُ أيِّ ثقافـةٍ لحالةٍ من العَجْزِ كالحالة التي بَلَغَتْهَا «الثّقافة العربيّـة» دَفَعَ زُمَراً مُتَنَوِّعَةً من المُثقَّفين العرب إلى المُطالَبَةِ بمُرَاجَعَةِ «مُقَوِّمَاتِ الثّقافة» وتَشْخيصِ مكامِن الدَّاء، ومن بينهم إبراهيم البليهـي إذْ يقول: (تَشْتَدُّ حاجة العرب إلى إعادة تَكْويـن وبِناء ثقافتهم لاسْتبعاد عناصِر الإعاقة الحضاريّة التي تُكَبِّلُ الفِكْرَ والفِعْل؛ فهذه الثّقافة بما تراكم فيها خلال القُرُون من قُيودٍ وأَقْفَالٍ وبطبيعة تَكْوينها منذ البِدايات الأولى للعَصْر الجاهليّ تَحْتَاجُ إلى مُرَاجَعَةٍ عميقةٍ وشَامِلَةٍ ودقيقة) (٤٨). ولا نَحْتَاجُ إلى كبير جُهْـدٍ لنُدْرِكَ أنّ «الثّقافـة العربيّة» اليوم هي ثقافةٌ قَاصِرَةٌ عن فَهْـمِ «رُوح العَصْر»؛ فهي تَتَرَنَّـحُ تحت تَأْثيـر «فَجْوَةٍ مَعْرفيّةٍ» خطيرةٍ يَعْتَبِرُهَا زكي نجيـب محمود أبْرز أوجه «أَزْمَةِ المُثقّـف العربيّ» حيث يقول: (إنّني لا أرى - بين المُعْضِلات التي تتحدّى المُثقّفَ العربيّ فـي زماننا - ما هو أشدُّ تَعْقيداً وأَعْسَرُ حَلاً، مـن مُحاولته أنْ يَجْمَعَ بين طَرَفَيْن، يكادان يكونـان مُتَضَادَّيْـن، في صِيغةٍ حياتيّةٍ وَاحِـدةٍ، ألا وهما المُحَافَظَةُ علـى هُويّتِه التّاريخيّة مـن جِهَةٍ، والحِرْصُ - في الوَقْتِ نفْسه - على أنْ يُعاصِرَ دُنْيَاهُ التي تَعُجُّ بمخابيرِ المعامِل وعَجَلاتِ المصانِع) (٣٨). إنّ ذلك «التَّحدِّي المَعْرفيّ» يُمَثِّلُ - دون شَكٍّ - «التَّحدِّي الأَكْبر» للمُجْتمعـات النّامية، ويَفْرِضُ عليها أنْ تَتَصَدَّى له بكُلِّ القُوى المُؤثِّرة لتَعْمَلَ على تَأْسيسِ «تَكْويـنٍ ثقافيٍّ» يَحْمِلُ رُؤىً تَسْتَشْرِفُ المُسْتَقْبَل، وتُدْرِكُ مُقْتضياته، وتَهْتَمُّ بتوليدِ الآليّاتِ

والمُعْطيــاتِ القَادِرَةِ على تَأْسيسِ «الخصائِص الإيجابيّة» وعلى رأْسِهَا الحِرْص على جَعْلِ «ثقافة العلوم والتّقْنية» عُنْصُراً مُؤثِّراً في التّفاعُلات الفِكْريّة السّائِدَة.

وبمُرَاجَعَـةٍ مُتَأنّيَةٍ لطُرُوحَاتِ «النّهْضَويّيــن»، وعبْر تَحْليلٍ دقيقٍ لاهْتماماتِ المُثقّفين عبْــر القَرْنَيْــن الماضِيَيْــن نَلْمَسُ - بشَــكْلٍ مَأْساويٍّ - إغْفَــالَ «البُعْد الثّقافــيّ» في تَحْفيزِ الابْتكارات ودَعْمِهَا، وتَأْصيلِ «القِيَم العِلْميّة» وتَطْويعِهَا، وتَهْيئَةِ «البِيئَةِ الخِصْبَة» لتَنْميةٍ تَمُدُّ جُذُورَهَا إلى دَاخِلِ تُرْبَةِ المُجْتمع، وتتفاعلُ مع مُكَوِّناته لتَأْسيسِ «العَقْل العِلْميّ» القَادِرِ على الاسْتِجَابَــةِ الفَاعِلَةِ لتحدّياتِ عَصْرِه. إنّ المُتأمِّلَ لمــا سُمِّي «إشْكَاليّة التّنْمية»، والمُـرَاقِبَ لظُــرُوفِ تَطَــوُّرِ «الحركة العِلْميّة» ونجاحِها في دُول «العَالَم الأوّل» لا يَسْتطيعُ إلاّ أنْ يَخْلُصَ إلــى نتيجةٍ وَاحِدَةٍ؛ وهي الحقيقةُ البدهيّــةُ التي أَدْرَكَهَا الفلاّحون والمُزارِعون منذ عُصُورٍ سحيقــةٍ، وأَهْمَلَتْهَا «الدُّول النّامية» بشَكْلٍ وَاضِحٍ ومُثيــرٍ للاسْتِغْرَاب؛ وهي أنّك لا تَسْتطيعُ أنْ تَجْنِيَ ثِمَارَ غَرْسَةٍ حُرِمَتْ من عناصِرِها الحيويّة ومُناخِها المُلائِمِ وبيئَتِها المُناسِبة.

إنّ «النّشاط العِلْمــيّ والتّقنيّ» نشاطٌ بشريٌّ يَحْتَاجُ إلى بِيئَةٍ تَحْتضنه، ومُناخٍ يَرْعاه، ودعائِــم تَحْمله، ووسائِط تَنْقله؛ وكُلُّ هذا يَتَطَلَّــبُ مُجْتمعاً مُتَفَهِّمَاً لطبيعةِ العلوم، مُدْرِكَاً لشُرُوطِهَــا، مُتَحَمِّسَــاً لقضاياها، مُتَفَاعِــلاً مع تَطَوُّرِهَا. لقد كان الخطــأ الذي وَقَعَتْ فيه «الــدُّول النّامية»، وما زالت تُصِرُّ عليه، أنّها تَصَوَّرَتْ أنّ «العلوم والتّقْنية» مُجَرَّدُ صناديق مُغْلَقَةٍ ومصانِع مُنْعَزِلَةٍ وأجْهِزَةٍ مُتَطَوِّرَةٍ ومبانٍ مُشَيَّدَةٍ، وظَنّتْ أنّ مُجَرَّدَ الشِّراء والاسْتيراد سيحلّ الإشْكال، واعْتَقَدَتْ أنّ الاكْتفاء بالتّعْليم والتّدْريب والبُحُوث في «المجالات العِلْميّة والتّقنيّة» سيَفْتَحُ أمامها الأبــواب المُغْلَقَة، ويُدْخِلُهَا في مَرْحلة الإنْتاج والتّطْوير، ويُحْدِثُ «النّقْلَةَ المَطْلُوبة» إلى مَصَــافِّ «الدُّول المُتَقَدِّمَة».

إنّــه من الغريب أنْ يَقَعَ تشارلــز سنو(٣٢)، وهو المُنَظِّرُ لـ«ثقافــة العلوم»، في الخطأ نفْســه إذْ أنّه تَصَوَّرَ أنّ مُهِمّةَ تَحْديثِ المُجْتمع، ونَقْلَهُ إلى مُجْتمعٍ صِناعِيٍّ، يَحْتاجان فقط إلى عَدَدٍ كَافٍ من العُلماء والمُهندسين والتّقنيّين. لقد تجاهل تشارلز سنو في رُؤيته هذه دَوْرَ «ثقافــة المُجْتمع» في تَفْعيــلِ «التّنْمية» وتَنْشيطِ «الحركة العِلميّــة - التقنيّة»، فنَجِدُهُ

يقــول: (إنّ العادات والخَلْفيّــة التِّقنيّة يقومان بدَوْرٍ ضئيلٍ يَدْعُــو إلى الاسْتِغْرَاب)، ويرى سنــو: (أنّ الثَّــوْرَةَ العِلْميّةَ على مُسْتــوى العَالَمِ تَحْتاجُ كأولويّةٍ قُصْــوَى إلى رَأْسِ المال في مُخْتلـف أشْكاله، بما في ذلك رَأْس المال الــلازم للتّجْهيزات الميكانيكيّة). وأمّا تجارِبُ «الــدُّول النَّاميــة»، على مدى مــا يَرْبُو على نِصْــفِ قَرْنٍ بعد «الحَــرْبِ العالَميّــة الثّانية»، فإنّهــا تُثْبِتُ أنّ للعَوامِلِ الثقافيّــة والسّياسيّة والاجْتماعيّــة دَوْراً أكْبر بكثيــرٍ ممّا اعْتَقَدَهُ تشارلــز سنــو، وهي فــي الوَاقِعِ الاعْتبارات التــي تُمَثِّلُ أبْــرز عناصِر «إشْكَاليّــة التّنْمية»، وتَشْــرَحُ أسْبَابَ إخْفَاقِ برامِجِ «التّنْمية» وخُطَطِهَا في تَحْقيقِ مُعْظَمِ أهْدافِها. إنّ التّجارِب المُعَاصِرة لقضايا «التّنْميــة» تُبْرِزُ أهميّة «المُشارَكَة الجماهيريّة» في «العمليّة التّنْمويّة»؛ فكُلّمَا ازْدَادَتْ أنْمَاطُ تلك المُشَارَكَةِ ومِساحتُها، اكْتَسَبَتْ «الحركة التّنْمَويّة» عُمْقاً وفَاعِليّةً وتَألُّقاً؛ ولذا يُصْبِحُ لـ«الثّقافة» القَادِرَةِ على التّأْثيرِ على «الجُمْهُور» الدَّوْرُ الأبْرَزُ في تَحْديدِ خصائِص «التّنْمية البشريّة» وتطوُّرِهــا؛ فـ«التَّنْمية البشريّة» هي أهمّ «مُحَدِّدَاتِ التّنْمية» علــى الإطْــلاق، وتُبَيِّنُ تجارِبُ «الــدُّول المُتَقَدِّمَة» الدَّوْرَ الرّياديّ لـ«المَــوارِدِ البشريّة» في عمليّةِ النُّهُوضِ والتّطوُّرِ والتّقدُّم.

من الجَليّ أنّ أسْبَابَ التَّخَلُّفِ والضَّعْفِ وحالة «العَجْزِ العربيّ» تَكْمُنُ في مجْموعةٍ من جوانِبِ الخَلَل؛ فهناك خَلَلٌ في «المَنْظُومَةِ التّعْليميّة»، وخَلَلٌ في «المَنْظُومَةِ البَحْثيّة»، وخَلَلٌ في «المَنْظُومَةِ الإداريّة»، وخَلَلٌ في غير ذلك من مَنْظُومَاتٍ سياسيّةٍ وإعْلاميّةٍ واقْتصاديّةٍ واجْتماعيّــةٍ؛ وأمّــا الخَلَلُ الرَّئيسُ، الذي نَزْعُمُ في هذا الكِتــاب أنه المَسْؤولُ الأوَّلُ عن كُلِّ أنْواعِ الخَلَلِ الأُخْرى، فهو الخَلَلُ القَائِمُ في «المَنْظُومَةِ الثّقافيّة» في «المُجْتمعات العربيّة».

٣-٢) «الإشْكَاليّة الكُبْرى» في «الثّقافة العربيّة»:

لكي لا تَجْرُفُنَا دَوَّامَاتِ «العَجْز العربيّ» إلى متاهاتٍ كلاميّةٍ وحماسيّةٍ، فإنّ علينا أنْ نَضْبِطَ إيقاع عَواطِفنا لنتعرَّف على أهمّ بصمات هذا «العَجْزِ» لنجد أنّنا جميعاً مَسْؤولون عنــه، وكُلُّنا – أيضاً – مَعْــذُورون؛ فـ«الإشْكَاليّة الكُبْرى» تَكْمُنُ في ثقافةٍ سائِدَةٍ تعيشُ على «الشَّكْليّــات» بكُلِّ أنْماطِهــا، وتَقْتَاتُ على «الاسْتِهْلاكِ» بكُلِّ أبْعــادِه بما في ذلك اسْتِهْلاك

الكلمـات، وغزارة المُترادِفـات، والانْحِباس في بوتقة «التّنْظير» التـي لا تَسْتطيعُ أنّ تَلْتَحِمَ مـع ساحة «الفِعْل»؛ فلقد هَيْمَنَ الجَدَلُ الأدبيّ والسّياسيّ والتّاريخيّ والفِقْهيّ على تفاعُلاتِ «الثّقافة العربيّة» وتَشْكيلِها، ولا يَنْبَغي لنا أنْ نَسْتَغْرِبَ – إنْ استمرّ الحال على ما هو عليه – أنْ يَبْقَى وَاقِعُ الأُمّة على حاله من العَجْزِ والرّكُودِ والتَّخَلُّف.

إنّ «الإشْكَاليّة الكُبْرى» هي في ثقافةٍ تَمَكَّنَتْ – عبْر قُرُونٍ – من الاسْتِحْواذِ على «العَقْلِ العربـيّ» ليَبْقَى «الإنْسان العربـيّ» أسيراً للأشْـكالِ التّقْليديّة المَعْهُـودة، والفِكْرِ النّمَطِيّ السّائِد، وضُرُوب الشِّعْر، ودِراسـاتِ النَّثْرِ والسَّجْعِ والبُكَاءِ على الأطْلال؛ فبَقِيَتْ «الثّقافة» وأصْحابُها يُراوحون مكانهم؛ لأنّهم يَسْتَخْدِمُون أدواتِ زمنٍ مضى وانْقضى، وراحوا – بكُلِّ صُنُـوفِ التّفاخُرِ والهِجَاءِ والمديـح – يَرْقُبُون أحْداث زمانهم ومُنْجزاته فهي لا تَعْنيهم إلاّ في «الجَانِبِ الاسْتِهْلاكيّ»، ولا تتقاطعُ مع اهْتماماتهم إلاّ في «الجَانِبِ الشَّكْليّ».

ليسـ غريباً – إذاً – أنْ يكون حالُ «العَقْلِ العربيّ» كحـال «الشِّعْرِ» الذي اشْتَهَرَ بأنّه «دِيـوانُ العرب»[٤٩]؛ ففيه «عُلُومُهم وأَخْبَارُهم وحِكَمُهم»، ولذا فمن المُهمّ أنْ نَتَعَرَّفَ على طبيعة هذا «الدِّيوان» لنعرف خصائِص « العَقْلِ العربيّ»؛ فـ«الشِّعْرُ»، وفْق النَّاقِدِ الأنْدلسيّ حـازم القرطاجني،: (لا يُقَاسُ بمِعْيارِ الصِّدْقِ أو الكَـذِبِ وإنّما هو لإحْدَاثِ انْفِعَال)[٥٠]؛ ولأنّ (أَعْـذَبَ الشِّعْـرِ أَكْذَبَه)[٥١] فقـد اخْتَلَطَتْ المَقَاصِدُ في «صِنَاعَـةِ الكلام» التي برع فيهـا العرب، وضَحَلَـتْ المعاني، وضَاعَتْ الألْـوانُ بين الكلماتِ، لتَصْطَبِـغَ بلَونٍ بَاهِتٍ لا يَشُـدُّكَ إليه إلاّ ما يُذَكِّرُكَ بـ«مَرْحلة المُراهَقَـة» عندما كنتَ تَسْعَى جَاهِداً لرَصِّ الكلماتِ وحَشْدِهَا؛ ليُدْرِكَ أستاذُ «مَادَّة التّعْبير» حَجْمَ رصيدِك اللُّغويّ، وغزارةَ اطِّلاعِك الأدبيّ.

فـي ذلك الخِضَـمّ الكلاميّ العَارِمِ تَغْرَقُ الأفْكَارُ الحَيّةُ القَـادِرَةُ على تَحْريكِ الوَاقِعِ الرّاكِد، ومُعَالَجَـةِ المُشْكلاتِ المُتفاقِمَة، وتَأْسيسِ «العَقْلانيّـة» اللازِمة، وتَأْصيلِ «الفِعْلِ النّاجِـز». ويَرْتَـدُّ «العَقْلُ العربيُّ» علـى ذاته ليَنْغَمِسَ فـي عَواصِفِه العَاطِفيّـة وصِراعاتِه الأزليّـة ونماذجِه الماضويّة وأوهامِه الجَانِحَة، مُتَباكِياً تارةً، ومُسْتَعْلِياً تارةً أُخْرى، ولكنّه – فـي كُلّ الحـالات – يَتَمَتَّـعُ بحصانةٍ عاليةٍ ضـدّ الاسْتفادةِ من التّجـارِب، ويتماهى مع

«قُصُورٍ ذاتـيٍّ» عَالٍ يَحْجُبُ عنه الاسْتِشْرَافَاتِ والإشْرَاقَـاتِ والتَّحَدِّيَاتِ، فهو يعيشُ دوماً تحـت الوَهْـمِ القَابِعِ في مَقُولـة: (لنا الصَّـدْرُ دون العَالَمِينَ أو القَبْـرُ). وفي هذا الإطار نَسْتَحْضِرُ مَقُولة عبد الله الغذّامي: (ولنا أنْ نَتَصَوَّرَ ما جَلَبَهُ علينا إلْغاء السُّؤال الأخْلاقيّ وسُؤال المَعْقوليّة في أهمّ المُكَوِّنات الثقافيّة للإنْسان العربيّ الذي صار دِيوانه غير مَعْنِيٍّ بهذه الأسْئلة، واكْتَفَـى بالجَمَالِيّةِ وما فيها من دَغْدَغَةٍ للخيال عبْر خِطَابٍ مَجَازِيٍّ مُزَيَّفٍ ومُشَوَّهٍ، غير عمليٍّ ولا إنْسانيّ)(٤٩).

قالـوا لنـا إنّ (المَعْنَى فـي بَطْنِ الشّاعِـر)، أو في جُعْبَـةِ الأديب اللّوذَعِـيّ، أو في فَمِ الخطيـب المُفَوَّه؛ ومن ذلك الخيال الجَامِح، والبُنَى اللّغويّـة المُؤثِّرة، عانى «العَقْلُ العربيُّ» ليس فقط من قُدْرَتِهِ الفَذّةِ على التّعَامُلِ مع (المُمْكِنَاتِ الذِّهْنِيّةِ كمُعْطَيَاتٍ وَاقِعيّة)(١)، وفْق طَرْحِ محمد عابد الجابريّ، ولكن «العَقْلَ العربيَّ» ذهب - أيضاً - إلى أبْعد من ذلك فجعل - في رأْيي(٥٢) - (المُسْتحيلات المَادِّيّة حَقَائق مَلْمُوسَة) عبْر ازْدِرَاءِ المَنْطِق، وجُمُوحِ العَاطِفَة، واللجوءِ إلى «ما ورائيَّاتٍ» تَنْتَظِرُ حُدُوثَ «المُعْجِزَات»، وتَنْأى عن «الأَخْذِ بالأَسْبَاب».

٣-٢-١) بين الأمانيّ والحقائق:

لقـد اسْتَقَرَّ في خَلَدِ «الإنْسـان العربيّ» - منذ زَمَنٍ بعيدٍ - أنّ مُجَـرَّدَ التّمنّي يُحَقِّقُ الغايـة، وإنّ الإسْهَـابَ الوَصْفيّ في التّطلُّعات، أو المُبَالَغَـةَ الكَمِّيّة في الحِسابات، تَنْقُلان الأهْـداف إلى عَالَمِ الوَاقِع، وأنّه إذا نَطَقَ بالكلمة واتَّخَـذَ القرار فإنّ الإنْجَازَ هو تَحْصِيلُ حَاصِـلٍ وسيَسْعَـى - تِلْقائيّـاً - ليُجَسِّـدَ المَطْلَب، ويُحَقِّـقَ الغاية، ويُبَـدِّلَ الوَاقِع. إنّ هذا النّـوْعَ من «التَّفْكيـر العَبَثِيّ» المُعْتَمِدِ علـى الأمانيّ هو ما نَتَجَ عنـه - بالضّرورة - ضَعْفُ إنْجازاتِ الخُطَـطِ التّنْمَويّة، وضَآلَةُ مَرْدودِ البرامِجِ التّطْويريّـة، وتَفَاقُمُ إشْكالاتِ الحياة في مُجْتمعاتٍ عربيّةٍ مُعَاصِرَةٍ تَزْدَادُ تَعْقيداً في تفاعُلاتِها ومُتطلَّباتِها ومُشْكلاتِها.

لقـد اخْتَلَطَ الأَمْـرُ على «العَقْلِ العربـيّ»؛ فقضيّةُ (كُنْ فيكون) هـي ممّا اخْتَصَّ به الخَالِـقُ عَـزَّ وجَـلَّ، وأمّا سُنَنُـهُ الكَوْنِيّةُ فهـي لا تُحَابِي أحداً ولـو كان أَكْثر النّاس وَرَعاً،

وأَقْدرهـم علـى الوَعْظ، وأَمْضاهم فـي ساحات البلاغة. وفي هذا الخَلْـطِ المُرَوِّع تَجَلَّتْ - فـي الخُطَطِ والإسْتراتيجيّاتِ العربيّة - نمـاذِجَ الوَصْفِ المُسْهَبِ والإنْشائيّاتِ البَرّاقَةِ، تَدْعُمُهَـا دائِماً كلمة (سوف) التي تَحَوَّلَتْ مع الأيام إلى مَادَّةٍ للتَّنَدُّر، ولكنّها بَقِيَتْ مُعَبِّرَةً عـن العَجْزِ في الاهْتمـام بالتَّفاصيلِ الصَّغيرة، والآليَّاتِ المُحَـدَّدَة، والمُتَابَعَةِ الصَّارِمَة، والرَّقَابَةِ النَّزيهة.

إنّ السّاحة العربيّة تَضِجُّ بالإسْتراتيجيّات الكُبْرى، ولكنّها تَفْتَقِرُ إلى الآليّاتِ الوَاضِحَةِ والقَـادِرَةِ - عبْر تراكُماتِها ومعاييرِها وتفاصِيلِها - علـى تَحْويلِ تلك الإسْتراتيجيّات إلى حقائِق مَلْمُوسةٍ ووقائِع مَحْسُوسةٍ، فالبَوْنُ شَاسِعٌ بين «ثقافةٍ نَظَريّةٍ - لَفْظيّةٍ» وبين «ثقافة عِلْميّةٍ - عمليّة»؛ فالأولى تَنْتَعِشُ بنسيمِ الكلمة، وتَسْبَحُ في بُحُورِها، وتَطْرَبُ بما تُنْجِزُهُ في «البِنَاءِ اللّفْظِيّ»، وهي تَأْتِي طَيِّعَةً لَيِّنَةً لـ«العَقْلِ العربيّ». وأمّا «الثقافة العلميّة - العمليّة»، فلها مُصْطلحاتٌ دقيقةٌ، ومعايير مُحايدةٌ، ومُؤشِّراتٌ مُنْضَبِطَةٌ، ومقاييس تَجْريبيّةٌ، وهي تَمْتَنِـعُ على «العَقْلِ العربيّ»؛ لأنّ خصائِصَ «الفِكْرِ العِلْميّ» الصّارِمَةِ لا تُناسِبُ «مُحَدِّدَاتِ العَقْلِ العربيّ» التي تَدْفَعُ به لأنْ يكون مُنْفَلِتاً في رِحَابِ الخيال ودُنْيا الكلام.

عندما نقول إنّ «أَزْمَةَ العَقْلِ العربيّ» هي «أَزْمَةٌ ثقافيّةٌ» بامْتيازٍ، فإنّ حقائِق الماضي ووقائِـع الحَاضِـر وتحدّيات المُسْتَقْبَـل تُؤكِّدُ تلك الحقيقـة المَرَّة تِلْوَ المَـرَّة؛ فقد انْشَغَلَ «العَقْـلُ العربـيُّ» بـ«القضايا الكُبْـرى» في كُلِّ مكانٍ، ولكنّـه أَهْمَلَ «التّفاصيـل الصَّغيرة» فـي مُجْتمعِهِ وبَلْدَتِهِ وحَيِّـه، وغَابَتْ عنه الآليّـاتُ المَحْكُومَةُ بعناصِر المُسَاءَلَـةِ والمُتَابَعَةِ والتّقْييـم، ليُصْبِـحَ النّاتِجُ هو تَكْريس «حالة التَّخلُّف» وذلك علـى الرّغْم من انْتشار كلمة «إسْتراتيجيّـة» التـي غَـزَتْ كُلَّ مِضْمارٍ ومَحْفَـلٍ ومُؤَسَّسةٍ في العَالَم العربـيّ. ولا شَكّ أنّ الإسْتراتيجيّـات - برُؤاهـا العامّة وطُمُوحاتِهـا الشّامِلة وأهْدافِها المُحَـدَّدَة - ضرورةٌ لا مناص عنها، ولكنّها تَتَحَوَّلُ إلـى مَصْدَرِ إحْبَاطٍ عندما تُخْفِقُ فـي تَحْقيقِ غاياتِها؛ وهنا تَكْمُـنُ أهميّةُ «التّفاصيل الصَّغيرة» التي يَجْرِي إهْمَالُهَـا - عادةً - في «الثّقافة العربيّة»، فميـاهُ السّدِّ تُصْبِحُ شُؤماً على البِلادِ والعِبَـادِ إذا انْعَدَمَتْ قنواتُ التّصْريفِ القَادِرَةِ على تَوجيهِها وتَرْشيدِها وتَوزيعِها ليَعُمّ خَيْرُهَا، وتَتَحَقّق فَائِدَتُهَا.

فــي «العَالَمِ المُتَقَدِّم» تَوَفَّرَتْ تلك القنوات والآليّـات عبْر «أَنْظِمَةٍ مُؤَسَّسِيّةٍ» و«ثقافةٍ عِلْميّـةٍ» تراكمتْ فيهـا الخِبْراتُ والمُمارَسات، وتطوَّرتْ فيها معاييــرُ المُرَاجَعَةِ والتّقْييم، وتحقَّقَـتْ لها آليّـاتُ التّصْحيح والنُّموّ؛ وأمّا في «العَالَم العربيّ» حيـث تَنْعَدِمُ المُؤَسَّسَاتُ الفَاعِلَة، وتغيبُ «الثّقافةُ العِلْميّةُ»، فإنّ الأداء يَبْقَى رهينةً للاجْتهاداتِ الفَرْديّة، والمُبَادَرَاتِ العَشْوائيّة، والقــراراتِ المِزاجيّة. ولذا فإنّ مُهِمّةَ المَسْؤول، في أيِّ قطاعٍ كان في «العَالَم المُتَقَـدِّم»، هي أهْون كثيراً من مُهِمّةِ نظيره فــي «العَالَمِ العربيّ»، فصَاحِبُنَا الأوَّل يَحْظَى ببِنْيةٍ تحْتيّةٍ قَادرةٍ على الإسْهَامِ في تَشْكيلِ «الإسْتراتيجيّة» واسْتيعابِها، وتَصْويبِ مسيرتِها، وتوظيفِ آليّاتِهــا، بينما صَاحِبُنَا الثّاني يَتَحَمَّلُ - بالضّرورة - عِبْءَ وَضْعِ «الإسْتراتيجية» وتَهْيئَــةِ «الثّقافة المُناسِبة» من ناحيــةٍ، وعِبْءَ صِناعةِ «الآليّات» ومُرَاقَبَةِ عملِها من ناحيةٍ أُخْرى، وذلك إذا افْتَرَضْنَا تَوَفُّرَ حُسْنِ النِّيّة ونزاهةِ المَقْصَدِ ونظافةِ اليد وكفاءَةِ الأداء. وبتأمُّـلِ طبيعة هذه «المَسْؤوليّــة المُزْدَوجَة» التي يَتَحَمّلُهَا المَسْـؤولُ في «العَالَمِ العربيّ»، نَسْتطيــعُ أنْ نَفْهَـمَ سبب فَشَلِ تلك الوعود الزّمنيّة التــي يَقْطَعُهَا المَسْؤولُ على نفْسه عند تسلُّمــه زِمَام مهامّه؛ فمنْها الثُّلاثــيّ من السّنين ومنْها الخُماسيّ مــن الأعْوام، وكُلُّهَا قد تَنْطَلِـقُ من نَوايا حسنةٍ وعزيمــةٍ صَادِقةٍ وغاياتٍ وجيهةٍ، ولكن الأَمْــرَ الذي يغيبُ - عادةً - عــن اهْتمامِه، أو كفاءتِه، هو «التّفاصِيلُ الصَّغيرةُ» المَدْعُومَةُ بـ«المعايير العِلْميّة»؛ ممّا يقــودُ إلى اسْتمرارِ المُشْـكلات أو اسْتفحالِها وصُعُوبةِ التّغلُّبِ عليها، وكُلُّ ذلك يَغْتَالُ تلك الوعــود، ويَئِدُ تلك الآمال، ويُحَوِّلُهَا إلى مُجَــرَّدِ دُعَابَةٍ أو طُرْفةٍ يتناقلُها النّاس وهم يبثُّون هُمُومهم اليوميّة.

وأمّــا إذا سألنا: (هل يُمَثِّلُ هذا الطَّرْحُ شيئاً جديـداً على السّاحة العربيّة؟)، فإنّنا نجــدُ أنّ الإجابة تَأْتي جَازِمَةً بالنَّفي، فلقــد طَرَحَ مالك بن نبيّ - قبل ما يَرْبُو على نِصْفِ قَــرْنٍ - مِثْل هــذه التّصوُّرات، عندما أشار إلــى «المَنْطِقِ العمليّ» فقــال: (نحن أَحْوجُ ما نكــون إلى هذا المَنْطِقِ لأنّ «العَقْلَ المُجَرَّدَ» مُتَوفِّرٌ في بلادنــا، غير أنّ «العَقْلَ التّطْبيقيّ» الــذي يتكوَّنُ في جوهره من الإرادة والانْتباه شيءٌ يكاد يكون مَعْدُوماً)[٢٨]. وأَكْثر من هذا وأَعْمق هو ما قاله مالك بن نبيّ في السِّياق نفْسه: (إنّنا نرى في حياتنا اليوم جَانِباً كبيراً

من «اللافَاعِليّة» في أعْمالِنا، إذْ يَذْهَبُ جُزْءٌ كبيرٌ منْها في العَبَثِ وفي المُحاولاتِ الهَازِلَة. وإذا ما أردنا حَصْراً لهذه القضيّة فإنّنا نرى سببها الأصيل في افْتِقَادِنَا الضَّابِطَ الذي يَرْبِطُ بين الأَشْياء ووسائِلِها، وبين الأَشْياء وأَهْدافِها، فسياستُنَا تَجْهَلُ وَسَائِلَهَا، وثقافتُنَا لا تَعْـرِفُ مُثُلَهَا العُلْيـا، وفِكْرتُنَا لا تَعْرِفُ التّحْقيق، وإنّ ذلك كُلَّهُ ليتكرَّر في كُلِّ عملٍ نَعْمَلُهُ وفي كُلِّ خُطْوةٍ نَخْطُوها)(٢٨).

٣-٢-٢) مَأْزِق «الخِطاب العربيّ»:

ليستْ المُشْكلة – في نظري – أنّ «الثّقافة العربيّة» اهْتَمّتْ بالجَوانِب الأدبيّة التّقْليديّة والمُسْتَحْدَثَـة، أو أنّهـا حَرَصَتْ على الاسْتطْـرادات النّظريّة، فكُلُّ ذلـك أَمْرٌ مَطْلُوبٌ في حيـاة أيِّ أُمّةٍ مع أهميّة التّطْويرِ والمُرَاجَعَةِ والنّقْد؛ ولكن المُشْكلة تَكْمُنُ في اقْتِصَارِ هذه «الثّقافة» وتفاعُلاتِها على ذلك الجَانِب بينما «رُوح العَصْر» تَنْبِضُ بحركةٍ عِلْميّةٍ كَاسِحَةٍ، ونشاطٍ تِقنيٍّ مُهَيْمِن. لقد وَقَعَ «الخِطَابُ الثّقافيُّ العربيُّ» في مَأْزِقٍ مع عَصْرِه؛ ففي الوَقْتِ الـذي لا يَمْلِكُ فيـه أيَّ خياراتٍ تُذْكَـر، ولا يَمْتَلِكُ مفاتيـح التّأْثير على وَاقِعِـهِ ومُشْكلاتِهِ وتحدّياتِـهِ العالَميّة، فإنّـه يُكَابِرُ في عدم الانْصياع لقَواعِد «اللّعبـة المُعَاصِرَة» والالْتزام بضَوابِطِهَـا وتَأْمين المُتطلّباتِ الدُّنْيـا لتَحْقيقِ «النّقْلَةِ النّوْعيّـة» المَنْشُودَة، ويَنْصَرِفُ – كالعـادة – نحـو ما يُتْقِنُ ويُجِيـدُ في الشَّكْوى والوَلْوَلَـةِ والتّمنّي والتّنْظيـرِ والانْغِمَاسِ في تَجَلّيَاتِ «نظريّة المُؤَامَرَة».

إنّ «الإشكَاليّـة الكُبْـرى» هـي فيما تُعانيه «الثّقافـة العربيّة» من انْفِصَـام بين وَاقِعِ حالِهـا وطبيعةِ عَصْرِهـا؛ إذْ وَضَعَتْ بينها وبين «الفِكْرِ العِلْميّ» حَاجِـزاً سميكاً، وصَنَعَتْ – بسبـب الرّهْبَـة أو الاسْتِعْلاء – فَجْوَةً بين تفاعُلاتِها وبيـن انْطلاقاتِ «الحركة العِلْميّة» ومُعْطياتِها، وهذا هـو «البُعْدُ الغَائِبُ» في «الثّقافة العربيّة». لقد خَرَجَ «العَقْلُ العربيُّ» من رَحِـمِ «القبيلة»، وبَقِيَ مُتَمَسِّـكاً بقِيَمِهَا وأنْسَاقِهَا بالرّغْم ممّا نجدُه على السّاحة اليوم من «حَدَاثَةٍ» يَدَّعِيهَا، أو «تَدَيُّنٍ» يَزْعُمُه؛ وكما كَتَبْتُ في أكْثر من مقامٍ ومقالٍ(٥٢) إنّ «التّعصُّبَ» يَبْـرُزُ – فـي كُلِّ الأحْـوال – كخصيصـةٍ أساسٍ في تَكْويـن «العَقْـل العربـيّ»؛ فالتَّزَمُّتُ

الدِّينيّ، والتَّعَصُّبُ القوميّ، والتَّطَـرُّفُ المَذْهَبِيّ، والإقْصَاءُ الفِكْرِيّ، والتَّشَنُّجُ السّياسيّ، والصَّرْعَـاتُ الحَدَاثِيّة، والانْفِلاتُ اللّيبراليّ؛ كُلُّ ذلك ليس إلاّ امْتِدَادَاتٌ لأبْعَادِ «العصبيّة القَبَلِيّة» في مُحاولاتٍ بَائِسَةٍ للتّأقْلُمِ مع التّفاعُلاتِ الحياتيّة المُسْتَجِدَّة.

وهكـذا نجدُ أنّنا عندما نَتَحَدَّثُ عـن «العَقْلِ» ومُحَدِّدَاتِه فإنّنا - بالضّرورة - نَتَحَدَّثُ عن «الثّقافة»؛ فـ«البِيئةُ الثّقافيّةُ» هي التي تُشَكِّلُ «العَقْل»، وتُغَذّي مُكَوِّناته، وتُوَطِّدُ دعائِمَه، وتُبَـرِّرُ أحْكَامَه، وتَصْنَعُ مُحَفِّزاته؛ وعند رُكُودِ «الثّقافـة»، أو انْعِدَامِ فَاعِليّتِهَا الاجْتماعيّة، فـإنّ «العَقْـلَ» يَرْكُدُ في المَنْطِقَـةِ ذاتها، ويَبْقَى حبيس مِساحاتِهـا وزواياها. تلك الحقيقة البدهيّـة، التي أَهْمَلَتْهَـا مُحاولاتُ «النّهْضَة» بشَتّى أشْكالِهـا ومدارِسِها، تُؤَكِّدُ أنْ لا مَخْرَجَ لهـذا «العَقْلِ» من أزْمَتِـه، ولا مَنْفَذَ من «العَجْزِ العربيّ» إلى رِحَـابِ العُنْفوانِ والإنْجاز، إلاّ عبْر تَأْسيس «ثقافةٍ تَنْمَويّةٍ» مُشبعةً بنبْضِ العَصْر، ومُتفاعِلةً مع طيفِه الفِكْريّ المُهَيْمِنِ من علومٍ وتقْنيةٍ، ومُسْتَوعِبَةً لأبْعَادِ «الزَّمان» و«المكان» والقِيَمِ الجوهريّةِ الثّابتَةِ لهذه الأُمّة.

ستَبْقَى «الثّقافةُ العربيّةُ» ثقافةً عَرْجَاءً، بَلْ مَشْلُولَةً لا تَقْوَى على الحَرَاك، ولا تَسْتطيعُ الدُّخُـولَ فـي حَلَبَةِ سِبَـاقِ «العَوْلَمَة» إذا لـم تَسْتَوْعِبْ «الفِكْـرَ العِلميّ» وثقافتَـه؛ وستَبْقَى «الثّقافـةُ العربيّةُ» - في غِيَـابِ «الفِكْرِ العِلْمـيّ» وثقافتِه - أشْبه بالمَرْكَبَـةِ الفَاخِرَةِ التي نَفَـدَ وَقُودُهَا وتعطَّلتْ مُحَرِّكَاتُهَـا، وسنُطِلُّ على كُلِّ إنْجازاتِ الآخَرين بمُفْـرَدَاتٍ إنْشائيّةٍ تَطْـرَبُ لها الأسْمَـاع، وببياناتٍ بلاغيّةٍ يتنافسُ فيها المُتَنافِسُـون، ولكنّها - على صعيد الفِعْلِ وأرْضيّةِ الوَاقِعِ - تُمَثِّلُ رصيداً مُتراكِماً من «العَجْزِ العربيّ».

٣-٣) حالة «الانْفصام» في «عمليّة التَّنْمية»:

إنّ المُواطِـنَ في «المُجْتمعـات العربيّة» يعيشُ على هَامِش تفاعُـلاتِ «التّنْمية» دون حماسٍ لتَحْقيـقِ أهْدافِها، والمُشارَكَـةِ في صِناعتِهـا، والوَعْي بخصائِصِهـا، ممّا يُؤَدّي إلـى «حالة انْفِصَام» بينـه وبين «ديناميكيّـة التّنْمية»؛ فجُلُّ اسْتفادته منْهـا هي خِدْمَاتٌ وتَجْهيزاتٌ يتمّ تَأْمينُها عبْر اسْتيرادِ الآلات والمُعِدَّات، واسْتِقْدَام الخِبْراتِ والمهاراتِ من

وراء البِحَار، وما يَتَرَتَّبُ على ذلك من نَهَم مُتزايدٍ لاسْتِهْلاكِ مُعْطياتِ «الحياة العَصْريّة» دون تَأْسيسِ «البِنْية الإنْتاجيّة»، وتكونُ المُحَصِّلَةُ النّهائيّةُ هي تَفَاقُم «الوَجْهِ الاسْتِهْلاكيّ» لـ«التّنْمية» واسْتِفْحَاله، بينما يَضْمَحِلُّ «الوَجْهُ الإنْتاجيّ» ويَتَوَارَى.

لقد احْتَلَّتْ «التّنْمية الاقْتصاديّة» مكان الصَّدارَةِ في طُرُوحَاتِ «المُجْتمعات النّامية» وخُططهـم التّنْمَويّة وذلك على حِسَابِ جَوانِب «التّنْمية» الأُخْـرى الاجْتماعيّة والسّياسيّة والثقافيّـة، ويُمَثِّلُ ذلـك أحد الأسْباب الجوهريّة في تَفَاقُمِ «إشْكَاليّـة التّنْمية» واسْتِفْحَالِ أعْرَاضِهَـا؛ ولـذا فإنّ اهْتمامنا الرّئيس في هـذا الكِتاب هو بَلْوَرَةُ القناعـةِ التي تَعْتَبِرُ أنّ انْفِصَـامَ «التّفاعُلات الثّقافيّة» عن «الشُّرُوطِ التّنْمَويّة» هو أبْرز أسْبَابِ هذه «الإشْكَاليّة»، والمُعَـوِّقُ الرّئيسُ لكُلِّ طُرُوحَـاتِ «التّنْمية» وبرامِجِهـا بأوجهها المُتَعَدِّدَةِ علـى الأصْعِدَةِ الاقْتصاديّة والسّياسيّة والاجْتماعيّة والتّعْليميّة والإعْلاميّة وغيرها.

إنّ «التّنْميـة» حركةٌ فَاعِلَةٌ تَدِبُّ على الأرْض، وتَسْعَى إلى تَغْييرِ أنْمَاطِ الحياة، وتَهْتَمُّ بتَطْويـر قُدْرات الإنْسان وتَأْمين احْتياجاته وتوفيـرِ سُبُلِ الرّفاهية للمُجْتمع؛ ولذا فإنّها لا تَسْتطيعُ إلاّ أنْ تكون مُتفاعِلَةً مع الإنْسان، ومُتلاحِمَةً مع وعيه وإمْكاناته، فكما يقول أسامة عبـد الرحمن: (لا يَكْفِي أنْ يكون «مَفْهُوم التّنْمية» وَاضِحـاً في أذْهانِ صَانِعي القرارات، وإنّمـا يجب أنْ يكـون «مَفْهُوم التّنْميـة» وَاضِحاً في أذْهان مُنَفِّذي القـرارات وفي أذْهان القطـاع الأكْبر من المُجْتمع. ولا يُغْنِي مُجَـرَّدُ الوضوح وإنّما يجب أنْ يَصْحَبَ ذلك اقْتِنَاعٌ فِعْليٌّ والْتِزَامٌ أكيدٌ بـ«التّنْمية»، وسَعْيٌ دَؤوبٌ لتَحْقيقِ مراميها وأهْدافِها)[١٢].

لا خِـلاف بين المُهْتَمّين بدِراسات «التّنْمية» فـي أنّ «العُنْصُرَ البشريّ» هو الأساس فيهـا، فكمـا ورد في «تَقْريـر التّنْمية الإنْسانيّـة العربيّة لعام ٢٠٠٢م»[١٥] فـإنّ: (التّنْمية الإنْسانيّـة هي تَنْمية النّاس، ومن أجل النّاس، ومن قِبَـل النّاس، وإذا كان يَتَعَيَّنُ أنْ يكون النّاس هم مِحْوَرُ «التّنْمية» فلا بدَّ أنْ يكون لمُشارَكَةِ النّاس دَوْرٌ رئيسيٌّ في تطوُّرِها). من ذلك المُنْطلق فـإنّ «التّنْمية البشريّة» تَتَطَلَّبُ تَكْوين قُـدْراتٍ ومهاراتٍ، وتَحْفيزَ مُبادراتٍ وابْتكاراتٍ، وتَأْسيسَ قِيَمٍ إنْتاجيّةٍ وأخْلاقيّات عملٍ، وتوظيفَ كُلِّ ذلك توظيفاً فَاعِلاً بحيث

تَتَحَقَّـقُ مصالِحُ المُجْتمع، وتَتَقَلَّصُ إشْكَالاتُه، وتَعُـمُّ المنافِعُ على مُخْتلف الأصْعِدَة. ولأنّ الإنْسان يتحرَّكُ دَاخِلَ بيئةٍ ثقافيّةٍ، ويتفاعلُ مع عناصِرها سَلْباً وإيجاباً؛ فتتحدَّدُ معاييرُه وقِيَمُه ومُمارَساتُه وأعْرافُه، فإنّ «مَفْهُوم توجيه الثّقافة»[٢٨]، الذي تَطَرَّقْنَا إليه في الفَصْل الثّانـي من هذا الكِتاب، يُصْبِحُ ذا أولويّةٍ مُهمّةٍ في اعْتبارات «التّنْمية» وتَأْصيلِ شُرُوطِهَا؛ فمن الوَاضِح أنّه إذا فَقَدَتْ «الثّقافة» قُدْرَتَهَا على التّفاعُلِ مع عَصْرِها، وتَلْبيةِ احْتياجاتِ بيئتها، وصَوْغِ الرُّؤى لمُسْتَقْبَلٍ أفْضل لأجْيالِها، فإنّها تكون قد سَقَطَتْ في قَبْضَةِ التَّخَلُّف، وخَذَلَتْ مُجْتمعَها.

وهكـذا تُصْبِحُ قضيّةُ «الثّقافة» قضيّةً «جماهيريّةً»، وتَتَخَلَّصُ من قَدْرٍ كبيرٍ من تلك «الرُّؤيــة النُّخْبويّة» التــي اهْتَمَّتْ بحَصْرِ «الثّقافة» فــي ما أَسْمَتْهُ «الثّقافــة الرّفيعة» التي تُمارِسُهَا الأقليّةُ في فُنُونٍ جميلةٍ، وآدابٍ إنْسانيّةٍ، وأنْشطةٍ فِكْريّة تأمُّليّةٍ، وهنا تُصْبِحُ رُؤْيةُ توماسـ إليوت مُهِمّةً عندما يقول: (بحسـب نَظْرتي لـ«الثّقافة» فإنّ على جميع السُّكان أنْ يَلْعَبُـوا دَوْراً فَاعِلاً في النّشاطات الثّقافيّـة، دون أنْ تَتَرَكَّزَ أدْوارُهم جميعاً في النّشاطات ذاتها أو على المُسْتوى ذاته)[٢٧].

إنّ الأساس الجوهريّ لبنَاءِ «القُدْرَةِ التِّقنيّة»، وتَشْييدِ «المَعْرِفَةِ العِلْميّة»، يَتَطَلَّبُ – في المقام الأوَّل – عناصِر بشريّةً مُتَوائِمَةً مع هذه المُتطلَّبات، ومُتَكَيِّفَةً مع احْتياجاتها بحيث تتوافرُ لديها المهاراتُ والخِبْراتُ والمعارِفُ اللازِمة للبَحْثِ والتّطْويرِ والتّصْميم والتّصْنيعِ والإنْتـاج. وهــذه «العناصِرُ البشريّـةُ» هي جُمْلَةُ القُـوى العَامِلَةِ ذات الكفـاءاتِ والقُدْراتِ الإنْتاجيّة التي تَشْمَلُ الباحِثَ والعامِلَ والمُهندسَ والفنّيّ والعَالِمَ والمُديرَ والمُوظَّف، وهذا يَسْتَدْعِـي بيئـةً دَاعِمَةً، وتَحْفيـزاً مُسْتمرّاً، ووَسَطاً فَعّـالاً، لتكون «التّنْميـة» مَنْهَجاً يَنْطلِقُ – دون انْفِصَـامٍ أو عَوائِـق – لتَعْتَنِقَـهُ كُلُّ شرائِح المُجْتمع، وتتفاعلَ معــه بحيويّةٍ، فتَنْتَشِرَ أصْـداؤه ومُعْطياتــه لتَشْمَلَ كُلَّ المَنْظُومَـاتِ الاجْتماعيّة والثقافيّـة والإعْلاميّة والتّنْفيذيّة والتّخْطيطيّـة والتّشْريعيّة والتّعْليميّة وغيرها؛ وهذا يَتَطَلَّبُ توفير «الثّقافة المُلائِمَة» لتكون «الوَسَطَ» الـلازِمَ لتَحْريكِ «التّقْنية»، ونَقْلِ «المَعْرِفَةِ العِلْميّــة»، وتَمْكينِ الآليّاتِ المطْلُوبة، وتَعْميقِ فِعْلِهَا، وتَطْويرِ عطائِها في مُجابَهَةٍ عمليّةٍ لـ«إشْكَاليّة التّنْمية».

٣-٣-١) قانون «التَّحَدِّي والاسْتِجَابَة»:

لقد قام أرنولد توينبـي[٢٩] (Arnold Toynbee) بدراسة إحدى وعشرين حضارةً دِراسَـةً شَامِلَـةً ليَخْلُصَ إلى أنّ حركـة التّاريخ لا تَعْتَمِـدُ على البيئـةِ الجُغْرافيّةِ ولا على الأعْـرَاق، وإنّمـا هـي نتيجةٌ لمَوْقِـفِ المُجْتمع إزاء مـا يُقابِلُهُ من تحدّيـاتٍ، وبذلك صاغ أرنولـد توينبي قانـون « التَّحَـدِّي والاسْتِجَابَة» ليُقَـرِّرَ أنّ: (الاسْتِجَابَـة للتّحَدِّي هي التي تَصْنَعُ الحضارة)، وذلك على أساس أنّ نُموّ أيِّ حضارةٍ هو نتيجةٌ لاقْتِدَارِهَا على مُواجَهةِ «التَّحَـدِّي» الذي يَعْتَرِضُهَـا مُوَاجَهَةً إيجابيّةً فَاصِلَةً؛ وبالتّالي فـإنّ «الاسْتِجَابَة الإيجابيّة» للتَّحَدِّيَـاتِ التَّنْمَويّـةِ القَائِمَةِ فـي العَالَمِ العربـيّ تُصْبِحُ ضرورةً لا مناص عنها لتَحْقيقِ الإنْجازاتِ التَّنْمويّةِ والحضاريّة.

لقد ضَاعَتْ مثل تلك «الاسْتِجَابَة الإيجابيّة» في العَالَمِ العربيّ وسط الجَلَبَةِ الفِكْريّة، والاضْطِـرَابِ السّياسيّ، والبَذَخِ الكلامـيّ، والانْبِهَارِ المُتخاذِل، والاجْتِـرَارِ المُمِلّ، ولعلّ هـذا ما يَعْرِضُ إليـه بوضوحٍ محمد عابد الجابـريّ[١] حين يقول: (إذا كُنّـا نُعانِي اليوم مـن كثيرٍ من مظاهِرِ الاسْتِلابِ إزاء الغَرْبِ فلأنّنـا نَأْخُذُ منه النّتائج والثّمرات، ونُعْرِضُ عـن المبادئ والأُسُـس: نَسْتَوْرِدُ منه لنَسْتَهْلِـك، وليس لنَغْرِسَ ونَسْتَنْبِـت. ومن دون شَكٍّ فـإنّ النَّجَاحَ في عمليّةِ الغَرْسِ والاسْتِنْبَاتِ يَتَوَقَّفُ على إعْدَادِ التُّرْبَـةِ الصّالِحَة، والتُّرْبَةُ الصّالِحَـةُ لا تُسْتَوْرَد. ولذلك قُلْنَـا، ونُكَرِّرُ القول، بإعادة كِتابةِ تاريخنـا الثّقافيّ بصُورةٍ عَقْلانيّـةٍ وبـرُوحٍ نَقْديّةٍ، لأنّـه من خلال مُمَارَسَـةِ العَقْلانيّـة النقْديّة في تُراثِنَـا نَكْتَسِبُ عَقْلانيّـةً أصيلةً وجديدةً، عَقْلانيّةٌ ستكـون هي التُّرْبَة الصّالِحَة الغنيّـة والخِصْبَة، التي تَسْتطيعُ حَمْلَ مبادئ وأُسُسِ «العِلْم المُعَاصِر». وبطبيعة الحال فالتّعامُلُ النّقديّ العَقْلانيّ مع تُراثِنَا يَتَوَقَّفُ على مدى ما نُوَظِّفُهُ بنجاحٍ من المفاهيم والمناهِجِ العِلْميّةِ المُعَاصِرَة).

وفي وَقْفَةٍ حَازِمَةٍ يَصِفُ محمد عابد الجابريّ طبيعة تلك «الاسْتِجَابَة الإيجابيّة» المَطْلُوبة للتَّصَدِّي للتّحَدِّي القائِمِ فيقول: (ولذلك كان من الضّروري لنـا، سَواءً من أجل حَلِّ مشاكِلِ ماضينـا في وَعْينا أو من أجل بِنَـاءِ مُسْتقبلنا الثّقافيّ، العملُ على نَشْـرِ «الثّقافة العِلْميّة

والفَلْسفيّــة» وتَكْريسِ أساليبِ «البَحْــث العِلْميّ» ومناهِجِه، نظريّــاً ومُمَارَسَةً، في ساحتِنا الثقافيّــة الرّاهِنة. إنّــه الشَّرْطُ الضّروريّ لتَدْشينِ عَصْر تَدْوينٍ جديــدٍ يُؤسِّسُ المُسْتَقْبَل بما يَسْتَجِيبُ لمُتطلّباتِه ويَفِي بحاجاتِه).

تقودُنا هذه المضامينُ إلى تلك «الثَّوْرَةِ الفِكْريّة» التي أشار إليها زكي نجيب محمود فــي أكْثــر من مقامٍ ومقالٍ، وهي الثّوْرَةُ القَادِرَةُ على تَأْميــنِ «المُنَاخِ الفِكْريّ العامّ»، حيث خَلَصَ - مــن وَاقِعِ قِرَاءَتِــهِ للتّاريخِ والوَاقِع - إلــى القول: (وعقيدتي هي أنّ ثَــوْرَةً فِكْرية كهــذه لم تَحْدُثْ لنا خلال هذا القَــرْنِ كلّه، برغْم التّغيُّراتِ الكثيــرة والهامّة التي طَرَأَتْ علــى صُورةِ الحياة، وذلك لأنّ النّمَــطَ الفِكْريَّ القديمَ باقٍ كما كان دائِماً، والعجيبُ الذي يُلْفِتُ النَّظَرَ هو أنّ الفَجْوَةَ الكَائِنَةَ بين ذلك النّمَطِ الفِكْريّ من جِهَةٍ، وتَفْصيلاتِ الحياةِ الجديدةِ من جِهَةٍ أُخْرى، لا تُحْدِثُ فينا شيئاً من القَلَقِ أو التّوتُّر، الذي لو حَدَثَ، لحَفَّزَنَا إلــى سَدِّ الفَجْــوَةِ بالمُلاءَمَةِ بين المبــادئ العامّة وتَفْصِيلاتِ الحيــاة العمليّة)[٢٠]. ولعلّ الحقيقــة الرّابِضَــة على وَاقِعِ «الثّقافــة العربيّة» فــي «الأَلْفيّة الثّالثة» تَدْعُــو إلى العجب؛ فهــي ذات الحقيقة التي عَبَّرَ عنها زكي نجيب محمود في مُنْتَصَفِ القَرْنِ الماضي، لنجدَ أنّ «الفَجْــوَةَ المَعْرِفيّــة» المُسْتَفْحِلَةَ و«الهُــوّةَ الحضاريّة» المُتَفَاقِمَةَ بيننــا وبين الآخَرين فَشِلَتَــا مَرَّةً أُخْرى في اسْتِفْزَازِ «القَلَــقِ» و«التَّوتُّرِ» اللذين أشار إليهما كمُحَفِّزاتٍ لسَدِّ تلك «الفَجْــوَةِ» وتَقْليصِ تلك «الهُــوّة»؛ وبالتّالي لم تكنْ «الاسْتِجَابَةُ» بحَجْــمِ «التَّحَدِّي»؛ أَيْ أنّ «تَرْكيبة الثّقافة العربيّة» لم تَخْضَعْ لقانون «التَّحَدِّي والاستِجَابَة».

يقودُنــا هذا الأَمْرُ - مَرّةً أُخْــرَى - إلى «مَفْهُوم توجيه الثّقافــة»[٢٨] (انْظر: الفَصْل الثّانــي) الذي يَهْتَمُّ بإعادة تَرْكيبِ «عناصِر الثّقافة»، ومُراجَعَةِ مُقَوِّمَاتِهَا، ووَضْعِ الخُطَطِ المُلائِمَــةِ لتَطْويرِهــا وتَصْحيــحِ مساراتِهــا، لتتحقَّــقَ «الفَاعِليّــةُ الاجْتماعيّــةُ» التي هي الوظيفةُ المَطْلُوبَةُ لـ«الثّقافة» بحيث تَسْتطيعُ أنْ تُواكِبَ المُسْتَجِدَّاتِ والمُتَغيِّرات، وتَلْتَصِقَ باحْتياجــاتِ المُجْتمع، وتُوَجِّهَ الفَرْدَ والجماعة نحو الحُلُولِ الشّافِية. وتَحْتَلُّ قضيّةُ «توجيه الثّقافــة» مَوْقِعاً مُهِمّاً في رُؤيةِ محمد عابد الجابريّ لحَــلِّ «إشْكَاليّة الأَصَالَة والمُعَاصَرَة» حيــث يــرى: (إنّ المَسْأَلَةَ هنــا ليستْ مَسْأَلَةَ إحْــلالِ الماضي محلّ الحاضِــر، أو القديمِ

محـلّ الجديد، بَلْ هي إعادةُ بِنْيَةِ الوَعْي بالماضي والحاضِر والعَلاقَة بينهما، وهي عمليّةٌ تَتَطَلَّـبُ التّخْطيـطَ فـي آنٍ واحِدٍ لثقافـة الماضي وثقافـة المُسْتَقْبَـل: «التّخْطيطُ لثقافةِ الماضـي» مَعْنَاهُ إعادة كِتابـةِ تاريخِها، وبالتّالي إعادة تَأْسيسِها فـي وعينا وإعادة بِنائِها كثُرَاتٍ لنا نَحْتويه بدل أنْ يَحْتوينا. أمّا «التَّخْطيطُ لثقافة المُسْتَقْبَل» فمَعْنَاهُ توفير شُرُوطِ المُواكَبَـةِ والمُشَارَكَة: مُواكَبَةُ الفِكْرِ المُعَاصِـرِ والمُشَارَكَةُ في إغْنائِه وتوجيهِه، وذلك هو مَعْنَى «المُعَاصَرَة»)(١).

يقودُنـا هذا التّحْليل الـذي يَسْتَنِدُ إلى خصائِص المَرْحلة ووَاقِـع المُجْتمع، ويَنْطَلِقُ مـن اعْتبـار عُنْصُرَيْن، همـا: «المَنْطِق العملـيّ» و«الصِّناعة»، اللذيـن جعلهما مالك بن نبيّ(٢٨) عُنْصُرَيْن جَوْهَرِيَّيْـن في «التَّرْكيب العَامّ للثّقافة» (انْظر: الفَصْل الثّاني)؛ أقول: يقودُنا هذا التّحْليـلُ - بالضّرورة - إلى مَفْهُومِ «الثّقافة التّنْمَويّة» وتَأْصيلِه وتَفْعيلِه. وقبل أنْ نَتَعَـرَّفَ على أهَمِّ سِمَاتِ هذه «الثّقافة التَّنْمَويّة»، فإنّه من المُهِمّ أنْ نُحَدِّدَ أبْرز أسْبَابِ قُصُورِ «الثّقافة العربيّة» السّائِدَة، وعَجْزِهَا عن تَحْقيقِ «الفَاعِليّة الاجْتماعيّة» المُعَاصِرَة، وبالتّالـي إخْفَاق «المُثقّف العربيّ» فـي الإسْهَامِ في «عمليّة التّنْمية» بمفاهِيمِها المُعَاصِرَةِ ومَلامِحِهَا المَعْرِفيّة.

٣-٤) «الـثّـقـافـة الـعـربـيّة»: مَلامِحُ الأزْمَـة:

إنّ أبْـرز سِمَاتِ «الثّقافة العربيّة» أنّها ثقافةٌ أدبيّةٌ ذات نَزْعَةٍ خَطَابيّةٍ تَمْتَدُّ جُذُورها عبْـر قُرُونٍ مـن التَّمَيُّـز البلاغـيّ والتَّفَاخُـر اللّغويّ، حيـث تُهَيْمِـنُ الزّخَـارِفُ اللفْظيّة والطُّرُوحـاتُ الإنْشائيّـة والتَّفاعُـلاتُ الوِجْدانيّـة، وتَتَقَلَّـصُ مِساحةُ الفِكْـرِ والتَّمْحيصِ العَقْلانـيّ، وتَنْحَسِـرُ - أو تَنْعَـدِمُ - آليّـاتُ العملِ والتّدْقيـقِ والتّقْييمِ والمُتابعـة، لتُصْبِحَ «الـذّاتُ العربيّةُ» كما وَصَفَهَا عبد الله الغذّامي: (كَائِنـاً شِعْرِيّاً تَسْكُنُ الشِّعْر، ولا تَتَحَرَّكُ إلاّ حسب المَعْنَى الشِّعْرِيّ الذي تَطْرَبُ له غير عَابِئَةٍ بالحقيقة)(٤٩).

وهكذا يَنْشَأُ الصّبيّ فينا مُسْتَسْلِماً لأُسْلُوبِ الحِفْظِ والرّواية، ويَتَغَذّى خيالُه على صُوَرٍ عَاطِفيّةٍ وحماسيّةٍ وجماليّةٍ سِلاحُها الكلمـاتُ الرّنّانة، والإنْشائيّاتُ البليغة، والطُّرُوحاتُ الفَضْفَاضَــة، والمُحَسِّنَاتُ اللفْظيّة من طِبَاقٍ واسْتِعَارَةٍ وجِنَاسٍ وتَوْرِيَةٍ؛ فيَنْمُو على سَجيّةٍ أدبيّةٍ خَالِصَةٍ، فإذا اصْطَدَمَ بضروراتِ «الفِكْر العِلْميّ» من مُعْطياتٍ عِلْميّةٍ مُنْضَبِطَةٍ ودِقّةٍ تَجْريبيّــةٍ صَارِمَةٍ، كان الحماسُ ضعيفاً، والتَّحَدِّي صَعْباً، والاسْتِمْـرَارُ مُعْضِلَةً. ولا نُبَالِغُ إذا قُلْنَـا إنّ في دَاخِلِ كُلِّ عربــيٍّ طِفْلاً أديباً يَتُوقُ إلى النُّموّ والبُـرُوز، ويَطْمَحُ إلى التّعْبير عـن ذاته؛ ولذا كان بيننا المُهندسُ الصّحفيّ، والطّبيــبُ الشّاعِر، والجيولوجيُّ الرّوائي، والكيميائــيُّ الأديب، ممّا يُوَضِّحُ أنّ نسيج «الفِكْر الأدبيّ» يُغَلِّفُ حياة كُلٍّ منّا من قِمّةِ رَأْسِهِ إلــى أخْمَصِ قَدَمَيْــه. وإذا كان «الأدبُ» هو القِوام الذي تَمَثّلَتْ فيه «الثّقافة العربيّة»، فإنّ السّياســة وصِراعــات السُّلْطَةِ كانتْ وراء توظيف ذلك القِـوام، وتَكْثيف نسيجه الدّاخِليّ؛ وبالتّالي وَقَعَتْ «الثّقافةُ العربيّةُ» في أَزْمَةٍ مُسْتديمةٍ يرى فيها محمد عابد الجابريّ «أَزْمَةَ الفِكْـرِ العربيّ المُعَاصِـر» ويَصِفُهَا بقوله: (إنّهــا أَزْمَةُ ثقافةٍ ارْتَبَطَتْ منـذ بِداية تَشَكُّلِهَا بالسِّياســة، فكانــتْ السِّياسةُ فيهــا، لا العِلْم، هي العُنْصُــر المُحَرِّك ممّا جعلهـا تَخْضَعُ باسْتمرارٍ لتقلُّباتِ السِّياسة، وتتأثَّرُ بنجاحِها وإخْفاقِها، وتَنْحَطُّ بانْحِطَاطِهَا)(١).

وأمّــا في العُقُــود الأخيرة من القَرْنِ الماضي، فقد بَـرَزَتْ أُطْروحاتٌ نَقْديّةٌ تَفْحَصُ مُنْطلقاتِ «الثّقافة العربيّة»، وتُمَحِّصُ مَرْجِعيّاتِهَا، وتَتَلَمَّسُ آثارَها، ولنتوقّفْ - على سبيل المِثــال - أمام وَقْفَةِ حسن صعب حيــن يقول: (نَدْعُو العَقْلَ العربــيّ للتَّحَوُّلِ من «صِنَاعَةِ الكلمــات» إلى «صِنَاعَــةِ الأشْياء»، ومــن اجْتِرَارِ المَنْظُومَــاتِ والأراجيزِ إلــى نَظْمِ الفِكْرِ والحياة، بَلْ نَظْم الكَوْنِ نَظْماً إبْداعيّاً جديداً)(٥٣). ويُكَرِّسُ عبد الله الغذّامي هذه الحقيقة فيقول: (الشَّخْصيّةُ الشِّعْريّةُ نَسَقٌ ثقافيٌّ مُتَرَسِّخٌ ومُتَعَزِّزٌ فينا، ونحن نُعيدُ تَرْسيخَه وتَعْزيزَه عبْر تَمَثُّلِهِ في الخِطَابِ وفي السُّلُوك، وهو ما يَصْبِغُ ويُمَيِّزُ نَسَقَنَا المُهَيْمِن، ويُؤَثِّرُ على كُلِّ مجالاتِنــا العَاطِفيّة أوّلاً ثــم العَقْليّة خُضُوعاً لذلك واسْتِسْلاماً لــه)(٤٩). أمّا عبد الحميد أبــو سليمان(٢٦) فيقول: (لقد ضَيَّعَ المُسْلِمون وضَيَّعَ العَقْلُ المُسْلِمُ الكثير من طاقاته عبْر التّاريخ، حين سُمِحَ لهذا العَقْل بأنْ يخوض في الغيبيّات والإلهيّات والسّفْسطات الفلْسفيّة

التــي تَتَعَلَّقُ بالكُلِّيّــاتِ الرَّبّانِيّة على غير ما تَقْضِي به الرُّؤيــةُ الإسْلاميّةُ وإطارُها الفِكْريّ والمَنْهَجــيّ). أمّا تلك «الرُّؤية الإسْلاميّة» التي فَقَدَهَــا المُسْلِمون منذ زمنٍ بعيدٍ، وتَرَتَّبَ عليهــا هذا الوَاقِعُ المُزْري، فإنّ أبا سليمان يُبَيِّنُهَا بقَوله: (الرُّؤية الإسْلاميّة القويمة التي يتكاملُ فيها الوحي والعَقْل والكَوْن، ويُصْرَفُ فيها العَقْلُ المُسْلِمُ إلى النَّظَرِ والتَّدَبُّرِ والعملِ في عَالَــمِ الشّهادة وشُؤونه كما يُوَجِّهُهُ الوحي، هي الرُّؤيةُ التي مَكَّنَتْ للسَّلَفِ الأوّل ناصية الإبْــداع، وفتحتْ أمام العَقْلِ المُسْلِــم أبْواب التَّجْريبِ والنَّظَــرِ والتّنْقيبِ في سُنَنِ الحياةِ والكائِنــات، وفتحتْ للإنْسانيّة آفاقاً جديدة في مجال الحضارة، كانتْ هي الأساس الذي أقامتْ الحضــارة الحديثة عليه مَنْهَجَهَا العِلْميّ التّجْريبيّ، وإنْجازاتها المادِّيّة التَّجْريبيّة التي لم تَعْرِفْ لها الإنْسانيّة من قبل سبيلاً ولا مثيلاً). وتَتَأَكَّدُ مُقَوِّمَاتُ «الثّقافة العربيّة»، وتَتَوَطَّــدُ عناصِرُهــا الأبْرز، فــي النّصيحة التــي أَسْدَاهَا عبد الحميد الكاتــب في القَرْنِ الثّانــي الهجْريّ إلــى جَمْهَرَةِ الكُتّاب حيث قــال: (فتنافَسُوا يا مَعْشَــرَ الكُتّابِ في صُنُوفِ الآداب، وتَفَقَّهُــوا فــي الدِّين، وابْدؤوا بعِلْم كِتاب الله والفرائض، ثــمّ العربيّة فإنّها ثِقَافُ ألْسنتكــم، ثمّ أجيدُوا الخَطّ فإنّه حِلْيَةُ كُتُبِكُــم، وارووا الأشْعَارَ واعْرِفُوا غريبَها ومعانيها، وأيامَ العربِ وأحاديثَها وسِيَرَهَا، فإنّ ذلك مُعِينٌ لكم على ما تَسْمُو إليه هِمَمُكُم)(١٨)؛ وأمّا الاهْتِمَامُ بـ«العِلْم الطَّبيعيّ» و«التَّفَكُّرُ في سُنَنِ الكَوْن» فلم يَحْظيا في تلك «الرُّؤية الثّقافيّة» بمكانٍ مهما صَغُرَ شَأْنُه!.

٣-٤-١) «الثّقافة العَوْراء» تحت الحِصار:

أمــام انْدِفَاع «الكلمة العربيّة»، وهي تتهــادى ببلاغتِها وفصاحتِها، وتَحْمِلُ مجازَها وبديعَهــا، وتَتَأَلَّــقُ بمُحَسِّنَاتِهَا اللّفْظيّــة وجزالتِها النّثْريّة، وتُحَلِّقُ مــع موسيقاها الشِّعْريّة وخيالِهــا الخِصْب؛ أقول: أمام ذلك الانْدِفَاعِ الجَامِــحِ فَقَدَتْ «الكلمةُ» معانيها، وأَصْبَحَتْ تَعْنِــي أيَّ شــيءٍ وكُلَّ شيءٍ، وخَضَعَتْ لأغْراضِ أصْحابِها الضّيّقــة وحِساباتِهم المَحْدُودة، وراحَــتْ تَرْتَــعُ في رِحَابِ الفَخْــرِ والنَّرْجسيّةِ دون ضَابِطٍ، وتَنْتَقِلُ بيــن المديح الذي يُكالُ كَيــلاً دون حِسَابٍ، وبيــن الهِجَاءِ الذي تَعَــدَّدَتْ فُنُونُهُ وصُنُوفُه، وفــي أغْلب الحالات كان

أصْحابُها يَنْأون عن النّقْد الموضوعيّ، والاعْتدال العَقْلانيّ، والتّحْليل النّزيه. وهكذا نَجِدُ أنّنـا نتصـدّى لخَلَلٍ ثقافيٍّ بُنْيويٍّ، ولقـد سَبَقَ أنْ عَبّرْتُ(٥٤) عن هذا الخَلَـلِ البَيِّنِ بوَصْفِ «الثّقافـة العربيّـة» الرّاهِنَـةِ بأنّها «ثقافةٌ عَـوْرَاءُ» تُبْصِـرُ بعَيْنٍ وَاحِدَةٍ فقـط، هي «عَيْنُ الأدب والإنْشائيّـات والخَطَابَة»، وأمّا ذلك الشّيء الذي مَلأ الدُّنيا، وشَغَلَ النّاس، وأَحْدَثَ الانْقلاباتِ الكُبْرى في حياةِ البشر وتطوُّرِها وفِكْرِها، وهو «العِلْمُ الطَّبيعيُّ»، فإنّه «القضيّةُ الغَائِبَةُ» في اهْتِماماتِ ثقافتنا، ومُدَاوَلاتِ مُفكّرينا، وتفاعُلاتِ مُجْتمعنا.

وقبـل أنْ نَدْلِفَ إلى التّفاصيـل، فإنّه من المُهِمّ أنْ نَعْتَرِفَ بأنّ الخصائِص البليغة في «لُغَـةِ القُـرْآن» تَحْمِلُ – بالضّرورة – أبْعـاداً إيجابيّة يَنْتَشِرُ عَبَقُهَا علـى مُخْتلف المُسْتويات الفِكْريّـة والعِلْميّـة والنّفسيّة والوِجْدانيّة والإدْراكيّـة، فهي تُضْفِي على الفِكْـرِ عُمْقاً، وعلى النُّطْـقِ بهاءً، وعلى العطاءِ سُمُوّاً، وعلى العِلْـم رَحَابَةً، أو هكذا كان يَنْبَغِي أنْ يكون الحال!. وأمّا حالُ «الإنْسان العربيّ» إزاء لُغَتِه الفريدة، فهو كحاله إزاء كُلِّ ما أَنْعَمَ اللّه به عليه من مَـوارِد فِكْريـةٍ ومادِّيّةٍ ووِجْدانيّة؛ فقد أَفْلَحَ «الإنْسان العربـيّ» – عبْر أزْمنةٍ رديئةٍ مُتواليةٍ – فـي أنْ يَجْعَـلَ من إيجابيّاتِ لُغَتِهِ سَلْبيّـاتٍ، ويُشَوِّهَ الأدواتِ لتحيد عـن مقاصِدِها، ويُطَوِّعَ المعانـي لنظـراتٍ أنانيّةٍ قَاصِرَةٍ، ويَطْرَحَ فِكْـراً ضَحْلاً في جِلْبَابٍ وَاسِـعٍ يَضِجُّ بالكلماتِ الرّنّانـة والأساليـبِ المُنَمَّقَـة، وأَصْبَحَ الحالُ كمـا يقول عبد اللّه الغذّامـي: (جرى فِعْلاً تَجْريـد اللغة من دَوْرِهَا في الفِعْلِ والعمل، وكأن قد صارتْ لُغَةً غير فَاعِلَةٍ ولا تَدْفَعُ للعمل، لُغَـةً غير وظيفيّةٍ وغيـر فِعْليّةٍ، بعد أنْ تَشَبَّعَتْ بالشِّعْرِيّـةِ المُفْرِطَةِ والبلاغيّةِ غير العمليّة وغير المُلْتزِمَةِ بشُرُوطِ المَعْقوليّةِ والوَاقِعِ مذْ كان الشِّعْرُ غير مَعْنِيٍّ بهما)(٤٩).

لقد وَقَعَتْ «الكلمة العربيّة» – في رأْيي(٥٥) – تحت حِصَارِ «ثقافَتَيْن»؛ إحْداهما ثقافةُ (أَعْطِـهِ أَلْف دينارٍ يا غُـلام)؛ وهـي ثقافةٌ نَمَـتْ وتَرَعْرَعَتْ عبْر قُرُونٍ مـن المُمَارَسَاتِ السُّلْطَويّة والاسْتِبْدَادِ، ومَنْهَجِ زَرْعِ الولاء عبْر الأُعْطيات والمِنَح، فتدافع الشُّعْراء والخُطباء والمُفَوَّهـون وأصْحاب الحاجات من شَتّى الفِئات والفُنُون أمام أبْواب السُّلْطَة، ولَحِقَ بهم الإعْلاميّـون والمُثقّفون – من شَتّـى الأطْياف – في عَصْرِ الوسائِـل الإعْلاميّة الحديثة. وأمّا ثاني «الثّقافَتَيْن» فهي ثقافةُ (أرى رؤوساً قد أَيْنَعَتْ وحان قِطَافُهَا)، وهي ثقافةٌ نَمَتْ

في ظُرُوفِ الاسْتِبْدَادِ ذاتها ومَنْهَجِ الغَلَبَةِ نفسه فأخذتْ - بعد الخِلافَة الرّاشِدَة - تَتَغَلْغَلُ فــي نسيج «المُجْتمعات العربيّة»، وتتداخلُ مع تفاعُلاتهــا، وتَسْتَرْجِعُ «حَمِيَّتَهَا الجَاهِلِيّة»، وتَقْمَعُ «الكلمة الحُرَّة» و«الإبْداع الأصيل» بحَواجِز الرَّهْبَة والخَوْف.

أمّــا عــن «ثقافة الفَخْــر»، فحَــدِّثْ ولا حَــرَج[٥٦]، وكأنّ «الإنْسان العربــيّ» أَدْرَكَ أنّ طريقتــه الوحيدة لتَعْويض ما لَحِقَ به من «الدَّمَارِ النَّفْسيّ» بسبب «ثقافة الاسْتِجْدَاء» من ناحيــةٍ، و«ثقافــة القَمْع» مــن ناحيةٍ أُخْرى، هــو أنْ يَرْتَمِي في أحْضان تيــاراتٍ عَارِمَةٍ من «النَّرْجسيّــة المُتَوَرِّمَة»؛ فكلماتُه طَغَتْ على أبْــرع أدوات الطِّبّ، فهي التي جعلتْ (الأعْمى يَنْظُــرُ إلى أدبه)، وهي ذاتها التي (أَسْمَعَتْ من به صَمَــمُ)، ورضيعُه يَتَفَوَّقُ ويُهَيْمِنُ حتّى (تَخِــرُّ له الجَبَابِــرُ سَاجِدِينا)، وهو يَتَنَعَّمُ بــكُلِّ الخيرات وغيره يَشْــرَبُ (كَدَراً وطِينا)، وهــو مَرْكَزُ الكَــوْنِ، فإذا مات ظَمْآناً (فلا نَزَلَ القَطْرُ)!. ولعــلّ تلك «النّرْجسيّة» هي التي جَعَلَتْــهُ - عبْــر حِقَبٍ طويلةٍ - يــرى في الاسْتِبْــدَادِ ضرورةً، وفــي غِيَابِ المُسْتَبِــدّ أَزْمَةً، فرسخــتْ على تضاريســه ازْدواجيّاتٌ بغيضــةٌ[٥٢]؛ منْها أنّــه يَلْعَنُ الظّــلامَ والاسْتِبْدَادَ، بينمــا لا يَتَرَدَّدُ في البُكَاءِ عليهما وتَمْجيدِهما إذا تَمَلَّكَتْهُ العَاطِفَةُ، وكأنّه يرى في المُسْتَبِدّ انْعكاســاً لذاته وتَكْريساً لوجــوده؛ ومنْها أنّه لم يُفْلِحْ في أنْ يَجْعَــلَ للفَرْد قِيمةً أساساً في «التّرْكيبــة الاجْتماعيّــة» إلاّ أنّه لا يَتَرَدَّدُ في لحْظة انْفعالٍ أنْ يَجْعَــلَ «الفَرْد المُسْتَبِدّ» فوق الوطن ويَصْرُخَ مع الصَّارِخِين: (بالرُّوح، بالدَّم، نَفْدِيك يا زعيم)!. لقد انْصَرَفَ «العَقْلُ العربــيُّ» في «زمن الجاهليّــة الأولى» إلى صِنَاعَــةِ الأَصْنام وعبادتِهــا، ومنْها ما كان من التَّمْــر فإذا جاعوا أكلوها، ولكنّه في رُمُوزِهِ المُعَاصِــرَةِ لا يرى غَضَاضَةً في أنْ تَلْتَهِمَ تلك الرُّمُوزُ عافيته ومُقَدَّرَاته ومُسْتقبل أجْياله، وهو يَقِفُ مُصَفِّقاً ومُنْشِداً وحَادِياً لحماقاتِها، ومُتَباكِياً عليها عند سُقُوطِهَا.

٣-٤-٢) دِيوان العرب: «حالةُ انْفِعَالِيّة»:

إنّ «الشِّعْــرَ» هو «دِيوانُ العرب»[٤٩]، فوجد الوَاقِــعُ العربيّ في «الكلمة» سِلاحَه، وفي «الخيــال» ساحتَه، ليكون «الوجود الثّقافيّ» المُهَيْمِنُ عِبارَةً عــن «حالةٍ انْفِعَالِيّةٍ» تَسْتَوْعِبُ

كُلَّ المُتناقِضــات، وتُحَقِّقُ كُلَّ المُتطلَّبــات؛ فهَيْمَنَتْ الرَّغْبَةُ الجَارِفَــةُ في تَحْقيقِ الأحْلام بمُجَــرَّدِ التّمنّي، وتَشْييدِ صُرُوحِ الإنْجازِ على انْفِعَالات اللّحْظة، والانْطِلاقِ نحو المُسْتَقْبَل بخيــالٍ خِصْبٍ، وجِدالٍ مُحْتَدِمٍ، وأمانيّ عِرَاضٍ، في اعْتِقَادٍ وَاهِمٍ بأنّ ذلك يُغْنِي عن آلامِ التّخْطيــط، ومَخَاضِ التّمْحيص، وضُرُوبِ المُسَاءَلَة، وأَرَقِ المُتَابعَة. وأمّا الأَسْوأُ من ذلك كُلِّــه فهو أنّ «الفِكْر» ذاته أَصْبَحَ خَالياً من المعاييــر المُنْضَبِطَة؛ لأنّ «الشِّعْرَ» هو النَّمُوذَجُ الأَسَاسُ الذي تُقَاسُ عليه الأشْياء، وكما يقول عبد الله الغذّامي: (ومن دَاخِلِ هذا الفَرَاغ، الــذي أهمّ سِمَاتِــه اللافَاعِليّة واللاعَقْلانيّــة، يَتَسَلَّلُ للثّقافة سَادَةٌ مــن الأشْبَاحِ الثّقافيّة يَحْتَلّون الفضاء الخياليّ والمجازيّ للأُمّة ويَصْنعون نماذجنا العُلْيا، دون أنْ نُدْرِكَ زيفها واهْتراءهــا)[٤٩]. وهكذا أَصْبَحَتْ «صِنَاعَةُ الكلام» هي المَطْلَــب والمُبْتغى، وهي المُنْجِد والمُنْقِــذ، وهــي المَانِحَة للوَجَاهَة والثَّرَاء، وهي الطّريق إلى قُلُــوب أصْحَابِ القرار، وهي المَنْفَذ إلى وِجْدان العامّة، وليأتِ بعد ذلك الطُّوفان!.

ولأنّ «اللّغة» ليستْ فقط وسيلة تَخَاطُبٍ وتَوَاصُلٍ بين النّاس، ولكنّها- أيضاً - «وِعَاءُ الفِكْر»، وهي النّظامُ الأساسُ الذي يَسْتخدمه الإنْسان في التّنْظير والتّحْليل والاسْتنباط، فــإنّ ابْتعاد «المَلَكَة اللّغويّة» عن ضَوابطِ «المَلَكَــة العَقْليّة»، وتَمَرُّدِ «الكلمة» على الشُّرُوطِ العمليّــة والمُتطلَّبات الوَاقِعيّة، أَدَّيَا - بالضّرورة - إلى سُوء تَقْديرٍ في «المُقَدِّمَات»، وخَلَلٍ فَادِحٍ في «الاسْتِعْدَادَات»، وكَوارِث فــي «النَّتَائِج» على مُخْتلف الأصْعِدَة[٥٠]. كُلُّ طُرُوحَاتِنَا عن «الثّقافة» وهُمُومِهَا وغاياتِها لا تتجاوزُ تلك الاهْتمامات التّقْليديّة في مجالات السِّياسة ومُنَاوَرَاتهــا، والأدب وصُنُوفه، والفَنّ وتفرُّعاته، وتَنْحَصِرُ فــي إنْشائيّاتٍ ومُدَاوَلاتٍ تَلْتَفُّ حــول ذاتها، وإنْ حــاول بعْضُها أنْ يَتَدَثَّــرَ بمُصْطلحاتٍ حديثةٍ، ولكن شيئاً مــا لم يَتَغَيَّرْ؛ فـ«الثّقافــة العربيّــة» - في مَضْمُونِهَــا العامّ وأُطُرِهَــا السّائِدَة - بَقِيَــتْ مُحَاصَرَةً تُراوحُ مكانهــا بشَكْلِهَا «الاجْتِــراريّ» بمَنْأًى عن مُشْكلاتِ «المُجْتمع الحديــث» وقضاياه التّنْمَويّة وتحدّياتِــه المَعْرفيّــة. وأمّا المتاهات التــي دَلَفَتْ إليهــا «الثّقافة العربيّة» فقــد أَصْبَحَتْ كـ«متاهــة الفئــران» حيث تَلُــفُّ وتَدُورُ حول نفْسهــا لتعود - بعد جُهْدٍ جهيــدٍ - إلى «نُقْطَةِ البِدايــة». تلك الحقيقة الشّاخِصَة للعِيــان يُؤَكِّدُهَا محمد عابد الجابريّ فيقول: (التّاريخ

الثّقافيّ العربيّ السّائد الآن هو في مُجْمَلِهِ مُجَرَّد اجْترارٍ وتَكْرارٍ وإعادة إنْتاج، بشَكْلٍ رديءٍ، للتّاريخ الثّقافيّ نفْسه الذي كتبه أجدادنا تحت ضَغْطِ صِراعات العُصُور التي عاشوا فيها وفي حُدُودِ الإمْكانات العِلْميّة والمَنْهَجيّة التي كانتْ مُتَوَافِرَةً عندهم)[١].

وهكذا بوَقْفَةٍ صريحةٍ مع الذّات، ونحن نُحَلِّلُ أوضاعَ تَعْليمنا وإعْلامنا وفِكْرنا وثقافتنا، نَجِدُ أنّنا في حَاجَةٍ إلى جُهُودٍ جبّارةٍ تَتَوَاءَمُ مع زمنِها، وتَسْتَوْعِبُ تحدّياته، لتَصْبِغَ «الكلمة العربيّة» بلَونٍ حيويٍّ مُؤَثِّرٍ يَحْمِلُ نَبْضَ عَصْرِه، ويُواجِهُ إشْكالاته، ويَتَعَلَّمُ مُفْرَدَاتِه، ويتفاعَلُ مع مُصْطلحاتِه. ومن الوَاضِحِ أنّنا لم نَصِلْ بعْد إلى تلك «النُّقْطَة الحَرِجَة» التي تُؤَهِّلُنَا لاسْتِيعابِ حقيقة «الألْفيّة الثّالثة» وتحدّياتها، ولم نَقْتَنِعْ بعْد بأنّ الاحْتِفَاءَ بـ«الأدب» ليس هو الاحْتِفَاء بـ«الثّقافة»، ولكنّه احْتِفَاءٌ بجُزْءٍ من «الثّقافة المُعَاصِرَة»، وهو - دون شَكٍّ - ليس الجُزْءَ الأهَمَّ في عَصْرِ «انْفِجَار المَعْلُومَات».

٣-٤-٣) طبيعة «الأَزْمَةِ الثّقافيّة»:

تَتَجَلَّى طبيعةُ «الأَزْمَةِ الثّقافيّةِ» - في المُجْتمعات العربيّة - في أنّها لا زالتْ تعيشُ هَاجِسَ الماضي المُهَيْمِن بشِعْرِهِ ونَثْرِهِ وسَجْعِهِ ومُسَامَرَاتِه، ولم تُدْرِكْ بعد أنّه قد آن الأوان لفَهْمِ ما يدورُ حولها من تحوُّلاتٍ كُبْرى، وتَشْخيصِ ما يُؤَثِّرُ في مُجْتمعاتِها من قُوىً مُعَاصِرَةٍ، واسْتيعابِ ما يتصدَّى لأجْيالِها من تحدّياتٍ مَعْرِفيّةٍ؛ ومن ثمّ يَنْبَغِي عليها أنْ تَسْعَى - بجِدِّيّةٍ - إلى إعادةِ صِياغَةِ الأولويّات، ومُرَاجَعَةِ الطُّرُوحات، وتَحْليلِ الأنْساق؛ لتتمكَّنَ من بَلْوَرَةِ «الآليّات» القادِرَةِ على «تَغْيير الثّقافة»، والدَّفْعِ بها إلى فضاءاتٍ حيويّةٍ تَتَكَيَّفُ مع «مُقْتضيات العَصْر»، وتَتَوَاءَمُ مع «شُرُوطِ مُجْتمع المَعْرِفَة»، وتَسْتَوعِبُ «هُمُومَ التّنْمية». وأمّا زكي نجيب محمود[٣٨]، فإنّه يَذْهَبُ إلى أبْعد من ذلك حيث يَصِفُ «الحياة الثّقافيّة العربيّة» بأنّ: (لها ظَاهِرٌ يُخْفِي وراءه ضَحَالَةً فِكْريّةً، وكِدْتُ أقول إنّه يُخْفِي وراءه جَهَالَةً فَاضِحَة)، ويُبَلْوِرُ زكي نجيب محمود تلك الرُّؤية فيُضيف: (جَهَالَةٌ بماذا؟ قد تَسْألني، فأُجيبك بأنّها جَهَالَةٌ بمُعْظَم مُقَوِّمَاتِ «المُثقَّف الصَّحيح»، فهي حياةٌ تُوشِكُ أنْ تَخْلُوَ من الإلْمَام بأهمّ القضايا الفِكْريّة التي يَطْرَحُهَا عَصْرُنَا على أبنائه، كما تُوشِكُ

أنْ تَخْلُـوَ تماماً من مَعْرِفـةِ الأرْكان الأساسيّة التي يَتَكـوَّنُ منْها تُراثُنا، ابْتـداءً من اللّغةِ ومُفْرداتِهـا وطرائِـق تَرْكيبها، وصُعُوداً إلـى الاتّجاهاتِ الفِكْريـة الرّئيسيّة التي شغل بها أسْلافُنـا، فـإذا كان «المُثقّفُ» اليوم، لا هو يُشَارِكُ عَصْرَه، ولا هـو يُلِمُّ بتاريخِه الفِكْريّ، فماذا يكون عنده بعد ذلك؟).

إنّ مُجَـرَّدَ طَـرْحِ فِكْرة «المُواءَمَة» بين «الثّقافة العربيّة» التـي يُهَيْمِنُ عليها «التَّوجُّهُ الأدبـيّ»، وبين مُتطلَّبات العَصْر وتحدّيات «الألْفيّة الثّالثـة»، يَدْفَعُ بنا إلى فضاءاتٍ رَحْبَةٍ ذات امْتداداتٍ شاسِعَةٍ، ويَتَعَدَّى جُزْئيّاتٍ هنا أو هناك، ليتطلَّبَ الغَوْصَ في تفاصيل عديدةٍ تَشْمَـلُ عناصِر اجْتماعيّةً ووِجْدانيّـةً وفِكْريّةً وسُلُوكيّةً وتُراثيّة، وليَدْفَـعَ نحو نَظْرَةٍ شَامِلَةٍ تُحَرِّضُ علـى تَأْسيسِ «التّجَانُسِ الثّقافيّ» بين «المُجْتمـع» بمُخْتلف فئاته، وبين «العَصْرِ» بأنْمَاطِهِ الجديدة وثَوْرَاتِهِ العِلْميّة، وليَضَعَ كُلَّ ذلك على مِحَكِّ وَاقِعِ الأُمّة في ظِلِّ تحدّياتِ عَصْرِهَـا، ومُوَاصَفَـاتِ زمانِها، وتَـرَدِّي حالِها. ولا يَكْفِي في هذا الإطـار أنْ نَرْضَى فقط بتَحْليـلِ زكي نجيب محمود لوَاقِعِ «الثّقافة العربيّة» الذي يَحْمِلُ الكثير من الحقيقة، حيث يـرى أنّ الفَشَلَ في حَلِّ المُشْكلات يَرْجِـعُ إلى انْعِدام التّجَاوُبِ وغِيَابِ التّكامُلِ بين جَانِبَيّ الحيـاة الثّقافيّة: (جَانِب الأدب، وجَانِب الفِكْر)، ويُؤَكِّـدُ أنّ التّوازُنَ بين الكفّتَيْن مَعْدُوم: (فبينمـا الأدب عندنـا قد اضْطَلَعَ بكثيـرٍ جِدّاً ممّا يُـرادُ لـلأدب أنْ يُؤَدِّيه، نرى الفِكْرَ في حالـةٍ من القُصُـور تُشْبِهُ العَجْزَ لا يُقَدِّمُ لنا إلاّ قليلاً ممّـا يُعِينُنَا على مُواجَهَةِ المُشْكلات التي أثارها الأدب)[٢٠].

لقد تَسَاءَلْتُ[٥٦] – في مُحاولةٍ للإمْسِاكِ بنُقْطَةِ البدْء – عن المَسْؤول عن «مُسَلْسَلِ التَّـرَدّي» في تفاعُـلات «الكلمة العربيّـة»، وانْتَصَبَتْ أمامـي عِدّةُ أسْئلـةٍ منْها: (هل هي مُمَارَسَـاتُ السُّلْطَةِ الطّاغِية على مدى قُـرُونٍ التي فَرَضَتْ على «العَقْلِ العربيّ» أنْ يَحْتَمِيَ وراء كلماتٍ فَضْفَاضَةٍ لا تَحْمِلُ عُمْقاً فِكْريّاً أو دَلالَةً عِلْميّة؟). ومنْها: (تُرى هل كان فُقْدَانُ «الإنْسـان العربيّ» لحُقُوقِهِ في ظِلِّ أشْكالِ الاسْتِبْدَادِ وعُصُورِ التَّخَلُّفِ سبباً طبيعيّاً لضياعِ «حُقُـوقِ الكلمة» ففَقَدَتْ معناها عندما تَبَعْثَرَتْ «حُقُـوقُ الإنْسان العربيّ» لأنّ «الكلمة» هي «فِكْـرُ الإنْسـان»؛ ولذا فإنْ فُقْـدان احْترامه لنفْسه جعلـه يَفْقِدُ بالتّالـي احْترامه لفِكْره،

وكانتْ الضَّحيّةُ هي «الكلمة» التي نَضَعُ عليها اليوم كُلّ الأوزار؟). ومنْها: (هل المَسْؤولُ هو الخيالُ الجَامِحُ الذي تَتَمَيَّزُ به «العَاطِفَةُ العربيّةُ» الجَيّاشَةُ وهي تَنْطلقُ برُعُونَةِ الرّياحِ وهَوجَائيّةِ الرِّمالِ في آفاقٍ وَاسِعَةٍ كاتِّسَاعِ الصَّحْرَاءِ وصَفَاءِ السَّمَاء؟، أمْ هل هو الانْغِمَاسُ في «ثقافة اللفْظ»، التي أَصْبَحَتْ مُمَيِّزَةً لكُلِّ شيءٍ، وأثيرةً في كُلِّ مقام، ليَنْتُجَ عن ذلك ابْتعادٌ عن «ثقافة الفِعْل» التي تَحْتَاجُ إلى جُهْدٍ وصَبْرٍ ومُثابَرة؟). ومنْها: (هل المَسْؤولُ هو «الثّقافةُ العربيّةُ» نفْسها التي أَلِفَتْ «الانْفِصَامَ»، وتناغمتْ مع «التَّنَاقُضِ»، وقَبِلَتْ «الازْدواجِيّة»، فأَصْبَحَتْ قِيَمُهَا ومفاهيمُها ومعاييرُها على نقيضٍ وَاضِحٍ مع مُمَارَسَاتِهَا وسُلُوكيّاتِهَا وتَأْويّلاتِهَا وأنْمَاطِ حياتِها؟). ومنْها: (هل تداعياتُ «الغُرْبَةِ الزَّمنيّة» - التي تعيشُها المُجْتمعات العربيّة - هي التي طَوَّرَتْ لديها المهارة الفريدة في أنْ تعيش دَاخِلَ الزَّمن وخَارِجَهُ في آنٍ وَاحِدٍ؛ فهي تعيشُ دَاخِلَهُ اسْتِهْلاكاً وقُشُوراً، وتعيشُ خَارِجَهُ قِيَماً وإنْتاجاً ومَعْرفةً؟). كُلُّ تلك أسْئلةٌ جديرةٌ بالتّمْحيص عندما نتحدَّثُ عن «الكلمة» وآثارها على «فِكْرِ العرب» وحياتِهم، وهذا يقودُنا بالتّالي إلى التّمَعُّنِ في أوضاع أصْحابِها والمُتعامِلين معها - في «الأَلْفيّة الثّالثة» - من بني يَعْرُب.

أمّا الجَانِبُ الآخَرُ من مَأْزِقِ «الثّقافة العربيّة» فيتمثّلُ في أَزْمَةٍ مع الوَاقِعِ الذي هَيْمَنَتْ عليه «العلوم الحديثة»، وتَوَلَّتْ الزِّمَامَ في تَشْكيلِ حياة النّاس والتّأْثيرِ في تفاعُلاتِهم؛ فـ«ثقافة البدويّ البسيط» الذي انْطَلَقَ، بنَثْرِهِ وشِعْرِهِ وسَجْعِه، يُعالِجُ هُمُوماً بدائيّة في صَحْراء شَاسِعَةٍ، ضئيلة المَوارِد وشحيحة العطاء، لا يجوزُ أنْ تكون مُتَطابِقَةً ومُتَماثِلَةً مع «ثقافة العربيّ المُعَاصِر» الذي تتجاذبه حياةٌ مُعَقّدَة التّرْكيب، وهُمُومٌ مُتَعَدِّدَة الجَوانِب، وطُوفَانٌ غَامِرٌ من هُجُومِ «العَوْلَمَة» و«ثَوْرَةِ المَعْلومات» وتسارُعِ مُتَغَيِّراتِ «مُجْتمع المَعْرِفَة».

المُشْكلةُ هي أنّ قِوام «الثّقافة العربيّة» كان عَصِيّاً - وما زال - على «التَّغْيير»؛ فحتّى عندما تَطَوّرَتْ الحضارة العربيّة الإسلاميّة، وتفاعلتْ مع غيرها من حضاراتٍ، فإنّ «الثّقافة العربيّة» حَرَصَتْ على الحِفَاظِ على أشْكالِها الخَطَابيّة ومُنْطلقاتِها الأدبيّة وأُطُرِهَا اللّفْظيّة، ووجدتْ في بعض الثّقافات السّابقة لها ما يَدْعَمُ تلك النّزْعَةَ النّظريّة

والمَيْـلَ التِّلْقائيّ نحو التَّرَفُّعِ عـن «التَّجْريب» والاحْتِكَامِ إليه، ويُؤَكِّدُ عبد الإله بلقزيز هذه الرُّؤيـة فيقـول: (لم يَفْعَـلْ الوَعْي العربـيّ - الإسلاميّ الوسيـط أكْثر من تَـرْدَادِ الفِكْرَةِ الإغريقيّة القديمة عن المَعْرفة، والتي قامتْ على تَبْجيلِ النّظَر التّجْريديّ والتّأمُّل، وعَدِّهِ الشّـكْل الوحيد لتَحْصيلِ الحقيقة وإدْرَاكِ الجوهر، في مُقابِل الحَطِّ من الحِسّ والتّجْربة وما يَحْصُلُ عنهما من «معارِف»)[١٨]. ولعلّه من المُناسِب ونحن نَقِفُ أمام طبيعة «الثّقافة العربيّة»، ونَرْصُدُ إدْمَانَهَا الكلاميّ، أنْ نتأمَّلَ ما قاله زكي نجيب محمود منْذ عُقُودٍ: (إذا كان لا بُـدَّ من كلامٍ، فليكنْ كلاماً من الضَّـرْبِ الذي يُضِيء طريق العمل، فكُلُّ كلامٍ يَبْدَأُ باللّفْـظِ ويَنْتَهِـي باللَفْـظِ ثم لا شـيء بعْد ذلك، هو هُرَاءٌ، بَـلْ شَرٌّ من الهُـرَاء لأنّ الهُرَاءَ الصّريـحَ يَصُمُّ النّاس دونـه آذانهم فلا يَضُرّ، أمّا هذا الهُرَاءُ المُتَسَتِّرُ وراء طِلاءٍ خَادِعٍ، فهو الذي قد نَفْتَحُ له آذاننا في غير جَدْوى)[٢٠].

يَنْبَغِـي - إذاً - لـ «أَهْل الثّقافة» أنْ يُواجِهُوا هذه الحقيقة المُرَّة فقد يَرْصُدُ بعضهم في دِراساتٍ تَنْمَويّةٍ - هنا وهناك - تغيُّراتٍ ثقافيّةً واجْتماعيّةً، ولكن التّأمُّل الأعْمق سيجدُ أنّ «الثّقافـة العربيّة» لـم تتغيَّرْ في جوهرها؛ فهي في إطارِها العـامّ «ثقافةٌ اسْتِهْلاكِيّةٌ»، وفـي الماضي القريـب والبعيد كانتْ المُتطلَّبـات مَحْدُودَةً والاحْتياجـات قليلة، فاقْتَصَرَ الاسْتِهْـلاكُ من مُنْتَجَاتِ الآخَرين على الجَانِبِ المـادّي في حُدُودِ ما تَسْمَحُ به الإمْكاناتُ مـن اسْتيـرادٍ، وتَمَحْوَرَ الاسْتِهْلاكُ الفِكْـريُّ على اجْتِرَارِ عطاءاتِ الأسْـلاف. وأمّا اليوم في ظِـلِّ «الانْفِجَارِ المَعْلُوماتيّ» و«ثَـوْرَةِ الاتّصَال» فقد تَنَوَّعَ الاسْتِهْـلاكُ وتَشَعَّبَ ليُلامِسَ مُخْتلف الجَوانِب علـى امْتِدادِ الكُرَةِ الأرْضيّة، فأَصْبَحَـتْ «المُجْتمعات العربيّة» لا تَكْتَفي فقـط باسْتيرادِ «المُنْتَجَـاتِ المادِّيّة» بأنْواعِها من علومٍ وتقْنيـةٍ وصِناعةٍ وأدواتٍ، ولكنّها راحـتْ أيضاً تَسْتَوْرِدُ «المُنْتَجَاتِ الفِكْريّة» بأشْكالِهـا من مُصْطلحاتٍ ومفاهيم وفلْسفات حيـاةٍ، وهي في المُقابل لا تُنْتِجُ شيئـاً يُذْكَرُ في كُلِّ تلك الأصْعِدَة الحيويّة؛ وهكذا خَضَعَتْ هذه المُجْتمعاتُ لقانون «الفيزياء» الذي يُحَتِّمُ هُبُوبَ الزَّوابِع والرِّياح من مناطِق «الضَّغْطِ العَالِي» إلى مناطِق «الضَّغْطِ المُنْخَفِض».

٣-٥) مَدْخَلٌ إلى «البُعْد الزَّمْكانيّ»:

لا غرابة - في ضوء ما سَبَقَ - أنْ تَعْتَورَ «الثّقافة العربيّة» - في رأْيي[٥٧] - حالاتٌ من التَّوتُّرِ والتَّنَاقُضَاتِ في الحيــاة المُعاصِرَة تحْت وَطْأَةِ «البُعْدِ الزَّمْكانيّ» المُرْتَبِطِ بتداخُلِ «الزّمان» و«المكان» وتَأْثيراتِهما المُتبادَلة؛ فتَهْتَزُّ المعاييرُ بفِعْلِ المُتَغَيِّرَاتِ المُتسارِعة في فتراتٍ من «الزَّمان» مُتلاحِقَة، وتَضْطَرِبُ السُّلُوكيّاتُ تحْت تَأْثير عَامِل «المكان» واخْتِزَالِ المسافات بين مُخْتلف المُجْتمعات الإنْسانيّة، فإذا العَالَمُ قريَةٌ صغيرةٌ تَمُوجُ بالتّفاعُلاتِ والتّدافُعات.

أقــول: حَدِّثوني عن «الثّقافة» التي تُريدون، وعن أنْمَاطِهَا التي عليها تَشْتَغِلُون، وعن رُؤاها التــي إليها تَطْمَحُون، أُحَدِّثْكُم عن «المُسْتقبَل» الذي إليــه ستؤولون؛ فإذا اسْتَقَرّتْ الأَعْيُــنُ على نُقْطَةٍ فــي «الزّمان» ثَابِتَةٍ، وتَعَلَّقَــتْ مُعْطياتُ الحياة بحــالات التّمنّي وتِبْيان إنْجازات الأجْداد، وأَصْبَحَ «المكانُ» أسير زمانٍ مضى وانْقضى، فإنّه - بالضّرورة - سيكون مَــلاذاً للأوهام، ومَرْتَعَاً للإحْباطات، ومُنْطَلَقَاً لتَكْـرَارِ الفشل. وأمّا إذا أَهْمَلَتْ «الثّقافةُ» شُجُــونَ «المكان» وأبْعَادَ ساحاتِه وثَوابتَ تضاريسه، وهُرِعَتْ تَسْتَجْدِي من كُلِّ مكانٍ قِيَماً، وتَسْتَعِيــرُ من كُلّ رُكْــنٍ مُصْطلحاتٍ، وتَنْكَبُّ على كُلِّ جُغْرافيّــةٍ بعيدةٍ عنها لتتسوَّلَ عنْدها مُقَوِّمَاتِ الفِكْرِ وضَوابِط الحياة، فإنّها تكون بذلك قد أضاعتْ دَلالَةَ «المكان»، ودخلتْ في متاهــة «الزَّمان». وذلك هو حال بعض المَحْسُوبين علــى الثّقافة والفِكْر في «المُجْتمعات العربيّــة»؛ فهُمْ لم يُدْرِكُوا أهْميّــة تفاعُلِ «الزَّمان» و«المكان»، ولكنّهم انْطلقوا في متاهات «الزَّمــان» في عَالَم «العَوْلَمَة»، يَسْتَعِيرُون من الآخَرين تجاربَهم، ويُكَرِّسُون مُصْطلحاتِهم التــي تَكَثَّفَتْ عند أَهْلِهَا على مدى حِقَبٍ طويلةٍ من المُعَانَاةِ والمُكابَدَةِ والخطأ والصَّواب؛ وهُــمْ - أيضــاً - نســوا أنّ لـ«الجُغْرافيا» ضَوابِطَهَا، وهــي بدَوْرِهَا تَحْكُــمُ طبيعة ما يُمْكِنُ غَرْسُهُ في البيئة، وتُحَدِّدُ ما يكون ضَارّاً وسَامّاً ومُهْلِكَاً لأسْباب الحياة في تُرْبَتِهَا[٥٨].

ولا بُــدّ أنْ نَتَوَقَّفَ هنا لنَسْأَلَ بــكُلِّ تجرُّدٍ وموضوعيّة: (ما «رَدُّ الفِعْلِ الموضوعيّ» إذا تَعَرَّضَ الإنْسانُ لهَزّاتٍ مُتتاليةٍ من «نَقْلاتٍ نَوْعيّةٍ» كُبْرى في حياة البشر على مُسْتوىً غير

مَسْبُـوقٍ من قبْل فـي التّاريخ، وأَصْبَحَ خَاضِعـاً لمُتَغَيِّراتٍ مُتلاحِقةٍ وقفـزاتٍ مُتتاليةٍ على الأَصْعِدَةِ الحياتيّة والمعيشيّة والفِكْريّة والاجْتماعيّة؟ ألا يُوجِبُ مثل ذلك التّغيُّر الجِذْريّ وقفـاتٍ جَادّةً ونظراتٍ صَارِمَةً أمام طبيعة «الثّقافة» السّائِدَة، ومدى مُلاءَمَتِهَا للتّغيُّرات، وتجاوبِهـا لمُقْتضياتِ العَصْر، وقُدْرَتِهَا على «الاسْتِجَابَـة» لطبيعة «التَّحَدِّيات» المُتفاقِمَة نَوْعَاً وكَمَّاً؟).

إنّ الهَـمّ الرّئيسـ لهذا الكِتاب هـو مُحاولةُ سَبْر طبيعة ما يَنْبَغِـي أنْ يكون عليه «رَدّ الفِعْل الموضوعيّ» ومُقَوِّماته اللازِمة إزاء التّحوُّلات الكُبْرى التي تَشْهَدُهَا الحياة البشريّة فـي «الألْفيّة الثّالثـة»، آخِذاً في الاعْتبار جُمْلَـةً من العناصِر، مِثْل: تجـارِب «المُجْتمعات العربيّة» على مدى قَرْنَيْنِ من مُحاولاتِ تَأْسيسِ «النّهْضَة»، وطبيعة التّحدّيات المُعاصِرَة، ونَهْـجِ «الأُمم المُتَقَدِّمَة» وتجارِبِها، ومُؤَشِّرَاتِ «المُسْتقبَل» وضُغُوطِه، وضرورةِ السَّعي إلى النَّفَـاذِ من المَـأْزِقِ الذي أَسَرَ «الثّقافـة العربيّة» وحاصرها وكَبَّـلَ حركتها. وعلى الرّغْم مـن كُلِّ المُتَغَيِّـرات والتّحدّيـات، فإنّنا، وفْق وَصْـفِ زكي نجيب محمود،: (مـا نزال إلى يومنـا هذا نَنْسِجُ حياتنا على المِنْوَالِ القديم نفْسه؛ فصُدُورٌ تَضْطَرِمُ بمشَاعِرِ الغَضَبِ أو الرِّضَـا، وألْسِنَةٌ تَنْطَلِقُ بالتّعْبيرِ عمّا في الصُّدُور، تَعْبيراً بالشِّعْرِ حيناً وبالنَّثْرِ أحْياناً، ثم لا شيء بعد ذلك، فمحطّةُ الوصولِ عنْدنا هي أنْ يكون مَكْنُونُ الفُؤاد قد أُفْرِغَ في عِباراتٍ لُغويّـةٍ، وذلك لأنّنا نظنّ فيما يَبْدُو - جَرْيـاً مع نموذج الشّاعِرِ القديم - أنّه ما دام القَلْبُ قد انْفَعَلَ واللّسَانُ قد نَطَقَ، فقد أَدَّيْنَا كُلَّ ما يُمْكِنُ أنْ يُؤَدَّى)[٢٠].

٣-٥-١) «البُعْدُ الزّمْكَانيّ» و«إشْكَالِيّة الثّقافَتَيْن» في الوَاقِع العربيّ:

إنّ تداخُـلاتِ «البُعْـدِ الزّمْكَانـيّ» المُتباينة ومُقَوِّمَاتـهِ المُتَشَابِكَةِ قـادتْ «التَّكْوين الثّقافـيّ العربيّ» إلـى «أَزْمَةٍ فِكْريّـةٍ» تَنْعَكِسُ على الأدبيّـاتِ السّائِدَةِ فـي «الفِكْرِ العربيّ المُعاصِـر» فـي مُصْطلحاتٍ مُتَنَوِّعَـةٍ مِثْل «الغَزْو الثّقافـيّ»، و«ثُنَائِيّة التُّـرَاث والحَداثَة»، و«أَزْمَـة العَقْل العربيّ»، ممّا يَجْعَلُ التّحـدّي القَائِمَ هو تَأْسيسُ «تَكْوينٍ ثقافيٍّ» يُحَدِّدُ مَوْقِعَ «المُجْتمعـات العربيّـة» على خريطة الكَوْنِ فـي «زمانٍ» مُعَيَّنٍ و«مـكانٍ» مُحَدَّد. ولكن لعلّه

مـن المُحَيِّرِ أنْ نجد أنّ «الثّقافة العربيّة» – بعد قَرْنَيْـنِ من الإخْفاقات الفِكْريّة والهزائِم التّنْمَويّـة – تُواصِـلُ انْسياقَهَا في الجَدَليّاتِ المُبْهَمَةِ والعُمُوميّـاتِ الغَائِمَةِ ولا تَشْغَلُهَا تلك القضايـا الكُبْرى مثـل «قضيّة التّنْمية» وشُرُوطهـا، و«العَوْلَمَة» وتحدّياتهـا، و«المُسْتَقْبَل» ومُتطلَّباتـه؛ ولا تُمْعِـنُ النَّظَرَ في وسائِل التّفاعُلِ والتّجَاوُبِ مـع «مَنْظُومَةِ العلوم والتّقْنية» التـي هي مِحْـوَرُ حياة العَصْـرِ وإنْجازاتـه؛ ولا تَفْقَهُ أنّ لتلـك «المَنْظُومَـة» أَوْجُهاً أُخْرى عـدا «الوَجْـهِ الاسْتِهْلاكيّ» الذي أبْلَتْ فيه الأُمّة أحْسن البـلاء، وأهْمَلَتْ الأبْعَادَ الإنْتاجيّة والثّقافيّة والتّنْمَوية لهذه «المَنْظُومَةِ الحيويّة».

وهكـذا تُهَيْمِنُ على الوَاقِعِ الثّقافـيّ العربيّ «إشْكَالِيّةُ الثّقافَتَيْـن» بشَكْلٍ حَادٍّ، وليس ذلـك بمُسْتَغْـرَبٍ، فقـد رأينا فـي الفَصْل الثّاني من هـذا الكِتاب كيـف شَخَّصَ تشارلز سنو[٣٢] تلـك «الإشْكَالِيّة» في «المُجْتمعات الغَرْبيّة»؛ وهي مُجْتمعـاتٌ نَبَتَتْ فيها «الحركةُ العِلْميّة» بشَكْلٍ طبيعيٍّ، وانْبَثَقَتْ «الثَّوْرَةُ العِلْميّة» عن عُقُولِ رِجَالِهَا وجُهُودِهِم؛ فهي مُتَّصِلَةٌ بحَاضِرِهـم وماضيهم اتّصالاً وثيقاً وطبيعيّاً. ولكن على الرّغْم من طبيعة النُّموّ المُتَدَرِّج لـ«الحركة العِلْميّة – التّقنيّة» في نسيج «الفِكْر الغَرْبيّ» وأنْمَاطِ حياةِ «المُجْتمعات الغَرْبيّة» إلاّ أنّ تشارلز سنو تَعَرَّفَ على مُشْكِلَةِ «هَيْمَنَةِ الثّقافة التّقْليديّة» التي هي – في الأساس – «ثقافـةٌ أدبيّةٌ»، ووجد أنّ الفَجْوَةَ بين «الثّقافَتَيْن» كانتْ بَارِزَةً، وأنّها تَحْتَاجُ إلى اسْتقصاءٍ فِكْـريٍّ، ومُعالَجَةٍ مَنْهَجيّةٍ، وإجْراءاتٍ عمليّة. لقد وَصَفَ تشارلز سنو[٣٣] – في خمسينات القَـرْن الماضي – حـال «الثقافة الأدبيّة» التّقْليديّة السّائِـدَة – آنذاك – في «المُجْتمعات الغَرْبيّـة» بقَولـه: (مـا زال أهْلُهَا يُحِبُّون التّظَاهُـرَ بأنّها كُلُّ «الثّقافة» كما لـو أنّ «النِّظَام الطَّبيعـيّ» غير موجودٍ، وكما لو أنّ تَحَرِّي نِظَام الطّبيعـة ليس له أهميّة في قِيمته الذّاتيّة أو في نتائِجه، وكما لو أنّ البِنَاءَ العِلْميّ للعَالَم الطّبيعيّ لا يُمَثِّلُ في عُمْقِه الفِكْريّ وتَعْقيدِه وصِياغتِه أجْمل وأشدّ الأعْمال الجماعيّة للعَقْلِ البشريّ إبْهَاراً)، وفي السِّياق نفسه يَصِفُ تشارلـز سنو الأوضـاعَ السّائِدَةَ بين المُثقّفين في «المُجْتمعـات الغَرْبيّة» فيقول: (وهكذا يتسامـقُ بِنَـاءُ الفيزيـاء الحديثة، ولكن الرُّؤية التـي يَمْلِكُهَا مُعْظَمُ أشـدّ النّاس ذكاءً في العَالَـمِ الغَرْبيّ حوله مُمَاثِلَةٌ تماماً للرُّؤية التـي كان يَمْلِكُهَا أسْلافُهُم في العَصْرِ الحَجَرِيّ

الحديث). ولو أنّنا أردنا وَصْفَ حال «الثّقافة العربيّة» اليوم لما وَجَدْنَا أفْضل من تلك الجُمَلِ التي وَصَفَ بها تشارلز سنو «المُجْتمعات الغَرْبيّة» في خمسينات القَرْن الماضي. وأمّا زكي نجيب محمود فإنّه يَصِفُ ذلك «التَّغيُّرَ الجِذْرِيّ» الذي طرأ على «الفِكْرِ البشريّ» في القُرُون الثّلاثة الأخيرة بقوله: (كانتْ «الكلمةُ» مَدَارَ الحياة فيما مضى، فأَصْبَحَتْ «الآلةُ» هي المَدَار، وبعِبارةٍ يَسْهُلُ على القُرَّاء حِفْظُهَا نقول: «إنّ النّقْلَةَ الحضاريّة هي من مَرْحَلَةِ الكلامولوجيا إلى مَرْحَلَةِ التّكنولوجيا»؛ و«الكلامولوجيا» هي الكلامُ بكُلِّ ما يَتَعَلَّقُ به من قَواعِد ومقاييس، و«التِّكنولوجيا» هي أَجْهِزَةُ الصُّنْع بكُلِّ ما يَتَعَلَّقُ بها من علوم، وبالطّبع لم يَخْلُ عَصْرٌ من أجْهِزَةٍ وآلاتٍ، ولا يَخْلُو عَصْرُنَا من جَانِب الكلام، غير أنّ طابع العَصْر مُسْتَمَدٌّ من العُنْصُرِ المُوَجِّهِ لتيّار الحياة، ولقد كان هذا المُوَجِّهُ هو الكلمات في شَتّى صُورِهَا، وأَصْبَحَ مُوَجِّهُنَا اليوم هو الآلات وعلومها)[٢٠].

تلك هي حقيقةُ «التَّحَدِّي» الذي تتصدّى له مُخْتلف الثّقافات الإنْسانيّة في «الأَلْفيّة الثّالثة»، وتلك هي «مُعَادَلَةُ الحضارة المُعَاصِرَة» التي تَسْعَى مُخْتلف الأُمم إلى ضَبْطِهَا، ولا شَكّ أنّ الخَلَلَ البَيِّنَ في تلك التّرْكيبةِ المُعَقَّدَةِ لـ«مُعَادَلَةِ الحضارة» يَشْرَحُ - تِلقائيّاً - الوَاقِعَ الأليمَ الذي يَجْثِمُ على صَدْرِ «الثّقافة العربيّة» ليَحُولَ بينها وبين التّفاعُل مع مُقْتضياتِ «الزَّمان»، وشُرُوطِ «المكان»، وتحدّياتِ «الحاضِر»، ومُواصَفَاتِ «المُسْتَقْبَل»؛ وبالتّالي يَمْنَعُ أيَّ جُهُودٍ لتَغْيير ذلك الوَاقِع، أو تَعْديلِه؛ ليكون مُتَجَاوِباً مع احْتياجاتِ «المُجْتمعات العربيّة»، ومُتَنَاغِماً مع قضاياها التي تَزْدَادُ اسْتفحالاً واسْتشكالاً وتأزُّماً، بينما تَـزْدَادُ مُمَانَعَةُ ثقافتها لأيِّ مُحاولاتٍ تَهْتَمُّ باكْتِسَابِ خصائِص «عَصْر العَوْلَمَة»، ومُنْطلقات «مُجْتمع المَعْرِفَة».

إنّه من الوَاضِح - أيضاً - أنّ حال «مُثقّفي العَالَم العربيّ» لا يَشُطُّ كثيراً عن ذلك الوَاقِع الذي وَصَفَهُ تشارلز سنو في الخمسينات من القَرْن العشرين في أوروبا، بَلْ هو - في رأيي - أشدّ تَعْقيداً وأَسْوأ حالاً كما سنرى في سِياق هذا الكِتاب؛ ولكن الوَضْعَ في العَالَم العربيّ يَخْتَلِفُ - نَوْعاً ما - عن ما وَصَفَهُ تشارلز سنو فيما يَتَعَلَّقُ بعَدَاءِ «النُّخْبَةِ الأدبيّة» لـ«الحركة العِلْميّة»؛ فالمُثقّفون العرب - بشَكْلٍ عامٍّ - لا يُنَاصِبُون «التّقْنية»

العَدَاء، ولا يُحَارِبُون «الحركة العِلْميّة»، بَلْ أغْلبهم يَتَغَنَّى بها في كُلِّ مَحْفَلٍ، ويُنادي بها في كُلِّ مُناسَبةٍ، ولو كان ذلك من باب «إِبْرَاءِ الذِّمّة» ومُجارَاةِ «رُوح العَصْر» إلاّ أنّ ما تُعانيه «ثقافة المُجْتمعات العربيّة» من «أُمِّيّةٍ عِلْميّةٍ» يَجْعَلُهُم يَتَّخِذُون - في أحْسن الأحوال - مَوقِفاً سَلْبيّاً عَاجِزاً عن دَفْعِ الأُمُور في اتِّجَاهِ تفاعُلٍ حيويٍّ مع قضايا العَصْرِ وهُمُومه.

لقد بَقِيَتْ «الثّقافةُ العربيّةُ» أسيرةَ إرْثِهَا الأدبيّ، واللّغويّ، والفِقْهيّ، والوَعْظيّ، والسِّياسيّ؛ حتّى تلك الطُّرُوحات التي حاولتْ اسْتخدام مُصْطلحاتٍ حديثةٍ كانت تضطرُّ إلى الانْخِرَاطِ من جديدٍ في «البَوْتَقَةِ الاجْتِرَارِيّة» ذاتها لانْعِدَام «الأدوات المَعْرفيّة» القَادِرَةِ على التّعامُلِ مع «العَصْر» والتّفاعُلِ بحيويّة مع «التّحدّيات»؛ وبذلك ارْتَدَى القديمُ ثوباً جديداً، فبدا المَظْهَرُ مُخْتلفاً، وأمّا المَضْمُونُ فقد بَقِيَ على حاله الكسيح؛ عديمَ الفَاعِليّةِ ومُنْقَطِعَ الأنْفَاس. وهكذا برز على «السَّاحة الثَقافيّة العربيّة» من أَسْمَاهُمْ محمد عابد الجابريّ[٥٩] بـ«المُثقَّفين اللّقَطَاء»، وهم من يُمْكِنُ أنْ نُسَمِّيهم «تُجَّار المُصْطلحات» الذين تباروا في اسْتيراد مُصْطلحاتٍ من بِيئاتٍ ذات تجارب مُخْتلفةٍ، وتنافسوا على تَمْجيدها وتَقْديسِها، إمّا طمعاً في مَكْسَبٍ سريعٍ، أو تَوَقُّعاً لصِيتٍ هَشٍّ، أو جَهْلاً بأُصُولِهَا ومُسْتَنْبَتَاتِهَا، وحسبوا إنّ بإمْكانهم زِراعتها في تُرْبةٍ لا تَدْعَمُ خصائِصَهَا، وفي مُناخٍ لا يُوافِقُ مُكَوِّنَاتِهَا، وتوقَّعُوا أنّها ستُنْبِتُ زُهُوراً وثِماراً، ولكن - بطبيعة السُّنَنِ الكَوْنيّة - فإنّ ذلك لن يُحَقِّقَ أكْثر من حصاد الرّيح الذي لا يُنْتِجُ إلاّ فَوْضَى، ولا يُخَلِّفُ إلاّ خَسَارا.

وعلى مدى القَرْنَيْنِ الأخيرَيْن ممّا يُسَمَّى «عَصْر النّهْضَة» في العَالَمِ العربيّ كانتْ هناك جُهُودٌ مُتَعَدِّدَةٌ لتَجْديدِ «الثّقافة العربيّة»، وتَنْويعِ رَوافِدِهَا، وإضْفَاءِ مَلامِحِ عَصْريّةٍ عليها، ولكن الوَاقِع المُشَاهَد يُؤَكِّدُ أنّها جُهُودٌ بَاءَتْ بالفشل، وذلك بالرَّغْم من إسْهاماتٍ قَيِّمَةٍ لقَامَاتٍ فِكْريّةٍ، من أبْرزها مالك بن نبيّ وزكي نجيب محمود ومحمد عابد الجابريّ، تفاعلتْ - بعُمْقٍ وجِدِّيّةٍ وأصَالَةٍ - مع «الهَمِّ الثّقافيّ» في النِّصْفِ الأخير من القَرْنِ العشرين في مُحاولاتٍ لفَحْصِ «خريطة العَالَم الجديد»، وإجْرَاءِ عمليّات «نَقْدٍ ثقافيٍّ» تَهْتَمُّ بتَحْليلِ جَوانِب الوَهَن، وأسْبابِ فَشَلِ «الثّقافة العربيّة» في تَحْقيقِ «الاسْتِجَابَةِ الفَاعِلَةِ لـ«التَّحَدّي» الذي يُجَابِهُ مُجْتمعاتِها.

٣-٦) دون كيخوته و«الثّقافة العربيّة»:

لعلّـه مـن المُناسِب أنْ نَتوَقَّفَ هنا مـع زكي نجيب محمود في مُحاولاتـه لسَبْرِ أغْوَارِ «المُعْضِلَـة الثّقافيّـة» التي تَنْتَصِبُ أمام الأُمّة كعَائِقٍ رئيسٍ فـي طريق «التَّحوُّلاتِ النَّوْعيّة» اللّازِمَـةِ للّحَاقِ برَكْبِ العَصْر، ويرى زكي نجيب محمود[٢٠] في قِصَّةِ «دون كيخوته» (دون كيشـوت) تَعْبيراً عن الحَدِّ الفَاصِلِ بين عَصْرَيْن في أوروبا؛ «العُصُور الوسْطى» و«العَصْر الحديـث»، ويَتَلَمَّسُ فيهـا تَرْميزاً لجوهر «المُعْضِلَةِ الثّقافيّـة» القَائِمَةِ في «الفِكْرِ العربيّ». وقبـل أنْ نَنْطَلِـقَ إلى اسْتنتاجـات زكي نجيب محمود لا بُدَّ أنْ نَتَوَقَّـفَ - أوّلاً - أمام وَصْفِهِ لشَخْصِيّـة «دون كيخوته» حيث يقول: (هذا الفارِس الأُسْطوريّ الذي مَلأَتْهُ الأوهام، حتى لقـد امْتَشَقَ سيفـه، وأَدْرَعَ بدروعِه، وراح يُقاتِـلُ طواحين الهواء، ويُهاجِـمُ قُطْعَانَ الغَنَم، حَاسِبـاً إيّاها قِلاعـاً وجيوشاً). يَتَأَمَّلُ زكي نجيب محمود حـال دون كيخوته في مُحاولاتِه للمُلاءَمَـةِ بين ثقافتِه وبيـن وَاقِعِه فيقـول: (دون كيخوته قرأ قِـراءةً مُسْتَفيضَةً عن حياة الفُرْسـان كما كانتْ فـي العُصُور الوسْطى، وتَشَبَّعَ بما قرأ حتى اعْتَزَمَ أنْ يحْيا فَارِساً على مِنْهَاجِهِم، فلو كان دون كيخوته يعيشُ في قَلْبِ العُصُور الوسْطى مع سَائِر الفُرْسان عندئذٍ، وسلك كما سلكوا، لما كانتْ هناك مُفارَقَةٌ تُلْفِتُ النَّظَر، لكن تلك العُصُور كانتْ قد جاوزتْ نَهَارَهَـا وانْحدرتْ إلى غُرُوبِهَا، فإذا ما أراد إنْسانٌ ساعة الغُرُوبِ أنّ يَرُدَّ الزّمن إلى ساعة الظَّهيرة التي انْقَضَتْ وانْقَضَى أوانُها، كان ذلك هو العَبَثُ بعينه لأنّه يُحاولُ المُسْتحيل).

تَتَّضِـحُ أبْعَـادُ «الإشْكاليّة الثّقافيّـة» في «الفِكْـرِ العربيّ» في الصُّـورةِ الهزليّةِ التي يَصِفُهَـا زكـي نجيب محمود بقولـه: (كان دون كيخوته في سَعيه الوَاهِـم تَجْسيداً لتُرَاثٍ مَكْتُوبٍ، فأخذ يَلْتَمِسُ له في حياة الوَاقِعِ شبيهاً يُؤيِّدُهُ ويَحْميه، ولأَمْرٍ وَاضِح المَرْمى، جعله المُؤلِّـفُ رجلاً نحيلاً ضعيفاً، أَثْقَلَ جَسَدَهُ بدروعٍ لم تُخْلَقْ إلاّ لأجَسَادٍ قويّةٍ سليمةٍ، فازْدَادَ هُزَالُـهُ هُـزالاً وهو تحْت دروعِه الثّقَـال، ولأَمْرٍ وَاضِحٍ كذلك، جعلـه المُؤلِّفُ يَرْكَبُ حماراً عليـلاً، ويَحْسَـبُ أنّه يَعْتَلِي جواداً كجياد أسْلافِه من الفُرْسـان، فكانت كُلُّها رُمُوزاً مُكَثَّفَةً تَصْـرُخُ بالدّلالـةِ على أنّ أوان الفروسيّة قد فات ومات، ومن أراد إحْياءَهُ في غير عَصْرِه، كان كمن أراد أنْ يُخْرِجَ من المَاءِ شُعْلَةَ نار).

٣-٦) دون كيخوته و«الثّقافة العربيّة»:

لعلّه من المُناسِب أنْ نَتوَقَّفَ هنا مع زكي نجيب محمود في مُحاولاتِه لسَبْرِ أغْوَارِ «المُعْضِلَة الثّقافيّة» التي تَنْتَصِبُ أمام الأُمّة كعَائِقٍ رئيسٍ في طريق «التَّحوُّلاتِ النَّوْعيّة» اللّازِمَةِ للّحَاقِ بِرَكْبِ العَصْر، ويرى زكي نجيب محمود[٢٠] في قِصَّةِ «دون كيخوته» (دون كيشوت) تَعْبيراً عن الحَدِّ الفَاصِلِ بين عَصْرَيْن في أوروبا؛ «العُصُور الوسْطى» و«العَصْر الحديث»، ويَتَلَمَّسُ فيها تَرْميزاً لجوهر «المُعْضِلَةِ الثّقافيّة» القَائِمَةِ في «الفِكْرِ العربيّ». وقبل أنْ نَنْطَلِقَ إلى اسْتنتاجات زكي نجيب محمود لا بُدَّ أنْ نَتَوَقَّفَ - أوّلاً - أمام وَصْفِهِ لشَخْصِيّة «دون كيخوته» حيث يقول: (هذا الفارِس الأُسْطوريّ الذي مَلأَتْهُ الأوهام، حتى لقد امْتَشَقَ سيفه، وأَدْرَعَ بدروعِه، وراح يُقاتِلُ طواحين الهواء، ويُهاجِمُ قُطْعَانَ الغَنَم، حَاسِباً إيّاها قِلاعاً وجيوشاً). يَتَأَمَّلُ زكي نجيب محمود حال دون كيخوته في مُحاولاتِه للمُلاءَمَةِ بين ثقافتِه وبين وَاقِعِه فيقول: (دون كيخوته قرأ قراءةً مُسْتَفيضَةً عن حياة الفُرْسان كما كانتْ في العُصُور الوسْطى، وتَشَبَّعَ بما قرأ حتى اعْتَزَمَ أنْ يحْيا فَارِساً على مِنْهَاجِهِم، فلو كان دون كيخوته يعيشُ في قَلْبِ العُصُور الوسْطى مع سَائِر الفُرْسان عندئذٍ، وسلك كما سلكوا، لما كانتْ هناك مُفارَقَةٌ تُلْفِتُ النَّظَر، لكن تلك العُصُور كانتْ قد جاوزتْ نَهَارَهَا وانْحدرتْ إلى غُرُوبِهَا، فإذا ما أراد إنْسانٌ ساعة الغُرُوبِ أنّ يَرُدَّ الزّمن إلى ساعة الظَّهيرة التي انْقَضَتْ وانْقَضَى أوانُها، كان ذلك هو العَبَثُ بعينه لأنّه يُحاولُ المُسْتحيل).

تَتَّضِحُ أبْعَادُ «الإشْكاليّة الثّقافيّة» في «الفِكْرِ العربيّ» في الصُّورةِ الهزليّةِ التي يَصِفُهَا زكي نجيب محمود بقوله: (كان دون كيخوته في سَعيه الوَاهِم تَجْسيداً لتُرَاثٍ مَكْتُوبٍ، فأخذ يَلْتَمِسُ له في حياة الوَاقِع شبيهاً يُؤَيِّدُهُ ويَحْميه، ولأَمْرٍ وَاضِحِ المَرْمى، جعله المُؤَلِّفُ رجلاً نحيلاً ضعيفاً، أَثْقَلَ جَسَدَهُ بدروعٍ لم تُخْلَقْ إلاّ لأجْسَادٍ قويّةٍ سليمةٍ، فازْدَادَ هُزَالُهُ هُزالاً وهو تحْت دروعِه الثِّقَال، ولأَمْرٍ وَاضِحٍ كذلك، جعله المُؤَلِّفُ يَرْكَبُ حماراً عليلاً، ويَحْسَبُ أنّه يَعْتَلِي جواداً كجياد أسْلافِه من الفُرْسان، فكانت كُلُّها رُمُوزاً مُكَثَّفَةً تَصْرُخُ بالدّلالةِ على أنّ أوان الفروسيّة قد فات ومات، ومن أراد إحْياءَهُ في غير عَصْرِه، كان كمن أراد أنْ يُخْرِجَ من المَاءِ شُعْلَةَ نار).

إنّ دَلالات تلك الصُّورة الهزليّة تتجلَّى في «الوَاقِع الثّقافيّ العربيّ»، ونحن نتعاملُ مع «العَصْر» بغير أدواته، ونَنْطَلِقُ في آفاقه بغير وسائله، ونُكَرِّسُ «المُحاولات البَهْلوانيّة» التي تَسْعَى إلى إبْقَاءِ «الثّقافة العربيّة» دَاخِلَ الزّمن وخَارِجَهُ في آنٍ وَاحِدٍ. ولذا فإنّ «إشْكَاليّة الثّقافَتَيْـن» هي أشدُّ عُمْقاً وتغلْغلاً وتَعْقيداً فـي «النَّسيج الفِكْريّ العربيّ» منها في «الفِكْر الغَرْبـيّ»، وبالتّالي فإنّهـا تَحْتَاجُ إلى جُهُودٍ مُكَثَّفَةٍ للتّقْليلِ مـن حِدَّتِهَا، وإلى برامِجِ وَاسِعَةِ النِّطَاقِ للتّخْفيفِ من وَطْأَتِهَا. بطبيعة الحال هناك دائماً العِبارات الفَضْفَاضَة عن أهميّة «العلـوم» و«توطيـن التّقْنية» فـي مُخْتلف مُنْتدياتنـا ومؤتمراتنا، إلاّ أنّنا نَمُـرُّ عليها مُرُورَ الكِرَام لنَنْصَرِفَ إلى ما أَلِفْنَاهُ من الكلام، ولنَحْتَضِنَ قضايانا «التّقْليديّة» و«الاجْتِرَارِيّة» و«الانْبِهَارِيّـة» فـي سِياقاتِنا الثّقافيّـة، وكأنّ الأمْرَ برُمَّتِـهِ لا يتجاوزُ فقط مَرْحلـة «إزَالَةِ العَتَبِ» و«إبْرَاءِ الذِّمَّة»!.

مـن مُنْطَلَقِ النّزاهـة الفكْريّة يَنْبَغِـي أنْ نَعْتَرِفَ بـأنّ هذا الحال ليس بمُسْتَغْرَبٍ على «ثقافـةٍ» تَأَسَّسَـتْ على «الفِكْرِ الأدبـيّ»، وتراكمتْ عليها - عبْـر قُرُونٍ - مُعْطياتُـه وأنْسَاقُه، وطَغَـتْ تفاعُلاتُه في أجْـواءِ هَيْمَنَتْ عليها السِّياسـةُ وصِرَاعَاتُ السُّلْطَة؛ ولـذا فإنّه إذا كان طَـرْحُ تشارلـز سنـو لـ«إشْكاليّة الثّقافَتَيْـن» في «المُجْتمعـات الغَرْبيّة» صحيحـاً بالرّغْم من أنّهـا صَانِعَـةُ «العلوم الحديثـة» والمُمْسِكَةُ بزِمَـامِ «التّقْنية المُعاصِرَة»، فإنّـه - بالضّرورة - «حالـةٌ ثقافيّـةٌ» مُسْتَفْحِلَـةٌ في وَاقِـع «الثّقافة العربيّة». أمّـا الفَرْقُ بيننـا وبينهم فهو في جُرْأَتِهِم علـى تَشْخيصِ «الإشْكَاليّة»، وإدْراكِهِم لآثارِها السّلْبيّـة، وحِرْصِهِم على تَجْسيرِ «الفَجْـوَةِ» و«الجَفْوَةِ» بين «الثّقافَتَيْن»، وسَعْيِهِم لتَأْمينِ «التَّجَانُسِ الثّقافيّ» بين مُجْتمعهم وخصائِص عَصْره؛ وأمّا نحن فقد اسْتَبْعَدْنَا «ثقافة العلوم»، ونظرنا إلى «العلوم والتّقْنية» علـى أنّها مُجَـرَّدُ أدواتٍ وآلاتٍ ومَوادٍّ اسْتِهْلاكِيّةٍ ممّا يُمَثِّلُ «ظُلْمَاً ثقافيّاً» للعلوم نَدْفَعُ ثمنه غَالِيـاً لفشلنا في التّعامُلِ مع الجوهرِ الحقيقيّ لـ«الحركة العِلْميّة»، وآثارِها المُهَيْمِنَةِ على حَيواتِ البشر وأشْكَالِ الحجر.

٣-٧) الدَّوائرُ المُنْغَلِقَة في «الحركة الثّقافيّة العربيّة»:

إنّ الإحْبَاطَ، أو ما وَصَفَهُ برهان غليون[١٨] بـ«المِحْنَة»، الذي أصاب المُثقَّفين العرب بمُخْتلف مدارِسهم الفِكْريّة وتوجُّهاتهم السِّياسيّة جعل أحد أبْرز نتائِجها ما وَصَفَهُ غليون بقوله: (الانْكِفاء على الذَّات وعلى العمل الثّقافيّ والإبْداعيّ والبَحْث العِلْميّ المُتَجَرِّد عن أيِّ الْتِزامٍ اجْتماعيٍّ أو سياسيٍّ بالمَعْنَى الوَاسِع للكلمة، مع السَّعي إلى تَحْريرِ «الثّقافة» من «السِّياسـة» أو تَأْكيدِ انْفصالِها عنها. والمَقْصودُ هنا وَضْعُ «السُّلْطَة الثّقافيّة» في مُوَاجَهَةِ «السُّلْطَة السِّياسيّة» وكخَصْم لها أو بديلٍ منها)[١٨]. إنّ هذا الرّأْي، الذي يَطْرَحُهُ غليون، يعـودُ بنا إلـى طُرُوحَاتِ الغَالِبيّـةِ الكَاسِحَةِ مـن المُثقَّفين العرب لنعود دومـاً إلى «نُقْطَةِ البـدْء» من حيث نَدْري ولا نَـدْري؛ فـ«إشْكَالِيّةُ التّنْمية» لا تَكْمُنُ فـي العَلاقَةِ بين «الثّقافة والسِّياسـة» أو «المُثقَّفُـون والسُّلْطَة»، ولكنّها تَكْمُـنُ في انْفِصَام «الثّقافـة» عن «التّنْمية» بمعانيهـا الرّحْبَـةِ وآفاقِهَا الحقيقيّـة وآليّاتِهَا الفَاعِلَـة؛ فانْصَرَفَ المُثقَّفـون العرب إلى أفْلاكِهِم الخَاصّةِ يَجْتَرُّون إبْداعاتِهم التّقْليديّة أو الحَدَاثيّة، ومنْهم من وجد في الأنْشِطَةِ العِلْميّـة والتِّقنيّـة المُجَرَّدَةِ مَلْجـأً يَحْسَبُ أنّ فيه المَخْرَجَ من الأزْمَـة، ولكن بَقِيَ كُلُّ ذلك بمَنْـأًى عن حقيقة «التَّحَدِّي»، وبعيـداً عن «بَوْتَقَةِ التّنْمية» بضروراتِهـا الفِكْريّة والثّقافيّة والاجْتماعيّـة. إنّ «الخِطَـابَ الوَصْفـيّ - السَّرْديّ - التّنْظيريّ»، الـذي تَزْخَرُ به «الثّقافةُ العربيّةُ» وتَفْخَرُ، حَافَظَ على جوهرِه وأصالتِه وإنْ تَغَيَّرَتْ الأشْكَالُ والقَوالِبُ بتغيُّر الظُّرُوفِ والأشْخَاصِ والمُشْكلات، وهذا ما يُؤَكِّدُهُ برهـان غليون عندما يقول: (وهكذا حَلَّتْ محلّ الأدبيّـات العقائِديّة القديمة، التي كانتْ تُسَيْطِرُ على إنْتَاجِ المُثقَّفين، المقالات التّحْليليّة الاسْتراتيجيّـة والسّياسيّة والاجْتماعيّة)[١٨]. وهكذا تَحُومُ «الثّقافةُ العربيّةُ» - في أزْمَتِهَا المُتَفَاقِمَةِ - حول الحِمَى دون أنْ تَقَعَ فيه، وتَسْتَمِرُّ في مُواصَلَةِ نَدْبِهَا على وَاقِعِهَا، وتُواصِلُ رِحْلَتَهَـا فـي دَوائِر مُنْغَلِقَةٍ على نفْسها، ولا شَكّ أنّ هذا نِتَاجٌ طبيعيٌّ لـ«ثقافة» تُهَيْمِنُ عليها «ثقافـةُ اللّفْظ» و«زَخْرَفَـةُ الكلام»، وتَأْسِرُهَـا المُفْرَدَاتُ والجماليّـاتُ الإنْشائيّة حتى ولو كانـتْ علـى نَسَقِ صَاحِبِنَا الـذي اعْتَقَدَ أنّه أتـى بجديدٍ عندما وَصَفَ حالـه وحال رِفاقِه فأَنْشَدَ يقول: (**كأنّنا والمَاءُ من حولِنا ... قَوْمٌ جُلُوسٌ حولهم مَاءُ**)!.

وفي السَّعي نحو تَشْخيصِ «وَاقِعِ الثّقافة العربيّة» وهَشَاشَةِ أحْوالِهَا، يقولُ شاكر مصطفى: (الفِكْـرُ العربيّ الـذي قَدَّمَهُ المُثقَّفون سَواءً فـي ما بين الحَرْبَيْنِ أو بعْـد الحَرْب الثّانية حتى أوائِـل السّبعينـات، وسَواءً كان قوميّاً أمْ غير قوميٍّ، أمْ ثقافيّـاً، كان يَعِدُ النّاس بأعْظَم الآمال وبنتائِـج وَاسِعَةِ الطُّمُـوح وأبْعَادٍ من السّعادة مُزَيَّنَةً بالنّجوم. لم يكنْ يَدْري حتّى المُثقَّفون ذوو البصائـر أنّـه كان يعيشُ في أَرْضِ الأحْلام، وأنّ الوَاقِعَ الـذي ظَنّهُ مَكِيناً ثابتـاً إنّما اخْتَرَعَهُ بنفْسِـه لنفْسِـه ليُؤمِنَ به، وقِوامُهُ آمالٌ رومانسيّةٌ وفِكْرٌ ضَحْـلٌ مُتَهَافِتٌ أو مَنْقُولٌ بالحَرْفِ عن وَاقِـعٍ غَرْبيٍّ مُغَايِـر)[١٨]. بطبيعة الحال لم يَتَغَيَّرْ شيءٌ في «البِنْيَـةِ الثّقافيّة العربيّة»، وما زال «التّكْويـن الثّقافيّ العربيّ» يُحَافِظُ علـى مَلامِحِهِ الأساس، ولم تُؤثِّرْ فيـه الفَواجِعُ المُتلاحِقَةُ فـي التّاريخ العربيّ الحديـث، ولم يُبَدِّلْ من تَرْكيبتِهِ تَفَاقُمُ الأحْـوالِ الاجْتماعيّة والاقْتصاديّة والإنْتاجيّـة والمَعْرفيّة؛ وما زال «الفِكْرُ الأدبيّ»، بتَنْظيرِهِ المُجَـرَّد وبلاغتِه الآسِرَةِ وعُمُوميّاته الهَشَّـة، يُهَيْمِنُ علـى صُنْعِ القرار في «المُجْتمعـات العربيّة»، ولذا فإنّ وَاقِعَهَـا أشدّ وَطْأَةً من وَصْـفِ تشارلز سنو لحال «المُجْتمعـات الغَرْبيّة» عندما قال إنّ النُّخَـبَ الأدبيّة: (لا يَصْنَعُون القرار، ولكن كلماتهم تَنْسَابُ بسهولةٍ إلى آذان صَانِعي القرار)[٣٢].

من المُهمّ – أيضاً – أنْ نُؤكِّدَ هنا أنّنا نَظْلِمُ «المُثقّف العربيّ» عندما نَتَوَقَّعُ منه أنْ يُحْدِثَ «نَقْلاتٍ نَوْعيّةً» كُبْرى في حياة مُجْتمعاته؛ فانْصِرَافُهُ عن الدِّراسة الموضوعيّة لـ«إشْكَالات التّنميّـة» مُتَوَقَّـعٌ وهو الذي وُلِدَ ورَضَعَ وتَرَعْرَعَ في «ثقافـةٍ» لا تَحْمِلُ مُقَوِّمَاتِ عَصْرِهَا، فهو مُغَيَّـبٌ تماماً عـن طبيعة «مُقْتضيات التّنْمية» وآليّاتِها وفِكْرِهَـا «العِلْميّ – التّقنيّ»، وقديماً وحديثـاً قالوا: (فَاقِدُ الشّيء لا يُعْطِيـه). إنّ هذا «المُنَاخَ الفِكْريّ الاجْتِـرَارِيّ» الرَّاكِدَ هو المَسْؤول الأوّل عن وَأْدِ الجُهُودِ السَّاعِيةِ إلى «التَّفاعُلِ التّنْمَويّ» بكُلِّ أبْعَادِه، وهذا ما وَصَفَهُ مالك بن نبيّ – بِدِقَّةٍ – عندما أَعْلَنَ: (إنّ جَوْهَرَ المَسْأَلَةِ هو مُشْكِلَتُنَا العَقْليّة، ونحن لا زلنا نسيـرُ ورؤوسنا في الأرْض، وأرْجُلُنَا في الهواء، وهـذا القَلْبُ للأوضاعِ هو المَظْهَرُ الجديدُ لمُشْكِلَةِ نَهْضَتِنَا)[٢]. أمّا أبْرَزُ مَعَالِمِ الوَهَنِ والعَجْزِ في «الثّقافة العربيّة» فيتمثّلُ في الأَزْمَةِ المُحْتَدِمَةِ في ما يُعْرَفُ بـ«جَدَليّة الأَصَالَةِ والمُعَاصَرَة»، أو «ثُنَائِيَّة التُّرَاثِ والحَدَاثَة»، وهي إشْكَاليّةٌ تَقَعُ في صميمِ «إشْكَالِيّة التّنْمية»، وسنُفْرِدُ لها الفَصْلَ التّالي.

إشْكَالِيَّةُ التُّرَاثِ والحَدَاثَة

٤-١) مَدْخَل:

طَـوَالَ قَرْنَيْنِ من الزّمن كانتْ القضيّةُ الكُبْرى في «المُجْتمعات العربيّة» هي «قضيّة النَّهْضَــة»، وكانت الأسْئلــةُ الكُبْرى هي «أَسْئلــة النَّهْضَة»، ولكــن كُلّ مَشْرُوعات «الحَداثَة والتَّحْديـث» - بأشْكالِهــا الأدبيّــة والفِكْريّــة والسّياسيّــة والمادّيّة - فَشِلَتْ فــي أنْ تُحقّقَ للأمّة العربيّة «مَشْرُوعَ النَّهْضَة» و«مَكَاسِبَ التَّنمية». لقد تَمَخَّضَ عن كُلِّ تلك «المُحاولات النَّهْضويّــة» مدارِس فِكْريّــة وقُوى شَــدٍّ وجَذْبٍ سياســيٍّ واجْتماعيٍّ وثقافــيّ، وهي - في أساسِهــا ومَرْجِعيّاتِهَــا - تَنْبَثِــقُ عن تلــك «الإشْكَالِيّة الكُبْــرى» التي انْتَصَبَــتْ في أعْماقِ الوِجْدَانِ والعَقْلِ العربيّ، وعُرِفَتْ باسْم «إشْكَالِيّة التُّرَاثِ والحَداثَة»، أو «إشْكَالِيّة الأصَالَةِ والمُعَاصَــرَة»، فقد وَصَفَهَا محمــد عابد الجابريّ بأنّها: (الإشْكَالِيّــة المِحْوَرِيّة في الفِكْرِ العربــيّ)[1]، وأمّا زكي نجيب محمود فقد وَصَفَهَــا بأنها: (أُمُّ المُشْكلات)[20]؛ وهي تُمَثِّلُ ذلــك التَّشَابُكَ المُعَقَّدَ بين تداعياتٍ وِجْدانيّةٍ، وتداخُلاتٍ تُراثيّةٍ، وقضيّةِ الهُويّة، والدِّفَاعِ عنهــا ضِدّ «الفِكْرِ الغَازِي» القَــادِمِ من الغَرْب، ويَحْدُثُ ذلك في الوَقْــت نفْسه الذي تُمَثِّلُ فيــه مُعْطياتُ ذلك الغَرْبِ وإنْتاجِه - علــى مُخْتلف الأصْعِدَة - مِثالاً مَطْلُوباً في «التَّنْمية»، ونَمُوذَجاً مَرْغوُباً في «النَّهْضَة».

ذلــك مــا يُؤَكِّدُهُ محمد عابد الجابريّ وهو يُؤَطِّرُ لهــذه «الإشْكَالِيّة» فيقول: (غير أنّ هــذا الحُضُورَ الأيديولوجــيّ للتُّرَاثِ في الوَعْــي العربيّ المُعَاصِر، وبمَعْنــىً آخَر اسْتمرار الدّعــوة إلى الأَخْذِ به كسِــلاحٍ أيديولوجيٍّ ضِدّ التّهْديد الخارجيّ ليس إلاّ وَجْهاً وَاحِداً من العُمْلَة. أمّا الوَجْهُ الآخَرُ، وهو الأكْثر وَقْعاً وثقلاً على الوَعْي واللاوَعِي العربيّيْن في العَصْرِ

الحاضِـر، فهو ذلـك الشُّعُورُ الدّرامي بعُمْـقِ الهُوّة التـي تَفْصِلُ بين التُّـرَاثِ ومضامينه المَعْرفيّـة والأيديولوجيّـة والمِعْياريّة، وبين الفِكْـرِ العَالَميّ المُعَاصِـرِ ومُنْجزاته العِلْميّة والتِّقنيّة ومعاييره العَقْليّة والأَخْلاقيّة)[١].

لقد ذكرنا، في الفَصْل الأوّل من هذا الكِتاب، أنّ هذه التّدافُعات والتّيارات والمُحاولات تَمَخَّضَتْ - منْذ مَطْلعِ القَرْنِ التّاسع عشر الميلاديّ - عن ثلاث مدارِس رئيسة:

١) «المَدْرَسَـةُ التُّرَاثيّـة»: وهي اتِّجَاهٌ رَافِضٌ لكُلِّ ما هو جديدٌ، ومُتَقيِّدٌ بـ«التُّرَاث»، ويرى في كلِّ جديدٍ وَافِدٍ من الغَرْبِ تَهْديداً للهُويّة والدِّين والأَخْلاق.

٢) «المَدْرَسَةُ الحَدَاثيّة»: وهي اتِّجَاهٌ رَافِضٌ لـ«التُّرَاث» إذْ يراه عقبةً تُعِيقُ اللّحاق بالرّكْبِ الحضاريّ المُنْطَلِق بخُطُواتِ «العِلْم» المُتسارِعة، وتحدّياتِ «العَصْرِ» المُتفاقِمة.

٣) «المَدْرَسَةُ التَّوفيقيّة»: وهي اتِّجَاهٌ يرى ضرورة الجَمْعِ بين «الحُسْنَيَيْن»؛ فيَحْرِصُ على الحِفَاظِ على «الهُويّة الإسْلاميّة» وقِيَمِهَا وتُرَاثِهَا، وفي الوَقْتِ نفْسه يَسْعَى إلى الاسْتِفَادَةِ من المُعْطياتِ العِلْميّة والإنْجازات التِّقنيّة في «النَّمُوذَجِ الغَرْبيّ».

لقـد تصارعتْ هـذه المدارِسُ علـى مـدى قَرْنَيْنِ من الزّمـن، ولكنّهـا -كُلُّهَا دون اسْتِثْنَـاءٍ - فَشِلَتْ فـي تَحْقيقِ أيِّ إنْجازٍ يُذْكَـرُ على طريق «النّهْضَـة» بالرّغْم من التّقدُّم المُذْهِلِ في أنْمَاطِ حياةِ «المُجْتمعات العربيّة» وأشْكَالِ تَعْليمِهَا وتفاعُلاتِ بشرها، إلاّ أنّها بَقِيَـتْ رهينةً لعطـاءاتِ الآخَرين، وحبيسةً لأنْمَـاطٍ اسْتِهْلاكيّةٍ علـى المُسْتويات الفِكْريّة والماديّة والاجْتماعيّة والإعْلاميّـة وغيرها، وراحتْ تُراوِحُ مكانها حول خِلافاتِها الأزليّة، وصِراعاتِها الجَدَليّة، وتناقُضاتِها الحياتيّة.

٤-٢) مُصْطلحاتُ «الإشْكَاليّة» ومَآزِقها:

بدايـةً يَنْبَغِي - في رأْيـي[١٠٩،٦٠] - أنْ نَضْبِـطَ مُصْطلحاتنا لنتمكَّنَ مـن فَهْمِ أبْعَادِ «الإشْكَاليّـة» المَطْرُوحَـةِ التـي أَطْلَقَ عليهـا بعْضهم اسْـم «إشْكَاليّة التُّـرَاثِ والحَدَاثَة»،

وأَطْلَـقَ عليها آخَرون مُصْطلح «إشْكَاليّة الأصَالَةِ والمُعَاصَرَة»، ولي بعض التَّحَفُّظَاتِ على المُصْطلح الأخير ستتَّضِحُ مُبَرِّرَاتُهَا في سِياق هذا المَبْحَث. وأمّا المُصْطلحاتُ المَطْلُوبُ ضَبْطِهَا وتَحْريرِها فهي:

١) **الأصَالَة**: هي: (الْتِزَامُ الثّقافة والفِكْر والمُجْتمع بأُصُول تَشْكيلِ بِنْيتِهَا الدّاخِلية الهيكليّة، ويَلْتَفُّ حولها ويَرْتَكِزُ إليها الجِسْمُ الثّقافيّ العامّ، وتتعيَّنُ هذه الأُصُولُ بجُمْلَـةٍ من المفاهيم المِحْوريّة والقِيَم الأساسيّة التي تُمَيِّزُ ثقافةً ما عن غيرها من الثّقافـات. و«الأصَالَةُ» بهذا المَعْنَى تُناقِضُ الاغْتِـرَابَ الثّقافيّ والاسْتِلابَ الفِكْـريّ)[١٦]. وهـذا يَعْنِـي أنّ «الأصَالَةَ» فـي «المُجْتمعات العربيّـة» تَنْطَلِقُ - بالضّرورة - من قِيَمِ الإسْلام الكُلِّيّة وتصوُّراته وضَوابِطِه.

٢) **المُعَاصَرَة**: تَعْنِي «التّزَامُن»، وبالتّالي فهي تَحْديدٌ شَكْليٌّ لا يَقْتَرِنُ - بالضّرورة - بتفاعُلاتٍ جوهريّةٍ بين الأطْرافِ المُتَزامِنَة.

٣) **التُّرَاث**: هو: (ذلك الطَّيْفُ الوَاسِعُ والمُتَنَوِّعُ من المَورُوثَاتِ التي تَلَقَّفَهَا «الخَلَفُ» عـن «السَّلَف»، وهـي تُغَطّي مِساحـاتٍ رَحْبَـةً ومُتَشَعِّبَةً من القضايـا والعادات والأفْكار والمُمارَسات وغيرها؛ فهي تَشْمَلُ «التُّرَاثَ المادِّيّ» مثل المَواقِع الأثريّة والمُـدُن التّاريخيّة والمتاحِف والتُّرَاث المِعْمَاريّ، كمـا تَشْمَلُ «التُّرَاثَ الفِكْري» فـي المجالات الأدبيّـة والثّقافيّـة والفِقْهيّـة والاجْتماعيّة (العـادات والتّقاليد والأزْيـاء والمَطْبَخ والأعْرَاس) والشّعْبيّـة والعِلْميّة والفلْسفيّـة وغير ذلك من الأنْشطـة البشريّة الحياتيّة. وبذا نجدُ أنّ «التُّرَاثَ» ليس كُتْلَةً وَاحِدَةً مُتماسِكَةً يُنْظَـرُ إليه نَظْرةَ الرَّفْضِ الكُلّيّ، أو القَبُـولِ الشّامِل، ولكن تَبْقَى المُشْكِلَةُ في ما نَضَعُهُ من «معايير» للرَّفْضِ والقَبُول، وهي جُزْءٌ من طبيعة «الإشْكَاليّة» القَائِمَة.

٤) **الحَدَاثَـة**: هـي حركةُ المُراجَعَـةِ والتَّجْديدِ والنّقْـدِ والتّحْليلِ وإعْمَـالِ «العَقْلِ» فـي الحياةِ والفِكْـرِ والعقائِدِ والكَوْن، وهـي حركةٌ انْطَلَقَتْ فـي أوروبا مع بروز «عَصْرِ النَّهْضَة» في القَرْن الخامس عشر الميلاديّ، ولها إنْجازاتُها وإشْكالاتُها

وتداعياتُها وخُصُوصيّاتُهـا وصِراعاتُها، ويَنْضَوِي تحت عباءتها - في مَفْهُومِهَا العـامّ - مُخْتلـف أشْـكَالِ «الحَدَاثَـة» بأنْمَاطِهَا الأدبيّـة والفِكْريّـة والسّياسيّة والاجتماعيّـة. وأمّـا «الحَدَاثَةُ»التـي شَغَلَـتْ «العَقْـلَ العربيّ» فقـد كانتْ - وما زالـتْ - مَسْؤولةً عـن تَرَاجُـعِ «المُجْتمعات العربيّـة» في التَّعَامُلِ مـع مُعْطياتِ «الحيـاة الحديثة» - كما سيتَّضِحُ في هذا الفَصْـل -؛ وذلك لانْضِواءِ «الحَدَاثَةِ العربيّـة» تحت الإطار الكلاميّ نفْســه الذي وجدنا أنّه يُمَيِّـزُ «الثّقافة العربيّة» ويَعُـوقُ حركتهـا؛ فاهْتَمَّ «العَقْـلُ العربـيّ» بـ«الحَدَاثَة الأدبيّة والفنيّـة واللغويّة» التـي انْطَلَقَتْ في أوروبا في أواخِر القَرْن التّاسع عشر الميلاديّ، وبَلَغَتْ ذُرْوَتَهَا فـي الرُّبْعِ الأوّل من القَـرْن العشرين، وتَضُمُّ مذاهِبَ مُخْتلفـةً في الفنّ والأدب كالمُسْتَقْبَليّة والتَّصْويريّة والانْطِباعيّة والسِّرْياليّة والرَّمْزيّة والوَاقِعيّة وغيرها. وأمّـا ما أَصْبَـحَ يُهَيْمِنُ على «السّاحَةِ الحَدَاثيّة» في مَطْلَـعِ «الأَلفيّة الثالثة» فهي «الحَدَاثَة السِّياسيّة» بتوجُّهاتِها الليبراليّة والعَلْمَانيّة والدِّيموقراطيّة.

وبالتّأمُّـلِ الموضوعـيّ لمَسَـارِ الخِطَابَيْـن «التُّرَاثـيّ» و«الحَدَاثيّ» فـي تفاعُلاتِهما مـع مُشْـكلاتِ «المُجْتمعات العربيّة» نجـد أنّهما وَقَعَا في مَـآزِق فِكْريّةٍ صَعَّـدَتْ من حِدَّةِ الخِطَابَيْن، وعَمَّقَتْ من تَنَافُرِهِمَا إلى درجة الصِّرَاعِ والمُنَازَلَة، ممّا كان له دَوْرٌ رئيسٌ في إعاقةِ «التَّفاعُلات النَّهْضَويّة» وإجْهَاضِ «الرُّؤى التّنْمَويّة».

٤-٢-١) مَآزِق «الخِطَاب التُّرَاثيّ»:

من أبْرز مَآزِقِ «الخِطَابِ التُّرَاثيّ» - في رأْيي(١٠٩،٦٠) - ما يلي:

١) الخَلْـطُ بين «التُّرَاثيّ» و«الأصيل»؛ فليس كُلُّ شَأْنٍ «تُرَاثيٍّ» أصيلاً، وليس كُلُّ أَمْرٍ «تُرَاثـيٍّ» مُقَدَّسَاً وجديراً بالمُحَافَظَةِ عليه والدِّفَاعِ عنــه والاسْتِمَاتَةِ في سبيله، وهذه إحْدى نقـاط تَحَفُّظِي على إطْلاقِ مُسَمَّى «إشْكَاليّة الأَصَالَةِ والمُعَاصَرَة»؛ فـ«المُعَاصَـرَةُ» هـي التَّزَامُنُ الذي لا يَفْرِضُ - بالضّـرورة - تفاعُلاتٍ قويّةً بين

الأَطْـرَافِ المُتَزَامِنَـة، كمـا أنّ «الإشْكَالِيّـة» سـوف تَنْتَفِي - بالضّـرورة - إذا اسْتطعنـا التّمْييز بيـن «الأصيل» في المقاصِدِ والثّوابِـت، وبين تلك التّراكُمَاتِ التّاريخيّة والاجْتماعيّة التي كانتْ بِنْتَ ظُرُوفِهَا وحَصِيلةَ زمانِها، ولكنّها تَشَبَّثَتْ بعَرَبَـةِ التّاريـخ لتُغَبِّشَ الرُّؤية، والْتَصَقَـتْ بعَجَلاتِهَا لتُعِيـقَ الحركة. وفي هذا السِّيـاق يَطْرَحُ برنارد لويس رؤيتـه فيقول: (كثيراً ما تَتِمُّ الإشـارة إلى السُّؤال عمّـا إذا كان الإسْلامُ عقبةً أمـام الحُريّة، والعِلْم، والتَّنْمية الاقْتصاديّة، وكيف كان بإمْـكان المُجْتمع المُسْلِم في الماضي أنْ يكون رائِداً في كُلِّ هذه المجالات الثّلاثـة، وحَـدَثَ هـذا في الوَقْـت الـذي كان المُسْلِمـون أقْرب فيـه بكثيرٍ إلى مصادرِ وإلْهَامِ عقيدتهم عن الوَقْتِ الرّاهِن؟. ولقد طَرَحَ بعضهم السُّؤالَ بشَكْلٍ مُخْتلفٍ: (فليس السُّؤالُ هو «ماذا فَعَلَ الإسْلامُ بالمُسْلِمين؟»، ولكن «ماذا فَعَلَ المُسْلِمون بالإسْلام؟») [٣].

إنّ مُعْظَـمَ مُكَوِّنَاتِ«التُّـرَاث» الذي يدورُ حوله كثيرٌ مـن الجَدَل، ويَسْتَنْزِفُ الطّاقـات والجُهُود، هـو تراكُمَاتٌ تاريخيّـةٌ لاجْتهاداتٍ بشريّـةٍ وتفاعُلاتٍ عبْر «الفِعْـلِ» و«رَدِّ الفِعْـل» في حِقَبٍ مُخْتلفـةٍ من «الزّمان»، وجُغْرافيّـاتٍ مُتَنَوِّعَةٍ في «المكان». ومَرَّةً أُخْرَى يَتَجَلَّى هنا دَوْرُ «البُعْدِ الزَّمْكَانيّ» في تَكْرِيسِ «أَزْمَةِ الثّقافة العربيّـة»؛ فليستْ كُلُّ التّجارِبِ والاجْتهاداتِ الإسْلاميّـة - عبْر القُرُون - مُؤَهَّلَةً لأنْ تكـون ذاتَ فَاعِليّةٍ في هذا «الزَّمان» وهذا «المكان»، وليستْ كُلُّ الصِّراعاتِ السِّياسيّـة، وحُرُوبِ السُّلْطَة، وآراءِ العُلمـاء، نماذجَ مُناسِبَةً لوَقْتنا الحَاضِر في فِكْرِها ومفاهيمِها ومُعالَجاتِها.

٢) «النَّزْعَـةُ التَّبْسيطيّـة» التي تُهَيْمِـنُ على تَفْكيرِ «الخِطَابِ التُّرَاثـيّ» عبْر تَبْسيطِ التّحدّياتِ المُعَقَّدَةِ والتّداخُلاتِ المُتَشَعِّبَةِ التي تُواجِهُ العَالَم عامّةً، والمُجْتمعات العربيّـة خاصَّةً، وهذه النَّزْعَـةُ جَعَلَتْهُ خِطاباً هَائِماً، عَائِمـاً، غَائِماً؛ فهناك - مثـلاً - طَـرْحُ شِعاراتٍ مِثْـل «الإسْلامُ هو الحَـلّ»، أو «العَوْدَةُ إلـى ما كان عليه السَّلَـف»، أو «الإسْـلامُ صَالِـحٌ لـكُلِّ زمـانٍ ومـكانٍ»، أو اخْتِزالُهَـا فـي عناوين

عامّـةٍ كالصِّــرَاعِ بيــن «الحَــقّ والبَاطِــل»، وبيــن «الإيمــان والكُفْــر»، أو «نظريّة «الفُسْطَاطَيْــن». وهكــذا تَضْمَحِلُّ، أو تتلاشى، في هذه العناويــن البَرّاقة الأبْعَادُ الثّقافيّة والجَوانِبُ الحضاريّة والاعْتباراتُ الزّمانيّة والبرامِجُ العمليّة التّنْفيذيّة، وتَخْتَفي أوْجُهُ القُصُورِ الحقيقيّةِ المُتَمَثِّلَةِ في التَّخَلُّفِ الإنْتاجيّ، والقُصُورِ العِلْميّ، والضَّعْفِ التِّقنيّ، والمُشْـكلاتِ التّنْظيميّة والاجْتماعيّة والاقْتصاديّة، وغير ذلك مــن تَعْقيداتِ «الحيــاة المُعاصِرَة» وتشعُّباتِهَا، وكما يقولُ محمــد الميلي: (فِكْرَةُ الحِفَــاظِ على «الأصَالَة» لم تَتَحَــوَّلْ إلى مَشْرُوعِ تَأْصيلٍ يَتَــلاءَمُ مع الانْغِرَاسِ في العَصْر، واسْتِنْبَاتِ مُحيطٍ مُلائِمٍ للاسْتِفَادَةِ القُصْوى من التّعاطِي مع الغَيْر)(٨).

٣) الانْفِصَامُ المُــرَوِّعُ بين التّنْظيرِ والمَواعِظِ والقِيَم، وبيــن المُمَارَسَاتِ الحياتيّة والتّفاعُــلاتِ اليوميّة، ممّا يُؤدِّي إلى فُقْدَانِ قَدْرٍ كبيــرٍ من المِصْداقيّةِ والقُدْرَةِ على التّأْثير، وذلك نتيجةً لغِيَابِ القُدْوَة؛ فبَقِيَتْ عناصِرُ التّنْظيرِ – في مُعْظَمِهَا – مَحْصُورةً فــي الوِجْدَانِ، ومُخْتَزَنَةً في الذَّاكِرَةِ، ويَتِــمُّ اسْتدعاؤها كُلّما دَعَتْ إليهــا الحاجــة أو المُنَاسَبَة؛ وأمّا في أيــامِ المِحَنِ والأزمــات، فإنّها – غالباً – ما تكون مَصْحُوبَةً بعُنْفٍ شديــدٍ، واضْطِرَامٍ للمشَاعِر، واضْطِرَابٍ في التّفْكير، وهَوْجَائيّةٍ في «رُدودِ الفِعْل».

٤) «التَّوَجُّــهُ الأَحَادِيّ» الــذي يتعاملُ مع مُخْتلــف أوْجُهِ الحياة وكأنّــه يَحْتَكِرُ الحَقَّ الأبديّ والحقيقة المُطْلَقَة، ولقد كان لهذا التَّوجُّهِ الكثير من «رُدودِ الفِعْل» النَّشَازِ والنّتائِــج السَّلْبيّة التــي تَجَلّتْ على طَرَفَيْ نقيض: طَــرَفُ «التَّطَرُّف والإرْهاب»، وطَــرَفُ «التّفْريط والتَّمَرُّد علــى القِيَم». وللأمانة والموضوعيّــة يجب أنْ نقول إنّ هــذا «التَّوَجُّه الأَحَادِيّ» لم يُصْبِحْ حِكْراً فقط على «الخِطَابِ التُّرَاثيّ»، ولكن أَثْبتَــتْ التّجارِبُ أنّــه – أيضا» – من خصائِص «الخِطَــابِ الحَداثيّ» ليَتَّضِحَ أنّ المُشْكِلَةَ في الأساس هي «مُشْكِلَةُ ثقافة».

٤-٢-٢) مَآزِق «الخِطَاب الحَدَاثيّ»:

يُعَانِـي مُصْطَلَـحُ «الحَدَاثَـة» مِـن مُعْضِلَـةٍ فـي الماهيّـة، والتّاريخيّـة، والوظيفيّة؛ فـ«الحَدَاثَةُ» ليستْ كما تَعَرَّفَ عليها «العَقْلُ العربيّ» مُخْتَصَّةً فقط بالنّقْدِ والأدبِ والفُنُونِ ونُظُـمِ السِّياسة ومُشَاكَسَةِ القِيَـم السّائِدَةِ في المُجْتمع، وهي لا يُمْكِـنُ اخْتِزَالُهَا في تلك المُصْطلحات المَطَّاطَةِ التي تَضْطَرِمُ على السّاحة مثل «الليبراليّة» أو «العَلْمَانيّة»، ولكنّها - في أَصْلِهَا الغَرْبيّ - تُشِيرُ إلى صِيغٍ عديدةٍ دَالَّةٍ على الحضارة والتّقدُّم والتّغْيير.

لقد عَشِـقَ «العَقْلُ العربيّ» بعُنْفوانٍ، أو كَرِهَ باحْتِـدامٍ، ذلك المُحْتوى الأدبيّ والفنيّ والنّقْـديّ والسّياسـيّ لمَفْهُومِ «الحَدَاثَة»، ولقـد حَصَلَ إرْباكٌ كبيرٌ حـول هذا المُصْطلح بسبـب تَعْريـب مُصْطَلَحَـيّ «modernity» و«modernism»؛ إذْ اعْتَقَـدَ بعضهـم أنّهمـا مُصْطَلَحٌ وَاحِدٌ فتمّ تَعْريبهما بكلمةٍ وَاحِدةٍ وهي: «الحَدَاثَة»، ومَيَّزَ آخَرون بين «الحَدَاثَة»: «modernity»، وبيـن «الحَدَاثويّة» أو «الحَدَاثَانيّـة»: «modernism»[٦١]؛ فالأوّلُ، لا يَتَقَيَّدُ باشْتِراطـاتٍ مَذْهَبِيّةٍ، أو مَفْهُومِيّةٍ، أو أدب أُمّةٍ مُعَيَّنَةٍ، ولكنّه يتعاملُ مع الأدوات والوسائِل لتَغْييـر أنْمَاطِ الحيـاة والتّفْكير والتّفاعُل البشريّ وتَطْويرها؛ وأمّـا الثّاني، فإنّه يَدُلُّ على حركةٍ أدبيّةٍ ونَقْديّةٍ لها سِياقاتُها التّاريخيّة والمَعْرفيّة، ومعاييرُها الفنيّة والنّقْديّة.

إنّ الصِّراعـاتِ الطّويلة والتّغيُّراتِ الدّراميّة والجِذْريّة في الغَرْب - منْذ نُشُوء «عَصْر النّهْضَة» في أوروبا - جعلتْ من «الحَدَاثَة» أداة تصادم مع النِّظام الفِكْريّ والقِيميّ والسُّلْطَويّ والسّياسـيّ، ووسيلة هُجُوم علـى كُلِّ ما هو تَقْليديٌّ وتُرَاثيٌّ. ولقد حافظ «الحَدَاثيّون العرب» علـى هذه «الخِصَال الغَرْبيّة» عند إسْقَاطِ «الحَدَاثَـة» على الوَاقِعِ العربيّ واعْتبروها الجُزْءَ الأهـمَّ من «طبيعة الحَدَاثَـة»؛ فـ«الحَدَاثَةُ» عنْد أدونيس هي التي: (تُمَارِسُ تَهْديماً شَامِلاً للنِّظَام السّائِدِ وعَلاقَاته، أَيْ نِظَامُ الأفْكار)[٦٢]. ويقول: (لا تَنْشَأُ الحَدَاثَةُ مُصَالَحَةً، وإنّما تَنْشَأُ هُجُومَاً، تَنْشَأُ - إذاً - خَرْقاً ثقافيّاً جِذْريّاً وشَامِلاً لما هو سَائِد)[٦٣].

نَسْتطيـعُ أنْ نَفْهَـمَ كُلَّ هـذا الارْتِبـاك حـول ماهيّة مُصْطلـح «الحَدَاثَـة» وتاريخه ووظيفتـه فـي إطار الحقيقة الكَامِنَةِ فـي «البُعْدِ التّاريخيّ» لمَفْهُـومِ «الحَدَاثَة»، لأنّه ليس

بالإمْـكان فَصْلُ «الحَدَاثَةِ» عن تاريخهــا الأوروبيّ حيث انْطَلَقَتْ - تاريخيّــاً - مع «الثّوْرَةِ الفرنْسيّــة» في عام ١٧٨٩م، واعْتَمَدَتْ تَغْيير النِّظَام السّياسيّ، وتَبَنَّتْ مبادئ «الليبراليّة» و«العَلْمَانيّة». لقد كانتْ «الحَدَاثَةُ» تَتْويجاً لمَراحِل مُتَدَرِّجَةٍ مَرَّتْ بها «المُجْتمعات الغَرْبيّة» منْــذ «عَصْرِ النّهْضَة» فــي القَرْنَيْنِ الخامس عشر والسّادس عشــر الميلاديّ، ثمّ عصور «الثّوْرَةِ العِلْميّة»، و«التّنْوير»، و«الثّوْرةِ الصّناعيّة»، حيث يُمْكِنُ أنْ يُطْلَقَ على هذه المراحِل التّاريخيّة اسْم «عَصْر التّحْديث»، وهو المُتَمَثِّلُ - في المقام الأوّل - بتَغْييرِ أدوات الإنْتاج الماديّة في المُجْتمع ونُظُمِه وآليّاته وعَلاقَاتِه، وتَحَوُّلِ «المُجْتمعات الغَرْبيّة» من مُجْتمعاتٍ زِراعيّــةٍ إقْطاعيّــةٍ إلــى مُجْتمعــاتٍ تِجَاريّةٍ، ومن ثــمّ إلى مُجْتمعــاتٍ صِنَاعيّــةٍ، مَعْرفيّةٍ، رَأْسماليّةٍ، وإمْبرياليّة.

أمّــا تاريــخُ «الحَدَاثَةِ العربيّــة»، فيُوجَزُ بأنّه مُرْتَبــطٌ بالهزائم السّياسيّــة والفِكْريّة والنّهْضَويّــة التي تَرَعْرَعَتْ في ظِلِّهَا صِراعاتُ «الحَدَاثَةِ»، حيث دَخَلَ فريقٌ على «الحَدَاثَةِ» من زاوية الفَنّ والشِّعْر والأدب والنّقْد والرّواية مُتَوَهِّمَاً أنّ في ذلك المَدْخَلِ أسْلوباً فَاعِلاً للتّأْثيرِ على «البِنْيَةِ الثقافيّة» وإدْخَالِ العَالَم العربيّ في رُوح «الحركة النّهْضَويّة العالَميّة»، وآخَــرون دَخَلُــوا إلى «الحَدَاثَةِ» مــن مُنْطَلَقِ الحُريّــات والمُســاواة والدّيموقراطيّة، وكان مــن الطّبيعي أنْ يَنْتُجَ «رَدّ فِعْلٍ» مُضَادٌّ لهذه «الحَدَاثَــة الدَّخِيلَة»، واعْتبارها تَهْديداً للقِيَم والهُويّــة؛ ولذا تَصَــدَّى «التّيارُ المُحَافِظُ»، الــذي يُمَثِّلُ قطاعاتٍ وَاسِعَــةً من «المُجْتمعات العربيّة»، لما حَسِبَهُ تَهْديداً لكيانِه وتطلُّعاتِه.

إنّ أبْرز نِقاط الضَّعْفِ في «المَشْهَدِ الحَدَاثيّ العربيّ» هو أنّه - انْطلاقاً من «الطّبيعة الكلاميّــة» لـ«الثّقافة العربيّة» - حَصَــرَ «الحَدَاثَةَ» في مَفْهُوم ضَيّقٍ، وهــو المَفْهُومُ الفَنّيّ والنّقْــديّ والأدبيّ، والجِدَالُ اللفْظيّ التّنْظيريّ والصِّــراعُ السّياسيّ، فراح «أَهْلُ الحَدَاثَةِ» يتمثّلون حَدَاثَةً فنيّةً وأدبيّةً نقْديّةً عربيّةً، وبذلك وقعوا في أرْبعة مَزَالِق[٦٠]:

١) لقــد كانتْ «الحَدَاثَةُ الفَنيّة والأدبيّة» و«الحَدَاثَةُ السِّياسيّة» وغيرهما من أشْكَالِ «الحَدَاثَــةِ» في أوروبــا نِتَاجَاً، وليستْ سبباً؛ فهي نِتَاجُ تفاعُــلاتٍ طويلة الأمد

لهـا جُذُورٌ تاريخيّةٌ ودِينيّـةٌ وفِكْريّةٌ وسياسيّةٌ وعِلْميّةٌ فـي التّفاعُلاتِ الأوروبيّة منْـذ القَـرْنِ الخامس عشـر الميلاديّ، وهي وليـدةُ تطوُّراتٍ عميقـةٍ وتحوُّلاتٍ مُضْنيـةٍ من تجـارِبِ التّقدُّمِ الصّناعـيّ والجُهْدِ العِلْمـيّ والمُعَالَجَاتِ الفِكْريّة والمَخَاضِ السّياسيّ، وهي بذلك تُعَبِّرُ عن أوْجُـهِ التَّحَوُّلِ الجِذْريّ الذي حدث في وَاقِـعِ «العَالَمِ الغَرْبيّ» وسِياقاتِه التّاريخيّـة، وانْعَكَسَ كُلُّ ذلك – فيما بعْد– علـى مسـاراتِ «العَالَمِ الغَرْبيّ» فـي الأدب والسّياسـة والفِكْـرِ والثّقافة. ولذا فـإنّ «التَّحَوُّلات النّهْضَويّـة الكُبْرى» في أوروبا لم تكنْ نِتـاجَ «الحَدَاثَةِ الأدبيّة» وغيرهـا من حَدَاثَةٍ فِكْريّةٍ أو سياسيّـة، ولكنّها كانتْ نِتَاجاً لحَدَاثَةٍ أَشْمل وأَعَمّ وأَعْمق ضَرَبَتْ في جُذُورِ المُجْتمع، ليتمخَّضَ عنها في النّهاية – بعد عناءٍ طويلٍ وصِراعـاتٍ مريرةٍ وتَضْحياتٍ جَمَّةٍ – الوَاقِعُ الغَرْبيُّ الرّاهِنُ بإنجازاتِه ونَهْضتِه وحيويّتِه وحَدَاثَاته المُتنوِّعة.

وهكـذا أَغْفَلَ «الحَدَاثيّون العـرب» أثر «التَّسَلْسُلِ التَّاريخـيّ»، وخُصُوصيّة «التّجْربـة الأوروبيّة»، وهَيْمَنَـةَ «الفِكْر العِلْميّ»، وطبيعـة «التَّفاعُلِ الاجْتماعيّ» لـ«الحَدَاثَـة»، وخلطـوا بيـن «الزَّمان» و«المـكان»؛ فقبْـل أنْ تَمُـرَّ مُجْتمعاتُهم بثَوْرَاتِهَـا العِلْميّـة والتِّقنيّة والصِّناعيّة، وما يَرْتَبِطُ بها مـن تَحَوُّلاتٍ اجْتماعيّةٍ وسياسيّـةٍ واقْتصاديّةٍ، انْغَمَسُوا فـي «الحَدَاثَةِ الأدبيّـة» و«الحَدَاثَةِ السِّياسيّة» بأشْكَالِهِمَـا المُشَاكِسَةِ وأنْمَاطِهِمَا المُنَاكِفَـة. والأَدْهَى من ذلك عدم إدْراكهم بأنّ «النّهْضَـةَ الغَرْبيّة»، بكُلِّ أشْكَالِهَـا الإنْتاجيّة والعِلْميّـة والتّقنيّة والتّنْمويّة، لـم تَسْتَنِدْ فـي الماضي، ولا تَسْتَنِـدُ الآن، إلى ذلك النَّوْعِ مـن «الحَدَاثَةِ» الذي يُدَنْدِنُون حوله، ويُنَافِحُون عنه، ويَدْعُون إليه.

٢) لقـد كان في إسْقَـاطِ «النَّمُـوذَجِ الغَرْبيّ» علـى «المُجْتمعات العربيّـة» سَذَاجَةٌ وَاضِحَـةٌ؛ فتلك تَجْرِبـةٌ لها بِيئتُها الفِكْريّـة، وأُصُولُهَا العَقَدِيّـة، وخُصُوصيّتُهَا التاريخيّـة، وظُرُوفُهَـا الاجْتماعيّـة، ولا يُمْكِـنُ بحـالٍ أنْ يكون الـدَّواءُ وَاحِداً لأمْرَاضٍ مُخْتلفة.

٣) إنّ «الحَدَاثَـةَ» عند الغَرْبِ ليستْ مُجَرَّدَ «اسْتِخْـدَام العَقْلِ والعِلْمِ والتّقْنية»، بَلْ هي «اسْتِخْدامُ العَقْـلِ والعِلْمِ والتّقْنيةِ المُنْفَصِلُ عـن القِيَم (value-free)»، وهذا البُعْدُ هو بُعْدٌ جوهـريٌّ لـ«مَنْظُومَةِ الحَدَاثَة الغَرْبيّة»، ولكن السُّؤال الأهمّ هـو: (كيف يُمْكِنُ تَنْزيلُ هذا البُعْدِ على مَنْظُومَةٍ فِكْريّةٍ في مُجْتمعاتٍ إسْلاميةٍ لها مُنْطلقاتُها القِيميّة المُمَيِّزَة؟).

٤) إنّ مـن أبْـرز نقـاط الضَّعْفِ الجوهريّـة في «الخِطَـابِ الحَدَاثـيّ العربيّ» هو الخَلْطُ الوَاضِحُ بين طبيعة «الحَدَاثَةِ الفِكْريّة والنّقْديّة» كما فهمها «الحَدَاثيّون العرب»، وبيـن «مُقَوِّمَاتِ التّنْمية» و«شُرُوطِ النّهْضَـة»؛ فأبْرز ما يُمَيِّزُ توجُّهات «الحَدَاثيّيـن العرب» أنّهم اعْتبـروا أنّ «الحَدَاثَةَ» هي «تَفْجيـرُ اللّغة»، وتَفْكيكُ البيان، ومُعالَجَةُ الأنْسَاقِ الأدبيّة والثّقافيّة والفنيّة، والخُرُوجُ على المَأْلُوفِ في الأُطُرِ الأدبيّـة والجَدَليّة والفِكْريّة والاجْتماعيّة والعَقَديّـة، ولم تكنْ «الحَدَاثَةُ» عندهـم تَفْجيراً للطّاقاتِ الإنْتاجيّة، أو تَفْكيـكاً لمظاهِر «العَجْزِ العِلْميّ» الذي تُعَانِـي منـه «المُجْتمعات العربيّـة»، أو مُعالَجَةً موضوعيّةً لحَواجِـز الوُلُوج إلى «عَصْرِ العلوم والتّقْنية». وبطبيعة الحال كان ذلك المَوقِفُ - وما يزال - مُتَّسِقاً مـع طبيعة «الثّقافة العربيّة» التـي تَهْتَمُّ باللّفْظِ وزُخْرُفِ القَـوْلِ وبلاغةِ البيان وجزالـةِ الأسْلوب، وتَنْأَى عـن التّفاعُلِ التّطْبيقيّ والإجْرائـي والتّحْليليّ. وهذه الحقيقـة يُبْرِزُها عبد الله الغذّامي[٤٩] عندما يتسـاءَل: (هل الحَدَاثَةُ العربيّةُ حَدَاثَـةٌ رَجْعِيّة؟)، ويَعْرِضُ لبعض مَثَالِبِ هـذه «الحَدَاثَةِ» المُرْتَدَّةِ إلى الأنْسَاقِ الثّقافيّـة العربيّة وشُرُوطِهَا الذّهْنيّـة المُهَيْمِنَةِ على مدى قُرُونٍ، فنجده - على سبيـل المِثـال - يتحدَّثُ عـن أدونيس قائلاً: (يَحْمِـلُ كِتَابُ أدونيـس المُعَنْوَن بـ«زمـن الشِّعْـر» دَلالته النَّسقيّة، مـن حيث توصيفه للزّمن بهـذا الصِّفَة، فهو ليـس زمن العَقْلِ ولا الفِكْر، وما هو بزمن الفِعْـلِ والسّياسة. إنّه «زمن الشِّعْر»، حتى أنْ لا حَدَاثَة في العَالَم العربيّ إلاّ في الشِّعْر، كما يقول أدونيس. ولا وجود لحَدَاثَةٍ في الفِكْر، أو الاقْتصاد، أو السّياسة والمُجْتمع).

٤-٣) الحَدَاثَة العربيّة: مُنْتَجٌ هَجِينٌ بين «الاغْتِراب» و«الانْفِصام»:

لقد راحتْ «الحَدَاثَةُ العربيّةُ» – في مُعْظَمِ أشْكَالِهَا الأدبيّة والفِكْريّة والسياسيّة – تَطْرَحُ مَقُولاتٍ وأفْكاراً اسْتفزازيّةً أدَّتْ إلى التّصادُمِ مع مُجْتمعاتِها التّقْليديّة، والتّمَرُّدِ على المَنْظُومَةِ الفِكْريّة والقِيميّة السّائِدة، وبذلك اسْتَعْدَتْ قطاعاتٍ وَاسِعَةً ومُتنامية في مُجْتمعاتِها. وبطبيعة الحال ليس من المُتَوَقَّعِ أنْ يُنْتِجَ مثل ذلك التَّوَجُّه الاسْتِفْزَازيّ تَوَافُقاً مُجْتمعيّاً، أو ازْدِهَاراً فِكْريّاً، يُسْهِمَان في تَطْوير المَوارِدِ البشريّة والطّبيعيّة، ويُنَمِّيان البُنَى التّحْتيّة والهياكِل التّنْظيميّة، ويَصْنعان القُوّةَ الاقْتصاديّة والعَسْكريّة لأيِّ مُجْتمع. ويرى محمد عابد الجابريّ(٥٩) أنّ هذه «الحَدَاثَة» الخَاضِعَةَ لمَفْهُوم «الاغْتِرَاب» هي: (ثقافةٌ تَنْطَلِقُ من الفَرَاغ، أيْ من اللاهُويّة، وبالتّالي فهي لا تَسْتطيعُ أنْ تَبْنِيَ هُويّةً ولا كياناً)، وهو بهذا يرى أنّ بعض «الحَدَاثيّين العرب»: (لا يَعْرفون من الثّقافة الأوروبيّة إلاّ الفُتَات والقُشُور، ويَتَّخِذُون من الجَهْلِ بالتُّرَاثِ العربيّ الإسْلاميّ ثقافةً لهم، فهم لا جُذُور لهم لا في هذه ولا في تلك. إنّ «المُثقَّفين اللّقَطَاء» لا يُمْكِنُ أنْ يُشارِكُوا الأُمّةَ في هُمُومِهَا، وذلك كان من الوَاجِبِ وَضْعُهُم خَارِجَ الهَمّ والاهْتِمام). وتَتَأَكَّدُ هذه الرُّؤية، فيما يَتَعَلَّقُ بهذا المُصْطلح الظَّريف: «المُثقَّفون اللّقَطَاء»، عندما نجد أنّ «مَفْهُومَ الحَدَاثَة» بَلَغَ إلى درجة الهَذَيَانِ حيث نَقِفُ – على سبيل المِثَال – عند أدونيس وهو يقول: (تَقْتَضِي «الحَدَاثَةُ» قَطْعاً مع التَّأَسْلُفِ والتَّمَغْرُب)(٦٤)، وهذا يَعْنِي أنّ الرّجُلَ يُريدُ أنْ يَبْدَأَ من «لا شيء»؛ وأمّا المَنْظُورُ العِلْميُّ لحقائِق الحياة وقوانين الطّبيعة فإنّه يُؤَكِّدُ أنّ: («لا شيء» يُوَلِّدُ «لا شيء» ليُوَلِّدَ «لا شيء»)، لتكون المُحَصِّلَةُ النّهائيّةُ «صِفْراً كبيراً».

وهكذا نجد أنّ «الحَدَاثَة» عنْد العرب تُعَانِي من «أزْمَة انْفِصَام» حقيقيٍّ مع «مَرَاحِل التَّطَوُّر» من ناحيةٍ، ومع «السِّياقات التَّاريخيّة» من ناحيةٍ أُخْرى، ومع «مَنْظُومَةِ الأولويّات المُجْتمعيّة» من ناحيةٍ ثالثة؛ وهي تَرْزَحُ تحْت وَطْأَةِ الخَلْطِ الوَاضِح بين «الحَدَاثَة» كمُنْطلقاتٍ فِكْريّةٍ ضَارِبَةٍ في تاريخ الغَرْبِ وقِيَمِهِ وثقافتِه، وبين «التّنْمية» بصفتها تطوُّراً بشريّاً يَسْتعينُ بالوسائِل، ويتلاقحُ مع الأفْكار، ويُحافِظُ على «الأصَالَة»، ويتفاعلُ مع «ثقافة المُجْتمع» وهُويّته. وأمّا أبْرز نقاط ضَعْفِ «الحَدَاثَة» فهي أنّها حَدَاثَةُ مجْمُوعةٍ

مـن المُثقَّفيـن، أو «الانتليجينسيـا» بالمَفْهُوم الغَرْبـيّ؛ أيْ أنّها «ثقافةُ نُخْبَـةٍ» يتحاورون ويتناقشون بعيداً عن الوَاقِع العربيّ، بمَعْنَى أنّهم لا يُعَبِّرُون عنه، ولا يتعاملون مع مُكَوِّناتِه، ولا يتصـدَّون لإشْكَالاتِـه التّنْمَويّة. أمّا طه عبد الرحمن[٦٥] فيـرى أنّ «رُوح الحَدَاثَة» هي: (رُوحٌ رَاشِـدَةٌ ونَاقِدَةٌ وشَامِلَة)، وأنّ من نتائِـج ذلك هو: (تَعَدُّدُ تَطْبيقاتِ «رُوح الحَدَاثَة»، بحيث يُمْكِنُ لها التَّجَلِّي في أكْثر من مَظْهَر). ولذا فإنّ «المَشْهَد الحَدَاثيّ العربيّ» – عبْر اخْتِزَالِـهِ لـ«الحَدَاثَـة» في مَظْهَرِهَا الفَنّـيّ والأدبيّ والاسْتِفْزازيّ – قـد أَعْلَنَ بذلك فشله وعـدم قُدْرَتِـهِ على تَمَثُّلِ «رُوح الحَدَاثَة» الحقيقيّة؛ لتكـون النّتيجة كما عَبَّر عنها عبد الله الغذّامـي[٤٩] بقوله: (ولا عجب هنا أنْ تكون «الحَدَاثَةُ» على هَامِش الوجود العربيّ، وتظلُّ خَارِجَ إطَـارِ الفِعْلِ والتّفاعُلِ الحَـيّ والتّغْييرِ الجِذْريّ)، ويقولُ أيضـاً: (والنَّصُّ الحَدَاثيّ نَصٌّ سَدِيميّ، حسب وَصْفِ أدونيس له، وهو عَبَثِيّ، ومُنَافٍ للمَنْطقيّ، يقوم على انْفِصَامٍ بين أدواتِ التّعْبير وما يُرَادُ التّعْبير عنه، وهو ذَاتِيٌّ لُغَتُهُ انْفِعاليّةٌ غير عَقْليّةٍ ولا عِلْميّة).

وهكـذا نَسْتطيـعُ أنْ نَخْلُصَ، ونحن فـي «الأَلْفيّة الثّالثة»، إلى أنّـه لم يَنْتُجْ عن ذلك «المَشْهَدِ الحَدَاثيّ العربيّ» ومراحِلِهِ المُخْتلفة –على مدى عُقُودٍ من المُحاولات الحَدَاثيّة– تَطْويـرٌ يُذْكَرُ، أو تَنْميةٌ تُثَمَّنُ، أو أَثَرٌ حضاريٌّ، أو مُحَصِّلَـةٌ فِكْريّةٌ مَلْمُوسةٌ، أو تَغَيُّرٌ ثقافيٌّ إيجابـيٌّ يَتْرُكُ انْعكاساتٍ مُضيئةً في «الحَرَاكِ المُجْتمعيّ»؛ بَـلْ هناك من «أَهْلِ الحَدَاثَة» من أَعْلَنَ توبته، ومنْهم من ذَكَرَ أنّنا تجاوزنا «الحَدَاثَةَ» إلى «ما بَعْد الحَدَاثَة»، وهذا يَعْني – بالضّـرورة – اضْمِحْلالَ «الحَدَاثَةِ» وتأْثيراتِها. إنّ «التَّجْرِبَةَ العربيّة» – في رأْيي[٦٠،١٠٩] – أَفْلَحَتْ – عبْر قَرْنَيْنِ من الزّمان – في المُحَافَظَةِ على «إشْكَاليّة النّهْضَة»، حيث راحتْ «المُجْتمعات العربيّة» تُرَاوحُ مكانها، ولم يَتَغَيَّرْ شيءٌ، ونحن نَدْلِفُ إلى «الأَلْفيّة الثّالثة»، وما زالَـتْ أدبيّاتُنا اليوم تُكَرِّرُ أدبيّات القَـرْنِ التّاسع عشر وبدايات القَرْنِ العشرين الميلاديّ فيما يَخُصُّ الهُويّة والنَّهْضَة والقِيَم ودَعَوات التَّغْريب ورُدود الفِعْل الغَاضِبَة، وبقي السُّؤالُ القديـمُ – الجديد: (لماذا تَأَخَّرْنَا، وتَقَدَّمَ غيرُنا؟)؛ أَيْ أنّ «الإشْكَالِيّةَ» باقيةٌ كما هي، إنْ لـم تَزْدَدْ عُمْقاً مع تراكُمَاتٍ ومُسْتَجِـدَّاتٍ ومُتَغَيِّراتٍ تَفْرِضُ – بالضّرورة – ثِقَلَهَا وأسْئِلتَهَا وحَيْرَتَهَا وضَبَابيّتَهَا.

٤-٤) أبْعادُ «الإشْكَالِيّة»:

إنّ «إشْكَالِيّـةَ الوَاقِـعِ العربـيّ المُعَاصِـر» ليس في أنّه تـرَكَ «التُّـرَاث» وانْهَمَكَ في «الحَدَاثَـة»، وليسـ لأنّه طَلَّقَ «الحَدَاثَـةَ» وانْغَلَقَ على «التُّرَاث»، ولـو أراد أَيَّ المَنْحَيَيْنِ لما اسْتطـاع؛ ولكـن جَانِباً رئيساً مـن إشْكَالِيّتِه تَكْمُنُ فـي أنّ «الخِطَابَ العربـيّ التُّرَاثيّ» ما زال بِرُمَّتِـهِ مُعَاصِراً لنـا سَواءً ما كُتِبَ قبْل ألْف عام، أو ما يُكْتَـبُ اليوم؛ فـ«الإشْكَالِيّة» ما زالـتْ كما هي لم تَتَغَيَّرْ، وما زالـتْ أسيرةً لفَقْدِ القُدْرَةِ على تَمْييـزِ «البُعْدِ الزَّمْكَانيّ» في تَشْخيصِهَـا وتصوُّراتِهَا وتَأْويلاتِهَا. إنّ «الخِطَابَ التُّرَاثيّ» لم يَتَغَيَّرْ على الرّغْم من تراكُمِ الخِبْـرات، وطفراتِ المَعْرفـة، وإنْجازاتِ الفِكْر الإنْسانيّ؛ وهكذا نجـدُ أنّ الدِّراسات في هـذا الشّأْن كما يقول أحمد موصللـي: (تَتَمَحْوَرُ الدِّراساتُ حـول الماضي، المُنْقَطِع عن الحَاضِر، أو الحَاضِر المُنْقَطِع عن الماضي؛ فهناك ثُنَائِيّاتُ الماضي والحَاضِر، والتُّرَاثِ والعِلْم، والحَدَاثَةِ والتّقْليد، والاسْتِبْدَادِ والحُرّية، وهي مُسَيْطِرَةٌ على عُقُولِ المُثقَّفين. أمّا «العِلْـمُ الحديثُ» فنحن لا نَصْنَعُه، بالرّغْم من تَعَدُّدِ الجامعات ومراكِزِ الأبْحاث والنّشر. وهكـذا لا يَصْنَـعُ المُثقَّفـون والعُلماء العـرب العِلْـم، ولا يُسَاهِمُون حتّى فـي تَطْويرِه في عَالَمِهِـم العربـيّ. أمّا الحُرِّيّةُ في العمل على التُّرَاثِ من فِقْـهٍ وعِلْم كلامٍ وفَلْسفةٍ وغيرها فهي مَفْصُولةٌ عن علوم الدُّنْيا)[١٦].

وفـي هـذا السِّياق نَتَّفِقُ مع محمد عابـد الجابريّ عندما يَصِـفُ «إشْكَالِيّة الأَصَالَةِ والمُعَاصَـرَة» بأنّهـا: (إشْكَالِيّةٌ فِكْريّةٌ ثقافيّـةٌ مَحْضٌ، بمَعْنَى أنّها تجـدُ أُسُسَهَا ومُبَرِّرَاتِ وجودِها في الوَضْعِ الثّقافـيّ والفِكْريّ، العربيّ الرّاهِن، في مُكَوِّنَاتِهِ وتناقُضَاتِه)[١]؛ ومن أبْـرز هـذه التّناقُضات تلك «الازْدواجيّة» التـي وَصَفَهَا الجابريّ بأنّهـا: (تَتَمَثَّلُ في وجود قِطَاعَيْـن، أو نَمَطَيْـن من الحيـاة الفِكْريّة والماديّة، أحدهمـا، «عَصْـريٌّ» مُسْتَنْسَخٌ من «النَّمُـوذَجِ الغَرْبيّ» ومُرْتَبِطٌ به ارْتباط تَبَعِيّة، وثانيهما، «تَقْليديٌّ»، أو «أَصْليٌّ»، أو «أصيلٌ»، هو اسْتِمرارٌ لـ«النَّمُوذَجِ التُّرَاثـيّ» في صُورتِه المُتأخِّرَةِ المُتَحَجِّرَةِ المُتَقوقِعَة، والقِطَاعَان معـاً مُنْفَصِـلان، أو مُتَوازِيَان، أو مُتَدَاخِـلان بعْض التَّدَاخُل، يتنافسـان ويتصادمان في

حياتنـا اليوميّة، على صعيد وَاقِعِنـا الاقْتصاديّ والاجْتماعـيّ والسّياسيّ كما على صعيد وعينا وفضاء تَفْكيرنا) [٥٩]. وهنا أيضاً نَتَّفِقُ ونَخْتَلِفُ مع محمد عابد الجابريّ؛ فنَتَّفِقُ معه عندما اقْتَرَحَ ضرورة التَّوَجُّهَ لضَبْطِ مُصْطلح «الأَصَالَة» عندما جعل: (إعادة كِتابة تاريخنا الثّقافـيّ برُوح نَقْديّةٍ ورُؤيةٍ عَقْلانيّةٍ تاريخانيّةٍ ضرورةً مُلِحَّةً، ليس فقط من أجل امْتِلاكِ تُرَاثِنَـا والتَّحَرُّرِ من ثِقَـلِ حُضُورِه، بَلْ أيضاً مـن أجل إعْدَادِ التُّرْبَـةِ الصّالِحَةِ الضّروريّةِ لاسْتِنْبَاتِ أُسُسِ التّقدُّم والتّطوُّر في فِكْرِنَا وثقافتِنا المُعَاصِرَة، الشَّرْطُ الضّروريُّ لتَأْصيلِ «المُعَاصَرة» فينا، أَعْنِـي تَحْويلها من مُعَاصَرةٍ قَائِمَةٍ على التَّبَعِيَّةِ والنَّقْلِ والاسْتِنْسَاخِ إلى مُعَاصَرةٍ قَائِمَةٍ على المُوَاكَبَةِ والمُسَاهَمَةِ إنْتاجاً وإبْداعاً) [١].

أقـول: نَتَّفِقُ مع الجابريّ في أهميّةِ نَقْدِ «التُّرَاث»، والمُرَاجَعَاتِ العَقْلانيّة، وعمليّاتِ الغَرْبَلَـةِ والتَّحْقيق، وهذا يُمَثِّلُ الشِّقَّ الأوّلَ مـن «الإشْكَاليّة» القَائِمة، وهو يقع في إطَارِ ما أَسْمَـاهُ «التَّخْطيط لثقافة الماضـي» [١]؛ ولكنّنا نَخْتَلِفُ معه – أيضاً – لأنّ الشِّقَّ الثّاني من «الإشْكَاليّة» القَائِمَةِ يقع – بالضّرورة – في إطَارِ ما أَسْمَاهُ «التَّخْطيط لثقافة المُسْتَقْبَل» [١]، وهذا النَّوْعُ من «التَّخْطيط» يَحْتَاجُ إلى تفاصيل تتجاوز الإشاراتِ العامّة والوَصْفَ السَّرْديّ، وهـو «تَخْطيطٌ» مُغَيَّبٌ تماماً في وَاقِـعِ «الثّقافة العربيّة» باسْتِثْنَاء مُحـاولاتٍ فَرْديّةٍ – هنا وهنـاك –، وكثيـرٌ منها مُرْتَجَلٌ وتَغيبُ عنـه التّفاصيلُ الإجْرائيّةُ والسِّمَـاتُ العمليّة. ولذا فـإنّ «نَقْدَ التُّرَاث» وَحْدَهُ لا يَكْفِي، ومن الضّروريّ أنْ يَحْتوي «التَّخْطيط لثقافة المُسْتَقْبَل» على عناصِر حَيّةٍ وبصماتٍ مُؤثِّرةٍ للحركة العَارِمَةِ التي تُشَكِّلُ الحَاضِرَ وتَصْنَعُ المُسْتَقْبَل، وهذه الحركة هي «الحركةُ العِلْميّةُ – التِّقنيّة» بتداعياتِها المَعْرفيّة، ومُقْتضياتِها الثّقافيّة، وآفاقِها الفِكْريّة.

مـن المُهِمّ – إذاً – أنْ نُحَدِّدَ حقيقـة «الحَدَاثَة»، ونَفْحَصَ مُحْتواها وقِوامَهَا، ونَسْبُرَ مُقَوِّمَاتِهَـا وعناصِرَهَـا، ولن نجد الأَمْر عسيـراً؛ لأنّها وَاقِعٌ يَتَحَرَّكُ أمامنـا، ويَتَحَكَّمُ في مصيرنـا – شِئنـا أم أبينـا –، وأمّـا ما يَبْـدُو لبعْض النَّاظِرين بـأنّ: (الثّقافـة العَلْمَانيّة مُصَاحِبَـةٌ للحَدَاثَة) [١٦]، فهـو لا يَعْدُو كَوْنَهُ أَحَد أبْعَادِ تَأْثير «ثقافـة الغَالِب»؛ فـ«الحَدَاثَةُ» بمُحْتواهـا الفَاعِلِ وتَأْثيرِهَا الجوهريّ – في نهاية المطـاف – تَتَمَثَّلُ في «الحركة العِلْميّة

- التِّقنيّــة»، وآثارِها الماديّة والفِكْريّة والفَلْسفيّــة، ومُقْتضياتِها الاقْتصاديّة والاجْتماعيّة والسّياسيّــة القَابِلَةِ للنَّقْدِ والتّطْويرِ والقَوْلَبَةِ والتّكْييفِ حــال امْتِلاكِ القُدْرَةِ على التّعامُلِ مع أسْبَابِهَا العِلْميّة ومُعْطياتها التِّقنيّة.

٤-٤-١) هل «الأَصَالَة» مَفْهُومٌ «نِسْبِيٌّ»؟:

يَحْتَــلُّ مَفْهُومُ «النِّسْبَوِيّــة» (Relativism) - في الفِكْرِ الغَرْبــيّ - مَرْكَزَ الصَّدارة، ويشيــعُ عبْــر مُخْتلــف مدارِســه ومَنْظُوماتِه الفِكْريّــة والعَقَديّــة والاجْتماعيّــة والسُّلوكيّة والسّياسيّة، حيث يتبنَّى دُعاة «الفِكْرِ النِّسْبَوِيّ» مَقُولة: (كُلُّ حقيقةٍ نِسْبِيَّة)؛ وبذا لا تُوجَدُ عندهم حقيقةٌ مُطْلَقَةٌ، أو مَرْجِعِيّةٌ ثَابِتَةٌ، أو وِجْهةُ نَظَرٍ ذات صلاحيّةٍ دَائِمَةٍ وغيرُ مُتغيِّرَةٍ - زمانــاً ومكانــاً -؛ وهذا يَعْنِــي أنّه لا تُوجَدُ مقاييــس للتَّمييزِ بين الصَّــوابِ والخطأ، ولا يُصْبِــحُ للأَحْكَامِ الاجتماعيّــة أو العقائديّة مَعْنَىً؛ فما هو مَقْبُولٌ ومُعْتَمَــدٌ اليوم يُمْكِنُ أنْ يكون مَنْبُوذاً ومُحَارَباً غداً، والعَكْسُ صحيح. في «المَفْهُوم النِّسْبَوِيّ» لا تَحْظَى المُعْتقداتُ والقِيَــمُ والأَخْــلاقُ والمُمَارَسَــاتُ بمَرْجِعِيّــةٍ مُطْلَقَــة، ولكنّها قضايــا «ذَاتِيّــةُ المَرْجِعِيَّة» (subjectivity)؛ فهــي تَتَغيَّرُ زماناً ومكاناً، وتَتَبَــدَّلُ وفْق المُجْتمعات والظُّرُوف والبِيئات والثّقافات؛ ولكُلٍّ مُبَرِّراتها ومُسَبِّباتها.

بطبيعــة الحــال، كان لا بُــدَّ لـ«الثّقافــة الغَالِبَة» في زمننــا أنْ تَطْبَــعَ بصماتِها على تفاعُــلاتِ «الثّقافات المَغْلُوبَة»، وأنْ تَكْتَسِحَ السّاحاتِ الضَّعيفة والمُتَهيِّبَة، ممّا يُجيزُ لنا - فــي إطار الحديث عن «الأَصَالَة والمُعَاصَرة» - أنْ نَسْــأل: (هل «الأَصَالَةُ» مَفْهُومٌ «نِسْبِيٌّ» يَتَغَيّرُ بتغيُّر «الزَّمان» و«المكان»؟). إنّ مِثْل هذا السُّؤال يَجْعَلُنَا نعود إلى قَضِيَّتَيْن:

١) الفَــرْقُ بين «الأَصَالَة» و«التُّــرَاث»، ولقد حَرَصْنَا - في ما سَبَقَ من هذا الفَصْل - علــى التَّمْييز بيــن مُصْطلحَيْ «الأَصَالَة» و«التُّرَاث»؛ فــالأوّلُ هو مَجْمُوعةٌ من «الثَّوابِــت» أو «الحقائِــق المُطْلَقَــة» التــي يَنْبَغِــي أنْ لا تتأثّر بالزّمــان والمكان والثّقافــات، وأمّــا المُصْطلح الثّانــي، فهو التَّراكُمَــاتُ البشريّــة والاجْتِهَادَاتُ

المُتَنَوِّعَـة، وهـي - بالضّـرورة - تتأثّـرُ بالزّمـان والمـكان والبِيئـة والثّقافـة وخصائِص المُجْتمع.

٢) ضـرورة التَّصَدِّي للسُّـؤال: (هلْ هذه المَجْمُوعـة من «الثَّوابِـت» المُنْتَمِيَة لما أَسمينـاه «الأَصَالَـة» هي في حَـدِّ ذاتها قَابِلَـةٌ للخُضُـوعِ لـ«مَفْهُـومِ النِّسْبَوِيَّة» واسْتيعابِه في تفاعُلاتِها؟).

ليس من أهْداف هذا الكِتاب الوُلُوجُ في البُنى الفَلْسفيّة والنّقاشات الجَدَليّة، بَلْ لعلّه - كمـا هو وَاضِحٌ من «الرُّؤية المِحْوَرِيّة» للمُؤلِّفِ والمَطْرُوحَةِ باستِفاضةٍ بين دَفْتَيْ الكِتاب - يُكرِّسُ انتقادها وتِبْيَان أضْرارها، ويَحُثُّ على تَقْليصِ كَمِّهَـا، وتَحْجيمِ نَوْعِهَا، لتَنْطَلِقَ قَافِلَـةُ «المُجْتمعات العربيّة» على أساسٍ تَوَافُقـيٍّ يَسْتَخْدِمُ «المِجْهَرَ التَّنْمَوِيّ» ويتفاعلُ مع «المَرْجِعِيَّـة العِلْميّة». ولكن للإجابة عن السُّؤال المَطْرُوح في هذا المَبْحث، فإنّ علينا أنْ نُعـرِّجَ على أهمّ حُجَـجِ «النِّسْبَوِيَّة»، فهناك جَدَلٌ وَاسِعٌ، بيـن الفلاسفة والأنثروبولوجيّين وعُلمـاء الاجْتمـاع وأساطين الفِكْـر السّياسيّ واللّيبراليين الذين انضمُّوا إلـى المَعْمَعَةِ تحـت اسْم «الحُرِّيّة الفَرْديّة»، حيث نَلْمَسُ تَنَوُّعاً في درجات «النِّسْبَوِيَّة» - رَواجاً وانْتِشاراً وتَأْصيـلاً - في تلك الأُطُـرِ المُتعدِّدَةِ للتّفاعُلات البشريّة. ولكـن بالرّغم من كلّ ذلك إلاّ أنّـه لا يغيـبُ عن أيٍّ منها أهميّة دَعْـمِ «الرُّؤية النِّسْبَوِيَّة» بالسِّـلاح الأقْوى في عَالَمِ اليوم وهـو «سِلاح العِلْم»؛ فكُلّما جاءتْ حُججهم مَدْعُومَةً بقرائِن عِلْميّةٍ ونظريّاتٍ فيزيائيّةٍ كان ذلـك أدْعَى لقَبُولِ دَعْواهم، واكْتِسَابِ أرضٍ عِلْميّةٍ صُلْبَةٍ، ودَحْضِ مَقُولات المُناوئين. لذا ليـس من المُسْتَغْرَبِ أنْ يَعْمَدَ «دُعَـاةُ النِّسْبَوِيَّة» إلى «العِلْمِ الطَّبيعيّ» ليُسَارِعُوا إلى تَجْنيد أيّ نظريّـةٍ فيزيائيّةٍ توهَّمُوا أنَهـا تُؤكِّدُ «نِسْبَوِيَّتَهُم»؛ فهم تارةً يَحْتَجّون بـ«مَبْدأ الرِّيبة» في الفيزياء (The Heisenberg Uncertainty Principle)، وتارةً أُخْرى بـ«ميكانيكا الكَمّ» (Quantum Mechanics)؛ وكُلُّ هـذه المَزَاعِـم تتهاوى - عنـد التّمحيص والتّبيين -، وهـي مَزَاعِمُ قَابِلَـةٌ للدَّحْضِ العِلْميّ. وأمّا «العمـود الفِقْريّ العِلْميّ» لدعـاوى «النِّسْبَوِيَّة» فهـو «النّظريّةُ النِّسْبِيَّـةُ» (The Theory of Relativity) لألبرت آينشتاين حيث نجد أنّ أصْحـاب «النِّسْبَوِيَّة»، ودُعاة «ذَاتِيِّةِ المَرْجِعِيَّـة»، يتوسَّلُون دَعْماً عِلْميّاً من آثارِها الفِكْريّة

وتداعياتِهــا الفَلْسفيّة؛ ولذا فإنّنــا سنَبْحَثُ - بإيجازٍ - في مُنْطلقــات «النَّظريّة النِّسْبِيَّة» ونتائِجِها، ونتحرَّى مدى تماسُكِ «المَزَاعِمِ النِّسْبَوِيَّة» حولها.

٤-٤-١- أ) «النّظريّة النِّسْبِيَّة» تَنْسِفُ «النِّسْبَوِيَّة الفلسفيَّة»:

لكــي نَتَعَرَّفَ على حقيقة «النَّظريّة النِّسْبِيَّة» في الفيزياء - مُنْطلقاً وتداعياتٍ - فإنّ مــن الضّروري أنْ نَتَوَقَّفَ أمام مفاهيمهــا الرّئيسة(١١٠) لنجــد أنّ «النَّظريّة النِّسْبِيَّة» هي فــي الوَاقِعِ نظريّتان؛ الأولى، تُعْرَفُ باسْم «النَّظريّــة النِّسْبِيَّة الخَاصَّة»؛ لأنّها تَخْتَصُّ بما يَحْــدُثُ في «الأَنْظِمَةِ القُصُوريّة» فقط، وهــي الأَنْظِمَةُ التي تَتَحَرَّكُ بسُرْعةٍ مُنْتَظِمَةٍ؛ لأنّها لا تَخْضَــعُ لتَأْثير قُوىً خَارِجيّةٍ، ولقد نَشَــرَ آينشتاين هذه الورقة العِلْميّة في عام ١٩٠٥م. وأمّــا النّظرية الثّانية، التي نَشَرَهَا آينشتاين في عام ١٩١٥م، ليُعَمِّمَ فيها فرضيّاته، فهي تتعاملُ مع الأَنْظِمَةِ التي تَخْضَعُ لتغيُّراتٍ في السُّرْعة، وتتأثّر بقُوّة «الجَاذِبيّة»، ولذا عُرِفَتْ باسْم «النّظريّة النِّسْبِيَّة العَامّة».

لقد اعْتَمَدَتْ «النَّظريّةُ النِّسْبِيَّةُ»، بشِقَّيها، على مَفْهومَيْن أساسَيْن، وهما:

١) إنّ «سُرْعة الضّوء» مِقْدارٌ ثابتٌ مُطْلَقٌ لا يَتَغَيّرُ بتغيُّر سُرْعة المَصْدَرِ أو الرّاصِد.

٢) إنّ «صلاحيّــة قوانيــن الفيزيــاء» سَارِيــة المَفْعُول فــي كُلّ الأَنْظِمَــة؛ وبذا فإنّ «قوانين الفيزياء» لا تَتَغَيَّرُ بتغيُّر «الزَّمان» أو «المكان».

لقــد تَرَتَّــبَ على تِلكمــا «الحقيقَتَيْــن المُطْلَقتَيْــن» نتائِج «نِسْبِيَّــةٍ» مُذْهِلَــةٍ، وأَصْبَحَ «المكان» و«الزَّمان» و«الطَّاقة» و«المادّة» في حالة الْتِحامٍ حميمةٍ بحيث يُؤَثِّرُ كُلٌّ منهم في الآخَر لتَتِمَّ إعادة صِياغةٍ كاملةٍ لتصوّراتِنا عن الكَوْن، واسْتَنْتَجَ آينشتاين من «المَفْهومَيْن المُطْلَقَيْن» «الحقائِق النِّسْبِيَّة» التّالية:

١) إنّ «الكَميّــات الفيزيائيّــة»، مِثْــل: «السُّرْعَــة» و«الكُتْلَة و«الطُّول»، هــي «كَمِّيّات نِسْبِيَّة» تَعْتَمِدُ على «سُرْعة الرَّاصِد».

٢) إنّ «الزّمان» و«المكان» مَفْهُومان مُتداخِلان يُؤَثِّرُ أحدهما في الآخَر، وأُطْلِقَ على هذا التّداخُل مُصْطلح «الزَّمْكان»؛ وبذا أَصْبَحَ «الزَّمان» و«المكان» «مَفْهُومَيْن نِسْبِيَّيْن» بحيث تَعْتَمِدُ مقاديرهما على «سُرْعَةِ النِّظَام بالنِّسْبَةِ إلى الرَّاصِد».

وهكـذا أَلْغَتْ «النَّظريّةُ النِّسْبِيَّةُ» ما كان سَائِـداً في «الفيزياء التَّقْليديّة» من اعتقاد أنّ «الزّمـان» و«المكان» مَفْهُومان «مُطْلَقَان»، وأَكّدَتْ فـي الوَقْت نفْسه أنّ «سُرْعَةَ الضّوء» مُطْلَقَـة، وهـو الأَمْـرُ الذي لـم يَخْطُرْ على بـال بشرٍ من قبْـل. وهكذا نجـدُ أنّ «النّظريّة النِّسْبِيَّة» نفْسها تَحْتوي على «ثَابِتٍ أصيلٍ»، وذلكم هو «سُرْعة الضّوء» ذو «القِيمة المُطْلَقة» التي لا تَتَغَيّرُ بتغيُّر «الزّمان» و«المكان»، ويُعْتَبَرُ هذا «المَفْهومُ المُطْلَقُ» الفرضيّةَ الأَسَاسَ لـ«النَّظريّـة النِّسْبِيَّـة» فهي تَسْقُـطُ وتَنْهَارُ بدونها. وأمّـا «المَفْهُومُ المُطْلَـق» الآخَر الذي تَسْتَنِـدُ إليـه «النَّظريّة النِّسْبِيَّة» فهو «صلاحيّةُ قوانين الفيزياء» فـي كُلّ الأَنْظِمَةِ والأُطُر؛ فلـ«قوانيـن الفيزياء» الهَيئة نفْسها لجميـع الرَّاصِدين في مُخْتلف النُّظُمِ بغَضِّ النَّظَرِ عن «ذَاتِيَّةِ الرَّاصِد» أو مَوْقِعِهِ في «الزَّمان» و«المكان».

وأمّـا «الأدبيَّـاتُ العِلْميّة»[111] فتُؤَكِّـدُ أنّ آينشتاين أَطْلَقَ علـى نظريّته اسْم «نظريّة الثَّبَات» (Theory of Invariance) لأنّها تَعْتَمِدُ - أساساً - على «الثَّبَات» وليس «النِّسْبِيَّة»، ولم يَظْهَرْ اسْم «النَّظريّة النِّسْبِيَّة» إلاّ بعد فَتْرَةٍ من نَشْرِهِ لورقته العِلْميّة في عام ١٩٠٥م، ولقـد حَدَثَ ذلك عندمـا سَكّ الفيزيائـيّ ماكس بلانـك (Max Planck) ذلك المُسمَّى الـذي قاومه آينشتاين لعِدّة سنواتٍ قبـل أنْ يَنْحَنِي لضَغْطِ «المُجْتمع العِلْميّ» بسبب رَوَاجِ ذلـك المُسمَّى. ولقـد ازداد امْتِعاضُ آينشتاين مـن مُسمَّى «النِّسْبِيَّة» مـع ما شاهده من تَحْريـفٍ لنظريّته والاسْتِشهاد بها من قِبَل «دُعَـاة النِّسْبَوِيَّة» في مجالات الأَخْلاق والقِيَم والمُمارَسـات والعقائِد وغيرها، فكأنّهم زعموا أنّ نظريّـة آينشتاين تقول إنّ «كُلّ حقيقةٍ نِسْبِيَّـة»، بينمـا الحقيقة العِلْميّة تُؤَكِّـدُ أنّ «الثَّبَات» و«عـدم التَّغَيُّر» هما عِمَـادُ «النَّظريّة النِّسْبِيَّة» وأساسُها.

أمّا ما هو أَدْعَى لشَجْبِ مَقُولات «دُعَاة النِّسْبَوِيَّة»، الذين يَزْعُمُون وَصْلاً بليلى، هو أنّ «قوانين الفيزياء» تَسْتَنِدُ إلى ما يُعْرَفُ بـ«الثَّوابِتِ الكَوْنيّة» التي لا تَتَغَيَّرُ في «الزَّمان» و«المكان»، فهي «ثَوابِتٌ مُطْلَقَةٌ». بَلْ لعلّ ما هو أَدْهَى من ذلك وأَمَرّ - بالنِّسْبة لمَزَاعِم «النِّسْبَوِيَّة» - هو أنّ «العِلْمَ» كُلَّه - بمُحْتواه الفيزيائيّ والكيمائيّ والرّياضيّ والبيولوجيّ والجيولوجيّ - يَسْتَنِدُ إلى قوانين لا تَتَغَيَّرُ في «الزَّمان» و«المكان»، وهي تَصِفُ ذلك القَدْرَ اليسير من «المَعْرِفَةِ» الذي اسْتطاع الإنْسان - بعَقْله وجُهْده وأدواته - أنْ يَدْرُسَهُ ويَعْرِفَهُ عن الكَوْن، وهذه القوانين هي جُزْءٌ مُشَاهَدٌ ومُجَرَّبٌ من سُنَن الله في الآفاق.

نَخْلُصُ - ممّا سَبَقَ - إلى أنّ «نِسْبِيَّةَ الزَّمان والمكان» في «النّظريّة النِّسْبِيَّة» تَنْبَثِقُ عن «ثَوابِت»، وهي «ثَبَاتُ سُرْعَةِ الضّوء» و«صلاحيّةُ قوانين الفيزياء» في كُلّ الأَزْمنة والأَمْكنة. وهذه الحقيقة تقودُنا إلى أنّ «المَفْهُومَ النِّسْبَوِيّ» في أحْوال البشر ومُتغيِّرات المُجْتمعات - زماناً ومكاناً - يَنْبَغِي أنْ يَسْتَنِدَ إلى «ثَوابِت» وإلاّ عَصَفَتْ بالمُجْتمعات الفوضى، وانْعَدَمَتْ القُدْرَةُ على التَّمْييزِ في أحْكام المَسْؤوليّات والحُقُوق والوَاجِبات، وتَرَدَّتْ تلك المُجْتمعات في أَتُونِ الفِتَن؛ وهذا يعودُ بنا إلى ما أَكَّدْنَاهُ في هذا الفَصْلِ من ضرورة التَّمييز بين مَفْهُومَيْ «الأَصَالَة» و«التُّرَاث» في «الفِكْر الإسْلاميّ»؛ فالأوّلُ يُمَثِّلُ «الثَّوابِتَ» و«المَقَاصِدَ» التي تَلْتَزِمُ بها المُجْتمعات الإسْلاميّة، وهي مُرْتَبِطَةٌ جِذْريّاً بما ورد في «الكِتاب والسُّنّة»، وهي - بالضّرورة - أُسُسٌ «مُطْلَقَةٌ» و«غير نِسْبِيّةٍ». وأمّا المَفْهُومُ الثّاني، وهو «التُّرَاث»، فيُمَثِّلُ مَجْمُوعةً مُتَرَاكِمَةً - زماناً ومكاناً - من اجْتهاداتِ البشر وعاداتِهم ومُمَارَسَاتِهم وظُرُوفِهم، وهي - بالضّرورة - تَخْضَعُ لـ«المَفْهُومِ النِّسْبَوِيّ».

٤-٤-١- ب) «النِّسْبَوِيَّة»: بين «المَنْطِق» و«نِهاية التّاريخ»:

لعلّ من المُناسِبِ أنْ نُورِدَ هنا طَرْحاً مَبْنيّاً على «المَنْطِقِ» الذي يَرْكَنُ إليه الفلاسفة ويَسْتَشْهِدُون به، وهذا الطَّرْحُ المَنْطِقيّ[111] يَدْحَضُ العِبَارَةَ الزّاعِمَةَ بأنّ: (كُلّ حقيقةٍ نِسْبِيَّةٌ)؛ فوفْق هذا الطَّرْح فإنّ هذه العِبَارَة تُناقِضُ نفْسها لُغَويّاً، وتُعَارِضُ مَدْلُولاتها مَنْطقيّاً؛ فهي إمّا أنّها «عِبَارَةٌ مُطْلَقَةٌ» ممّا يَعْنِي أنّها تُؤَكِّدُ في حَدِّ ذاتها «وجود المُطْلَق»،

وإمّا أنّها «عِبَارَةٌ نِسْبِيَّةٌ» ممّا يَجْعَلُهَا غير قَادِرَةٍ على نَفْي «المُطْلَقَات»!. وأمّا ما يُثِيرُ الانْتِبَاهُ ويَدْفَعُ إلى التّعجُّبِ فهو أنّ «الثّقافة الغَالِبَة»، وهي «ثقافة الفِكْرِ الغَرْبيّ»، تُرَوِّجُ - بنشاطٍ وحماسٍ - لـ«مَفْهُوم النِّسْبَوِيَّة»، وتُؤكِّدُ على «النِّسْبَوِيَّة الثّقافيّة»، حيث تَزْعُمُ أنّ القِيَمَ والمبادئ والمُثُلَ تَتَغَيَّرُ بتغيُّر البِيئات والثّقافات والمُجْتمعات، إلاّ أنّها في الوَقْت نفْسه تُؤكِّدُ أنّ ثقافتها «ثقافةٌ مُطْلَقَةٌ»، سَاعِيةً بكُلِّ ما أُوتيتْ من قُوّةٍ - عبْر أدواتها العَوْلَميّة وهَيْمَنَتِهَا الإعْلاميّة ومُنظّماتها العَالَميّة - إلى فَرْضِ نَهْجِ «الثّقافة الغَرْبيّة» وقِيَمِهَا ومفاهيمِها على الآخَرين في مُخْتلف الأصْعِدَة، وزَاعِمَةً أنّ ثقافات الآخَرين هي ثقافاتٌ لم تَنْضَجْ بعْد لتَكْتَسِبَ «المعاني المُطْلَقَة» و«القِيَم الأصيلة» التي يَتَمَيَّزُ بها «الفِكْرُ الغَرْبيّ».

إنّ الأمْثلة على ذلك كثيرةٌ؛ فليس ببعيدٍ عنّا زَعْمُ فرانسيس فوكاياما[١١٢،١١٣] بما أَسْمَاهُ «التَّاريخ ذو الاتِّجَاه» (Directional history)؛ وفي رأْي فوكاياما فإنّ ذلك «الاتِّجاه الحَتْمِيّ» هو نحو «الدِّيموقراطيّة الليبراليّة» حيث يرى أنّ: (البشريّة ستتوقّفُ عن أيّ تَقَدُّمٍ إضافيٍّ في مَنْظُومَاتِهَا ومبادِئها الأساس؛ لأنّ الأسْئلة الكُبْرى للبشريّة تكون قد اسْتَقَرَّتْ، وأنّ شَكْلَ المُجْتمع أَصْبَحَ مُتَوَافِقاً مع أعْمق رغبات وطُمُوحات الإنْسان)[١١٢]. وهكذا يَقْفِزُ فوكوياما إلى حتميّة التّاريخيّة، فيرى أنّ «الدِّيموقراطيّة الليبراليّة» ستكون: (نُقْطة النّهاية في التّطوُّر العقائِديّ للبشر)، وتُصْبِحُ (الشَّكْلَ النِّهائيّ للحكومة البشريّة)؛ وبعِبَارَةٍ أُخْرى، «الحالةُ المُطْلَقَةُ» التي تَنْشُدُهَا وتَسْتَقِرُّ عندها المُجْتمعات البشريّة!. أمّا ما تُدَنْدِنُ حوله «المُجْتمعات الغَرْبيّة» عن مَفْهُوم «حُرِّيّة التّعْبير» واعْتباره «مَفْهُوماً مُطْلَقاً» لا يَقْبَلُ مُساومةً ولا تنازُلاً ولا مُراجَعَةً فأَمْرٌ بارزٌ للعِيان، حيث تُسارِعُ مُنظّماتهم السّياسيّة ومَنْظوماتهم الإعْلاميّة وهيئاتهم الحُقُوقيّة إلى الدِّفاع - بشراسةٍ - عن «حُرِّيّة التَّعْبير» حتى ولو كانتْ على حِساب الاعْتِداء على مُقدّسات الآخَرين، وما الرُّسُومُ الكاريكاتيريّة المُسِيئة للرسول - صلّى الله عليه وسلّم - وغير ذلك من اعتِداءاتٍ على «الذّات الإلهيّة» ورُمُوزِ المُجْتمعات الأُخْرى وأنْماطها الحياتيّة إلاّ مِثالاً حَيّاً على تَقْديسِهم لـ«مَفْهُوم حُرِّيّة التّعْبير» ليُصْبِحَ «مَعْبُوداً» في ثقافةٍ تَتَبَنّى «النِّسْبَوِيّة» والتّحَرُّر من «المُطْلَقِ الثّقافي». وتُناقِضُ هذه «الثّقافة النِّسْبَوِيّة» نفْسها - أيضاً - إزاء الحَدَثِ التّاريخيّ المَعْرُوف

بـ«المَحْرَقَـةِ اليهوديّـة» (The Holocaust) فنجـد أنّه لا يَخْضَـعُ لـ«نِسْبويِّتهم» أو «حُرِّيّة التّعْبيـر» عندهم، فهو «حقيقةٌ مُطْلَقَةٌ» لا يجوزُ إنْكارُهَا أو التَّشْكيكُ في وقائِعها، أو إعادةُ النَّظَـرِ في عدد ضحاياها، ويُعْتَبَرُ التَّطَرُّقُ إلى ذلك مَدْعَاةً للتَّجْريم والمُحَاكَمَةِ والتَّسْفيهِ فـي عَدَدٍ من الدُّول الغَرْبيّة، وهـو عندهم أمْرٌ يَنْضَوي تحت «التُّهَمَـةِ المُطْلَقَة» المَعْرُوفة لديهم باسم «مُعادَاة السَّامِيّة» (Anti – Semitism)!.

٤-٤-٢) «إشْكَالِيّة الثّقافَتَين» على الصّعيد العربيّ:

إنّ «الخاصيّـة الثّقافيّـة» لـ«إشْكَاليّـة التّنْمية» تَفْرِضُ علينا مُقارَنَـةَ ما يَحْدُثُ على الصّعيد العربيّ بذلك المُنْعَطَفِ المُهِمّ في «الثّقافة الغَرْبيّة» الذي طَرَحَهُ تشارلز سنو[٣٢] في عـام ١٩٥٩م تحت اسْم «إشْكَاليّة الثَّقافَتَيْن»، ولقـد تطرَّقنا إليه ببعْض التّفْصيل في الفَصْل الثّاني، حيث وجدنا أنّه بعد أنْ حَسَمَتْ «المُجْتمعاتُ الغَرْبيّةُ» مَوْقِفَهَا من السُّلْطَةِ الدِّينيّـة والقُيُودِ التُّرَاثيّة، وانْطَلَقَتْ في رِحاب «الحَدَاثَة» بأنْواعها، وتَبَنَّتْ «المَنْهَجَ العِلْميّ التّجْريبـيّ»، اكْتَشَفَتْ تلك المُجْتمعات أنّها في حاجةٍ مُلِحَّةٍ إلى «ثقافةٍ جديدةٍ» تَتَوَاءَمُ مع «رُوحِ العَصْر»، وتتجانسُ مع حركته العِلْميّة والتِّقنيّة وآفاقه التّنْمويّة، وأدْرَكَتْ أنّه لم يكنْ كافيـاً أنْ تَتَحَقّقَ فيها «الحَدَاثَـةُ» بأشْكالِها الأدبيّة والفنيّة والسّياسيّة، بَلْ وَجَدَتْ أنّ ذلك يكون – أحياناً – مُعِيقاً للحركة التّنْمَويّة، ومُعَرْقِلاً للحيويّة العِلْميّة.

فـي «إشْكَاليّـة الثَّقافَتَيْن» – عنـد تشارلز سنو – تَمَحْوَرَتْ القضيّـةُ حول صِراعٍ بين طَـرَفٍ «تُرَاثـيٍّ» اخْتَزَلَـهُ تشارلز سنو في «الأدب»، وطَـرَفٍ «حَدَاثيٍّ» يَتَمَثَّـلُ في «الحركة العِلْميّة»؛ وأمّا في «إشْكَاليّة التُّرَاث والحَدَاثَة» في «المُجْتمعات العربيّة» فإنّ القضيّة تَأْخُذُ أغْواراً أعْمق وتَتَّسِمُ بخصائِص مُرَكَّبَةٍ فنجد أنّ «النّمُوذَجَ التُّرَاثيّ» – بمُكَوِّناتِه التّاريخيّة واللغويّـة والأدبيّة والفِقْهيّة والوِجْدانيّة – يُمَثِّلُ طَرَفَاً في ذلك التَّشَابُك، وتُمَثِّلُ «الحضارةُ الغَرْبيّـةُ» المُعَاصِرَةُ – بتقدُّمِهَا وتفوُّقِهـا ومُعْطياتِها الفِكْريّة والمَعْرفيّة والتّنْمَويّة – طَرَفَاً يَشُدّ في الاتّجاه الآخَر. بالنِّسْبَةِ لـ«إشْكَاليّة الثَّقافَتَيْن» في «المُجْتمعات الغَرْبيّة» كان وُضُوحُ الطَّرَفِ الثّاني وتَشْخيصُهُ في «ثقافة العِلْم» سبباً للنّجاح في تَحْديد العِلاج، وكان العِلاجُ

هو ضرورة تَغَلْغُلِ تلك «الثَّقافة الجديدة» في «الفِكْر السَّائِد»، وأهميّة تفاعُلها مع «الثَّقافة الجماهيريّة»؛ وهكذا اخْتَزَلَ تشارلز سنو أحد طَرَفَيِ «الإشْكَالِيّة» في «الأدب» بينما بَرَزَتْ «ثقافــة العِلْم» على الطَّــرَفِ النَّقيض. وأمّا «إشْكَالِيّةُ التُّــرَاث والحَدَاثَة» في «المُجْتمعات العربيّــة» فيُمْكِــنُ أنْ نَفْهَمَهَا في إطارِ «إشْكَالِيّة الثّقافَتَيْن»، ولكــن بلَبُوسٍ عربيٍّ، ومَلامِح شرْقيّة، وخصائِص تُرَاثيّةٍ؛ فأمام «العَقْلِ العربيّ» تَتَّضِحُ مَلامِحُ الطَّرَف الأوّل (التُّرَاث) في «ثقافة التُّرَاث وأدبه وفِقْهه ولُغته وتراكُماته التّاريخيّة والسّياسيّة والاجْتماعيّة»، بينما يَبْقَى الطَّرَفُ الثّاني (الحَدَاثَة) مُبْهَماً وغَائِماً.

إنّــه من المُحْــزِن أنْ نَعْرِفَ أنّ «الثّقافة العربيّة» ما زالتْ بعيدةً عن ذلك «المُنْعَطَفِ الثَّقافــيّ» المُهِــمّ الذي يُحَدِّدُ - بدِقَّــةٍ - مَلامِحَ طَرَفَيِ «الإشْكَاليّــة»؛ فهي ما زالتْ تغوصُ فــي «إشْكَاليّــة التُّرَاث والحَدَاثَة» فــي صِراعٍ يُحيطُ بــه الغُمُوضُ والتّعْميــم، وتُهَيْمِنُ على أدْعيــاء الجَبْهتَيْــن الأساليبُ البلاغيّة والحماسُ الوِجْدانيّ والانْفعــالاتُ الآنيّة، وكُلُّها من خصائِص «الثَّقافة العربية»، حتّى فَقَدَتْ الألفاظُ مَدْلولاتِها، والأفْكارُ وضوحَها، والمعاني مضامينَهــا؛ وهذا - بطبيعة الحــال - يَجْعَلُ العِلاجَ صَعْباً - إنْ لم يكن مُسْتحيلاً - ما لم تَخْضَــعْ تلك العناصِــر لقَدْرٍ كبيرٍ من التّمْحيص والتّجْريد والعَقْلانيّــة؛ لكي تَبْرُزَ الأُسُسُ الجوهريّةُ لمُكَوِّنَاتِ كُلِّ طَرَفٍ، وتَتَجَلّى الحقائِقُ الكَامِنَةُ في جَوْفِ كُلٍّ منْهما.

وبتأمُّــلٍ أعْمق نجدُ أنّ «الطَّرَفَ الثّاني» المُهِمّ والقادِر علــى «التَّفاعُلِ الإيجابيّ» في «إشْكَاليّــة التُّــرَاث والحَدَاثَــة» هو في الوَاقِع الطَّــرَفُ نفْسه الذي حَــدَّدَهُ تشارلز سنو في «إشْكَاليّة الثَّقافَتَيْن»، وهو «الثَّقافة العِلْميّة»؛ وبما أنّ «الإشْكَالِيّة»، كما أَوْضَحَ محمد عابد الجابــريّ، هي: (إشْكَالِيّةٌ ثقافيّةٌ مَحْض)[1]، فإنّ أُسْلوبَ مُعالَجتِها يَنْبَغِي أنْ يَتَّخِذَ «بُعْداً ثقافيّــاً» مِحْوريّــاً لتُصْبَحَ «ثقافة العِلْم» هــي البَلْسَم المَطْلوب والشَّــرْط الأساس لتَحْقيقِ «التّــوازُن الفِكْريّ» و«التّجانُس الثَّقافيّ» و«التَّطوُّر المُجْتمعيّ»، وللتغلُّب على عناصِر «الشَّدِّ والجَــذْبِ» ومناطِق الصِّراعِ بيــن «نَمُوذَجٍ تُرَاثيٍّ» يَحْتَــاجُ إلى كثيرٍ من النَّقْــدِ والمُرَاجَعَةِ والبَلْوَرَة، وبين «نَمُوذَجٍ مُعَاصِرٍ» تُشَكِّلُهُ وتَصْنَعُهُ «الحركة العِلْميّة - التِّقنيّة» بكُلِّ امْتِداداتِها وإنْجازاتِها ومُتَغَيِّراتِها.

٤-٤-٣) «المُؤشِّرُ الحَداثيّ»: مُؤشِّرٌ يَبْحَثُ عن تَأْسيس:

للحقيقـة يَنْبَغِـي ألاّ نَغْمِطَ محمد عابـد الجابريّ حَقَّهُ فـي الإشارة إلـى «العُنْصُرِ الفَاعِـل» فـي «المُعَاصَـرَة» حيث نجده يقول: (ولذلـك كان من الضّروري لنـا، سواءً من أجـل حَـلِّ مشـاكِل ماضينا في وَعْينا مـن أجل بِنَـاءِ مُسْتقبلنا الثّقافيّ، العمـل على نَشْرِ الثّقافة العِلْميّـة والفلْسفيّة وتَكْريسِ أساليب البَحْث العِلْمـيّ ومناهِجه، نظريّاً ومُمارَسةً، فـي ساحتنا الثّقافيّة الرّاهِنة. إنّـه الشَّرْطُ الضّروريُّ لتَدْشين عَصْر تَدْوينٍ جديدٍ يُؤسِّسُ المُسْتَقْبَـل بما يَسْتَجِيبُ لمُتطلَّباتِه ويَفِي باحْتياجاتِه)[1]. بطبيعة الحال تلك الإشارة إلى «الثَّقافـة العِلْميّـة» هي إشـارةٌ عَابِرةٌ كما هو الحـال في كثيرٍ من الطُّرُوحـات المُعَاصِرة لمُثقَّفيـن ومُفكِّرين وسياسيّين عرب، حيث تَبْقَى في إطارٍ ضَيّـقٍ، وفي حُدُودِ المُناسَبات المَعْنِيَّـة، دون مُحـاولاتٍ جَادّةٍ لاسْتيعاب أبْعـاد تلك الضّرورة فـي «المَنْظُومَةِ الثَّقافيّة»، والتّلاقُـح معها في الأُطُرِ الفِكْريّـة، وتَأْسيسها في «المَنْظُومَـةِ المَعْرفيّة»، وتَفْعيل آلياتِها فـي الإسْتراتيجيّـات المَطْرُوحة؛ ممّا جَعَلَ مـن «الثَّقافة العِلْميّة» «القضيّـة الغَائِبَة» التي لم تَجِـدْ تَأْصيلاً ولا تَأْسيساً ولا جُهُوداً جَادّةً للتّعامُلِ مـع مُقْتضياتِها وأبْعادِها وشُرُوطِها المُتَعَدِّدَةِ على الأصْعِـدَةِ الفِكْريّة والسّياسيّة والتّعْليميّة والإعْلاميّة والاجْتماعيّة وغيرها. وبالرّغْـم من أنّ إشارة الجابريّ إشارةٌ عَابِـرةٌ، إلاّ أنّها تُبَيِّنُ الحاجة الماسَّة إلى تَأْسيسِ «المُؤشِّـر الحَداثيّ» الأهمّ والضّروري في تفاعُلاتِ المُجْتمعـات المُعاصِرة والمُتَمَثِّلِ في «الثَّقافـة العِلْميّة» ومدى انْخِرَاطِهَـا - بحيويّةٍ - في «المَسَـارِ المُسْتَقْبَليّ» اللازم اتِّخاذه وتبنِّيه لمُعالَجَةِ الإشْكاليّات القَائِمَة في العَقْلِ والوِجْدَانِ والوَاقِعِ العربيّ.

ومـن أبْرز أسْباب تحفُّظـي[٦٠، ١٠٩] على مُصْطلح «المُعَاصَرَة» فـي مُصْطلح «ثُنَائِيَّة الأصَالَـة والمُعَاصَـرَة» هو أنّ الحديـث والنّماذج والأفْكار تَرِدُ دائماً مـن «العَالَم الغَرْبيّ» بحُكْـم قُـوّةِ التّفاعُلات معه، ولكـن لا يُمْكِنُ أنْ نَعْتَبِرَ ذلـك «النّمُوذَجَ الغَرْبـيّ» «النَّمُوذَجَ المُعَاصِرَ الوحيـد»، أو «الرُّؤية الحَداثيّة الفريدة»؛ فـ«المُعَاصَرَةُ الحقيقيّةُ» يجب أنْ تَعْنِي كُلَّ جَوانِـب «المُعَاصَـرَة» والتَّزَامُن، ومن هذا المُنْطلق فهـل يجوزُ - مثلاً - إغْفَالُ نماذج

مُعَاصِــرةٍ وحَيّةٍ، مِثْــل: «النّمُوذَج اليابانــيّ»، أو «الهِنْديّ»، أو «الصِّينــيّ»، أو «الماليزيّ»، وتجارِبهم المُخْتلفة؟.

إنّ السُّؤال هو: (لماذا لم يَتَوَقّفْ «الحَدَاثيّون العرب» كثيراً أمام «النّمُوذَج اليابانيّ» الــذي - كما يقول مسعود ضاهر[٨] -: «رَفَضَ فيه مُصْلحوهم وَضْعَ الأَصَالَة في مُواجَهَةِ الحَدَاثَة، أو التّصَــدِّي للغَرْبِ بأُسْلوب المُمَانَعة فقط وبالشِّعارات القوميّة العَاطِفيّة»؟)، والسُّــؤال - أيضاً - هــو: (لماذا لم يَتَوَقّــفْ «التُّرَاثيون العرب» أمام الحقيقــة التي يُؤكِّدُ مسعــود ضاهر[٨] بأنّــه: «يكاد يُجْمِعُ البَاحِثــون عليها في تَجْرِبَةِ التَّحْديــث اليابانيّة على أنّ الثّقافــة العَصْريّة هي الأساس في نَهْضَــةِ اليابان الجديدة، وهي ثقافةٌ تَحْمِي الجَانِبَ الإيجابــيّ في التُّــرَاث فتُدْخِلُهُ في عُمْقِ الوِجْدَانِ الشَّعْبيّ، ولا تَضَعُهُ في مَوقِعِ التَّعَارُضِ مع الثّقافة العَصْريّة التي لا يُمْكِنُ أنْ تكون ثقافةً تُرَاثيّةً وحيدة الجَانِب»؟).

لقــد وجدنــا - أيضــاً - أنّ من مُشْــكلات «الحَدَاثيّيــن العرب» هي تبنّيهــم لمَوْقِفِ «الصِّــرَاع» مع ما هــو «تُرَاثيّ»، وإنْ كان هذا جُــزْءاً مِحْوريّاً من تطــوُّرِ «الحَدَاثَةِ الغَرْبيّة» وظُرُوفِهَــا التّاريخيّــة، فإنّه ليســ هناك من سببٍ وجيــهٍ يَقْتَضِي اسْتدعــاءه وإنْزاله على المُجْتمعات العربيّة والإسْلاميّة؛ وبالتّالي فإنّ من الضّروري، كجُزْءٍ من حَلِّ «الإشْكَاليّة»، إلْغــاء، أو تَقْليصــ، مَفْهُــوم «الصِّرَاع» فــي التّفاعُــلات الاجْتماعيّة والفِكْريّــة والثقافيّة والسياسيّة عنْد التّعامُلِ مع «إشْكَالِيّة التّنْمية» في «المُجْتمعات العربيّة». أمّا «التُّرَاثيُّون»، فقــد غَابَتْ عن كثيرٍ منهم حقيقة أنّ «المُعَاصَرَة» شَرْطٌ أساسٌ لتوافر القُوّةِ القَادِرَةِ على حِمايــةِ «التُّرَاث»، وهي الحقيقــة التي يصوغها مسعود ضاهر بقولــه: (إنّ من يَعْجزُ عن الانْخِرَاطِ في عمليّة التّجْديد والمُعَاصَرَة سيكون عَاجِزاً - بالضّرورة - عن حِماية مَوْرُوثِهِ الثّقافيّ الأصيل الذي هو مِلْكٌ للإنْسانيّة جَمْعاً)[٨].

مــن الوَاضِــحِ - إذاً - أنّ «الرُّؤية التّنْمويّة - العِلْميّــة - التّقنيّة» غَائِبَةٌ في «الخِطَابِ العربــيّ المُعَاصِــر» بشِقَّيْهِ «التُّرَاثــيّ» و«الحَدَاثيّ»؛ فهي غَائِبَةٌ في طُرُوحَــاتِ «الحَدَاثيّين العــرب» الذيــن شَغَلَتْهُمْ معارِكهــم المُتَنَوِّعَــة، وهي غَائِبَــةٌ - أيضاً - لــدى «التُّرَاثيّين»،

فأُطْرُوحَاتُهُـم - في مُعْظَمِهَا - كلامٌ مَكْـرُورٌ، ومَوَاعِظ جَامِدَةٌ، ورُدودٌ حَادّةٌ، ومَحْفُوظاتٌ نَسَقيّـةٌ، وتَشَنُّجَاتٌ انْفعاليّةٌ على اسْتِفزازات مُناوئيهـم، أو في مُعالَجَةِ الأزمات التي تَمُرُّ بها مُجْتمعاتُهم.

٤-٥) الإشْكَالِيّة هي «إشْكَالِيّة حول العَدَم»:

يـرى محمد عابد الجابريّ أنّ طبيعة هذه الثُنَائِيّـةِ القَلِقَةِ بين «التُّرَاث» و«الحَدَاثَة» قـادتْ: (إلى وجود نَوْعٍ من التَّوَتُّـرِ والقَلَقِ والالْتِبَاسِ في العَلاقَةِ بين الماضي والمُسْتَقْبَل، بين التُّرَاثِ والفِكْرِ المُعَاصِر، بين الأنا والآخَر... الخ ممّا جعلها تَبْقى عَلاقَةً، لا تقومُ على الاتِّصَالِ ولا على الانْفِصَالِ، وإنّما على التَّنَافُرِ والتَّدَافُع، والنّتيجةُ تَشْويشُ الحُلْم النَّهْضَويّ في وَعْينا وتَعْتيمِ الرُّؤية في فِكْرِنَا)[١]. وأمّا وَاقِعُ «المُجْتمعات العربيّة» فيُؤَكِّدُ أنّ الصِّرَاعَ الـذي تَمَخَّضَ عن هذه «الإشْكَالِيّة» هـو وَاقِعٌ أدْهَى وأَمَرّ من ذلـك «التَّشْويش» و«التَّعْتيم» اللذيـن أشار إليهما الجابريّ؛ فالتَّبِعَاتُ الاجْتماعيّـة والفِكْريّة والتَّنْمَويّة والسّياسيّة لهذا الصِّرَاعِ كانتْ - في مُجْمَلِهَا - كَوَارِث مُتتاليةً على «المُجْتمعات العربيّة»، وهذا هو المُتَوَقَّعُ مـن صِرَاعٍ هو في وَاقِعِه - فـي رأيي[١٠٩،٦٠] - «صِرَاعٌ حول العَدَم»؛ فلا «النَّمُوذَجُ التُّرَاثيّ» موجودٌ على الأرْض المُتَنازَع عليها، ولا «النَّمُوذَجُ المُعَاصِرُ» مُتَوَافِرٌ بشُرُوطِهِ ومُقْتضياتِه؛ ولـذا انْزَلَقَ «الخِطَابُ العربيُّ المُعَاصِـرُ»، كما هو مُتَوَقَّعٌ من تَرْكيبتِه الخَطَابيّة المَعْهُودة، إلى الإنْشائيّات والتَّنْظيرات والصِّراعات السّياسيّة والاجْتماعيّة والكلاميّة حول «أَصَالَةٍ» تَخَلَّيْنَا عن مُقَوِّمَاتِهَا، و«مُعَاصَرَةٍ» لا نَمْتَلِكُ معاييرَها.

إذاً نَسْتطيـع أنْ نقـول إنّها - فـي الوَاقِعِ - «إشْكَالِيّـةٌ حول العَـدَم»؛ فـ«التُّرَاثُ» في جَانِبِهِ الأصيل - نتيجةً للانْفِصَـامِ بين التَّنْظيرِ والمُمَارَسَةِ وبسبب التّراكُمَاتِ التّاريخيّة المُتَنَوِّعَة - غَائِبٌ - إلى حَدٍّ كبيرٍ - عن الحياة المُعَاصِرة، ولذلك أسْبابٌ عِدّةٌ ليس أقلُّها أنّنا نعيشُ ظُرُوفاً وتغيُّراتٍ ومُسْتَجِدَّاتٍ لم تكنْ في حِساباتِ الأوّلين واجْتِهاداتِهم، ونُضيفُ إلى هذا أنّ ذلك «التُّرَاثَ» امْتَزَجَ - بالضّرورة - باجْتِهاداتِ البشر ورُدودِ فِعْلهم وعاداتِهم وتقاليدِهـم ومُشْكلاتِهم في أزْمِنَةٍ وأماكِنَ مُخْتلفةٍ، وبعْضها تَمَكَّنَ وتَحَصَّنَ واسْتَقَرَّ حتى

دَخَلَ في إطار «المُقَدَّس»؛ وكُلُّ ذلك يَسْتَدْعِي كثيراً من الفَرْزِ والتّمْحيصِ والنّقْدِ والانْتِقَاء. وهكذا نجدُ أنّ «خِطَابَ التُّرَاثيّين»، في كثيرٍ منه، هو: إمّا «خِطَابُ خيالات الماضي» الذي غَابَتْ كثيرٌ من حقائِقه ووقائِعه ليُصْبِحَ مَرْتعاً للأوهام، ومُتَنفَّساً للإحْباطات، وإسْقَاطاً للتّمنّيات؛ وإمّا «نماذجُ مِثاليّةٌ» نصوغُها - عبْر مَواعِظنا وخِطَاباتِنا المُتَباكِيةِ على الماضي التّليد - بعيداً عن التّفاعُلات اليوميّة، والمقاصِد الحيويّة، والمُمارَسات الحياتيّة، والضُّغُوط الحقيقيّة، والتّحدّيات المُسْتَفْحِلَة. إنّ «خِطَابَ التُّرَاثيّين» يَفْتَقِدُ ما هو إيجابيٌّ في «التُّرَاثِ» من أخْلاقٍ وعَدْلٍ وإيثارٍ وزُهْدٍ وعملٍ وإتْقانٍ، ولا عِبْرة فيما يُطْرَحُ من مِثَاليّاتٍ وخُصُوصيّاتٍ، وكلام يَزِنُ الجِبَالَ ويُغَطّي عَيْنَ الشَّمْس؛ فالعِبْرَةُ هي في الحقائِق فقط، حيث نجدُ أنّ كثيراً من تلك القِيَم، التي يَدْعُو إليها «الخِطَابُ التُّرَاثيُّ»، بعيدةٌ عن المُمَارَسَاتِ والحياة، بينما نجدها حَيّةً في الوَاقِعِ الغَرْبيّ، حيث يكون الإنْسان الغَرْبيّ - على سبيل المِثال - أكْثر اهْتِماماً بالجَوْهَرِ منه بالمَظْهَر، وأقلّ بَذْخاً، وأكْثر اعْتِدالاً في الاسْتِهْلاكِ والتّباهي بالمُمْتلكات عن نظيره العربيّ المُسْلِم. أمّا أثرياؤهم فيوميّاً تَنْقُلُ إلينا أخْبارهم التبرُّعات الضّخْمة ببلايين الدّولارات التي يُخَصّصُونها للأعْمال الخيريّة وميادين التّعْليم ومعاقِل البَحْث؛ وأمّا شبابهم فهم الأكْثر حِرْصاً على «الأنْشطة التّطوعيّة» في مُجْتمعاتِهم وأحْيائِهم وبيئاتِهم.

وأمّا «الحَدَاثَةُ» فهي - أيضاً - بشُرُوطِهَا المَعْرفيّة، وضَوابِطِهَا الإنْتاجيّة، وقِيَمِهَا الفِكْريّة، ومُمَارَسَاتِهَا المُنْضَبِطَة، لا تكاد تَبِين إذا اسْتثنينا الجَانِبَ الشَّكْليّ، والصِّرَاعَ اللفْظيّ المُحْتَدِم، و«التّنْمية الاسْتِهْلاكيّة» في حياتنا وسُلُوكيّاتنا؛ ولذا فرُمُوزُهَا في «المُجْتمعات العربيّة» - بأشْكَالِهَا المُسْتَورَدة: اصْطلاحاً واسْتِهْلاكاً وتَقْليداً - يَفْتَقِدُون الجَوانِبَ الإيجابيّة من «الحَدَاثَةِ» في المُشَارَكَةِ الفَاعِلَةِ في صِنَاعَةِ «الحركة العِلْميّة التّنْمَويّة»، وبَلْوَرَةِ مُقَوِّمَاتِهَا، وطَبْعِ آثارِها الحقيقيّة على الفِكْرِ والمُمارَسةِ والمُجْتمع. أمّا الطَّريفُ في الأَمْرِ فإنّ بعض «دُعَاة الحَدَاثَة» راحوا يَزِفُّون إلينا دُخول عَصْر «ما بَعْدَ الحَدَاثَة»، في حين أنّ حَدَاثتهم المَزْعُومة لم تؤت أُكُلَهَا بعْد في عَصْرِهَا المُتَوَهَّمَ، إلاّ إذا كان المَقْصود بـ«البَعْديَّة» هنا وَصْف لؤي صافي بأنّها تَحْمِلُ (ظِلال التَّفَكُّكِ والتَّآكُلِ

والتَّرَاجُع)(١٦)، ولعلّ وَصْف حسن الهويمل يَحْمِلُ بعْض جَوانِبِ الحقيقة عندما قال: (لُعْبَةُ البَعْدِيَّـات هي لُغَةُ المُرْتَبِكِين)(٦٦). وأمّا حـال «المُجْتمعات العربيّة» في «إشْكَالِيّة التُّراث والحَدَاثَة» فهو حال «السَّاقِطِ نحو الأرْض» فَاقِداً تَوازُنه في الهواء؛ فلا هو يَقِفُ على أرْضِ «التُّـرَاثِ» الصُّلْبَةِ بقِيَمِهَا وأصالتِها وثباتِها، ولا هو يُحَلِّقُ فـي الأَجْوَاءِ بقُوّةِ دَفْعِ «الحَدَاثَةِ المَعْرفيّة» وعُنْفوان «الحياة المُعَاصِرَة».

وهكـذا تُصْبِـحُ هذه الإشْكَالِيّـة «صِرَاعاً حول العَـدَم»؛ فالحَاضِرُ مَبْتُـورٌ عن سِياقِ الماضـي، سَـواءً في تَمَثُّلِ قِيَمِهِ وتَطْبيـقِ مُوَاصَفَاتِه، أو في انْسِجَـام اجْتِهادات السّابقين مـع حيوات اللّاحقين؛ وفـي الوَقْت نفْسه نجدُ أنّ هـذا الحَاضِرَ مَعْزُولٌ عـن فِكْرِ عَصْرِهِ ومُقْتَضيـاتِ زمانِه، ويَصِفُ زكي نجيـب محمود هذا الحال بقوله: (إنّ طريقنا في النَّظَرِ لـم تَزَلْ - كما كانتْ منْذ قُرُونٍ - هي البَحْثُ في المَوْرُوثِ عن الشَّوَاهِدِ التي تُبَرِّرُ الجديد أو لا تُبَـرِّرُه، فكأنّنـا نُمْسِكُ بين أيدينـا قَالَباً من حديدٍ، لنُرْغِمَ الحيـاةَ المُتَدَفِّقَةَ الفَوَّارَةَ على الخُلُودِ فيه إلى سكينة النّائِم، تَتَغَيَّرُ حياتُنا وذلك الإطار الحديديّ لا يُريدُ أنْ يَتَغَيَّر، وما لم تَحْدُثْ في مُناخِنا الفِكْريّ تَحَوُّلاتٌ تُوائِمُ بينه وبين صُوَرِ الحياة الجديدة، فسيظلُّ التّنَافُـرُ قائِماً بيـن الرّأْسِ والقَدَمَيْن)(٢٠). وأمّـا أبْرز أبْعاد هـذه «الإشْكاليّة» فهو غِيَابُ الإبْـدَاعِ والإنْجَازِ مـن كِلا الفريقَيْن اللذين يَصِفُهُمَا طه عبد الرحمـن بـ«المُقَلِّدَة» حيث يقـول: (ظَاهِـرٌ أنّ كِلا النَّوْعَيْن مـن المُقَلِّدَةِ لا إبْـدَاع عنْدهما؛ إذْ «مُقَلِّـدَةُ المُتَقَدِّمين» يَتَّبِعُـون مـا أَبْدَعَهُ السَّلَفُ مـن غير تَحْصيل الأسْبـاب التي جعلتْهم يُبْدِعُون مـا أَبْدَعُوه؛ و«مُقَلِّـدَةُ المُتَأَخِّرِيـن» يَتَّبِعُون ما أَبْدَعَـهُ الغَرْبُ من غير تَحْصيـل الأسْباب التي جعلتْهم يُبْدِعُون ما أَبْدَعُوه)(٦٥).

تَنْضَوِي هذه «الإشْكَالِيّةُ» على ما أَسْمَاهُ محمد عابد الجابريّ «سُلْطَة النّمُوذَج» التي: (جعلتْ فريقاً منّا يرى «الأَصَالَةَ» في التُّرَاث، في العَودَةِ إليه وإليه وَحْدَه، وهي التي تَمْنَعُهُ بالتّالي من أنْ يَخْطُرَ بباله أنّ «الأَصَالَةَ الحقيقيّةَ» بالنِّسْبَةِ لنا نحن الذين يَغْمُرُنَا التُّرَاثُ من كُلِّ جَانِبٍ هي تلك التي يجب أنْ نُحَقِّقَهَا في تعامُلِنَا مع «الفِكْرِ العَالَميّ المُعَاصِر» ومن خـلال التّعامُل معه، وهـي - أيْ «سُلْطَةُ النَّمُـوذَج»- هي التي جعلتْ فريقـاً آخر منّا يرى

«المُعَاصَــرَةَ» في الفِكْرِ الأوروبيّ وَحْــدَه، فحالتْ دونه ودون أنْ يَخْطُرَ بباله أنّ «المُعَاصَرَةَ الحقيقيّــةَ» بالنِّسْبَةِ لنا نحن الذين تتقاذفنا، يميناً ويساراً، «مُرَكَّبَاتٌ ذِهْنيّةٌ» وَافِدَةٌ إلينا مِــن أوروبا، هي تلك التي يجب أنْ نُحَقِّقَهَا في تعامُلِنَا مــع التُّرَاث، تُراثُنا نحن أوّلاً)[٦٧].

لقــد أصاب محمد عابد الجابريّ عندما وَصَــفَ طبيعة النَّمُوذَجَيْن «السَّلَفِيّ» (التُّرَاثيّ)، و«الليبرالــيّ العربــيّ» (الحَدَاثِــيّ)، بأنّهمــا يَلْتَقِيان علــى صعيدٍ وَاحِــدٍ: (فكلاهما يرى «النّهْضَــةَ» في القَفْزِ على التّاريخ لا في صُنْعِــه. الأوّلُ يراها في «العَوْدَةِ إلى طريقة سَلَفِ الأُمّــة قبل ظُهُور الخِلاف»، والثّاني يراها في العَوْدَةِ إلى «المبادئ الأوروبيّة»)[٦٧]؛ ويُبَلْوِرُ محمد عابد الجابري[٦٧] هــذه الرُّؤية بأنّ «السَّلَفِيّ» خاض المعارِك بـ«عَقْلِ الأمْس»، وأمّا «الليبراليّ العربيّ» فقد خاض معارِكه لا بـ«عَقْلٍ» يَتِمُّ بِناؤه من خلال المعْركة وبواسِطتها وعلى ساحتها، بلْ باسْم «عَقْلٍ جَاهِزٍ» يَتَحَدَّثُ عن «المبادئ الأوروبيّة».

وأمّا «الخِطَــابُ التَّوفيقيّ»، أو «التّلْفيقيّ»، الذي اعْتَقَدَ أنّــه يَجْمَعُ بين «الحُسْنَيَيْن»، فإنّه يُضِيفُ إلى «الإشْكَاليّة» إشْكَاليّةً أُخْرى؛ فأصْحَابُ هذه الرُّؤية يُريدون أنْ يَأْخذوا من التُّــرَاثِ «أحْسن ما فيه»، ومن الحَدَاثَةِ «أحْسن ما فيهــا»، أو بصِيغة السُّؤال الذي طَرَحَهُ لــؤي صافــي: (كيف يُمْكِنُ للمُثقّــفِ أنْ يَقِفَ من مُشْكلاته مَوقفاً أصيــلاً ويُقَدِّمَ لها حُلُولاً عمليّة مُناسِبة؟)[١٦]، وأَصْبَحَ الحالُ كما يقول شاكر مصطفى: (نَوْعاً من الجَدَلِ النّظريّ المَكْــرُور: «ماذا نَأْخُذُ؟ ومــاذا نَدَعُ؟»)[١٨]؛ وذلك في الوَقْت نفْسه الذي يتردّى فيه الوَاقِعُ تحْــت وَطْأَةِ مفاهيم مُلْتَبِسَةٍ وتَأْويلاتٍ مُضْطرِبَةٍ حــول «التُّرَاثِ»، تُدْخِلُهُمْ في لَغَطٍ وجَدَلٍ لا يَنْتهيان، ويَرْزَحُ فيه الحَاضِرُ تحت وَطْأَةِ ضُغُوطٍ وتحدّياتٍ مُتسارِعةٍ في دُنْيا «الحَدَاثَةِ» التي ليس لأدْعيائها فيها نصيبٌ، وهم فيها لغيرهم تَبَعٌ؛ وهذا المَوْقِفُ في أحْسن أحْواله لا يتجــاوز وَصْفَ شاكر مصطفى له بقوله: (بَقِيَتْ وتَجَذَّرَتْ الأفْكَارُ التّوفيقيّة بين التُّرَاثِ والتّقَــدُّمِ الغَرْبيّ كنظريّةٍ مَقْبُولةٍ، ولكن من دون حَلٍّ عمليّ)[١٨]. وأمّا «النّتيجة»، فهي كما قَرَّرَهَا محمد عابد الجابريّ بقوله: (اسْتِمْرَارُ القديم لا في جَوْفِ الجديد يُغْنِيه ويُؤَصِّلُه، بَــلْ اسْتِمْــرَارُهُ إلى جَانِبِــه: يُضَايقُهُ ويُنَافِسُــه)[٦٧]، وأمّا السُّؤالُ الــذي يَهْتَمُّ هذا الكِتاب

بمُعَالَجَةِ أحد أبْرز جَوانبه وتَأْصيلِ أهمّ مُتطلَّباتِه، فهو: (كيف يُمْكِنُ تَغْيير الحال ليُصْبِحَ القديمُ أداةً فَاعِلَةً في تَحْفيزِ الجديد، وعُنْصُراً جوهريّاً في تَأْصيلِه وتَطْويرِه وتَفْعيلِه؟).

٤-٦) مُحَاوَلَةٌ لـ«فَكِّ الاشْتِبَاك»:

نَسْتطيعُ أنْ نقول - من وَاقِعِ التّجرِبة الحَيّة والنّماذج المَاثِلة للعِيان - إنّ «الخِطَابَ العربيّ المُعَاصِر»، بشِقَّيْه «التُّرَاثيّ» و«الحَدَاثيّ»، فَشِلَ في إحْداث «النَّهْضَة» المَنْشُودة؛ لأنّه اسْتَبَقَ النّتائِج، وقَفَزَ فوق التّاريخ، وحَكَمَ على المُسْتَقْبَل من رُؤًى تَنْظيريّةٍ لم تُغَادِرْ مَواقِعَهَا لتتفاعلَ على الأرْض، ولتَدْفَعَ عَجَلَة الحياة وفْق «مَنْظُومةٍ تَنْمَويّةٍ» تَحْتَكِمُ إلى «لُغَةِ العَصْر».

لقد حدث هذا الإخْفَاقُ بالرّغم من أنّ «المَنْظُومة التّنْمَويّة» لا تُنَاقِضُ تُرَاثَ الأُمّة الذي يتَمَثَّلُ في مَقُولة رسول هذه الأُمّة صلَّى الله عليه وسلَّم: «**أنْتُم أَعْلَمُ بأَمْرِ دُنْيَاكُم**»[٦٨]؛ وهي في تَوَاؤُم مع «رُوح التّنْمية» عندما نَسْتَحْضِرُ الدَّلالات والمعاني والقِيَم المُرْتَبطَة بقَوْلِ الحقِّ عزَّ وجلَّ: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الرّعد: الآية ١٧]، وبِقَوْلِ المُصْطفى - صلَّى الله عليه وسلَّم -: «**إذا قَامَتْ القِيامَةُ وفي يَدِ أحدكم فَسِيلَةٌ فليَغْرِسْهَا**»[٦٩]؛ وهي لا تتصارعُ مع التّغيُّرات المُتسارِعة؛ لأنّ «الأَصْل في الأُمُور الإباحة»، وباسْتِثْنَاءِ ثَوابت قَطْعيّةٍ مَحْدودَةٍ، فإنّ المساحة وَاسِعَةٌ لامتِصَاصِ إيقاع «الحياة المُعَاصِرة»، والتَّأقْلُمِ مع مُقْتَضياتِها، واسْتيعابِ حقيقة أنّ «الحَاضِرَ» قَابلٌ للتّكيُّفِ مع مُتطلَّبات «المُسْتَقْبَل».

إنّ «إشْكَاليّةَ التُّرَاثِ والحَدَاثَة» إشْكَاليّةٌ «زَمْكَانِيَّةٌ» - في المقام الأوّل - حيث نَفْرِضُ على «الزَّمان» شُرُوطاً لا تُوافِقُ خصائِصَه، ونَفْرِضُ على «المكان» مُعْطياتٍ لا تُوافِقُ تَجْرِبتَه؛ ولذا فمن الضّروري تَطْوير نماذِج تَفْصيليّةٍ عمليّةٍ تُراعِي خصائِصَ «الزَّمان»، وشُرُوطَ «المكان»، وتحدّياتِ «المُسْتَقْبَل»، وخصائِصَ «الحَاضِر». إنّ «إشْكَاليّةَ التُّرَاثِ والحَدَاثَة» في العَالَمِ العربيّ ليستْ «إشْكَاليّةً دِينيّةً» كما كان الحال في أوروبا في الصِّرَاعِ

بين «السُّلْطَـةِ البَابَويّة» و«رِجال العِلْم والعَقْل»، ولكنّها في عَالَمِنَا العربيّ «إشْكَاليّةٌ نَفْسِيّةٌ - اجْتماعيّــةٌ - ثقافيّةٌ»؛ فالصَّدْمَةُ الحضاريّةُ التي أصابـتْ العَالَمَ العربيّ أدَّتْ إلى حالةٍ مــن حالَتَيْن: إمّا «أَزْمَةُ هُويّــة» نَتَجَتْ عن «الانْبِهَارِ» بالآخَر، وإمّــا «الانْكِفَاءُ على الذّات»، وتَمْجيــدُ الماضي لحِمايةِ «الهُويّة» دون تَمْييزٍ بيــن عناصِره ومُقَوِّماتِه ومُلابَساتِه. وهكذا يُصْبِــحُ السَّبَبُ الرّئيسُ لتَعَثُّرِ جُهُودِ «الإصْلاح والتّنْميــة» في العَالَمَيْن العربيّ والإسْلاميّ هــو إصْــرار شَرائِح كبيرةٍ مــن المُثقَّفين وأصْحاب القــرار - تُرَاثيّيــن وحَدَاثيّين - على اسْتِعَــارَةِ «نماذِج نَاجِزَةٍ» من ماضٍ إسْلاميٍّ، أو حَاضِــرٍ غَرْبيّ، وهو ما أَطْلَقَ عليه محمد عابد الجابريّ(٦٧) مُصْطلح «سُلْطَةُ النَّمُوذَج».

وأمّا نُقْطَةُ الضَّعْفِ الأبْرز التي يَشْتَرِكُ فيها «التُّرَاثيّون» و«الحَدَاثيّون» و«التَّوفِيقيّون» فهــي أنّهم جميعاً يُريدون أنْ تكون أُطْرُوحاتِهم «حقائِق يقينيّةً» لا تَقْبَلُ النّقاش أو الشّك، ويَعْتقــدون أنّ الكمــال في أعمالهم التــي لا يُقَارِبُهَا الخطــأ، والصّــلاح لأفْعالِهم التي لا تُدَنِّسُهَــا الخطيئة، وهذا مُخَالِفٌ لما يَطْرَحُــهُ «الفِكْرُ التَّجْريبيّ» الذي يُمَثِّلُ جَوْهَرَ «العمل التّنْمَــويّ»، ويَعْكِسُ «الوَاقِعَ الإنْسانيّ»، حيــث إنّ الخطأ وَارِدٌ في كُلِّ الأحْوال، والمُراجَعات هي الأَصْلُ في كُلِّ الأُمُور، والتّقْييم المُسْتمرّ هو الأسَاسُ لكُلِّ الأعْمال.

أمّا «مَفْهُومُ الحَدَاثَة» في حَدِّ ذاته فهو مَفْهُومٌ وَاسِعٌ وشَامِلٌ، طَغَتْ فيه عند «الحَدَاثيّين العرب» جَوانِب تَقْدِيسٍ وانْبِهَارٍ وعَجْزٍ، وأَصْبَحَ دَوْرُ كثيرٍ منهم لا يَعْدُو دَوْرَ «حَامِلِ بِضَاعَةٍ» يَنْقُلُهَــا بعُجَرِهَــا وبُجَرِهَا من مــكانٍ إلى مكانٍ، وهــو لا يَدْرِي طبيعة مــا يَحْمِلُهُ، وظُرُوفَ زَرْعِــهِ، وشُــرُوطَ حصــادِه، وهو - أيضاً - أجْهَــلُ ما يكون فيما يَخُصُّ طبيعة احْتياجات بيئته، والأَنْكَى من ذلك أنّه لم يتفاعلْ مع عمليّة «الزَّرْعِ والحَرْثِ والحصاد» المُضْنِيَة؛ لأنّه يُريــدُ أنْ يَحْصُدَ قبْل أنْ يَزْرَعَ، وأنْ يَجْنِيَ الثِّمَارَ قبْل أنْ يُهَيِّئَ التُّرْبَة. وانْطلاقاً من هَيْمَنَةِ «ثقافة الغَالِب»، فإنّ الغَالبيّة من الحَدَاثيّين - بانتماءاتِهم المُخْتلفة - وجدوا في مفاهيم «الحَدَاثَة» ومُصْطلحاتهــا تَزَلُّفاً لـ«الحضارة الغَرْبيّة»، وتَظَاهُــراً بفَهْمِهَا والتّفاعُلِ معها، وتَعْويضــاً عن مَشَاعِرِ العَجْزِ والنَّقْصِ، فكان حالهم مثل حال السيّدة القَرَوِيّة التي أرادتْ

أَنْ تُبْـرِزَ مُعَاصَرَتَهَـا وحَدَاثَتَهَـا ومُجَارَاتَهَا لـ«الموضة» عندما سألوهـا: (من أين تَشْتَري أحْذِيَتِك؟)، فأجابتْ بكُلِّ فَخْرٍ وثِقَةٍ واعْتزازٍ: (أَشْتري أحْذِيَتِي من «ماكدونالدز»).

إنّ الحقيقـة التي يُؤَكِّدُهَا طه عبد الرحمن هـي أنّ: («الحَدَاثَة» عِبَارَةٌ عن إمْكاناتٍ مُتَعَـدِّدَةٍ، وليست كما رَسَخَ في الأذْهان، إمْكاناً وَاحِـداً؛ ويَنْهَضُ دليلاً على ذلك المَشْهَدُ الحَدَاثـيّ الغَرْبـيّ ليس بالتَّجَانُسِ المَظْنُـون، بَلْ فيه من التَّنَوُّعِ ما يجـوزُ معه الكلام عن حَدَاثَـاتٍ كثيـرةٍ، لا حَدَاثَةٍ وَاحِدَةٍ؛ فهنـاك، باعْتِبَارِ الأقْطار؛ «حَدَاثَـةٌ فرنْسيّةٌ» و«حَدَاثَةٌ ألْمانيّـةٌ» و«حَدَاثَـةٌ إنْجليزيّـةٌ» و«حَدَاثَةٌ أمْريكيّـةٌ» وغيرها)[٦٥]. ما هو أهـمُّ من ذلك أنّ «الحَدَاثَـةَ» ليستْ فقط رهينةً في أشْكَالِهَا للخُصُوصِيّات القوميّة، ولكنّها تَخْضَعُ - بشَكْلٍ وَاضِـحٍ - لما أَسْمَاهُ طه عبـد الرحمن «اعْتِبارات المَجَالات» فهنـاك: («حَدَاثَةٌ سياسيّةٌ» و«حَدَاثَـةٌ اقْتصاديّةٌ» و«حَدَاثَةٌ اجْتماعيّةٌ» وسواها؛ كمـا أنّ لـ«الحَدَاثَةِ» في القُطْرِ الوَاحِدِ مَرَاتِـب عِدَّةً؛ فهناك أقْطَارٌ حَظُّهَا من «الحَدَاثَةِ» في هذا المجال أو ذاك أكْبر من حَظِّهَا منْهـا فيما عـداه كأنْ تكـون حَدَاثَتُهَا الصّناعيّـة أقْوى مـن حَدَاثَتِهَا القانونيّـة، أو تكون حَدَاثَتُهَا الاقْتصاديّة أقْوى من حَدَاثَتِهَا السّياسيّة، وهكذا)[٦٥]. وفي إطار تلك الإمْكانات المُتَعَـدِّدَة لـ«الحَدَاثَـة»، فإنّ طبيعة الوَاقِـعِ العربيّ، تَفْرِضُ - في رأْيـي[٦٠، ١٩٠] - أنْ يكون المُنْطَلَقُ عبْر «حَرَاكٍ تَنْمَـويٍّ» شَامِلٍ يَتْرُكُ بَصَمَاتِهِ على الأرْض، ويُشَكِّلُ «الواقِعَ العربيّ» - بتفاعُلاتِـه وتراكُماتِـه - عبْر غَرْسِ «ثقافةٍ» تُؤَجِّلُ صِرَاعاتِهـا الكلاميّة واسْتِعْراضاتِها اللفْظيّـة وسِجَالاتِها الإنْشائيّة، وتُنَمّي عَلاقَاتِهَا التّنْمَويّة ومَشْرُوعاتِها الحياتيّة، وتَنْخَرِطُ فـي برامِج عمليّـةٍ وإجْرائيّةٍ تُعيـدُ - بطبيعتِها وتطوُّرِهـا وتراكُماتِها - صِياغـةَ الأسْئلة، ونَوْعِيّةَ الطّرْح، وبَلْوَرَةَ الخِلافات، وتَحْديدَ الإجابات.

قـد نتَّفِقُ أو نَخْتَلِفُ مع محمد عابد الجابريّ الذي يرى أنّ المُهِمّةَ الأولى والأساسيّة المَطْرُوحَـةَ على السّاحة العربيّة الرّاهِنَة هي تَحْقيـقُ («الاسْتِقْلال التّاريخيّ التّامّ»)[٦٧] للذّاتِ العربيّة الذي فَقَدَتْهُ بسبب التَّجَاذُبِ بين «التُّرَاثِ والحَدَاثَة»، ولكن تَبْقَى كُلُّ الحُلُول تَنْظيريّـةً، مـا لم يكنْ المُنْطَلَـقُ الأسَاسُ هو تَحْقيـق «الاسْتِقْلال التّنْمَـويّ» الذي يَحْتَاجُ، أوّل مـا يَحْتاج، إلـى «رُؤىً تَنْمَويّةٍ» تجدُ مَوَاقِعَهَا على «خريطـة الوَاقِع»؛ وهذا ما يَسْتَدْعِي

الحاجة الماسّة إلى طَرْحِ نَمُوذَجِ «التَّوَافُقِ التّنْمَويّ» كأحد أهمّ تلك الإمْكانات المُتَعَدِّدَة لـ«الحَدَاثَة»، بَلْ لعلّه هو القَاطِرَةُ القَادِرَةُ على تَحْرِيك «الحَدَاثَة» في مجالاتِها المُتَنَوِّعَةِ وأُطُرِهَا المُخْتلفة في «المُجْتمعات العربيَة».

٤-٦-١) نَمُوذج «التَّوَافُق التّنْمَويّ»:

يَسْتَفْحِلُ وَاقِعُ «إشْكَالِيّة التّنْمية» في «المُجْتمعات العربيّة» في ظِلِّ صِرَاعِ «ثُنَائِيَّة التُّرَاث والحَدَاثَة» ممّا يُبْرِزُ ضرورة مُراجَعَة «البِنْيَةِ الثَّقافيّة»، ويرى محمد عابد الجابريّ(٦٧) أنّ شَرْطَيْ «النَّهْضَة» هما: «التّحَرُّرُ من الغَرْب»؛ بمَعْنَى: (الدُّخُولُ مع ثقافته، التي تَزْدادُ عَالَميّةً، في حِوارٍ نَقْديٍّ، وذلك بقِراءتِها في تاريخيِّتِها وفَهْمِ مَقُولاتِها ومفاهيمِها في نِسْبِيَّتِهَا، وأيضاً التّعَرُّف على أُسُسِ تقدُّمه والعمل على غَرْسِهَا أو ما يُمَاثِلُهَا في ثقافتِنا وفِكْرِنَا). وأمّا الشَّرْطُ الثّاني فهو «التّحَرُّرُ من التُّرَاث» وهو: (لا يَعْنِي الإلْقَاءَ به في المتاحِف أو في سَلَّةِ المُهْمَلات، كَلاّ إنّ ذلك غير مُمْكِن. إنّ «التّحَرُّرَ من التُّرَاث» مَعْناه امْتِلاكُه، ومن ثمّ تَحْقيقُهُ وتجاوزُه، وهذا ما لا يتأتّى لنا إلاّ إذا قُمْنَا بإعادة بِنائِه بإعادة تَرْتيب العَلاقَةِ بين أجْزائه من جِهَةٍ، وبينه وبيننا من جِهَةٍ أُخْرى، بالشّكْلِ الذي يَرُدُّ إليه في وَعْينا تاريخيَّتَهُ ويُبْرِزُ نِسْبِيَّةَ مفاهيمِه ومَقُولاتِه).

ومن صُلْبِ «التَّحْليل الجابريّ» لـ«الخِطَابِ العربيّ المُعَاصِر» واتِّهامِهِ له بأنّه يتعاملُ مع (المُمْكِنَات الذِّهْنِيّة وكأنّها مُعْطَيَاتٌ وَاقِعِيّة)(٦٧)، فإنّ الشَّرْطَيْن لن يتحقَّقَا إلاّ عبْر «حَرَاكٍ تَنْمَويٍّ» شَامِلٍ؛ وأمّا المَخْرَجُ من هذه «الإشْكَالِيّة»، فلن يتحقّقَ إلاّ بالجَمْعِ بين «التُّرَاثِ» و«الحَدَاثَةِ» في تَوَازُنٍ وتَوَافُقٍ وتَنَاغُم، ولن يكون ذلك عبْر محاولات الجَمْعِ بينهما تَلْفيقيّاً، ولكن الجَمْع بينهما تَنْمَويّاً؛ وذلك بالتّفاعُلِ الحيويّ بين «الأَصَالَةِ» بثَوابِتِهَا المُعْتَمَدَةِ وضَوابِطِهَا الاجْتِهاديّةِ واسْتِيعابِها لضُغُوطِ الوَاقِعِ ومُتطلَّباتِ المرْحلة من ناحيةٍ، ومن ناحيةٍ أُخْرى باقْتِحَام «الحَدَاثَةِ» بأبْعَادِهَا التِّقَنيّة والعِلْميّة التي تُمَثِّلُ «البِنْيَةَ الأَسَاسَ» لكُلِّ أبْعَادِ «الفِكْرِ المُعَاصِر» لتَطْوير «مَنْظُومَةٍ مَعْرفيّةٍ شَامِلَةٍ» تَصْطَفُّ فيها الإيجابيّاتُ من «التُّرَاثِ» و«الحَدَاثَةِ» معاً لتُحَرِّكَ «قَاطِرَة النّهْضَة»، وتَضْمَحِلُّ فيها

السَّلْبيّـاتُ من «التُّرَاثِ» و«الحَدَاثَةِ» التي تُفْرِزُ عَوامِـلَ الإعاقة، ومنابع العَرْقَلَة، وجراثيم النِّـزاع. إنّ إحْـدى الآليّات المُهمّة فـي التّصدّي لهذه «الإشْكَالِيّة» هـي فَحْصُ «الحَدَاثَةِ» بحُمُولَتِهَـا التّاريخيّـة ومُكَوِّنَاتِهَا العمليّـة وعناصِرها الفِكْريّة، وفَحْصُ «التُّرَاثِ» وإعادة قِراءتِـه برُؤيَـةٍ نَقْديّةٍ موضوعيّـةٍ وأدواتٍ مَعْرفيّةٍ تُناسِبُ «الزَّمـان» و«المكان»، ولن يكون ذلـك الفَحْصُ لطَرَفَـيْ «الإشْكَالِيّة» مُجْدِياً ما لـم يَتِمّ عبْر «مِجْهَرٍ تَنْمَـوِيٍّ» يَحْرِصُ على التّلاقُـح والتّرَاكُمِ والبِنَاء، ويُقَلِّصُ مِساحاتِ الاسْتِفْزَازِ والتّوَتُّرِ والاحْتِقَان، ويَهْتَمُّ بتَقْييمِ «المَكَاسِب والخَسَائِر»، أو بلُغَةِ الفُقهاء، «المَفَاسِد والمَصَالِح».

إذاً لا مَخْرَجَ من هذه «الإشْكَالِيّة» إلاّ بحركةٍ تَدِبُّ على الأرْض، مُتَّجِهَةً نحو المُسْتَقْبَل، قَابِلَةً أخطاءها، ومُتسامِحَةً مع تيّاراتِها، ومُصَحِّحَةً مسارها، ومُعَمِّقَةً للتّفاعُلِ الذي يَنْفَعُ النّاس ليَمْكُـثَ في الأرْض، ومُحَقِّقَةً لأغْراض «الاسْتِخْلاف فـي الأرْض». أقول: لا مَخْرَجَ مـن هـذه «الإشْكَالِيّة» – في رأيـي(١٠٩،٦٠) – إلاّ عبْر إدْراك طبيعة «العَلاقَـة الجَدَلِيّة» بين «التُّـرَاث» و«الحَدَاثَة»؛ وذلك ليس وفْق التَّعْريف الماركسيّ المُسْتَنِـدِ إلى مَفْهُومِ «صِرَاعِ الأضْداد» وأنّ «كُلّ شيءٍ يُوَلِّدُ نقيضه»، ولكن «العَلاقَة الجَدَلِيّة» التي تَحْرِصُ على «التَّكامُلِ البُنْيويّ» بين عناصِرِ الهُويّة ومُقَوِّمات الأُمّة ومقاصِد الشّريعة من ناحيةٍ، وبين «الحَدَاثَة» بعناصِرها التّنْمويّة وأُطُرِهَا الاجْتماعيّة وأُسُسِهَا المُعَاصِرَة من ناحيةٍ أُخْرى. إنّها عَلاقَةٌ تَتَبَلْـوَرُ وتَتَشَـكَّلُ عبْر برامِـج عمليّةٍ وآلياتٍ تَنْمَويّـةٍ تَدْفَعُ بالمُجْتمعات إلـى الانْخِرَاطِ في نِظَـام الحياة المُعَاصِـرَة وإنْتاجيّته وديناميكيّته، فيُثْرِي بعْضُها بعْضـاً؛ فيَنْهَضُ «الدِّينُ» بأصْحابـه تَحْفيزاً علـى القُوّة وتَمْكيناً فـي الأرْض، ويَتَشَـكَّلُ «العَقْلُ» وفْق «فِكْـرٍ عِلْميٍّ»، ويَتَبَلْوَرُ «الوِجْدَانُ» وفْق «أَصَالَةٍ تاريخيّة»، ويَتَطَوَّرُ «الوَاقِعُ» وفْق «حركةٍ تَنْمَويّة».

تَتَرَسَّخُ هذه «العَلاقَةُ الجَدَلِيّةُ» أكْثر عبْر الرُّؤية التي يَطْرَحُهَا محمد عابد الجابريّ بقولـه إنّ: (نجاح أيِّ بلدٍ من البلدان، النّاميـة منْها التي هي في «طريق» النُّموّ، نجاحها في الحِفَاظِ على الهُويّةِ والدِّفَاعِ عن الخُصُوصّية، مَشْرُوطٌ أكْثر من أيِّ وَقْتٍ مضى بمدى عُمْـقِ عمليّة التّحْديث الجَارِية في هذا البلد، عمليّة الانْخِرَاطِ الواعي، النَّامي والمُتَجَذِّر، فـي عَصْرِ العِلْمِ والتِّقانـة)(٥٩)، وتَتَّفِقُ هذه الرُّؤية مع طَرْحِ محمـد الميلي الذي يرى أنّ:

(فِكْـرة الحِفَاظِ علــى «الأَصَالَةِ» لم تَتَحَوَّلْ إلــى مَشْرُوعِ تَأْصيلٍ يتــلاءَمُ مع الانْغِراسِ في العَصْر، واسْتِنْبَاتِ مُحِيطٍ مُلائِمٍ للاسْتِفادة القُصْوى من التَّعاطي مع الغَير)(٨).

وهكذا نَخْلُصُ إلى حقيقةٍ تُؤَكِّدُ أنّ نجاح أيٍّ «مَشْروعٍ نَهْضَويٍّ» مَرْهُونٌ بثلاثة عناصِر:

١) مدى قُدْرته على تَحْريك قُــوى المُجْتمع وتَحْفيزها؛ وفي «المُجْتمعات العربيّة» فإنّ الغَالِبيّة تَدِينُ بالإسْلام، وتَمِيلُ إلى المُحَافَظَة.

٢) توجيــهُ مَوارِد المُجْتمع وإمْكاناته، وتَفْعيــلُ طاقاته لامْتِلاكِ مُقَوِّمَاتِ «النَّهْضَة» الحقيقيّة.

٣) السَّيْرُ الحكيم - عبْر التّخْطيط والمُرونة والتّقْييم والمُحَاسَبَةِ والمُتَابَعَةِ - نحو أَهْدافٍ مُحَدَّدَة، وغاياتٍ مُشْتَرَكَة.

وأمّا في «الأَلْفيّة الثّالثة»، فمن البدهيّ أنّه لا يُمْكِنُ لأيٍّ «مَشْروعٍ نَهْضَويٍّ» أنْ يَنْهَضَ إلاّ عبْــر آليّاتٍ حديثــةٍ مُتَوَافِقَةٍ مــع «الزّمان» ومُتَنَاغِمَــةٍ مع «المكان»، وعبْــر فَهْمٍ حَاذِقٍ لطبيعــة العَصْر ومُقَوِّماته ممّا يَسْتَوْجِبُ «التَّفاعُل الإيجابــيّ» مع العَالَم وتجارِبه التّنْمَويّة والتّنْظيميّة والحياتيّة؛ وهكذا نجدُ أنّ الحاجة ماسّةٌ إلى «مِسْطَرَةٍ تَنْمَويّةٍ - عِلْميّةٍ» تَقِيسُ المســارات، وتَضْبِــطُ التّفاعُلات، وتُحَدِّدُ الأهْــداف، لتَفْكيكِ «الإشْكَاليّــة» وتَقْليلِ حِدَّتِهَا وتَقْليصِ مِساحاتِها.

٤-٦-١- أ) نَحْوَ «قانونٍ صِفْريّ»:

بتأمُّــلٍ دقيقٍ نجــدُ أنّ «الخِطَابَ العربــيّ المُعَاصِر»، بشِقَّيْهِ «التُّرَاثــيّ» و«الحَداثيّ»، يَحْتــوي على تَورُّماتٍ نظريّةٍ وإنْشائيّةٍ هَائِلَةٍ، أَنْتَجَتْ «إشْكَالِيّةَ التُّرَاثِ والحَداثَة»، ممّا وَلَّدَ - بالضّــرورة - درجاتٍ عاليةً من الاحْتِقان والتّوَتُّر وعــدم الفَاعِليّة الحياتيّة والمُجْتمعيّة والتّنْمَويّــة، وفي الوَقْت نفْسه تَبْدُو «حياة المُجْتمعــات العربيّة» وكأنّها نَمَطٌ مُعَاصِرٌ يعيشُ زمانه عبْر «ثقافــة التّكْديس» و«الْتِقاط المفاهيم» و«حُمَّى الاسْتِهْلاك»، ولكنّها في الوَاقِع خَاوِيَــةُ الوِفَاضِ عبْر افْتِقَارِهَــا لــ«أدوات التّنْمية» و«ثقافــة العمل» و«عناصِــر الإنْتاج».

وهكذا نجـدُ أنّ السّاحة الفِكْريّة تَكْتَظُّ بالنّظريّات والأيديولوجيّات والسِّجَالات وصَرْعَاتِ «الحَدَاثَـة» المُخْتلفة، ولكنّها تَفْتَقِرُ إلى «التَّخْطيط المَنْهَجـيّ» والخِبْرَةِ العمليّة والتّفاعُلِ الحقيقيّ على أرْض الحياة والوَاقِع والمُعَايَشَة، وهو - بطبيعته - تفاعُلٌ تلاقُحيٌّ وتراكُميٌّ وتكامُلـيّ. ومـن الوَاضِح أنّ لهذا الصِّـرَاعِ آثاراً سَلْبيّةً عميقةً فـي «المُجْتمعات العربيّة»، وهـو من أبْرز الأسْباب المُؤدِّية إلى تَفَاقُم «إشْكَالِيّة التّنْمية»؛ ولذا فمن الضّروري تَحْقيقُ «التَّوَازُن» عبْر إيجاد أرْضيّةٍ مُشْتَرَكَةٍ تَهْتَمُّ بتأْمين المصالِح المُشْتَرَكَة، وخِدْمَةِ المصْلحة العامّة، وتَعْميقِ قنوات الحِوار والجِوار بين أطْرافِها.

إنّ المَدْخَلَ إلى «فَكّ الاشْتباك» هو عبْر إيجاد ما يُمْكِنُ أنْ نُسَمِّيه «القانون الصِّفْريّ» للعَلاقَـةِ بين «التُّـرَاثِ» و«الحَدَاثَة»؛ ففي «فيزيـاء الدِّيناميكا الحراريّـة» يُوجَدُ مِثْل هذا القانـون الذي يَسْبِقُ «القوانين الثّلاثة للدَّيناميـكا الحراريّة»، ونُعِتَ بـ«القانون الصِّفْريّ» لأنّه يُؤَسِّسُ لها، ويُمَثِّلُ اللّبِنَةَ الأسَاسَ لتَحْديدِ مُوَاصَفَاتِهَا، وبِناءِ نِظَامِهَا النّظريّ والعمليّ. وبهـذا يكونُ «القانـونُ الصَّفْريُّ» - في «جَدَلِيّةِ التُّرَاثِ والحَدَاثَـة» - القَاعِدَةَ التي تَسْتَنِدُ إليها التّصـوُّراتُ والتّوقُّعاتُ والاسْتِشْرافاتُ والبرامِج، وتتوافـقُ حولها الأطْرَافُ لتَحْقيقِ المَقَاصِـد التّنْمَويّة والاسْتِقْـرار المُجْتمعيّ. من هذا المُنْطلق فإنّنا نَحْتَاجُ - في «إشْكَالِيّة التُّـرَاث والحَدَاثَـة» - إلى «قانونٍ صِفْـريٍّ»، وبدهيّةٍ أُولى، وأَرْضيّةٍ مُشْتَرَكَـة، يَنْطَلِقُ منْها «العمـل العربـيّ الثّقافـيّ»، ويَسْتَنِدُ إليها في تطـوُّرِه الفِكْريّ، وآليّاتِـه العمليّة، ومساقاتِه الثَّقافيّة، وطُموحاتِه التّنْمَويّة.

إنّ هـذا «القانـون الصِّفْـريّ»، الـذي نَعْتَبِـرُهُ المَدْخَـلَ إلى حَـلّ «إشْكَالِيّـةِ التُّرَاثِ والحَدَاثَـة»، لا يُمْكِـنُ له أنْ يَتَجَلّى - في الألْفيّة الثّالثـة - إلاّ عبْر نَمُوذَجٍ حَيٍّ لما يُمْكِنُ أنْ نُسَمِّيه «نَمُوذَج التَّوَافُقِ التّنْمَـوِيّ»، فتكون «المعاييرُ التّنْمَويّةُ» بأُسُسِهَا العِلْميّة المُنْضَبِطَة هي «الحَكَمُ» في هذا الصِّرَاعِ المُحْتَدِم، فلعلّ «التّنْمية» تَصْنَعُ ما عَجِزَتْ عنه الصِّرَاعَاتُ اللفْظيّـة، والمُعَلَّقَاتُ الكلاميّـة، والسِّجَالاتُ الإعْلاميّة، والتَّقَلُّبَـاتُ الفِكْريّة، والسّياساتُ المُتَعَـدِّدَةُ المَشَارِب، ليتحقّقَ ما أشار إليه مالك بن نبيّ بقوله: (إنّ الذي يَنْقُصُ المُسْلِمَ ليسـ مَنْطِـق الفِكْرة، ولكن مَنْطِـق العمل والحركة، وهـو لا يُفَكِّرُ ليعمل بَـلْ ليقول كلاماً

مُجَـرَّداً، بَلْ إنّه أكْثر من ذلك يُبْغِضُ أولئك الذيـن يُفَكِّرُون تَفْكيراً مُؤثِّراً، ويقولون كلاماً مَنْطِقِيّاً من شَأنه أنْ يتحوَّلَ في الحال إلى عملٍ ونشاط)[٢٨].

مـن المُهمّ – إذاً – أنْ يتحقَّقَ الالْتِقَاءُ بين «التُّرَاثِ» و«الحَدَاثَةِ» على «صعيدٍ تَنْمَوِيٍّ» يَحْرِصُ على تَرْسيخِ «القِيَم التَّنْمَوِيّة»؛ فيَهْتَمُّ «الحَدَاثيّون» بالمعاني الحقيقيّة لـ«الحَدَاثَة»، ويَلْجَـأُ «التُّرَاثيّون» إلى اسْتِدْعَاءِ الجَوانِبِ العَقْلانيـّة، والقِيَم العمليّة، والتَّسَامُحِ الفِكْريّ، وتَغْليبِ المصالِح، واخْتيارِ «أخَفّ الضَّرَرَيْن»، لتوظيفِها في أُطُرٍ حديثةٍ ومُعْطياتٍ عَصْريّةٍ وإنْجـازاتٍ حياتيّـةٍ واجْتماعيّةٍ واقْتصاديّـةٍ للتّصدّي للتّحدّيات القَائِمَـة، ولتَخْفيفِ حِدَّةِ الصِّـرَاعِ بين «التُّرَاثِ» و«الحَدَاثَـةِ» التي يَقْبَعُ مُعْظَمُهَا في مناطِـق كلاميّةٍ، واسْتِفْزازاتٍ مُتَبَادَلَـة، ومحـاولاتٍ للهَيْمَنَـةِ الأحَادِيّة، دون أنْ يَنْتُـجَ عن ذلك أيُّ مَـرْدودٍ إيجابيٍّ على الصَّعيـدِ الإنْتاجـي والمُجْتمعـيّ والتَّنْمَويّ والفِكْـريّ. إنّ ميزة «نَمُـوذَجِ التَّوَافُقِ التَّنْمَـويّ» أنّنا نتحـدَّثُ عن آليّاتٍ تتحـرَّكُ على الأرْضِ قَابِلَةً للتّقْويـمِ والمُرَاجَعَةِ والتّمْحيص، لتُضِيفَ إلى المُجْتمـعِ إنْجازاتٍ مَلْمُوسَةٍ – على الأصْعِدَةِ السّياسيّـة والاقْتصاديّة والتّعْليميّة والاجْتماعيّة – عبْـرَ موازين دقيقةٍ تَسْتَهْجِنُ التّشنُّـجَ والتَّطَرُّفَ والانْكِفَاءَ والانْغِـلاقَ والتّغْريبَ والانْبِهَارَ والاسْتِفْزازَ والإثَارَةَ المُفْتَعَلَة.

٤-٦-١- ب) مُقَارَبَةٌ علْميّةٌ لـ«نموذج التَّوَافُق التَّنْمَوِيّ»:

نظـراً لأنّ التّوجُّـهَ الرّئيسَ لهـذا الكِتَاب هو التّأْسيسُ للمَوْقِعِ الصّحيـح لـ«الثَّقافة العِلْميّة» في قَلْبِ «الثَّقافة المُعَاصِرة»، وتَأْصيلُها في القَوالِبِ الفِكْريّة والمُجْتمعيّة، والتّأْكيدُ علـى أهميّة مَنْحِهَا أولويَّتهـا المَفْقُودة في «الثَّقافة العربيّة»، وإبْـرَازُ دَوْرِهَا المِحْوَرِيّ في تَفْعيـلِ «الحركـة التَّنْمَويّة»، فلعلّ من المُناسِـب أنْ نضع «إشْكَاليّةَ التُّـرَاثِ والحَدَاثَة» في مُقَارَبَةٍ تَتَوَسَّلُ «الفِكْرَ العِلْميّ»، وتتماهى مع إنْجازاته.

إنّ القَفْـزَةَ الفِكْريّـة والعِلْميّة الكُبْـرى، التي أَحْدَثَهَا ألبـرت آينشتاين في «النَّظريّة النِّسْبِيّة العَامّة» في وَرَقَتِه العِلميّة التي نَشَرَهَا في عام ١٩١٥م وتَتَعَلَّقُ بـ«ظَاهِرَةِ الجَاذِبيّة»،

هـي أنّه نَقَلَ«ظَاهِـرَةَ الجَاذِبِيّة» من حالها عنْد إسحاق نيوتن كقُـوّةِ تَجَاذُبٍ تُؤَثِّرُ عن بُعْدٍ بين كُلِّ الأجْسَام الماديّة، إلى خاصِيّةٍ هَنْدَسِيّةٍ في «الفضاء الزَّمْكَانيّ» ذي الأرْبعة أبْعاد: (ثلاثةُ أبْعَادٍ مَكَانِيّةٌ، وبُعْدٌ زَمَنِيٌّ وَاحِد)، حيث اعْتَبَرَ آينشتاين أنّ وجود جِسْم ماديٍّ يُؤدِّي إلـى حُدُوثِ تغيُّراتٍ في «الزَّمان» و«المكان»؛ أيْ يُؤدِّي إلى انْحِنَاءٍ في «الفضاء الزَّمْكَانيّ» المُحِيـطِ بالجِسْم؛ فتَنْزَلِقُ الأجْسَامُ الماديّةُ المُجَاوِرَةُ لهذا الجِسْم مُتَّجِهَةً نحوه، وتَعْتَمِدُ شِدَّةُ هذا الانْحِنَاءِ وعُمْقُهُ على كُتْلَةِ الجِسْم؛ فكلّما زَادَتْ الكُتْلَةُ زَادَتْ شِدَّةُ الانْحِنَاءِ، ممّا يَأْسِرُ حركة الأجْسَام المُجَاوِرَةِ لتَنْزَلِقَ على المَسَارِ الأسْهَلِ الذي تَقْتَضِيه طبيعةُ التَّحَدُّبِ أو الانْحِنَاء، وهذا التّأْثيرُ هو الذي نُطْلِقُ عليه اسْم «الجَاذِبِيّة».

ووفْـق هـذه النّظريّـة فـإنّ «الزَّمان» و«المـكان» لا وجود لهمـا في غِيَـابِ الأجْسَامِ الماديّة؛ وهكذا يُمْكِنُ أنْ نقول إنّه كما يقومُ «الجِسْمُ المَادِّيُّ» بتَشْكيلِ «الفضاء الزَّمْكَانيّ» حولـه، ويُحَرِّضُ الأجْسَامَ الأُخْرى على الانْزِلاقِ نحوه علـى المَسَارِ الأسْهل، فإنّ «التّنْمية الحقيقيّة» هي التي تُشَكِّلُ الفضاءات الاجْتماعيّة والثّقافيّة والاقْتصاديّة وغيرها، وتَفْرِضُ مُعْطياتِهـا وحقائقهـا، وتُكَرِّسُ شُرُوطَهَا العَقْلانيّـة والعِلْميّة والإنْتاجيّـة، لِتَنْزَلِقَ نحوها الأطْـرَافُ المُخْتلفـةُ والمُعْطياتُ المُتَنَوِّعَـة، وتَتَأَثَّرُ بها الطُّرُوحَـاتُ المُتَداوَلَةُ والمفاهيمُ السّائِدَة. إنّ هذه «المُقَارَبَةَ الفيزيائيّة» لخصائِص «نَمُوذَجِ التَّوَافُقِ التّنْمَويّ» تَعْنِي أنّه كما يَخْتَفِـي «الزَّمان» و«المكان» في غِيَابِ «الجِسْمِ المَـادِّيّ»، فإنّه دون وجود «تَنْميةٍ حقيقيّةٍ» فَاعِلَةٍ على الأرْض تَلْتَفُّ حولها الفضاءاتُ الفِكْريّة والمُجْتمعيّة المُخْتلفة، لا يُصْبِحُ هناك مَعْنىً «تَنْمَوِيّاً»، أو «نَهْضَوِيّاً»، للطُّرُوحَاتِ «التُّرَاثيّة» و«الحَدَاثيّة»، ولا يُوجَدُ أيُّ دَلالاتٍ على فَاعِلِيّتِهَا في «الحَرَاكِ التّنْمَوِيّ»، وهي لن تَسْتطيع التّأْثير - إيجابيّاً - في الوَاقِع، وبالتّالي يُصْبِحُ الصِّرَاعُ الدَّائِرُ في السّاحة هو، كما قُلْنَا، «صِرَاعٌ حول العَدَم».

٤-٦-١- ج) من «التَّوَافُق التَّنْمَويّ» إلى «الثّقافة التَّنْمَوِيّة»:

إذا كان محمـد عابـد الجابـريّ يـرى أنّ المُهِمّةَ الأولـى المَطْرُوحَةَ علـى السّاحة العربيّـة الرّاهِنَـةِ هـي تَحْقيـقُ (الاسْتِقْلال التَّاريخـيّ التّـام)[٦٧] لـلـذّاتِ العربيّة الذي

فَقَدَتْـهُ بسبب «الصِّرَاعِ بين التُّرَاثِ والحَدَاثَـةِ»، فإنّ كُلَّ الحُلُولِ تَبْقَى تَنْظيريّةً ما لم يكنْ المُنْطَلَـقُ الأسَاسُ هو تَحْقيق «الاسْتِقْـلال التّنْمَويّ» الذي يَحْتَـاجُ - أوّل ما يَحْتاج - إلى «ثقافـةٍ تَنْمَويّة». وهكـذا تَنْتَصِبُ أمامنا حالـةٌ وَاضِحَةٌ لـ«الثَّقافة» بعناصِرهـا «السَّلْبيّة» و«الإيجابيّة» (انْظر: الفَصْل الثّاني)، وما دامتْ «قَاطِرَة النَّهْضَة» لم تتحرَّكْ بفَاعِليّةٍ على صعيـد «المُجْتمعات العربيّة»، فإنّ هذا دَلالَةٌ بَيِّنَةٌ على غَلَبَـةِ «العناصِر السَّلْبيّة»، وتَفَاقُمِ تَأْثيرِ «البُعْد الزَّمْكَانيّ» الذي تطرَّقنا إليه في الفَصْل الثّالث؛ ومن هنا كان يَنْبَغِي أنْ تَهْتَمَّ «الإسْتراتيجيّاتُ التَّنْمَويّةُ» بتَأْصيلِ «العناصِر الإيجابيّة» وتَقْليصِ آثار «العناصِر السَّلْبيّة» - قَـدْر الإمْكان -. وبينما يَعْكِـفُ المُثقَّفون والمُجْتهدون والمُفكِّـرون على عمليّات تَحْليل «التُّـرَاث» وتَنْقيتـه ومُراجَعَته، ويَعْكِـفُ آخَرون علـى اسْتِدْعَاءِ مفاهيـم «الحَدَاثَة»، وكِلا العَمَلَيْـن مَطْلُوبان وضروريّان في التّلاقُحَاتِ الفِكْريّة المُعَاصِـرة، إلاّ أنّ المُهِمّ أنْ نَسْعَى إلـى اسْتيعابِ ذلـك «العُنْصُرِ الرِّيادي المُحَرِّك» لهذا العُصْـرِ وإنْجازاته، وهو «العُنْصُرُ الغَائِـبُ» في فِكْرِنَا وحياتِنـا وثقافتِنا، ألا وهو «الحركة العِلْميّـة - التّقنيّة»؛ بَلْ أَذْهَبُ إلى أبْعَـد من ذلك، فأقولُ إنّ دَمْجَ هذا «العُنْصُـرِ الغَائِبِ» في تَحْليلنا، هو الذي سيجعلُ لهذه التّحْليلات والدِّراسات في عَالَمِ «التُّرَاثِ» أو «الحَدَاثَةِ» أيَّ مَعْنَىً تَنْمَويٍّ، أو دَلالَةٍ نَهْضَويّةٍ، في «الأَلْفيّة الثّالثة».

ذلـك «العُنْصُـرُ الغَائِبُ» هو ما يُشيرُ إليـه محمد عابد الجابـريّ بقوله: (ما زالتْ ثقافتنـا مِثْلها فـي ذلك مِثْل جميع مَرَافِـقِ حياتنا الاقْتصاديّة والاجْتماعيّـة والسّياسيّة، لـم تَسْتَوْعِبْ بعْد اسْتيعاباً فَاعِلاً أُسُسَ الحضـارة المُعَاصِرة، أُسُسها العِلْميّة والتِّقَنيّة، لا علـى مُسْتوى الفِكْر والتّفْكير ولا علـى مُسْتوى العِلْم والتّغْيير، إنّنا في هذا المُسْتوى وذاك مـا زِلْنا نعيش «صَدْمَةَ الحَدَاثَةِ» علـى مُسْتوى الفِعْلِ ورَدّ الفِعْلِ اللذيـن يُحَرِّكُهُمَا التّنَافُرُ والتَّنَاقُضُ وليسـ التَّفَاعُلُ والتَّكَامُل. إنّ هـذا يَعْنِي أنّ ثقافتنا ما تـزالُ مَحْكُومَةً إلى حَدٍّ بعيـدٍ ببُنَاها التّقْليديّـة الجَامِدَةِ وأنّ هذه الأخيرة لم تَتْرُكْ بعْد مكانها لبُنَىً حديثةٍ قَادِرَةٍ على أداء وظيفة البُنَى القديمة على مُسْتوى الحِفَاظِ على الهُويّة والخُصُوصِيّة، وقَادِرَةٍ في

الوَقْت نفْسه كذلك على اسْتِيعابِ الجديد، كُلّ جديدٍ، على مُسْتوى العِلْمِ والتِّقانةِ اسْتِيعاباً إيجابيّاً فاعِلاً)[٥٩].

وأمّـا المَخْرَجُ من هـذه «الإشْكَالِيّة» فلن يكون إلاّ بالجَمْعِ بيـن «التُّرَاثِ» و«الحَدَاثَةِ» فـي تَوَازُنٍ وتَوَافُـقٍ، ونَلْمَسُ الخُيُـوطَ العامّةَ لهـذه الرُّؤية في ما طَرَحَهُ لـؤي صافي بأنّ: («الأَصَالَـة» و«التّجْديـد» ليسـا مَفْهُومَيْن مُتَقَابِلَيْـن كما يَظُنُّ البعْض، بَـلْ هما مَفْهُومان مُتَكامِلان، فلا تَجْديدٌ حقيقيٌّ دون أَصَالَةٍ تَرْبِطُ الحَاضِرَ بالماضي، وتَبْنِي المُسْتَقْبَلَ على إنْجـازاتِ السَّلَف)[١٦]. الرُّؤيـةُ نفْسُها تَتَكَرَّرُ لدى برهان غليون، وهـو يُفَنِّدُ «رُدود الفِعْل» إزاء «الضَّغْـطِ العَوْلَميّ» علـى «الهُويّة العربيّة» فيقول: (الدِّفَاعُ عـن هُويّتنا لا يتحقّقُ من خلال الحِفَاظِ عليها كما هِيَ، ولكن من خلال إعادة بِنائها من أُفُقِ المُسْتَقْبَل، وفي إطار العَوْلَمَةِ أو الثَّوْرَةِ العِلْميّة التِّقَنيّة، أيْ بِناء العَالَميّة فيها)[٤١].

إذاً لا مَخْـرَجَ مـن هـذه «الإشْكَالِيّـة» إلاّ بحركـةٍ تَـدِبّ علـى الأرْض، مُتَّجِهَةً نحو «المُسْتَقْبَـل»، ومُدْرِكَةً لطبيعة «العَلاقَةِ الجَدَليّة» بين «التُّرَاثِ» بقِيَمِه وأخْلاقِه ومفاهيمِه، و«الحَدَاثَةِ» بعناصِرهـا التّنْمَويّة ومُقَوِّماتِها الاجْتماعيّة وأُسُسِهَا المُعَاصِرة؛ فتتشكَّلُ هذه «العَلاقَـةُ العُضْويّـة» وتَتَبَلْوَرُ عبْـر برامِج عمليّةٍ، وآليّـاتٍ تَنْمَويّةٍ، تَدْفَـعُ بالمُجْتمعات إلى الانْخِرَاطِ في نِظَـامِ «الحياة المُعاصِرَة» وإنْتاجيّته وديناميكيّته، ووَضْعِ مَشْروعاتٍ فِكْريّةٍ نَشِطَةٍ، وفَعّاليّاتٍ ثقافيّةٍ مُتَنَوِّعَةٍ، تُرْسِي دعائِم التّلاقُحِ بين «التُّرَاثِ» و«الحَدَاثَة».

إذاً الحاجـةُ ماسّةٌ إلى «مَنْظُـورٍ تَنْمَوِيٍّ» ذي معايير صَارِمَةٍ لهـا مُقَوِّماتها العِلْميّة، وضَوابِطها التّنْظيميّة، ومُنْطلقاتهـا التّنافُسيّة، ليَنْأَى بـ«الإشْكَالِيّةِ» عـن الجَدَلِ العَبَثِيّ، والصِّرَاعـاتِ الكلاميّة، ورُكُـوبِ المَوْجَـاتِ الاسْتِفْزَازيّة، وليُكَرِّسَ جُهُـودَهُ في مضامين تَنْمَويّـةٍ بَحْتَةٍ، وآليّاتٍ عمليّةٍ دقيقـةٍ، وحِساباتٍ إنْتاجيّةٍ مُنْضَبِطَةٍ، تَجِـدُ تَعْبيرها الفَاعِلَ علـى الأرْض؛ وفي الوَقْت ذاته يتفاعلُ هـذا «المَنْظُور التّنْمَويّ» مع بيئته سَواءً على صعيد الاحْتياجـات العِلْميّة، أو المَوارِد المُتاحَـة، أو المُشْكلات التِّقَنيّة، أو التّكامُل الوظيفيّ، أو التّجارب المُتَبادَلَة، أو القِيَم الحياتيّة التي تَصْطَبِغُ بها البِيئة، ويَتَحَلَّى بها المُجْتمع.

بطبيعـة الحال فإنّ «المَنْظُور التّنْمَـوِيّ» مَنْظُورٌ يَنْقُدُ نَفْسَهُ قبـل أنْ يَنْقُدَهُ الآخَرون؛ لأنّــه أحْرص من غيره على نجاحِ التّجْربة، وتَطْوير مُعْطياتها، وإرْسَاءِ قَواعِدِهَا، وتَصْحيحِ مساراتِها؛ وهو - من مُنْطَلَقِ أُسُسِهِ العِلْميّة - مَنْظُورٌ لا يُزْعِجُهُ النّقْد - أيّاً كان مصْدره -؛ لأنّــه يُدْرِكُ أنّه لا تُوجَدُ تَجْرِبــةٌ بشريّةٌ بَلَغَتْ الكمال لتكون عَصِيّةً على النَّقْد، وهو لا يَدْخُلُ فــي صِرَاعاتٍ لَفْظيّةٍ، ومُمَاحَكاتٍ كلاميّةٍ، ومُصَادَمَــاتٍ مُجْتمعيّةٍ؛ لأنّه يَعْلَمُ أنّ أحْكامه - في نهاية المطاف - تَخْضَعُ لتلك المعايير الدّقيقة التي تُمَيِّزُ «العمل التّنْمَويّ» الصّادق عن غيره من أشْكالٍ لا تَصْمُدُ كثيراً أمام حقائِق «الحياة» وتحدّيات «الوَاقِع» وشُرُوط «التَّنْمية».

يقودُنــا ذلك - بالضّــرورة - إلى مَفْهُومِ «الثَّقافــة التّنْمَوِيّة» اللازِمَــةِ لتَحْقيقِ ذلك «التَّجَانُسِ الثَّقافــيّ» بين المُجْتمع وعَصْرِه لتوليــد عناصِر دَاخِليّــةٍ مُتَوَافِقَةٍ مع التِّرْكيبة الوِجْدانيّة والإيمانيّة والفِكْريّة والعمليّة بحيث يُثْرِي بعْضُها بعْضاً، ويتحقّقُ «التَّوَازُن» بين مُرَكَّبــاتِ «الثَّقافة» ومُكَوِّنَاتِهَا ليكون مِفْتَاحاً قَادِراً علــى تَحْقيقِ «الاسْتِجَابَةِ» الفَاعِلَةِ أمام «التَّحَدِّيــات» التــي تَعْتَرِضُ مسيرة مُجْتمعاتهــا، ومَدْخَلاً إلى العَتَــادِ والذّخيرةِ اللّازِمَيْن للتّــوَاؤمِ مــع مُتطلّبات مراحِــل «التّنْمية»، وتَحْقيقِ تطلُّعــات الإنْسان بأبْعادِهــا الوِجْدانيّة والعَقْليّــة والمعيشيّــة والرُّوحيّــة والنَّفسيّة؛ فكُلّمــا تَنَوَّعَــتْ مُقَوِّمَاتُ «الثَّقافــة» وتفاعلتْ عناصِرُهــا، كان ذلك مُؤَشِّراً على قُــدْرَةِ تلك «الثَّقافة» على الاسْتِمْــرَارِ والنُّموِّ والفَاعِليّةِ لتُحَافِــظَ على أنْمَــاطِ الحياة، وتُطَــوِّرَ إمْكاناتِهــا، وتُجَدِّدَ خلاياهــا، وتَدْعَــمَ المُقَوِّمَاتِ المُتَعَدِّدَةِ والمُعْتَمَدَةِ للمُجْتمعِ الحديث.

٤-٧) «التَّنْمية الحقيقيّة» لا تَسْتَعْدِي أحداً:

إنّ «أَسْبــاب التّنْمية» بطبيعتِها مُحايدةٌ فهــي لا تَنْحَازُ لطَرَفٍ دون آخَر، وهي ليستْ حِكْــراً على أحدٍ، ومن أَخَذَ بهــا حَقَّقَ نتائِجَهَا، ومن أَخْفَقَ فلا يلومــنَّ إلاّ نَفْسَه؛ فاحْترامُ العمــل وإتْقانُــه، والتَّخْطيطُ الجــادُّ، والتّنْفيذُ الأميــن، وتَقْديرُ الوَقْت وإدارتُــه، ومُحارَبةُ الفســاد بأشْكاله، وطَلَبُ العِلْم النّافِــع بأنْواعه، وتَأْصيلُ مكانةِ الإنْسان وكرامته، وتَكْريسُ مَصْلَحَةِ المُجْتمــع، والتّفاعُلُ الإيجابيّ مع أعْرَافِه؛ كُلّها قِيَمٌ تَنْمَويّةٌ أساسٌ، وكُلُّها أَسْبابٌ

يَتَعَـرَّفُ عليهـا «العَقْلُ السَّويُّ» قبـل أنْ يُؤَكِّدَهَا ويَدْفَعَ بها قُدُماً «العَقْـلُ التَّجْريبيّ»، وكُلُّها مُقَوِّماتٌ تَجْتَمِعُ في غَرْسَةٍ طيِّبةٍ يَحْرِصُ عليها المُسْلِمُ قبل غيره؛ امْتِثالاً لِقَوْلِ المُصْطفى - صلَّى الله عليه وسلَّم -: «**إذا قَامَتْ القِيامَةُ وفي يَدِ أحدكم فَسِيلَةٌ فليَغْرِسْهَا**»(٦٩).

إذا تأَكَّدَ لنا أنّ «قِيَمَ التّنْمية» لا تُحَابِي أحداً، فإنّ ذلك - بالضّرورة - يُبَيِّنُ أنّ «قِيَمَ التّنْمية» أيضاً لا تَسْتَعْدِي أحداً؛ فأوّلُ «شُرُوطِ التّنْمية» أنْ تَتَحَرَّكَ في مَنْظُومَةٍ مُتَجَانِسَةٍ، وتَنْدَفِـعَ بإرادةٍ جماعيّـةٍ، وتَتَقَوْلَبَ في مَنْظُورٍ شَامِلٍ يُوَفِّقُ بيـن الجُزْئيّاتِ والكُليّات. وأمّا أولئـك، الذيـن ملؤوا الدُّنْيـا صُراخاً حول «حَدَاثَـةٍ» يرون أنّـه يَنْبَغِي لهـا أنْ تَنْسِفَ قِيَمَ المُجْتمـع، وصَالُوا وجَالُوا مُتَسَلِّحيـن - بانْبِهَارٍ مُنْبَطِحٍ - لمُصْطلحاتٍ برَّاقَةٍ اسْتَوْرَدُوهَا، ومفاهيـم غائِمَةٍ اسْتَجْدُوهَا، وراحـوا يَتَأَبَّطُونَهَا في كُلِّ مَحْفَلٍ، فإنّهـم قد أخذوا القُشُورَ مـن تجارِبِ الغَـرْب، وانْصَاعُـوا لشُرُوطِ تلـك المُجْتمعـات وظُرُوفِهَا، ورَبَطُـوا مُسْتَقْبَلَ مُجْتمعاتِهـم بتاريخ غيرهم وإرْثِه، واسْتَفَـزّوا بيئاتِهم، واسْتَعْدَوا النّاس؛ وكُلُّ ذلك - دون شَكٍّ - هو العدوُّ الأوّلُ لـ«التّنْمية».

ويتأَكَّـدُ «الإطارُ الثّقافي للتّنْمية» لدى عبـد الخالق عبد الله(٩) بقوله: (لقد أَظْهَرَتْ التّجـارِبُ العمليّـةُ أنّ أيَّ إسْتراتيجيّةٍ تَنْمَويّةٍ تُسْقِطُ من حِساباتِهـا «البُعْدَ الثّقافيّ» تكون عُرْضَـةً لتوليـد الاغْتِـرَابِ الحضـاريّ والشِّقَـاقِ الاجْتماعـيّ واللّامبالاة وحتّـى العَدَاءِ لمَجْهُودَاتِ التّنْمية)؛ وبهذا يَخْلُصُ عبد الخالق عبد الله إلى نتيجةٍ مُهمّةٍ وهي أنّ: (تعثُّر البرامجِ التّنْمويّة السّابقة يعودُ إلى تَجاهُلِهَا «البُعْدَ الثّقافيّ»). إنّ «التّنْميةَ» التي لا تَسْتطيعُ أنْ تَنْطَلِـقَ من أحْشَاءِ مُجْتمعِها، وتَتَمَثَّلَ خَصَائِصَهُ وقِيَمَهُ ومُنْطَلَقَاتُهُ، هي - بالضّرورة - تَنْميـةٌ هَشّـةٌ، سرْعان ما تَذْرُوهَا الرّيـاح وتَفْقِدُ بريقها؛ وبطبيعة الحـال ليستْ «التّنْمية» هــي الإجْماع علـى رُؤيةٍ وَاحِدَةٍ، فليس ذلك من سُنَنِ الله فـي خَلْقِه، ولكنّها الحِرْصُ على التَّمْييزِ بين تلك المُتطلَّبات الجَوْهَريّة لـ«التّنْمية» بمعاييرِها العِلْميّة وحقائقِها التّجْريبيّة وثوابِتهـا الثّقافيّة، وبين تلـك الآراء التي هي - في أحْسن أحْوالها - مُجَرَّد آراءٍ شَخْصيّةٍ وانْطِباعـاتٍ آنيّةٍ، وفي أسْـوأ أحوالها هي انْسِيـاقٌ وراء هوى النّفْس، ورَغْبَـةٌ في مُخالَفَةِ

المَألُـوفِ والمَقْبُـولِ بدعْوى «إبْدَاعٍ مُزَيَّـفٍ» بَحْثاً عن شُهْرةٍ كاذِبَـةٍ، أو انْسِياقاً وراء بُرُوزٍ إعْلاميٍّ خَادِع.

ومـن هنا يَنْبَغِي التَّأْسيسُ لـ«ثقافةٍ تَنْمَويّةٍ» تَأْخُذُ في الحِسْبـان اعْتِباراتِ «التّنْمية» وضَـروراتِ «العَصْر» ومُقْتَضياتِ «الواقِع»؛ فتكونُ ثقافةً مُتآلِفَةً مع المُتَغيِّرات، ومُتَجَانِسَةً مـع العَصْر، ومُسْتَوْعِبَةً لمُعْطيـاتِ «الحركة العِلْميّة - التّقنيّة» وشُرُوطِهَـا، ومُؤصِّلَةً لقِيَمِ الأُمّـةِ وهُويّتِهَـا، ومُواكِبَـةً لتطلُّعاتِ المُجْتمـع وطُمُوحاتِه. ولا شكّ فـي أنّ تَحْديدَ الأُسُسِ والخَلْفيَّاتِ والمُنْطَلَقَاتِ المُرْتَبِطَةِ بأيِّ قضيّةٍ هو أَمْرٌ لازِمٌ لبَلْوَرَةِ الإسْتراتيجيّات، وتَحْديدِ الآليّاتِ اللاّزِمَةِ للتّعامُلِ معها، ومُعَالَجَةِ إشْكَالاتِها، وتَطْويرِ إيجابيّاتِها؛ ولذا فإنّ مُصْطلح «الثّقافة التّنْمَويّة» يَحْتَاجُ منّا إلى وَقْفَةٍ مُتَأنِّيةٍ تُقَيِّمُ ماهيّتَه، وتُحَدِّدُ مُقَوِّمَاتِه، وتَتَعَرَّفُ على طبيعتِه، وتُؤَسِّسُ أَرْضِيَّتَه، وهذا ما سَنَسْعَى إليه في الفَصْلِ التّالي.



«العَقْلُ العَرَبيُّ» و«الثَّقَافَةُ التَّنْمَوِيَّةُ»

٥-١) مَدْخَل:

لقد وَقَفْنَا - فيما سَبَقَ من فُصُولٍ - على بعْض طُرُوحاتِ «النَّهْضَويّين» واسْتِشْرَافَاتِ «التَّنْمَويّين» لنجد أنّ هَاجِساً قويّاً يَتَجَذَّرُ في كُلِّ تلك التّنْظيرات، وأنّ مُعاناةً فِكْرِيّةً تَتَغَلْغَلُ في أحْشَاءِ تلك الاسْتِشْرَافَاتِ وما يُرافِقُهَا من عُمُوميّاتٍ تَضْرِبُ الحَيْرَةُ في أطْنَابِهَا لتُبَيِّنَ أبْعَادَ «أَزْمَةٍ ثقافيّةٍ» بامْتيازٍ، ويَحْدُثُ ذلك في ظِلِّ وَاقِعٍ عربيٍّ يَتَدَحْرَجُ إلى القاع بينما تَنْطَلِقُ «الحركة العَالَميّة» إلى المِجَرَّات؛ وكُلُّ هذه الأبْعَادِ - دون اسْتِثْنَاءٍ - تتوقَّفُ أمام حقيقةٍ بدهيّةٍ لا مناص عنها تماهى معها كثيرون من المُثقَّفين العرب، ويُوجِزُهَا محمد محفوظ فيقول: (إنّنا في هذا العَصْرِ الزّاخِرِ بالمَعْلُومات وتقْنياته المُتَعَدِّدَة، لا يُمْكِنُنَا أنْ نَخْتَارَ هل نَدْخُلُ هذا العَصْرَ أمْ نُغْلِقُ وَاقِعَنَا عنه، وإنّما من الأهميّة توفير كُلِّ الشُّرُوطِ الضّرورية لاسْتِيعابِ تطوُّراتِ هذا العَصْرِ وتقْنياتِهِ حتى يَتَسَنَّى لنا المُشارَكة الطّبيعيّة في عَصْرٍ لا محلّ فيه إلاّ للمُجْتمعات الحَيّة، الزّاخِرَة بالكفاءات والطّاقات الخَلاّقة)[٤٣]. ويُؤَكِّدُ لؤي صافي أهميّة «الشَّرْطِ الثَّقافيّ» لـ«الرُّؤية التَّنْمَويّة» بقوله: (يَلْزَمُ الأَخْذُ بعَيْنِ الاعْتِبار، عند تَطْوير مَشْرُوع تَنْميةٍ فَعّالٍ، العَلاقَة الحميمة بين ثلاثة جَوانِب من الحياة الاجْتماعيّة: النّفْسيّ، والثّقافيّ، والإنْتاجيّ. بمَعْنَى أنّ «حركة التّنْمية» تتوقّفُ على توفُّر مَجْموعَةٍ من الشُّرُوطِ الثّقافيّة والاجْتماعيّة)[١٦].

أمّا فيما يَتَعَلّقُ بتلك «الشُّرُوطِ الثّقافيّة والاجْتماعيّة» فلا بُدَّ لها أنْ تَصُبّ في ما وَصَفَهُ غازي القصيبي[١٠] بأنّه: («شيءٌ ما» لا بُدَّ منه لنجاح العمليّة التّنْمَويّة)، وهو:

(ذِهْنيّةٌ مُعَيَّنَةٌ يُمْكِنُنَا إذا ضَمَنَّا وجودها أنْ نَتْرُكَ لها حُريّةَ التّعامُلِ مع التّفاصيل وَاثقين من قُدْرَتِهَا على الوصُولِ إلى حُلُولٍ، ويَسْتَحِيلُ في غيابِها أنْ نَنْجَحَ في حَلِّ المُعْضلات التي تُشَـكِّلُ جُـزْءاً لا يتجزَّأ من كُلِّ تَحَـوُّلٍ تَنْمَويّ). وأمّا محمد أزهـر السمّاك، فيرى أنّ أحد المبـادئ التي يجب أنْ تَحْكُمَ الهدف نحو تَحْقيقِ «إسْتراتيجيّة العمل الاقْتصاديّ العربيّ» هـو: (الارْتِقاء بالمُسْتوى الثقافيّ والعِلْميّ للفَرْدِ العربيّ إلـى مُسْتوى مُعايَشَةِ العَصْرِ بما يُؤهِّلُهُ للإسْهَامِ الجَادِّ في الإنْتاج، وزَرْعِ الثِّقةِ بالنّفْسِ في الاسْتِهْلاك)(٦٩).

لقـد رأينا - أيضاً -، في سِيـاق الفُصُولِ السّابقة، أنّ أبْرز الشُّرُوط الضّرورية للتّفاعُلِ الجَادِّ مع مُعْطيات «الحركة العِلْميّة - التّقنيّة» والامْتِصَاصِ الوَاعِدِ لها، يَتَمَثَّلُ في ثقافةٍ حيويّةٍ نَشِطَةٍ قَادِرَةٍ على اكْتِسَابِ «الفَاعِليّة الاجْتماعيّة» التي تَنْقُلُهَا من حالات السَّمَرِ وليالي الأُنْسِ وثقافـة اللّفْظِ إلى فِعْـلٍ يتحرَّكُ على الأرْضِ، ليُغَيِّـرَ مَعَالِمَ الحياة وأنْمَـاطَ التّفاعُل؛ وبذلك تكـون «الثَّقافةُ» هي «الوَسَـط الفَعَّال» اللازِم لتَحْقيقِ «النَّهْضَة» وتَحْريـكِ «التّنْمية» والتّفاعُلِ الإيجابـيّ مع ظَاهِرَةِ «العَوْلَمَة»، وهذا ما أَدْرَكَهُ أحمد زويل وهو يتأمَّلُ مُحاولات «النّهْضَة» في تاريـخ «العَقْلِ العربيّ» ليُطالِـبَ بإصْلاحٍ ثقافيٍّ شَامِلٍ بقوله: (فعلى صعيـد «الثَّقافة» تَتَطَلَّبُ «النّهْضَـة» إصْلاحـاً ثقافيّـاً وَاسِعاً، وأَعْنِـي هنا بالإصْـلاح الثّقافيّ...إصْلاح حالـة النّفْسِ والعَقْل، أيْ تَرْميمُ «الضَّميرِ العربيّ» مع تَرْميمِ «العَقْلِ العربي» سَواءً بسَواء)(٧٠).

أمّـا عمليّةُ «تَرْميم الضَّمير العربـيّ» فلدينا الكثير من القِيَم والمفاهيمِ والعِبَرِ التي يَزْخَـرُ بهـا تُرَاثُنَا وتَضِجُّ بهـا أدبيّاتُنَا، وأمّا عمليّةُ «تَرْميم العَقْـلِ العربيّ» فهي في حاجةٍ مُلِحَّـةٍ إلى وَقْفَةٍ مُتأنِّيـةٍ؛ فعمليّةُ «تَرْميم العَقْـل العربيّ» تَسْتَدْعِي توفيـرَ أدْواتٍ وعناصِر وخامـاتٍ ذات خصائِص مُعَيَّنَةٍ لكـي تتفاعل عمليّتا «تَرْميم الضَّمير» و«تَرْميم العَقْل» في «تَرْكيبةٍ جَدَليّةٍ»، بحيث يُغَذّي كُلٌّ منْهما الآخَر لتَصْحيحِ المسار، وتَطْويرِ العطاء، وتَفْعيلِ الطّاقـات، وشَحْذِ الهِمَم؛ فتتفاعل قِيَمُ الدِّين، وعطـاءاتُ الفِكْر، وكَوابِحُ التّجْربة، وآفاقُ العلـوم، ونَشْوَةُ الابْتـكار؛ لتَنْصَهِرَ كُلُّهَا في بَوْتَقَـةٍ وَاحِدَةٍ مِعْطَاءَةٍ قَـادِرَةٍ ليس فقط على «تَرْميـمِ العَقْلِ العربيّ»، بل وأهمّ من ذلك وأعْمق، إعادةُ تَشْكيلِـه وصَوْغُ مُكَوِّنَاتِه ليتواءَمَ مع خصائِص «الاسْتِجَابَةِ» اللّازِمةِ لمُجابَهَةِ «التَّحَدِّي».

٥-٢) «العَقْلُ العربيّ»: تَرْميمٌ أمْ إعادةُ بِنَاء؟:

فــي ضوء ما رأيناه في الفُصُول السّابقة مــن الخصائِص المُمَيِّزَةِ لـ«العَقْلِ العربيّ» ومُمَانَعَتِــهِ الشّديدةِ لـ«شُــرُوطِ العَصْر»، فإنّ الحاجةَ ماسّةٌ إلى عمليّــة «إعادة بِنَاءٍ» لهذا «العَقْل» تَبْدَأُ بتَقْويضِ مفاهيم مَغْلُوطَةٍ وتداعياتٍ مَشْرُوخَةٍ وانْفعالاتٍ مُهَيْمِنَةٍ، وتَشْرَعُ في تَأْسيسِ قَواعِد صَلْدَةٍ من الرُّؤى المنْهجيّة، والتّفاعُلات المنْطقيّة، والمعايير المُنْضَبِطَة، والتَّوجُّهــات الحيويّــة؛ لتَدْفَعَ - في النّهاية - إلى بَلْــوَرَةِ مفاهيم «ثقافــةٍ تَنْمَوِيّة» وتَأْصيلِ قِيَمِهَا وأفْكارِها.

وتَبْــرُزُ أحَد ألْغَــازِ «العَقْلِ العربــيِّ» في حقيقةٍ مُحَيِّــرَةٍ فبينما يُفْتَرَضُ أنْ يكون ما يُعايشُهُ هذا «العَقْلُ» من تُرَاثٍ أصيلٍ مُتَمَثِّلٍ في «المَنْهَجِ الرّبانيّ» مُنْطَلَقاً لإنْجازاتٍ غزيرةٍ فــي الكَمِّ وفريدةٍ في النّوْعِ علــى مُخْتلف الأصْعِدَة، إلاّ أنّ «العَقْلَ العربــيّ» أَخْفَقَ بامْتيازٍ؛ والغريــب أنّ أُمماً أُخْرى لا تَمْلِكُ مثل ذلك «التُّرَاثِ» العظيــم اسْتطاعتْ أنْ تَشُقَّ طريقها بمَنْهَجيّــةٍ وعَقْلانيّةٍ وإنْتاجيّةٍ. وليس ذلك بمُسْتَغْــربٍ؛ فسُنَنُ الله لا تُحَابِي أحداً؛ فعنْدما شَخَّصَتْ تلك المُجْتمعاتُ أمْرَاضَهَــا، وتَعَالَتْ على انْفِعالاتِها، وكَبَحَتْ حماقاتِها، وتَمَثَّلَتْ ثقافةَ عَصْرِهَا، انْدَفَعَتْ - في عُنْفوانٍ - لتَصْنَعَ حَاضِرَهَا الزّاهِرَ ومُسْتَقْبَلَهَا الوَاعِد، وكما يقــولُ زين العابدين الرّكابــي: (إذا أَرَدْنَا نَهْضَةً حقيقيّةً وعظيمــةً فليس أمامنا إلاّ إتْقان التّعامُلِ مع السُّنَنِ الكونيّة والاجْتماعيّة، وإذا كان الشّمْسُ والقَمَرُ لا يَنْكَسِفَانِ لمَوْتِ أحدٍ، ولــو كان ابن نبيٍّ، فإنّ قوانيــن الفضاء والبِحَارِ والصِّناعة والزِّراعَــةِ والإدارة والعمل لن تتعطَّــل، ولن تُغَيِّرَ خَصَائِصَهَا من أجــل المُسْلِمين مهما كان عَدَدُهُمْ، ومهما كانت درجة صلاحِهــم، وخُلاصَةُ هذه النُّقطة أنّ الرُّسُوخَ في «العِلْمِ بالسُّنَنِ الكَونيّة والاجْتماعيّة» هو من الأُسُسِ العُظْمَى لـ«الثّقافة العِلْميّة» ومن صميمِها) [١٤].

أمّا «العَقْلُ العربيُّ» فقد غَرِقَ في لُجَّةِ إشْكَاليّةٍ كُبْرى عبْر تاريخه؛ فقد كانتْ «الكلمةُ» هي أداته وسِلاحه وغايته ومُنْتَهَى تطلُّعاتِه؛ فصنعتْ له - بخصائِصها المُمَيِّزَةِ وعُنْفوانِها

الكَامِـنِ – أبْطَالاً من دُخَانٍ، وعَمَالِقَةً مِـن وَرَقٍ، ورُوَّاداً من فُقَّاعَاتٍ، وساعدها على ذلك خيالٌ خِصْبٌ، وعَاطِفَةٌ مُتأجِّجَةٌ، وشُحٌّ فَادِحٌ في الأبْطَالِ والعَمالِقَةِ والرُّوّاد الحقيقيّين(٥٢).

٥-٢-١) من مُحَدِّدات «العَقْل العربيّ»:

إنّ «العَقْـلَ» – بطبيعـة تَكْوينـه – لا يتعامـلُ مـع مُحيطِه مُبَاشَـرَةً، بَلْ عبْـر أدواتٍ ومُحَـدِّداتٍ هي المفاهيم والقِيَم والتّعْريفات والمُصْطلحات والمَعْلُومات؛ فإذا كانتْ هذه المفاهيـمُ والقِيَمُ والمَعْلُومـاتُ قَادِرَةً على التّعامُلِ مع أزمـات المُجْتمع وتحدّيات الوَاقِع، اسْتطـاع «العَقْلُ» أنْ يُنْتِجَ «الاسْتِجَابَةَ» الوَاعِيَةَ المُحَقِّقَـةَ للأغْرَاضِ المَنْشُودة. ولذا فمن المُهِـمّ – في هـذا المِضْمَارِ – أنْ نُؤكِّدَ ضـرورة إجْرَاءِ دِراسـاتٍ مُسْتفيضةٍ في الجَوانِبِ النّفسيّـة والتّاريخيّـة والاجْتماعيّـة والثّقافيّـة التي تُحِيـطُ بـ«العَقْلِ العربـيّ» وتَرْفِدُهُ في مسيرتِـه وتَحْليلِـه وتَعْليله وأفْعالِه ورُدود أفْعالِـه، ولا بُدّ أنْ تتوافَرَ لهـذه الدِّراسات أمانةٌ ونزاهـةٌ وجُـرْأةٌ وشجاعـةٌ تَسْمَـحُ بالغَوْصِ في تلـك الأعْمَـاقِ المَشْحُونَـةِ بالانْفِعَالِ التي يُفَجِّرُهَا «العَقْلُ العربيُّ» في كُلِّ مَأْزِقٍ وفِتْنَةٍ وأَزْمَةٍ ومِحْنَة. لا يَنْبَغِي – في هذا الإطار – أنْ نهـاب تلك الصَّيحاتِ التي تَطْلُـعُ علينا مُحَذِّرَةً من «جَلْدِ الذّات»؛ فالخَوْفُ ليس من «جَلْدِ الذّات»، ولكنّه من فُقْدَانِهَا وذَوَبَانِهَا وضَيَاعِهَا وتَشَرْذُمِهَا، فلا يَخْتَلِفُ عَاقِلان على أنّ من الأفْضـل أنْ تَقْسُو على من تُحِبّ، بَدَلاً من أنْ تَتْرُكَهُ نَهْباً لآفاتِ الزّمان. ذلك عن القَسْوَة، وأمّا إنْ كان الأَمْرُ هو مُجَرَّد إقْرارِ حقائِق تَتَجَلَّى عند كُلِّ مُنْعَطَفٍ، فإنّ الأَمْرَ يُصْبِحُ أشدّ إلْحاحاً. وهكذا نجدُ أنّ من أبْرز ما يُمَيِّزُ «العَقْلَ العربيّ» هو قُدْرَتُهُ الفَذّةُ على الجَمْعِ بين المُتناقضـات؛ فهو – علـى سبيل المِثال – يُمْعِنُ في جِرَاحٍ غَائِـرَةٍ في أعْمَاقِ الزّمن، وهو لا يَفْتَـأُ يَتَلَـذَّذُ بنَكْئِهَا فـي كُلِّ مُنْعَطَفٍ، غير آبِهٍ بالتّغيُّرات التي حَدَثَـتْ على مُسْتوىً كَوْنيٍّ فبَدَّلَتْ خصائِصَ المُجْتمعات، وحَوَّرَتْ معاييرَ التّفاعُلات.

إنّ «العَقْـلَ العربـيَّ» يَتَمَتّعُ بذاكِرَةٍ فريـدةٍ من نَوْعِهَا تُؤَلِّفُ بيـن نَقِيضَيْن؛ فهي من ناحيـةٍ قَادِرَةٌ علـى أنْ تُصْبِحَ «طويلة المدى» لتَسْتَدْعِي كُلَّ فِتَـن التّاريخ ومَثَالِبه الماضية فـي لَحْظة انْفِعَـالٍ لتُوَظِّفَهَـا للاسْتِعْدَاءِ والفِتْنَـةِ والمزيد من الاشْتِعَـال، وهي في الوَقْت

نفْســه قَادِرَةٌ علــى أنْ تُصْبحَ «قصيرة المدى» لتَعْفُو عمّا سَلَفَ بالأمْسِ القريبِ من كَوارِث ونكباتٍ دون مُحَاسَبَةٍ أو مُساءَلةٍ أو كَشْفِ حِسَابٍ، وهكذا تَتَكَرَّرُ في كلتا الحالَتَيْن المآسي والأخْطاء، ويَعُمُّ البلاء، ويَصْدُقُ القول المَشْهُور: (ما أكْثر العِبَر وما أقلّ الاعْتِبار).

إنّــه «عَقْــلٌ» قَادرٌ على أنْ يَخْتَــزِلَ كُلَّ التّاريخ والتّجارِب والمُعاناة فــي لحْظَةِ انْفِعَالٍ هَوْجَــاءٍ، طَامِساً حَوَاسّهُ؛ لكي لا تَسْتَشْعِرْ الخطر الذي يُحِيــقُ بها، فيَنْدَفِعُ ليُكَرِّرَ أخْطاءه على مدى قُرُونٍ، ويَدْفَعُ الثّمن من جديدٍ دون نَدَمٍ أو اتِّعَاظٍ أو تَأَسٍّ؛ فالهزيمةُ هي العلامةُ الكُبْــرى فــي هذا «العَقْل»، ولذا فهو يَهْــرُبُ من انْفِعَالٍ إلى انْفِعَالٍ، وهــو يتوقّعُ المُسْتحيل فيــرى إمْكَانِيَّةَ تحقيق «شُرُوطَ الوَعْــي» من «مُنْطَلَقَاتِ اللّاوَعْي». إنّه «عَقْلٌ» يلومُ الآخَرين على حِرْصِهِمْ على مصالِحهــم، ولا يلومُ نَفْسَهُ لتَضْييعه مصالِحه، ويتباكى على الماضي التّليــد، ولا يَسْعَــى لتَطْويرِ الحَاضِرِ وتَهْيئةِ المُسْتَقْبَل، ويَدْعُو إلــى «الوَحْدَةِ» وما تُمَثِّلُهُ من قُــوّةٍ ومَنَعَــةٍ، إلاّ أنّه سُرْعَانَ ما يَنْزَلِقُ إلى خِلافاتِه الضّيِّقَــةِ وصِراعَاتِهِ المَذْهَبِيَّةِ ونَعَرَاتِهِ القَبَلِيّــة، وكأنّ تَعْريفَ «الوَحْدَةِ» عند «العَقْلِ العربيّ» هــو الأَحَادِيّةُ في الرّأي، والاسْتِبْدَادُ في القرار!.

٥-٢-٢) في رُبُوعِ «الشَّعْوَذَة»:

لا بُــدَّ أنْ نَعْتَــرِفَ بــأنّ «العَقْــلَ العربيّ» يعيشــ «حالــة شَعْــوَذَةٍ»، وإنْ حَسِبَهَا «حالة تفاؤل»؛ فعنْدما تكون جُرْعَاتُ «التَّفاؤل» أكْبر من قُدْرَةِ اسْتِيعابِ «العَقْلِ» لها في مُسْتوياته المَنْطقيّــة، فإنّها تَتَحَوَّلُ إلى ضَرْبٍ من ضُرُوبِ «الشَّعْوَذَةِ» التي لا يَضْبِطُهَا ضَابِطٌ عَقْليٌّ، ولا يَقْبَلُهَــا وَاقِــعٌ حياتــيٌّ، ولا يُفَسِّرُهَــا تَعْليلٌ مَنْطقــيٌّ، ولكنّها تَدْخُلُ في إطــار التّخيُّلات والتّوهُّمات والأمْراض النّفْسيّة؛ فعنْدما يَجْنَحُ «التّفاؤلُ» بحيث يَشُطُّ عن مُعْطياتِ «الوَاقِعِ» ويتجــاوزُ حُدُودَ «المَعْقُول»، فإنّه لا محالة يُصْبِــحُ «حالة هَلْوَسَةٍ» جَانِحَةً في آفاقِ الخيال، ومُفْرِطَــةً في توقُّعاتِهــا وحِسَاباتِها، بحيث تَحْتَاجُ إلى طبيبٍ مُخْتَصٍّ، أو تَسْتَدْعِي اللجوء إلى مَصَحَّةٍ نَفْسيّة!.

يقولــون إنّ الخَطَّ الفَاصِلَ بين «العَبْقَرِيّةِ» و «الجُنُــونِ» هو خيطٌ رفيعٌ، ولعلّه الخيطُ الرّفيــعُ نفْسه الذي يَفْصِلُ بين «التَّفــاؤلِ» و«الشَّعْوَذَة»؛ ففي الحالة الأولى يَسْتَمِدُّ الإنْسانُ مــن تفاؤلِــه عزيمةً صَادِقــةً للعمل السّديد، وقُــدْرةً مَنْطقيــةً للقِراءة الصّحيحــة للوَاقِعِ المعيشــ، واسْتِيعاباً دقيقاً للتَّخْطيطِ الحكيم، وتَنْفيذاً حريصاً للآليّاتِ الفَاعِلَة. وأمّا في حالة «الشَّعْوَذَة» فإنّ الإنْسان يَلْهَثُ وراء توقُّعاتٍ لا سَنَدَ لها في الوَاقِع، ويَنْتَظِرُ تَحَقُّقَ آمالٍ لا أساس لها على الأرْض، ويَتوقَّعُ أنْ تَتَبَدَّلَ الأحْوال، ويؤول إليه المآل دون جُهْدٍ أو عملٍ أو مُثابَــرةٍ، ودون مُراعاةٍ لحُدُودِ «المُمْكِنِ» و«المَعْقُولِ»، وضَوابِطِ الوَاقِعِ والمَلْمُوس، وظُرُوفِ «الزَّمان» و«المكان».

لقد تَغَلْغَلَــتْ خصائِصُ «الثَّقافة العربيّة» التّقْليديّة في نسيــج «العَقْلِ العربيّ» فراح يَحْسَــبُ أنّ «البلاغــة الإنْشائيّة» و«الجمــال الوَصْفيّ» و«التّأجيج الانْفعالــيّ» أدواتٌ كافيةٌ لتَغْييــرِ الوَاقِعِ وتَبْديلِ الحالِ وبُلُــوغِ المرام، وهذا الحالُ هو قِمّةُ «الشَّعْــوَذَةِ» حيث تُهَيْمِنُ القناعــةُ بأنّ كلماتٍ تَمْتَلِكُ المُحَسِّنَــاتِ اللفْظيّة، وخُطُباً تَحْمِلُ الصُّــرَاخَ والجَلَبَة، قَادِرَةٌ علــى تَحْريــكِ الوَاقِــعِ دون جُهْدٍ مَدْروسٍ، ومُثابَرةٍ دَؤوبــةٍ، وفَهْمٍ للحقائِــق على الأرْض، واسْتِيعابٍ لطبيعة التّحَدّيات.

إنّ «العَقْــلَ الجَمْعِــيَّ العربيَّ» يُريدُ صِياغــة الكَوْنِ وفْق «تفاؤله»، ولــذا فإنّ أهْله في مُخْتلــف حالاتهم النّفْسيّة - صُعُــوداً وهُبُوطاً - يَعْجَبُون ويَغْضَبُــون إذا لم تُسَايِرْ «السُّنَنُ الكَوْنيّــة» أمْزِجَتَهُمْ، ولم تُحَابِ عَواطِفَهُمْ، ولم تَتَمَلَّقْ انْفعالاتِهم، ولا شكّ أنّ هذا التَّصَوُّرَ العجيــب نَوْعٌ مُشِينٌ من أنْــواع «الشَّعْوَذَةِ الفِكْريّة» التي يَنْبَغِي التَّصَدّي لها بحَزْمٍ وبأدواتٍ مَعْرفيّةٍ كفؤة.

ليــت الذين يَهْتَمُّون بدِرَاسَةِ مــا أَسْموه «أَزْمَةَ العَقْلِ العربــيّ» يُولُون هذا الجَانِبَ من الأَزْمَــةِ اهْتمامــاً مُكَثَّفَاً، ويَسْعــون - بخِبْراتهم وجُهُودهم - ليس فقــط لدِراسة أبْعاد هذه «الأَزْمَةِ الفِكْريّة» عبْر «الإنْشائيّات» و«الكلاميّات» التي أَبْدَعَ فيها العربُ - قديماً وحديثاً -، وتُعْتَبَرُ - في حَدِّ ذاتِها - جُزْءاً من «الإشْكَاليّة»، ولكن - أيضاً - عبْر طَرْحِ «برنامجٍ عمليٍّ»

يُفْلِـحُ في تَقْليصِ حَجْمِ هـذه الظَّاهِرَةِ المَأْساويّة عبْر آليّاتٍ «ثقافيّـةٍ – تَرْبويّةٍ – إعْلاميّةٍ – عِلْميّـةٍ» تَنْمُـو بشَكْلٍ تراكُمـيٍّ لتُحَرِّرَ «العَقْلَ العربـيَّ» من مُعْتَقَلاتِ «الشَّعْـوَذَة» وحِصَارِ «المُحَسِّنَاتِ اللفْظِيّة»، وتُطْلِقَهُ في رِحَابِ «التَّفاؤلِ العَقْلانيّ» وعَوالِم «الإنْتاج الحيويّ».

قـد يَعْتَقِـدُ بعضُ المُتأمِّليـن أنّ ما يَنْتَـابُ الأُمّة – من فَتْـرةٍ إلى فَتْـرةٍ – من لَطْمِ للخُدُود، وشَقٍّ للجُيُوب، ونَدْبٍ للوَاقِع، وبُكَاءٍ على الأطْلال، هو نَوْعٌ من «عَوْدَةِ الوَعْي»، ولكن هـذا اسْتِنْتَاجٌ لا يَدْعَمُهُ وَاقِـعٌ ولا تَسْنُدُهُ حقيقةٌ، فبضاعتُنا من «الشَّعْوَذَةِ» في كُلِّ الحالات وَاحِـدَةٌ؛ فعويلُنـا واحْتجاجُنا لا يتعاملُ مـع أسْبَابِ فشلنا الذّاتيّ فـي مُوَاجَهَةِ التّحدّيات، ولكنّـه يَنْصَبُّ على شَتْمِ الأعْداء ولَوْمِهِـمْ؛ لأنّهم لم يُعْطُونَا حَقَّنَا من التّقْدير والاحْترام، ولم يتسابقوا إلى مَنْحِنَا ما نحن أهْلٌ له من عَدَالةٍ وتَكْريم!.

«الشَّعْـوَذَةُ» هي نَفْسُهَـا في كُلِّ الحالات؛ فنحن نُريدُ أنْ نَهْزِمَ الأعْداء بخيالٍ جَامِحٍ، وحماقـاتٍ رَعْنَـاءٍ، وقصائِد رَنّانَةٍ، وكُلّما الْتقينا في الميدان كانـتْ بضاعتُنا خَاسِرَةً، إلاّ أنّنـا نَعْتَقِدُ أنّ «السُّنَنَ الكَوْنيّة» ستتغيَّرُ في الجَوْلَـةِ القادِمَةِ عندما نُعيدُ الكَرَّة مَرَّةً أُخْرى بـ«المُقَدِّمَاتِ» نفْسها، وتُصيبُنا الدَّهْشَةَ وتَهُزُّنَا الصَّدْمَةَ عنْدما نَحْصِدُ «النَّتَائِجَ» ذاتها!. إنّهـا «الشَّعْـوَذَةُ» بعَيْنِهَا فـي كُلِّ المقاماتِ والأحْـوال، وعلينا أنْ نَسْتَدْعِـي هنا مِثال دون كيخوتـه الذي أوردناه في الفَصْـلِ الثّاني؛ فـ«المُجْتمعاتُ العربيّةُ» تعيشُ حالة «انْفِصَامٍ فِكْـريٍّ ونَفْسيٍّ»، وتراكُماتِ حِقَـبٍ من الاسْتِبْدَادِ والتَّخَلُّفِ والاتّكاليّـةِ والعَجْز؛ ولذا نَتَوَقَّعُ أنْ يكـون فصيحُ بيانِنـا، وإنْجازاتُ ماضينا، وبلاغةُ خِطَابِنَا، وجُنُـوحُ خيالنا، قَادِراً على قَطْعِ المسافات، وإنْجَازِ المُعْجِزَات، وتَحْقيقِ الرَّغبات!. وهكذا نجدُ أنّ «الشَّعْوَذَة» تَضْرِبُ أطْنَابَهَـا في كُلِّ حالٍ ومقامٍ ومقالٍ؛ فـ«العَقْلُ العربيّ» يُريدُ أنْ يَفْرِضَ شُرُوطَهُ على العَالَمِ بينمـا هو يَقِفُ على أبْـوابِ حضارتِهم يَسْتَجْدِي مُعْطياتِهـا، ويَسْتَهْلِكُ بضاعتَها، ويتبارى فـي اقْتِنَاءِ مظاهِرها، ولو انْقَطَعَ عن أصْحاب «العَقْلِ العربيّ» صُنْبُورُ مَاءٍ، أو تَعَطَّلَ جِهَازُ كَهْرباءٍ، لتَوَقَّفَتْ حركة حياتهم، ولما وجدوا بديلاً عن شِرَاءِ أو اسْتِجْدَاءِ ما يَحْتاجون إليه من تقْنياتٍ ومُنْتَجَاتٍ وقِطَعِ غِيَار.

خُلاصَـةُ القـول إنّ «العَقْلَ العربـيّ» يَحْتَاجُ إلـى «نَقْلَـةٍ نَوْعِيّةٍ» كُبْرى تَخْـرُجُ به من جِلْبَـابِ «الكلاميّات»، وأَسْرِ «الوِجْدَانيّات»، وهَيْمَنَةِ «الشَّعْوَذَة»، إلى دُنْيا «عَقْلَنَةِ التّفْكير»، ومَنْطقيّةِ التّحْليل، ووَاقِعيّةِ «التَّفاؤل» المُنْسَجِم مع سُنَنِ الخَالِقِ وإمْكَانَاتِ الخَلْق. بطبيعة الحال لا يُمْكِنُ الزَّعْمُ بأنّ السّاحة خَالِيةٌ من الجُهُودِ لسَبْرِ أغْوَارِ «العَقْلِ العربيّ»، وفَحْصِ «مَاهِيّتـه»، وإجْـرَاءِ «قـراءاتٍ تَشْخِيصيّةٍ» تَهْتَـمُّ بالتّعرُّفِ على «علامـات العَقْلِ العربيّ» ومُحَدِّدَاتِهِ عبْر نَقْدِ خِطَابه وفَحْصِ عُيُوبه؛ فهناك - على سبيل المِثال - المُحاولةُ الجَادّةُ التي أخذها محمد عابد الجابريّ على عَاتِقِهِ ليُضِيفَ إلى أدبيّات «الفِكْرِ العربيّ» مَشْرُوعاً مُتَعَلِّقَـاً بـ«العَقْـلِ العربيّ» - تَكْوينـاً وبِنْيَةً ونَقْداً -؛ فهو يرى - مُحِقّـاً - أنّه عبْر مُحاولات «النّهْضَة» المُتَعَدِّدَةِ المَشَارِب والمُتَنَوِّعَةِ الوسائِل، فإنّ: (ميدانٌ واحِدٌ لم تَتَّجِهْ إليه أصَابِعُ الاتّهـام بعْـد، وبشَكْلٍ جِدّيٍّ وصَـارِم، هو تلك القُـوَّةُ أو المَلَكَةُ أو الإرادةُ التـي بها «يَقْرَأُ» العربيّ، و«يرى» و«يَحْلُمُ» و«يُفَكِّرُ» و«يُحَاكِمُ»...إنّه «العَقْلُ العربيُّ» ذاته)[٦٧]. ولا يُمْكِنُ أنْ نَنْسَـى - في هذا السِّياق - جُهُـوداً جَمّةً بذلها - منذ مُنْتَصف القَرْن الماضي - مُفَكِّرُون بقَامَـةِ زكي نجيـب محمود، ومالك بـن نبيّ؛ لتَلَمُّـسِ مَكْمَنِ الـدَّاء عبْر تَفْكيـكِ «الحالة الثَّقافيّـة» وفَهْمِ مُقَوِّمَاتِهَا، كمـا أنّ هناك تلك «الأنْسَاق الثَّقافيّـة» التي طَرَحَهَا عبد الله الغذّامـي[٤٩] في مُحاولةٍ لتَشْخيصِ التّأْثيرات والمُؤثّرات في تفاعُـلاتِ «العَقْلِ العربيّ». وأمّـا يوسف أبا الخيـل فإنّه يَخْلُصُ، مُسْتَشْهِداً بمحمد عابـد الجابريّ في تَشْخيصه في كِتَابِه «تَكْوينُ العَقْلِ العربيّ»، إلى أنّ «العَقْلَ العربيّ» هو: (ذلك العَقْلُ «المُكَوَّنُ» من خلال المُحَـدِّدَاتِ التُّرَاثيّـة العربيّـة، سَواءً كانتْ لُغَويّـةً أو فِقْهيّةً أو كلاميّـةً أو تَفْسيريّةً، والتي طَبَعَـتْ «العَقْلَ العربـيّ» بطابعِها الذي جعله يُنْتِج، فيها ومن خلالهـا، عَقْلانيّته الخَاصّة التـي تَتَمَحْوَرُ، كما سنرى، حول القِيَمِ الأخلاقيّـة دون أنْ تَمْتَدّ، أَعْني تلك العَقْلانيّة، إلى مُحاولـةِ اسْتِكْشَافِ «ذَوَاتِ» الأشْياء، سَـواءً كانتْ طبيعيّةً أو اجْتماعيّةً، باكْتِشَافِ العَلاقَةِ بين ظواهرِها وقوانينِها التي تَحْكُمُ صيرورة عملها)[٧١].

ولكـن، علـى الرّغْـم مـن كُلِّ الجُهُودِ الجَـادّةِ لفَحْـصِ مُحَـدِّدَاتِ «العَقْـلِ العربيّ» وتَشْخيصِ مَاهِيّته، فإنّه - فـي رأْيي[٧٢] - بَقِيَ عَصِيّاً على التّقويـم، وعنيداً في التّعامُلِ

مـع صَرَامَةِ عَصْـرِه وضَخَامَةِ تحدّياته، ومُنْسَاقاً أبداً إلى طبيعتـه الانْفِعَاليّة النّرْجسيّة، ومُتْخَنْدِقَـاً في أنْمَاطِه الخَطَابيّة المَكْرُورَة، ومُتَتَرِّسَـاً بآليّاته التّائِهَةِ في بُطُونِ الماضي، ومُغَيِّبَـاً لشُرُوطِ المُسْتَقْبَل، ومُسْتَهْلِكَاً - بشراهـةٍ - لمُنْتَجَاتِ العَصْر؛ وهكذا أفْلَحَ في أنْ يعيشَ دَاخِلَ «الزَّمـن» وخَارِجَهُ في آنٍ وَاحِـدٍ؛ ممّا يَجْعَلُ تصوُّراتـه وتفاعُلاته أقْرب إلى «البَهْلَوَانِيّة» منْها إلى الجِدِّيَّة والحِكْمَة.

٥-٢-٣) «العَقْلُ العربيّ» من مَنْظورٍ فيزيائيّ:

إنّ «العَقْـلَ العربـيَّ» - فـي رأيـي[٧٢] - لـم يَحْتَـجْ إلى بَذْل جُهْـدٍ كبيـرٍ ليَضُمَّ إلى مَخْزُونِـهِ مُصْطلحاتٍ حديثةً؛ لأنّه ليس في ذلك إشْكَالٌ أو تَعَارُضٌ مـع مُحَدِّدَاتِ «العَقْلِ العربـيّ»؛ فـ«صِنَاعَةُ الكلام» هي ما يتباهى به هذا «العَقْلُ» ويَفْخَر، ولذا اسْتطاع أنْ يلوك «مُصْطلحات العَصْر» فدخلتْ فـي قاموسِه مُصْطلحاتُ «مُجْتمعُ المَعْرِفَة» و«اقْتصاديّاتُ المَعْرِفَة» و«نَقْلُ التّقْنية» و«التّنْمية المُسْتَدَامَة» و«ثَوْرَةُ المَعْلُومات» وغير ذلك كثيرٌ، ولكنّها كُلّهـا بَقِيَتْ فـي إطارِها الكلاميّ، حيـث فَشِلَ «العَقْـلُ العربيُّ» في تَرْجَمَتِهَـا إلى تجارِب مُتراكِمَةٍ وآليّاتٍ مَلْمُوسَةٍ وإسْتراتيجيّاتٍ مَدْرُوسَةٍ، وراح - بعْد ذلك وقبْله - يُسارِعُ الخُطَى إلـى كُهُوفِهِ التـي تَسْكُنُهَا الأشْبَاح، وتَرْتَعُ فيها الأوهام، وتَحْكُمُهَـا الانْفِعَالات. وهكذا وَقَعَ «العَقْـلُ العربيُّ» فـي مَأْزِقٍ مع عَصْرِه؛ ففـي الوَقْت الذي لا يَمْلِكُ فيـه أيَّ خياراتٍ تُذْكَر، ولا يُمْسِـكُ بمفاتيح التَّأْثير على وَاقِعِـهِ ومُشْكلاتِهِ وتحدّياتِهِ العَالَمِيّة، فإنّه يُكَابِرُ في عدم الانْصِيـاع لقَواعِـدِ «اللُّعْبَةِ المُعَاصِرَة»، والالْتِـزَام بضَوابِطِهَا، وتَأْميـنِ المُتطلَّبات الدُّنْيا لتَحْقيقِ «النَّقْلَة النَّوْعِيّة» اللازمة، ويَنْصَرِفُ - كالعادة - نحو ما يُتْقِنُ ويُجِيدُ في الشَّكْوى والوَلْوَلَةِ والتَّمنّي والتّنْظيرِ والانْغِمَاسِ في تَجَلِّيَاتِ «نظريّات المُؤامرة».

لقـد اسْتطـاع ألبرت آينشتايـن أنْ يَدْمُجَ «الزَّمان» مـع «الأبْعَـادِ المَكَانيّة» الثّلاثة، فأَصْبَـحَ «المكان» و«الزّمان» في الفيزياء وَحْدَةً مُتفاعِلَةً يُؤَثِّرُ أحدهما في الآخَر في أبْعَادٍ «زَمْكَانيّـةٍ» أرْبعةٍ. وأمّا «العَقْلُ العربيُّ» فقد أَخْرَجَ «الزَّمان» من حِسَابَاتِه، فهو يَتَحَرَّكُ في فضـاء «الأبْعَادِ المَكَانِيّة» تَارِكاً «الزَّمان» خَارِجَ الاعْتبار، أو هو يغوصُ في «البُعْدِ الزَّمَنِيّ»

مُتجاهِـلاً تَأْثيراتِ «الأبْعَادِ المَكَانِيّة». وبينما يَسْتَفِيدُ أصْحَـاب هذا «العَقْلِ» من مُنْتَجَاتِ العَصْـرِ ويَسْتَهْلِكُون مُعْطياتِه ويتشدَّقُون بمُصْطلحاتِه؛ إلاّ أنّهم لا يُنْتِجُون شيئاً يُذْكَر، ولا يَسْبِـرُون أغْوَارَ ما يلوكونه مِـن مُصْطلحاتٍ هَبَطَتْ عليهم كما هَبَطَـتْ عليهم المُنْتَجَاتُ التِّقَنيّـةُ حيـث ليس لهم في صِناعتِهـا يَدٌ، وليس لهم فِـي صِياغتِها تَأْثيـر. وأمّا عمليّاتُ الإنْتَـاجِ والاكْتِشَافِ والبَلْوَرَةِ والتَّطَوُّرِ فهي - بطبيعتها - عمليّاتٌ تراكُميّةٌ ومُعاناةٌ حقيقيّةٌ وتَجْرِبةٌ عمليّةٌ؛ وكُلُّ تلك العناصِر الجوهريّة، من تَأْسيسٍ وتَطْويرٍ وإنْتَاجٍ، تَخْرُجُ من رَحِمِ «الزَّمان» الذي جعله «العَقْلُ العربيّ» خَارِجَ الحِسَابَات.

مـا زالـتْ أفْـكَارُ امرؤ القيسِ تَعْبَقُ في المـكان، وبُطـولاتُ عنترة بن شـدّاد تَأْسِرُ الوِجْـدان، وحَـرْبُ «دَاحِس والغَبْـرَاء» تُهَيْمِنُ على الأذْهَـان، وعطاءاتُ المُتنبّـي تُسَيْطِرُ علـى السِّجَالات، وهُمُومُ أبي فِرَاس الحمدانيّ تَكْتَظُّ فـي ساحة الانْفِعَالات، وليس لنا من مُعْطيـات «العَصْر الحديـث» إلاّ اسْتِهْلاك بضاعتِـه حتى تَفَوَّقْنَا علـى مُنْتِجيها في أوجه الاسْتِهْـلاك، وهو الأَمْـرُ الذي أصابهم بالإحْبَاطِ لعـدم قُدْرَتِهِمْ علـى مُجَارَاتِنَا في شَرَهِ الاسْتِهْلاكِ والتَّكَالُبِ على المظاهِر!.

إنّي أرى[٧٣] أنّ تداخُلاتِ «الأبْعَادِ المَكَانِيّة» وغِيَابَ «البُعْدِ الزَّمَنِيّ» أوجد المُتناقِضات والمُفارَقـات التي قادتْ «التَّكْوين الثَّقافـيّ العربيّ» إلى أَزْمَةٍ فِكْريّـةٍ واحْتقاناتٍ شديدةٍ، تَنْعَكِسُ في الأدبيّات السّائِدة، والسِّجَـالات التي تُكَرِّرُ ذاتها عبْر الأزْمِنَة، وهي تَتَجَلَّى في مُصْطلحاتٍ، مِثْل: «الغَزْو الثقافيّ»، و«إشْكَالِيّةُ التُّرَاثِ والحَدَاثَة»، و«أَزْمَةُ العَقْلِ العربيّ»، و«العَوْلَمَـةُ والخُصُوصِيّـة»؛ وكُلُّ ذلـك يَجْعَلُ التّحـدّي الأبْرز هو تَأْسيسـ «تَكْوينٍ ثقافيٍّ» يُحَدِّدُ مَوْقِعَ «المُجْتمعات العربيّة» على «خريطة الكَوْن» عبْر تفاعُلاتِ «الزَّمان» و«المكان» ليَكْتَمِـلَ «الوَصْـفُ الفيزيائيُّ الحقيقيُّ» لوَاقِـعِ الأُمّة، كما هو الحال فـي وَصْفِ آينشتاين الدّقيق لفيزياء الكَوْنِ وسُنَنِه.

ويبْـدو لي من تَحْليلِ مُعْظَمِ الطُّرُوحات الفِكْريّة علـى السّاحة العربيّة، ورُدودِ الفِعْل علـى مُخْتلف المُسْتويات، أنّ بعْضنا يُريدُ أنْ يعيش دَاخِلَ «الزَّمان» وخَارِجَهُ في آنٍ وَاحِدٍ،

وبعْضنا الآخَر يُريدُ أنْ يعيش دَاخِلَ «المكان» وخَارِجَهُ في الوَقْت ذاته؛ وكِلْتا الحالَتَيْن في «عِلْم الفيزياء» من القضايا المُسْتحيلة، ولكن الغريب أنّ «العَقْلَ العربيَّ» أَتْقَنَ هذه اللُّعْبَةَ الخَطِرَةَ - على مدى قُرُونٍ - ممّا أَدَّى إلى الفَشَلِ الثّقافيّ والإخْفَاقِ المَعْرفيّ اللذين تَتَعَثَّرُ فيهما الأُمّـة، كما تَمَخَّضَتْ عن ذلك نتائِجُ وخيمةٌ على الأصْعِـدَة السّياسيّة والاجْتماعيّة والاقْتصاديّة والعَسْكريّة وغيرها. وهكذا نجدُ أنّ تَغْييب «الزَّمن» في «العَقْلِ العربيِّ» نَاجِمٌ عـن عدم اسْتِيعابه لعمليَّتَيْ «تَرَاكُـمُ الفِكْر» و«نُضْجُ التَّجْرِبة»، وهمـا بطبيعتهما من نِتَاجِ «البُعْـدِ الزَّمَنِـيّ» في حياة الإنْسـان؛ فتَمْضِي «الحياة العربّية» - على مـدى قُرُونٍ - تُكَرِّرُ أخْطاءهـا، وتُكَرِّسُ نَرْجسيَّتها، غير آبِهَةٍ بمـا يَتَمَخَّضُ عن ذلك مـن نتائِج وبيلةٍ، وغير عَابِئَةٍ بطبيعة «السُّنَـنِ الكَوْنيّة»، وغير مُدْرِكَةٍ لعمليّة «تَحَكُّمِ المُقَدِّمَات في النَّتَائِج»؛ فهي تتوقَّـعُ أنْ تَخْتَلِفَ «النَّتَائِجُ» وإنْ تَكَرَّرَتْ «المُقَدِّمَـاتُ» ذاتها، وهي تَحْسَبُ أنّ «سُنَنَ الكَوْنِ» ستُحابيهـا لسببٍ لـم يُدْرِكْهُ أحدٌ من البشر، ولكن يُعَزِّزُهَا دائماً ذلـك الشُّعُورُ النَّرْجَسِيُّ اللّاواعي الكَامِنُ في أعْمَاقِ «الوِجْدَانِ العربيّ».

٥-٢-٤) غُرْبَة «العَقْل العربيّ» في العَصْر الحديث:

إنّ المُحَـدِّدَاتِ لكينونـة «العَقْلِ العربيّ» تَجْعَلُ العرب غُرَبَاءَ عـن العَصْر، طالما أنّ ثقافتهم تجوبُ عَوالِمَ «أَلْف ليلةٍ وليلة»، وتَأْنَسُ إلى حكايات «أبو زيد الهلاليّ»؛ فإذا أَذْهَلَهَا فِعْـلُ «الزَّمان» فـي أقْوامٍ انْخَرَطُوا فـي ديناميكيّتـه، وبَهَرَتْهَا مُعْطياتُ التّقْنيـة وتَجَلِّيَاتُ «الفِكْرِ العِلْميّ»، فإنّها سُرْعَانَ ما تُهَرْوِلُ، لتَنْدَسَّ بين جلابيبِ الشِّعْر، وتتوارى خلْف ظِلالِ الماضي، وتلـومُ العَالَمَ بأسْرِهِ على إخْفاقاتِها وفَشَلِهَـا، مُحَقِّقَةً بذلك مَقُولة علي الورديّ بـأنّ: (العَقْل البشريّ هو في الوَاقِع كالنَّبْتَة التي تَأْخُـذُ من موادّ التُّرْبَةِ ما يُلائِمُ مِزَاجَهَا وتَرْفُضُ الباقي)(٧٤). سيظلُّ العـربُ غُرَبَاءَ عن العَصْر، طالما أنّهـم حَسِبُوا أنّ التّعامل معـه يَنْحَصِرُ فـي تَبَنِّي مُصْطلحاتٍ لا يُدْرِكُـون شُرُوطَهَا، ولا يَسْتَوْعِبُـون خلفيّاتِهَا، وهم لـم يُعاشِـرُوا تَرَاكُمَاتِهَا، ولم يُعايشُوا مَخَاضَاتِهَا، ولكنّهـم يتوقَّعُون أنْ يكون حالها كحال

التّقْنيــات التــي اسْتوردوها، والأجْهزة التي ابْتاعوها، فتقع فــي حِجْرِهِمْ جَاهِزةً للتّطْبيق والاسْتِخْدام والإبْداع.

إذا كان آينشتاين - في حالة تفتُّقٍ عَبْقريٍّ - قد اسْتطاع أنْ يُفَكِّكَ التّفاعُلات الكَوْنيّة عبْــر التّداخُلات «الزّمانيّة - المكانيّة» في «النّظريــة النِّسْبِيّة»، فإنّ المُهمّةَ أكْثر شراسةً وأصْعب تَنْظيراً في حالة مُحاولــةِ تَفْكيكِ الاضْطِرَابِ بين «الزّمان» و«المكان» في «العَقْلِ العربيّ». وأمّا السُّؤالُ الذي يَنْتَصِبُ بكُلِّ عُنْفوانٍ فهو: (هل ما زِلْنا - بعْد كُلّ هذا الإخْفَاقِ والفَشَــلِ على طريق «النَّهْضَــة الشَّامِلَة» - نقولُ إنّ ثقافتنا، التي تُشَــكِّلُ عُقُولَنَا، هي على خيــر حالٍ، وكُلُّ ما تَحْتَاجُهُ هو فقط مَسْحَةٌ هنا ولَمْسَــةٌ هناك؟؛ ألا يَفْرِضُ علينا «المَنْهَجُ العِلْمــيُّ» مُراجَعَةً جِذْريّةً تُحاولُ الانْفــكَاكَ من أَسْرِ «ثقافةٍ لَفْظيّــةٍ» مَشْحُونةٍ بالانْفعالات إلــى رِحــابِ «بيئةٍ عِلْميّةٍ» تَصْنَــعُ «العَقْلَ العِلْمــيّ» القَادرَ على اسْتِيعــاب مُعْطيات العَصْرِ وشُرُوطِــهِ فتَحْكُمُهُ معاييرُ الإنْجَــاز، وحقائِقُ الإنْتَاج، وأخْلاقيّــاتُ العمل، وعِبَرُ الماضي، واسْتِشْرَافُ المُسْتَقْبَلِ؟).

فــي ضوء الحقائِق المُحْزِنَة لوَاقِعِ «المُجْتمعــات العربيّة» نجدُ أنّنا في أمسِّ الحاجة إلــى المُقَوِّمَــاتِ القَادِرَةِ علــى انْتِشَالِ «العَقْــلِ العربيّ» من غُرْبَتِهِ عــن عَصْرِه، ومن ذلك المُنْطلــق نرى - بجلاءٍ - أنّ عمليّة «تَرْميم العَقْلِ العربيّ»، التي يَقْتَرِحُهَا أحمد زويل(٧٠)، لــن تكــون كافيةً؛ ومن الواضِــحِ أنّ الحاجة مَاسَّــةٌ إلى عمليّــة «إعادة بِنَــاءٍ» تَسْمَحُ بضَخِّ أمْــواجٍ ديناميكيّةٍ قَادِرَةٍ على تَحْريــكِ الحالة الرَّاكِدَة، والانْطــلاقِ بفاعِليّةٍ على الصّعيد الاجْتماعيّ والتّنْمَويّ والثّقافيّ وغير ذلك من مَنَاحٍ حياتيّةٍ مُتشابِكَة.

٥-٢-٥) البَحْث عن «تَوازُنٍ جديد»:

إنّ المُتَأَمِّــلَ لأوضــاعِ «المُجْتمعــات العربيّــة» يــرى أنّ الوَضْــعَ لم يَتَغَيَّــرْ مع تنامي «الهَجْمَــةِ العَوْلَميّة»، بَلْ لعلّه ازْداد تفاقُماً، وذلك منْذ أنْ كتب مالك بن نبيّ يَصِفُ الحال فــي خمسينات القــرْن الماضي بقوله: (ولو أنّنــا حَلَّلْنَا حياة مُجْتمعنا لوجدنــا فيه ألْواناً

جديـدةً تَدُلُّ في جُمْلَتِهـا على نزعاتٍ مُتباينـةٍ، واسْتِعْداداتٍ فَرْديّةٍ مُتباينـةٍ، في مُجْتمعٍ فَقَدَ تَوازُنَهُ القديم، ويَبْحَثُ الآن عن تَوازُنٍ جديد)[٢]. وهكذا يُصْبِحُ البَحْثُ عن «التَّوازُن الجديـد» قضيّـةً مصيريّة، وهو تَـوازُنٌ لن تَتَحَقَّـقَ شُرُوطُهُ إلاّ عبْر إعـادة تَشْكيل «العَقْلِ العربـيّ» في إطارٍ يَسْمَـحُ له بالتَّخَلُّصِ من حُكْـمِ «العَقْلِ العربيّ» علـى الأشْياء التي يرى يوسـف أبا الخيل[١٧] أنّـه: (حُكْمٌ ذاتيٌّ بَحْتٌ، بمعْنَى أنّ ذلك «العَقْلَ» يُضْفِي حُكْمَ الثّقافة والمُجْتمع اللذين يَحْتضنانه على الأشْياء من حوله، ليُمَيِّزَ الإنْسانُ العربيُّ «العَاقِلُ» طريق الخير من طريق الشّر. لكن ليس من مُهِمّاتِه، أَعْنِي العَقْل «المُكَوَّن» بالمُحَدِّداتِ الثّقافيّة العربيّة، فَحْصُ ذوات أو جَوَاهِر تلك الأشْياء التي يُضْفِي عليها أحْكَامَهُ القِيميّة)؛ وأمّا في حالـة المُقارَنَةِ بين «العَقْلِ العربـيّ» و«العَقْلِ الغَرْبيّ» فإنّ يوسف أبا الخيل يرى أنّ «العَقْلَ العربـيّ»: (يَجْعَلُ الهدف من النَّظَرِ في مُكَوِّنَاتِ الطّبيعـة مَحْصُوراً في اسْتِحْضَارِ العِظَة والعِبْـرَة، لا اسْتِكْشَـافِ آليّةِ عملها مـن خلال قوانينها وأسْبابها التـي تَتَّصِفُ بالضّرورة والشُّمُـول، وهـي النَّظْرَةُ التي يتَّصِفُ بها «العَقْلُ الغَرْبيُّ» في تعامُله مع الأشْياء من حوله، طبيعيّةً كانتْ أو اجْتماعيّة).

ولكـن «العَقْلَ العربيَّ» ليس جِينَاتٍ مُخْتلفةً عن جِينَـاتِ عُقُولِ بقيّة البشر، وإنّما هو نِتَـاجُ «ثقافةٍ» يَسْبَـحُ في أمْواجِها، ويَقْـرَأُ بلُغَتِهَا، ويَحْلُمُ بأحاسيسِهـا، ويُفَكِّرُ بمُعْطياتِها، ويَحْتَكِـمُ إلى قِيَمِهَا، وهذا يَجْعَلُنَا نَطْرَحُ السُّؤال: (هل يُمْكِنُ إعادة تَشْكيلِ «العَقْلِ العربيّ» وتَرْميـمِ خلاياه، دون إعادة صِياغَةٍ كَامِلَـةٍ لـ«الثَّقافة العربيّة»؟). من ذلك المُنْطلق نجد أنّـه من الضّروري – على طريق تَحْقيق ذلـك «التَّوازُن الجديد» – التَّأْسيس لـ«بِنْيَةٍ فِكْريّةٍ جديـدةٍ» ومُنْطلقـاتٍ ثقافيّةٍ فَاعِلَةٍ، وهـذا يَعْنِي ضَرُورَةَ تجاوز مُحَـدِّدَاتِ «العَقْلِ العربيّ» التّقليديّـة، وفَرْضَ مُحَدِّدَاتٍ جديدةٍ تَأْخُذُ في حِسَابِهَـا الأهْداف المُتَوَخَّاة، والمُوَاصَفَات المطْلوبـة، والتَّحَدِّيـات المُنْتَصِبَة. إنّ غِيَابَ التّأسيس لهـذه «البِنْيَة الفِكْريّة الجديدة» – فـي تفاعُلات «الثَّقافة العربيّـة» – هو المَسْؤول الأوّل عن إخْفَـاقِ كُلِّ محاولات «النَّهْضَة» ومَشْرُوعات «التّنْمية» في العَالَمِ العربيّ؛ لأنّها – بكُلِّ بساطة – وفْق رأي عبد الإله بلقزيز:

(اكْتَفَتْ بالتَّبشير بمبادئ «النَّهْضَة» دون أنْ تُقَدِّمَ مَنْظُومَةً فِكْريَّةً حقيقيّةً حولها وحول سُبُلِ تَحْقيقِها)[١٩].

وأمّا عنْدما نَطْرَحُ ذلك السُّؤالَ الحَاسِمَ عن «خصائِص الثَّقافة التي نُريد»، فإنّنا - عادةً - ما نجدُ أنفُسنا بين «مِطْرَقَةِ» تلك الثَّقافة الغَارِقَةِ في الماضويّة والمُنْغَمِسَةِ في أوهامِها وتخيُّلاتِها ونَرْجسيَّتِها، وبين «سِنْدَانِ» تلك الثَّقافة الأُخْرى المُغَايِرَةِ والمُرْتَمِيَةِ في أحْضَانِ حَدَاثةٍ غريبة المَنْشأ والهُويّة لا تَعْتَرِفُ بقِيَم «المُجْتمعات العربيّة»، ولا تَأْبَهُ بثَوابِتها، ولا تَسْتَوْعِبُ تفاعُلاتِها. نَسْتطيعُ - بطبيعة الحال - أنْ نجد أعْذاراً عديدةً لهذا الحال المُتَرَدِّي، ولكن البَحْثَ عن الأعْذار ليس من أهْداف هذا الكِتاب، فهَمُّنا الرّئيس هنا هو تَأْصيلُ رُؤيةٍ حيويّةٍ فَاعِلَةٍ لـ«الثَّقافة» تُصْبِحُ بمثابة اتِّجَاهِ «البَوْصَلَةِ» الذي يَضْبِطُ «الحَرَاكَ الثَّقافيّ» نحو «الفَاعِليّة الاجْتماعيّة» في «المُجْتمعات العربيّة». ومن هنا تَنْبَثِقُ أهميّة مُصْطلح «الثَّقافة التّنْمَويّة»، المُسْتَنِد إلى عمليّة «التَّحَدِّي والاسْتِجَابَة»، وذلك بصفتها رُؤيةً لازِمةً لتَحْريكِ المُجْتمعات، واسْتِنْفَارِ جُهُودها، وتَعْظيم مَوارِدها؛ لتَحْقيق ذلك «التَّوازُن الجديد»، ولتتفاعل مع النَّسَقِ الحياتيّ في جُهْدٍ دَؤوبٍ وفِعْلٍ تراكُميٍّ يَنْحتان في قِوَامِ الوطن؛ لتَحْفيزِ القُدرات، وتَصْحيحِ المُمارَسات، وتَطْوير الأداء، وتَعْميقِ الانْتماء. ولذا فإنّ «إشْكَاليّةَ التّنْمية»، التي لم نَحْسِمْ بعْد مُقْتَضياتِها وأولويّاتِها، في أشدِّ الحاجة إلى مَنْظُورٍ ثقافيٍّ ورُؤىً فِكْريّةٍ ذات إسْتراتيجيّةٍ طويلة الأمد، تَهْتَمّ بتَأْمين التّفاعُل الصّحيح مع مُتَطَلَّبَاتِ «التّنْمية»، وتَحْرِصُ على تَهْيئة التُّرْبَةِ الخِصْبَةِ لاسْتقبال مُعْطياتِها والمُحَافَظَةِ عليها وتَطْويرها.

أقول: هنا تَبْرُزُ الحاجة إلى بَلْوَرَةِ خصائِص «ثقافةٍ تَنْمَويّةٍ» تَهْتَمُّ بتوفير «الفَاعِليّة الاجْتماعيّة»، وتَحْرِصُ على اسْتيعاب الحقيقة الجوهريّة القائلة بأنّ «مَنْظُومَةَ العلوم والتّقْنية» ليستْ مُجَرَّد آلاتٍ وتَجْهيزاتٍ ووسائِل ماديّةٍ، ولكنّها - في المقام الأوّل - كما يقول فلاح سعيد جبر: (ظاهِرَةٌ اجْتماعيّةٌ وجماعيّةٌ تُوَلِّدُهَا ظُرُوف مُجْتمعٍ مُعَيَّنٍ تَتَوَفَّرُ لديه كافّة سُبُل العطاء العِلْميّ والتّكْنولوجيّ، وتتعاملُ معه سَلْباً وإيجاباً العديد من العَوامِل والمُعْطيات)[٧٥]. وأمّا علي أومليل[٣٧] فيرى أنّ من «مُسَلَّمَاتِ الفِكْرِ الإصْلاحيّ» هو أنّ

(«العِلْـمَ» هو الذي أَطْلَقَ النَّهْضَة الأوروبيّــة)، وبالتّالي: (فإنّ «النّهْضَة العربيّة» لن يُمْكِن أنْ تكـون إلاّ كذلك، أيْ باقْتِبَاسِ العلوم التي أَمْكَنَـتْ أوروبا من نَهْضَتِهَا، وبالذّات العلوم بمَعْناهـا الدّقيق، تلك التي يَتَحَكَّمُ بها الإنْسان في الطّبيعـة، ويُسَخِّرُهَا لإنْتاج الخيرات، ويُنَظِّـمُ بها مُجْتمعه). وهكـذا نجد أنّ الإجْمَاعَ بين النُّخَبِ الثّقافيّـة مُنْعَقِدٌ على ضرورة «الإصْـلاح الثَّقافيّ» فـي «المُجْتمعات العربيّة»؛ فعلى سبيل المِثـال يَعْزُو لؤي صافي بُطْءَ النُّموّ في البلدان الإسْلاميّـة، جُزْئيّاً على الأقلّ، إلى (فشل القيادات الفِكْريّة والسّياسيّة في إدْرَاكِ الطّبيعة الجَدَليّة بين «الإصْلاح الثَّقافيّ» و«التّنْمية البُنْيويّة الاجْتماعيّة»)[١٦]، ولكـن في خِضَمّ كُلِّ تلك التّنْظيرات، ومُحاولات سَبْـرِ طبيعة المَأْزِق، وضَرورة «الإصْلاح الثَّقافـيّ»، تَبْقَـى مَعَالِمُ ذلك «الإصْلاح» وأولويّاته هَائِمَةً غَائِمَـةً في ظِلِّ «صِنَاعَةِ الكلام» التي تُتْقِنُهَا «الثَّقافة العربيّة» أيَّمَا إتْقَان!.

٥-٣) «ثقافة المُسْتقبَل» و«مُسْتقبَل الثقافة»:

إنّ عمليّة «إعادة تَشْكيل العَقْلِ العربيّ» تَدْفَعُ - بالضّرورة - إلى مُرَاجَعَةٍ دقيقةٍ لوَاقِعِ «الثَّقافة العربيّة» وخصائِصها ومُحَدِّدَاتِهَا، ممّا يُحَتِّمُ «عمليّة التَّغْيير» التي لن تكون عمليّةً اخْتياريّــةً؛ فهَجْمَةُ «العَوْلَمَةِ» وآثارُها، وخصائِصُ «الحركـة العِلْميّة - التّقنيّة» وهَيْمَنَتُهَا، ومُتطلَّبــاتُ «الحركة التّنْمَويّة» ومُقْتَضياتُها؛ كُلُّ ذلك يَسْتَلْـزِمُ إعادة النَّظَرِ في «التَّرْكيبة الثَّقافيّــة» وخِطَابِهَا السّائِـد، ومُرَاجَعَةِ عناصرِها المُهَيْمِنَـةِ بسَلْبيّاتِها وإيجابيّاتِها، وهنا نَتَوَقَّفُ أمام السُّؤال الذي يَطْرَحُهُ علي أومليل وهو يقول: (و«مُجْتمع المَعْرِفَة» - مُسْتَقْبَلُنَا - مَرْهُونٌ، ضمْـن شُرُوطٍ أُخْرى، بما ستكون عليه ثقافتنا، خاصّةً قِيَمها الحَافِزَة، ابْتداءً من القِيمة التي تُعْطَى للمَعْرفة، لكن أيّة مَعْرفة؟)[٣٧].

ويَبْرُزُ هنا مُصْطلَـحُ «المُسْتَقْبَل»، وانْطلاقاً من وَلَعِ «الثقافة العربيّة» بـ«الثُّنَائِيَّات»، فإنّ الوَاقِعَ الجديدَ يَفْرِضُ علينا «ثُنَائِيَّةً» جديدةً، وأَزْعُمُ أنّها الأهمّ، وهي: ثُنَائِيَّةُ («ثقافةُ المُسْتَقْبَل» و«مُسْتَقْبَلُ الثَّقافة»)؛ فـ«ثقافةُ المُسْتَقْبَلِ» تُحَدِّدُهَا شُرُوطُ «الزَّمان» و«المكان»، وآثــارُ «العَوْلَمَةِ» الكَاسِحَة، و«الطّبيعةُ الاقْتحاميّةُ للعلوم والتَّقْنية» التي تَفْرِضُ نفْسها على

المُجْتمعـات، سَـواءً كانت رَاغِبَةً فيهـا أو مُتَحَفِّظَةً عليها، وأمّا «مُسْتَقْبَـلُ الثّقافة» فهو ما يَنْتُجُ عـن جُهُودِنَـا ومُمَارَسَاتَنَا واهْتماماتِنـا وقِيَمِنَا وتفاعُلاتِنَا مـع «الزَّمان» و«المكان» - سَلْبـاً وإيجابـاً -. أمّـا أبْرز مظاهِـر «الأَزْمَةِ الثَّقافيّـة» فهو اكْتِظَاظُ السّاحـة الثّقافيّة العربيّـة بالنّقْدِ والمُرَاجَعَةِ والتّنْظير والدَّعْوَةِ إلـى «الإصْلاح الثّقافيّ» الذي يَتَّفِقُ الجميع علـى أهميّتـه وريادته في عمليّة النُّهوض بالأُمّة ودَفْعها علـى مُرْتقيات الازْدهار والمَنَعَة؛ فـ«الثقافـة» كما يقول علي علي حبيش: (ليستْ تَعْبيـراً عن الوَاقِع فحسب بَلْ أيضاً وسيلةً فَعّالـةً لتَغْييـره، فـ«الثّقافة» ليستْ مُجَرَّد مَجْمُوعَةٍ من المعـارِف والقِيَم وإنّما هي تَرْجَمَةٌ لهـذه القِيَم والمعـارِف إلى سُلُوكٍ مُعَيَّن) [٣٩]، ولكن كُلُّ ذلـك «الضَّجيج التّنْظيريّ» يَبْقَى - فـي المُجْتمعات العربيّة - فَارِغاً على «الصَّعيد الإجْرائيّ»، وخَاوِياً على مُسْتوى الآليّات والفَعّاليّات العمليّة.

عندمـا نَتَحَدَّثُ عـن «المُسْتَقْبَلِ»، فإنّ الحديـث يَنْبَغِي أنْ يَسْتَنِدَ إلـى أُسُسٍ مُعَيَّنَةٍ، ومُقَوِّمـاتٍ مُحَـدَّدَةٍ، ومُقَدِّمَـاتٍ وَاضِحَـةٍ لهـذا «المُسْتَقْبَل» الـذي نُشِيرُ إليـه ونَهْفُو إلى تَحْقيقِـه، وهذا ما يُؤَكِّدُهُ محمد عابد الجابريّ بقولـه: («المُسْتَقْبَلُ» الذي نَقْصِدُهُ ونَرومُ اسْتكشافـه ليس «المُسْتَقْبَل» بإطْلاقٍ، بَلْ «المُسْتَقْبَل» المَشْرُوط بالمُعْطيات الرّاهِنة) [١]، وهـذا - في رأيـي - يَجْعَلُ السُّؤالَين الأكْثـر إشْكَاليّةً في الوَاقِع العربـيّ، هما: (هل يُمْكِنُ أنْ نَتَحَـدَّثَ عـن «مُسْتَقْبَـلِ الثَّقافة» بمَعْـزِلٍ عن عَصْرِهَـا وطبيعةِ القُـوى المُهَيْمِنَةِ عليه والمُحَرِّكَـةِ لمساراتِه؟، وألا يُجْبِرُنَا ذلك على التَّعامُلِ بجِدِّيّـةٍ مع «ثقافة العلوم والتَّقْنية» وهي الحَاضِرَةُ الغَائِبَةُ - كالعادة - في كُلِّ طُرُوحاتِنَا وإنْ كنّا لا نَنْسَى أبداً أنْ نُشِيرَ إليها على اسْتِحْيَاءٍ ودون تَمَعُّنٍ؟).

٥-٣-١) «اسْتراتيجيّة الثّقافة» و«الفَجْوَة المَعْرفيّة»:

عندما نتعاملُ مع قضيّةٍ كُبْرى كقضيّة «النَّهْضَة» فإنّنا لا نَسْتَغْرِبُ من كَثْرَةِ الأَسْئلة، ولا نَنْزَعِجُ من تَعَدُّدِهَا، ولكنّنا سنَفْرَحُ عنْدما نَعْلَمُ أنّها - في نهاية المطاف - تَطْرَحُ قضيّةً وَاحِـدَةً يُؤَكِّدُهَا محمد عابد الجابـريّ بقوله: (أَسْئلةٌ مُتَعَدِّدَةٌ ولكنّها تَطْرَحُ قضيّةً وَاحِدَةً،

قضيّــة «إعــادة بِنَاء الذّات العربيّــة» بالشَّكْلِ الــذي يَجْعَلُهَا قَادِرَةً علــى مُجابَهَةِ تحدِّياتِ العَصْــر والاسْتِجَابَةِ لمُتطلَّباته)[١]. ولكن لن تدومَ فَرْحتُنا تلك باخْتِزَالِ «أسْئلة النَّهْضَة» - كما يرى الجابريّ - إلى قضيّةٍ وَاحِدَةٍ؛ لأنّ الطّريق إلى «إعادة بِنَاءِ الذَّات» هو الإشْكَالُ الأساس؛ فهــو الطّريقُ الذي تَعَــدَّدَتْ حوله الاجْتهــادات والإخْفاقات والمُــداوَلات، وأمّا تفاصيــلُ تلك المُهِمّة فقد بَقِيَــتْ مُبْهَمَةً غَامِضَةً في بَطْنِ الشَّاعِر، أو المُثقَّف، أو المُفكِّر، بينمــا تَحْفَــلُ الدُّنْيا بـ«حركــةٍ عِلْميّةٍ» تُغَيِّرُ مَعَالِــمَ الأرْض إلاّ أنّنا لم نَفْقَــهْ بعْد أبْجديّاتِهَا ومُوَاصَفَاتِهَــا وضريبتِها. إذاً يجــب أنْ نَعْتَرِفَ بأنّ «الثّقافة العربيّة» تُعانِي من خَلَلٍ مُشِينٍ في مَنْظُومَتِهَا السُّلُوكيّة والقِيميّة، وهي تَتَرَنَّحُ تحت تَأْثير فَجْوَةٍ مَعْرفيّةٍ خطيرةٍ، وذلك هو لُبُّ «التَّحَدِّي» الذي يجب أنْ تَتَصَدّى له كُلُّ القُوى المُؤثِّرة في «المُجْتمعات العربيّة»، ومن المُهِــمّ أنْ لا يكــون حال «مُسْتَقْبَلِ الثّقافة العربيّة» كحال أبــي حيّان التّوحيدي الذي قال: (أمّا حالي فسيئةٌ كيفما قَلَّبْتُهَا؛ لأنّ الدُّنْيا لم تُؤاتني لأكون من الخَائِضين فيها، والآخِرة لم تَغْلُبْ عليَّ لأكون من العَامِلين لها).

إنّ الحِــوارَ الجَــادَّ عن «مُسْتَقْبَــلِ الثّقافة» لا يكون عن «التّغْييــر»، فهو آتٍ لا محالة، ولكن يَنْبَغِي أنْ يَنْصَبَّ على شُرُوطِ «المُسْتَقْبَل»، وكيفيّةِ تَأَقْلُم ثقافتنا وتَكَيُّفِهَا واسْتيعابِها لتلــك الشُّرُوطِ لكي يكون «التَّغْييرُ» إيجابيّاً ومُتناغِماً مع طُمُوحات «الإصْلاح» ومَشْرُوعات «التَّنْميــة»، ويجــب أنْ يَحْمِلَ هــذا «التَّغْيير» في طيّاتِــه الإجاباتِ النّاجِعَةَ علــى تساؤلاتٍ يَطْرَحُهَــا جَمْعٌ غفيرٌ من المُثقَّفين العرب، مــن أمْثال علي أومليل عنْدما تساءَل: (ما هي رُؤيتنا لبِنَاء اقْتصادٍ اجْتماعيٍّ ومُنَافِسٍ معاً، وكيف نَبْنِي مَنْظُومَةَ قِيَم تُحَفِّزُ إلى المُبَادَرَةِ والابْتِــكَار، والإقْبَالِ على العمل المُنْتِــجِ وأخْلاقيّاتِه، وضَبْطِ الوَقْتِ كنِظامٍ للحياة والإنْتاج وتَخْطيط المُسْتَقْبَل؟)[٣٧].

إنّ «الخِطَــابَ الثَّقافــيّ» السّائِــدَ فــي العَالَــم العربيّ يعيشــ اضْطرابــاً مُرَوِّعاً في مَنْهَجيّتِــه، وتخبُّطاً شنيعاً في مَرْجِعِيّاته، فهو يُريــدُ أنْ يعيش دَاخِلَ «الزَّمن» وخَارِجَهُ في آنٍ وَاحِــدٍ، وهــو يصــوغُ رُؤاه وفَهْمَهُ لزمنِه في صِياغــاتٍ غَامِضَةٍ أبْرز مــا فيها اسْتِهْلاكُ عطــاء الآخَرين من فِكْرٍ وعلومٍ وتِقْنيةٍ، وهذا - دون شَكٍّ - وَصْفَةٌ نَاجِعَةٌ لتَحْقيق الإخْفاق

المَعْرفـيّ والفشـل الحضاريّ. ولا شكّ فـي أنّ الخَلَلَ يتفاقمُ بفِعْـلِ «عَامِلِ الزَّمـن» الذي يَرْكُضُ بالقضايا والتّحدّيات و«المُسْتَقْبَل»، بينما تَقْبَـعُ طُرُوحاتُنَا وحُلُولُنَا أسيرةَ أُطُرِهَا الكلاميّة وقَوالِبِهَا التّقْليديّة وشُرُوحَاتِهَا الماضويّة وانْفِعَالاتِهَا الآنيّة، وهي تُحاولُ عبثاً أنْ تـذود عن حِياضٍ تتقلَّصُ مِساحاتُها يوماً بعد يـومٍ بفِعْلِ الدَّفْعِ التِّلْقائيّ لمُحَرِّكاتِ «الفِكْرِ العِلْميّ» وعَواصِفِ «العَوْلَمَةِ» وانْقِضَاضِ «ثَوْرَةِ الاتِّصالات».

فـي ذلك الخِضَمّ كُلِّـه يَنْبَغِي لـ«الثَّقافـة العربيّـة»، إنْ أرادتْ لها فَاعِليّـةً وحُضُوراً فـي «الأَلْفيّة الثّالثة»، أنْ تَعِـيَ تماماً طبيعة القَرْنِ ومُوَاصَفَاتِـه، وإلاّ فإنّها ستَبْقَى مَعْزُولَةً عن عَصْرِهَا لتَجْتَـرَّ «آليّاتِ الماضي» عَاجِزةً عن اسْتِيعـابِ «تَغَيُّرَاتِ الحَاضِر» و«شُرُوطِ المُسْتقبَـل»، فكما يقولُ محيي الدين صابـر: («التّنْمية» هي قبْلَ أنْ تكون أدواتٍ ومظاهِر ماديّةً، هي تَفْكيرٌ جديدٌ نحو الحياة، وفي الاتِّجاهات والسُّلُوكيّات)[١٨]. إنّه من المُسْتحيل أنْ نَتَوَقَّـعَ أنْ نُبْحِـرَ بأمانٍ في مُحيطـاتِ «العَوْلَمَـةِ»، وأنْ نَتَحَرَّكَ بفَاعِليّـةٍ عبْر تضاريسِ «التّقْنية»، باسْتخدام أدوات «العَالَمِ القديم» التي مهما كانت جَدْواها في زمانها فإنّها لن تَسْتطيع أنْ تَرْصُدَ مُعْطيات «الخريطة الحديثة» التي تَحْمِلُ ملامِحَ جديدةً، وآفاقاً رَحْبةً، وتفاصيلَ دقيقة.

وبالرُّجُـوعِ إلى «أدبيَّـات التّنْمية» تَبْرُزُ دَوَاعِي «التَّبَعِيَّـةِ التِّكنولوجيّة» التي تَتَمَحْوَرُ – عادةً – حول مُؤشِّراتٍ ثلاثة[٩]:

١) نِسْبَةُ الإنْفاق من النّاتِج المحلّيّ الإجْماليّ على «البَحْثِ العِلْميّ».

٢) نِسْبَةُ العُلماء والمُهندسين إلى إجْمالي السُّكان.

٣) نِسْبَةُ مُسَاهَمَةِ «البَحْثِ العِلْميّ» في تَكْوين رأْس المال المحلّيّ الثّابت.

أمّا تلك المُؤشِّراتُ فمن الوَاضِحِ أنّها –كُلُّها– تَصُبُّ في «الإنْسان» القَادِرِ على صُنْعِ القـرار المُناسِب، وصِياغة الخُطّةِ الكفؤة، وتَنْفيذ الآليّاتِ الفعّالة، وتَطْوير البِيئةِ القَادِرَةِ على احْتِضَانِ «البَحْثِ العِلْميّ» وزَرْعِ الحماس في فضاءاته وتَطْويعِ مُعْطياته، ودَفْعِ «عَجَلَةِ

التَّعْلِيـم» في اتِّجاه «العلوم والتِّقْنية»، وتَحْفيزِ المُجْتمع على الولوج إلى هذا المِضْمَارِ على مُخْتلف الأصْعِدَة؛ وكُلُّ ذلك لا يُمْكِنُ أنْ يَتَحقَّقَ دون «ثقافةٍ تَنْمَويّةٍ» تُشِيعُ «الوَعْي العِلْميّ»، وتَبُثُّ الرُّؤى العَقْلانيّة.

وهكـذا يَتَأكَّـدُ الشَّرْطُ الضّـروريُّ لـ«عمليّة التّنْمية»، فكما يُوضِّـحُ علي علي حبيش: (إنّ العقبـة الحقيقة التي تَخْنُقُ «التّنْميـة» وتُوقِفُ انْطلاقَهَا ليست أبداً في نُدْرَةِ المَوارِد، ولا نَقْصٍ في التّمْويل. إنّما العقبة الحقيقة تَكْمُنُ في غَيْبَةِ «إنْسان التّنْمية»..فهو العُنْصُرُ الأهـمّ والأخْطر مـن بين عناصِر البِنَـاء والارْتقـاء)[٣٩]، وأمّا عمر الخطيـب فيرى أنّ: («التّنْميـة» بمعْناهـا الوَاسِـع لا تَعْنِي «النُّموّ» فقـط، بَلْ تَعْنِـي أيضاً التّعْديـل التّدريجيّ للسُّلُوك على مُسْتوى الأفْراد والجماعات، بحيث يَسْتطيعُ جميع أفْراد المُجْتمع الاسْتفادة من «عمليّة التّنْمية» والتَّكَيُّفِ معها)[٧٦].

من الوَاضِحِ - إذاً - أنّ أكْبر هُمُومنا اليوم هو تَلَمُّسُ طريقنا - بحِكْمةٍ - نحو «ثقافة المُسْتَقْبَـل» في عَالَـم يموجُ بالتّحدّيـات والمُفَارَقات، وتَخْتَلِطُ فيـه الأوراق من كُلِّ حَدَبٍ وصَـوْبٍ؛ ولـذا فإنّنا نَحْتَـاجُ إلى تَأْسيس «تَكْوينٍ ثقافـيٍّ - تَنْمَويٍّ» يَحْمِـلُ رُؤىً تَسْتَشْرِفُ «المُسْتَقْبَـل» وتُـدْرِكُ تحدّياته؛ فيَحْتَضِـنُ الثّوابِتَ والقِيَمَ الرّاسِخَـة، ويُراهِنُ على جَعْلِ «ثقافـة العلوم والتّقْنية» عُنْصُراً مُؤثِّراً في التّفاعُـلات الفِكْريّة السّائِدة، فكما يقولُ علي أومليل: (إنّ الثّقافة العربيّة أمام مصيرَيْن: إمّا أنْ تكون قِيَمُهَا مُحَرِّكَةً لمُجْتمعاتٍ عربيّةٍ مُنْتِجَةٍ ومُنَافِسَةٍ في عَالَم اليوم، أو أنْ تَبْقَى على هَامِشِه)[٣٧].

وعَـودٌ إلى ثُنَائِيَّة («ثقافـة المُسْتَقْبَـل» و«مُسْتَقْبَل الثَّقافة»)، فإنّنـا نجدُ أنّ «ثقافة المُسْتَقْبَل» تُحَدِّدُهَا تفاعُلاتِ «الزَّمان» و«المكان»، وليس لنا من تَأْثيرٍ فيها إلاّ إذا بلغنا من النُّفُـوذِ ما يَسْمَحُ لنا بفَرْضِ مُعْطياتنا، وأمّا «مُسْتَقْبَـلُ الثقافة» في «المُجْتمعات العربيّة» فهو الذي نَصْنَعُهُ بأيدينا وعُقُولِنَا وطاقاتِنا، إمّا بشَكْلٍ عَشْوائيٍّ مُرْتَجَلٍ يَتَخَبَّطُ تحت أَسْرِ الكلمـات و«ثقافة اللفْـظ»، وإمّا بشَكْلٍ واعٍ مُـدْرِكٍ لطبيعة التّحدّيات و«شُـرُوطِ العَصْر». إنّـه من البدهيّ أنّه إذا لـم يَتَوَافَقْ «مُسْتَقْبَلُ الثقافة» مع «ثقافـة المُسْتَقْبل»، ولم تَتَطَابَقْ

مُعْطياتُهمـا، ولـم تَنْسَجِمْ حركتاهُما، فإنّنا سنَبْقى غير بعيـدٍ عن شاعِرنا الذي وَقَفَ أمام الأطْلال يَبْكِي عليها نَادِباً حَظَّه العَاثِر؛ وأمّا تجاوزُ هذا الحال فهو الأَمْرُ الذي صَنّفَهُ محيي الدين صابر بأنّه: (قَلْب التّحدّي الحقيقيّ الذي يَعْرِضُ على الدُّول النّامية)(١٨).

٥-٣-٢) «ثقافة المُسْتَقبَل» و«مَنْظومة العلوم والتّقنية»:

لـن نَحْتَاجَ إلى كبير جُهْدٍ للخُلوصِ إلى النّتيجة التي حَرَصْنَا علـى تَأْصيلِ دَلالاتِها وآفاقِهـا وشُرُوطِها في هذا الكِتـاب، ويُؤَكِّدُهَا محمد عابد الجابريّ فـي قوله: (إنّ عَالَمَ الغَـدِ مَحْكُـومٌ فِعْـلاً بالعِلْمِ والتّقانـة، عنْدنا وعنْد غيرنـا، ولكن مع هذا الفَـارِق وهو أنّ هنــاك من يُنْتِجُ العِلْمَ والتّقانة، ويُصَدِّرُهُمَـا ويُسَخِّرُهُمَا للسَّيطرةِ وبَسْطِ النُّفُوذ، وهناك مــن يَسْتَهْلِكُ شيئاً منْهما مُسْتَورِداً إيّاهما ولا يقـومُ بالمُساهَمَةِ في إنْتاجهما فيجد نفْسه بالتّالـي موضوعاً لنُفُوذهِمـا وهَيْمَنَتِهِمَا)(١). تلك الإشْكَاليّـةُ الكُبْرى - في الوَاقِع العربيّ - فـي كيفيّـةِ تَأَقْلُمِ «العِلْمِ والتّقْنية» مع التّفاعُلاتِ المُجْتمعيّـةِ جَعَلَتْ كثيراً من المُثقَّفين والمُفكِّرين يتنادون إلى ضَرورةِ «غَرْسِ العِلْمِ والتّقْنية» في «المُجْتمعات العربيّة»، وقادتْ تلـك الضّـرورة بعْضهم إلى الخُلُوصِ إلــى النّتيجة نفْسها التي خَلَصَ إليها الجابريّ في قولـه: (إنّ غرْسَ العِلْمِ والتّقانة فـي وطننـا العربيّ يَتَوَقَّفُ على وجـود تُرْبَةٍ مُلائِمةٍ ومُنَاخٍ منُاسِبٍ، أَيْ على إحْداثِ تَغْييراتٍ في عَالَمِنَا الاقْتصاديّ والاجْتماعيّ والفِكْريّ)(١).

ويهمُّنــا هنا أنْ نَتَوَقَّفَ أمام هذه النَّتيجة التي حَفَلَتْ بتَأْكيدِها المؤتمرات والنّدوات ووسائِل الإعْلام في العَالَم العربيّ، وحَرَصَ على تَرْديدِها وتَسْجيلِها المُثقَّفون والمُفكِّرون العــرب، ولكنّهــا - فــي نهاية المطــاف - بَقِيَـتْ مُجَـرَّدَ كلمــاتٍ علــى ورقٍ يَسْتَشْهِدُ بها المُسْتَشْهِدون عندما يَحْتاجون إليها لإبْرازِ مَعْرفتهم بعَصْرِهِمْ، واستمرَّتْ مُجَرَّدَ مَقُولاتٍ مُعْتَبَـرَةً عنْـد التّنْظير، ومَفْقُودَةً علـى ساحاتِ التّأْسيس والتّفْعيـل، وغَائِبَةً عن مضامين الإسْتراتيجيّات والآليّات. أمّا تَجْربةُ «النَّهْضَة الأوروبيّة» فيَسْتَخْلِصُ منْها إسماعيل صبري عبـد الله(١١) مُنْطَلَقاً مِحْوريّاً حيث وجـد أنّ: (التّنْمية الشّامِلة عمليّةٌ تَضْرِبُ جُذُورَهَا في كُلِّ جَوانِب الحياة وتُفْضِي إلى مَولِدِ حضارةٍ جديدةٍ، أو مرْحلةٍ جديدةٍ من مراحِل التّطوُّر

الحضـــاريّ)، وهذا يَعْنِي أنّ: (للتّنْمية أساسٌ ماديٌّ وآخَر فِكْريّ)، وبهذا تكون («التّنْمية» ثمرة التّفاعُل المُسْتمرّ بينهما بحيث يُغَذّي كُلٌّ منْهما الآخَر ويُقَوّي حركته).

فــي ضوء تلك المُعْطيــات يَتَوَجَّبُ علــى «الثَّقافة العربيّــة» أنْ تُحَــدِّدَ مَوقِفَهَا بشَكْلٍ حَاسِــمٍ من حضارة العَصْــرِ وثقافتِه وتحوُّلاتِه، ممّا يعود بنا - بالضّــرورة - إلى «مَفْهُومِ توجيــه الثقافة»[٢٨] في «المُجْتمعات العربيّــة» (انْظر: الفصْل الثّاني)، وبالتّالي يقودُ إلى أهميّــة حَشْدِ الجُهُودِ وبِنَاءِ الإسْتراتيجيّات لتَأْسيسِ «ثقافــةٍ تَنْمويّةٍ» قَادرَةٍ على اسْتيعاب التّحــوُّلات العَارِمَةِ والمُتسارِعَةِ عَالَميّاً فــي إطار مُتغيِّراتٍ مَعْرفيّةٍ وحضاريّةٍ وتقنيّة. ولأنّ «الثَّقافــة» هي «حَاضِنَةُ المُسْتَقْبَل»، فإنّ عليها أنْ تتفاعل مع «شُرُوطِ المُسْتَقْبَل»، وتَتَوَاءَمَ مــع مُقْتضيــاتِ «الزَّمان» و«المــكان»، وتَسْتَخْــدِمَ مفاتيحــه - بفَاعِليّةٍ - وهــي تَتَّجِهُ نحو «مُجْتمع المَعْرِفَة»، وهذا بالضّرورة يَسْتَدْعِي «خُطّةَ عملٍ» و«مَنْهَجاً إجْرائيّاً»؛ فلكي يَخْرُجَ «حــالُ الثَّقافة العربيّة» من مَأْزِقِ التّنْظير العَائِم والمُدَاوَلات اللفْظيّة، فإنّنا لا بُدّ أنْ نَتَّفِقَ مــع مالك بــن نبيّ[٢٨] في قوله: (إذا أردنــا أنْ نَفْهَمَ «الثَّقافة» في هــذا العَصْر، وجب أنْ نَفْهَمَهَــا بوَصْفِهَــا «مِنْهَاجاً» قبْل أنْ تكون «نتيجةً»)، وهذا يَقْتَضِــي وفْق قوله: (أنْ نُعَرِّفَهَا طِبْقــاً لمِقْياسٍ عمليٍّ، وذلك بأنْ تكون صَالِحةً لشيءٍ ما، وأنْ تكون على عِلْمٍ بهذا الشّيء؛ أَيْ أنْ تَتَحَدَّدَ طِبْقاً لما يجب أنْ تقوم به من عمل).

إنّ نُقْطــة الانْطلاق نحــو أيِّ «إسْتراتيجيّةٍ ثقافيّةٍ» حيويّةٍ يَنْبَغِــي أنْ تَبْدَأَ بالاعْتراف بـ«وَاقِــعِ الثَّقافة العربيّة» الذي يَتَعَثَّــرُ تحْت تَأْثير «فَجْوَةٍ مَعْرفيّةٍ» مُتفاقِمَةٍ، وتَكْمُنُ جسامة التّحــدّي فــي ضعْــف قُدْرتِهَا علــى اسْتيعــابِ فِكْــرِ «مَنْظُومَةِ العلــوم الحديثــة والتّقْنية» ومُمَارَسَاتِهَــا ومُقْتضياتِهــا. لذا لا يَنْبَغِــي أنْ تكون قضيّةُ «الثَّقافة» قضيّــةً «نُخْبويّةً» تَمُسُّ فِئاتٍ أو شرائح مُعَيَّنَةً فقط في المُجْتمع، ولكنّها قضيّةُ كُلِّ مُواطِنٍ يعيش عَصْرَه، ويتفاعلُ مع زمنــه، ويُدْرِكُ أنّ «الثَّقافة» هي «بَوْتَقَــةٌ تفاعُليّةٌ» واسِعَةُ النِّطَــاقِ والأطْيافِ والأشْكَالِ تُؤَثِّرُ في مجْموعِها - سَلْباً وإيجاباً - على الجميع.

من الوَاضِحِ أنّ أدبيّاتنــا الثقافيّة تَزْخَرُ بتَجَلِّيَاتِ الإحْبَاطِ والعَجْزِ والشَّكوى والتّذَمُّرِ مــن وَاقِــعٍ تَسْتَفْحِلُ فيه المُشْــكلاتُ الحياتيّة والاقْتصاديّــة والاجْتماعيّــة، وتَسْتَشْري فيه «معاني الاتِّكَاليّة» و«قِيَمُ الاسْتِهْلاك» و«نظريَّاتُ المُؤامرة»، ويَبْدُو أنّ هذا ليس جديداً على مُجْمَــلِ الحــالِ العربيّ، فقد لمس ذلــك زكي نجيب محمود وهو يَسْعَــى إلى تَشْخيص هذا الحــال بقوله: (والذي أنــا زَاعِمُهُ هنا، هو أنّ حياتنا الثّقافيّة الجديدة قد شَهِدَتْ أدباً أثار فينا أسْئلةً عن حياتنا الوَاقِعَةِ أكْثر جِدّاً ممّا شَهِدَتْ فِكْراً يُحاولُ الإجابة عليها)(٢٠). لا شَكّ عنــدي في أنّ زكي نجيب محمود سيَنْـزَعِجُ لو عَلِمَ أنّنا دخلنا بعْده ألْفيّةً جديدةً تضاعفتْ فيهــا التَّحدّيات لتفوق ما عهده فــي زمنه في مُنْتَصَفِ القَرْن الماضي، وسيَنْـزَعِجُ أكثر لو عَلِمَ أنّ وَصْفَهُ لـ«الوَاقِعِ الثّقافيّ العربيّ» ما زال على حاله، وأنّ «المَشْهَدَ الثّقافيّ العربيّ» لــم يَتَغَيَّــرْ؛ فما زالــتْ مُعَلَّقَاتُنَا الشِّعْريّــة، وتوصياتُنــا الكلاميّة، وتشنُّجاتُنــا الانْفعاليّة، ونَرْجسيّتُنــا الغريزيّة، ومُيُولُنَا الاسْتِهْلاكيّة، هي كُلُّ ما تُقَدِّمُهُ ثقافتُنا لمُعالَجَةِ وَاقِعٍ مُتَرَدٍّ ومُشْكلاتٍ مُسْتَفْحِلَة.

٥-٣-٣) «إسْتراتيجيّة الثّقافة» و«قضيّة المُسْتَقبَل»:

في ضوء تَفَاقُــمِ التّحدّيات المُعاصِرَةِ واسْتِفْحَالِ «الأَزْمَةِ الثّقافيّة»، فإنّ التّعامُلَ مع ظَواهِرِهَا ومَظَاهِرِهَا وأسْبَابِهَا يُصْبِحُ «قضيّة المُسْتَقْبَل» التي يَنْبَغِي أنْ تَتَحَوَّلَ إلى هَاجِسٍ مُقيــمٍ يُحَرِّكُ العزائِم، ويُهَيْمِنُ على كُلِّ القضايا والطُّرُوحات، وهي «القضيّةُ الغَائِبَةُ» عن اهْتمامــاتِ «الثّقافة العربيّة» بالرّغْم من كُلِّ تلك الطُّرُوحات والقصائِد والمؤتمرات التي تَتَغَنَّى بها وتَحْلُمُ بارْتياد آفاقِها إلاّ أنّها - في نهاية المطاف - تَبْقَى مُجَرَّدَ حِبْرٍ على وَرَق.

إنّ «قضيّة المُسْتَقْبَل» تَحْتَاجُ إلى أنْ تَنْتَقِلَ إلى كُلِّ دارٍ وساحةِ عملٍ ومَصْنعٍ وجامعةٍ، وكمــا يقــولُ مسعود ضاهر فإنّ: (سيرورة النَّهْضَة تَحْتَاجُ إلــى تَرَاكُمٍ كَمِّيٍّ من الإنْجازات الإيجابيّة المُتَحَقِّقَةِ على أرْضِ الوَاقِع)(٨)، وهذا ما يُؤَكِّدُهُ مهاتير محمد - صَانِعُ «المُعْجِزَةِ الماليزيّــة» - عندمــا سأله أحمد زويل عن سِرِّ تلك «المُعْجِــزَةِ» فأجاب قائلاً: (أنْ تَجْعَلَ الشَّعْبَ كُلَّه يُفَكِّرُ في المُسْتَقْبَل)(٧٠)، ولا شَكّ أنّ هذه الرُّؤية تَلْتَقِي مع مَقُولة فيكتور هوجو

(Victor Hugo): (إنّ الحكومة الجيّدة تَتَأَسَّسُ على مَعْرِفَةِ القَدْرِ المُناسِبِ من مُكَوِّنات «المُسْتَقْبَل» اللّازم إدْخاله في «الحَاضِر»)[٤٤].

تَأْسيساً على ما سَبَقَ يَبْدُو من اللّازم أنْ نَطْرَحَ من جديدٍ - وبإلْحاحٍ - أسْئلةً وَصَفْنَاهَا بأنّهـا الأكْثر إشْكَالِيّةً في الوَاقِـع العربيّ، ويَنْبَغِي أنْ نَسْعَى إلـى الإجابة عنها بموضوعيّةٍ وتجرُّدٍ: (هل يُمْكِنُ الحديثُ عـن «مُسْتَقْبَل الثّقافة العربيّة» بمَعْزِلٍ عن عَصْرِهَا وطبيعتِه العِلْميّـة - التّقنيّـة؟ هل يُمْكِنُ تَصَـوُّرُ ثقافةٍ فَاعِلَةٍ فـي مُجْتمعها دون تَحَوُّلِهَـا إلى ثقافةٍ مُنْتِجَـةٍ وخَلاّقةٍ ومُتَفَاعِلَةٍ مع «شُـرُوطِ العَصْرِ» ومُوَاصَفَاتِه؟ أليس من العجب العُجاب أنْ يُراد لآليّاتِ «العلوم والتّقنية» والتّطوُّرات المُعاصِرَة أنْ تَعْمَلَ في فَرَاغ؟).

ومَـرَّةً أُخْرَى، نجدُ أنّنا - على طريق الإجابة عن هذه الأسْئلة - نَصْطَدِمُ بـ«مَفْهُوم توجيـه الثَّقافة»[٢٨] (انْظر: الفصْـل الثّاني) الذي يَفْرِضُ صِياغَةَ مفاهيـمِ تَنْمَويّةٍ وأُطُرٍ عَصْريّةٍ لها لتَسْتطيع أنْ تَسْتَجِيبَ - بفَاعِليّة - لـ«التَّحَدِّي التّنْمَويّ» القَائِم في «المُجْتمعات العربيّة» لتتمكّنَ من وَضْعِ الحُلُولِ العمليّة والأُطُرِ الفِكْريّة التي تَنْسَجِمُ مع أهْدافِها، وتتكيَّفُ مـع مُقْتضياتِ عَصْرِهَا. أمّا عن تَجْرِبة الـدُّول التي نجحتْ في تخطّي كثيرٍ من الحَواجِز والعقبـات، والْتَحَمَـتْ - بفَاعِليّةٍ - مع عَصْرِهَـا وتَغَيُّرَاته، فإنّ مهاتيـر محمد - صَاحِبَ «التَّجْربـة الماليزيـةّ» -، وأحمد زويل - صَاحِـبَ «التَّجْربة العِلْميّـة» -، يَذْهَبَانِ إلى رُؤيةٍ مُشْتَرَكَةٍ تُؤَكِّدُ على أنّ: (الطَّريق هو خَلْقُ ثقافةٍ عِلْميّةٍ تُقَدِّرُ أهْميّة الدّين والتَّفْكير العِلْميّ معـاً)[٧٠]. أمّا عمليّةُ «توجيه الثّقافة»، فيجب أنْ تَخْضَـعَ لعِدَّةِ معاييرٍ، من أهمِّها تَكْريس عمليّـات «عَقْلَنَـةِ الثَّقافة» وآليّاتِها، ليس فقط لأنّ: (الحضـارة المُعَاصِرَة تقومُ كُلُّهَا على التّنْظيم العَقْلانيّ لكُلِّ مَرَافِقِ الحياة)[١]، ولكن أيضاً إذا أردنا فِعْلاً تَأْسيس «ثقافةٍ حَيَّةٍ» تَسْتَشْرِفُ «المُسْتَقْبَلَ» وتتفاعلُ مع مُكَوِّنَاتِه، فإنّنا يَنْبَغِي أنْ نَأْخُذَ في الاعْتبار تلك الحقيقة الثّابِتَـة التـي يُوجِزُهَا محمد عابد الجابريّ بقوله: (إنّ عَصْرَنَـا الرّاهِنَ هو، كما يُوصَفُ بحَـقٍّ، عَصْرُ العِلْـم والتّقانة)[١]، ويُؤَكِّدُهَـا بالتّركيز على «التَّخْطيط لثقافـة المُسْتَقْبَل» التـي تَعْنِي: (توفير شُـرُوطِ المُوَاكَبَةِ والمُشَارَكَة: مُوَاكَبَةُ الفِكْـر المُعَاصِر والمُشَارَكَةُ في إغْنَائِهِ وتوجيهِه)[٥٩]، ولا يَعْنِي هذا - بطبيعة الحال - أنْ نَكْتَفِيَ بأنْ تَتَصَدَّرَ هذه المَقُولَةُ

مؤتمراتنـا وندواتنا وطُرُوحاتنا التّنَمويّة والفِكْريّة، فالمُهِمّ أنْ تجد تلك «الرُّؤيةُ» طريقها إلى «ثقافة المُسْتَقْبَل» عبْر التَّخْطيط والتّفْعيل والتَّوجيه والمُتَابَعَة.

إنّ «ثقافـة المُسْتَقْبَـل» هي تلك التـي تَهْتَمُّ بفَهْـمِ عناصِر «المُسْتَقْبَـل» ومُحَدِّدَاتِه، وتتعاملُ مع شُرُوطِهِ ومُقْتضياتِه، ووفْق تَعْبير زكي نجيب محمود: (إذا أردنا أنْ نُغَيِّرَ وَجْهَ الحياة التي نحياها، فلن يكون ذلك بأنْ نَفْتَحَ كُتُبَ السّالفين لنروي عنهم ما قالوه، ونَنْقُلَ عنهـم مـا صنعوه، وإنّما السّبيـل القويمة - بَلْ السّبيل الوحيدة - هـي أنْ نَسْأَلَ عمّا يُرادُ تَحْقيقـه في «المُسْتَقْبَـل»، فالماضي لا بُدَّ منه، لا لنَجْعَلَ منـه نَمُوذَجاً نَحْتذيه، بلْ ليكون مَصْدَراً للإلهام فيما يَنْبَغِي أنْ نَصْنعه. إنّ ولاءنا لآبائنا يجب أنْ يكون في مُحاكاتِهم في وَقْفَتِهِمْ تجاه الحياة، لا في إعادة ما صنعوه حَرْفاً بحَرْف)[٢٠].

إذاً «ثقافة المُسْتَقْبَل» هي تلك «الثَّقافة» التي تُدْرِكُ أبْعَادَ الدَّوْرِ الذي يُؤدّيه الإنْسان الـذي هو - في نهايـة المطاف - مِحْوَرُ «العمليَّة التّنْمويّـة» ووسيلتُها وغايتُها، فكما يقولُ علـي علي حبيشـ: (إنّ التَّقَدُّمَ الذي يَحْكُمُهُ الإنْمَاءُ المَعْرِفـيّ يَحْتَاجُ إلى مُواطِنٍ عَصْريٍّ إيجابـيٍّ وفَعّالٍ ومُشَارِكٍ في حيـاةٍ اقْتصاديّةٍ - إنْتاجيّةٍ - خِدْميّةٍ، بَلْ حياةٍ عامّةٍ ومُجْتمعٍ يَتَّسِـمُ كُلّـه بهذه الصِّفَـات)[٣٩]. ولذا لا بُدّ من وَقْفَـةٍ جَادّةٍ تُمَحِّصُ الأهْـداف، وتَرْبُطُهَا بالوسائِـل، لنتغلَّبَ على حالة «اللّافَاعِليّة» التـي أَرْجَعَ مالك بن نبيّ «سببها الأصيل» إلى: (افْتقادنا الضَّابِط الذي يَرْبُطُ بين الأشْياء ووسائِلها، وبين الأشْياء وأهْدافِها، فسياستُنا تَجْهَلُ وَسَائِلَهَا، وثقافتُنا لا تَعْرِفُ مُثُلَهَا العُلْيا، وفِكْرَتُنَا لا تَعْرِفُ التَّحْقيق، وإنّ ذلك ليتكرَّر في كُلِّ عملٍ نَعْمله، وفي كُلِّ خُطْوةٍ نَخْطُوهَا)[٢٨].

٥-٤) خصائِصُ «الثّقافة التّنمويّة»:

إذا اتَّفقنـا مـع علي أومليل بـأنّ «قِيمة الثَّقافـة» هي: (في مدى تَكْوينِهـا للرّأْسمال البشـريّ؛ صَانِـع التّنْمية)[٣٧]، فإنّنـا بنَظْرَةٍ فَاحِصَـةٍ لمُعْظَم الجُهُودِ الفِكْريّـةِ السّائِدَةِ والمَشْرُوعـاتِ الثَّقافيّـةِ المَطْرُوحَةِ في العَالَم العربيّ في سِياق مـا يُعْرَفُ بـ«اسْتراتيجيّة الثَّقافـة»، نجد أنّ هـذه الجُهُودَ تَبْـدُو وكأنّها تُعـدُّ اسْتراتيجيّةً لدخـولِ «القَرْن الخامس

الهِجْـريّ»!. الغريب أنّ ذلك يَحْدُثُ فـي الوَقْت الذي تَبْرُزُ فيه طبقةٌ جديدةٌ من المُثقّفين والمهنيّين، وتَتَّسِعُ شرائِحُ أصْحاب التّخصُّصات العِلْميّة المُتَنَوِّعَة؛ وكُلُّهَا تَحْتَاجُ إلى «بِيئَةٍ ثقافيّـةٍ» مُناسِبةٍ، ولها عَلاقَةٌ حميمةٌ بقضايـا «الأَلْفيّة الثّالثة». ولذا فإنّ «الثَّقافة» التي لا تَسْتطيـع أنْ تَتَعَـرَّفَ على تلك الحقيقـة الشّاخِصَة للعِيان، وتُصِرّ علـى مُواصَلة جُهُودها الحثيثـة في تَكْريسِ توجُّهاتٍ مَكْـرُورةٍ تَقْليديّةٍ، فإنّها تَحْرِمُ مُجْتمعها مـن تَكْوينِ «البِنْيَةِ الثَّقافيّـة» القَادِرَةِ على اسْتيعابِ تغيُّراتِ العَصْـرِ ومُعْطياته، وتَمْنَعُ الشَّبابَ من الانْطلاقِ إلـى آفاقٍ رَحْبَةٍ من التَّفْكير العِلْمـيّ والتَّطْوير الذَّاتيّ والتَّأْهيـل التّنْمَويّ. بطبيعة الحال، يُصْبِحُ الأَمْرُ أكْثر كارثيّةً، وأشدّ حساسيّةً، عندما نتعاملُ مع مُجْتمعاتٍ عربيّةٍ تتجاوزُ فيه نِسْبَةُ الشَّبـابِ سِتّين في المائة، وتَبْرُزُ فيه يوميّاً شرائِحُ اجْتماعيّةٌ ومهنيّةٌ وعِلْميّةٌ وتقنيّةٌ جديـدةٌ لها مُعْطياتُهَا وقِيَمُهَا وفِكْرُهَا، وكُلُّها تَحْتَـاجُ إلى «ثقافةٍ عَصْريّةٍ تَنْمَويّةٍ» تَسْتطيع أنْ تَحْتَضِنَ هُمُومَهَا، وتتلاقح مع تطلُّعاتِها، وتتفاعل مع مُتطلَّباتِها.

وفـي هذا الإطار يَتَّضِحُ لنا جَليّاً أنّ «دَوْرَ المُثقّـف»، بصفته مُبْدِعاً ومُنْتِجاً للمَعْرفة ومُهَذِّبـاً للوَعْي الإنسانيّ، يتصـدَّعُ ويتهالكُ، حيث يعيش «المُثقَّـف العربيّ» في عُزْلَةٍ عن فِكْرِ زمانه، وغُرْبَةٍ عن آليّاتِ عَصْرِه، ليواصل رِحْلته الأزليّة إمّا في اجْتِرَارِ الذّات والبُكاء على الأَطْلال، وإمّا في الانْغِمَاسِ في افْتِعَالِ صِرَاعَاتِ «العَوْلَمَة» وجَدَلِ «الحَدَاثَةِ» ومزاعِم «التَّحَرُّر»، وبالتّالي يُصْبِحُ دَوْرُهُ التَّنْمَويّ مَعْدُوماً إنْ لم يكنْ سَلْبِيّ التَّأْثير، وهذا ما يَدْعُونَا إلـى أنْ نَتَّفِقَ مع برهان غليون على (ضرورة إعادة النَّظَـرِ في رُؤية المُثقّف لنفْسه ودَوْرِه الفِكْـريّ)[١٨]. أمّا أبْعَادُ هذا الـدَّوْر، والحَلْقَةُ المَفْقُودَةُ في «النِّضَالِ التّنْمَويّ»، والمعاييرُ التـي يجب أنْ نضعها للتّقويم، فسنَخْتَلِـفُ بشأنها مع كثيرٍ من طُرُوحات المُثقّفين العرب التـي مالـتْ - وما زالـتْ - نحو التّعْميـم والتّنْظيـر المُفْـرِط واسْتِخْـدَام المُصْطلحاتِ الفَضْفَاضَـةِ التي يُمْكِنُ لها أنْ تَحْمِلَ قِيَمـاً مُتناقِضَةً ومُمَارَسَاتٍ مُتضارِبَةً، كما يُمْكِنُ لها أنْ تَعْنِـي أيَّ شيءٍ وكُلَّ شيءٍ؛ ولـذا فإنّها مُؤَهَّلَةٌ لزَرْعِ بُذُورِ الشِّقَـاقِ والاخْتلافِ والجِدَالِ أكْثَـر من قُدْرَتِهَـا على صِناعة «التَّمَاسُـك» و«التَّرَاكُم» القَادِرَيْنِ علـى التّصدّي للأوجاعِ التّنْمَويّةِ في وَاقِعِ «المُجْتمعات العربيّة».

٥-٤-١) نَحْوَ ضَبْطِ المُصْطلح:

إذا كان المَطْلَبُ هو تَحْقيق ذلك الخِضَمِّ المُتلاقِحِ من المفاهيم والقِيَم والمدارِكِ والعَلاقَاتِ والتّفاعُلاتِ القَادِرَةِ على دَفْعِ المُجْتمع نحو الأفْضل وتوليد «الاسْتِجَابَةِ» القَادِرَةِ على احْتِواءِ طبيعة «التَّحَدِّي» والتّغلُّبِ عليه، فإنّ من المُهِمّ أنْ نَفْحَصَ مُصْطلحاتِنا بدِقّةٍ؛ لكي نتمكَّنَ من التّعامُلِ مع مُقْتضياتِها بجِدِّيّةٍ، ونُوظِّفَ مُقَوِّمَاتِهَا في الاتِّجَاهِ الأكْثر فَاعِليّةً وجَـدْوى. ولنَأْخُـذْ - على سبيل المِثال - ذلك المُصْطلح الـذي غزا الكثير من مؤتمرات العرب ومحافِلِهم، وهو مُصْطلحُ «ثقافة التّنْمية»، لنجد أنّه مُصْطلحٌ يُعْلِنُ دُخُولَ «التّنْمية» علـى اسْتِحياءٍ إلـى «الوَاقِعِ الثّقافـيّ»، ويُؤكِّدُ أنّها «جُـزْءٌ» من «كُلٍّ»، ويَبْنِـي حَاجِزاً أمام «التّنْميـة» يضعها فـي مَسَارٍ وَحْـدَه بمَعْزِلٍ عن التّفاعُـلات الأَعَمّ والأَشْمَـل التي هي من خصائِصِ «التّنْميـة» ومُقْتضياتِها. إنّـه لا يجوزُ بحالٍ أنْ تكون لـ«التّنْميـة» ثقافةٌ مَعْزُولَةٌ - فـي سِياقاتِهـا ومُحَدِّدَاتِهَا - عن ذلك الحَشْدِ الحَاشِدِ من القضايا التي تُؤثِّرُ في نَهْضَةِ المُجْتمـع وسيره نحو «المُسْتَقْبَل»؛ فحالُ «التّنْمية» ليس كحال «ثقافة المُرُور»، أو «ثقافة العُنْف»، أو «ثقافة حُقُوق الإنْسان»، أو غير ذلك من «الثّقافات الفَرْعيّة» المُرْتَبِطَةِ ببعض أَوْجُهِ التّعامُلِ والتّفْكير، والمُحَدَّدَةِ بحالٍ مُعَيَّنٍ وظَرْفٍ خاصّ.

ولأنّ التَّحـدِّي الأكْبـر أمـام العَالَم العربيّ هو «تَحَـدِّي التَّنْمية»، فإنّ مـن المُهِمّ أنْ تكون له «الأولويّـةُ المُطْلَقَةُ» في مُجْمَلِ «الحَرَاكِ المُجْتمعيّ» ممّا يتطلَّبُ ثقافةً قَادِرَةً على التّعامُـلِ مع «خصائِص التّنْمية» على أصْعِدَتِها الفِكْريّـة والتّعْليميّة والإعْلاميّة والبَحْثيّة والاقْتصاديّة وغير ذلك من مناحي الحياة التي تَصْنَعُ - في مُجْمَلِهَا وتَرَاكُمَاتِهَا - الفَرْقَ بيـن «الدُّول المُتَقَدِّمَة»، وبين تلك التي ما زالـتْ تَتَوَسَّلُ سُبُلَ التَّقَدُّم، وتَسْتَجْدِي مُعْطياتِ الآخَريـن، وتَتَخَبَّطُ في متاهاتِ البَحْثِ عن «طريق التّنْمية». ومن ذلك المُنْطَلق، فإنّ من المُهِمّ أنْ تَتَبَلْوَرَ لدينا رُؤْيةٌ جَامِعَةٌ لمُصْطلحٍ قَادِرٍ على أنْ يَحْتوي ذلك «الحَرَاكَ التّنْمويَّ الشّامِـلَ» فنتحدَّثُ - بالضّرورة - عن «الثّقافـة التّنْمَويّة»، لنجد - على سبيل المِثال - أنّ كُلَّ تلك «الثّقافات الفَرْعيّة» التي أشرنا إليها مثل «ثقافة المُرُور» و«ثقافة حُقُوق الإنْسان» تَقَـعُ ضِمْنَ إطـار هذا المُصْطلح الحيويّ الكبيـر. ومن المُهِمّ - أيضـاً - أنْ نَتَوَقَّفَ أمام

ذلك المُصْطلح الآخَر الذي يشيعُ بين حَامِلي «الهَمّ الثَّقافيّ»، ويَكْثُرُ تَرْدِيدُهُ بين صَانِعي «القرار الثَّقافيّ»، وهو مُصْطلحُ «تَنْمية الثَّقافة»؛ فهذا المُصْطلحُ يَقِفُ هَائِماً حَائِراً؛ لأنّه لا يُجِيبُ على أسْئلةٍ عديدةٍ، من أهمِّها: (ما «العناصِرُ الثَّقافيّةُ» التي نَحْتَاجُ إلى تَنْميتِها؟، وما «التَّوَجُّهَاتُ الاجْتماعيّةُ» التي نُريدُ غَرْسَهَا لتَنْمُو وتَزْدَهِر؟، وما «المعاني الفِكْريّة» التي نُريدُ لثقافتِنا أنْ تَرْقَى بها؟، وهل «الثَّقافةُ» التي نُريدُ تَنْميتَها هي الأشْكَالُ المَعْهُودَةِ بعُجَرِهَا وبُجَرِهَا؟، أمْ هل لدينا مَجَاهِرُ تَفْصِلُ الغَثَّ عن السّمين، ولدينا شُرُوطٌ تُحَدِّدُ ماهيّة ذلك الذي نُريدُ تَنْميتَه، وذلك الذي ستكونُ في تَنْميتِهِ نتائِجُ وسَلبيّاتٌ لا تَنْسَجِمُ مع مُقْتضياتِ «التّنْمية» وشُرُوطِهَا؟).

من الوَاضِحِ - إذاً - أنّه لكي تُصْبِحَ «التّنْمية» في «عَصْرِ العَوْلَمَةِ»، ووفْق شُرُوطِ «مُجْتمع المَعْرِفَة»، قَادِرةً على التّغلْغُلِ في نسيج المُجْتمع والتَّكَيُّفِ مع مُقَوِّمَاته، فإنّنا نَحْتَاجُ إلى «ثقافةٍ تَنْمَويّةٍ» في شُمُولٍ وعُمُوميّةٍ؛ فـ«التّنْميةُ» تَبْدَأُ من الإنْسان وتَنْتَهي عنده؛ ولذا كان من الضّروري أنْ تكون في صُلْبِ ثقافته، وفي عُمْقِ تَفْكيره، وأنْ تكون وَقُوداً مُحَرِّكاً لكُلِّ تفاعُلاته، ومُوَجِّهَةً لكُلِّ اهْتماماته، ودون هذه الحقيقة تَفْقِدُ «التّنْميةُ» مضامينَها وتَتَخَبَّطُ وَسَائِلَهَا. ومن الغريب أنْ يتعاقب المُتَحَدِّثون في المؤتمرات، ويتسابق المَسْؤولون في المؤسّسات التّعْليميّة والثّقافيّة والإعْلاميّة إلى الإشادة بالدَّوْرِ المِحْوَرِيّ لـ«التّنْمية» في حياة الأُمّة ومُسْتَقْبَلِ أجْيالِها، ثمّ تتسابقُ الخُطى، مُنْحَرِفَةً بعيداً عن تَأْصيلِ «العَلاقَةِ العُضْويّة» بين «التّنْمية» و«الثَّقافة» في آفاقِها الفِكْريّة والعِلْميّة والاجْتماعيّة، وقُدْرَتِهَا على تَعْميقِ الانْتِمَاء، وتَحْفيزِ القُدْرات، وشَحْذِ العُقُول، وبَلْوَرَةِ الخيارات.

قد يَسْتَنْجِدُ بعْضهم بمَقُولَةِ (لا مُشَاحَّة في المُصْطلح)، ولكن هذه المَقُولَةَ السّائِدَةَ في «الفِكْرِ العربيّ» وثقافتِه، وربّما الأصَحّ أنْ نقول طريقة تَأْويلِهَا وتَطْبيقِهَا، هي أحدُ أسْبَابِ وَهَنِ هذا «الفِكْرِ» وضبابيّةِ ثقافتِه؛ فالحقيقةُ هي أنّ «المُصْطلح» هو الذي يُبْرِزُ المعاني، ويُؤَصِّلُ الشُّرُوط، ويُحَدِّدُ الأُطُر؛ ولذا كان أهمّ أُسُس «الحركة العِلْميّة» هو اهْتمامُهَا الرّئيسُ بتَحْريرِ المُصْطلحاتِ وضَبْطِهَا بصرامةٍ، وتَحْديدِ التّعْريفاتِ إجْرائيّاً، ممّا جعل إنْجازاتُها تُعانِقُ السَّمَاء. هذه «الثَّقافةُ التّنْمَويّةُ الشَّامِلَةُ» هي ما يُطْلَقُ عليه لؤي

صافـي[١٦] اسْم «الثَّقافة النَّاهِضَة» ويَصِفُهَا بأنّها: (مُحَفِّزَةً للهِمَم، مُنيرةً للعُقُول)، وهي في رأْيه: (تَتَمَيَّزُ بخصيصَتَيْن رئيسَتَيْن:

١) القُـدْرَةُ علـى توليدِ تضامُنٍ داخِلـيٍّ يَتَمَثَّلُ بتعـاون أَفْرادِ المُجْتمـع النَّاهِضِ وتلاحُمِهِمْ وتَكَامُلِ جُهُودِهِمْ.

٢) القُـدْرَةُ علـى تَحْريرِ الطّاقـةِ الخَلّاقَةِ المُبْدِعَـةِ للفَرْدِ والجماعـة، وبالتّالي تَمْكينهم من تَطْويرِ أدواتِهم وزيادةِ فَاعِليّتِهم).

من المُهِـمّ – إذاً – أنْ نَضْبِطَ مُصْطلحنا «الثَّقافيّ – التَّنْمَويّ» بحيث يكون لمُصْطلح «الثَّقافـة النّاهِضَـة»، أو مـا نُطْلِقُ عليه هنـا اسْم «الثَّقافـة التَّنْمَويّة»، مكانـه المَرْمُوق في إسْتراتيجيّاتنـا؛ فعبْر هذا «المُصْطلحِ» الشّامِلِ تُهَيْمِنُ «شُرُوطُ التَّنْمية» على طبيعة «الفِعْلِ الثَّقافيّ» بأنْواعِه وأشْكالِه، وتُغَذّي مُنْطلقاتُها «الوَسَطَ المُجْتمعيّ» – فِكْريّاً ومَعْرفيّاً ووِجْدانيّاً – في سَعْيٍ دؤوبٍ لإيجاد «التَّوَازُنِ» في النَّهْجِ الحياتيّ للإنْسان عبْر تَطْويرِ تفاعُلاتِه، وتَكْثيفِ الاهْتمامِ بطبيعة العَصْرِ وتحدّياتِه، وتَرْسيخِ «ثَوابِتِ الأُمّة» وقِيَمِهَا في صِياغةٍ واعيةٍ تتفاعلُ مع «الزَّمان» و«المكان»، وتَحْتَرِمُ عَقْلَ المُواطِن، وتَرْعَى مَصَالِحَ الوطن.

٥-٤-٢) «الشَّرْط الثَّقافيّ» و«التَّنْمية المُسْتَدَامَة»:

لقد اهْتَمّتْ «أدبيَّاتُ التَّنْمية» بـ«تَطْويرِ المَوارِد البشريّة»، ووضعتْ الخُطَطُ الخَمْسيّة والعشْريّـة والعشرينيّة هذا «المُصْطلحَ» على رَأْسِ قائمةِ أولويّاتها وبرامِجها، ولكن يَبْقَى هذا «المُصْطلحُ» مُجَرَّداً من دَلالاتِه ومُفَرَّغاً من أبْعَادِهِ إذا أهْملنا «المَسْأَلَةَ الثَّقافيّة» التي تُشَكِّلُ فِكْرَ الفَرْدِ وقناعاتِه وتوجُّهاتِه ومُمَارَسَاتِه.

إنّ قضيّةَ «نَقْلِ التّقْنية» تُمَثِّلُ أبْرز أشْكال الخَلَلِ النّاتِجِ عن غِيَابِ «الشَّرْطِ الثَّقافيّ»؛ فقضيّـةُ «نَقْلِ التّقنية» تُراوحُ مكانها في العَالَمِ العربيّ؛ لأنّهـا تَوَقَّفَتْ عند شَكْلٍ وَاحِدٍ من أشْكَالِهَا وهو «عمليّة الاسْتيراد»، ولم تَسْتَوْعِبْ «التَّجْرِبةُ العربيّةُ» طبيعة هذه القضيّة التي يـرى أرغيري إيمانويل (Arghiri Emmanuel) أنّهـا عمليّةٌ ذات ثلاث مراحِل: «مَرْحلة

الاسْتِيراد»، و«مَرْحلة الاسْتِيعاب»، ومن ثمّ «مَرْحلة خَلْقِ التّكْنولوجيا» وهي مَرْحلةٌ لا يُمْكِنُ أنْ تكـون إلاّ (مَرْحلـةً مَشْرُوطةً بتقدُّمٍ مُسْبَقٍ على الصّعيديـن الاجْتماعيّ والثّقافيّ يكون مـن الأهميّـة بحيث يُشَكِّلُ فـي الوَاقِعِ قَفْزَةً نَوْعيّـةً بالنِّسْبَةِ للمَرْحلة الثّانيـة.. أيْ مَرْحلة الاسْتِيعاب)[٢٢].

أمّـا «مَفْهُومُ التّنْمية المُسْتَدامَة»، فهو مـن أكْثر المفاهيم تداولاً في «أدبيّات التّنْمية» فـي العُقُودِ الأخيـرة[٩]، ولذا فمـن المُهـمّ أنْ نَتَوَقَّفَ أمـام دَلالاتِه الثّقافيّـة والاجْتماعيّة ومـا تَحْمِلُهُ مـن آثارٍ على تَفْعيلِ المَفْهُـوم وتوجيهِه وتوظيفِه. وبالتَّأَمُّـلِ المُتأنِّي سنجدُ أنّنا نَصْطَدِمُ بـ«حَاجِزٍ ثقافـيٍّ واجْتماعيٍّ» يُقَيِّدُ الوَاقِعَ العربيّ، ويُحَدِّدُ مدى النَّجاح في التّعامُلِ مـع برامِجِ «التّنْمية المُسْتَدامَة» سواءً تَبَنَّيْنَـا - على سبيل المِثال - ذلك التّعْريفَ المُبَسَّطَ الذي يَنُصُّ على أنّ: («التّنْميةُ المُسْتَدامَةُ» هي التّنْميةُ المُتَجَدِّدَةُ والقَابِلَةُ للاسْتِمْرَار)[٩]، أو اهْتَمَمْنَـا بالعناصِـر التي قادتْ إلى بُـرُوزِهِ في المقام الأوّل وهـي «الاعْتباراتُ البِيئيّةُ» حيث يُهَيْمِنُ الحِرْصُ على تَرْشيدِ اسْتخدامِ «المَوارِد الطّبيعيّة» لضمان بقائِها واسْتِمْرَارِهَا لأجيـالٍ مُتتاليـةٍ عبْر ما يَصِفُهُ عبد الخالق عبد الله بـ(السَّعي الدّائِم لتَطْوير نَوعيّة الحياة الإنْسانيّة مع الأخْذِ بالاعْتبار «قُدْرات النِّظام البِيئيّ» الذي يَحْتَضِنُ الحياة وإمْكاناتِها)[٩].

إنّ هـذا «الحَاجِزُ الثَّقافيّ والاجْتماعـيّ» ليس وَقْفاً فقط على «المُجْتمعات النّامية»، ولكنّـه - أيضـاً - حقيقةٌ مَلْمُوسَةٌ فـي «المُجْتمعـات المُتَقَدِّمَة» وإنْ كانـتْ له خصائِص أُخْـرى وطبيعةٌ مُخْتلفة؛ فعندهم برز هـذا «الحَاجِزُ» نتيجةً لقُدْرَاتٍ مُتناميةٍ في اسْتِغْلالِ «المَوارِد الطّبيعيّة»، وتَمَدُّدِ رُقَعِهِمْ الصّناعيّة، وتَطَوُّرِ إنْجَازَاتِهِمْ التّقنيّة، وتَنَامِي «الرَّغْبَة الاسْتِهْلاكيّـة» التي أَسْقَطَتْ من حِساباتِها «قُدْرَاتِ البِيئة» على تَحَمُّلِ ذلك الإنْتاج الغزير والاسْتِهْلاك المُتعاظِم حيـث كانتْ النَّظْرَةُ المُهَيْمِنَةُ هي أنّ البِيئة «مُجَرَّدُ وسيلةٍ لتَحْقيقِ التّنْمية»[٩] دون مُراعاةٍ لأيِّ ضَرَرٍ بِيئيّ.

وأمّا «الحَاجِـزُ الثّقافيُّ والاجْتماعيُّ» الـذي يتصدّى لمَفْهُوم «التّنْميـة المُسْتَدامَة» فـي «المُجْتمعـات العربيّة» فيَنْبَثِقُ عن سُـؤَالٍ ثقافيٍّ مَحْضٍ يَفْرِضُ نفْسـه إزاء «التّعْريف

التّنْمَـويّ» الـذي يَهْتَمُّ بقُـدْرَاتِ «النِّظَام البِيئيّ» علـى احْتِضَانِ الحيـاة وإمْكاناتِها ليكون السُّـؤالُ على النَّحو التّالي: (ومـاذا عن «قُدْرَاتِ الإنْسان» الذي يُعْتَبَرُ الوسيلة والغاية فهو الـذي يَحْتَضِنُ «التّنْمية» بأسْرِهَا، ويَصْنَعُ مُقَوِّمَاتِهَا، ويُوَجِّـهُ آليَّاتِهَا، ويَقْطِفُ ثِمَارَهَا؟)؛ فـإذا كنّـا نَسْتطيع، من تَعْريفـات «التّنْمية المُسْتَدامَـة»[٩،١١]، أنْ نَصِـفَ «النِّظَامَ البِيئيّ المُسْتَـدَامَ» بأنّه: (النِّظَامُ الـذي تتعايشُ كُلُّ عناصِرِه في تَوَازُنٍ قَـادِرَةً على إنْتاج ذَوَاتِهَا ومُقَوِّمَاتِهَـا وتفاعُلاتِهـا)، فإنّـه - إزاء الـدَّوْرِ الجوهريّ للإنْسـان في تَحْقيـقِ «التّنْمية المُسْتَدَامَة» وتَمْكينِها - يَبْرز عُنْصُران لا مناص منهما:

١) قُـدْرَةُ الإنْسان على التَّجاوبِ مع «المَنْظُومَةِ التّنْمَويّـة»، والتّفاعُلِ مع مُقَوِّمَاتِهَا في تَـوَازُنٍ، والانْسِجَامِ مـع مُقْتضياتِها الفِكْريّة والحياتيّـة والثّقافيّة والبيئيّة، والتَّكَيُّـفِ مع شُرُوطِهَـا العِلْميّة والعمليّـة، وتَحْقيقِ الكفاءَة فـي تَطْويرِ أدواتِها وتوظيفِ مُعْطياتِها على الصَّعيدِ المحلّي المُباشِر.

٢) انْسِجَـامُ «المَنْظُومَـةِ التّنْمَويّة» ذاتِها مع قِيَمِ المُجْتمـع ومُعْتقداتِه ومُمَارَسَاتِه لتجـد لها على أرْضِ الوَاقِعِ الحياتيّ سَنَـداً ودَعْماً ومُنْطَلَقـاً لتَعْزيزِ مكانتِها، وتَعْظيم دَوْرِهَا، وتَفْعيلِ آليّاتِها.

مـن المُهِمّ أنْ نُدْرِكَ، عنْد التّعامُـلِ مع «العُنْصُرِ البشريّ»، أنّ القضيّةَ ليست قضيّة تَعْليـم وتَدْريبٍ وتَأْهيلٍ فقط، بَلْ هي أَعْمق من ذلـك بكثيرٍ؛ فقد تتساوى معاييرُ الدِّراسة الأكاديميّـة، وتتوافقُ عناصِرُ التّأْهيـل، وتَتَّحِدُ مُكَوِّنَاتُ التّدْريـب، ولكن الأداء في «الدُّول المُتَقَدِّمَـة» يَبْقَـى أعْلى بكثيرٍ من الأداء في «الدُّول النّامية» كمـا أَثْبتَتْ التّجاربُ وحقائِقُ الوَاقِـع؛ ولـذا تَسْتَمِرُّ الفَجْوَةُ قَائِمَـةً - إنْ لم تَزِدْ اتِّساعاً - بالرّغْم مـن اسْتِمْرَارِ تَحْديثِ البرامِـج والتّجْهيـزات في «الدُّول النّاميـة»، ممّا يَجْعَلُنَـا نَقِفُ أمام وَجْهٍ بَـارِزٍ من أَوْجُهِ «إشْكَاليّة التّنْمية» المُسْتَفْحِلَةِ على مدى عُقُودٍ في العَالَمِ العربيّ.

هـذه الحقائِـقُ تعودُ بنا من جديدٍ إلى تلـك «القضيّة الغَائِبَة» وهـي قضيّةُ «الثقافة التّنْمَويّـة» التـي تُصْبِحُ فيها «التّنْمية» قِيمَـةً ثقافيّةً وفِكْريّةً ومَسْلكيّـةً واجْتماعيّةً لتتحقَّقَ

شُرُوطُ «البيئة الصّالِحَة»، ولتَصْنَعَ «الوَسَطَ الفَعّالَ» لتَنْمِيةِ طاقاتٍ وقُدْراتٍ بشريّةٍ تَحْتَرِمُ مهنها، وتُطَوِّرُ مهاراتها، وتَهْتَمُّ بالإتْقان، وتَتَحَلَّى بأخْلاقيّاتِ العمل، وتَحْرِصُ على الإنْجاز، وتُوَظِّفُ - بكفاءَةٍ - الإمْكانات والمَوارِد. ولأنّ «الثَّقافة» فِكْرٌ ووَعْيٌ وتفاعُلٌ وسُلُوكٌ يَطْبَعُ عَقْلَ الإنْسان، ويُحَدِّدُ خياراته، ويَشْحَذُ وِجْدانَه؛ فإنّ المَطْلوب هو «ثقافةٌ تَنْمَويّةٌ» تَنْتَشِرُ عبْر نسيجِ الوطن، وتَتَغَلْغَلُ في خلايا المُجْتمع لتَرْقَى بالمدارِك، وتَرْفَعَ من القُدْرات، وتَرْبُطَ المُواطِنَ بقضاياه، وتَدْفَعَ بمُخْتلف الشّرائح والطّبقات إلى مساراتٍ فَاعِلَةٍ من التّجانُسِ والحِوار، وإنْ تباينتْ وِجْهَاتُ النَّظَر، وتعدَّدَتْ وسائِلُ الأداء. ومن الضّروريّ أنْ تَتَمَتَّعَ «الثَّقافةُ التّنْمَويّةُ» بديناميكيّةٍ تَجْعَلُ منها تفاعُلاً نَشِطاً على امْتداد ساحة الوطن، وفي كُلِّ مَواقِعِه، لتَخْرُجَ من لازمَةِ «المُثقَّف النُّخْبَويّ»، وتُحَرِّكَ البُنَى التّنْمويّة والمَوارِد البشريّة لتَحْسينِ المُسْتويات المعيشيّة والاجْتماعيّة والاقْتصاديّة والتّعْليميّة، فتُقَاسُ كفاءَةُ «المُثقّف» وعطاؤه بقُدْرَتِهِ على الالْتِحَام بوَاقِعِ الجُمْهُور، والتّعامُلِ مع تحدِّياتِ المَرْحلة.

إذاً لكي تَتَحَقَّقَ أهمّ شُرُوطِ «التّنْميـة المُسْتَدامَة» من النّاحيـة البشريّة والفِكْريّة والمُجْتمعيّة، فإنّ على «الثّقافة» أنْ تَحْتَضِنَ النَّاسَ في منازِلِهِم ونواديهم ومدارِسِهم وجامعاتِهِم وأعْمالِهم، وأنْ تكون غايتُها الالْتِحَامَ مع حيواتِهِم ومُشْكلاتِهم وهُمُومِهم، والرُّقيّ بوَعْيِهِم وعطائِهِم؛ ليتناغم كُلُّ ذلك مع ظُرُوفِ زمانِهم وتحدِّياتِ عَصْرِهم، فتَتَحَوَّلُ بذلك «الثَّقافةُ» إلى جُهُودٍ مُلازِمَةٍ لمُخْتلف مُتطلَّبات الحياة، ونشاطٍ دؤوبٍ يَنْحَتُ في قِوَامِ الوطن لتَشْكيلِ الرُّؤى، وتَحْفيزِ القُدْرات، وتَطْويرِ السُّلُوكيّات، وتَعْميقِ الانْتِماء.

وأمّا العُنْصُرُ الثّاني من شُرُوطِ «التّنْمية المُسْتَدامَة»، المُتَمَثِّلُ في تَحْقيقِ «التَّجانُسِ الثَّقافيّ» بين المُجْتمع وعَصْرِه، فيَكْمُنُ في رُؤىً وتوجُّهاتٍ قَادِرَةٍ على رَبْطِ المُواطِن بقضاياه عبْر التَّواؤم والحِوار وتَفْعيلِ نَمُوذَجِ «التَّوَافُقِ التّنْمَويّ»، الذي طرحناه في الفَصْلِ الرّابع، فقد اتّضَحَ أنّ أبْرز مَثَالِب «الحَدَاثَةِ العربيّة» أنّها تَمَثَّلَتْ حَدَاثَتَهَا في إعْلان الحَرْب على الأُطُرِ الضَّابِطَةِ في مُجْتمعها، واسْتِفْزَازِ شَرَائِحِهِ المُحَافِظَة، والتّمَرُّدِ على «المَنْظُومَةِ الفِكْريّة والقِيميّة»، وبذلك اسْتَعْدَتْ قطاعاتٍ وَاسِعَةً ومُتنامِيةً في مُجْتمعاتِها؛ وبطبيعة الحال، ليس من المُتَوَقَّعِ أن يُنْتِجَ مِثْل ذلك التَّوجُّه الاسْتِفْزازيّ اسْتِقْراراً مُجْتمعيّاً

يُسْهِـمُ في تَطْوير المَوارِد البشريّة والطّبيعيّــة، ويُنَمّي البُنَى التّحتيّة والهياكِل التّنْظيميّة، ويُؤسِّسُ لفِكْرٍ نَاضِجٍ في التّعامُلِ مع قضيّة «التّنْمية المُسْتَدَامَة».

٥-٤-٣) مَأْزِقُ المُصْطلح و«الإنْسانُ الجديد»:

لقـد وَقَعَتْ المؤتمرات والنّدوات والدِّراسات - في العَالَم العربيّ - في مَأْزِقِ تَعْريف مُصْطلـح «الثَّقافـة»، ولا ضَيْرَ مـن تلك المُحـاولات، لو أنّهـا خَلَصَتْ إلى تَعْريـفٍ يَدْفَعُ بقضيّة «الثَّقافة» إلى فضاءٍ حيويٍّ يتفاعلُ مع مُشْكلات المُجْتمع، ويُحَقِّقُ شُرُوطَ «التّنْمية المُسْتَدَامَـة»، ويَتعـرَّفُ على «رُوحِ العَصْـر»، ويَسْتَوْعِبُ حَقَائِقَهُ ومُقَوِّمَاتِـه؛ ولكن يَبْدُو أنّ «مُشْكلـة المُصْطلـح» ما زالتْ تَتَرَنَّحُ فـي قَوالِبِهَا التّقْليديّة الاجْتِرَاريّـة لتُصْبِحَ «الثَّقافةُ» مُجَرَّدَ تَـرَفٍ تُمَارِسُهُ «المُجْتمعات العربيّة»، وتَتَسَلَّى به في سُويعاتِ الأُنْسِ وليالي السَّمَر، ولتتبنَّى ذلك الوَاقِعَ الذي أَحْسَنَ زكي نجيب محمود في وَصْفِهِ عندما قال: (كَمْ من كَاتِبٍ يَكْتُـبُ ليُسَلّي وكأنّه النَّديم في مجال الطَّرَب، وكَمْ من مُتَحَدِّثٍ يَتَحَدَّثُ تَجْميداً للحركة لا تَحْريـكاً للسُّكُونِ؟)[٢٠]. وأمّا عندما يرى لؤي صافي[١٦] أنّ: («حركة التّنْمية» تَتَوَقَّفُ على توفُّـرِ مَجْمُوعَةٍ من الشُّرُوطِ الثَّقافيّة والاجْتماعيّـة)؛ منْها: (تَوَجُّهُ سُلُوكِ أفْرادِ المُجْتمع نحو الإنْتاج بنَوْعَيْهِ الفِكْريّ والمادّيّ)، ومنْها: (ظُهُورُ حركةٍ فِكْريّةٍ وعِلْميّةٍ نَاشِطة)، فإنّنا نَقْتَرِبُ هنا - بشَكْلٍ عَامٍّ - من مَفْهُومٍ لـ«الثَّقافة» ذي «فَاعِليّةٍ اجْتماعيّةٍ» ودَوْرٍ حيويّ.

مـن هنا نَسْتطيـع أنْ نَفْهَمَ الدَّلالاتِ العميقة الكَامِنَةِ فـي المَفْهُوم الذي أَسْمَاهُ زكي نجيـب محمود «الإنْسان الجديد» حيث كتب يقـول: (قضيّةُ بِنَاءِ «الإنْسان الجديد» قضيّةٌ من قضايا «التَّحْويل» التي تَتَطَلَّبُ «سياسةً» لا تجيء من رِجَالِ السِّياسة بالمَعْنَى المَعْروف لهـذه التَّسْمية، لأنّ مِثْـلَ هذا «التَّحْويل» في بِنَـاءِ الإنْسان لا يكـون إلاّ إذا تَغَيَّرتْ وِجْهَاتُ النَّظَـرِ واتّجاهاتُ السَّيْرِ والأَهْداف)[٢٠]. وأمّا مـا يُطَالِبُ به حَشْدٌ من الكُتّاب والمُثقّفين حـول ما اشْتَهَرَ باسْـم «المُنَاخ العِلْمـيّ»، فإنّ من أبْـرز مُتطلّباته شُرُوطـاً يَصِفُهَا زهير الكرمـي بقوله: (وحتّى يكون هناك «مُنَاخٌ عِلْمـيٌّ» في مُجْتمعاتِنا يَتَحَتَّمُ أنْ تكون لـ«العِلْمِ» مكانتُـهُ المَرْمُوقَـةُ في نُفُوسِ النّاس، ويجـب أنْ يَحُسَّ كُلُّ فَرْدٍ فـي المُجْتمع، وعلى جميع

درجـات المَسْؤولية، بأهميّة «العِلْم» وخَطَرِه، وأنْ يكون هناك اسْتِعْدَادٌ نَفْسيٌّ وفِعْليٌّ لتقبُّلِ نِتَاجِ «البَحْثِ العِلْميّ» وتَأْثيراتِه في حياة النّاس من جميع وجوهِها)[٧٧].

خُلاصَـةُ القول، إنّه إذا كان (مِعْيارُ «التّنْميـة» الحقيقيّ هو الكفاءَةُ والفَعَّاليّة)[١٢]، فإنّنـا حَتْماً سنَحْتَاجُ إلى «ثقافةٍ تَنْمَويّةٍ» قَادِرَةٍ على توفيرِ الدَّوافِعِ والحَوافِزِ والاهْتماماتِ والتّوجُّهـاتِ والمُمَارَسَاتِ التـي تَسْتطيع أنْ تُحَوِّلَ المُجْتمع إلى خَليّـةٍ نَشِطَةٍ وبَوْتَقَةٍ فَاعِلَةٍ عبْـر إحْدَاثِ تلك التّراكُمات التّدْريجيّة فـي التّجارِب والقناعات والتّفاعُلات، فكما يقولُ زكـي نجيب محمود[٢٠]: (لا تَحْدُثُ الثَّـوْرَةُ الفِكْرِيّةُ - بمعْنَى إحْلال مَجْمُوعَةٍ من المبادئ النّظريّـة محلّ مَجْمُوعَةٍ أُخْرى - دُفْعَةً وَاحِـدَةً، أو على الأقلّ إنّ مِثْل هذا التّغيُّر المُفاجئ لطريقـة التّفْكير لم يَحْـدُثْ خلال التّاريخ، وإنّمـا تَتِمُّ الثَّوْرَةُ الفِكْرِيّةُ بتحـوُّلاتٍ تدْريجيّةٍ تَنْقُـلُ النّاس شيئـاً فشيئاً من نَمَطٍ فِكْريٍّ قديـمٍ إلى نَمَطٍ آخَر جديـد)، ويُواصِلُ ليقول: (وعقيدتـي هي أنّ ثَوْرَةً فِكْريّةً كهـذه لم تَحْدُثْ لنا خلال هذا القَرْن كلّه، برغم التّغيُّرات الكثيـرة والمُهِمّة، التـي طَرَأَتْ على صُورة الحياة، وذلك لأنّ النّمَـطَ الفِكْريَّ القديمَ باقٍ كما كان دائماً، والعجيب الذي يُلْفِتُ النَّظَرَ هو أنّ الفَجْوَةَ الكَائِنَةَ بين ذلك النَّمَطِ الفِكْري مِـن جِهَةٍ، وتَفْصيلاتِ الحياة الجديدة من جِهَةٍ أُخْـرى، لا تُحْدِثُ فينا شيئاً من القَلَقِ أو التَّوَتُّر، الذي لو حدث، لحَفَّزَنَا إلى سَدِّ الفَجْوَةِ بالمُلاءَمَةِ بين المبادئ العامّة وتَفْصيلات الحيـاة العمليّة). وأمّا عندما يـرى محمد عابد الجابري بأنّ: (الخِطَابُ العربيّ الحديث والمُعَاصِرُ كان في جُمْلَتِه، ولا يزال، «خِطَابَ وِجْدَانٍ» وليس «خِطَابَ عَقْل»)[٦٧]، فإنّ ذلك يَعْنِـي أنّ الحاجـة مَاسّةٌ إلى إحْدَاثِ «نَقْلَةٍ نَوْعيّةٍ» في «الخِطَـاب العربيّ» تُغَيِّرُ خصائِصَه مِـن «خِطَـابِ وِجْدَانٍ» إلى «خِطَابِ عَقْـلٍ»؛ ففي نهاية المطاف هذه «النَّقْلَـةُ النَّوْعيّةُ» هي الأهمّ في حيـاة الأُمّة، وهي الضّروريّة لحَلِّ إشْكالاتِها المُتَفاقِمَة؛ لأنّ ذلك التَّحَوُّلَ يَعْنِي، وفْق المَقُولَةِ الشّكسبيريّة المَشْهُورَة،: (أنْ نكون أو لا نكون).

كُلّ هـذه الحقائِق تَفْرِضُ على «المُجْتمعات العربيّـة» تَلَمُّسَ طريقها - بحِكْمةٍ - في عَالَـمٍ يموجُ بالتّحدّيات والمُفَارَقـات، وتَخْتَلِطُ فيه الأوراق من كُلِّ حَدَبٍ وصَوْبٍ، وتتداخلُ فيــه الأطْياف الفِكْريّة من كُلِّ لـونٍ وصنْفٍ، ونَتَّفِقُ بالضّرورة هنا مع عبد الله عبد الدّائم

وهـو يَخْلُصُ إلى نتيجةٍ مُهِمّةٍ وهي أنّ: (أيّ حديثٍ عن دَوْرِ المُثقّفين في المُجْتمع العربيّ حديـثٌ لا مَعْنَـى لـه ولا طائِل وراءه إنْ لـم يَعْنِ تَعْبئـة الطّاقة الثّقافيّة مـن أجل القضاء علـى التّخلُّفِ ومن أجـل بِنَاءِ مُجْتمع عربيٍّ جديـد) [١٨]. ولذا فإنّ من المُهـمّ أنْ نَحْرِصَ على «توجيـه الثّقافة» نحو أغْرَاضٍ تَنْمَويّةٍ فَاعِلَةٍ، وإشْرَاقَـاتٍ فِكْرِيّةٍ مُضيئةٍ، ومُمَارَسَاتٍ إنْتاجيّةٍ مَلْمُوسَةٍ، وتَوَجُّهَاتٍ عَقْلانيّةٍ هَادِفَةٍ، وتَأْسيس ذلك «الإنْسان الجديد» القَادِرِ على اسْتيعـاب تحدِّيات زمنه؛ وبذلك تَتَحَرَّكُ «القَافِلَـةُ الثّقافيّةُ» في اتِّجَاهِ «سَهْمِ الزَّمن» عبْر «ثقافةٍ تَنْمَويّةٍ» نَشِطَـةٍ، ويَتَقَلَّصُ تَأْثيرُ ما وَصَفْنَاهُ بمُحاولاتٍ بَهْلوانيّةٍ تَسْعَى إلى أنْ تعيش «الثّقافة العربيّة» دَاخِلَ «الزَّمن» وخَارِجَهُ في آنٍ وَاحِد.

٥-٤-٤) «الثّقافة التّنْمَويّة» والمعارِف الإنْسانيّة:

مـن الخصائِصـ الأساس لـ«الثّقافـة التّنْمَويّة» أنْهـا تَحْتَضِنُ كُلَّ أنْمَـاطِ المعارِف الإنْسانيّـة، والأبْعَـادِ الوِجْدانيّـة، والإبْداعـاتِ الفنيّـة، والاهْتماماتِ الثّقافيّـة؛ فتتفاعل جميعها - في حيويّةٍ - مع ضَروراتِ «التّنْمية» وتحدِّيات «العَصْر» عبْر جَعْلِ «ثقافة العلوم والتّقْنيـة» مُكَوِّناً عُضْويّاً من مُكَوِّنَاتِ «الثقافة»، فتكون «الحركةُ التّنْمَويّةُ»، بكُلِّ مُعْطياتِها وضَوابِطِهَـا ومُقْتضياتِها، هَاجِسـاً مُقيماً يَحْتَـلُّ مِساحتَه وأولويّتَه في الجُهُـودِ الثّقافيّة، والاهْتماماتِ الفِكْريّة، والإبْداعاتِ الإنْسانيّة.

يُخْطِـئُ من يَعْتقد أنّ احْتِضَـانَ «الحركة العِلْميّة - التّقنيـة» بصفتها أولويّةً في حياة المُجْتمعات، والحِرْصَ على اسْتِنْبَاتِ «الثّقافة العِلْميّة» في تُرْبَةِ «الثّقافة العربيّة» المُعَاصِرَة، يَحْملان تَهْميشاً أو انْتقاصاً من قَدْرِ «الآداب والعلوم الإنْسانيّة»؛ فهذه العلوم جُزْءٌ جوهريٌّ مـن «الفِكْرِ البشـريّ» وتفاعُلاتِه ومُتطلَّباتـه، وإيقاعُ الحيـاة المُعَاصِرَةِ يَفْرِضُ الاهْتمام بمُخْتلـف أنْواع العلوم والآداب والفنون واحْتِضَانِ الشِّقَّيْـن الرّئيسَيْن في النّشاط البشريّ: «العِلْمـيّ» و«الإنْسانيّ»، وما يَنْجُمُ عنهما مـن تفاعُلاتٍ ومُزاوَجَاتٍ وتلاقُحات. أمّا الحقيقةُ البدهيّـةُ فهـي أنّ «الآداب والعلوم الإنسانيّة» في حاجةٍ إلى بيئةٍ مُزْدَهِرَةٍ تَتّسِعُ فيها الآفاق، وتَتَهَيّـأُ الوسائِـل، وتَتَعَدَّدُ الفُرَص، وتَتَنَوَّعُ المُعْطيات، وتَتَوَفَّـرُ الإمْكانات؛ وكُلُّ هذا حَتْماً لن

يَتَحَقّقَ إلاّ بـ«حركة عِلْميّةٍ – تقنيّةٍ» تَدْفَعُ نحو الإنْتاجيّة، وتَسْتَكْشِفُ الفُرَص، وتَصْنَعُ أدواتِ «التّنْمية»، وتُنَوّعُ مصادرَ الدَّخْل، وتَفْتَحُ آفاق الاسْتثمار، وتُطوِّرُ أحْوال المُجْتمع.

إنّ اعْتماد «العلوم الإنْسانيّة» على مُعْطياتِ «العلوم الطَّبيعيّة» أمْرٌ لا مَفرّ منه؛ لأنّ «البِنْيَةَ التّحْتيّة» لـ«مُجْتمع المَعْرِفَة» هي «بِنْيَةٌ عِلْميّةٌ – تقنيّةٌ»[٧٨]؛ فالعَصْرُ هو عَصْرُ «العلوم والتّقْنية»، والهَيْمَنَةُ الفِكْريّة والاقْتصاديّة والثّقافيّة والعَسْكريّة والإعْلاميّة هي لمن يُنْتِجُ أدواتِه، ويُطَوِّرُ مُعْطياتِه، ويُوَظِّفُ مَواردَه؛ فـ«العِلْمُ والتّقنيةُ» – شِئْنا أمْ أبينا – يُشَكِّلان المُجْتمعات الحديثة، ويُعْتَبَران «النّواةَ الحقيقيّة» للتّغْيير والتّطْوير والإنْتاج، ويُشَيِّدان «البِنْيَةَ التّحْتيّة» لبيئةٍ مُنْتِجةٍ تَزْدَهرُ في أرْوِقَتِهَا «الآداب والمعارِف الإنْسانيّة»، وتُطَوِّرُ في رِحَابِهَا إبْداعاتِها المُتَنَوِّعَة. لا شَكّ في أنّه دون تلك «البِنْيَةِ التَّحْتِيّة» العِلْميّة والتّقنيّة، ودون ذلك التّأْسيس المَعْرفيّ المُعَاصِر، فإنّ كُلَّ المُنَظِّرين والفلاسفة وأصْحاب «التّخصُّصات الإنْسانيّة» سيسيرون على خُطَى شَاعِرِنَا الذي وجد أنّ رَضِيعَهُ إذا بَلَغَ الفِطَامَ (خَرَّتْ له الجبابرُ سَاجِدِينَا)، وهم سيُعانِقُون «الوَهْمَ» الذي جعل صاحبُنا يَعْتقد أنّ غيرنا (يَشْرَبُ كَدَراً وطِينَا). وأمّا ما هو أكْثر من ذلك فإنّ العَارِفين بحقائِق العَصْر يُدْرِكُون أن مُصْطلحات «العلوم الطّبيعيّة» وأدواتِها قد غَزَتْ كُلَّ جَوانِبِ «الفِكْرِ الإنْسانيّ» لتُعِيدَ قَوْلَبَةَ أفْكارِه وصِياغَةَ تصوُّراتِه وأساليبِه في النّقْدِ والتّحْليلِ بحيث أَصْبَحَتْ «المعارِفُ الإنْسانيّةُ» تَعْتَبِرُ نَفْسَهَا «عِلْميّةً» بقَدْرِ ما تَقْتَرِبُ من «المَنْهَجِ العِلْميّ – التَّجْريبيّ»، وبقَدْرِ ما تُوَظِّفُ مُصْطلحاتِه وأدواتِه في نِطَاقِ ما تَسْمَحُ به خصائِصُ تلك المعارِف وظُرُوفُهَا ومُتَغيِّراتُهَا ورَكَائِزُهَا.

من هذه المُنْطَلقات الوَاقِعيّة والعمليّة والفِكْريّة والمَنْهَجيّة كانتْ الدَّعْوَةُ لأولويّة «العلوم والتّقْنية» تَأْتِي – غَالِباً – من أصْحاب «التّخصُّصات الإنْسانيّة» أنفسهم؛ لإدْرَاكِهِمْ أنّ ازْدهار مُجْتمعاتِهم ومَصَالِحِهِمْ المُبَاشِرَةِ تَكْمُنُ في «بِيئَةٍ نَشِطَةٍ» ذات إنْتاجيّةٍ فَاعِلَةٍ قَادِرَةٍ على تَأْمينِ مُتطلَّباتِ الرّفاهية والحياة الرّغيدة، وتوليدِ مجالاتٍ فسيحةٍ وفُرَصٍ مُتَنَوِّعَةٍ في فِعْلٍ تراكُميٍّ مُتلاقِحٍ تَنْمُو مُتطلَّباتُه، وتَتّسِعُ احْتياجاتُه، وتَنْتَشِرُ عناصِرُه، ليجد أصْحابُ «التّخصُّصات الإنْسانيّة» في دَاخِلِهِ فُرَصَهَمْ الوظيفيّة والتّطْويريّة والإبْداعيّة.

أمّــا الوَجْهُ الآخَرُ للعُمْلَةِ الحياتيّةِ، فهو ضَـرورةُ «التَّكَامُلِ المَعْرفيّ – الإبْداعيّ» بين «العلوم الطَّبيعيّة» و«العلوم الإنْسانيّة»؛ فأبْعَادُ الحياة المُتَنَوِّعة وتَعْقيداتُ العَصْرِ المُتنامية تَفْرِضُ – بالضّرورة – أهميّة التّفاعُلِ الإيجابيّ والتَّضَافُرِ المَعْرفيّ بين «العلوم الطَّبيعيّة» و«المعـارِف الإنْسانيّـة» في رُؤىً مُعَاصِـرَةٍ تَفْهَمُ خصائِصَـ «الزَّمن» بحصافـةٍ، وتُعالِجُ إشْكاليّاته بحيويّةٍ، وتتصدَّى لتحدّياتِه بعُنْفوانٍ؛ ولذا تَكْتَظُّ «المُجْتمعاتُ المُتَقَدِّمَةُ» بجُهُودِ البَاحِثيـن والعَامِلين – في مجـالات العلوم الاجْتماعيّة والدِّراسـات اللغويّة وتخصُّصات التّربيـة والاقْتصـاد والإدارة والسّياسـة – وهم يسعون حثيثـاً لدِرَاسَةِ الطُّـرُقِ المُخْتلفةِ والمُلائِمَـةِ لإيجاد مَشْرُوعاتٍ وبَرَامِـجٍ وتخصُّصاتٍ تَدْمُجُ العلـوم الطّبيعيّة والتّطْبيقات التّقنيّـة والمفاهيـم الحياتيّـة المُعَاصِرَةَ ضمْـن تفاعُلاتِهـم الأكاديميّـة، واهْتماماتِهم البَحْثيّة، وفعّاليّاتِهم المُجْتمعيّة.

مـن نَافِلَةِ القـول إنّ العَلاقَةَ الحميمةَ بين «العلوم الطَّبيعيّـة» و«المعارِف الإنْسانيّة» تَنْبَثِـقُ – تِلْقائيّاً – مـن مُقَوِّمَاتِ الإنْسان العَقْليّة والوِجْدانيّة والحياتيّة، ولذا فإنّ المُجْتمع المُزْدَهِـرَ هو ذلـك الذي يَسْتطيـع أن يُحَلِّقَ – فـي تَـوَازُنٍ وتَنَاسُقٍ – بجَنَاحَيْـهِ، «العلوم الطَّبيعيّـة» و«المعارِف الإنْسانيّة»، اللذيـن يتشكَّلان من كُلِّ صُنُوفِ العلوم وأنْواعِ المَعْرفة واجْتهاداتِ البشر، ولن يَسْتطيع الجَنَاحَان أنْ يُحَلِّقَا في أجْوَاءِ الإبْداعِ والإنْجازِ إلاّ بتَوَافُرِ «مَصْدَرِ الطَّاقة» الذي يُحَرِّكُهُمَا ويَدْفَعُهُمَا، وهو – بالضّرورة – يَكْمُنُ في «العلوم الطَّبيعيّة» وتَطْبيقاتِها، وبدونه لن يَسْتطيع الجَنَاحَان أنْ يَخْفِقَا، وسيَبْقِيَان عِبْئاً على «جَسَدٍ له خُوارٌ» مُتَهَالِكٍ لا يَسْتطيعُ دَفْعاً ولا صَدّاً.

مـن نَافِلَةِ القول – أيضاً – أنْ لا بُدَّ لـ«الثَّقافـة التّنْمَويّة» أنْ تَنْتَمِيَ إلى ذلك الصِّنْفِ مـن «الثَّقافة» الـذي وَصَفَهُ عبـد الله عبد الدائـم[١٨] بأنّه: (ثقافـةٌ جَادّةٌ تُقَـدِّمُ لأبْناء المُجْتمع على مُخْتلف مُسْتوياتهم أجْوبةً وَاقِعيّةً عن مُشْكلاتِ حياتهم وأمْرَاضِ مُجْتمعِهم ومَطَالِـبِ مُسْتَقْبَلِهم)، وفـي الوَقْت نفْسه فإنّ هذه «الثّقافـةَ المُلْتَزِمَةَ بهُمُوم المُجْتمع» لا يُمْكِـنُ لهـا – بطبيعتِها وغاياتِها – أنْ تُهْمِلَ الجماليّـاتِ والمَشَاعِرَ والوِجْدان، وهي بذلك تَنْسَجِمُ مع ما طالب به عبد الله عبد الدائم بضَرورة أنْ لا يُهْمِل المُثقّفون: (ألْوان الثَّقافة

المُتَنَوِّعَة التي تُغَذِّي الإِحْسَاسَ بالجمال وتُغْنِي المَشَاعِرَ الإِنْسانيّة على اخْتلاف أنْواعِها، وتُفَتِّقُ الخيالَ الذي هو شَرْطٌ من شُرُوطِ الإبْدَاع). وأمّا في نهاية المطاف، كما يُؤَكِّدُ عبد الله عبد الدائم[١٨]، فإنّ: (في وَسْعِ «الثَّقافة الرَّفيعة»، أيّاً كان الموضوع الذي تُعَالِجُهُ أنْ تُقَدِّمَ زاداً فِكْريّاً وعَاطِفيّاً وجماليّاً هو بحقٍّ من أهمّ مَواقِد التَّغْيير الاجْتماعيّ، ومن أبْرز وسائِل الرّبْطِ بين تَفْتيح الإنْسان وتَفْتيح المُجْتمع). وأمّا الحقيقةُ التي لا مِرَاءَ فيها فهي أنّه عندما تَنْصَهِرُ المعارِفُ الإنْسانيّةُ والدِّراساتُ الأدبيّةُ والاهْتماماتُ الفنيّةُ والرُّؤى المُجْتمعيّةُ في بَوْتَقَةِ «الثَّقافة التّنْمَويّة»، فإنّها تَدْخُلُ عَصْرَهَا، وتُغَادِرُ أطْلالَهَا، وتقومُ بدَوْرِهَا الحيويّ في تَشْكيلِ الوِجْدَانِ وتَجْييشِ العَاطِفَةِ وتَقْويم الفِكْرِ للتّعامُلِ الفَعَّالِ مع قضايا المُجْتمع وتحدّياتِه في تفاعُلاتٍ وإبْداعاتٍ تتلاقحُ مع التَّغَيُّرَاتِ المُتَسَارِعَة، وتُحَفِّزُ على «العمل الجماعيّ» في اتِّجَاهِ «سَهْمِ الزّمن التّنْمَويّ» فتَحْمِلُ - في حَرَاكِهَا - رَائِحَةَ زَمَنِهَا، وضَوْضَاءَ حضارتِها، وعَرَقَ عَصْرِهَا.

لا شكّ في أنّ أبْرز ما يُمَيِّزُ «الثَّقافة التّنْمَويّة» هو ما وَصَفَهُ زكي نجيب محمود بـ«الفيروس العَقْليّ» الذي يَتَجَلّى في تلك: (الرَّغْبَة الحَارِقَة عند الإنْسان في أنْ يَعْمل، وأنْ يظلّ عملُه يَزْدَادُ، فتَزْدَادُ ثِمَارُهُ كَثْرَةً في الكَمِّ وتَجْويداً في الكَيْف: هي شَرْطُ التَّقَدُّمِ الحضاريّ عند الفَرْدِ وعند الجماعة)[٢٠]؛ وبهذا تَتَمَكَّنُ «الثَّقافةُ التّنْمَويّةُ» من «الاسْتِجَابَةِ الفَاعِلَةِ للتحدّياتِ المُعَاصِرَةِ في «المُجْتمعات العربيّة»، وتكونُ قَادِرَةً على اسْتِفْزَازِ ذلك القَلَقِ المُتَجَدِّدِ والتَّوَتُّرِ الحيويّ الدَّافِعَيْن نحو تَغْييرِ الوَاقِع، وتَطْويرِ الإمْكانات، والقَضَاءِ على عناصِرِ التَّخَلُّفِ ومَكَامِنِ الضّعْف.

وهكذا نجدُ أنّ «الثَّقافة التّنْمَويّة» لا تُعْنَى فقط بالماديّات والتّقْنيات والعلوم الحديثة والتّأْصيل العَقْلانيّ، وهي لا تَعْنِي بحالٍ رؤيةً مُنْتَقِصَةً لـ«المعارِف الإنْسانيّة»، ولا تُكَرِّسُ ازْدِرَاءً للآداب والأنْشطة الفنيّة، وهي لا تُلْغِي الحِسَّ الجماليّ والعُنْفُوانَ الوِجْدَانيّ؛ فكُلُّ ذاك أمْرٌ مُسْتحيلٌ ومُنَاقِضٌ للفِطْرَةِ البشريّة؛ فالأدبُ والاهْتماماتُ الإنْسانيّةُ والحماسُ العَاطِفيُّ والانْطلاقاتُ الوِجْدَانيّةُ بأشْكَالِهَا المُتنوِّعةِ وامْتداداتِها الخِصْبَة؛ كُلُّها جُزْءٌ جوهريٌّ من تَجْرِبَةِ الإنْسان أينما كان، وهي في «العَقْلِ العربيِّ» أشَدُّ الْتِصَاقاً وأقْوى مَكَانَةً.

إنّ «الثَّقافــة التَّنْمَويّة» هي تلـك الثّقافةُ القَادِرَةُ على أنْ تَخْـرُجَ من «المَأْزِقِ القديم - الجديـد» بمُعَادَلَةٍ عَادِلَةٍ لـ«الثَّقافة العربيّة» تَجْمَـعُ - في تَنَاسُقٍ وتَكَامُلٍ - بين «جَنَاحَيْ المَعْرِفَـة» فـي أُطُرِهَـا الإنْسانيّـة والعِلْميّـة، وتُعْطِـي كُلَّ ذي حَـقٍّ حَقَّه، وتَفْسَـحُ المجال لـ«الحركـة العِلْميّة» لكي تَتَغَلْغَلَ في «نسيج المُجْتمع»، وتُوَطِّـدَ دَعَائِمَهَا في «الفِكْرِ العربيّ المُعَاصِـر»، وتُصْبِحَ غِذَاءً فِكْريّاً ورُوحيّاً ومَعْرفيّاً ومَعْلُوماتيّـاً يَسْعَى لإيجاد «التَّوَازُن» في النَّهْـجِ الحياتيّ للمُواطِن، ويَهْتَـمُّ بتَطْويرِ تفاعُلاتِـه المُتَنَوِّعَة، ويُكَثِّـفُ الاهْتمامَ بطبيعة العَصْـرِ وتحدّياتِه، ويُرَسِّخُ ثَوَابِـتَ الأُمّة وقِيَمَهَا عبْر صِياغَةٍ وَاعِيَـةٍ تتفاعلُ مع «الزَّمان» و«المكان» وعُقُولِ النّاسِ وهُمُومِهِمْ.

وأمّـا حيـن نَتَّفِقُ مع مالك بن نبيّ بأنّ: («الثَّقافة» في صُورتِهَا الحَيّة هي وَحْدَةٌ ذات أجْزاءٍ مُتَمَاسِكَةٍ ومُتَرَابِطَةٍ بروابط دَاخِليّةٍ تُحَدِّدُهَا عَبْقريّةُ الشّعْبِ الذي وضعها مُطَابِقَةً لأَخْلاقِه وأذْواقِه وتاريخه)[٢]، فإنّ هذا يَجْعَلُ مُصْطَلَحَ «الثّقافة التّنْمَويّة» مُصْطلَحاً مُتَعَدِّدَ المُكَوِّنَاتِ ومُتَدَاخِلَ السِّمَاتِ في تَنَاغُمٍ وانْسِجَام، لتكون «الثَّقافة التّنْمَويّة» - بالضّرورة - ثقافـةً مُتَوَازِنَةً في مُحْتواها، وقَادِرَةً على توظيفِ مُكَوِّنَاتِهَا في تَحْريكِ الوَاقِعِ الاجْتماعيّ، وتَطْويـرِ الرُّؤى العامّة للارْتِقَاءِ بالمَسْؤوليـة والفِكْرِ والتّفاعُلِ إلى مُسْتوى الإنْتاج والإبْداع والتَّوافُقِ مع «رُوحِ العَصْر» وتحدّياتِه، وتَأْسيسِ الذِّهْنيّة القَادِرَةِ على التّقصّي الموضوعيّ للوَاقِـعِ والمُشْـكلات، والسَّعي الحثيـث لإيجادِ الصِّيـغ العِلْميّة والمُواصَفَـاتِ المُنْضَبِطَةِ والإجْراءاتِ العمليّة للتّعامُلِ معها.

لقـد آن الأوان لكـي يكـون «الفِكْـرُ الأدبيُّ» فَاعِـلاً على السّاحـة في تَنْميـة العُقُولِ والمـدارِك، وذلك ابْتِـدَاءً من تَطْويـرِ أدب «الخيال العِلْمـيّ» وتَأْصيلِه فـي «بِنْيَةِ الثَّقافة العربيّة»، وهو «الأدبُ» الذي يتفاعلُ مع مُعْطيات العلوم، ويَسْتَشْرِفُ المُسْتَقْبَل، ويَسْتَقْطِبُ خيال النَّاشِئَةِ ويُوَظِّفُ حماسهم؛ وانْتِهَاءً باسْتِنْهَاضِ الهِمَمِ لتَحْليلِ المُشْكلاتِ المُعَاصِرَةِ بطُـرُقٍ عَقْلانيّـةٍ وتَفْكيرٍ عِلْمـيٍّ، ولفَرْزِ عناصِـر «الثَّقافة» فَـرْزاً دقيقاً يَسْتَشْعِـرُ حقائِقَ «الزَّمـان» وتَبِعَاتِ «المـكان»، ويَحْتَرِمُ القِيَمَ الحقيقيّةَ الثّابِتَةَ للأُمّـة وما تَحْمِلُهُ من أمانةٍ

ورِسالةٍ وتطلّعاتٍ، فيَتَّجِهُ «الأدب»، وفْق مقولة زكي نجيب محمود،: (نحو الحَقْلِ والمَصْنَعِ والشَّارِعِ، إنّه أدبٌ فيه رَائِحَةُ العَرَقِ وضَوْضَاءُ العمل)[٢٠].

٥-٤-٤- أ) نحو إرادةٍ مُجْتمعيّة:

نَخْلُصُ ممّا سَبَقَ إلى أنّ «الثَّقافة التّنْمَويّة» هي تلك «الثّقافةُ» القَادِرَةُ على توفير «البَوْتَقَةِ الحيويّة» التي تتفاعلُ فيها مُخْتلف الأنْشطة الإنْسانيّة والمَعْرفيّة، وتتواصلُ شَتّى عناصِر الآداب والعلوم والتّقْنيات – في تَعَاضُدٍ وتَكامُلٍ وتَوازُنٍ – لإنْشاءِ حياةٍ ثقافيّةٍ مُفْعَمَةٍ بالحيويّة والدّيناميكيّة لخِدْمَةِ الإنْسان في مُخْتلف مَنَاشِطِه الفِكْريّة ومُتطلّباته الحياتيّة ودَوَافِعِهِ الرُّوحيّة ونَوَازِعِهِ الوِجْدانيّة، ولا يُمْكِنُ أنْ يَتَحَقَّقَ ذلك دون توليد «إرادةٍ مُجْتمعيّةٍ» تَهْتَمُّ بالإعْمار، وتتفاعلُ مع «مُعْطيات العَصْر» بإيجابيّةٍ، فكما يقولُ زكي نجيب محمود فإنّ: (التَّغْيير الطّبيعيّ الوحيد هو ذلك الذي يَصْدُرُ عن اقْتناعٍ أو إيمانٍ حقيقيٍّ عند المُتَغيِّر، أو بِعبارةٍ أُخْرى، هو ذلك الذي يجيء عن «إرادة» الشّخْصِ أو الشَّعْبِ الذي يَتَغَيَّر)[٢٠].

وهكذا نجدُ أنّ المُتَطلَّبَ الرّئيسَ للتّغلُّبِ على «إشْكَاليّة التّنْمية»، هو تَأْمينُ تلك «الإرادة المُجْتمعيّة» التي تَسْعَى جَاهِدَةً نحو الأفْضل لتُحَقِّقَ «عمليّة التَّحْديث» التي وَصَفَهَا عمر الخطيب بأنّها: (العمليّة التي يَسْتطيعُ الإنْسان من خلالها السَّيْطَرَةَ المُتزايدة على بيئته)[٧٦]. وفي ذلك السِّياق تُفْلِحُ «الثَّقافةُ التّنْمَويّةُ» في توظيفِ القُدْرَاتِ والمَوَارِدِ والمَهَارَاتِ على مُخْتلف الأصْعِدَة، مُسْتَنْهِضَةً جُهُود كُلِّ الشّرائح الاجْتماعيّة، للتّعامُلِ مع المُشْكلاتِ والقضايا المُعَاصِرَة بجِدِّيّةٍ عمليّةٍ ونزاهةٍ عِلْميّةٍ، فتَتَحَوَّلُ كُلُّ تلك الدِّراسات التي تَتَرَاكمُ في أرشيفات المؤتمرات والنّدوات، والتّوصيات التي تَتَمَخَّضُ عن كُلِّ تلك اللجان والاجْتماعات، من مُجَرَّدِ تَنْظيرٍ وحالات تأمُّلٍ، إلى وَاقِعٍ يَتَحَرَّكُ على الأرْض، ويُغَيِّرُ مَعَالِمَ الحياة، ويُطَوِّرُ حياة الأفْرَاد، ويَتَّجِهُ نحو المُسْتَقْبَلِ بتفاؤلٍ وثِقَة.

من أهمّ مَعَالِمِ الطّريق إلى «التّنْمية»، أو «النَّهْضَة» – سَمِّهَا ما شِئْتَ –، هو الإدْرَاكُ العميقُ بالمعايير المُرْتَبِطَةِ بـ«التّنْمية الشَّامِلة» التي وَصَفَهَا علي خليفة الكواري بأنّها:

(تَبْدَأُ عندما تَتَبَلْـوَرُ «إرادةٌ مُجْتمعيّةٌ للتّنْمية»، وتَتَمَثَّلُ هذه «الإرادة المُجْتمعيّة» في وجود «إرادةٍ اجْتماعيّةٍ» قَادِرَةٍ على تَعْبِئَةِ طَلَبٍ مُجْتمعيٍّ فعّالٍ يُؤَدِّي إلى إيجاد «الإرادة السِّياسيّة» المُلْتَزِمَةِ بـ«عمليّة التّنْمية»)[11]. أمّا أبْرز ما يَنْبَغي التَّنَبُّهُ له – عند الحديث عن «الثَّقافة التّنْمَويّة» – فهو الإدْرَاكُ بأنّ الأمور لا تَتَحقّقُ بمُجَرَّدِ النَّوَايَا، ولا تَأْتِي جُمْلَةً وَاحِدَةً، ولكنّها «عمليَّـاتٌ تَرَاكُمِيّـةٌ» يتلاقحُ بعْضُهـا مع بعْضٍ، وهي تَنْمُـو في أحْشَـاءِ التَّخْطيط العِلْميّ والتّقْويـم السّليم والآليّات العمليّة، فوفْق طَرْحِ زكي نجيب محمود: (المُسْتَقْبَلُ الذي نُريدُ أنْ نُبْدِعَـهُ خَلْقاً جديداً، بتَفْكيرٍ عِلْميٍّ سليم، ليس شيئاً يَأْتِي بـ«الجُمْلَةِ» ولكنّه تَفْصيلاتٌ تَتَحَقّـقُ بـ«القَطَّاعِي»، برَغْمِ أنّ هذه الأجْزَاءَ المُتَفَرِّقَةَ تَتَكَامَلُ آخِرَ الأَمْرِ بعْضُها مع بعْضٍ في كِيانٍ عُضْويٍّ وَاحِد)[20].

إذاً «الثَّقافةُ التّنْمَويّةُ» هي تلك التي تَسْتطيعُ أنْ تَدْفَعَ بالأَفْرَادِ نحْو مفاهيم الإنْتاجيّة والمُشَارَكَة، وتُعَالِجُ – بحِكْمَةٍ وعزيمةٍ – ذلك الوَهَنَ الكَامِنَ في أعْمَاقِ مؤسَّسات المُجْتمع الـذي جعلها غير قَادِرَةٍ على التّصدِّي للمُشْـكلات الحياتيّة واليوميّة؛ و«الثَّقافةُ التَّنْمَويّةُ» هي تلك التي تَقْضِي على نَزْعَاتِ الاتِّكَاليّةِ والاسْتِهْلاكِ ولَوْمِ الآخَرين ونظريّاتِ المُؤامرةِ ونَرْجسيّـةِ التّفْكيـرِ التي أَصْبَحَـتْ مَعَالِـمَ مُمَيِّزَةً لـ«الثَّقافـة السَّائِدَة» فـي «المُجْتمعات العربيّة»؛ و«الثَّقافةُ التّنْمَويّةُ» – أيضاً – هي تلك التي تُصَحِّحُ عمليّاتِ التّفاعُلِ ومُنْطلقاتِ التّعامُـلِ مع «الحركة العِلْميّة – التّقنيّة»، فلا تكـون كُلُّ مُعْطياتِ هذه الحركة مُجَرَّدَ آلاتٍ وأجْهِـزَةٍ وأدواتٍ ووسائِـل، بَلْ هي – كما أَكَّدْنَـا في أكْثر من مقام – فِكْـرٌ وثقافةٌ وانْتِمَاءٌ ومُمَارَسَـاتٌ تُقَلِّصُ من سَلْبيّاتِ مـا وَصَفَهَا محمد عابد الجابـرِيّ[59] بأنّها: («الظَّاهِرة العَامَّة» التي تُلَخِّصُ مُعْطياتِ التّخَلُّفِ في البلدان «النَّامية»)، وهي: (انْفِصَالُ «العِلْمِ» عن «الثّقافة»: عَدَمَ انْدِمَاجِهِ في حياة المُجْتمع الماديّة والفِكْريّة والرُّوحيّة).

٥-٤-٤- ب) نحو رُؤيةٍ عمليّة:

إذاً قضيّـةُ الأُمّـة اليوم هي قضيّـةُ «ثقافـةٍ» ذات رُؤىً تَسْتَشْـرِفُ المُسْتَقْبَلَ وتُدْرِكُ تحدِّياتِـه، وتَتَوازَنُ مُكَوِّنَاتُهَـا لتَحْتَضِنَ الثّوابِتَ والقِيَمَ الرّاسِخَة، وتَرْعَـى التَّأَلُّقَ والإبْدَاعَ

في المجالات الإنْسانيّة والأدبيّة، وتُراهِنَ على جَعْلِ «ثقافة العلوم والتّقْنية» عُنْصُراً مُؤثِّراً ورياديّاً في التّفاعُلاتِ الفِكْريّة السّائِدَة، وكما يقولُ أنيس صايغ: (تَبْقَى الرِّسَالَةُ الثّقافيّةُ عَرْجَاءَ إذا لم يَتَحَلّ دُعَاتُهَا بالأخْلاقيّات إلى جَانِبِ مضامين المَعْرِفَة)[١٨].

ما سَبَقَ – من تَحْليلٍ مَنْهَجيٍّ – يقودُ – بالضّرورة – إلى مُصْطلح «الثَّقافة التّنْمَويّة» التــي يُمْكِـنُ تَعْريفُهَا بأنّها: (ثقافـةٌ تَحْمِـلُ «المُسْتَقْبَلَ» في عِظَامِهَـا ونُخَاعِهَا وخلاياها وأنْسِجَتِهَـا، فهـي ثقافـةٌ مُشَبَّعَـةٌ بنَبْضِ العَصْـر، ومُتَوَازِنَةٌ فـي مُحْتواهـا، ومُتَكَامِلَةٌ في مُقَوِّمَاتِهَـا، ومُتَفَاعِلَةٌ مـع الأطْيافِ الفِكْريّـة المُهَيْمِنَة، ومُتَنَاغِمَةٌ مع طبيعـةِ التَّحَدّيات، لتُصْبِـحَ «الوَسَـطَ» المُناسِبَ القَادِرَ على مُوَاجَهَـةِ «إشْكَاليّةِ التّنْميـة»، وإحدَاثِ «النَّقْلَةِ النَّوْعيّة» اللّازِمَةِ في تَفْكيرِ الأفْرَادِ وتفاعُلاتِ الجماعات).

ولكـن يُمْكِنُنَـا السَّيْرُ على الطَّريـق الإنْشائيّ – السَّرْديّ ذاته الـذي تَسْلُكُهُ «الثَّقافة العربيّـة» لتَبْقَى الكلماتُ حِبْراً على وَرَقٍ، وتَبْقَى الصُّورةُ عامّةً وهُلاميّةً وفَضْفَاضَةً بمَنْأىً عـن التَّفْصيلِ والتّخْطيـطِ والتَّوجيه، وهذا هو ما اسْتَنْكَرَهُ زكي نجيب محمود وهو يَعْرِضُ للظّاهِـرَةِ الوَصْفِيَّةِ في عُموميَّاتِهَا، والهَيْمَنَةِ اللفْظيّةِ فـي تَجَلّيَاتِهَا، فيقول: (لو اسْتطعنا إبْـراز الفَـوَارِقِ المُمَيِّزَةِ للطُّفُولَةِ الحَقّ مـن الرُّجُولَةِ الحَقّ لكان لنا بذلـك نفْسه مِقْياسٌ نُفَـرِّقُ به بين الرُّؤيـةِ السَّاذَجَـةِ بفِطْرَتِهَا، والرُّؤيـةِ النَّاضِجَةِ بعد تَحَضُّـرٍ وتَهْذيبٍ، فما هـي أوضـح تلك الفَوَارِق ظُهُـوراً؟. أوضحُها – في ظَنّي – هو القُـدْرَةُ على رُؤيةِ الشّيء أو المَوَاقِـف بعد تَحَضُّرٍ وتَهْذيبٍ بتفْصيلاتِها التي يتشابـكُ بعْضُها مع بعْضٍ كأنّها الخُيُوطُ فـي رُقْعَةِ من النّسيج، فرُؤيةُ الشّيء أو المَوقِف بتَفْصيلاتِه هي الخُطْوَةُ الضّرورية الأولى التي يُمْكِنُ أنْ تَتْبَعَهَا خُطْوَةُ القِياسات الكَميّة والضَّبْطِ العَدَديّ، وهذه بدَوْرِهَا هي طريقُنا الوحيدُ إلى صِياغَةِ مَعْرِفتِنا بذلك الشّيء أو المَوْقِف صِياغَةً عِلْميّةً، أمّا الرُّؤيةُ التي تَقِفُ من الأشْياء عند أسْطُحِهَا، لنُدْرِكَهَا في جُمْلَتِهَا لا بتَفْصيلاتِها الدَّاخِلَةِ في تَقْويم كيانِها، فهـي كالشَّارِعِ المَسْدُودِ من أحد طَرَفَيْهِ فلا يَنْفُذُ منه السَّائِرُ إلى بعيدٍ، ولا بُدَّ له أنْ يَرْتَدَّ إلى نفْسه حيث كان)[٢٠]. وهكذا نجدُ – بكُلِّ حَيْرَةٍ وأسىً – أنّ طَرْحَ زكي نجيب محمود في زمنـه قبل أكْثر من نِصْف قَرْنٍ مـا زال قَائِماً في زمننا، ويَبْقَى السُّؤال: (ما المَخْرَجُ من

نَفَـق «الرُّؤيةِ السَّاذَجَةِ» - بعُمُوميّاتِهَا وسَطْحِيّتِهَـا وإنْشَائيّاتِهَا - إلى «رُؤيةٍ نَاضِجَةٍ» تَدِبُّ على الأرْض دبيباً لتُشَخِّصَ نِقَاطَ الضَّعْف، وتُعَالِجَ مَكَامِنَ الخَلَل؟).

٥-٤-٥) على طريق «إسْتراتيجيّة الثّقافة التّنْمَويّة»:

ممّـا سَبَقَ يَتَّضِـحُ أنّ الحاجة مُتنامِيةٌ لوَضْـعِ أُسُس «إسْتراتيجيّـةٍ ثقافيّةٍ - تَنْمَويّةٍ» تَحْمِـلُ «الرُّؤية التّفْصيليّة النَّاضِجَة» لحركة «الفِكْرِ البشريّ المُعَاصِر»، وتَسْتَوْعِبُ حقيقة التّطوُّراتِ المُذْهِلَةِ في «الأَلْفيّة الثّالثة»؛ وكُلُّ هذا يَفْرِضُ - ابْتِدَاءً - «عموداً فِقْريّاً» تَتَمَحْوَرُ حوله «الثَّقافةُ التّنْمَويّةُ» لكي تَنْتَفِضَ - بحيويّةٍ - مُحْدِثةً تلك «النَّقْلَة النَّوْعيّة» على مُخْتلف الأصْعِـدَة، ودَافِعَةً للتّغيُّراتِ الجِذْريّةِ في القُـدْرَاتِ والمهاراتِ والمَوارِد، ولن يطول بَحْثُنَا بمُوجِـبِ طُرُوحَاتِنَا في هذا الكِتاب - في سِيَـاقِ «الثّقافة» و«التّنْمية» و«شُرُوطِ المُسْتَقْبَل» و«رُوحِ العَصْـر» - لنَكْتَشِفَ أنّ ذلك «العمود الفِقْريّ» هو «مَنْظُومَةُ العلوم والتّقنية».

وهكـذا نجدُ أنّنـا نَحْتَاجُ إلى «لُغَةٍ» تتفاعلُ مع ثقافتِنا لتُرَسِّخَ مفاهيمَ «الفِكْرِ العِلْميّ» وشُـرُوطَ «الحركـة التّقنيّة» ومُقْتضيـاتِ «التّنْمية الحديثـة»، وأَزْعُمُ هنا أنّ هـذه «اللّغَةَ» الحَاسِمَـةَ هي «الثَّقافةُ العِلْميّـةُ» ولا شيءَ سِواها؛ فهي - بمُحْتواهـا ومُقَوِّمَاتِهَا ووسائِلِهَا - القَادِرَةُ على توجيه طاقـات الأفْرَاد، وصِياغَةِ توجُّهاتِهم، وزَرْعِ الحماس والإنْتاجيّة في مُمَارَسَاتِهِـم، وعَقْلَنَةِ تَفْكيرِهـم، وتَرْسيخِ «الإرادة المُجْتمعيّة»، ووَضْـعِ «الرُّؤية العمليّة»، والتّعامُـلِ مع العَصْـرِ بمُسْتَجِدَّاتِهِ وتحدِّياتِـهِ وضَوابِطِه؛ وهي الكفيلةُ بتَحْقيـقِ مَجْمُوعَةٍ مِـن المُقَوِّمَـاتِ يَطْرَحُهَا علي علي حبيش ومنْها: (أنْ يكون للعِلْـمِ والتِّكْنولوجيا مَكَانَةٌ في المُجْتمع وتَأْييدٌ شَعْبيٌّ من الجماهير)[٣٩].

وممّـا يَدْعَمُ تلك الرُّؤيـة أنّ أهمّ أهْـداف «الثّقافة التّنْمَويّة» هـو التَّخَلُّصُ من تلك المُنَاكَفَـاتِ الفِكْريّـة، والزّوائِـدِ الثّقافيّة، والشُّحُـومِ اللفْظيّة، التي كانـتْ - وما زالتْ - تُهَيْمِـنُ على «المَشْهَدِ الثَّقافيّ العربـيّ»، وأدَّتْ بطبيعتِها إلى إبْعَادِ «العِلْم» عن التّفاعُلات الفِكْريّة والثّقافيّة، وإهْمَالِ دَوْرِهِ في بِنَاءِ العَقْلِ وتَرْقيةِ المُمَارَسَات، وهذا ما يُؤَكِّدُهُ محمد

عابـد الجابـريّ[١] عندما يقولُ إنّ «العِلْمَ» لم يكـنْ له: (دَوْرٌ يُذْكَرُ فـي المعارِك الفِكْريّة والأيديولوجيّة وبالتّالي لم يُساهِمْ في تَغْذِيَةِ «العَقْلِ العربيّ» ولا في تَجْدِيدِ قَوَالِبِهِ وفَحْصِ قَبْليَّاتِـهِ ومُسْبَقَاتِـه، فبَقِيَ «الزَّمَانُ الثَّقافيُّ العربيُّ» هُوَ هُوَ، بَقِـيَ مُمْتَدّاً على بِسَاطٍ وَاحِدٍ مـن نهاية عَصْرِ التَّدْوين إلـى بداية عَصْرٍ ما بعْد ابن خلدون إلى قِيَـام النّهْضَةِ العربيّة الحديثة...إلـى أيامِنا هـذه). إنّها - كما يراها محمد عابد الجابـريّ[١] - (أَزْمَةُ الفِكْرِ العربـيّ المُعَاصِـر)، وهـي (أَزْمَـةٌ بُنْيويّـةٌ: أَزْمَةُ عَقْـل)، ويَصِفُهَـا بأنّها: (أَزْمَـةُ ثقافةٍ ارْتَبَطَـتْ منذ بدايـة تَشَكُّلِهَا بالسِّياسة، فكانتْ «السِّياسةُ» فيهـا، لا «العِلْمُ»، هي العُنْصُرُ المُحَـرِّكُ ممّا جعلهـا تَخْضَعُ باسْتِمْـرَارٍ لتَقَلُّبَاتِ «السِّياسـة» وتَتَأَثَّرُ بنجاحِهـا وإخْفاقِها وتَنْحَطُّ بانْحطاطِها).

خُلاصَـةُ القَول، إنّ أيَّ «اسْتراتيجيّةٍ للثَّقافة» تَطْمَحُ إلى تَغْيِيرِ الوَاقِعِ العربيّ، وإثْرَاءِ مُعْطياتِـه، وتَطْويرِ فِكْرِه، تَحْتَاجُ - أوّل ما تَحْتاج - إلى مُعْطياتِ «الحركة العِلْميّة التقنيّة» بثقافتِهـا وفِكْرِهَا وفلْسفتِها وقِيَمِهَـا ومُقْتضياتِها السُّلُوكيّة وضَوابِطِهَـا المَعْرفيّة، ويُؤَكِّدُ محمـد عابد الجابريّ[٥٩] هـذا الحال بقوله: (إنّ أَبْلَـغَ تَعْريفٍ لـ«التّنْميـة» قَرَأْتُهُ وشَدَّني إليـه هو ذلك الذي يُعَرِّفُهَا بأنّهـا «العِلْمُ حين يُصْبِحُ ثقافة»)، ويُواصِلُ ليقول: (إذا كانتْ «التّنْميةُ» هي «العِلْمُ حين يُصْبِحُ ثقافة»، فإنّ «التَّخَلُّفَ» سيكون هو «العِلْمُ حين يَنْفَصِلُ عن الثَّقافة» أو هو «الثَّقافةُ حين لا يُؤَسِّسُهَا العِلْم»)، ويَخْلُصُ الجابريّ إلى القول: (إنّه ما لم نَعْمَلْ على دَمْجِ «العِلْمِ» في ثقافتِنا ورَبْطِ ثقافتِنا بـ«العِلْمِ» فإنّنا لن نَخْطُوَ الخُطْوَةَ الحقيقيّةَ الأولى نحو «التّنْمية»). وهكذا يَتَجَلَّى الدَّوْرُ الرّياديُّ لـ «الثَّقافة العِلْميّة»، وضَرورَةُ أنْ تكون هـذه «الثَّقافة»، بكُلِّ مضامينِها ومُحَدِّدَاتِهَـا، مِحْوراً رئيساً في تَرْكيبةِ «الثَّقافة التّنْمَويّة»، ورُكْنـاً أساساً لإسْتراتيجيّتِها. ومَرّةً أُخْرَى تَبْرُزُ، عند الحديث عن «إسْتراتيجيّة الثَّقافة»، أهميّـةُ «مَفْهُومِ توجيه الثَّقافة»، الذي تَطَرَّقْنَا إليه في الفَصْلِ الثّاني، ممّا يَفْرِضُ ضرورة تَحْديدِ سُلَّمِ الأولويّات، وتَشْخيصِ نَوْعِ «الاسْتِجَابَةِ» لطبيعة «التَّحَدِّيات» المُعَاصِرَة.

٥-٤-٦) البَحْثُ عن «المُثقّف التّنْمَويّ»:

تَدْفَعُ الأحْـدَاثُ المُعَاصِرَةُ والتّطَوُّرَاتُ العَوْلَمِيّةُ - بشِدَّةٍ - في اتّجَاهِ تَصْنيفٍ جديدٍ لـ«المُثقّـف» أَطْلَقْنَا عليه اسْم «المُثقّف التّنْمَويّ» (انْظر: الفَصْل الثّاني)، وكما هو الحال مـع «الثّقافـة العربيّة» التي تَبْحَثُ دوماً عن رُمُوزٍ رياديّـةٍ، وأدْوارٍ مِثاليّةٍ، وقِياداتٍ مُلْهَمَةٍ، فإنّ البَحْثَ جَارٍ عن «المُثقّفِ» الذي يُؤدّي دَوْراً طليعيّاً في دَفْعِ المُجْتمع على طريق تَحْقيقِ كُلِّ التّطلُّعات السّياسيّة والفِكْريّة والإبْداعيّة والنّهْضَويّة. وفي ضوء ذلك «الهَوَسِ العربيّ» بالزّعَامَـاتِ المُلْهَمَـةِ والقِياداتِ التّاريخيّـةِ التي جَرَّتْ الأُمّةَ إلى كَـوارِث، فإنّ التّأمُّلَ في خصائِصِ «المُثقّفِ» الـلازِمِ لإحْدَاثِ «النّقْلَـة النّوْعيّة» أَمْرٌ جديـرٌ بالاهْتمام، ولكنّنا لا نَتَحَدَّثُ هنا عن «المُثقّفِ الأوْحَد» أو «المُفكّرِ الذي لا يُشَقُّ له غُبَار»، بَلْ عن «ثقافةٍ» تَشِيعُ فـي المُجْتمع لتُحَفِّـزَ الطّاقات، وتُوَجِّهَ الإرادات، وتَسْتَوْعِـبَ التّحدّيات، لتتحوّلَ إلى «فِكْرٍ مُجْتمعـيٍّ» يتفاعلُ بإيجابيّـةٍ مع عَصْرِه، ويَصْنَعُ بثقةٍ مُسْتَقْبَـلَ أجْياله، ويَرْفُضُ - أوّل ما يَرْفُض - ذلك «العَبَثَ التّاريخيّ» في حياة الأُمّة وهي تَتَنَفَّسُ أوهام «ثقافة الفَرْدِ الأوْحَد»!.

إنّ «الإشْكَاليّةَ» تَكْمُنُ في أنّ «المُثقّفَ العربيّ» فَشِلَ عبْر مراحِل مُتَعَدِّدَةٍ، وعلى مدى قَرْنَيْـن، أنْ يُحَقِّـقَ شيئاً يُذْكَرُ على طريـق «التّطلُّعات النّهْضَويّة»؛ وأمّـا طبيعة «التَّحَدّي» وجوهـر «الأزْمَـةِ» فيَكْمُنـان - دون جِدَالٍ - في ذلـك الحُلْمِ الـذي أَسْمَـاهُ مُثقّفو القَرْن التّاسـع عشر «النّهْضَة»، وأَطْلَقَ عليه المُثقّفون المُعاصِـرون اسْم «التّنْمية»، وعند التّأمُّلِ الدّقيق لتجارِب أولئك وهؤلاء نَسْتطيعُ أنْ نُشَخِّصَ سبب «الكُسَاحِ الثّقافيّ» في الحَالَتَيْن؛ فـ«الثّقافة» بَقِيَـتْ بِمَنْأَىً عن «بَوْتَقَةِ التّنْمية» بضَروراتِهَـا الفِكْريّة والثّقافيّة والاجْتماعيّة والإجْرائيّـة، وأمّا خِطَابُ «المُثقّفِ العربيّ» فقد كان - وما يزال - خِطاباً مَهْوُوساً بذاتِه، ومُغْرِقـاً فـي نَرْجسيّتِه، ومُهْتَرِئـاً في تَكْوينِـه، ومُسْتَنْسِخَـاً لمُعْطياتِه، ومُنْبهِـرَاً بالآخَر، أو مُنْغَلِقـاً علـى ذاتِه، ممّا حدا بمحمـد عابد الجابريّ إلى أنْ يُقَـرِّر: (إنّ وَاقِعَنَا الثّقافيّ الرّاهِنَ لا يُبَشِّرُ بأيِّ مَشْرُوعٍ مُسْتَقْبَلِيّ)[1].

وهكـذا فـي خِضَـمّ الجَلَبَةِ حـول تَصْنيفـات «المُثقّف العربـيّ»، ومنهـا مُصْطَلَحَا «المُثقّـفُ التّنْويـريُّ» و«المُثقّـفُ الحَداثـيُّ» بدَلالاتِهِمَـا المَغْمُوسَـةِ في «الفِكْـرِ الغَرْبيّ» وتجارِبـه، تَـمَّ إغْفَالُ التّصْنيف الأهمّ، وهو «المُثقَّفُ التّنْمَويُّ»، ممّـا يُوجِبُ ضَرورَةَ بَلْوَرَةِ «دَوْرٍ تَنْمَـويٍّ» لـ«المُثقَّفِ» يَنْأَى به عـن التّنْظيرِ الغَائِم، والشِّعَـاراتِ الهَائِمَة، والانْفِعالاتِ المُلْتَهِبَة، والجَدَلِ العَبَثيّ، والتّقوقُع تارةً في أُطُرٍ فِكْريّةٍ تَقْليديّةٍ، وتارةً أُخْرَى في الإصْرَارِ علـى اسْتِمَاتَةٍ سَاذَجَةٍ لفَرْضِـ «حَدَاثَةٍ كلاميّةٍ»، أو «ليبراليّةٍ مَأْزُومَـةٍ»، لا يَفْقَهُ أيٌّ منْهما أبْجديّاتِ «التَّنْمية»، ويتصادمُ مع قِيَمِ المُجْتمع وتفاعُلاته.

إنّ هـذا «التَّصْنيـفَ الثَّقافـيَّ» الحَاسِـمَ لـ«الحَـرَاكِ التّنْمَويّ»، المُتَمَثِّـلَ بمُصْطلح «المُثقّفِ التّنْمَويّ» يَفْرِضُ ضرورةَ «تَأْهيلِ المُثقّفِ تَنْمَويّاً» ليكون صَاحِبَ «مَشْرُوعٍ تَنْمَويٍّ»، ورُؤْيةٍ عمليّةٍ، قَادِراً على الإسْهَامِ في دَفْعِ حركة مُجْتمعِه في اتِّجَاهِ «سَهْمِ الزَّمن»، ومُؤثِّراً في الأحْـدَاثِ بإيجابيّـةٍ وكفـاءَةٍ، ومُسْتَوْعِباً لثَوابِـتِ مُجْتمعِه، ومُـدْرِكاً لحقائِق عَصْرِه، وحريصـاً علـى تَمَاسُكِ وطنِه، ولتَنْتَقِلَ مثل تلـك «الرُّؤى التَّنْمَويّة» الحيويّـة، عبْر أمْوَاجِ التّواصُلِ والتّفاعُل، إلى المُواطِن - أيّاً كـان مَوْقِعُهُ ودَوْرُه -.

يُـرْوَى عن ألبرت آينشتاين قولـه: (إنّ أحد تَعْريفات «الجُنُون» أنْ تُكرِّرَ عمل الشّيء نفْسـه مَرَّةً تِلْـوَ الأُخْرى مُتَوَقِّعاً أنْ تَحْصُلَ علـى نتائِج مُخْتلفة)، وبالتَّأمُّـلِ الدّقيق للوَاقِعِ العربيّ الذي تَمْتَلِئُ أجْواءه بأعاصِيرِ الإحْباط، وتَفْتِكُ بمُعْطياتِه جراثيمُ العَجْز، وتَسْتَقْطِبُ شبابـه ومُثقّفيه حالاتُ «الانْبِهَـارِ» و«الانْكِفَاءِ» و«الاجْتِرَارِ» و«التَّهَـوُّرِ» و«النّرْجَسِيّة»، فإنّه لا بُـدَّ لنا عن البَحْثِ عن «مُثقَّـفٍ» يَخْرُجُ عن كُلِّ تلك «التَّصْنيفات» التـي جَرَّبْنَاهَا مِرَاراً وتَكْرَاراً، وما زَادَتْنَا إلاّ خَسَاراً. إنّ التَّحدِّي الحقيقيّ لـ«الثَّقافة العربيّة» هو ما وَصَفَهُ عبد الله عبـد الدائم بقوله: (التَّحدِّي الأكْبر الذي يُواجِـهُ المُثقّفين العرب أنْ يكونوا مُثقَّفين حَقّـاً أو لا يكونـوا شيئاً. أنْ يكونوا مع مُجْتمعِهم ومن أجْل مُجْتمعِهم)[٧٨]. ومن هنا يَنْبَغِي - فـي رأْيي[٧٩] - أنْ يَبْـرُزَ تَصْنيفٌ جديدٌ لـ«المُثقّفِ» وهو «المُثقّـفُ التّنْمَويُّ»، وتكون له الأولويّـةُ على غيره مـن التّصْنيفات؛ فالمطلوبُ «فِكْرٌ تَنْمَـويٌّ» يَسْتَثْمِرُ الغَضَبَ والإحْبَاطَ والتَّذَمُّـرَ لـدى المُجْتمـع، ويَسْتَقْطِبُ حماسَ الجُمْهـور، ويَسْتَنْهِضُ هِمَمَهُـمْ وطاقاتِهم،

ويَتَوَجَّـهُ - في رُؤيةٍ فَاحِصَةٍ وخُطَطٍ مُنْضَبِطَـةٍ ومعايير موضوعيّةٍ - نحو العِمْرَانِ والبنَاءِ والإنْتاجيّة؛ فذلك «المَنْظُورُ التّنْمَويُّ» هو وَحْدُهُ - بعد الله عزّ وجلَّ - الكفيلُ بإنْقاذِ الأُمّة مـن هـذا النَّفَقِ المُظْلِم الطّويل الذي لا نكادُ نرى له نِهايةً؛ فسُنَنُ الله لا تُحَابِي أحداً، ولا تَنْسَاقُ لعَوَاطِفِ العَنْتَريّين والمُتَكَلّمين ومُثقّفِي «الجَدَلِ العَبَثيّ» و«الدَّجَلِ التّلْفيقيّ».

ليس المَطْلُـوبُ أنْ يكون «المُثقَّـفُ التّنْمَويُّ» شَمْعَـةً تَحْرِقُ نفسَهـا لتُضِيءِ الطّريق للآخَرين، وليس عليه أنْ يَرْكَبَ المَرْكَبَ الصّعْبَ لتَأْسيسِ دَوْرٍ بُطُوليٍّ يَجْعَلُهُ حديث الأوّلين والآخِريـن، أو أنْ يُسَجِّـلَ مَوَاقِفَ تاريخيّةً عبْر تَضْحياتٍ لا يَقْـدِرُ عليها إلاّ أولو العَزْمِ من الرِّجـال، أو أنْ يَتَبَنَّى مَوَاقِفَ شَاذّةً من باب «خَالِـفْ تُعْرَفْ»؛ ولكنّه - بكُلّ بساطةٍ - ذلك «المُثقّفُ» الذي يُدْرِكُ أنّ هناك طريقَتَيْنِ لنَشْرِ الضَّوْءِ؛ فإنْ لم يكنْ شَمْعَةً تَحْتَرِقُ لتُضِيءِ الطّريـق، فعليه أنْ يكون مِرآةً تَعْكِسُ الضَّوْءَ وتَنْشُـرُهُ في الآفاق، أو - على أقلّ تقْديرٍ - لا يكـون حَاجِزاً مُعْتِماً يَمْنَعُ انْعِكَاسَ الضَّوْءِ أو نَفَاذَه، وذلـك أضْعَفُ الإيمان. وأمّا «الضَّوْءُ» الـذي تَحْتَاجُهُ الأُمَّـة، فهو بالتّأْكيد ليس ذلك الإسْفاف الذي يَجْثِـمُ على «الوَاقِعِ الثقافيّ العربـيّ» عبْر اسْتِفْـزَازِ المُجْتمع، وإثَارَةِ الغرائِـز، وتَهْييجِ الانْفِعـالات، وترْسيخِ «الجَدَلِ الأَرْعَنِ» حول قضايا لا تَنْفَعُ المُواطِنَ في بَحْثِهِ عن حياةٍ كريمةٍ تَسْتَقْطِبُ قُدْرَاتِهِ الفَاعِلَة، وتَحْتَضِنُهُ في «مَسِيرَةٍ تَنْمَويّةٍ» تَمُرُّ به على ينابيع تُرْوِي عَطَشَ الظَّمآن في بِيئَاتِ «الجَفَافِ المَعْرفيّ» و«العَجْزِ العِلْميّ» والإحْبَاطِ المُتَفاقِم.

وأمّا المُحْزِنُ في الأَمْرِ أنْ ليس في هذه السِّياقات من جديدٍ فقد طَرَحَهَا زكي نجيب محمود - قبْل ما يَرْبُو على نِصْف قَرْنٍ - وهو يَتَأَمَّلُ حال «المُثقّفين العرب» فيقول: (لقد قُلْـتُ لأحدهـم ذات يـوم، وكُنْتُ على صِلَةٍ بـه تُجِيزُ هذا القَـوْل، قُلْتُ له: تُرَى لـو جَمَعْنَا كلامـك كُلّه الذي ظللتَ تُمْسِي به وتُصْبِحُ عاماً بعد عامٍ فكَمْ رغيفاً من الخبْزِ يَخْرُجُ منه للجائعيـن؟، كَـمْ ثوباً نَنْسِجُهُ منه لمن يَنْقُصُهُمْ الكِسَاءُ؟، كَـمْ مِتْراً من الطّريق نَرْصُفُهُ، وكَـمْ جِداراً نَبْنيـه؟. أليستْ هي يا صاحبـي طَواحين تَمْلأُ أوعيتَها هَـواءً فيَخْرُجُ لنا من عيونِهـا هَواءٌ، ويظـلُّ الجَائِعُ في حاجةٍ إلى الرَّغيف، ويظلُّ العـاري في حاجةٍ إلى الثَّوْب، ويظلُّ الطّريقُ المُتَهَدِّمُ يَنْتَظِرُ من يَرْصُفُهُ، والجِدَارُ من يَبْنيه؟)[٢٠].

٥-٥) نحْو المُصَالَحَةِ مع العلوم والتّقنية:

إنّ غِيَـابَ «البُعْـدِ العِلْميّ» عن «بِنْيَـةِ الثَّقافة العربيّة» المُعَاصِـرَةِ جعلها غريبةً عن عَصْرِهَـا، وبعيدةً عـن تفاعُـلاتِ وَاقِعِهَا ومُتطلّبَـاتِ مُسْتَقْبَلِهَـا؛ فالاتِّصَـالُ بينها وبين «العلوم» هو اتِّصَالٌ سَطْحِيٌّ هزيلٌ يَعْتَمِدُ على الشَّكْليات وحُبِّ الاقْتِنَاءِ والاسْتِهْلاك، ولهذا فَقَدَ «الفِكْرُ التّنْمَويّ» - في المُجْتمعات العربيّة - الصِّلَةَ المُباشِرَةَ بـ«الوَسَطِ الاجْتماعيّ»، وأَصْبَحَ تَأْثيرُه مَحْدوداً وهَامِشيّاً في حركة الحياة وديناميّتها، ويَذْهَبُ مالك بن نبيّ[٢٨] في وَصْفِ وَاقِعِ «الحال الثَّقافيّ» إلى الاسْتِشْهَادِ بالوَصْفِ النَّبويّ الوَارِد في قَوْلِ المُصْطَفَى - صلَّى الله عليه وسلَّم -: «**مَثَلُ ما بعثني الله عزَّ وجلَّ به من العِلْم والهُدَى كمَثَلِ الغَيْثِ الكثيـرِ أصـاب أَرْضاً فكانتْ منها بُقْعَةٌ قَبِلَتْ المَاءَ فأَنْبَتَتْ الكَلأَ والعُشْبَ الكثير، وكانتْ منهـا بُقْعَـةٌ أَمْسَكَـتْ المَـاءَ فنَفَعَ اللهُ عـزَّ وجلَّ به النّاسَ فشربوا منها وسقـوا وزرعوا، وكانـتْ منهـا طائِفةٌ قِيعَـانٌ لا تُمْسِكُ مَاءً ولا تُنْبِـتُ كلأً**». ويرى مالك بن نبيّ أنّ: (هذا النَّصّ تَدَرَّجَ من أعْلى للأدْنى في تَصْوير «عَلاقَةِ الفَرْدِ والمُجْتمع» بـ«العِلْم»، أَيْ بالأَفْكَارِ والأشْياء. وكأنّ النَّبيّ - صلَّى الله عليه وسلَّم - أراد من هذا التّدرُّجِ ذي الدَّرَجَاتِ الثَّلاث أنْ يَرْمُزَ إلى عُصُورٍ ثلاثةٍ يَمُرُّ بها المُجْتمع، يَبْدَأُ تاريخه بمَرْحلةٍ يَحْدُثُ فيها تَقبُّلُ الأَفْكَارِ وإبْداعُهَـا وتَمَثُّلُهَا، تليها مَرْحلةٌ تَبْلُغُ فيها الأفْكَارُ إلـى مُجْتمعاتٍ أُخْرى، ثم تَعْقُبُ مَرْحلةٌ يَتَجَمّدُ فيها عَالَمُ الأفْكَارِ فيُصْبِحُ ليستْ لديه أدْنى فَاعِليّةٍ اجْتماعيّة).

فـي ضوء ذلك التَّدَرُّجِ في طبيعة العَلاقَةِ بيـن «العِلْمِ والمُجْتمع» نَسْتطيعُ أنْ نَتَعَرَّفَ علـى وَاقِعِ «الثَّقافة العربيّـة» اليوم، لنجد أنّه حالٌ يُشْبِهُ المَرْحلة الثّالثة من ذلك الوَصْفِ النَّبويّ فهي في الوَاقِعِ «لا تُمْسِكُ مَاءً ولا تُنْبِتُ كلأً» فيما يَخُصُّ مُعْطيات «العلوم الحديثة» و«حركـة التّقْنية المُعَاصِرَة»؛ وهكـذا تَنْتَصِبُ «إشْكَاليّةُ التّنْميـة» كوَاقِعٍ شَاهِدٍ على حالة غِيَابِ «الثَّقافة التّنْمَويّـة»، وكمُؤَشِّرٍ إلى هَشَاشَةِ «البِنْيَةِ التَّحْتيّة الثَّقافيّة» التي لا تَسْتطيعُ أنْ تَسْنُدَ «الحركة العِلْميّة»، وتَمْتَصَّ عطاءاتِها، وتُنْبِتَ ثِمَارَهَا.

أمّـا بدهيّاتُ العَصْرِ فإنّها تُؤكِّدُ بأنّ المَدْخَلَ إلى تَحْقيـقِ «التّنْمية» وبَعْثِ «النّهْضَة» يَتَمَحْـوَرُ حول «المِفْتَـاحِ الرّئيس»، وهو «مِفْتَاحُ العلوم والتّقْنية»، فهو - بكُلٍّ بساطةٍ - يَفْتَحُ بـاب الآفـاق المُمْتَدَّةِ إلى عَوالِمِ القُـوّةِ والرَّفَاهِ والإنْجاز، ويقودُ إلى رِحَـابِ تَعْظيمِ مَوارِدِ الأوطـان وتَفْعيلِ قُدْرَاتِهَا وتَنْشيطِ طاقاتِها. ولذا فإنّ مِثْلَ هذه القضيّة جديرةٌ بأنْ تُصْبِحَ هَاجِسـاً يوميّـاً في تفاعُـلاتِ الأُمّة لأنّهـا - دون مُبَالَغَـةٍ - هي «القضيَّـةُ الأَهَمُّ»، فهي - بحَـقٍّ - «الطَّريقُ إلى النّهْضَة»، و«المَدْخَلُ إلـى التَّنْمية»، ممّا يُوجِبُ السُّؤال التّالي: (أين طُرُوحَاتُنَا وإعْلامُنَا وتَعْليمُنَا وخِطَابُنَا الدَّعَويّ والدِّينيّ وإستراتيجيّاتُنا الثّقافيّة وجُهُودُنَا الفِكْريّـة من حالة «الاسْتِنْفَارِ العَامّ» اللازِمَـةِ لتَأْصيلِ هذه «القضيّة المصيريّة» وتَفْعيلِها في الفِكْرِ والحياة والمُجْتمع؟).

إنّنــي لا أَزْعُـمُ فقط بأنّ كُلَّ ذلك فــي وادٍ و«مَنْظُومَة العلوم والتّقْنيــة» في وادٍ آخَر، ولكنّــي أُضِيفُ لأقول إنّ هناك تَوجُّساً وجَفَاءً وانْتِقَاصاً مــن قَدْرِ هذه «المَنْظُومَة»، وذلك بالرّغْـم ممّا نَلْمَسُهُ من إجْماعٍ مُنْعَقِدٍ بين سياسيّــي ومُفكّري ومُثقّفي الدُّول النّامية على أنّ «طريـق النّجاة» مـن «حالة التَّخَلُّفِ والضَّعْف» يَكْمُنُ في «الأُفُـقِ العِلْميّ- التّقنيّ». إنّي أَزْعُـمُ أنّ ثقافتنا وقِيَمَنَا السّائِدَةَ وتعامُلاتِنَا الفِكْريّـة والاجْتماعيّة والإعْلاميّة تُعَانِي من ظِلالٍ كثيفةٍ من التَّوَجُّسِ والجَفَـاءِ والرِّيبة، وأحياناً الانْتِقَاصِ والتَّحَامُلِ والاحْتِقَار، لقِيَم «مَنْظُومَـةِ العلـوم والتّقْنية» وشُرُوطِهَا؛ وإنّي أَزْعُمُ - أيضاً - أنّ هناك دَوْراً غَائِباً أو مُغَيَّبَاً - في تفاعُلاتنا الحياتيّة - لـ«الثّقافة التّنْمَويّة» التي تَحْتَلُّ فيها «الحركة العِلْميّة - التّقنيّة» المَرْكَـزَ القياديّ ممّا يُعَمِّقُ من «الجَفْوَةِ» و«الفَجْـوَةِ» المُنْتَصِبَتَيْن في حياتنا اليوميّة بين مُتطلّبـات الحيـاة المُعَاصِـرَةِ وتحدّياتِها من ناحيةٍ، وبيــن «الخِطَابِ الثَّقافـيّ» بمُخْتلف تَجَلِّياتِـه وإسْهَامَاتِـه ورُمُوزِهِ من ناحيةٍ أُخْرى. ولذا فإنّ التَّحَـرُّكات المَدْروسَة، والخُطَط الوَاضِحَـة، والتَّعْبِئَة الصّادِقَة، نحو «المُصَالَحَة مع العلوم والتّقنية» تُصْبِحُ ضرورةً مَاسَّةً لاسْتِيعـابِ عَنَاصِرِ «مَنْظُومَةِ العلـوم والتّقْنية»، والتّفاعُلِ الإيجابيّ مــع مُقَوِّمَاتِهَا مَعْرفيّاً وثقافيّاً ومُجْتمعيّاً وسياسيّاً وإنْتاجيّاً وإعْلاميّاً.

٥-٥-١) العَدَاءُ الخَفِيّ:

إنّ اسْتِيعـاب مُقَوِّمَاتِ «مَنْظُومَـةِ العلوم والتِّقْنية» تَتَطَلّبُ - بدايـةً - التّغَلُّبَ على ما أُسَمِّيـه(٨٠) «العَـدَاء الخَفِيّ» للمَنْظُومةِ الذي يَتَجَلَّى في عِـدَّةِ مظاهِر، منْها: تلك «الجَفْوَة الفِكْريّـة والثّقافيّـة والنَّفْسيّة» المَلْمُوسَـة على مُسْتويات عِدّةٍ وفي سِياقـاتٍ مُخْتلفة، ممّا يَجْعَلُنَـا فـي أشدِّ الحاجة - أوّلاً - إلى بَذْلِ جُهُودٍ مُكَثَّفَةٍ نحـو إجْراء «مُصَالَحَةٍ مع العلوم والتِّقنيـة»؛ فمـن المُحْـزِنِ أنْ نَصْطَدِمَ يوميّاً بعَيِّنَـاتٍ من مَوَاقِف عديـدةٍ مُتَكَرِّرَةٍ - على الأصْعِدَةِ التّعْليميّة والتّربويّة والثّقافيّة والإعْلاميّة والمُجْتمعيّة -التي تَحْمِلُ في مضامينِها تَوجُّسـاً أو انْتِقَاصـاً أو اسْتِعْلاءً أو جَفَاءً أو سُوءَ فَهْمٍ لهـذه «المَنْظُومَة». إنّ الأمْثِلَةَ كثيرةٌ علـى هـذا، وليس المقـام - هنا - مقام حَصْـرٍ بقَدْرِ ما هـو مُحاولةٌ للتّعـرُّفِ على نُظُمِ «التَّفْكيـر المُهَيْمِنَـة»، وعناصِـر «الثَّقافـة السَّائِـدَة»، التي تعـوقُ مسيرة «حركـة العلوم والتِّقْنيـة» في «المُجْتمعـات العربيّة»، والحالُ هنا شبيهٌ بالحال الـذي تَطَرَّقَ إليه تشارلز سنو عندمـا وَصَفَ حالة «عدم فَهْمِ العلوم» في «المُجْتمعات الغَرْبيّة» في الخمسينات من القَرْن الماضي بأنّها: (تَمْنَحُ - بشَكْلٍ أعْمق ممّا نتوقَّع - نَكْهَةً غير عِلْميّةٍ للثَّقافة التّقْليديّة برُمَّتِهَا، وتلك النَّكْهَةُ غير العِلْميّة تَتَحَوَّلُ غالِباً - وبشَكْلٍ أكْبر ممّا نَعْتَرِفُ به - إلى مَوْقِفٍ مُضَادٍّ للعلوم)(٣٢).

إنّ مِثْـل هذا الحال يُفْقِـدُ المُجْتمع ما يَحْتَاجُهُ من طاقةٍ وتَعْبئـةٍ واسْتِنْفَارٍ لمُواجَهَةِ تحدّيات عَصْرِه، وما علينا إلاّ أنْ نَتَذَكَّرَ هذه الرُّؤى عندما نَقِفُ أمام طُرُوحاتٍ وقضايا تَعُجُّ بهـا - بين الحيـن والآخَر - وسائِلُنا الإعْلاميّة حيث تُعَاوِدُ في كُلِّ مَرَّةٍ اجْتِرَارَ السِّجَالاتِ نفْسها، والـرِّيبةِ ذاتها، والمُمَانَعَةِ بعينها، بينما تَنْطَلِقُ مسيرةُ «العلوم والتِّقْنية» في «عَالَمِ الكِبَـار» من إنْجازٍ إلـى إنْجازٍ ليَجْمَعُوا المَجْـدَ من أطْرَافِه. وأمّا الطَّريـفُ في الأَمْرِ فهو أنّ «المُمَانَعَـةَ» عندنا هي فيمـا يَتَعَلَّقُ باسْتِخْدَامِ «المَنْهَجِ العِلْمـيّ» والتّجارِب والسُّنَنِ في تَفْكيرِنـا وتَحْليلِنـا وتَعْليلِنا، و«المُقَاوَمَةَ» عنْدنا هي ضِدُّ التَّهْيئـةِ الجَادّةِ لمُتطلَّباتِ العلوم فـي إسْتراتيجيّاتِنـا وبرامِجِنـا؛ ولكنّنـا لا نُعانِي أيَّ مُمَانَعَـةٍ أو مُقَاوَمَـةٍ أو تَوَجُّسٍ عندما

يَتَعَلَّـقُ الأَمْرُ بـ«الجَانِبِ الاسْتِهْلاكـيّ»، ففي ذلك تَفَوَّقْنَا حتّى على أرْبَابِ «العلوم والتّقْنية» ومُنْتِجِيْ أدواتِها وفِكْرِها!.

يَبْرُزُ أحد أَوْجُهِ هذا «العَدَاء الخَفِيّ» في مَقُولَةٍ يُدَنْدِنُ حولها بعض المُثقّفين العرب – بيـن الفَينـة والفَينة – في نَعْتِهِمْ «العلوم والتّقْنية» بأنّها مُجَرَّدُ إنْتاج تَطْبيقيٍّ، ومهاراتٍ تَجْريبيّـةٍ، ووسائِـل عمليّةٍ، لا يُمْكِـنُ اعْتبارُها أساسـاً حيويّاً لفِكْرِ الأُمّة؛ ففـي رأيهم أنّ «العلوم الإنْسانيّة» هي الأساس والأصْل، وهي المَدْخَلُ الحقيقيُّ للرُّقيّ الفِكْريّ. لقد غاب عنهـم أنّهم بتلك المَقُولَةِ السّطْحيّة لا يَغْمِطُون فقط الحقيقة البَارِزَةَ للعِيان لدَوْرِ «الفِكْر العِلْميّ» الرّياديّ في حياة الأُمم وتَأْثيراته العميقة في تَشْكيلِ أنْمَاطِ «الفِكْرِ المُعَاصِر»، ولا يُبْرِزُون مدى جَهْلِهِمْ بإيقاعـاتِ «الحياة المُعَاصِرَة» وطبيعةِ تحدّياتِها، ولكنّهم – أيضاً – يُعَمِّقُون الهُوّةَ مع هذا الفِكْرِ الحيويّ المَسْؤول عن أكْبر «النَّقْلات النَّوْعيّة» في حياة البشر، ويَجْنُـون على مُسْتَقْبَلِ الأُمّـة، ويُثْبِتُون – من جديدٍ – أنّ ثقافتنا هي «ثقافةٌ أدبيّةٌ» مَحْضَةٌ تعيشُ على الانْفِعالاتِ والوِجْدانيّاتِ والانْطِباعاتِ لتَتَمَحْوَرَ حول خِطَابٍ مُحَنَّطٍ لا يَتَغَيَّرُ ولا يَتَبَدَّلُ، ولتَجْتَرَّ مُعْطياتِهَا في رِحْلةٍ دَاخِليّةٍ مَعْزُولَةٍ تَتَضَخَّمُ فيها رُؤىً ذاتيّةٌ عبْر الانْعِكاساتِ المُتَكَـرِّرَةِ على مرايا الأوهامِ النَّرْجسيّة والإنْشائيّاتِ البلاغيّة والمُحَسِّنَاتِ اللّفْظيّة. ولذا فـإنّ ما نَشْهَدُهُ – بين الفَيْنَةِ والأُخْرَى – من دَعواتٍ مُنَادِيَةٍ بأولويّةِ «الدِّراسات الإنْسانيّة» تُمَثِّلُ مَظْهَراً من مَظَاهِرِ «العَدَاءِ الخَفِيّ» لـ«مَنْظُومَةِ العلوم والتّقْنية»؛ فالتَّعَلُّقُ هنا بـ«العلوم الإنْسانيّة» ليس «تَعَلُّقَ حَاجَةٍ» ولكنّه «تَعَلُّقُ وِجْدَانٍ» لثقافةٍ انْغَرَسَتْ عبْر تاريخها في «ثقافة اللّفْـظ»، واخْتَارَتْ الطَّريـق الأسْهل في التّعامُلِ مع قضاياها، ولذا فـإنّ هذه «الإشْكَالِيّة» تجدُ جُذُورَهَا في أعْمَاقِ «العَقْلِ العربيّ» الذي ما زال أسير انْفِعالاتِه وأوهامِه وتخيُّلاتِه.

وأمّا عندمـا يَنْدَفِعُ «الخِطَابُ الدَّعَويُّ» في مَظَاهِرِهِ المُخْتلفة إلى «الشَّحْنِ النّفْسيّ» للشّبـاب وتوجيه فِكْرِهِمْ وطاقاتِهم، فإنّه الأكْثر إهْمـالاً لطُرُوحاتِ «التّنْمية» ومُوَاصَفَاتِهَا المُعَاصِـرَةِ حيـث يَنْفَعِـلُ بالأحْـدَاثِ والابْتِـلاءاتِ دون تَعَمُّقٍ عملـيٍّ في أسْبَـابِ البلاء، ويَتَحَصَّنُ بقَدْرٍ كبيرٍ من الارْتيابِ والمُمَانَعَةِ أمام المُعْطيات العِلْميّة والإنْجازات التّقنيّة، ويُكَرِّسُ أساليب الحِفْظِ والرِّواية والإيقاعات اللّغويّة، ويتجاوزُ طبيعة الاحْتياجات النّفْسيّة

والمَعْنويّـة والفِكْريّـة اللازمة لـ«الحركة العِلْميّة والتّقنيّـة»، ويَتَدَثَّرُ - في أغْلب الأحْوال - بـرِدَاءِ المَواعِظِ المَكْـرُورةِ والقَوَالِبِ التّقْليديّةِ والشَّحْنِ العَاطِفـيّ والعُمُوميّاتِ التي تَفْقِدُ تَأْثيرهـا - في الغالِب - حـال اصْطِدَام سامعيهـا بوَاقِعٍ يَنْتَصِبُ أمامهم بـكُلِّ تحدّياتِه، ويَعْكِسُ كُلَّ عَجْزِهِمْ في التّعامُلِ معه. وهكذا تغيبُ عن طُرُوحاتِ «الخِطَابِ الدَّعَويّ» - إلى حَـدٍّ كبيـرٍ - عَنَاصِرُ «التَّحْفيز» نحو «التّنْمية والبِنَاء» عبْر تَبَنِّـي «الفِكْر العِلْميّ»، والتَّوجُّه إلـى «ميادِيـن التّقْنية»، ومَنْـح «مَنْظُومَةِ العلوم والتّقْنيـة» الأولويّة القُصْـوى عبْر الدَّعْمِ والتّنْويهِ بأبْعَادِ المَثُوبَةِ النّاتِجَةِ - دُنْيويّاً وأُخْرويّاً - عن ذلك النّوْعِ من المُثَابَرَةِ والجُهْد.

ومـن المُهـمّ أنْ نُسَجِّلَ هنا أنّ ظَاهِـرَةَ «التَّصَادُم مع الحقائِـق العِلْميّة» وتَسْفيهِهَا، ورَفْضَ التّعامُـلِ مـع مُعْطياتِها المُسْتَقِـرّةِ ونتائِجِهَـا الثّابِتَة، هي - في الوَاقِـع - تَرْسيخٌ لذلـك «العَدَاءِ الخَفِيّ» الكَامِـنِ في «الوِجْدَانِ العربيّ» لهذه «المَنْظُومَةِ» التي لم نُسْهِمْ في صِناعتِهـا وتَطْويرِهـا، ولكنّها تَأْبَـى إلاّ أنْ تَقْتَحِمَ حياتنا ومَأْكَلَنَـا واتّصالاتِنا واقْتصادَنا وتفاعُلاتِنـا الاجْتماعيّـة والفِكْريّة، ويكـونُ مَلاذُنَا الوهـميّ - عادةً - هـو ذلك «المَوْقِف الانْتقائـيّ» الذي يُعَطِّلُ «عَجَلَةَ التَّطْوير» فـي حياتنا، وإنْ كنّا - في نهاية المطاف - نُقَدِّمُ «التّنَـازُلاتِ الاسْتِهْلاكيّة» تحْت وَطْـأةِ الحاجة ومُقْتضياتِ الحياة وعِشْـقِ الرّفاهية، ولنا عِبَـرٌ فـي أمْثلةٍ تَبْدَأُ مـن «اللّاسلكي» والسَّيّـارة، وتصلُ إلى «كاميرا الجَـوّال» وتَطْبيقات «الآيفون» وفضاءات «الإنترنت»، ويَخْلُقُ ما لا تَعْلَمُون. ولا يَتَمَثَّلُ ذلك «العَدَاءُ الخَفِيُّ» فقط فـي غِيَابِ الطّرْحِ القـويّ والأصيل لـ«المُقَوِّمَاتِ الثّقافيّة» لـ«الحركـة العِلْميّة والتّقنيّة» في مَواعِظِنَا وإعْلامنا وتَعْليمنا وحَرَاكِنَا المُجْتمعيّ، ولكنّه - أيضاً - يَتَمَثَّلُ في غِيَابِ «الإرادة السِّياسيّـة» و«القُوَّة الإجْرائيّة» القَادِرَتَيْن على نَقْلِ تلـك «المُقَوِّمَاتِ الثَّقافيّة» ومُتطلَّباتها العمليّة من عـالَمِ الـورق والمؤتمرات والبَهْرَجَةِ الإعْلاميّة إلى وَاقِعٍ يَتَحَرَّكُ على الأرْض، ويَتْرُكُ بَصَمَاتِهِ على حيوات الأفْراد وحركة المُجْتمع.

أَدْري أنّ (النَّاسَ أَعْدَاء ما جَهِلُوا)، ولكن «العلوم والتّقْنية» أَصْبَحَتْ ضَرورةً حتميّةً لا مناص عنها، ممّا يُوجِـبُ تَقْليصَ مِساحة ذلك «العَدَاءِ الخَفِـيّ»، واسْتِيعابِ «الخِطَابِ

الدَّعَـويّ» لعناصِـرِ «الفِكْـرِ التّنْمَويّ»، وتوليـدِ «التَّفاعُـلِ الإيجابيّ» مـع «مَنْظُومَةِ العلوم والتّقْنية» التي أَصْبَحَتْ قضيّة «حياةٍ أو موتٍ» للأُمّة بحيث يكون «الخِطَابُ الدَّعَويّ» قادِراً على مُوَازَنَـةِ «المَصَالِح والمَفَاسِد» على أرْضِ الوَاقِع، ولكي يكون في مَوْقِعٍ رياديٍّ مُعَاصِرٍ تَتَجَلَّى فيه صُوَرُ الاهْتمام العَصْريّ بما يَنْفَعُ الإنْسان، ويُعَمِّرُ الأوطان.

وأمّـا أهميّـةُ دَوْرِ «الخِطَابِ الدَّعَويّ» فإنّهـا لا تَخْفَى على أحـدٍ؛ فللدُّعاة مُريدوهم ومُحِبُّوهـم، وبالتّالـي يَتَمَتَّعُـون بقُدْرةٍ علـى التّأْثير كبيرةٍ ممّـا يَجْعَلُ دَوْرَهُمْ فـي تَشْكيلِ «الرُّؤيـة التّنْمَويّـة»، وتَحْفيـزِ «الحماسِ العمليّ»، مَطْلُوباً فـي «التّفاعُـلات المُجْتمعيّة»؛ ولأنّ «التّغْييـر الثّقافـيّ» هـو أصْعب أنْـواع التَّغْيير، فإنّ تَكاتُـفَ جُهُودِ مُخْتلـف الشّرائِح والاهْتمامـات ضَروريٌّ لإحْـدَاثِ تلك «النَّقْلَة النَّوْعيّـة» المَطْلُوبة في فِكْـرِ الأُمّة وثقافتِها وإسْهاماتِهـا. بطبيعـة الحال لا يَنْبَغِي – في هذا السِّيـاق – أنْ نَغْمِطَ حَقّ عَدَدٍ مُتزايدٍ من المُثقَّفيـن والمُفكِّريـن والدُّعَاة فـي «السّاحَة الثّقافيّـة العربيّة» وهم يَبْذُلُـون جُهُوداً في مجـالات «التَّوعية العِلْميّة» في مُحاولاتٍ فَرْديّةٍ لـ«المُصَالَحَةِ مع العلوم والتّقْنية»، وحِرْصٍ على «التَّفاعُلِ الإيجابيّ» معها، ومَنْحِهَا الأولوّية التي هي أَهْلٌ لها، ولكن تَغِيبُ عن الميدان – في مُعْظَمِ الأحْوال – «الإرادةُ السِّياسيّةُ» الفَاعِلَة، والحركةُ المؤسَّسيّةُ النَّشِطَة، والرُّؤيةُ الإسْتراتيجيّةُ الحصيفة، والإجْراءاتُ العمليّـةُ المُؤثِّرَة، لإحْدَاثِ التّأْثير العميق المَنْشُود على مُخْتلف الأصْعدة الثّقافيّة والتّعْليميّة والبَحْثيّة والإعْلاميّة والاجْتماعية وغيرها.

وتَبْقَـى قضيّةُ «المُصَالَحَةِ مع العلـوم والتّقْنية» هَاجِساً مُقِيماً، وهـي في تَرَاكُمَاتِهَا تُؤكِّدُ الحاجة إلى تلك «الثَّقافة التّنْمَويّة» التي تُصَادِقُ «العلوم والتّقنية»، وتُصَافِحُ أبْعَادَهَا، وتتصالـحُ مع فِكْرِهَـا، وتُسَاعِدُ علـى نَشْرِهَا؛ وهي فـي تداعياتِها تَسْتَوْجِـبُ الدَّعْوَةَ إلى «إسْتراتيجيّةٍ تَنْمَويّةٍ» شَامِلَةٍ تَهْتَمُّ بتَأْصيلِ «تفاعُلات إيجابيّة» تُمَثِّلُ «الاسْتِجَابَةَ المُلائِمَةَ» في حياة «الإنْسان المُسْلِم» لـ«تحدِّيات» عَصْرِه، وتَحْرِصُ على تَعْزِيزِها وتَطْويرِها، وتتمكَّنُ من توليدِ «الدَّفْعِ الذَّاتيّ» للتّصدّي – بحيويّةٍ وفَاعِليّة – للمُشْكلاتِ المُعَاصِرَة.

٥-٥-٢) المُنْطَلقاتُ الدِّينيّةُ و«الفِكْرُ التَّنْمَويّ»:

عندما نجدُ أنّنا نَتَحَصَّنُ بقَدْرٍ كبيرٍ من الارْتِيابِ والمُمَانَعَةِ أمام «اليقينيَّات العِلْميّة» من قوانين وسُنَنٍ اسْتَقَرَّتْ في «المَعْرِفَةِ الإنْسانيّة» على الصّعيدِ النّظريّ والبُرْهَانِ التّجْريبيّ، فإنّ علينا أنْ نُراجِعَ مَنْظُومَتَنَا الفِكْريّة والثّقافيّة التي فَشِلَتْ ليس فقط في التَّصَالُحِ مع «العلوم الحديثة» والتّآلُفِ مع «شُرُوطِ التّقْنية المُعَاصِرَة»، ولكنّها أيضاً فَشلَتْ - ابْتداءً - في أنْ تَنْصَاعَ لمُقْتضياتِ «الخِطَابِ الإسْلاميّ» الصّحيح الدَّاعِي إلى التّدَبُّرِ في آياتِ الكَوْن، والتَّفَكُّرِ في السُّنَنِ الإلهيّة التي لا تَتَحَوَّلُ ولا تَتَبَدَّلُ، والأَخْذِ بأسْبَابِ القُوّةِ التي تَحْمِي قِيَمَ الأُمّة وحَقَّهَا في الحياة الكريمة. إنّ مِثْلَ ذلك «المَوْقِف الاسْتِعْلائيّ» على مُعْطياتِ «العلوم والتّقْنية» وأدبيّاتِها وفِكْرِهَا، الذي يُمَيِّزُ الكثير من الطُّرُوحَاتِ الدَّعَوِيّة، تَجْعَلُنَا نتساءَل عن مُؤَشِّرَاتِ خِطَابِنَا الدَّعَوِيّ، وهل اسْتطاع فِعْلاً أنْ يتناغم مع طبيعة «تحدِّيات العَصْر» و«مَسْؤوليّات المُسْتَقْبَل»، أَمْ أنّه أَبْقَى على شَكْلِهِ التُّرَاثيّ الوَعْظيّ ليُنْتِجَ مزيداً من «الدُّعَاة»؟، ولكن من حَقِّنَا أنْ نَسْأَلَ في زمن «الإنْتاج والتّنْمية»: (وماذا عن «البُنَاة»؟).

إنّ من أخْطر ما يُمْكِنُ أنْ يَحْدُثَ للأُمّة، هو «النَّظْرَةُ الدُّونِيّةُ» للعلوم والتّقْنية التي تَنْتَقِصُ من شَأْنِهَا، وتَدْفَعُ بها إلى مَواقِعَ في أدْنَى قَائِمَةِ الأولويّاتِ؛ ممّا يقودُ إلى هَيْمَنَةِ اهْتِماماتٍ أُخْرى قد يجدُ كثيرٌ من الشَّباب في ثناياها مَزَالِقَ تَصْرِفُهُمْ عن الانْخِرَاطِ الجَادِّ في مَعْمَعَةِ «العلوم والتّقْنية» وبِنَاءِ الوطن، وتَدْفَعُ بهم إلى الانْغِمَاسِ في متاهاتٍ إنْشائيّةٍ عقيمةٍ، والتَّخَبُّطِ في مداراتِ تَدْميرٍ ذاتيٍّ من الإحْبَاطِ القَاتِل، والحماسِ الأهْوج، والانْغِلاقِ المُرَوِّع، والاجْتِرَارِ المُشِين، والانْكِفَاءِ على الذّات، وتَعْميقِ حالة الضَّعْفِ السّائِدَة.

من المُهِمّ - إذاً - أنْ يكون الدُّعَاةُ والمُثقّفون ورِجالُ الفِكْرِ والإعْلام سَنَداً متيناً لـ«الحركة العِلْميّة - التّقنيّة» عبْر الدَّعْوَةِ إلى احْتِرَامِ مَنْهَجِهَا، وتَأْصيلِ ثقافتِها، وتَفْعيلِ مُقْتضياتِها، واسْتِقْطَابِ القُدْرَاتِ والمهاراتِ لها. ويقعُ «الخِطَابُ الدَّعَوِيّ» في قَلْبِ تلك العمليّة فهو مُطَالَبٌ بأنْ يَتَحَرَّكَ في اتِّجَاهِ «التّنْمية»، ويَسْتَجِيبَ لمُتطلَّباتِها، ويَسْتَأْنِسَ بتفاعُلاتِها، ويَخْرُجَ من ساحة «التّنْظيرِ والكلام» إلى ساحة «الفِعْلِ والالْتِحَام» مع «الفِكْرِ

التّنْمَـويّ» ليتناغم بذلك مـع «رُوح العَصْر». إنّه مـن المُهمّ، لمُسْتَقْبَـل الأجْيال وازْدهار الأحْوال، أنْ نُحْدِثَ «نَقْلَةً نَوْعيّةً» في تَفْكيرِنَا وتفاعُلاتِنا من حالةِ «الحياةُ كَلِمَةٌ» إلى حالةِ «الحياةُ فِعْلٌ» لتَتَحَرَّكَ الإنْجازاتُ على الأرْض، وتتدافعَ مُعْطياتُ العمل المُتْقَنِ في مُخْتلف أوْجُهِـهِ المُعَاصِرَة، وتَزْدَهِـرَ العطاءاتُ الوطنيّة في مجالات «العلـوم والتّقْنية» في حركةٍ مُجْتمعيّةٍ نَشِطَةٍ يتفاعلُ معها «الخِطَابُ الدَّعَوِيّ» بإيجابيّةٍ، ويُسْهِمُ في صِياغتِها وتَشْكيلِها والارْتِقَاءِ بها – فِكْراً وعملاً وإنْجازاً –.

إنّ مـن أهـمّ مُقوِّمَاتِ «الثَّقافة التّنْمَويّـة» قُدْرَتَهَا على تَأْصيـلِ الإنْتاجيّة والعمل في تلاقُـحٍ وتَوَازُنٍ بين وِجْدَانِ الأُمّة وفِكْرِهَا من ناحيةٍ، وبين شُرُوطِ «الفِكْرِ العِلْميّ» وضُغُوطِ «التّقْنية» من ناحيةٍ أُخْرَى، لتجد «العلوم والتّقْنية» تُرْبَتَهَا الخِصْبَةَ المُسْتَنِدَةَ إلى توظيفِ واسْتِدْعَـاءِ تلك المُنْطَلقـاتِ الأصيلةِ في «الفِكْـرِ الإسْلاميّ» المُؤَسَّسَةِ علـى طَلَبِ «العِلْمِ النَّافِـعِ» و«عِمَارَةِ الأرْضِ» و«العملِ الصَّالِـحِ» و«الإحْسَانِ» الذي من أبْرز معانيه «الإتْقَان»؛ وأمّا ذلك «التَّزَاوُجُ النَّهْضَويّ» فقد عَبَّرَ عنه زكي نجيب محمود عندما تَكَلَّمَ عن «النُّهُوض»، وأشار إلى أنّه: (لن يَتَحَقَّقَ إلاّ إذا جاءَتْ الحَوافِزُ من الدِّين والوسائِلُ من العِلْم)[٢٠].

وأمّـا الدُّعَـاةُ فمَسْؤوليتُهم في هـذا المجال كبيـرةٌ؛ لأنّه من باب «الأَخْـذِ بأسْبَابِ القُوَّة» في «الأَلْفيّة الثّالثة»، وهو أمْرٌ يُصْبِحُ في حالات الضّرورة المُلِحَّة «فَرْضَ عَيْنٍ» على الأُمّـة بأسْرِهَا، ويرى زين العابديـن الرّكابي – ضمْن شُرُوطِ توفير بيئةٍ مُوَاتِيةٍ لـ«الثَّقافة العِلْميّـة» – أنّ أحـد هذه الشُّـرُوط: (اسْتِصْحَـابُ مَنْطِقِ القرآن في التّحْريضِ المُكَثَّفِ المُتَلاحِقِ علـى التّعَامُلِ الذّكيّ البصير مع سُنَنِ الكَوْنِ ومظاهـرِه وحركتِه، واسْتِصْحَابُ مَنْطِقِ القرآن في الدَّفْعِ على التَّعَرُّفِ على «الكَيْفِيّات»:

أ) ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ [العنكبوت:٢٠]؛

ب) ﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ [البقرة:٢٥٩]؛

ج) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ [الفرقان:٤٥]؛

إنّ هذا النَّصّ القرآنيّ المُحَرِّضَ على التَّفْكير، وعلى التَّعرُّفِ على الكَيْفِيّات، والدَّاعِي إلى تَسْخيرِ ما في الكَوْن...هذا النَّصُّ القرآنيُّ لم يُخَاطَبْ به - فحسبْ - جاليليو وبيكون ونيوتـن وآينشتاين وجيمس وات وستيفن جراي وكارل لينس وكلارك ماكسويل وكونراد رونتجـن، بَلْ خُوطِبَ بذلك النَّصّ: عبد الله وأحمد وخالد ومحمود ومحمد وعلي وفيصل وعبد الرحمن وعمر، وسَائِر العرب والمُسْلِمين) (١٤).

هـذه الرُّؤيةُ التي ترى في «الالْتِحَامِ العُضْـويّ» بين «الدِّين» و«العِلْم» ضَرورةً حياتيّةً وتَنْمَويّـةً لا مناص عنها تتأكَّدُ لدى عبد الغني عبود بقولـه: (ومن ثمّ يكون خطأ ما أُشِيعَ بيننا، خَاصّةً في عَالَمِنَا العربيّ، من ضَرورة عَزْلِ الدِّين في رُكْنٍ ضَيِّقٍ من أرْكان الحياة، هـو رُكْنُ العِبَادات أو «الشَّعَائِر»، إذا أُرِيدَ لنا أنْ نَتَقَدَّمَ، وأُرِيدَ لخُطَطِنَا التَّنْمَويّة أنْ تُحَقِّقَ النَّجـاح، إذْ ليس من شَـأْن الدِّين - أيُّ ديـنٍ - أنْ يعيش حبيس الضَّميـر والوِجْدَان، بَلْ مـن شأنـه أنْ «يُوَجِّهَ» - مـن خلال هذا الضَّمير والوِجْـدَان - «كِيان» الإنْسـان كُلّه وِجْهَةً مُعَيَّنَـةً في الحياة) (٢٢). وتَتَعَمَّـقُ هذه الرُّؤيةُ لدى عبد الله بن بَيَّه عندما يَصِفُ حال الأُمّة الإسْلاميّـة فيقول إنّهـا: (تعيشُ أزْمَةً حضاريّـةً وفِكْريّةً جَعَلَتْهَا فـي خُصُومَةٍ مع التّاريخ ومـع العَصْرِ على حِسَابِ التّنْمية الرُّوحيّة والنَّفْسيّـة والإنْسانيّة والاقْتصاديّة؛ ما أَفْقَدَهَا الانْسِجَـامَ الضّروريّ بيـن الضَّميرِ الدِّينيّ والأخْلاقـيّ والوَاقِعِ الإنْسانـيّ المُعَاصِر، فلم تَسْتَطِعْ المُواءَمَةَ بين كُلِّي الزَّمَان وكُلِّي الشَّرَائِع والإيمان) (٨١).

إنّ قضيّة «العلوم والتّقْنيـة»، ومُسْتلزماتِها الثّقافيّة والمُجْتمعيّة، جديرةٌ بأنْ تُصْبِحَ هَاجِسـاً يوميّـاً في تفاعُلاتِ الأُمّة لأنّها - دون مُبَالَغَةٍ - هي «القضيَّةُ الأَهَمّ»، فهي - بحَقٍّ وحَقيـقٍ - «الطَّريقُ إلـى المُسْتَقْبَل الواعِد»، وهي «قضيَّة جِهَادٍ» كما وَصَفَهَا محمد صلاح الدّيـن بقولـه: (يَتَوَجَّبُ علينا أنْ نقول لشبابنـا إنّ «الجِهَاد الحَقّ» ليس بحَمْلِ رَشّاشٍ أو قُنْبلـةٍ والذَّهَابِ إلى أفغانستـان أو العراق أو فلسطين، فلكُلِّ بلدٍ أَهْلُـهُ القَائِمون بشُؤونه، ومـن الأولى ألاّ يكـون الجِهَادُ بالفَسَادِ في الأرْضِ، وسَفْكِ الدَّمِ الحَـرَام، وتَرْويعِ الأَمْنِ، وتَفْجيرِ المُنْشآتِ، فكُلُّ ذلك جُرْمٌ عظيمٌ، إنّما «الجِهَادَ الحَقّ» والاسْتِقْلالَ والسِّيادة ببِنَاءِ

الوطـن، وتَعْزيـزِ الاقْتصاد، والتّفـوُّقِ في الصِّنَاعَـة، وسَبْقِ الآخَرِين فـي الإنْتاج والعلوم والمُخْترعات)(٨٢).

وأمّـا الحقيقـةُ الجَليّةُ، فهـي أنّه لا تُوجَدُ قضيّـةٌ تُحَدِّدُ مُسْتَقْبَل مـا يَرْبُو على مليار مُسْلِـم مِثْلَ قضيّة «التَّحَدِّي العِلْميّ - التّقنيّ» التـي يَصْطَدِمُون بها في مُخْتلف أقْطارِهم وأقاليمِهـم لتَعْزِلَهُـمْ عن مُتطلَّبـاتِ عَصْرِهم، وتَصْنَـعَ حَائِلاً كثيفاً بينهـم وبين شُرُوطِ زمنِهم؛ ولا تُوجَدُ قضيّةٌ قَادِرَةٌ على إحْدَاثِ «النَّقْلة النَّوعيّة» اللازمة في حياة ذلك الحَشْدِ البشـريّ المُتَلاطِم بأفْـكَارِه، والمُتَصَارِعِ بخِلافاته، والمُبَدِّدِ لطاقاتـه، إلاّ قضيّة القُدْرَةِ على خَوْضِ غِمَارِ «التَّحَدِّي العِلْميّ - التّقنيّ» بفَاعِليّةٍ وحيويّةٍ، وهذه القُدْرَةُ - عند توافُرِها - هـي الكفيلـةُ - بإذْنِ الله - بأنْ تَنْتَشِلَ الأُمّة من وَاقِعٍ أَصْبَحَـتْ فيه مَغْلُوبَةً على أمْرِهَا، وغريبةً على زمنِها.

إذا كانـتْ هذه القضيّة بتلـك الأهميّة القُصْوى، فحريٌّ بأنْ يَتَحَوَّلَ الاهْتِمَامُ بها إلى «تَعْبِئَـةٍ عَامَّةٍ» للطّاقـات، و«اسْتِنْفَارٍ دَائِم» للهِمَـم، لتُصْبِحَ بالفِعْلِ «قضيَّـةَ جِهَاد»؛ فهي قضيّـةُ «حياةٍ أو مَوْتٍ» للأُمّة، وهنا تَتَحَوَّلُ «فُرُوضُ الكِفَايَة» إلى «فُرُوضِ عَيْنٍ»، وتُصْبِحُ «القضيَّـةُ الأَهَمُّ» في حيـاة الأُمّة هي تَأْمين تلك «القَاعِدَةِ العِلْميّـة العريضة» التي تَتَغَلْغَلُ في «نسيج المُجْتمع»، وتَمْنَحُهُ قُوّةَ الدَّفْعِ الفَعّالَة، وتُسْبِغُ عليه ذلك التَّرَاكُمَ الخِصْبَ الذي تَصْنَعُـهُ آليّـاتٌ حَاذِقَةٌ على مساراتِ «الإنْجـاز العِلْميّ - التّقنيّ» الكفيلـة بتَحْقيقِ مَفْهُومِ «الاسْتِخْلاف في الأرْض».

٥-٧) المَدْخَلُ إلى «الثّقافة العِلْميّة»:

إنّ اعْتِبَـارَ قضيّـة «التَّحـدِّي العِلْميّ - التّقنـيّ» «قضيَّة جِهَادٍ»، كمـا وَصَفَهَا محمد صـلاح الدّين(٨٢)، هو دَعْـوَةٌ في محلِّها، وهو التّوجُّهُ الجَادّ الذي يتفاعلُ مع قضيّة «العلوم والتّقْنيـة» بكُلِّ صِـدْقٍ وحيويّةٍ وفْق أولويّتِها وريادتِها في هـذه المَرْحلةِ الحَرِجَةِ من تاريخ الأُمّـة. من الجَلِيّ أنّه لن تَتَحَقّقَ تلك «النَّقْلَـةُ النَّوْعيّةُ» - في «المُجْتمعات العربيّة» - على

مُخْتلف الأصْعِدَةِ إلاّ إذا اسْتَقَرَّتْ «مَنْظُومَةُ العلوم والتّقْنِيَة» كـ« عمودٍ فِقْرِيٍّ» لتفاعُلاته واهتماماتِه ومُنَافَسَاته، دَافِعَةً بذلك إلى تّغيُّراتٍ جِذْرِيّةٍ في القُدْرَاتِ والمهاراتِ والمَوارِد؛ ولكي تَنْعَكِسَ تلك الرُّؤيةُ على كُلِّ طُرُوحاتِنا وإسْتراتيجيّاتِنا، فإنّه يَنْبَغِي حَشْدُ الجُهُودِ نحو «القضيّة الأَهَمّ» في مُسْتَقْبَلِ الأُمّة. وفي هذا السِّياق يَحِقُّ لنا أنْ نَسْأل: (أين ذلك النَّهْجُ من خِطَابِنَا الدَّعَوِيّ، وخُطَطِنَا العمليّة، ومُمَارَسَاتِنَا اليوميّة، وثقافتِنا الجماهيريّة؟، وأين هي تلك «الاسْتراتيجيّةُ الشَّامِلَةُ» اللّازِمَة لبَلْوَرَةِ تلك الرُّؤى المصيريّة وتَفْعيلِ مُقْتضياتِ «الثَّقافة التّنْمَويّة» في تَعْليمِنا وإعْلامِنا وتفاعُلاتِنا المُجْتمعيّة على طريق «المُسْتَقْبَل» بكُلِّ شُرُوطِهِ وتحدّياتِهِ ومعاييرِه؟، وما «شُرُوطُ الثَّقافة» التي يَنْبَغِي أن تُمَثِّلَ «عموداً فِقْرِيّاً» تَتَمَحْوَرُ حوله «الثّقافةُ التّنْمَويّةُ» لتتمكَّنَ من إحْدَاثِ «التَّحَوُّلات الكَيْفيّة» اللازِمة في أنْمَاطِ التّفْكير، و«التَّغَيُّرَات السُّلُوكيّة» المَطْلُوبة في تفاعُلاتِ الحياة، و«القِيَم العمليّة» المُتناغِمَة مع «المُسْتَجِدَّاتِ الاجْتماعيّة» و«التَّحَدِّياتِ المُعَاصِرَة»؟).

إنّ النَّظْرَةَ الفَاحِصَةَ لأحْوال «المُجْتمعات المُتَقدِّمَة»، وتَطَوُّرِ مَنْظُومَتِهَا الحياتيّة، تُؤكِّدُ أنّه كُلّما اتَّسَعَتْ «القَاعِدَةُ العِلْميّة - التّقنيّة»، زاد النّشاط الفِكْريّ والاجْتماعيّ والثقافيّ والإنْتاجيّ، وتَوَطَّدَتْ صِلاتُ المُجْتمع مع عَصْرِه، واكْتَسَبَ الثِّقَةَ في قُدْرَاته، وانْخَرَطَ في التّفاعُلاتِ الحيويّة المُجْدية، وتَعَزَّزَتْ في سُلُوكيّاتِ أفْراده معاني الانْضِبَاطِ والعمل والإبْداع، وتَحَرَّرَ مَنْسُوبوه من نَوَازِعِ «الإحْبَاطِ» وهَوَاجِسِ «الغُرْبَةِ الفِكْريّة» التي تَدْفَعُ إلى حماقاتٍ لا تُحْمَدُ عُقْبَاهَا، وتُشْغِلُ أهْلَهَا بتأْويلاتٍ فَاسِدَةٍ، ورُؤىً أحَادِيّةٍ، ومفاهيم سقيمةٍ؛ فالحقيقةُ التي لا مِرَاءَ فيها أنّ ابْتِعَادَ المُجْتمع عن المَنْهَج القَادِرِ على تأْصيلِ «المَنْظُورِ التّنْمَويّ» وتوطيدِ دعَائِمِه، يَدْفَعُ به إلى التّوَغُّلِ في إشْكَالاتٍ تَنْظيريّة، وجَدَلٍ عقيم، وصِرَاعَاتٍ عَبَثِيّةٍ، وأوهامٍ بَالِيةٍ، ليَسْقُطَ في فَخِّ «الفَرَاغ الحياتيّ» - فِكْريّاً ومَعْرفيّاً وسياسيّاً وإنْتاجيّاً واجْتماعيّاً -.

وأمّا ذلك «المَنْهَجُ» النّاجِعُ لِعلاجِ أدْوائِنَا التَّنْمَويّة وإشْكَالاتِنَا النَّهْضَويّة، فإنّه يَتَمَحْوَرُ حول «ثقافةٍ عِلْميّةٍ» وَاسِعَةِ النِّطَاق والتّأْثير هي - في الوَاقِع - هَمٌّ وطنيٌّ لدى الأُمَم المُتَطَلِّعَة إلى بِنَاءِ قَاعِدَةٍ عِلْميةٍ رَاسِخَةٍ وتأْسيسِ صَرْحٍ تقنيٍّ مكين. ولا شَكّ أنّ

عمليّــة «نَقْل التَّقْنية»، وقضيّة «التّنْمية المُسْتَدامَة»، ومُشْكلات «إدارة المَعْرِفَة»، هي أُمُورٌ خَاسِــرَةٌ - بامْتيــازٍ - إذا لــم تَتَدَثَّرْ بدِثَــارِ «الثَّقافة العِلْميّة»، ولم تتضامــنْ مع مُنْطلقاتِ «الوَعْــي العِلْمــيّ»، ولم تَنْطَلِقْ من النّجاح في القضاء على ظَاهِــرَةِ «الأُمِّيّة العِلْميّة». ومن ذلــك المُنْطَلَقِ فإنّه يَنْبَغِي أنْ لا نَسْتَغْــرِبْ من المَوْقِعِ الخَجُولِ الذي تَحْتَلُّهُ «الأُمّةُ العربيّةُ» علــى خريطة «التَّنْمية والمَعْرِفَةِ والعلــوم والتّقْنية»، فهو نِتَاجٌ طبيعيٌّ لإهْمَالٍ طويلٍ لقضيّةِ «الثَّقافــة العِلْميّــة» وتَأْصيلِهَــا فــي «البِنْيَةِ الثَّقافيّــة» حيث أَمْضَــتْ مؤسَّسَاتُنَــا التّعليميّة والثّقافيّــة والإعْلاميّة عُقُوداً من الزَّمن تتباكى عليها، وتَتَغَنّى بها في كُلّ مُناسبةٍ ومَحْفَلٍ، وتَخْطُــبُ وِدَّهَا في كُلِّ مقامٍ ومقــالٍ، ولكن العطاء بَقِيَ هزيلاً ومُشَتَّتــاً في جامعاتِنا ودُوُرِ نَشْرِنَــا وفَعّاليّاتِنــا الثّقافيّة واهْتماماتِنا الفِكْريّة؛ ليَعْكِسَ كُلّ ذلك حالاً مُزْرِياً من البُؤْسِ الفِكْريّ، والعَجْزِ المَعْرفيّ، والتِّيهِ التّنْمَويّ.

مــا سَبَقَ مــن اعْتِبَارَاتٍ تَجْعَلُ مــن «الثَّقافة العِلْميّــة» «قَاطِرَةَ الثَّقافــة المُعَاصِرَة»، والرَّافِعَــةَ اللّازِمةَ لقيام «الثَّقافة» بدَوْرِهَــا التّنْمَويّ؛ ممّا يَجْعَلُ «الثَّقافــة العِلْميّة» مِحْوَراً مُهَيْمِناً من مَحَاوِرِ «الثَّقافة التَّنْمويّة»، ومَدْخَلاً ضَروريّاً لتَفْكِيكِ «إشْكَاليّة التّنْمية»، وركيزةً صَلْدَةً لبرامجِ التّوعية والتّطْوير والمُشَارَكَة، ومُكَوِّناً حيويّاً من مُكَوِّنَاتِ التّفاعُلات الفِكْريّة المُعَاصِرَة. وهكذا نجدُ أنّ السُّؤال الأبْرز في إطار «هُمُوم التّنْمية» هو: (ما «الفِكْرُ» الذي يجــبُ أنْ يَرْتَعَ في «ساحات الفِكْر العربيّ» ليكون مَعْلَمَاً أساســاً للنَّهْجِ المَطْلُوب، والخُطّةِ المَنْشُــودَة، والمُمَارَسَاتِ اللّازِمَة، والثَّقافةِ السَّائِــدَة، والإسْتراتيجيّةِ الشّامِلَة؟). يَتَّضِحُ - عبْــر كُلِّ مــا طَرَحْنَــاهُ - أنّ الإجابة عن ذلــك السُّؤال تعودُ بنا - بالضّــرورة - إلى تلك «القضيَّــة الغَائِبَة»، وهــي قضيّةُ «الثَّقافة العِلْميّــة»، وضَرورة أنْ تَحْتَــلَّ «المَوْقِعَ الرِّياديّ» فــي «مَنْظُومَــةِ الثَّقافــة التّنْمَويّة»؛ ولــذا فإنّ الحديــث عن «الثَّقافــة العِلْميّة» هــو مِحْوَرُ الفُصُولِ التّالية.



«الثَّقَافَةُ العِلْمِيَّةُ»: وَقُودُ «الثَّقَافَة التَّنْمَوِيَّة»

٦-١) مَدْخَل:

لقـد خَلَصْنَا – فيمـا سَبَقَ – إلى أنّ «الثَّقافة» كَائِنٌ حَيٌّ يَتَطَوَّرُ ويَتَغَيَّرُ؛ فهي في حالةٍ ديناميكيّـةٍ مُسْتمـرّةٍ ممّا يَجْعَلُ الوَضْعَ عسيـراً، ومُتَعَدِّدَ العناصِر، عنـد التّأمُّل والتّحْليل والتّشْخيص فـي ضَوْءِ هُمُـومِ «الثَّقافـة» وضُغُوطِهَـا المُتنامية. ولـذا لا يُمْكِـنُ اخْتِزَالُ «الثَّقافة» في فَعّاليّاتٍ فِكْريّةٍ أو فنيّةٍ أو أدبيّةٍ لا تكادُ تَتَغَيَّرُ مَعَالِمُهَا من جيلٍ إلى آخَر؛ فما تُحْدِثُـهُ المُتَغيِّراتُ المُتسارِعةُ والتّأْثيراتُ القويّةُ عبْر وَسَائِلِ الاتّصالاتِ الفائِقَةِ والتّرابُطِ العُضْـويّ مع تفاعُلاتِ «الثَّوْرَةِ العَوْلَميّة» تَفْرِضُ على «المُجْتمعات العربيّة» تحدِّياتٍ جَمّةٍ، وتَفْتَحُ آفاقاً جديدةً لا تَسْتطيعُ هذه المُجْتمعات أنْ تُهْمِلَهَا، ولا يجوزُ لـ«الثَّقافة» أنْ تُغْفِلَهَا؛ ومـن أبْرز هذه التحدّيـات وأكْثرها عُنْفواناً وتَأْثيـراً هو «التَّحَدِّي العِلْمـيّ – التّقنيّ» بكُلِّ قفزاتِه المَعْرفيّة والاجْتماعيّة والاقْتصاديّة والفِكْريّة.

لقد رأينـا في الفَصْل الثّاني كيف كانتْ أُطْرُوحَةُ «إشْكَاليّـة الثَّقافَتَيْن»، كما بَلْوَرَهَا تشارلـز سنو[٣٢]، مُنْطَلَقـاً لتَحَوُّلٍ جِذْريٍّ فـي «مَفْهُوم الثّقافة» وتداعياتِـه وتفاعُلاتِه في «المُجْتمعات الغَرْبيّة»، ولم تَزِدْ تطوُّراتُ النِّصْفِ الثّاني من القَرْنِ العشرين تلك الحقيقة إلاّ وضوحـاً وترْسيخاً؛ فقد جَعَلَـتْ «ثَوْرَةُ المَعْلُومات» من «الثَّقافـة العِلْميّة» مِحْوراً رئيساً للتّفاعُـلاتِ الفِكْريّـة والتّنْمَويّة والمُجْتمعيّة على طريقِ «العَوْلَمَـةِ» وثقافتِها. وأمّا «الأَلْفيّةُ الثّالثةُ» فإنّها تَجْعَلُ من التّحدّي التّنْمَويّ والتّلاقُحِ العِلْميّ والسِّبَاقِ التّقنيّ حقائِق وبدهيّاتٍ لا مناص من التّعامُـلِ معها وفْق لُغَتِهَا ومُتَطلَّباتِهَا وشُرُوطِهَـا؛ وهنا تَنْتَصِبُ مقولة رينيه

ماهيو (Rene Maheu) - المدير العـامّ الأسبق لليونسكو -: (إنّ تَنْمية أيِّ أُمّةٍ لا يُمْكِنُ أنْ تَتَحَقَّـقَ إذا لـم تَنْتَقِلْ العلوم والتّقْنيّة مـن كَونها سِحْراً مُسْتَورَداً إلـى أنْ تُصْبِحَ عَادَةً لدى مُواطِنيها)(٤٤)، وأمّا «التَّقْريرُ العَالَميّ لِمُنَظَّمَة اليونسكو لعام ٢٠٠٥م»(٨٣) فيُقَرِّرُ أنّ: (رَدْم الشَّـرْخِ الرّقْميّ وإقامة نِظَامٍ للابْتكار مُلائِمٍ للبلـدان النّامية يجب أنْ يُضَافَ إليه اسْتيعابٌ حقيقيٌّ للعِلْمِ ضمْن «ثقافة التّنْمية»).

وأمّـا «الثَّقافةُ العربيّةُ» فقد أَهْمَلَتْ تداعياتِ تلـك الحقائِق الصّارِخة ومُقْتضياتِها، وراحـتْ تُكَرِّرُ «سُؤال النّهْضَة» - مَـرَّةً تِلْوَ الأُخْرَى - دَاخِلَ دَوائِـر مُنْغَلِقَةٍ تَجْتَرُّ مساراتِها وتُعِيـدُ أخطاءَهـا، ويَطْرَحُ زكي نجيب محمـود ذلك السُّؤالَ القديـمَ - المُتَجَدِّدَ في سَعيٍ لبَلْـوَرَةِ الإجابـة فيقـول: (سُؤالُنَا «لمـاذا تَقدَّمَـتْ أوروبا بعْـد تَخَلُّفٍ وتَخَلَّفْنَـا نحن بعْد تَقَـدُّم؟». إنّنا نَسْـأَلُ سُؤالَنا هذا، وكأنّ الجواب خَافٍ عن الأبْصَـار، يَحْتَاجُ من البَاحِثين دَرْساً وتَنْقيباً، مع أنّ الجواب يَخْرِقُ العَيْن، وهو: لقد حاولتْ أوروبا منْذ نَهْضتِها في القَرْنِ السّادس عشر أنْ تَقِـفَ الوَقْفَةَ العَقْليّة العِلْميّة التي تَبْتَكِرُ بهـا في كُلِّ يومٍ حقيقةً جديدةً عن دُنْيانا هذه التي نعيشُ على أرْضِهَا ونَتَنَفَّسُ هواءها، بينما اتَّجَهْنَا خلال الفتْرة نفْسها نحـو الماضي، نُبْدِي فـي نُصُوصِـهِ المَكْتُوبَةِ ونُعِيـد)(٢٠). وأمّا عبـد الله النّديم فيتأمَّلُ إمْكانـات «النَّهْضَـة» في القَرْن التّاسع عشر الميلاديّ مُقَارِناً بيـن وَاقِعِ يعيشُه، ومُسْتَقْبَلٍ يَرْنُو إليه، فيقول: (إنّ سُكّانَ الشّرْقِ عبيدٌ: إنّهم يَزْرَعُون ويَحْصِدُون ويُبْدِعُون لكي يُغَذُّوا التّجارة الأوروبيّة، ويزيدوا ثَرَاءَ أوروبّا... كما لو كانوا قد خُلِقُوا لخِدْمَتِهَا. ما دام الشّعْبُ خَاضِعـاً للجَهْلِ ويعـوزه الاسْتِعْدَاد للنّضَال، فإنّه لن يتمكّنَ مـن التَّوَصُّلِ إلى أيِّ شيء. إنَّ الانْتفاضـة لن تَجْلِبَ النّجاح، إذا لـم يَحُزْ الشَّعْبُ على المعارِف، وإذا ما انْصَرَفَ النّاسُ عن المَشْرُوعات الصّناعيّة، وإذا لم يَعْرِفُوا كيف يَسْتَعْمِلُون التّقْنية)(٦).

وهكـذا تَتَكَرَّرُ الأسْئلـة إيّاها عبْر الحِقَـبِ المُتتالية، بينما تَبْقَى طبيعـةُ اهْتماماتِ «الثّقافـة العربيّـة» ومُحَدِّدَاتِهَا ثَابِتَـةً عبْر القُـرُونِ دون تَغْييرٍ جوهريٍّ. وهكـذا تَتَجَلّى - عبْـر الطُّرُوحَاتِ المُخْتلفة - ماهيَّـةُ «العُنْصُرِ الغَائِبِ» في تَرْكيبتِهـا، وهو العُنْصُرُ الذي صَنَـعَ فُرُوقاً جَمّـةً عبْر القُرُون الثّلاثة الأخيـرة في حياة البشريّة، ووَضَـعَ الحَواجِزَ بين

«الـدُّول المُتَقدِّمَـة» المُزْدَهِـرَةِ التي تُمْسِـكُ بصِناعة القـرار على مُسْتـوىً كَوْنيٍّ، وبين «الـدُّول المُتَخلِّفَـة» التي تُعَانِي من مُشْكلاتِ الوَهَنِ الفِكْـريّ، والفَقْرِ المَعْرفيّ، والإحْبَاطِ المُجْتمعـيّ، والتَّخَبُّـطِ التَّنْمَويّ. ذلك «العُنْصُرُ الغَائِـبُ» هو ما يصوغُ زكي نجيب محمود طبيعتَه وتَأْثيرَه على النَّحْو التَّالي: (لنَسْتَخْرِجْ العُنْصُرَ الذي غاب عنْدنا فكان الانْحِدَارُ... ووُجِـدَ عنْدهم فكان الصُّعُودُ، وأَحْسَبُ أنّ الحقيقة عندئـذٍ ستَصْرُخُ في وجوهنا صُراخاً يَسْمَعُـهُ حتّـى الأصَمّ، بأنّهم هناك قد أخـذوا يَقْرؤون كِتَابَ الطَّبيعـة المَفْتُوح، ويَقْرؤونه علـى ضَـوْءِ «المَنْهَجِ العِلْميّ» المُؤدِّي حَتْماً إلى نتائِج عمليّةٍ فـي حياة النَّاس، بينما أَخَذْنَا نحـن نَقْرأُ صَحَائِـفَ الأَقْدَمين لنَحْفَظَهَا حِفْظاً، ونَشْرَحَهَا ونَشْـرَحَ شُرُوحَهَا ونَكْتُبَ عنْها الهَوامِشَ، ثـمّ نَشْرَحُ هذه الهَوامِشَ فـي هَوامِش، إلى آخِر هذا الجُهْـدِ الشّاقّ الذي يَبْدَأُ بالـورق ويَنْتَهِـي بالورق)[٢٠]. وأمّا حسن صعـب، فقد أَطْلَقَ الصَّرْخَـةَ منذ السّتينات في القَـرْن الماضي، مُـدْركاً مَكْمَنَ الضَّعْفِ في «العَقْـلِ العربيّ»، ودَاعِياً إلـى مَنْبَعِ القُوّةِ في وَاقِـعِ الحياة المُعَاصِرَة، فيقول: (نَدْعُو «العَقْلَ العربيّ» للتَّحَوُّلِ من «صِنَاعَةِ الكلمات» إلى «صِنَاعَـةِ الأشْياء»، ومن اجْتِرَارِ المَنْظُومَاتِ والأراجيـزِ إلى نَظْمِ الفِكْرِ والحياة، بَلْ نَظْمِ الكَوْنِ نَظْماً إبْداعيّاً جديداً)[٨٤].

أمّـا محمد عابد الجابريّ[١] فإنّه يَتَوَقَّـفُ أمام «المَعْرِفَة العِلْميّة» ليُصَنِّفَهَا كمُرَافِقٍ أساسٍ لشُرُوطِ تجاوز «أَزْمَةِ العَقْلِ العربيّ والثَّقافة العربيّة»، فبينما يُحَدِّدُ الجابريّ هذه الشُّـرُوطَ بالتّغلُّبِ على «الأُمِّيّـة» التي تَعْنِي لديه إجَادَةَ اللّغات، والعمـل على إعادة قِرَاءَةِ «التُّرَاثِ» قِرَاءَةً نَقْديّة، والانْكبَابَ المُتواصِلَ على تَحْليلِ وَاقِعِنَا، فإنّه يُضِيفُ قائلاً: (على أنّ العمـل في هذه الوَاجِهات الثّـلاث سيكونُ غير مُنْتِجٍ، ما لم يكنْ مُرَفَقَـاً بحَمْلَةٍ وَاسِعَةٍ من أَجْل نَشْرِ «المَعْرِفَة العلْميّة» على أوسع نِطَاق. ولسنـا نَقْصِدُ هنـا «نتائِجَ العِلْم»، كُشُوفَهُ ومُنْجَزَاتِـه، بَـلْ نَقْصِدُ بصُورةٍ خاصّـةٍ «فَلْسفة العِلْم»، أَعْنِي المفاهيـم وطرائق التّفْكير المُؤَسِّسَـة لكُلِّ «مَعْرِفَةٍ عِلْميّـة». إنّنا نَسْتَهْلِكُ «العِلْمَ» كمُنْجـزاتٍ ماديّةٍ أو نظريّة، ولكنّنا لا نُنْتِجُـهُ، والسَّبَبُ واضِـحٌ، إنّنا لم نَتَمَكَّنْ بعْد من إعْدَادِ التُّرْبَةِ الصّالِحَةِ لغَرْسِ شجرته، وليسـت هذه التُّرْبَةُ إلاّ الفَلْسفـة، فَلْسفة العِلْمِ بكيفيّةٍ خاصّة). بطبيعة الحال لا نَتّفِقُ هنا

مع الجابريّ في أنّ تلك «المَعْرفَة العِلميّة» هي فقط «شَرْطٌ مُرَافِقٌ»، أو أنّ التُّرْبَةَ اللّازِمَةَ هــي فقط «فَلْسَفَةُ العِلْم»؛ فالقضيّةُ أَعْمق من ذلك وأَشْمل، ولكن على الأقلّ هذه إرْهَاصَةٌ مُهِمّــةٌ من ضمْــن تلك الإرْهَاصَاتِ التــي تَضِجّ بها «أدبيَّــاتُ الثَّقافة العربيّــة» المُعَاصِرَةُ بصفتهــا أعْراضاً لأزْمَةٍ مُسْتَفْحِلَةٍ، ولا شَكّ أنّنا فــي أمسِّ الحاجة إلى الغَوْصِ في أعْمَاقِ هذه «الأَعْرَاضِ» لتَشْخيصِ «المَرَضِ» ووَصْفِ «العِلاج».

بطبيعــة الحال، لا يَكْفِي إيمــاءٌ هنا وتَنْويهٌ هناك للخُرُوجِ من «مَــأْزِق التّنْمية» الذي وَقَعَــتْ فيــه «الثَّقافةُ العربيّةُ»؛ فالأَمْرُ فــي أمسِّ الحاجة إلى تَفْصيــلٍ وتَأْصيلٍ من ناحيةٍ، وإلى «خريطة طريقٍ» من ناحيةٍ أُخْرى، ويَبْقَى السُّؤالان الأكْثر إشْكَالِيّةً في وَاقِعِنَا العربيّ، وهمــا: (هل يُمْكِنُ أنْ نَتَحَــدَّثَ عن «مُسْتقبَلِ الثَّقافة» بمَعْزِلٍ عــن عَصْرِهَا وطبيعةِ القُوى المُهَيْمِنَةِ عليه والمُحَرِّكَةِ لمساراته؟، وألا يَجُرُّنَا هذا الهَمّ إلى الحديث عن «ثقافة العلوم والتّقْنية»، وهي الحَاضِرَةُ الغَائِبَةُ – كالعادة – في كُلّ أُطْرُوحاتنا، وإنْ كُنّا لا نَنْسَى أبداً أنْ نُشِيرَ إليها على اسْتِحْياءٍ ودون تَمَعُّنٍ؟).

وفــي سَعينــا لتَأْصيلِ ذلــك «العُنْصُرِ الحيــويّ» المَفْقُــودِ في «الثَّقافــة العربيّة» قد نجــدُ إجابةً شَافِيةً عــن السُّؤال الــذي أَرَّقَ الكثيرين من المُفكّريــن والمُثقّفين والعُلماء، وهــو السُّؤالُ الــذي صَاغَهُ أنطونيوس كرم على النّحو التّالــي: (لماذا عَجِزَتْ الحضاراتُ الشّرقيّةُ العظيمةُ من تَحْويــلِ إنْجازاتِها العِلْميّة والتّكنولوجيّة الضّخْمَة إلى ثَوْرةٍ صِناعيّةٍ دَائِمَــةٍ قَــادِرَةٍ على خَلْقِ الشُّــرُوطِ الضّروريّةِ لاسْتِمْــرَارِ تَطوُّرٍ حضاريٍّ وفِكْــريٍّ وسياسيٍّ مُتواصِــلٍ؟)[٨٥]. وفي بَحْثنا لتَأْصيلِ هذا «العُنْصُرِ الحيــويّ» المَفْقُودِ في «بَوْتَقَةِ النّهْضَة» حــريٌّ بنا أنْ نَقِفَ – أيضــاً – أمام السُّؤال الآخَر الذي يَطْرَحُــهُ راشد المبارك[٢٥]: (هل يُمْكِــنُ أنْ يكون العَالَمُ الإسْلاميّ – دُولاً وشُعُوباً – على ما هو عليه في الوقْت الحَاضِرِ من تَخَلُّفٍ وجدبٍ؛ في الجَوانِبِ الاقْتصاديّة والعِلْميّة والتّقنيّة والعَسْكريّة، لو أنّ هذه البِدايات التي ظهر أوّلها منْذ أكْثر من اثني عشر قَرْناً على يد جابر بن حيّان والكِنْديّ وابن الهيثم وابــن سينا وابن النّفيس وأمْثالهــم وَافَتْ تُرْبَةً صَالِحَةً من إقْبَالِ المُجْتمع واهْتِمَامِ الدّولة وإدْرَاكِ مــا تَنْطَــوِي عليه هــذه البِدايات من أبْعــادٍ؟). ولا شَكّ في أنّ هــذا السُّؤال، في

مضامينــه وتداعياتــه واستشْكالاته، سُؤالٌ كبيرٌ بحَجْمِ مُعاناة الأُمّــة في بَحْثِهَا القديم - المُتَجَــدِّد عن سُبُل «النَّهْضَة»، وهــو يُشِيرُ بقوّةٍ إلى ضرورة توفيــر «الوَسَطِ» الذي يَصِفُهُ راشد المبارك بأنّه: (وَسَطٌ من طبيعته مُرُونَةُ الحركة والامْتِدَاد).

٦-٢) تَأثيرات العلوم والتّقْنية على المُجْتمعات:

مــن أبْرز القضايــا المَطْرُوحة - بشَكْلٍ كبيرٍ - في «الفِكْرِ المُعاصِرِ» هي السُّؤالُ عن المِفْتَــاحِ لفَهْمِ المُشْــكلاتِ الإنْسانيّة ومَنْهَجِ الخُلُوصِ إلى الحُلُــولِ الضّرورية، وهل تَحْمِلُ «الثَّقافــةُ» بأدبِها وفُنُونِهَــا وفَلْسفتِها هذا المِفْتَــاحَ أَمْ أنّ «العلوم والتّقْنيــة» هي المُمْسِكَةُ بزِمَامِ الخَلاصــ؟. وعبْر التّاريخ خضعتْ المُجْتمعاتُ البشريّةُ لعمليّاتٍ مُضْنيةٍ ومُسْتمرّةٍ على طريق النُّضْجِ والنُّموّ والتَّطوُّر الثّقافيّ، وفي إطار تلك العمليّات يُثْبِتُ التّاريخُ أنّه كان - وما يزال - لـ«العلوم والتّقْنية» الدَّوْرُ الأَبْرَزُ والأَكْثَرُ فَاعِليّةً في إحْدَاثِ القفزاتِ الحياتيّة والتَّغْييــراتِ الاجْتماعيّــة والتّطويرِ الاقْتصــاديّ؛ فاكْتشافُ أيِّ جماعــةٍ، أو اسْتِعَارَتُهَا، أو اسْتِخْدَامُهَــا لمبــادئ عِلْميّة، أو تَطْبيقُهَا لتقْنياتٍ حديثةٍ - مِثْــل: مَصْدَرٍ جديدٍ للطّاقة أو تَطْوير في اسْتِخْدَامِ مَصْدَرٍ قديم -، كان يقودُ مُباشَرَةً إلى آثارٍ عميقةٍ وتَغْييراتٍ مُتَتاليةٍ تَطْــرَأُ في العَلاقَــاتِ بين النّاس بعْضهم ببعْضــ، وبين مُجْتمعهــم والمُجْتمعات الأُخْرى؛ وبالتّالي كانتْ تلك المُجْرَيَــاتُ العِلْميّةُ والتّقنيّةُ تَتْرُكُ بَصْمَاتُهَا الوَاضِحَةُ على «الثَّقافة». بطبيعــة الحــال، ليس آخِرُ هذه التّأْثيرات ما أَحْدَثَهُ «عَالَــم الإنْترنت» ودُنْيا «الفيس بوك» و«اليوتيــوب» و«التّويتــر» وغيــر ذلك من عَوالِــم «الإعْلام الجديــد» من انْتشــارٍ للتّواصُلِ الاجْتماعــيّ ونَشْرٍ للتّفاعُلاتِ بين الجماعات والأَفْراد علــى مُسْتوىً وَاسِعِ النِّطَاقِ؛ ممّا له تداعيــاتٌ ضَخْمَــةٌ - سَلْباً وإيجاباً - نَشْهَدُهَــا ونَعيشُهَا ثانيةً بثانيةٍ فــي مُخْتلف الأَصْقَاعِ والبِقَــاعِ علــى المُسْتوى الحركيّ والسّياســيّ والثّقافيّ والمُجْتمعــيّ والاقْتصاديّ والبَحْثيّ وغير ذلك من مجالاتٍ حياتيّة.

إذا كانــتْ «الحضــارة»، كمــا يــرى أوزوالــد سبنجلــر (Oswald Spengler) هي: (ثمــرةٌ لعبقريّــةٍ تَسِمُ عَصْراً مُعَيَّناً بمَيسَــمِ ابْتِدَاعٍ أساسيّ)[٢]، فــإنّ «الحركة العِلْميّة -

التّقنيّــة» هــي المَيْسَمُ المُهَيْمِــنُ والعَبْقريّةُ المُمَيِّــزَةُ للحضارة المُعَاصِــرَةِ التي بَدَأَتْ في التّشــكُّلِ مع بُزُوغِ «الثَّــوْرَةِ العِلْميّة» في القَرْنِ السّابع عشر الميــلاديّ. لقد اهْتَمّ كثيرٌ من المُفكّريــن والعُلمــاء بالتّأْثيــرات العميقة التي تَصْنَعُهَــا «الحركة العِلْميّــة - التّقنيّة» في المُجْتمعات[٨٩،٨٨،٨٧،٨٦،٤٧،٤٤،٣٢،٢٠]؛ وهذا هو محمد عابد الجابريّ يُؤَكِّدُ ذلك الدَّوْرَ الحَاسِمَ لـ«العِلْمِ» في تَشْكيلِ «المُجْتمعات الغَرْبيّة»، وتَفْعيلِ أَنْشطتِها العَقْليّة والذِّهْنيّة، فيقول: (كُلُّ مــن لــه إلْمامٌ بتاريخ هذا الفِكْــر «أيْ الفِكْر الأوروبيّ» يَعْرِفُ أنّ الثَّــوْرَاتِ الحَاسِمَةِ دَاخِلَهُ كانتْ ثَوْراتٍ عِلْميّةً من كوبرنيكس إلى غاليليو إلى نيوتن إلى آينشتاين وماكس بلانك إلى «الفِــرَقِ» العِلْميّة المُعَاصِرَة. ولا نَقْصِدُ هنــا تَطْبيقاتِ العِلْمِ من أجْهِزَةٍ وآلاتٍ وصِناعاتٍ، بَلْ نَقْصِدُ أساساً آثَارَهُ العميقة، بَلْ تَأْثيرَهُ الحَاسِمَ في مُسْتوى مُرَاجَعَةِ المفاهيم وتَجْديدِ الرُّؤى، وبالتّالي في إعادة بَنْيَنَة العَقْلِ وتنْشيطِ فعّاليّاته بصُورةٍ مُسْتمرّة)[١].

وأمّــا أَبْرز «تَأْثيــرات العلوم والتّقْنية في المُجْتمعات» فيُمْكِــنُ إيجازُها في الجَوانِبِ التّالية:

١) التّأْثيــراتُ الثّقافيّــةُ المُبَاشِــرَةُ التــي تَنْعَكِسُ على تَعْديــلِ الأفْــكَارِ والأعْرَافِ والمفاهيــمِ والسُّلُوكيّاتِ التّقليديّــة أو تَصْحيحِ أو إلْغاءِ الكثيــر منها، كما أنّها تَدْفَعُ إلى اكْتِسَابِ مُمَارَسَاتٍ وأفْكَارٍ وتصوُّراتٍ يَفْرِضُهَا نجاحُ «الحركة العِلْميّة والتّقنيّة» وتراكُماتُها المُتلاحِقَة.

٢) التّأْثيــراتُ التّقنيّة والأدواتُ التّطْبيقيّة التي غَيَّــرَتْ أنْمَاطَ الحياة على مُخْتلف الأصْعِــدَة، ومَيَّــزَتْ «المُجْتمعــات المُتَقَدِّمَــة» عن غيرهــا صِناعيّــاً وعَسْكريّاً واجْتماعيّــاً واقْتصاديّــاً؛ فـ«التّقنيــةُ» ذات «طبيعــةٍ اقْتِحَامِيّةٍ»[٩٠] لهــا القُدْرَةُ الذّاتيّــةُ على غَزْوِ المُجْتمعات بمــا تُوَفِّرُهُ من سِلَعٍ وخِدْمَــاتٍ وابْتِكَاراتٍ، سَواءً كانتْ تلك المُجْتمعات رَافِضَةً لها، أو حَذِرَةً من آثارها.

٣) التّأْثيراتُ البيئيّةُ والاجْتماعيّةُ والسّياسيّةُ؛ فقد أَصْبَحَ «المُجْتمع الحديث» أَكْثر عُضْويّةً في التَّرَابُطِ والتَّكَامُلِ بين أجْزائِه، بحيث يتنامى الاعْتِمَادُ بين مُكَوِّنَاتِهِ

المُتَعَـدِّدَة. إنّ نُموّ أوْجُهِ التّعدُّديّة، وزيـادة درجة التّشَابُكِ بين تفرُّعاتِ الحياة المُخْتلفة، يُؤدّيـان إلى بُرُوزِ مؤسَّسَاتٍ مَدَنِيّـةٍ ذات اهْتماماتٍ مُتَنَوِّعَةٍ لتتعامل مـع الآثار والتّفاعُلات المُخْتلفة لـ«الحركة العِلْميّة – التّقنيّة»، وهذا – بدَوْرِهِ – يَفْرِضُ تغيُّراتٍ سياسيّةً في إطَارِ التّرْكيبة الدّاخِلية للدّولة أو في عَلاقَاتِهَا مع غيرها من دُول العَالَم.

٤) الآثـارُ الفَلْسفيّـةُ والقِيميّـةُ النّاتِجَةُ عن هَيْمَنَـةِ الإنْسان على بيئتِـه وسَيْطَرَتِهِ علـى أنْمَاطِ حياته، وتفاعُـلِ الفَلْسفة والفِكْـرِ الإنْسانيّ مع إفْـرَازَاتِ «المَنْهَجِ العِلْمـيّ»، وطُـرُقِ تَفْكيـرِه، وآليّـاتِ تَحْليلِـه وتصوُّراته حول الحيـاة والطّبيعة والكَـوْن، وكان من آثارهـا – على سبيل المِثـال – الحركةُ الفَلْسَفِيّـةُ المُسَمَّاة «الفَلْسَفَـة التَّجْريبيّة المَنْطقيّـة»، أو «الفَلْسَفَة الوَضْعيّـة المَنْطقيّة»، وقد أدَّتْ هـذه «الفَلْسَفَةُ التّجْريبيّةُ» بالفِعْـل دَوْراً لا يُمْكِنُ تجاهلُه في تَكْوين جَوانِب عِدّةٍ من «العلوم الإنْسانيّة» وتَطَوُّرِهَا، مِثْل: «عِلْم النَّفْس» و«عِلْم الاجْتماع»[٩١].

٥) عمومـاً إذا اتَّفَقْنَا مع محمد عابد الجابريّ[١] بـأنّ «الفِكْرَ» هو «مُحْتوىً وأداةٌ» تَرْبطهمـا عَلاقَـةٌ عُضْويّـة بالمُحيط الاجْتماعـيّ – الثّقافيّ الـذي يَنْتَمِي إليه هـذا الفِكْر، فإنّـه يَتَّضِحُ حَجْمَ التّأْثيرِ الـذي يُمْكِنُ أنْ يُحْدِثَـهُ «الفِكْرُ العِلْميُّ» علـى «الثَّقافـة»، ونُظُمِهَا المَعْرفيّـة، وأدواتِها اللّغويّـة، وفَاعِليّتِها الاجْتماعيّة، وتفاعُلاتِهـا المُخْتلفة. بَلْ إنّنا نَسْتطيعُ أنْ نَعْـزُوَ الفَرْقَ بين «العَقْلِ العربيّ» في رُكُودِهِ واجْتِـرَارِهِ وسُكُونِهِ وتناقُضاتِه، وبين «العَقْلِ الغَرْبيّ» في حيويّتِهِ وحركتِه وديناميكيّتِـه، إلـى غِيَـابِ «الثّقافة العِلْميّـة» و«الفِكْـرِ التَّجْريبـيّ» و«الحَاسَّةِ النّقْديّة» في «الثّقافة العربيّة».

وفي هذا السِّياق يَتَطَرَّقُ عبـد الرحمن المحسني[٩٢] إلى «أَثَرِ التَّقْنية» في «التَّكْوين الفِكْـريّ» الذي يَصْنَعُ «النَّصَّ الأدبيّ» حيث يُؤكِّدُ هذه الظّاهِـرَةَ فيقول: (يَمْتَزِجُ كُلُّ أدبٍ بالعَصْرِ الذي يَنْبُتُ فيه الأدب، ومن هنا فإنّنا لكي نَسْتطيع أنْ نُقَدِّمَ وَعْياً شَامِلاً لحقيقة «الأدب العربـيّ» يجب أنْ نَدْرُسَ مُعْطيات العَصْرِ دِراسةً جيِّدةً، ونَفْهَمَ حالة التّناغي بين

الأدب والعَصْر. ومن أهمّ ما يُمَيِّزُ عَصْرَنَا سُرْعةُ التّواصُلِ بين أطْيافِه الفِكْرية المُخْتلفة الــذي هَيّــأَهُ التَّوَاصُلُ التّقنيّ، وبالطّبع والأَمْرُ كذلك أنْ نرى أدبــاً مُخْتلِفاً عن كُلِّ العُصُورِ السّابقــة؛ ممّــا يَعْنِي أنّ علــى دَارِسِ هذا الأدب أنْ يَعْلَــمَ أنّ المَعْرفة الزُّلْفَــى التي أَصْبَحَ النَّصُّ يَتَحَــرَّكُ بها في مدارٍ عَوْلَميٍّ من شَرْقِ الكَوْنِ لغَرْبِهِ ستكــون مُؤَثِّرةً أيّما تَأْثيرٍ على صُنْعِ الأدب دِراسةً ونَصّاً)، وفي الوَقْت ذاته يرى عبد الرحمن المحسني أنّه: (يجب أيضاً أنْ نَعِيَ أنّ من أهمّ سِمَاتِ العَصْرِ «الجَانِبَ التِّقانيّ»، وأثره الفَاعِلَ على النَّصّ، وإذا كانتْ «التِّقْنيةُ» قد أَلْقَتْ بِظِلالِهَا على كُلِّ مُعْطياتِ حياتنا، فيجب أنْ نُؤمِنَ بأثرها على التَّكْوين الفِكْريّ الذي يَصْنَعُ النَّصّ؛ فالنَّصُّ الذي يَسْتَجِيبُ للمنْبر التّلفزيونيّ والإذاعيّ، ورسائِل الــ sms، والوسائِط، والنَّصّ الحاسوبــيّ...؛ كُلُّ هذه المُعْطيات التّقنيّــة المُعَاصِرَة تُؤثِّرُ علــى إنْتاج النَّصّ، وهي تَحْتَاجُ إلى نَاقِدٍ حَاذِقٍ قَادِرٍ علــى التّوَاصُلِ مع أبْعَادِهَا، وظِلالِهَا على النَّصّ).

وهكذا يَتَّضِحُ أنّ «الحركة العِلْميّة - التّقنيّة» قد طَبَعَتْ هذا العَصْرَ بطابعِها المُمَيَّز، واحْتَلَّــتْ مَوْقِعاً مَرْكزيّــاً لا يُمْكِنُ إنْكَارُهُ أو تجاهُلُه، وتزدادُ قُــدْرَةُ هذه الحركة على تَغْييرِ العَالَــمِ وتتنامــى أهميّة دَوْرِهَا ونحن نُعاصِــرُ العَقْدَ الثّاني من «الأَلْفيّــة الثّالثة»، ونتعاملُ مــع «ثَوْرَةِ المَعْلُومــات» وتَدَفُّــقِ «العَوْلَمَة»، وضُغُــوطِ «مُجْتمع المَعْرِفَة»؛ وهــذا هو الفَارِقُ الرَّئِيس بين المُجْتمعات، وهو الذي يُحَدِّدُ حالتها في «أنْ تكون أو لا تكون»، ويَصِفُ جورج سارتون (George Sarton) هذا الفَارِقَ بقوله: (الفَارِقُ الفِكْريُّ العظيمُ بين البشر ليس بسبــب الجُغْرافيا والجَوانِب العِرْقيّة، ولكن بين أولئك الذيــن يَفْهَمُونَ ويُطَبِّقُونَ «المَنْهَجَ التَّجْريبيّ»، وبين أولئك الذين لا يَفْهَمُونَهُ ولا يُطَبِّقُونَه)[٩٣].

أمّــا بلُغَــةِ «الفيزياء» فإنّنا نقــول: إذا كان «النيوترون البطيء» فــي «العلوم النّوويّة» هــو الذي يَبْدَأُ مــا يُعْرَفُ بـ«التَّفاعُلِ المُتَسَلْسِلِ» من الانْشِطَــارَاتِ في عُنْصُرِ «اليورانيوم» لتَنْطَلِقَ تلك الطّاقةُ الجَبَّارَةُ في «المُفَاعِلاتِ النّوويّة»، فإنّ «الثَّقافة العِلْميّة» عند اخْتِرَاقِهَا لــ «الجَسَدِ الثَّقافيّ» للمُجْتمع هي القَادِرَةُ على بَدْءِ «التَّفاعُلاتِ التَّنْمَويّة»، وإطْلاقِ شرارة الطّاقــات الإنْتاجيّة، وضَبْــطِ مسيرة التّفاعُــلات الاجْتماعيّة، وتَطْويرِ الآفــاق الإنْسانيّة

والمــدارك المَعْرفيّة. ومــا دُمْنَا في نِطَاقِ «الفيزياء النّوويّة» فإنّ مــن المُهِمّ أنْ نَعْرِفَ أنّ هنــاك «كُتْلَةً حَرِجَــةً» من «المادّة المُشِعَّة» لازِمَــةً لإحْدَاثِ «التَّفاعُــلِ المُتَسَلْسِلِ» وإطْلاقِ «الطَّاقَــة النّوويّة» مــن عِقَالِهَا، وبالمُقَارَنَةِ مــع «الوَاقِعِ الثَّقافيّ» فإنّ هــذا يَعْنِي أنّ هناك «تَرَاكُمَاتٍ كَمِّيّةً» من مُعْطياتِ «الثَّقافة العِلْميّة» وأطْيَافِهَا التي تقودُ – عند تَرَاكُمِهَا وبُلُوغِهَا ذلــك «الكَمّ الحَــرِج» – إلى إحْدَاثِ تلك «النَّقْلَة النَّوْعيّة» التي هــي تتويجٌ لتلك التَّرَاكُمَاتِ والتّفاعُلاتِ والطُّرُوحَاتِ في مضامير «الثَّقافة العِلْميّة».

٦-٣) «الثّقافة العِلْميّة»: المَدْخَلُ إلى تَفْكيك «إشْكَالِيّة التَّنْمية»:

لقــد وجدنا – في سِياق فُصول هذا الكِتاب – أنّ «إشْكَالِيّة التّنْمية» في «المُجْتمعات العربيّــة» تَكْمُــنُ – أساساً – في «التَّــرَدِّي المَعْرفيّ»، و«ضعْف الإنْتاجيّــة»، وانْعدام الدَّوْرِ الحيــويِّ في الإسْهَامِ في التّفاعُلاتِ والتّحوُّلاتِ المُعَاصِرَة. وأمّا أبْرز المُتطلَّباتِ للتَّصَدِّي لهــذه التّحدّيات، فهو صِياغَةُ وتَأْسيسُ «ثقافةٍ تَنْمَويّــةٍ» تُمَكِّنُ هذه المُجْتمعات من التَّغَلُّبِ علــى أزْمَتِهَــا الثّقافيّــة وإشْكَالاتِهَا التّنْمَويّــة، ومن الضّــروريّ والمَنْطقــيّ أنْ تَنْبَثِقَ هذه «الثَّقافة» عن طبيعة العَصْرِ وظُرُوفِ المَرْحلة؛ فالحاجةُ مُلِحّةٌ لـ«ثقافةٍ تَنْمَويّةٍ» تقومُ بدَوْرِ «الوَسَــطِ» القَادِرِ علــى اسْتيعابِ مُعْطياتِ «الحركــة العِلْميّة – التّقنيّــة»، وتوفيرِ الشُّرُوطِ الخُلُقِيّــة والمَعْرفيّــة والقِيميّة والسُّلُوكيّة والاجْتماعيّة والاقْتصاديّــة المُتناغِمَةِ مع طبيعة هذه «الحركة» ومُقْتضياتِها. تلك «الثَّقافةُ التّنْمَويّةُ» المُؤَسَّسَةُ على «العِلْم» و«المَعْرِفَةِ» هي التي ستُوَفِّرُ «البِيئَــةَ المُنَاسِبَةَ» لتَشْكيلِ تلك «الذِّهْنِيّة» التي وَصَفَهَا غازي القصيبي بأنّها «الذِّهْنِيّــة التّنْمَويّة» وهي: (ذِهْنِيّةٌ عِلْميّةٌ بالدَّرجة الأولــى، بمَعْنَى أنّها تَلْجَأُ إلى الأُسْلوبِ العِلْمــيّ فــي حَلِّ المشاكل بَدَلاً من التَّخَبُّطِ الخالي مــن كُلِّ مَنْهَجيّةٍ أو الانْحِرَافِ التِّلْقائيّ تجــاه الحُلــولِ الأيديولوجيّة)[١٠]. هذا – أيضــاً – ما يُؤَكِّدُهُ انطونيوس كــرم بقوله: (إنّ التَّوَصُّــلَ إلــى اكْتشافاتٍ واخْتراعاتٍ هامّةٍ يكــون مُرْتَبِطاً بالحاجــات المُلِحَّة التي تُواجِهُ المُجْتمــع وبطبيعة العَلاقَــاتِ والحَوافِزِ السَّائِــدَةِ أو المُتَاحَةِ في المُجْتمــع. وإذا كان من المُسْتحيــل التّنَبُّــؤ بلحظة حُصُولِ اكْتِشــافٍ أو اخْتِراعٍ ما، فإنّ أيَّ اخْتِــراعٍ أو اكْتِشافٍ لا

يُمْكِنُ اسْتغلاله والاسْتفادة منه عِلْميّاً واقْتصاديّاً واجْتماعيّاً إلاّ إذا كان المُسْتوى العامّ للمَعْرفة والعلوم والاقْتصاد مُتلائِماً مع تَحْقيقِ مِثْل هذه الاسْتفادة أو الاسْتغلال. فهناك في التّاريخ اكْتشافاتٌ واخْتراعاتٌ هامّةٌ ضَاعَتْ، أو اسْتَغَلّتْهَا حضاراتٌ أُخْرى، لعدم تَوَفُّرِ حوافِز ومُسْتوىً كافٍ من التّقدُّم الاقْتصاديّ والاجْتماعيّ في البلد الذي تَمَّ فيه الاكْتِشاف أو الاخْتِراع أصْلاً، أو لأنّ القِيَمَ الاجْتماعيّة السّائِدَةَ كانتْ عَائِقاً لاسْتِخْدام واسْتِغْلالِ هذه الاكْتِشافات والاخْتِراعات في مجالاتٍ تتناقضُ مع هذه القِيَم)[٨٥].

كُلُّ هذه الاعْتبارات المُهمّة تَجْعَلُ من «الثَّقافة العِلْميّة» «قَاطِرَةَ الثَّقافةِ المُعَاصِرَة»، والرَّافِعَةَ اللاّزِمَة لقيامِ «الثَّقافة» بدَوْرِهَا التّنْمَويّ؛ ممّا يَجْعَلُ «الثَّقافة العِلْميّة» مِحْوراً مُهَيْمِناً من مَحَاورِ «الثَّقافة التّنْمَويّة»، ومَدْخَلاً ضروريّاً لتَفْكيكِ «إشكَاليّة التّنْمية»، وركيزةً صَلْدَةً في برامِجِ التّوعية والتّطْوير والمُشَارَكَة، ومُكَوِّناً حيويّاً من مُكَوِّنَاتِ التّفاعُلات الفِكْريّة المُعَاصِرَة، وهذا ما يُؤَكِّدُهُ جلين سيبورج بقوله: (بالإضافة إلى الحاجة إلى العُلماء المُدَرَّبين، وعُلماء الرّياضيّات والمُهندسين والعاملين غير المهنيّين المُلِمّين بتَجْهيزاتٍ تِقنيّةٍ مُعَقَّدَةٍ، فإنّ هناك حاجةً إلى فَهْمٍ وَاسِعِ النِّطَاق للعِلْمِ بين عامّة النّاس)[٤٤].

إنّ المُتَأَمِّلَ لظَاهِرَةِ «إشْكَاليّة التّنْمية»، سيَخْلُصُ إلى أنّ «المُجْتمعات النّامية» ستظلُّ تدورُ في حَلْقَاتٍ مُفْرَغَةٍ في لهاثِها وراء «نَقْلِ التّقْنية»، وتَطْويرِ التّعْليم، وتَنْشيطِ البَحْث، وتوطينِ الصّناعة، و«تَنْويعِ مصادرِ الدَّخْل»، ما لم تَهْتَمّ اهْتماماً حقيقيّاً بتشييدِ الجُسُورِ المتينة مع «الفِكْرِ العِلْميّ» ومُعْطياتِه لتَشْكيلِ «العَقْلِ العِلْميّ الجَمْعِيّ»، واسْتِنْبَاتِ «العلوم الحديثة» في البِيئة، لتمتدَّ جُذُورَهَا إلى أعْمَاقِ الكيان المُجْتمعيّ، وتتفاعلَ مع أنْسجتِه الثّقافيّة وفعّاليّاتِه الفِكْريّة، وتَتَّسِقَ مع تَوَجُّهَاتِ مُثقّفيه وطُرُوحَاتِ مُفكّريه وتفاعُلاتِ العامّة؛ فتتدافعُ الإسْهاماتُ والإبْداعاتُ بفِعْلِ «الوَعْي العِلْميّ» السّائِد. أمّا عندما نَتَحَدَّثُ عن «المُثقّفِ التّنْمَويّ» ووظيفتِه الاجْتماعيّة ودَوْرِه التّوعويّ، فإنّه من الضّروري تَحْديد الشُّرُوطِ اللاّزِمَة لأداء تلك الوظيفة وإنْجاح مَقَاصِدِهَا، وسنجدُ أنّ «الفِكْرَ العِلميّ» يُمَثِّلُ العِمَادَ الرّئيسَ لمَنْظُومَةِ الشُّرُوط اللاّزِم توفُّرها، وهذا هو جوهرُ القضيّة ولُبُّهَا، وهنا يَبْرُزُ

أيضـاً السُّؤالُ الاسْتِنْكَاريّ الـذي طَرَحَهُ جلين سيبورج: (كيف يُمْكِنُ للمُواطِن أنْ يَتَصَرَّفَ بِحِكْمَةٍ بشَأن موضوعاتٍ تُؤثِّرُ فيها قُوىً تَقَعُ خارجَ نِطَاقِ الأُمُورِ التي يَفْقَهُهَا؟)(٤٤).

وأمّـا مَخْرَجُ «الثَّقافة العربيّة» مـن «المَأْزِق القديم - المُتَجَدِّد» فـي ظِلّ التّعامُلِ مع «تفاعُـلات السّاحة العَالَميّة» بكُلِّ عناصرِها ومُقَوِّمَاتِهَـا وآثارِها، فإنّه يَكْمُنُ في ما يُوجِزُهُ أحمـد زويل بقوله: (صحيـحٌ أنّ المنْطقة العربيّة تُعَانِي من نِزَاعَـاتٍ ومن مشاكل دَاخِليّةٍ تَسْتَنْـزِفُ جُلَّ قُدْرَاتِهَا ومَوارِدِهَا، ولكن يَتَعَيَّنُ على العـرب، إذا كانوا يُريدون الارْتِقَاءَ إلى مصافّ الدُّول المُتَقَدِّمَـة، أنْ يُحْدِثُوا نَهْضَةً عِلْميّةً حقيقيّةً، وليس تَغْييراً تدريجيّاً. والعِلْمُ والتِّكنولوجيا هما العُمْلَةُ الجديدةُ للقَرْنِ الواحد والعشرين، ولن يُمْكِن تَغْييرُ الوَضْعِ الرّاهِن دون تَحْسيـن مُسْتويات التَّعْليم والمهارات واسْتِحْدَاثِ «ثقافةٍ عِلْميّة»)(٧٠). وأمّا عبد الغني عبـود، فلا يَتَصَـوَّرُ حُدُوثَ «تَنْميةٍ مـا»: (دون أنْ يَتِمَّ هـذا التَّغْييرُ المَنْشُـودُ للمُجْتمع في اتِّجَـاهِ «العِلْـم» و«التِّكْنولوجيا»، ففي ظِلِّهِمَا يعيشُ كُلُّ فَرْدٍ في العَالَمِ اليوم، حتى في البلاد المُتَخَلِّفَة، وفي إطَارِهِمَا يَتَحَرَّكُ كُلُّ مُجْتمعٍ مُعَاصِرٍ في شَتّى شُؤون حياته، حتى لو كان هذا المُجْتمـع مُتَخَلِّفَاً، ومن ثـمّ فإنّ «التّنْمية» اليوم تَفْرِضُ ضَـرورةَ التّحْويلِ الفِكْريّ للمُجْتمع بأسْرِهِ إلى الرُّوحِ العِلْميّة وإلى التِّكْنولوجيا، وهما الدّعامتان الأساسيّتان لـ«التّنْمية»)(٢٢).

وهكـذا يَتّضِحُ أنّـه من الضّروريّ أنّ تُصْبِحَ «الثَّقافةُ العِلْميّـةُ» مُكَوِّناً رئيساً وعُضْويّاً فـي «الثَّقافة السَّائِدَة»، وأنْ تتفاعـلَ - بحيويّةٍ وديناميكيّةٍ - مع عناصرِها المُخْتلفة، لكي يَتَحَقَّـقَ ما أَدْرَكَهُ تشارلز سنو من ضَرورةٍ لـ«لمُجْتمعـات الغَرْبيّة» عندما قال: (يَنْبَغِي أنْ يَتِمَّ اسْتيعابُ العِلْم كجُزْءٍ لا يَتَجَزَّأُ من كَامِلِ تَجْرِبتِنَا الفِكْريّة، وأنْ يُسْتَخْدَمَ بشَكْلٍ طبيعيٍّ كما تُسْتَخْدَمُ بقيّةُ الأَنْشِطَةِ الفِكْريّة)(٣٢).

٦-٤) الطّبيعة الاقْتِحَاميّة للعلوم والتّقْنية:

من بدهيّات الحيـاة المُعَاصِرَة أنّ الهَجْمَةَ التّقنيّة العِلْميّـة المُتسارِعَةَ والمُتعاظِمَةَ قـد غَيَّرتْ وَجْـهَ الأرْض، وانْطَلَقَتْ فـي أرْجَاءِ السَّمَـاء، وقَلَبَتْ المفاهيـم مَعَاشَاً وفِكْراً،

وبَدَّلَـتْ أنْمَاطَ الحيــاة وأشْكَالَ الحجر وتفاعُـلاتِ البشر؛ ومن بَدَهِيّاتِهَـا أنّ العَصْرَ هو «عَصْرُ العلوم والتّقْنية» فمن يُمْسِكُ بزِمَامِ تلك الحركة النَّشِطَة - بكُشُوفِهَا واخْتراعاتِها وتَطْبيقاتِهــا - يَفْرِضُ هَيْمَنَتَهُ على السّاحــة العَالَميّة؛ فأَصْبَحَتْ الحاجـةُ لتَبَنّي الأنْظِمَةِ العِلْميّة والتّقنيّة من ضَروراتِ اسْتمراريّة حياة البشر وتَسْهيلِها وتَطْويرِها. وهكذا نجدُ أنّ «حركة العلوم والتّقنية» تَقْتَحِمُ المُجْتمعات، وهي تَفْعَلُ ذلك دون انْتِظَارِ الإذْنِ أو الحُصُولِ علــى المُوَافقَــة، وذلك بسبب ما تُقَدِّمُهُ من سِلَعٍ وخِدْمَاتٍ وتَطْويــرٍ مُسْتمرٍّ لأنْمَاطِ العيش ووسائــل الحيــاة، وما تُوَلِّدُهُ من احْتياجاتٍ مُتناميةٍ في مُخْتلـف المجالات، وما تُؤَمِّنُهُ من ابْتِكَاراتٍ جديدةٍ مُتَتاليةٍ تَتَّسِمُ بجَوْدَةِ الأداء والرُّخْصِ ويُسْرِ اسْتِخْدَامِهَا فقد تكونُ أصْغَرَ حَجْمــاً أو تكونُ أقلَّ اسْتِهْلاكاً للطّاقة؛ وكُلُّ تلك الأسْبــاب وغيرها تَدْفَعُ إلى تزايد الطَّلَبِ عليها والتَّسَابُقِ في اقْتنائِها.

لقــد أَدْرَكَ سليــم البستاني في أواخِرِ القَرْن التّاسع عشــر الميلاديّ هذه «الخَاصّةَ الاقْتِحَاميّــةَ للعلــوم والتّقْنيــة» مُؤكّداً أنّهــا تُمَثّــلُ «رُوحَ العَصْر»، وخَالِصاً إلــى أنّه: (من حُسْــنِ التَّدْبير المُوَافَقَةُ لرُوحِ العَصْــر. لأنّ من لا يُوَافِقُهُ بالرِّضَى يُوَافِقُهُ على رَغْمِ أنْفِه) [٤]. ولكــن فَهْمَ الشّــكْلِ العامّ للظّاهِرَة لا يَعْنِــي إدْرَاكَ خصائصِها المُمَيِّــزَةِ أو اسْتيعابِ عناصرِها الأساس، كما لا يَعْنِي - على الإطْلاق - تَوَافُرَ القُدْرَةِ على التَّعَامُلِ معها بكفاءَةٍ، وتَطْويعَهــا بفاعِليّةٍ، والتَّكَيُّفَ معها بإيجابيّةٍ. ولذا فإنّ ما عهدناه في ثقافتنا من الإسْهَابِ فــي الإنْشائيّــاتِ والجَدَلِ لا يَخْدِمُ في فَهْمِ هذه الظّاهِــرَة، كما أنّه لم يَخْدِمْ أيَّ قضيّةٍ من قضايانــا في الماضــي أو الحَاضِر، بَلْ كان وبالاً وشُؤماً علــى الأُمّة عبْر تاريخها. بطبيعة الحال، كان من المُتَوَقّعِ لمِثْل ذلك الاقْتِحَام العَارِمِ أنْ يُوَلِّدَ في «المُجْتمعات العربيّة» رُدُود فِعْــلٍ رَافِضَةً لهَيْمَنَتِه؛ فـ«مُقَاوَمَة التّغْيير» سُنَّةٌ كَوْنيّــةٌ لا مناص عنها، ولكنّنا اعْتقدنا أنّنا تَغَلَّبْنَا علــى مِثْل هذه «المُقَاوَمَةِ» عندما سمحنا لأنفسنا بالتّمتُّــعِ بمُعْطياتِ العِلْم ووسائِل التّقْنيــة، ولــم نَتَنَبَّه إلى ذلك «العَدَاءِ الخَفِيّ» الكَامِنِ فــي وِجْدَانِنَا لهذه «المَنْظُومَة» التي تَقْتَحِــمُ حياتَنا ومَأْكَلَنَــا واتّصالاتِنا واقْتصادَنا وتفاعُلاتِنــا الاجْتماعيّة والفِكْريّة، ويكونُ مَلاذُنَــا الوَهْمــيّ - عــادةً - هو ذلك «المَوْقِــفُ الانْتِقَائيّ»، أو «الدَّعْــمُ اللّفْظيّ»، وهما لا

يُقَدِّمَان شيئاً على طريق الإنْجاز الفِعْليّ، بينما نَسْتَمِرُّ في تَقْديم «التَّنَازُلاتِ الاسْتِهْلاكيّة» تحْـت وَطْأَةِ العصْر ومُقْتضياتِـه، ونَسْتَسْلِمُ لعُنْفـوانِ «القُدْرَةِ الاقْتِحَامِيّـةِ لحركة العلوم والتّقْنية».

لم تُدْرِكْ طُرُوحَاتُنَا ومَشْرُوعَاتُنَا واستراتيجيّاتُنَا المُخْتصَّةُ بـ«التّنْمية» أنّ «الطَّبيعة الاقْتِحَاميّـة للعلوم والتّقْنية» هي «رُوحُ التّنْمية» وجوهرُها الأصيـل؛ فأيُّ تنْميةٍ تَحْتَاجُ إلى كِيانٍ علْميٍّ وتقْنياتٍ حديثةٍ قَادِرةٍ على مُوَاكَبَةِ التّغيُّراتِ المُتسارِعَةِ، والمُنَافَسَاتِ العَوْلَميّةِ، وحَـلِّ المُشْـكلات. ولذا فإنّ «الطَّبيعـة الاقْتِحَاميّة للعلوم والتّقْنية» ليسـتْ مُجَرَّدَ عناصِر مادّيّـةٍ وأدواتٍ حِسّيّـةٍ، ولكنّها أَعْمَقُ من ذلك بكثيـرٍ؛ فهي تُوجِـبُ إدْرَاكَ أنّ نِسْبَةً عاليةً مِـن قُوى العمـل والإنْتاج في مُجْتمعاتنا سوف تَتَّجِهُ - بضَـرورة مُتطلَّبات «سُوق العمل» - إلـى العمل في مِهَنٍ وقطاعاتٍ «كثيفة الاسْتِخْـدَام للعلوم والتّقْنية»؛ ممّا يَسْتَوْجِبُ التّعامُلَ مع الاحْتياجـات النّفْسيّة والثقافيّة والماديّة والاجْتماعيّة لهـذه الشَّرائِح المُتنامِية، التي أَصْبَحَـتْ ظَاهِرَةً ضَاغِطَةً تَفْرِضُ نفْسها بقُـوّةِ الإنْجاز، لتَعْبُرَ بحيويّةٍ من «عَالَم الأشْياء» إلى «عَالَم الأفْكار»، ويُصْبِحَ التّعامُلُ معها بَوْتَقَةً مُعَقَّدَةً، تتفاعلُ فيها عَوالِمٌ فِكْريّةٌ وثقافيّةٌ واجْتماعيّـةٌ وتَعْليميّـةٌ وبَحْثيّـة، وتُؤثِّرُ فيها سُلُوكيّـاتٌ فَرْديّةٌ وهُمُومٌ جماعيّـةٌ ومُمَارَسَاتٌ إعلاميّة وعَوامِلٌ اقْتصاديّةٌ وظُرُوفٌ سياسيّة.

إنّ المُتَأمِّـلَ في «الطَّبيعة الاقْتِحَاميّة للعلوم والتّقْنية» يرى نتيجَتَيْن لذلك «العُنْفوان الاقْتِحَاميّ» لا ثالث لهما؛ فإمّا أنْ تقود إلى الإغْرَاقِ في الاسْتِهْلاكِ والاتِّكَالِ على الآخَرين، وهذا اسْتِسْلامٌ مُـرَوِّعٌ مُشَاهَدٌ في أرْجَاءِ عَالَمِنَا العربيّ؛ وإمّا أنْ تُوَلِّدَ «اسْتِجَابَةً إيجابيّةً» لـ«تَحَـدٍّ صَـارِخٍ» تقودُ إلى توليدِ عناصِـر «التَّفاعُلِ الإيجابيّ» مع هـذه «المَنْظُومَةِ العِلْميّة - التّقنيّـة» التي أَضْحَتْ قضيّـةَ «حياةٍ أو مَوْتٍ» للأُمّة. وأمّا أهـمّ مُقَوِّمَاتِ ذلك «التَّفاعُلِ الإيجابيّ» فهي أنْ نُدْرِكَ أنّ لهذه «المَنْظُومَةِ» عناصِر «فِكْريّةً - ثقافيّةً - اجْتماعيّةً» مُتكَامِلَةً تَتَغَلْغَـلُ في «الوَعْي الفَـرْديّ»، وتَلْتَفُّ حول «النَّسيج المُجْتمعيّ» لتَصْنَـعَ «البيئة المُنَاسِبة» القَـادِرَةَ على التّعامُلِ - بفَاعِليّـةٍ وحيويّةٍ - مع تلك «الطَّبيعـة الاقْتِحَاميّة»، وتَطْويعها لما يُحَقِّقُ المنافِعَ والأهْـداف المَنْشُودَة. وهكذا تَبْقَى «الطَّبيعـةُ الاقْتِحَاميّةُ للعلوم والتّقْنية»

حقيقــةً رَاسِخَةً مُتنامِيةً لا مِرَاء فيها - شِئْنا أَمْ أَبَينا -، ويَبْقَى الخِيارُ أمامنا إمّا الإغْراق فــي إنشائيّاتِنا ومواعظِنا وقصائدِنا بينما يَنْدَفِعُ «الطُّوفَانُ الاسْتِهْلاكيّ» و«المَدُّ الاتِّكاليّ» ليَقْتَلِعَ الجُذُورَ ويُقَوِّضَ دَعَائِمَ التّماسُك، وإمّا أنْ نَفْهَمَ خصائِصَ ذلك الطُّوفَان، ونُرَوِّضَ مَنَابِعَه، ونَرْكَبَ مَوْجَتَه، ونَسْتَوْعِبَ ثقافتَه، ونَنْطَلِقَ في ساحاتِه.

٦-٥) «الثّقافة العِلْميّة» في «التَّجْرِبَة الغَرْبيّة»:

لقــد أثارتْ أُطْرُوحَةُ تشارلز سنو[٣٢] عــن «إشْكَاليّةِ الثَّقَافَتَيْن» جَدَلاً كبيراً في العَالَمِ الغَرْبــيّ (انْظر الفَصْل الثّاني)، وما زالــتْ آثارُها تتفاعلُ على مُخْتلف الأصْعِدَة. وبالرّغْم مــن أنّ طَــرْحَ سنو كان طَرْحــاً نُخْبَوِيّــاً؛ أَيْ أنّه كان مَعْنِيّــاً - في المقــام الأوّل - بالنُّخَبِ الفِكْريّــة، ونَاقِــداً لانْعِــدَامِ التَّوَاصُلِ بين أصْحــاب «التّخصُّصات الأدبيّــة والإنْسانيّة» من جِهَــةٍ، وبين أصْحاب «التّخصُّصات العِلْميّة» من جِهَةٍ أُخْرى، إلاّ أنّه - في تفاعُلاتِه وآثارِه وامْتداداتِه - أَكَّدَ ضَرورةَ إقامةِ الجُسُورِ بين «الحركة العِلْميّة» وبين «الجُمْهُور» بشَكْلٍ عامّ.

لقد رأى كثيرٌ من المُفكِّرين أنّ التّفاعُلَ بين «الحركة العِلْميّة» وبين «المُجْتمع» ضَرورةٌ لا مناص عنها لتَطْويرِ «المُجْتمع العِلْميّ» الــذي يستمدُّ متانته من «التَّكَامُلِ البُنْيويّ» بين أجْزائِــه و«التَّرَابُطِ العُضْويّ» بين عناصرِه ممّا يَجْعَــلُ «التَّقَدُّم العِلْميّ - التِّقنيّ» مَحْكُوماً بمــدى تفاعُلِ الجماهير معه وحماسِهم له وإدْراكِهم لأبْعادِه واسْتجابتِهم لمُقْتضياتِه[٨٦]. وهــذا مــا تُقَرِّرُهُ الرُّؤيــةُ العِلْميّة - الثقافيّــة - التَّعْليميّة التي طُرِحَتْ فــي أرْجاء الولايات المُتّحدة الأمريكيّة في دَليلٍ يُعْرَفُ باسْم «العِلْمُ لكُلِّ الأَمْريكان»[٩٤] حيث ورد فيه: (يُمْكِنُ لعادات العَقْلِ العِلْميّة مُسَاعَدَة النّاس في كُلِّ مناحي الحياة للتّعامُلِ بحِكْمَةٍ مع المُشْكلات التــي غَالِبــاً ما تَنْطَوِي علــى الأدِلَّة، والاعْتبــارات الكَمِّيّــة، والحُجَجِ المَنْطقيّــة، والشَّكّ؛ ولــذا فإنّه بدون القُدْرَةِ على التَّفْكيــرِ النَّقْديّ وبشَكْلٍ مُسْتَقِلٍّ، فــإنّ المُواطِنين يُصْبِحُون فريسةً سَهْلَــةً للمُتعصِّبين والماهرين المُخَادِعين ومُزَوِّدِي الحُلُــولِ البسيطة للمُشْكلاتِ المُعَقَّــدَة)؛ وفــي مقام آخر يُؤَكِّدُ هذا الدَّليل - أيضــاً -: (إنّ قُدْرَةَ تَعْزيزِ الحياة الكَامِنَةِ فــي العِلْــمِ والتِّقْنية لا يُمْكِــنُ تَحْقيقُها، ما لم يَتَمَكَّنْ الجُمْهُورُ بشَــكْلٍ عامٍّ من فَهْمِ العلوم

والرِّيّاضيـات والتِّقْنية، واكْتِسَابِ عادات العَقْلِ العِلْميّة. إنّه بدون مُواطِنين يَتَمَتَّعُون بوَعْيٍ عِلْميٍّ فإنّ اسْتِشْراف عَالَمٍ أفْضل لا يكون وَاعِداً).

وأمّا فيما يَتَعَلّقُ بتَرْسيخ «الثّقافة العِلْميّة» في «التَّرْكيبة الثّقافيّة العَامّة»، فقد أدْرَكَتْ «المُجْتمعـاتُ الغَرْبيّةُ» أهميّة «الكَمّ» و«الكَيْفِ» في آنٍ وَاحِدٍ، كما حَرَصَتْ تلك المُجْتمعات علـى الاسْتفـادة من «القانون الفيزيائيّ» الـذي يَنُصُّ على أنّ (التَّرَاكُـم الكَمّيّ يقودُ إلى تَغَيُّـرٍ نَوْعِيّ)، وهي حقيقةٌ يصوغُهـا محمد عابد الجابريّ قائِـلاً: (إنّ العَلاقَةَ بين الكَمِّ والكَيْـفِ في عمليّـة التّقَدُّم عَلاقَةٌ جَدَليّةٌ، عَلاقَةُ تَأْثيرٍ مُتَبَـادَلٍ: إنّ اتِّسَاعَ الكَمِّ شَرْطٌ في نُمـوِّ الكَيْـف، ونُموُّ الكَيْف شَرْطٌ في تَعْميـقِ جُذُورِ الكَمّ)[1]. من هـذا المُنْطَلَقِ برز الدَّوْرُ الحَاسِـمُ لـ«الثّقافة العِلْميّة» في تَطَوُّرِ «المُجْتمعات الغَرْبيّة»، وراحتْ جُهُودُها تَتْرَى - كَمّاً وكَيْفاً - في توسيعِ نِطَاقِ «الثّقافة العِلْميّة» وتَرْويج وسائلِها، ووجدتْ مَقُولَةُ «العِلْمُ للجميع» عنْدهـم حُضُوراً مُمَيَّزاً واهْتماماً مُكَثَّفاً من صَانِعي القرار، وأَصْبَحَتْ هذه المَقُولَةُ شِعاراً قوميّـاً وأولويّةً بَارِزَةً فـي التَّخْطيط والاهْتمام والدَّعْمِ في «الـدُّول المُتَقَدِّمَة»، كما بَرَزَتْ علـى السّاحة عنْدهم حِواراتٌ وندواتٌ ومُؤَلَّفاتٌ وإصْداراتٌ تُرَكِّزُ - بعُنْفوانٍ - على قضيّة «العِلْم والمُجْتمع».

وهكـذا نشطتْ فـي «العَالَمِ الغَرْبـيّ» البرامِجُ المُخْتلفـةُ لـ«التَّوعيـة العِلْميّة»، وهي المُمَارَسَـةُ الفَاعِلَةُ لنَشْرِ «الثّقافة العِلْميّـة»؛ فراحتْ المطابعُ تَقْذِفُ يوميّاً عشرات الكُتب والنَّشرات والدَّوريّات في مجالاتٍ مُخْتلفةٍ من العلوم لتَبْسيطِهَا وطَرْحِ حَقَائِقِهَا وأهْدافِها فـي سلاسةٍ ويُسْرٍ، واحْتَضَنَتْ وسائِلُ الإعلام طُرُوحَاتٍ وبرامِجٍ وتَوجُّهَاتٍ تُعْنَى بـ«الثّقافة العِلْميّـة»، وتَعَـدَّدَتْ الوسائِـطُ والنّـدواتُ والمُحاضـرات، وتأَسَّسَتْ عنْدهـم الجمعيّاتُ والهيئَـاتُ العِلْميّـة - على المُسْتـوى المحلّيّ والقُطْـريّ والدّوليّ - المُهْتَمَّـةُ بالتّفاعُل مع «الجُمْهُـور» وتَهْيئَـةِ «مُنَاخٍ عِلْمـيٍّ» يُسَاعِدُ علـى زَرْعِ «الثّقافة العِلْميّة» فـي تُرْبَةِ المُجْتمع، وتَغَلْغُلِهَـا في نسيجِه. وأمّا على المُسْتوى الفِكْريّ والأكاديميّ فقد تَعَمَّقَ عندهم الاهْتمامُ بموضوعات «تاريخ العلوم» و«فَلْسَفَة العلوم» و«اجْتماعيَّات العلوم» ممّا رَسَّخَ أُصُولَ التّفاعُلِ الجَـادِّ بين «العلـوم الإنْسانيّة» و«الفِكْرِ العِلْميّ»، ونَجَمَتْ عـن ذلك رُؤىً عميقةٌ في طبيعة

تَرْكيـب «المَعْرِفَة العِلْميّة» وطريقة اعْتمادها على «التَّكْوين الثقافيّ» للمُجْتمع من أعْرَافٍ ومُمَارَسـاتٍ وقِيَمٍ وأفْكار. لقد تَبَلْوَرَ عـن كُلِّ ذلك إدْراكٌ وطيدٌ بأنّ «العلوم» هي «مَنْظُومَةٌ من الأنْشطة الثَّقافيّة» تُمَثِّلُ تَعْبيراً لتوجُّهِ المُجْتمع نحو العَالَمِ والكَوْنِ والحياة، تماماً كما تُعَبِّرُ الفُنُونُ والأدْيانُ عن تَوَجُّهَاتِ ذلك المُجْتمع، ممّا يَعْنِي عدم إمْكانيّة فَصْلِ العلوم عن القضايـا الأساس في السّياسـة والأخْلاق والاقْتصاد والتّفاعُـلات الاجْتماعيّة، ويُلَخِّصُ كونراد وودنجتـون (C.H.Waddington) تلك الرُّؤية بقوله: (العِلْمُ ليس فقط مَجْمُوعَةً من الوسائِل، ولكنّه تَوَجُّهٌ نحو العَالَمِ وطريقةُ حياة)[٨٩].

وأمّـا السُّـؤالُ الاسْتِنْكَارِيّ الذي يَطْرَحُهُ جلين سيبـورج بقوله: (مَنْ في زماننا هذا يَسْتطيعُ أنْ يقوم بنَقْدٍ مَقْبُولٍ للحياة دون مَعْرِفَةِ قِيَمِ وطُرُقِ وديناميكيّةِ العِلْم؟)[٤٤]، فإنّه سُؤالٌ كبيرٌ في مضامينه وأبْعادِه وتَبِعَاتِه؛ فلقد أَصْبَحَ من البدهيّات المَعْرُوفَةِ أنّ القضايا المُعَاصِـرَة إمّا أنّها نِتَاجٌ مُبَاشِرٌ لآثار «العلوم والتّقْنية»، أو أنّها إفْرازاتٌ جَانِبيّةٌ تَمَخَّضَتْ عـن تفاعُلاتِ «الحركة العِلْميّة» وتَسَارُعِهَا المُذْهِل؛ وفـي كِلْتا الحَالَتَيْن، فإنّ المُجْتمعات فـي حاجةٍ إلـى «رُؤيةٍ عِلْميّةٍ» لفَهْـم هذه التَّأْثيـرات والتّعامُلِ معها بكفـاءَةٍ ونُضْجٍ، ولكنّ الإشْكَاليّـة الكُبْـرى تَبْقَى في أنّ القضيّة ليستْ قضيّـة مَجْمُوعَاتٍ من أهْلِ الاخْتصاصات العِلْميّة تَجْتَمِعُ ثم تَنْفَضُّ بعد تَشْخيصِ العِلَلِ وطَرْحِ الحُلُول، ولكنّها قضيّةُ مُجْتمعٍ بأسْرِهِ، يتعامـلُ مـع المُسْتَجِـدَّاتِ سَلْباً وإيجاباً، وهـي قضيّةُ أفْـرادٍ يُمَارِسُون حياتهـم اليوميّة، فيُؤَثِّرُون ويَتَأَثَّرُون، وهي قضيّـةُ أخْطَاءٍ وإبْدَاعَاتٍ وإحْبَاطَاتٍ وإنْجَازَاتٍ تتفاعلُ في بَوْتَقَةِ الفِكْـرِ والمُمَارَسَة، وتصوغُ - فـي النّهاية - مُعادَلاتِ التَّفَوُّق أو صِفَاتِ الإخْفَاق؛ ومن هذا المُنْطَلَقِ تَبْرُزُ أهميّةُ «الوَعْـي العِلْميّ الجَمْعيّ» الذي يَصْنَعُ الفُرُوقَ بين «الأُمم المُتَقَدِّمَة» و«الأُمم المُتَخَلِّفَة».

٦-٥-١) بين «الثّقافة العلميّة» و«الدِّيموقراطيّة»:

لقد أَدْرَكَ «المُجْتمعُ الغَرْبيُّ» أهميّة «الثَّقافة العِلْميّة» لسبَبَيْن رئيسَيْن[٤٤]:

١) إنّ القَاعِـدَةَ الجماهيريّةَ العريضـةَ المُتفاعِلَةَ مع «الفِكْـرِ العِلْميّ» والمُتواصِلَةَ مـع «الحركة العِلْميّة – التّقنيّة» هــي مَنْبَتُ المَواهِبِ ومُسْتَودَعُ القُدْرَاتِ ومَكْمَنُ الطّاقات، وهي التي تُزَوِّدُ المُجْتمع بالعُلماء والباحثين والتِّقنيين، وكُلّما اتَّسَعَتْ هــذه القَاعِدَة، نَمَتْ احْتمــالاتُ الإبْداع والإنْجــاز، وزادتْ فُرَصُ بُـرُوزِ العُقُولِ المُبْدِعَةِ والكفاءاتِ المُنْتِجَة.

٢) لقــد كان للاعْتبارات السّياسيّة والاقْتصاديّـة أثرٌ كبيرٌ في الاهْتمام بـ«الثَّقافة العِلْميّة»؛ فـ«دَافِعُ الضَّريبة» عنْدهم هو الذي يُؤثِّرُ – بمُتابعاتِه ومُسَاءَلاتِه – في أوْجُهِ الإنْفَـاق، وبالتّالي فإنّ الدَّعْمَ الماليّ الضّخْمَ المَطْلُوبَ لمُخْتلف البرامِج والمَشْرُوعات العِلْميّة يتطلَّبُ درجةً عَاليةً من «الاسْتِحْسَانِ الثَّقافيّ» للعلوم بين العامّـة. وفي هذا السِّياق يقول جليــن سيبورج(٤٤): (إنّ مبــادئ العلوم تُهَيْمِنُ علــى العديد من قضايا اليوم والغد الحَاسِمَة، فـإذا كان جَوْهَرُ الدِّيموقراطيّة هو مُمَارَسَةُ التّأْثيرِ من قِبَل مُواطِنين مُزَوَّدِين بالمَعْلُومَاتِ كما أَعْتقد، فإنّ هذا يَعْنِــي أنّ فَهْمَ المبادئ الأساسيّة لـ«العِلْم» يَنْبَغِــي أنْ يكون مُؤَسَّساً بشَكْلٍ وَاسِعٍ فــي المُجْتمع)؛ ويَصِفُ سيبــورج «العِلْم» بقوله: (إنّ لديه قُــدْرَةً لم تَتَوَفَّرْ لأيِّ أداةٍ أُخْــرى عرفهــا الإنْسان، ولذا فإنّه بدون مَعْرِفَــةِ مبادئه العامة، فإنّنا غير جَاهِزين للأداء السّليم في مُجْتمعٍ ديموقراطيٍّ في عَصْرِ الفضاء).

ما هو أهمُّ من ذلك، وهي قضيّةٌ مَطْرُوحةٌ – بامْتيازٍ وبقَلَقٍ – أمام «الدُّول النّامية»، أنّ نُموَّ «الدِّيموقراطيّة» يَحْتَاجُ إلى تَوَافُرِ شُرُوطٍ فِكْريّةٍ ومُجْتمعيّةٍ وعمليّةٍ تَتَجَسَّدُ – بشَكْلٍ جَلِيٍّ – في مفاهيم «العلوم والتّقْنية» وتَأْثيراتِها ومساراتِ عملها؛ فلم يكنْ الأمْرُ مُصَادَفةً أنّ نُمــوّ «الدِّيموقراطيّة» فــي «المُجْتمعات الغَرْبيّة» منْذ القَرْنِ السّابع عشر الميلاديّ كان مُوَاكِبــاً للتَّطَوُّرِ العِلْمــيّ، والكُشُوفَاتِ الطّبيعيّة، وما تَرَتَّبَ عليها مــن آثارٍ عمليّةٍ وتطوُّراتٍ اقْتصاديّــةٍ وتغيُّــراتٍ مُجْتمعيّــةٍ. فليســ من المَعْقُــولِ أنْ نقــول إنّ شُعُوبَ ما قبــل القَرْنِ السّابــع عشــر كانتْ غبيّــةً أو لا تَعْرِفُ معانــي «الدِّيموقراطيّة» ودَلالاتِهَــا خَاصَّةً وأنّ هذا المَفْهُــومَ قديــمٌ ومُتَأصِّلٌ في «الفِكْرِ اليونانيّ»، ولكن انْعِـدَامَ «الشُّرُوط الموضوعيّة» ذات

التّرَاكُمَــاتِ الفِكْريّــة والعِلْميّــة والاجْتماعيّة والعمليّة هــي التي أَخّرَتْ بُــرُوزَ الظّاهِرَةِ في «المُجْتمعات الغَرْبيّة».

إنّ التّفاعُــلاتِ السّريعة وشِبْــهَ الآنيّةِ التي تَطْرَأُ على «المُجْتمعــات الغَرْبيّة» في ظِلِّ التَّضَافُــرِ بيــن «الدِّيموقراطيّــة» و«الثَّقافة العِلْميّــة» تَتَجَلَّى في أمْثلــةٍ لا حَصْرَ لها؛ فعلى سبيــل المِثال تَمَخَّضَ السَّبْقُ الفضائيّ، الذي أَحْرَزَهُ «الاتّحاد السّوفييتي» في عام ١٩٥٧م بإطْلاقِــه «قَمَرَا سبوتنيك»، عن زَوْبَعَةٍ فــي «المُجْتمعات الغَرْبيّة»، ونشط جَدَلٌ وَاسِعٌ حول جَوانِبِ الإخْفَاقِ في مَنْظُومَتِهِمْ العِلْميّة والثّقافيّة، وأَدَّى في الوَقْت نفْسه إلى قِيامِ الرّئيس الأمريكيّ أيزنهاور بتَأْسيس «وكالة الفضاء الأمْريكيّة (ناسا)» في عام ١٩٥٨م، كما طلب مــن «اللّجنة الاسْتشاريّة العِلْميّــة» المُرْتَبِطَةِ به، وكان أحــد أعضائها جلين سيبورج[٤٤]، أنْ تَتَوَلَّــى دِراسة بعْض هذه المُشْكلات، وبالفِعْل قَدَّمَتْ له اللّجنة في عام ١٩٦٠م تَقْريراً بعنْــوان (التَّعْليمُ لعَصْرِ العلوم). لقد أَكَّدَ ذلــك التّقْريرُ الدَّوْرَ الحيويّ لـ«الثّقافة العِلْميّة» فــي المُجْتمعات المُعَاصِرَة حيث ورد فيه مــا يلي: (إنّ المُواطِنين في مُجْتمعٍ ديموقراطيٍّ اليوم يَنْبَغِي أنْ يَفْهَمُوا «العِلْمَ» لكي تكون لهم مُشارَكَةٌ وَاسِعَةٌ وذكيّةٌ في كثيرٍ من القرارات القوميّــة. إنّ هــذه القرارات في طَــوْرِ الصُّنْع الآن، ولا يُمْكِنُ تَأْجيلُهَــا لمُدّةِ عشرين عاماً ريثمــا نقومُ بتَحْسيــن نِظَامِنَــا التّعْليميّ الحالــيّ عندما يُكَــوِّنُ خرِّيجُوه نِسْبَــةً مُهمّةً من النّاخِبين النّاضِجين. وبالتّالي فإنّه لا مَفَرَّ من الاضْطِرَارِ الآن إلى تَزْويدِ الكِبَار بتَعْليمٍ في العلوم يكون مُكَثَّفاً وعالي المُستوى ومُوَجَّهاً إلى أولئك الذين لا يعرفون حتّى الأساسيّات)[٤٤]. وهكــذا أَصْبَحَتْ «الثَّقافةُ العِلْميّةُ» مِعْيــاراً يُقَاسُ به مُسْتوى تَطَوُّرِ المُجْتمعات، فعلى سبيل المِثال اتَّفَقَتْ الدُّوَلُ الأَعْضاءُ في «مُنَظَّمَةِ التَّعَاون الاقْتصاديّ والتّنْمية» (OECD) على إعْدَادِ برنامجٍ يَهْدِفُ إلى تَقْويم مدى إمْكانيّات الشَّبَاب من فِئَة عُمْرِيّةٍ مُحَدَّدَةٍ بـ«١٥ عاماً»، وقِياس درجــة اسْتعدادهم لمُواجَهَةِ الحياة العمليّــة، وجَعَلَتْ«الثّقافة العِلْميّة» من أهمّ معايير البرْنامج التي مَكّنَتْ من إجْراء التَّصْنيف[٩٥].

٦-٦) «الثقافة العلميّة» و«مُجْتمع المَعْرِفَة»:

لقد ضَرَبَتْ «الثَّوْرَةُ العِلْميّةُ» التي انْطلقتْ في أوروبا في القَرْنِ السّابع عشر الميلاديّ أطْنَابَهَا في مُخْتلف مناحي الحياة المُعَاصِرَة، وتَمَدَّدَتْ في رِحَابِ الأرْضِ وآفاقِ السّمَاء، وراحتْ في تراكُم مُذْهِلٍ وتسارُعٍ حثيثٍ تُنْتِجُ قِلاعاً من الإنْجازات والمَعْلُومات والاكْتشافات فيما عُرِفَ بـ«انْفِجَارِ المَعْلُومات» لتَدْلِفَ البشريّةُ إلى عَالَمِ «مُجْتمع المَعْلُومات» ممّا قاد - بالضّرورة - إلى تحوُّلاتٍ جِذْريّةٍ في طبيعة «المُجْتمعات المُتَقَدِّمَة» وخصائصِها وتفاعُلاتِها وعَلاقَاتِهَا؛ وهكذا من رَحِمِ «مُجْتمع المَعْلُومات» وُلِدَ «مُجْتمع المَعْرِفَة». ذلك ما يُؤَكِّدُهُ «التَّقْريرُ العَالَميّ لمُنَظَّمَةِ اليونسكو»[٨٢]، الصّادِر في عام ٢٠٠٥م تحت عنْوان «من مُجْتمع المَعْلُومات إلى مُجْتمعات المَعْرِفَة»، فيقول: («مَفْهُومُ المَعْرِفَة» هو في قَلْبِ هذه التَّحَوُّلات إذْ يُعْتَرَفُ اليوم بأنّ المَعْرِفَةَ أَضْحَتْ مَوْضِعَ رِهاناتٍ اقْتصاديّةٍ وسياسيّةٍ وثقافيّةٍ وَاسِعَةٍ إلى حَدٍّ أنّنا نَسْتَخْدِمُهَا في وَصْفِ المُجْتمعات التي نَبْدَأُ بالكاد في تَبَيُّنِ ملامحها). وأمّا ما يُمَيِّزُ «مُجْتمعاتُ المَعْرِفَةِ» فهو: (في قَلْبِ «مُجْتمعات المَعْرِفَة» هناك القُدْرَةُ على تَحْديدِ وإنْتاجِ ومُعالَجَةِ وتَحْويلِ ونَشْرِ واسْتِعْمَالِ المَعْلُومات لخَلْقِ وتَطْبيقِ المعارف الضّروريّة للتَّنْمية الإنْسانيّة، وهي تَسْتَنِدُ إلى رُؤْيةٍ للمُجْتمع تُسَاعِدُ على الاسْتقلاليّة التي تَضُمُّ مفاهيم التَّعدُّديّة والانْخِرَاطِ والتّعاون والمُشَارَكَة)[٨٣]. وهكذا أَصْبَحَ الحديثُ اليوم هو عن «اقْتصاد المَعْرِفَة» حيث تكونُ «المَعْرِفَةُ» هي «المَادَّةُ الخَامّ» و«المُنْتَجُ الرَّئيس» في آنٍ وَاحِدٍ؛ فهو، بشَكْلٍ عامٍّ، ذلك الاقْتصادُ الذي تُؤَسِّسُهُ العناصِرُ البشريّة، وتُطَوِّرُهُ المُؤَسَّسَاتُ الاجْتماعيّة القَادِرَةُ على اكْتِسَابِ المَعْرِفَةِ الحاليّة والمُسْتقبليّة، واسْتِيعابِها، وإنْتَاجِها، ونَقْلِها، وتَسْويقِها، بفَعّاليّةٍ وكفاءَةٍ لرَفْعِ درجة النُّموّ والقُدْرة التّنافُسيّة في الاقْتصاد.

تلك التَّحَوُّلاتُ الجِذْريّةُ في «التّفاعُلاتِ المَعْلُوماتيّة» من ناحيةٍ، و«التَّطْبيقات الاقْتصاديّة» من ناحيةٍ أُخْرى، أَعْطَتْ أبْعاداً جديدة لـ«مَفْهُوم التّنْمية»، وتَمَخَّضَتْ عنها عناصِر حيويّةٌ في «التَّفاعُلات الاجْتماعيّة والثّقافيّة»، فبينما (يَرْتَكِزُ مَفْهُومُ «مُجْتمع

المَعْلُومـات» على الإنْجـازات التّكْنولوجيّة فإنّ مَفْهُـومَ «مُجْتمع المَعْرِفـة» يَتَضَمَّنُ أبْعَاداً اجْتماعيّـةً وأخْلاقيّةً وسياسيّةً أكْثـر اتّسَاعاً بكثير)[٨٣]؛ وهكذا أَصْبَـحَ الحديثُ الرّئيسُ فـي «المُجْتمعات المُتَقَدِّمَة» هو عن بُـزُوغ «مُجْتمع المَعْرِفَة» وسعيهـا الحثيث إلى تَمْكينِ قَواعِـدِهِ وتَرْسيـخ أرْكَانِـهِ وتَطْويـرِ فَعّالياتِه. وأمّـا «المُجْتمعـاتُ النَّاميةُ» فـإنّ فُرْصَتَهَا الوحيـدة، لأيِّ مُسْتَقْبَلٍ يُرْتَجَى في «الألْفيّـة الثّالثة»، تَكْمُنُ في مُحاولة التّعامُلِ مع شُرُوطِ «مُجْتمـع المَعْرِفَـة» والتّفاعُلِ مع مُقْتضياتِـه، وأَصْبَحَ أهمّ ما يَقْبَعُ فـي قَلْبِ التّحدّيات هو ذلك «التّدافُعُ المُجْتمعيّ والثّقافيّ والفِكْريّ والمَعْرفيّ» المُنْطَلِقُ - بالضّرورة - نحو حَسْمِ القضايا في اتِّجَـاهِ التَّوَافُقِ مع مُتطلَّباتِ «العَصْرِ» عبْر تَأْسيس «مُجْتمع المَعْرِفَة» وتوطيد مُقَوِّمَاتِـهِ على ركائز متينةٍ تجد في «الهُويّة» مَأْمَناً لها، وفي «الثَّوَابِتِ» تَرْسيخاً لجُذُورِهَا، وفي «المُسْتَقْبَلِ» تناغُماً مع تفاعُلاتِهَا.

أمّـا المُشْكلـةُ فهي ليستْ - في رأْيـي[٧٨] - في تَعْريفِ «مُجْتمـع المَعْرِفَة» أو تَحْديدِ أُسُسِـهِ ومُقَوِّمَاتِـه، حيـث لا تُوجَدُ هناك ألْغـازٌ أو أسْـرَارٌ، ولعلّ التَّحَـدِّي الأكْبر في هذا المسـاق أنّ التَّنْظيـرَ لـه سَهْلٌ طَيِّعٌ لَيِّـنٌ، ولذا تَزْخَرُ أدبيَّـاتُ الجامعـاتِ وإسْتراتيجيّاتُ المُؤسَّسَـاتِ - في العَالَمِ العربيّ - بالدَّنْدَنَـةِ حول هذا المُصْطلح وغيره من مُصْطلحاتٍ أُخْـرى مُتناغِمَةٍ، مِثْل: «اقْتصاد المَعْرِفَة»، و«التّنْميـة المُسْتَدَامَة»، و«توطين التّقْنية». إنّ الانْتِقَـالَ من إطَـارِ الطُّمُوحِ والتَّنْظيرِ والتَّمنّي، إلى وَاقِعِ التَّطْبيـقِ والمُمَارَسَاتِ والإنْجَاز، يُمَثِّـلُ - عـادةً - مَكْمَـنَ الفَشَلِ الرّئيس في تجـارِب «الدُّول النَّاميـة»، فتَرْديدُ المُصْطلح والتَّغَنِّي به أمْرٌ «ليس عليه جُمْرُك» - كما يقولون -، ولكن السُّؤال هو: (هل اسْتَكْمَلَتْ هذه المُجْتمعـاتُ شُرُوطَ «مُجْتمع المَعْرِفَة»، وتأهَّلَتْ لمُتطلَّباتِه، أمْ أنّها تَقْفِزُ في فَرَاغٍ، وتَعْتَقِدُ أنّ من السَّهْلِ حَرْقَ المراحل؟).

إنّ «مُجْتمع المَعْرِفَة» في «العَالَم المُتَقَدِّم» هو «نَمُوذَجٌ مَعْلُوماتيٌّ - ثقافيٌّ - اجْتماعيٌّ» نَتَجَ عن تفاعُلاتٍ عميقةٍ - ثقافيّاً ومَعْلُوماتيّاً ومُجْتمعيّاً وتَعْليميّاً وبَحْثياً -، وشُرُوطٍ صَارِمَةٍ على عَوالِمِ الاقْتصاد والإنْتاج والابْتكار والاكْتشاف، وضَوابِطِ حَاسِمَةٍ على مضامين القِيَم والمفاهيـم والمُمَارَسَات؛ وكُلُّهَا - عبْر وِلادَةٍ صَعْبَةٍ - اسْتطاعتْ - بتراكُماتِها المُتلاحِقة

- أنْ تُحْدِثَ «النَّقْلَةَ النَّوْعيّة» المطْلُوبَة؛ ولذا فإنّه لا يُمْكِنُ بحالٍ لـ«المُجْتمعات النَّامية» أنْ تَنْجَـحَ في الانْضِمَامِ إلى «نادي مُجْتمعات المَعْرِفَـة» دون أنْ تَتَوَافَرَ لها مُقَوِّمَاتُ «التَّأْهيل المُنَاسِـب»، والتَّهْيئَـةُ الجَادَّةُ لـ«البِنْيَة التّحْتيّة» اللّازِمَة. وفي هـذا السِّياق لا بُدَّ من تأمُّل الشُّـرُوطِ الرّئيسةِ للانْضِمَامِ إلى «نادي مُجْتمعات المَعْرِفَة»؛ لأنّ ذلك لن يَتِمّ اعْتِباطاً أو ارْتِجالاً أو بمَحْضِ الصُّدْفَةِ أو بحركاتٍ بَهْلوانيّةٍ دِعَائيّةٍ؛ فـ«التَّحَوُّلاتُ الكُبْرى» في التّاريخ لا تَتَحَقَّقُ إلاّ إذا ظَهَرَتْ مُواصَفَاتٌ تُؤهِّلُ لهذه التّحَوُّلات، ولا يُمْكِنُ اسْتِبَاقُ نَتَائِجِهَا قبْل أنْ تَكْتَمِلَ مُقَدِّمَاتُهَا، وتَتَوَافَقَ مُكَوِّنَاتُهَا، ويَتَشَكَّلَ مُنَاخُهَا.

إنّ هـذه الحقيقةَ الحَاسِمَةَ تَسْتَدْعِي التَّعَرُّفَ علـى خصائِص «مُجْتمعات المَعْرِفَة» ومُوَاصَفَاتِهَا، وتَتَطَلَّبُ اسْتِيعاب تلك الشُّرُوطِ في الخُطَطِ والآليّاتِ والبرامِج على مُخْتلف الأصْعِدَةِ، وهذه الشُّرُوطُ، للتّأْهيلِ لـ«مُجْتمع المَعْرِفَة»[٧٨،٩٦]، أرْبعة:

١) الشَّرْطُ المَعْرفيّ. ٢) الشَّرْطُ اللّغَويّ.

٣) الشَّرْطُ الاجْتماعيّ. ٤) الشَّرْطُ الثَّقافيّ.

ويَهُمُّنَـا في هذا السِّيَـاقِ الشَّرْطَيْن «الاجْتماعيّ» و«الثَّقافـيّ»، وسنُؤَجِّلُ التّطَرُّقَ إلى الشَّرْطَيْن، «المَعْرفيّ» و«اللّغَويّ»، إلى الفَصْلِ الثّامن من هذا الكِتاب.

٦-٦-١) الشَّرْط الاجْتماعيّ:

لقد أَصْبَحَ مـن البدهيّات المَعْرُوفة أنّ القضايا المُعَاصِرَةَ هي إمّا أنّها نِتَاجٌ مُبَاشِرٌ لمُعْطيـاتِ «العلوم والتّقْنيـة»، أو أنّها إفْـرازاتٌ جَانبيّةٌ تَمَخَّضَتْ عـن تفاعُلاتِ «الحركة العِلْميّـة» وتَسَارُعِهَـا المُذْهِل؛ وفي كِلْتَا الحالتيـن، فإنّ المُجْتمعات في حاجـةٍ إلى «رُؤيةٍ عِلْميّـةٍ» لفَهْـمِ هذه التَّأْثيـرات والتّعامُلِ معها بكفـاءَةٍ ونُضْجٍ، وبمـا أنّ «المَعْرِفَة العِلْميّة» تَعْتَمِدُ - في المقام الأوّل - على «الرّأْسمال البشريّ»، فإنّ قُدْرَتَهَا على تَأْدِيَةِ دَوْرٍ مِحْوريٍّ تَكْمُـنُ فـي توضيحِ صُورتِهـا، وتَبْسيـطِ مُحْتوياتِهـا، وإبْـرازِ مَعَالِمِهَا للمُجْتمـع بمُخْتلف فِئَاتِه وشَرَائِحِه.

إنّ «الإشْكَاليّةَ الكُبْرى» هي أنّ القضيّةَ ليستْ قضيّةَ مَجْمُوعَاتٍ من أهْل الاخْتصاصات العلْميّــة تَجْتَمِعُ ثــمّ تَنْفَضُّ بعد تَشْخيصِ العِلَــلِ وطَرْح الحُلُول؛ فـ«مُجْتمــع المَعْرفَة» ليس «مُجْتمعــاً نُخْبَوِيّاً»، ولكنّه قضيــّةُ مُجْتمعٍ بأسْرِهِ يتعاملُ مع المُسْتَجِدَّاتِ - سَلْباً وإيجاباً -، وهــو قضيّةُ أفْرَادٍ ومَجْمُوعــاتٍ يُمَارِسُون حيواتهم اليوميّة فيُؤَثِّــرُون ويَتَأَثَّرُون، ليصوغوا - فــي النّهايــة - مُعــادلاتِ التّفَــوُّقِ أو صِفَــاتِ الإخْفَاق؛ ومن هــذا المُنْطلق تَبْــرُزُ أهميّةُ «الوَعْي العِلْمــيّ الجَمْعيّ» الذي يَصْنَعُ الفُرُوقَ بين «الأُمــم المُتَقَدِّمَة» و«الأُمم المُتَخَلِّفَة». إنّ «مُجْتمــع المَعْرِفَــة» «مُجْتمــعٌ شَامِلٌ» قَادِرٌ علــى أنْ يتفاعل، بلُغَتِهِ وثقافتِــه وهُويّتِه، مع مُعْطياتِ «العَصْــرِ» ومُسْتَجِدَّاتِ «المَعْرِفَة» بحيث تُشَارِكُ جميع الشَّرائح ومُخْتلف الفِئات فــي اسْتيعابِ «المَعْرفَة» وإنْتاجِها وتوظيفِها. إنّ هــذه الحقيقة تَفْتَحُ على فضاءاتٍ وَاسِعَةٍ قَارِعَــةً الجَرَسَ - بقُــوّةٍ وعُنْفوانٍ - أمــام وسائِل الإعْــلام، ورِجَالِ التّعْليــم، وأكاديميّي البحــوث، وأطْيَافِ «المُجْتمع المَدَنِيّ»، وقطاعات الخِدْمات والتّدْريب والإنْتاج، ليتولّى كُلُّ طَــرَفٍ مَسْؤوليّتــه بفاعليّةٍ لتوليد «الإرادة الجماعيّة» الواعيةِ القَــادِرَةِ على قَطْعِ الأشْواطِ العمليّــة على طريــق «مُجْتمع المَعْرِفَة»؛ فالعطــاءُ العِلْميُّ إنْ بَقِيَ أسير عَقْــلٍ وَاحِدٍ انْتَهَى بنهايتِه، كما أنّ بَقَاءَ العملِ العِلْميِّ حبيس أسْوار معاقِل هنا وهناك هو حُكْمٌ عليه بالفناء، أو ارْتهانه لعطاءاتِ الآخَرين وإنْجازاتِهم.

ولا بُــدَّ أنْ نَتَوَقَّــفَ هنا أمــام مُصْطلح «مُجْتمــع المَعْرِفَــة»؛ لنُدْرِكَ أنّنــا نَقِفُ أمام مُصْطَلَحَيْن مُتَكَامِلَيْن، وهما «مُجْتمع» و«مَعْرِفَة»؛ فالأساسُ في هذا التّرْكيب هو «التّفاعُلُ المُجْتمعــيُّ» مع «المَعْرِفَة»، وجَعْلُهــا مُتَاحَةً لكُلِّ فِئات المُجْتمــع؛ فـ(«مُجْتمع المَعْرِفَة» هو مَشْــرُوعُ مُجْتمــع) (٨٣)، ممّا يَعْنِي أنّــه يَطْمَحُ إلى تَكْوينِ «المَجْمُــوع البشريّ» الذي يتفاعلُ - بحيويّــةٍ - مــع «الانْفِجَارِ المَعْلُوماتــيّ»، ويتعاملُ - بإيجابيّةٍ - مــع المُعْطيات الإنْسانيّة والثقافيّــة والبيئيّة، ويُطَــوِّعُ - بمهارةٍ - حقائِق «الثَّــوْرَةِ العِلْميّة» المُتناميــةِ عبْر الكَوْكَبِ الأرْضــيّ وفي آفــاقِ المَجَــرَّاتِ الكَونيّة. وأمّــا أبْرز خصائِــص «مُجْتمــع المَعْرِفَة»، فهي الكفــاءَةُ العَاليــةُ في تَأْمينِ «النَّفــاذ إلى المَعْرِفَــةِ والمَعْلُوماتِ للجميع»، ولــذا فإنّه: (لن تتمكّنَ «مُجْتمعات المَعْرِفَة» في القَرْن الواحد والعشرين من بُلُوغِ حِقْبَةٍ جديدةٍ من التّنْمية

الإنْسانيّـة والمُسْتَدامَة إلاّ بشَرْطٍ لا يقومُ فقط على تَأْمين نَفَاذٍ شَامِلٍ للمعارف، بَلْ أيضاً على مُشارَكةِ الجميع في «مُجْتمعات المَعْرِفَة»)[٨٣].

٦-٦-٢) الشَّرْط الثّقافيّ:

ولأنّ «الثَّقافة» هـي: «الوَسَطُ الذي يَحْمِلُ مُجْمَلَ النَّشَاطِ البشريّ، ويَضُمُّ المفاهيمَ السَّائِـدَةَ والقِيَمَ المُهَيْمِنَة، ويُبَلْوِرُ الأولويَّـاتِ والاهْتمامات، ويُنَظِّمُ المَدَارِكَ والعَلاقَات»، فإنّهـا تُصْبِـحُ ذات تَأْثيـرٍ حَاسِمٍ فـي عمليّـاتِ «التَّحَوُّل الكُبْـرى»، ومُنْطَلقَـاتِ «التَّأْهيل الشَّامِـل»، ويَتَطَلَّـبُ ذلك جُهْـداً كبيراً لإعـادة صَوْغِ «الثَّقافَـة» بما يتناغمُ مـع مُتطلَّبات «مُجْتمع المَعْرِفَة» وضَوابِطِـه؛ وهذا يَعْنِي أنّ هنـاك ثقافةً لازِمَةً لـ«مُجْتمع المَعْرِفَة»، وهي بالضّرورة «ثقافةٌ تَنْمَويّةٌ» عِمادُها «الثَّقافة العِلْميّة»، وأدواتُها «العلوم والتّقْنية»، ورَوافِدُهَا «المعارِف الإنْسانية» بتَشْكيلاتِها وانْتماءاتِها المُخْتلفة.

إنّ تلـك الرُّؤيـة تَقْتَضِي التّعامُلَ الجَـادَّ مع «مَفْهُومِ الثَّقافـة التّنْمَويّة»، حيث تُصْبِحُ «التّنْميـةُ» قِيمـةً ثقافيّةً وفِكْريّةً وسُلُوكيّـةً واجْتماعيّةً؛ لتَتَحَقَّقَ شُـرُوطُ «البيئة الصِّحيّة»، وتَصْنَعَ «الوَسَطَ الفَعّـالَ»، لتَنْميةِ طاقاتٍ وقُدْرَاتٍ بشريّةٍ تَحْتَرِمُ مهنَها، وتُطَوِّرُ مهاراتِها، وتَهْتَـمُّ بالإتْقَان، وتُوَظِّـفُ الإمْكَانَاتِ والمَوَارِد. وهكذا نجدُ أنّ «الثَّقافـة العِلْميّة» تَقْبَعُ في قَلْـبِ «الثَّقافة التّنْمَويّـة» وَقُوداً ودَافِعاً ومُحَرِّكاً، وتَبْرُزُ بصِفَتِهَا الـذِّرَاعَ الفَاعِلَةَ لـ«الثَّقافة المُعَاصِـرَة» في أُطُرِهَا المُخْتلفـة وأَطْيَافِهَا المُتَعَدِّدَة، ممّا يَعْنِي أنّ نَشْرَ «الثَّقافة العِلْميّة» هـو جُـزْءٌ مِحْوريٌّ من جُهُودِ الانْضِمَـامِ إلى «نادي مُجْتمع المَعْرِفَة» عبْـر تجاوز «التَّعَامُلِ السَّطْحِـيّ» مـع «العلوم والتّقْنيـة»، وتَهْيئَةِ تُرْبَةٍ خِصْبَـةٍ لإنْتاج عُلماءٍ ومهـاراتٍ وكفاءاتٍ قَـادِرَةٍ على «التَّعَامُـلِ الإيجابيّ» مع مُتطلَّباتِ «مُجْتمـع المَعْرِفَة» عبْـر «التَّطْوير النَّوْعيّ» لتَفْكيـرِ الفَـرْد، وتَعْميقِ قِيمتِه الذّاتية، وتَنْميةِ «الحِسِّ العِلْمـيّ» لديه، ورَفْعِ درجة إسْهامِه المُجْتمعيّ والثَّقافيّ والتّنْمَويّ.

٦-٧) «الثّقافة العِلْميّة»: أولويّة للمُجْتمعات العربيّة:

إنّ «الثَّـوْرَةَ العِلْميّة - التّقْنيّة» تَفْرِضُ إيقاعاً خاصّـاً على المُجْتمعات البشريّة كافّةً بغَضِّ النَّظَرِ عن خلفيّاتِها الثّقافيّـة، وأُسُسِهَا العقائديّة، ومَوْرُوثَاتِهَا التّقْليديّة، وأَعْرَاقِهَا المُتباينـة؛ فالعَالَمُ يَتَحَرَّكُ حثيثاً نحو «حضارةٍ عَالَميّةٍ» يَصْبُغُهَـا «الفِكْرُ العِلْميُّ» بألْوانِه المُمَيِّـزَة، وتُشَكِّلُهَـا المُعْطياتُ التّقنيّـةُ بقفزاتِهـا المُذْهِلَة، ويتسابقُ الجميـعُ في طُمُوحٍ مُشْتَـرَكٍ نحـو تَحْقيقِ مـا أَطْلَقُوا عليـه اسْم «مُجْتمـع المَعْرِفَة». لقد بَـرَزَتْ - في حيويّةٍ وعُنْفُوانٍ - مَعَالِمُ هذه «الحضارة العَالَميّة»، وما تَفْرِضُهُ من ضُغُوطٍ وتداخُلاتٍ وتَعْقيداتٍ وهَيْمَنَـةٍ، وتَجَلَّـى كُلُّ ذلك في الظّاهِـرَةِ المَعْرُوفَةِ باسْـم «العَوْلَمَة» التـي أَصْبَحَتْ -كما هـو مَعْلُـومٌ - قضيّـةً مَطْرُوحةً في جَـدَلٍ مُتزايدٍ، وتَأْويـلاتٍ مُتباينةٍ، وحِـوَارٍ مُكَثَّفٍ على مُخْتلف الأصْعِدَة.

لقـد رأينا - فـي الفَصْلِ الثّاني مـن هذا الكِتاب - مـا أَفْرَزَتْهُ «الحركـة العِلْميّة - التقنيّـة» مـن فَجْـوَةٍ ثقافيّةٍ فـي «المُجْتمعات الغَرْبيّـة» تَصَدّى لهـا المُفكّـرون والعُلماءُ والمُثقّفـون وصُنّاعُ القرار عبْر جُهُودٍ مُكَثَّفَةٍ لرَفْعِ درجـة «اسْتِحْسَان العلوم والتّقْنية» بين الجماهير، ومَحْـوِ «الأُمِّيّة العِلْميّة»، ونَشْرِ «الوَعْي العِلْميّ» كشَرْطٍ أساسٍ لتَشْكيلِ «مُجْتمع المَعْرِفَـة». وإذا كان السِّيَـاقُ الذي ناقشنـاه هو وَاقِعُ الحِوَارِ والجَـدَلِ والشَّدِّ والجَذْبِ في مُجْتمعـاتٍ نَبَتَتْ فيها «الحركةُ العِلْميّةُ» بشَكْلٍ طبيعيٍّ، وانْبَثَقَتْ «الثَّوْرَةُ العِلْميّةُ» عن عُقُولِ رجَالِهَـا وجُهُودِهِـمْ، فكيف يكون الحال في بِيئـاتٍ انْتَصَبَتْ أمامها العلـومُ كَائناً عِمْلاقاً غريباً كَامِلَ النُّموّ يَبْطِشُ بكُلِّ أَنْظِمَةِ الحياة ومعاييرِها؟. أليس من الضّروريّ بالنِّسْبَةِ لها أنْ تكـون قضيّةُ «الوَسَطِ الثّقافيّ» الذي يُمَهِّدُ لـ«الحركـة العِلْميّة»، ويَحْتَضِنُ مُقْتضياتِها، ويُيَسِّـرُ حركتَهـا، ويَدْعَـمُ انْطلاقَها، قضيّةً ذات أولويّـةٍ بَارِزَةٍ وضَـرورةٍ حَاسِمَة؟. أليسَ هـذا مـا يَقْصِدُهُ زكي نجيب محمـود[٢٠] عندما يقول: (إنّك لا تَعْـرِفُ طبيعة العَصْرِ من تَفْصيـلاتِ المعيشـة العمليّة، بقَـدْرِ ما تَعْرِفُهَا مـن الطّابَعِ الفِكْريّ العـامّ الذي تكون له السِّيـادةُ في توجيه النّاس وهُمْ بصَدَدِ الحُكْمِ علـى الأشْياء والنّاس والمَوَاقِف)؟، وأليسَ

هذا - أيضاً - ما يَرْمِي إليه زكي نجيب محمود[٢٠] عندما يُؤَكِّدُ: (ما لَمْ تَحْدُثْ في مُنَاخِنَا الفِكْرِيّ تَحَوُّلاتٌ تُوَائِمُ بينه وبين صُوَرِ الحياة الجديدة، فسيظلُّ التّنَافُرُ قَائِماً بين الرَّأْسِ والقَدَمَيْـن)؟. أليسَ هـذا - أيضاً - هو «مَنَاطُ الإصْلاح» الذي تُقَـرِّرُهُ قِرَاءَةُ علي أومليل لوَاقِـعِ «المُجْتمعات النَّاميـة» عندما يقول: (إنّ المُجْتمع الوَاحِد فـي العَالَمِ النّامي يسير بسُرْعَتَيْـن: أقليّـةٌ تَمْتَلِـكُ المَعْرِفَةَ المُتَقَدِّمَة، والقُـدْرَةَ على الانْدِمَاجِ فـي شَبَكَاتِ العَالَم المُعَوْلَم، وأكْثريّةٌ تَغْلُبُ عليها الأُمِّيّة، أو تَتَعَلَّمُ تَعْليماً غير نَافِعٍ في عَالَمِ اليوم. وهكذا فإنّ تَحْدِيـثَ «الثَّقافة العربيّة» هو الكفيلُ بتَمْوينِ الرّأْسمـال الإنْسانيّ الذي به وَحْده نَسْتطيعُ المُنَافَسَةَ في عَالَمٍ سريع التّطوُّر. وهذا «مَنَاطُ الإصْلاح»)[٣٧].

٦-٧-١) في مُواجَهَةِ «المَأْزِقِ التَّنْمَوِيّ»:

فـي ضوء مـا سَبَقَ، فإنّه من المُهِـمّ أنْ نَعْتَرِفَ أنّ أبْرز أوْجُـهِ «إشْكَاليّة التَّنْمية» هو «التَّكْويـن الفِكْريّ» لـ«المُثقَّـفِ العربيّ» الذي لم يُصَاحِبْ تَغَيُّرَاتِ عَصْـرِهِ ومَعَالِمَ زمانه، ولـم يَتطَوَّرْ ليتناغم مع خصائِص «الحركـة العِلْميّة - التّقنيّة» و«ثَـوْرَةِ العَوْلَمَة»، بَلْ بَقِيَ يُـراوحُ مكانه، ويُطَـارِدُ إنْشائيّاتِه، ويُعَانِقُ أشْعَارَه، ويُسَابِـقُ فصاحتَه، بينما راحتْ الدُّنيا برُمَّتِهَا تَأْخُذُ أشْكالاً مُعَقَّدَةً من التّفاعُلات، وراحتْ الحياةُ بأسْرِهَا تَتَّخِذُ أنْمَاطاً مُتسارِعَةَ التّغَيُّـرِ والتَّبَدُّل، وراحتْ المُجْتمعاتُ تخوضُ معـارِك شَرِسَةً على المَوارِد - البشريّ منْها والطّبيعيّ -، وتَعْكِفُ على تَطْويرِها وتوظيفِها ورَفْعِ إنْتاجيّتِها.

لقـد بَقِيَـتْ «الثّقافـةُ النَّمَطِيّةُ العربيّـةُ» أسيـرةَ مُصْطلحاتِها وحماسِهـا وبلاغتِها وخَلْطِهَا، فراحتْ تَجْتَرُّ التّجارب ذاتها، وتُكَرِّرُ الأخْطاء نفْسها، ولا يَخْتَلِفُ في ذلك مُتَعَلِّمٌ عـن جَاهِلٍ، ولا يَنْجُو من شِبَاكِهَا مُثقّفٌ يَزْعُمُ وِصَالاً مـع «حَدَاثَةٍ» هناك، أو آخَرُ مُلْتَحِفٌ بـ«قَديـم» يُنَافِـحُ عنه في كُلِّ مَحْفَل. وعبْر قِـرَاءةٍ مُتَأنيّةٍ لهذه «الثّقافـة النَّمَطيّة» فإنّه لا مناص لنا من الاعْتِرَافِ بأنّنا نُواجِهُ «مَأْزِقاً ثقافيّاً» وَقَعَتْ فيه الأُمّةُ منذ أمدٍ طويلٍ، ودَفَعَتْ ثمناً بَاهِظاً مُقَابِل إدْمانِها عليه، وتَخَوُّفِهَا - غير المُبَرَّر - من تَشْخيصِه بنزاهةٍ، وتَحْليلِه بعقْلانيّـةٍ، وعِلاجِـه بشجاعةٍ. ولذا فـإنّ أيَّ وَقْفَةٍ نزيهةٍ أمام هذا الأوضـاع المُتَرَدّية في

تفاعُلاتِ الأُمّة تُحَتِّمُ ضَرورة التّعامُلِ مع العَصْرِ بأدواته، فلا يُمْكِنُ خَوْضُ مَعْرَكَةٍ بأسْلِحَةٍ صَـدَأَتْ بفِعْلِ الزَّمن، ولا يجوزُ قَبُـولُ الأعْذَارِ والمُبَرِّرَاتِ ونحن نتعامـلُ مع «مُقَدِّمَاتٍ» لا يُمْكِنُ بحالٍ أنْ تقود إلى «النَّتَائِج» المَنْشُودَة. وعندما يَعْتَرِفُ القَاصِي والدَّانِي بأنّ العَصْرَ هـو «عَصْرُ العلوم والتّقْنيـة»، وأنّ الهَيْمَنَةَ الفِكْريّة والاقْتصاديّة والثّقافيّة والعَسْكريّة هي لمن يُنْتِجُ أدواته ويُطَوِّرُ مُعْطياته ويُوَظِّفُ مَوَارِدَه، فإنّ تلك الحقيقة البدهيّة تَفْرِضُ شُرُوطاً وضَوابِطَ لا تَحْدُثُ تِلْقائيّاً، ولا تَتَحَقّقُ بمُجَرَّدِ التّمنّي، ولكنّها تَتَرَاكَمُ وتَتَبَلْوَرُ تدريجيّاً، ولا يُمْكِنُ اسْتِبَاقُ نَتَائِجِهَا قبل أنْ تَكْتَمِلَ مُقَدِّمَاتُهَا، وتَتَوَافَقَ مُكَوِّنَاتُهَا، ويَتَوَافَرَ مُنَاخُهَا.

لا يُمْكِنُ الرّكونُ إلى القناعة بأنّ «أَزْمَةَ التّنْمية» سيحلُّها الزَّمن، أو تَهْبِطُ تِلْقائيّاً، أو يجودُ بها علينا الآخَرون؛ وبينما تَنْتَشِرُ مؤسَّسَاتُنَا الفِكْريّة والثّقافيّة والإعْلاميّة والتّعْليميّة – علـى امْتـداد الأرْض – مُشِيدَةً بدَوْرِ «العلوم والتّقْنية» في انْتِشَالِ الأُمّة من وِهَادِ الرّكُودِ والتَّخَلُّـف، إلاّ أنّها – في الوَقْتِ نفْسـه – تُسَارِعُ الخُطَى – دون كَلَلٍ أو مَلَلٍ – إلى الانْغِمَاسِ فـي الطُّرُوحَاتِ التّقْليديّة والقضايـا الاسْتِهْلاكيّة والجَدَلِ اللّفْظيّ والتَّـرَفِ الفِكْريّ. أمّا عُنْـوانُ الخُـرُوجِ من ذلك «المَأْزِق» – في رأْيي[٩٧] – فهو لا يُمْكِنُ بحالٍ أنْ يَتَعَدَّى كَوْنَهُ من «جِنْـس العَصْرِ»، ليَتَجَلّى في مَفْهُوم «التَّفْكِيـر العِلْميّ» الذي يُعَابُ على «الثّقافة النَّمَطِيّة» غِيَابُهُ عنها، بينما تَحْظَى الإنْجـازاتُ المُعَاصِرَةُ بمزاياه وإسْهاماته، وذلك هـو «التَّحَدِّي الأَكْبَـر» الذي يَسْتَدْعِي «اسْتِجَابَةً» تتناسبُ مـع حَجْمِه، ويتطلَّبُ دِراساتٍ مُسْتفيضةً تَهْتَمُّ بتَجْريـدِ «الإشْكَالِيّة» من الإنْشائيّات والمُزَايدات والجَدَلِيّات لتَدْلِفَ إلى جوهرِها المُتَمَثِّلِ فـي حالة «الفَقْـرِ المَعْرِفيّ» الذي تعيشُهُ الأُمّةُ إزاء تسـارُعِ الأحْداثِ من حولها، وعَجْزِهَا عن فَهْمِ «التَّرْكيبة المُعَاصِرَة» التي تَصْنَعُ زمن اليوم، وتُشَكِّلُ أبْعَادَهُ وتضاريسَه.

٦-٧-٢) «التَّفْكير العِلْميّ» و«الثّقافة»:

انْسجامـاً مع طبيعة «الثّقافة العربيّة» فـإنّ مُصْطلح «التَّفْكير العِلْميّ» يَحْظَى برَوَاجٍ إنْشائـيٍّ فـي أدبيّاتِنا المُعَاصِـرَةِ إلاّ أنّه يَنْبَغِي أنْ نَعْتَرِفَ أنّ وَسَائِلَـهُ لا تَكْمُنُ في الوسائِلِ ذاتهـا التي اسْتخدمناها – عبْر قُرُونٍ – من بلاغيّات وإنْشائيّات واسْتطراداتٍ. ولذا فإنّ

كُلَّ أشْـكَالِ «الطَّرْحِ الإنْشائيّ» التي تَتَسَلَّلُ إلى حِواراتِنا عن «التَّفْكير العِلْميّ» تَخْسرُ - في رأْيي(٩٧) - رِهاناتِها منذ البداية؛ لأنّها تَسْتَخْدِمُ أدواتٍ لا تُلائِمُ طبيعة ذلك «المَنْهَج» ولا تتناغـمُ مع مُكَوِّنَاته؛ فليس من المَنْطقيّ أنْ نَتوَقَّعَ التَّحَرُّكَ بفَاعِليّةٍ على تضاريس «العلوم والتِّقْنيــة» باسْتِخْـدَام «خريطة العَالَمِ القديم» التي مهما كانــتْ جَدْوَاهَا في زمانِها فإنّها لــن تَسْتطيع أنْ تَرْصُدَ خَصَائِصَ «الخريطة الحديثــة» التي تَحْمِلُ ملامِحَ جديدةً، وآفاقاً رَحْبَــةً، وتفاصيل دقيقــة. ومن الطَّريف أنّه عندمــا يُطَالِبُ هــذا أو ذاك بضَرورة إدْخَالِ مُقَرَّرٍ دِراسيٍّ خَاصٍّ بـ«التَّفْكير العِلْميّ» في مَنْهَجِنَا التّعْليميّ، وتَكْثيفِ جُرْعَاتِهِ في حِواراتِنا وإعْلامِنــا وقراراتِنا، فإنّ الحديث يَجْرِي وكأنّ هــذه «الطَّريقة العِلْميّة» في «التَّفْكير» هي «جِهَازٌ» يَتِمُّ اسْتيرادُهُ وتَشْغيلُــهُ في الحال، أو «كِتَابُ مَحْفُوظاتٍ» نَخْتَزِنُهُ ونُعِيدُ اسْتِظْهَارَهُ عــن ظَهْــرِ قَلْبٍ، وتغيــبُ عن الأذْهَانِ أنّ «التَّفْكيــر العِلْميّ» - في الحقيقــة - هو مُمَارَسَةٌ فِكْريّــةٌ لهــا أُصُولُهَا وضَوابِطُهَا، وتَجْربــةٌ تراكُميّةٌ تَحْتَاجُ إلى مِحْورٍ تَلْتَــفُّ حوله، وتَتَطَلَّبُ أساساً تَسْتَنِدُ إليه، وتَنْشُدُ تُرْبَةً خِصْبةً تَتَرَعْرَعُ عليها.

من البدهيّــات الضّروريّات في «عَصْرِ المَعْلُومات» - على سبيل المِثال - أنّ «ثقافة الأرْقَــامِ والمَعْلُومات» جُزْءٌ أصيلٌ من خَصَائِص «التَّفْكير العِلْميّ» إلاّ أنّ هذه «الثَّقافة» ما زالتْ غريبةً على «العَقْلِ العربيّ»، وما زلنا نَقْرَأُ ونَسْمَعُ نِسَباً مِئويّةً تُلْقَى على عَواهِنِهَا في المَحَافِـلِ ووسائلِ الإعْلام، أو حقائِق عِلْميّة تُشَــوَّهُ وتُبْتَرُ دون رقيبٍ أو حسيب. إنّه لم يَعُدْ مَقْبُــولاً في «عَصْرِ المَعْلُومات» أنْ تُحْشَدَ الأرْقَــام، وتَتَدَافَعَ مَزَاعِمُ الإنْجاز، دون مَرْجِعِيّةٍ مَوثُوقَــةٍ ودِراساتٍ جَــادّةٍ ومَعْلُوماتٍ دقيقةٍ. إنّه من المؤسِــف أنْ نَرْصُدَ - في المُجْتمعات العربيّة - حالاتٍ مُتكرِّرَةً لحركاتٍ بَهْلوانيّةٍ لمَزَاعِم إنْجازاتٍ عِلْميّةٍ لا يَدْعَمُهَا وَاقِعٌ مَلْمُوسٌ أو أرْقَــامٌ مَدْرُوسَةٌ، ومن المُحْزِن أنْ نَشْهَدَ حِــواراتٍ ولِقاءاتٍ ومُنْتدياتٍ يَصْرُخُ أصْحَابُهَا بالنِّسَبِ المِئويّة والأرْقَامِ العَدَدِيّة دون تَحْديدِ مَرْجِعِيّتِهم ومعاييرِهم؛ فكَمْ من زَاعِمٍ - بكُلّ ثِقَــةٍ واعْتــدادٍ - أن «تِسْعين في المائة» من النّاس يَتَّفِقُــون معه، ولا يُبَيِّنُ لنا صاحِبُنا هذا كيــف قِيسَتْ هذه النِّسْبَة؟، وما العَيِّنَاتُ التي اسْتُخْدِمَتْ في القِياس؟، وعلى أيّ اعْتباراتٍ تَأَسَّســتْ المعاييرُ التي حَدَّدَتْ تلك «التِّسْعين في المائة»؟. بطبيعة الحال، ليس أدْهَى من

ذلـك إلاّ حالة صاحبنا الذي زعم أنّه لو حَقَّقَ «عِشْرين في المائة» من تطلُّعاتِه في جِهَازِهِ الإداريّ فإنّـه يكـون قد حَقّقَ إنْجازاً كبيـراً، ولم يُفْصِحْ لنا عن مَوْقِـعِ تلك «العِشْرين في المائة» في قَائِمَةِ الأولويّات، ولم يَتَبَرَّعْ بمَعْلُومَةٍ عن مِقْدَارِ المال والوَقْتِ والجُهْدِ المَبْذولِ علـى «العِشْرين في المائة» مُقارَنَةً بـ«الثَّمانين في المائة» التي تَقْبَعُ في «خَانَة النِّسْيان»!.

إنّـه من الوَاضِحِ أنّ كُلّ تلك الأَسْئلة وغيرها وَارِدَةٌ عنْدما تكون الأرْقَامُ ضمْن المُسْتندات فـي الحِوَارِ والتّوثيق؛ ففي «عَصْرِ المَعْلُومـات» لا تَأْتِي الأرْقَامُ اعْتِبَاطاً، ولا تُولَدُ بالمِزَاج، ولكنّهـا – بطبيعتها الرّقميّـة – ذات خصائِص مُنْضَبِطَةٍ تَعْتَمِدُ على أساليب عِلْميّةٍ ثَابِتَةٍ؛ منهـا القِياسُ المُبَاشِر، ومنها الاسْتِـدْلالُ بالمُقارَنَةِ العِلْميّـةِ المَنْهَجيّة، ومنها الإحْصَاءُ المُسْتَنِدُ إلى أساليـب إحْصائيّةٍ مُعْتَمَدَةٍ. وأمّا مُجَرَّدُ الزَّجِّ بالأرْقَام دون إدْرَاكٍ لطبيعتِها وضَوابِطِهَا فهو مَنْهَجٌ فَاشِلٌ قد يُرَوِّجُ لفُقّاعَةٍ إعْلاميّةٍ سُرْعان ما تَنْفَجِرُ ويَتَكَشَّفُ عَوَارُهَا، وهـو طريقةٌ فـي التّفْكير والعمل لا تَنْسَجِـمُ مع تطلُّعاتِ المُجْتمعات إلـى تَحْقيقِ «التّنْمية الحقيقيّة»، والانْفِتَاحِ على «العلوم الحديثة»، والأَخْذِ بأسْبَابِ «التَّطَوُّرِ التِّقنيّ».

لقد كان هناك زمنٌ انْتَشَرَتْ فيه – في العَالَمِ الثّالث – صِيَغُ المُبَالَغَة، فهَيْمَنَتْ على وسائـلِ الإعْلام عِباراتُ «أكْبر مَشْرُوعٍ»، و«أضْخم مَبْنىً»، و«أقْوى جيشٍ»، وبالرّغْم من أنّ التّباهـي بالأكْبـر والأضْخم والأقْوى يَفْرِضُ – بالضّرورة – أنْ يكـون هنـاك «ثانٍ أكْبر»، و «ثـانٍ أضْخم»، وما يلي ذلك من تَرْتيبٍ، إلاّ إنّ إغْفَالَ التّرتيب – في حَدِّ ذاته – دَلالَةٌ على بُعْدِ المَعْلُومات عن الوَاقِع، وعدم اسْتنادها إلى المُقارَنَةِ العِلْمية السّليمة. ولا شكّ في أنّ أُفُولَ ذلك النَّهْجِ في كثيرٍ من وسائلِ إعْلام «العَالَمِ الثّالث» يُعْتَبَرُ دَلالَةً على نُموّ الوَعْي بين أفْرادِه إلاّ أنّ تلك «الرُّوحَ العِلْميّة» ما زالتْ في حاجةٍ إلى جُهْدٍ كبيرٍ لتَرْسيخِهَا وإنْضَاجِهَا فـي الكِيـان الإداريّ والتّخْطيطي والتّنْفيذيّ والاجْتماعيّ لـ«الـدُّول النّامية». وأمّا التّحَقُّقُ من صِحَّةِ المَعْلُومـات وتَحَرِّي الدِّقَّة في الأرْقَامِ ومصادرِها، فموضوعاتٌ ما زالتْ حَائِرَةً بين الإعْلاميّين وحَمَلَةِ الأقْلام في العَالَمِ الثّالث، وهي قضيّةٌ لا تَعْنيهِمْ من قريبٍ أو بعيدٍ، فتجـدُ أنّ أحدهم مـا أنْ تَبْلُغَ مَسَامِعَهُ قضيّةٌ ما حتى يُسَارِعَ إلـى طَرْحِهَا في الصُّحف أو وسائـلِ «الإعْـلام الجديد»، وذلك قبل التّأَكُّدِ مـن صِحَّةِ مَعْلُومَاتِه، وفـي رأْيه أنّ التّأكيد

والنّفـي وجَمْـعَ المَعْلُومات مهـامٌّ تَقَعُ على عَاتِقِ الجِهَـةِ المَعْنِيَّة، وأنّ مُهمّته تَبْـدَأُ وتَنْتَهي بالْتِقَـاطِ المَعْلُومة عَشْوائيّاً وطَرْحِهَـا أمام النّاس دون تَمْحيصٍ مَبْدَئيٍّ أو تَمْييزٍ عَقْلانيٍّ؛ وهـذا - فـي الوَاقِعِ - أسْلوبٌ غير عِلْميٍّ، وهو أقْرب إلى أسْلُـوبِ الارْتِجَالِ وافْتِعَالِ الإثارة منه إلى أسْلُوبِ العمل الهَادِف الذي يَجْمَعُ في إطارِه دِقَّةَ المَعْلُومات، وموضوعيّة الطَّرْح، وحياديّة المُنَاقَشَة.

لا مَفَـرّ مـن إدْراك حقيقة أنّ للأرْقَـامِ والمعْلُومات مصادِر ثَابِتَـةً، ودَلالاتٍ دقيقةً، ومعاييـر مُنْضَبِطَـةً، وتُبْنَى عليهـا قراراتٌ مُهِمّةٌ، ولـذا كان من المُهِمّ تَكْريسُ «التَّفْكير العِلْميّ» في كُلّ المُؤَسَّسَاتِ - العَامّ منها والخَاصّ - في مُحاولاتٍ جَادّةٍ لفَحْصِ الظّواهِر، وجَمْـعِ المَعْلُومات، واسْتِخْدَامِ «لُغَـةِ الأرْقَامِ»، واسْتِكْشَافِ العَلاقَـاتِ الخَفِيّة بين الأمور، ورَبْـطِ الأسْبَابِ بمُسَبِّبَاتِهَا بوسائِل عِلْميّـةٍ، وأدوات إحْصائيّةٍ، وبُحُوث ميدانيّة. يَنْبَغِي أنْ نُـدْرِكَ أنّ «التَّفْكيـر العِلْميّ» ليس وحياً يَنْزِلُ من السّمَاء، وليـس لحظاتِ سِياحَةٍ في رُبُوع «وادي عَبْقَر»، ولكنّه شَأْنٌ يَتَطَلَّبُ مَعْرفةً ومَعْلُوماتٍ ومُرْتكزاتٍ وتفاعُلاتٍ سَبْقِيَّةً مُتَأصِّلَةً. وأمّـا «التّفْكيـرُ» دون هـذه «البِنْيَةِ التَّحْتيّـة» فهو تَجَوُّلٌ فـي فَرَاغٍ، وهـو كَلٌّ على صاحبه، فكمـا قُلْنَا - في الفَصْـلِ الخامِس - إنّ «العَقْلَ» في حاجةٍ إلى مُحَـدِّدَاتٍ، لأنّه يتعاملُ مع أدواتٍ هـي المفاهيم والتّعْريفات والمُصْطلحات والمَعْلُومـات، وبقَدْرِ تَوَافُرِ هذه المعاني والـدَّلالاتِ والقِيَمِ من مُعْطياتِ «الفِكْرِ العِلْميّ» يَسْتطيـعُ «العَقْلُ» أنْ يُؤَمِّنَ درجةً أعْلى من «الإنْجاز المَعْرفيّ»، وقُدْرَةً أكْبر على النَّفَاذِ إلى رِحَابِ «التَّفْكير العِلْميّ».

وهكـذا نجـدُ أنّ تَأْسيسَ «التَّفْكير العِلْمـيّ» في المُجْتمع يَتَحَـوَّلُ - بالضّرورة - إلى «قضيَّة ثقافةٍ» بكُلِّ أبْعَادِهَا ومُجْمَلِ تفاعُلاتِها، ونجدُ - من وَاقِعِ طبيعة العَصْرِ ومُقْتضياتِه، واسْتِنـاداً إلـى المُصْطلح ذاته - أنّ «التَّفْكيـر العِلْميّ» يَغْرِسُ جُـذُورَهُ في مبادئ «العلوم الحديثـة» وطُرُقِ تَحْليلِهَا ووسائِلِ تَطْبيقِهَا ومَنْهَـجِ اسْتِدْلالاتِهَا، ويَسْتَمِدُّ أدواتِه وعناصره مـن عمليّاتِ «التَّفَاعُلِ الفِكْريّ» التـي يَرْسُمُ أُطُرَهَا «فِكْرٌ عِلْميٌّ»، وتُثْري ساحاتِها «قفزاتٌ تقنيّةٌ»؛ وبهذا يكـونُ «التَّفْكيرُ العِلْميُّ» نِتَاجاً طبيعيّاً لتَأْصيـلِ «الثَّقافة العِلْميّة»، ومُحَصِّلَةً تِلْقائيّـةً تَرَاكُمِيّـةً مُلازِمَةً لحَرَاكِ «الثَّقافـة العِلْميّة» وانْتِشَارِهَا. ولـذا كان لِزاماً على أيِّ

رُؤىً تَطْمَـحُ إلى تَأْصيلِ «التَّفْكير العِلْميّ» في البيئة، وإرْسَاءِ أُسُسِهِ في العُقُول، أنْ تَحْرِصَ وتُرَاهِنَ على جَعْلِ «الثَّقافة العِلْميّة» عُنْصُراً مُؤَثِّراً في التّفاعُلاتِ الفِكْريّة، وجُزْءاً عُضْويّاً مـن «الثَّقافة السَّائِدَة»، بحيـث يَسُودُ مُنَاخٌ يتجـاوبُ مع «رُوحِ العَصْـر»، ويَتَفَهَّمُ ضُغُوطَهُ وشُرُوطَـه، ويُرَسِّـخُ الحماس والاهْتمـام بالكُشُوفات العِلْميّـة والمُنْجـزات التّقنيّة. وأمّا الحقيقـةُ الثّابِتَةُ، فإنّه عندما تَزْدَهِرُ «ثقافةُ العِلْم» بين النّاس، ويَتَبَلْوَرُ «التَّفْكيرُ العِلْميُّ»، وتَتَغَلْغَـلُ جُذُورُهُ فـي «النَّسيج المُجْتمعـيّ»، فإنّ النّاتِـجَ التّلْقائيّ هـو اضْمِحْلالُ قراراتِ «الجَهْـلِ» المَبْنِيّـةِ على المِـزَاجِ اللّحظـيّ، والارْتِجَالِ التَّعَسُّفـيّ، والتَّوهُّمَـاتِ الانْفعاليّة، والتَّصَوُّراتِ النَّرْجَسِيّة، والخُطَبِ البلاغيّة.

وهكـذا يَتَّضِحُ أنّ من أبْرز الأدْوار التي يُمْكِـنُ لـ«الثَّقافة العِلْميّة» أنْ تقوم بها هو أنْ تَرْتَقِـي بـ«الثَّقافة العربيّـة» من قَوْقَعَةِ المَنْظُومَاتِ اللّفظيّة والتّأمُّـلاتِ الوَصْفيّة والجِدَالِ الكلاميّ إلى فُسْحَةِ الأرْقَامِ والإحْصاءاتِ والمَعْلُوماتِ والتّجْريبِ والانْضِبَاطِ الموضوعيّ، وهذا أمْرٌ مَلْحُوظٌ - إلى حَدٍّ كبيرٍ - في وَاقِعِ الحياة المُعَاصِرَة حيث نجدُ أنّ أولئك الذين خاضوا تَجْرِبَةَ التّأْسيس العِلْميّ والتّدْريب التّجْريبيّ يكونون - إلى حَدٍّ ما - أكْثر انْضِبَاطاً ومُرَاعَـاةً لعناصـرِ «الموضوعيّـة»، وحِرْصـاً على عـدم التّعْميـم، واهْتِمَامـاً بالاسْتِدْلالِ والتّحْليلِ والتّدْقيق؛ إلاّ أنّه من المُحْزِنِ أنْ نَلْحَظَ - في المُجْتمعات العربيّة - أنّ «التَّفْكير العِلْمـيّ» - بمَنْهَجيّتِهِ الحقيقيّة وضَوابِطِهِ الصّارِمَةِ - ما زال غَائِباً - بدرجاتٍ مُتَفَاوِتَةٍ - بيـن أصْحاب «التَّخصُّصـات العِلْميّة - التَّجْريبيّة» أنْفسهـم، ولا عجب في ذلك، فالغَلَبَةُ في النّهايـة هي لـ«الثّقافة النَّمَطِيّـة» السَّائِدَة، وأفْلاكِهَـا الانْفعاليّـة، ورَوَاسِبِهَا التّرْبويّة والنّفْسيّة والاجْتماعيّة.

٦-٧-٣) عَقْلَنَة الثّقافة:

انْطلاقـاً ممّـا سَبَقَ، نَسْتطيـعُ أنْ نَخْلُصَ إلـى أنّ المُوَاصَفَاتِ والشُّـرُوطَ المَطْلُوبَةَ للخُـرُوجِ من «المَأْزِقِ الثَّقافيّ» أكْثر تَعْقيـداً ممّا نَعْتَقِدُ، ولعلّ أهمّ أشْكال ذلك التّعْقيد هو قضيّـةُ «عَقْلَنَةِ الثّقافـة» التي تُمَثِّلُ مَسْألةً جوهريّةً لإحْدَاثِ تَحَـوُّلاتٍ في «المُنَاخِ الفِكْريّ»

تُوَائِـمُ بين «الثَّقافة العربيّة» وبين صُـوَرِ الحياة المُعَاصِرَة، وتُرَسِّـخُ «الفِكْرَ التَّنْمَويّ» في التّفاعُـلاتِ والمُمَارَسَاتِ، وبدون ذلك ستَسْتمرُّ «الثَّقافـةُ» عِبْئاً على أصْحابِها بإفْرازاتِها الضّحْلَةِ وسَلْبيّاتِها المُتَعَاقِبَةِ وجَدَلِهَا العقيم. من المُهِمّ – إذاً – في سِياق تَقَصّي الحُلُولِ لـ«إشْكَاليّـةِ التَّنْميـة» أنْ نَطْـرَحَ السُّؤال الـذي يَفْرِضُ نفْسه مِـرَاراً وتَكْراراً ولـو بأشْكَالٍ مُخْتلفـةٍ، وباسْتِعَـارَةِ توصيف محمد عابد الجابري[٦٧] لـ«الثَّقافـة العربيّة» بأنّها «خِطَابُ وِجْدَانٍ» لا «خِطَابُ عَقْلٍ»، فإنّنا نَطْرَحُ السُّؤال على النّحو التالي: (كيف نَسْتطيعُ أنْ نُحَوِّلَ «الخِطَـابَ النَّهْضَويّ – التَّنْمَويّ» في «الثَّقافة العربيّة» مِـن «خِطَاب وِجْدَانٍ» إلى «خِطَابِ عَقْلٍ»؟). ولا شكَّ لديّ في أنّ مُثقّفينا ومُفكّرينا سيَخْرُجُون علينا بعشرات الإجابات التي تُحَلِّقُ في فضـاءاتٍ لَفْظيّةٍ مُتَنَوِّعَةٍ، وتَسْتَعِينُ بمُصْطلحاتٍ «حَدَاثيّةٍ» مُؤَثِّرَةٍ، وتَسْبُرُ أغْوارَ مُنْطَلقاتٍ «تُرَاثيّةٍ» شَائِقَةٍ، ولكن المُرَاجَعَةَ والتّقْييمَ لـ«الحركة النَّهْضَويّة» في «المُجْتمعات العربيّة» – منذ انْطلاقتِها قبل حوالي مائتي عامٍ – يُوضِّحان أنّ كُلَّ تلك الإجابات – دون اسْتِثْنَـاءٍ – لا تَعِدُنَـا بإنْجازٍ وَاضِحِ المعالِم على طريق ذلـك «التَّحَوُّلِ النَّوْعيّ» في التّفْكيرِ والمُمَارَسَـةِ والإنْتـاج، كمـا أنّها لـم تُفْلِحْ في تَحْريـرِ «العَقْلِ العربيّ» من حالـة ما يُعْرَفُ بـ«التَّفْكير الحَدِّيّ» الذي لا يرى في الأشْياء إلاّ «الكَمَالَ المُطْلَقَ» أو «النَّقْصَ الفَادِحِ»، ولم تَتَمَكَّنْ من إدْخَالِ «العَقْلِ العربيّ» في مَنْظُومَةِ «العَقْلِ المُنْضَبِطِ» الذي يَزِنُ الأُمُورَ بمعايير موضوعيّةٍ، ويُرَوِّضُ الانْفعالاتِ بضَوابِط رشيدة.

تلـك الحقيقة يُؤَكِّدُهَا محمد جابر الأنصاري، وهو يُبَيِّنُ أنّ من خصائِص «التَّفْكير العربـيّ السَّائِد» هو: (انْجرافه للعُمُوميّـاتِ والأفْكَارِ المُجَرَّدَةِ الغَائِمَـةِ وغير المَحْسُوسَةِ على حِسَابِ الوَقَائِعِ والحقائِق والجُزْئيّات التي تَتَطَلَّبُ جُهْداً في البَحْثِ والتّفْكير، وصَبْراً عليهمـا، وجُرْأَةً فـي مُوَاجَهَةِ تضاريسـ الوَاقِعِ الصُّلْبِ أيّـاً كانتْ صُعُوبَتُـهُ وقَسْوَتُه)[٧٠]، وأمّـا محمد عابد الجابريّ فيَسْبُرُ غَوْرَ «الخِطَابِ الفَلْسَفيّ العربيّ المُعَاصِرِ» فيَذْهَبُ إلى أبْعد من ذلـك فيقول: (التّنَاقُضُ بين «الطَّابَعِ العَقْلانيّ للأهْداف» و«الطَّابَعِ اللاعَقْلانيّ للتَّفْكيـر» هو السِّمَةُ البَارِزَةُ فـي «الخِطَابِ الفَلْسَفِـيّ العربيّ المُعَاصِـر»)[٦٧]. أمّا عمليّةُ «عَقْلَنَـةِ الثَّقافـة» فهي – وفْق ما يَطْرَحُـهُ ماكس فيبـر (Max Weber) – عمليّةٌ تَهْدِفُ

إلـى (تَحْويـل القِيَم والتّصـوُّراتٍ الجديدة إلى قَواعِـد ومُرْتكزاتٍ يَتَأسّسُ عليها «البِنَاءُ الاجْتماعـيّ»)[١٦]؛ وهذا يَعْنِي - بالضّـرورة - اكْتِسَابُ المَقْدرة علـى التّحْليلِ المُنْضَبِطِ والتّفْكيـرِ الموضوعـيّ والرُّؤى المُعَاصِـرَةِ لتَأْطيرِ تلك المُعْطيـاتِ التُّراثيّة والحَداثيّة في مَنْظُومَةٍ تتعاملُ مع عَصْرِهَا بحيويّةٍ، وتَسْتفيدُ من مُنْتَجَاتِهِ المُتَنَوِّعَةِ باقْتدارٍ؛ فـ(«العَقْلَنَةُ» عنـد فيبـر تَعْنِي إعادة تَنْظيمِ «المجـال الثّقافيّ» ضمْن دَوائِر مَعْرفيّـةٍ مُسْتقلّةٍ وخَاضِعَةٍ لمَجْمُوعَةٍ من القِيَمِ والمفاهيمِ المُحَدَّدَة)[١٦].

وهكـذا تَكْمُنُ «البيئةُ المحليّةُ» - بكُلِّ أبْعَادِهَـا الثّقافيّة والماديّة والاجْتماعيّة - في قَلْبِ «المُشْكلـة التّنْمَويّة المُعَاصِرَة»، وعندما نَتَحَدَّثُ عن «حركـة العلوم والتّقْنية»، فإنّنا نَحْتَاجُ إلى لُغَةٍ مُنَاسِبَةٍ قَادِرَةٍ على توطينِ هذه الحركة وتَخْصِيبِ التُّرْبَةِ لاسْتِقْبَالِهَا، فكما يقولُ طه حسين: («العِلْمُ» لا وطن له، ولكنّه إذا اسْتَقَرَّ في وطنٍ من الأوطان تَأَثَّرَ بإقْليمِه وبيئتِـه ليَسْتطيـع أنْ يَتَّصِلَ بنُفُوسِ سَاكِنيه)[١٧]. أمّا محمـد عابد الجابريّ[١]، فإنّه يجدُ أنّ «الوَضْـعَ الثّقافـيَّ الرَّاهِنَ» يُنْتِجُ (فِكْـراً مُشَوَّشَاً غريباً عـن مُجْتمعِه وعَصْرِه)؛ وذلك لأنّ ما تُـرَوِّجُ له الوسائلُ الإعْلاميّة والثّقافيّة يَنْحَصِرُ في بِضَاعَتَيْن ثقافيَّتَيْن مُنْفَصِلَتَيْن مُتَنَافِرَتَيْن؛ الأولى تَنْتَمِي إلى (التُّرَاث تَعْرِضُهُ وتُكَرِّرُه)، والأُخْرى (بِضَاعةٌ ثقافيّةٌ غَرْبيّةٌ حديثـةٌ)، ويرى الجابريّ أنّـه: (في كِلْتَا الحَالَتَيْن يَتَعَلَّقُ الأَمْرُ بأجْـزَاءٍ وقِطَعٍ مُنْتَزَعَةٍ من سِياقِهَا مَفْصُولَةٍ عن الرُّوحِ العامّةِ التي أَنْتَجَتْهَا). ومن الوَاضِحِ أنّ تلك الرُّؤيةَ هي إعادةُ صِياغَة، أو إفْرَازٌ من إفْرَازَاتِ «إشْكَالِيَّة التُّرَاثِ والحَدَاثَة»، ولقد اهْتَمَمْنَا بهذه «الإشْكَالِيَّة» في الفَصْلِ الرّابع، حيث أوضحنا الدَّوْرَ الحَاسِمَ لـ«الثّقافة العِلْميّة» في التّعامُلِ - بإيجابيّةٍ - مع هـذه «الإشْكَالِيَّة»، وتفكيكِ تناقُضاتِها، وقُدْرَتِهَا على تجاوز «حالة الاسْتِقْطَاب» بين «التُّرَاثـيّ» و«الحَداثيّ» عبْر «تَوَافُقٍ تَنْمَويٍّ» يَتَبَنَّى «الفِكْرَ العِلْميّ» ليُحَقِّقَ الأُلْفَةَ والانْسِجَامَ والتّلاقُـحَ بيـن مُكَوِّنَاتِ المُجْتمع ومُقَوِّمَاتِـه، لا لشيءٍ إلاّ لأنّ «ثقافـة العَصْرِ» ومُجْتمعاته وأنْمَـاطِ حياتِه واقْتصـادِه وازْدهارِه تَعْتَمِدُ - في المقـام الأوّل - على «الحركة العِلْميّة - التّقنيّة»، ومُعْطَيَاتِهَا الكَاسِحَة، وثقافتِها التي لا تَسْتَعْدِي أحداً.

ولا شكّ في أنّ «التّرْكيبة الثّقافيّة - العِلْميّة» التي تُؤَصِّلُ لـ«التّفْكير العِلْميّ»، وتُرَسِّخُ الـرُّؤى العَقْلانيّة، وتُوَطِّدُ دَعَائِمَ المَنْطِـقِ والتّجْربةِ والموضوعيّة عنـد التّحْليلِ والتّقْييم والدّراسة؛ كُلُّ ذلك من أهمّ ذخائِر التّفْكير اللّازِم اسْتدعاؤها إذا أردنا الاسْتجابة لدَعْوَةِ محمـد عابد الجابريّ وهـو يُوَضِّحُ طبيعة المهامّ التي يَنْبَغِي لـ«الفِكْرِ العربيّ» أنْ يقوم بها بـ«رُوحٍ عَقْلانيّةٍ نَقْديّةٍ» وإلاّ: (فإنّ التّطوُّرَ إلى الأمام لـن يَشُقّ طريقه الصّحيحة عنْدنا. هـذه المهـامّ تَتَلَخَّـصُ في عِبَارةٍ وَاحِـدَةٍ هي نَقْدُ الوَاقِـعِ العربيّ من جميـع جوانبه: نَقْدُ المُجْتمع، ونَقْدُ الاقْتصاد، ونَقْدُ العَقْل)[١]. وعموماً فإنّ المُتَأَمِّلَ لأبْعَادِ «إشْكَالِيَّة التّنْمية» كمُعْضِلَةٍ مُتَفَاقِمَةٍ يُدْرِكُ أنّ غِيَابَ «الثَّقافة» - القَادِرَةِ على فَهْم «رُوح العَصْر» والاسْتِجَابَةِ لتحدّياتـه - مَسْؤولٌ عـن تَفَاقُم هذه «الإشْكَالِيّة» واسْتِمْرَارِهَا فـي «المُجْتمعات النّامية»؛ فقضيّـةُ نَشْـرِ «الثَّقافة العِلْميّة» وتَأْصيلِها في هذه المُجْتمعـات ما زالتْ - إلى حَدٍّ كبيرٍ - خَاضِعَـةً لجُهُودٍ فَرْديّةٍ مُبعْثَـرَةٍ واجْتهاداتٍ مَحْدُودَةٍ قَاصِرَة، فهـي - كما قُلْنَا[٢٣] وكَرَّرنَا في أكْثر من مقامٍ ومقالٍ - «القضيّةُ الغَائِبَةُ» في «المُجْتمعات العربيّة». وأمّا عنْدما يقولُ أسامة عبد الرحمن: (إنّ الحريّة الأكاديميّة والمُنَاخَ المُلائِمَ للبَحْثِ والإبْدَاعِ لا يَصْدُرَان بقانـونٍ أو بنِظَام ولكنّهما مُحَصِّلَةُ قِيَم اجْتماعيّةٍ وسياسيّةٍ وثقافيّةٍ رَاسِخَةِ الجُذُور)[١٢]، وعنْدما نَتَحَدَّثُ عن افْتِقَارِ العَالَم العربيّ إلى النّشاطِ البَحْثيّ المُمَيَّزِ والابْتِكاراتِ التّقنيّةِ المُجْديَـةِ والإسْهَـام العِلْميّ المُنْتِج، فإنّنـا - دون شَكّ - نَتَحَدَّثُ هنا عـن أهميّة تَرْسيخ ثقافـةٍ قَـادِرَةٍ على تَحْفيزِ المَواهِـبِ والقُـدْرَاتِ واسْتِقْطَابِهَا واحْتِضَانِهَـا، وتَهْيئَةِ «البِيئَة المُنَاسِبَـة» لاسْتِيعابِ عطاءاتها، وبدهـيٌّ أنّ مثْل تلك «الثقافة» لن تَسْتطيع أنْ تَقِفَ وتَنْمُوَ دون الاعْتِمَادِ على عمودِها الفِقْريّ المُتَمَثِّلِ في «الثَّقافة العِلْميّة».

٦-٧-٤) في انْتظار «تَحوُّلٍ ثقافيٍّ»:

إنّ النّقْـلاتِ العميقـة، التـي حَدَثَـتْ على مُسْتـوى الكُـرَة الأرْضيّة عبْـر تفاعُلاتِ «الحركـة العِلْميّـة - التّقنيّة»، لـم يُصَاحِبْهَا - للأسف الشّديد - «تَحـوُّلٌ ثقافيٌّ» مَلْمُوسٌ فـي «المُجْتمعـات العربيّة»، ولذا بَقِيَـتْ ثقافتُها بريئةً مـن كُلِّ ما يَضْطَـرِمُ على السّاحةِ

العِلْميّة والمَعْرفيّة والإنْتاجيّة، وأمّا أكْبر تَأَثُّرَاتِهَا فقد كانتْ - كما هو مُتوقَّعٌ ومُنْسَجِمٌ مع طبيعة «الثَّقافة العربيّة» - على الصّعيدِ الكلاميّ والتّأمُّليّ والخَطَابيّ عبْر تَصَادُمِ تيَارات «الحَدَاثيّيـن» بمعَاقِـل «التَّقْليديّين»، أو بَرَزَتْ علـى السّاحة في شَـكْلِ صِرَاعاتٍ سياسيّةٍ ونِزَاعَـاتٍ حول السُّلْطَة؛ ولكنّها في كُلِّ أشْكَالِهَا المُخْتلفة من عِرَاكٍ وحَرَاكٍ لم تُسْهِمْ في تَقْليصِ الفَجْوَةِ مع «ثقافة الغَالِب»، أو إضْعَافِ الاعْتِمَادِ على مُعْطياتِه ومُنْتَجَاتِه، أو الدَّفْعِ نحو تَفْكيكِ «إشْكَاليَّة التّنْمية» والتّصَدِّي لمُسَبِّبَاتِهَا.

لقد رأينا - في سِيَاقِ هذا الكِتاب - كيف أَصْبَحَ الاسْتِقْطَابُ القَائِمُ بين «ثقافة النُّخْبَة» و«ثقافـة الجُمْهُور» يتداعى تحْت وَطْأَةِ «ثَوْرَةِ المَعْلُومات» و«ثَوْرَةِ الاتِّصالات»؛ فالتّفاعُلاتُ والتّبَادُلاتُ بين «الثَّقافَتَيْن» أَصْبَحَتْ أمْراً حَتْمِيّاً، ولكي تَسْتطيع هذه التّفاعُلاتُ أنْ تَنْسَجِمَ مـع «رُوحِ العَصْر» وتَسْتَجيبَ بفَاعِليّةٍ لأنْواعِ التّحدّيات، فإنّ لـ«الثَّقافة العِلْميّة» دَوْراً رئيساً فـي تلك المُهِمّـةِ التي تُؤسِّـسُ لـ«التَّجَانُسِ الفِكْـريّ» و«التّوَافُقِ الاجْتماعـيّ» و«الانْطِلاقَةِ التَّنْمَويّـة»؛ وذلك - بكُلِّ بساطةٍ - هو أحد نَوَاتِجِ «الحركة العِلْميّة - التقنيّة» وخَصَائِصِهَا وتفاعُلاتِهـا اللّصيقة بـ«التَّدَافُعِ الثَّقافيّ - العِلْميّ»، وهـو الأَمْرُ الذي يُوضِّحُهُ أحمد زويل بقوله: (وفـي الدُّوَلِ المُتَقَدِّمَةِ يكون إنْجَازُ «العِلْم» وإبْهَـارُ «التكنولوجيا» ودِقَّتُهَا على قَدْرِ تَشَرُّبِ المُجْتمع بـ«الثَّقافة العِلْميّة»)[٧٠].

وهكذا نجدُ أنّ «الثَّقافـة العِلْميّة» ليستْ فقط قَادِرَةً على رَبْطِ المُجْتمع بالقُوى التي تَحْكُـمُ عَصْرَه، وليستْ فقـط دَاعِمَةً لقُدُرَاتِ الاكْتِشَافِ والابْتِـكَارِ والإبْدَاعِ، وليستْ فقط مُهَيِّئَـةً لأجْوَاءِ «البِيئة المُنَاسِبَة» التي تَدْفَعُ نحو الإنْجازِ العِلْميّ والإنْتاجيّةِ العمليّة، ولكنّها - أيضـاً - تُنَمِّـي الفُضُولَ المَعْرفيّ وحُـبَّ الاسْتِطْلاعِ والبَحْثَ والرَّغْبَةَ فـي قِرَاءَةِ «كِتَابِ الطَّبيعـة» المَفْتُوحِ المُذْهِلِ فـي أسْرَارِهِ والفَائِقِ في إنْجازاته؛ وهـي تَغْرِسُ بُذُورَ «التَّفْكير العِلْمـيّ»، وتُطَوِّرُ مهاراتِ التّحْليلِ والتّعْليلِ والعَقْلانيّة، وتُبَلْـوِرُ قِيَمَ الانْضِبَاطِ وأخْلاقيّاتِ العمـل. وأمّا تَرْقِيَةُ الحِسِّ الجماليّ، وتَعْزيزُ ومضاتِ الاسْتِشْعَارِ الوِجْدَانيّ، وتَعْميقُ الرُّؤى الإنْسانيّة، فإنّ «الثَّقافة العِلميّة» قريبةٌ منها ومُتَفَاعِلَةٌ معها عبْر سِيَرِ رِجَالاتِهَا، وأطْيافِهَا الإنْسانيّـة، ومجالاتِها الرَّحْبَـةِ والمُتَّسِعَةِ باسْتمرارٍ، وخيالِها الأَخَّاذِ الـذي تُبْرِزُهُ أدبيّاتُ

«الخيال العِلْميّ»، وتَحْفِلُ به مُعْطياتُ «العِلْم» التي تَفَوَّقَتْ بمراحِل على كُلِّ ضُرُوبِ الخيال.

من المُهِمِّ - إذاً - أنْ نَعِيَ ضَرورة إجْرَاءِ «تَحَوُّلٍ ثقافيٍّ» جِذْريٍّ بحيث تَحْتَلُّ «الثَّقافةُ العِلْميّـةُ» مَوْقِعـاً ذا أولويّةٍ بَـارِزَةٍ في مَنْظُومَةِ الاهْتمامـاتِ الثّقافيّة والتّوعويّـة والفِكْريّة فـي حياة «المُجْتمعـات العربيّة»، ومن الضّــروريّ - في سِيَاقِ طَـرْحِ الخَلْفيّاتِ والقضايا والمفاهيـمِ العامّـةِ المُرْتَبِطَةِ بمُصْطلح «الثَّقافة العِلْميّـة» - أنْ نَحْرِصَ على تَعْريفِ هذا المُصْطلح، وضَبْطِ تَصْنِيفَاتِهِ ومُوَاصَفَاتِهِ ومَضَامِينِهِ وأهْدَافِهِ ومُعَوِّقَاتِه، وذلك في إطَارِهِ العـامِّ المُتَعَلِّـقِ بـ«المُجْتمعات الإنْسانيّـة»، وفي إطَـارِهِ الخاصِّ المُرْتَبِـطِ بـ«المُجْتمعات العربيّـة» وما يُمَيِّزُهَا من ثقافةٍ وعقيـدةٍ ومفاهيمَ وتحدّياتٍ، وهذا ما نَسْعَى إلى مُعَالَجَتِهِ في الفَصْلِ التّالي.



«الثَّقَافَةُ العِلْمِيَّةُ»: نَظْرَةٌ شَامِلَةٌ

٧-١) مَدْخَل:

إذا اتَّفَقْنَا مع محمد عابد الجابريّ بأنّ «مُشْكِلَ النّهْضة» عند العرب: (يجدُ مَصْدَرَهُ ومُكَوِّناته في التَّنَاقُضِ الذي يُمَيِّزُ الوَضْعَ العربيّ الرّاهِن: التّنَاقُض بين مَظَاهِرِ الحضارة الحديثة كما يعيشونُها على مُسْتوى الاسْتِهْلاك، وبيـن مَظَاهِرِ التَّخَلُّف كما يُعَانُونَهَا على مُسْتـوى الإنْتـاج والسُّلُوك والفِكْـر)[١]، فإنّ مِثْلَ هـذا التّنَاقُضِ القَائِم يَحْتَـاجُ إلى «لُغَةٍ» تَسْتطيـعُ أنْ تُقَلِّصَ مـن مِساحاتِه، وتُحَاصِرَهُ في مَواقِعِه، وتُفَـكِّكَ عُقَدَهُ وتشابُكاتِه. ومن المُهِمّ أنْ تكون تلك «اللّغة» مُنْبَثِقَةً عن طبيعة المُشْكِل، ومُنْسَجِمَةً مع عناصرِه، ولأنّ هذه العناصـرَ والمُقَوِّمَـاتِ في زماننا هـي - في المقام الأوّل - مُسْتَمَـدَّةٌ من طبيعة «الحركة العِلْميّـة - التّقْنيّـة» وتفاعُلاتِها، فإنّنا لا نَسْتطيـعُ أنْ نجد «لُغَةً» أكْثـر فَاعِليّةً وتَأْثيراً من «لُغَةِ العلـوم والتّقْنية» المُتَمَثِّلَةِ - فِكْرِيّاً وثقافيّاً وعمليّاً - في «الثَّقافة العِلْميّة». وأمّا مالك بـن نبيّ فإنّه - بعد مُعالَجَـةٍ عميقةٍ لأوضاعِ «النَّهْضَةِ العربيّـة» - يَخْلُصُ إلى: (أنّ ثقافة نَهْضتنا لم تُنْتِجْ سوى حِرَفيِّين مُنْبَثّين في صُفُوفِ شَعْبٍ أُمِّيّ)[٢]، ويجب أنْ نَأْخُذَ «الأُمِّيّة» هنـا بكُلِّ أشْكَالِهَا؛ فـ«الأُمِّيّة الأَبْجَدِيّة» المَعْهُودَةُ آفَـةٌ ما زالتْ تُلْقِي بظِلالِهَا القاتمة على قطاعـاتٍ وَاسِعَةٍ فـي «المُجْتمعـات العربيّة»، ولكـنّ «الأُمِّيّـة العِلْميّة» أدْهَـى وأمَرّ، فهي تَنْتَشِـرُ بيـن غَالِبيّة القطاعات مـن كُلِّ الشّرائح المُتَعَلِّمَـةِ والمُثَقَّفَة، وهـي المُعَوِّقُ الأوّلُ المُنْتَصِـبُ أمام «التَّفَاعُـلِ الثَّقافيّ» اللّازِم لتَحْقيقِ «شُرُوط التَّنْميـة». وفي هذا السِّيَاقِ، نَسْتطيـعُ أنْ نقول إنّ «الحركة العِلْميّة» لا تَتَحَرَّكُ في فَرَاغٍ، ولكنّها كما يقولُ دافيد رزنيك (David B. Resnik)[٩٨]: (مُجْتمـعٌ يَجْـرِي دَاخِـلَ مُجْتمع)، وهي: (تَجْعَـلُ العُلماء في

تفاعُلٍ مُباشِرٍ بالمُجْتمع على اتِّسَاعِه)؛ وهذا يَعْنِي أنّ نجاح هذه الحركة، يَتَطَلَّبُ مُجْتمعاً قَادِراً على اسْتيعابِها، وامْتصاصِ مُعطياتِها، والتَّجَانُسِ مع مُقْتضياتِها،وتَمَثُّلِ ثقافتِها.

٧-٢) «الثّقافة العِلْميّة»: التَّعْريف والصّنوف:

يُصَاحِبُ مَفْهُومَ «الثقافة العِلْميّة» قَدْرٌ كبيرٌ مِن الضَّبَابيّة، ويُعَانِي هذا المُصْطلح مِن درجةٍ عَاليةٍ من الارْتباك، وليس هذا بغريبٍ على مُصْطلحٍ دخل «الثَّقافة العربيّة» خَجُولاً، وفي مراحِلَ مُتأخِّرَةٍ، ولم يَحْظَ بعَوامِلِ التَّمْحيصِ والدِّراسة، كما أنّه فَشِلَ في أنْ يَحْتَلَّ مكاناً مُنَاسِباً في الأولويّاتِ الثّقافيّة والتّنْمَويّة والإعْلاميّة والتّعْليميّة في «المُجْتمعات العربيّة». إنّ مُعْظَمَ الطُّرُوحَاتِ المُرْتَبِطَةِ بتَعْريفِ «الثَّقافة العِلْميّة» تَحْصُرُها في أنّها: (جُرْعَاتٌ مِن المعارِف العِلْميّة والأساسيّة والحديثة للرَّاغبين في الإلْمَام بها)، وهذا التَّعْريفُ يَجْعَلُ «الثَّقافة العِلْميّة» «مَفْهُوماً كَمِّيّاً»، حيث تَبْقَى مَحْصُورَةً في إطار ثقافة «هلْ تَعْلَمْ؟»، وتَظَلُّ مَحْدُودَةً ببقائِها في «الإطَارِ المَعْلُوماتيّ النَّظَريّ»، وعدم انْتقالِها إلى «الإطَارِ الفِكْريّ» الذي يُحْدِثُ التّفَاعُلَ على أصْعِدَةِ المُمَارَسَاتِ والتّفْكيرِ والتّحْليل. ومن الواضِحِ أنّ مِثْلَ هذا التّعْريف لا يَمْنَحُ «الثَّقافة العلْميّة» الأبْعَادَ المُتَعَدِّدَةَ والرِّياديّةَ في تَشْكيلِ «الثَّقافة التّنْمَويّة»؛ لأنّ السُّلُوكَ الاجْتماعيّ، والتَّوَجُّهاتِ الإنْتاجيّة، والقِيَمَ العمليّة، والتَّطَوُّرَ الفِكْريّ؛ كُلُّها تَرْتَبِطُ بعناصرٍ هي أوثق في صِلَتِهَا بالوَعْي الثّقافيّ والاسْتِيعَابِ الفِكْريّ منْها بجَمْعِ المَعْلُوماتِ وتَكْديسِ البيانات، مع أهميّة «الكَمّ» الذي أَشَرْنَا - فيما سَبَقَ - إلى دَوْرِهِ في تَحْقيقِ «التَّحَوُّلاتِ النَّوْعِيّة».

في الوَاقِعِ لا يُوجَدُ في أدبيّاتِ «الثَّقافة العِلْميّة» في «المُجْتمعات الغَرْبيّة» ما يُبَرِّرُ حَصْرَ «مَفْهُوم الثَّقافة العِلْميّة» في «ثقافة المَعْلُومات»، فهناك جُهُودٌ وَاضِحَةٌ ومُتنامية لتَرْسيخِ «البُعْدِ الثَّقافيّ والفِكْريّ» بطَرْحِ مَفْهُومِ «العِلْمُ كثقافة» (Science as Culture)، ويَتَجَلّى هذا التّأكيدُ في قِيام «الجمعيَّة المَلَكيّة البريطانيّة» بإصْدَارِ مجلّةٍ تَحْمِلُ هذا الاسْم في عام ١٩٨٧م، ويرى روبرت هيزن (Robert M. Hazen) أنّ: («الثَّقافة العِلْميّة» بكُلِّ بساطةٍ هي خليطٌ من المفاهيم والتّاريخ والفلْسفة التي تُسَاعِدُ الفَرْدَ على فَهْمِ القضايا

العِلْميّـة فـي زمننا)[٤٦]. وأمّـا كِتابُ (العِلْمُ لـكُلِّ الأَمْريـكان)[٩٤] فيُقَـرِّرُ أنّ (لـ«الثَّقافة العِلْميّـة» جَوانِب كثيرة. وهذه تَشْمَلُ التّآلُفَ مـع العَالَمِ الطّبيعيّ واحْتِرَامَ وَحْدَتِه، وإدْرَاكَ بعْض الطُّـرُقِ المُهِمَّةِ التي تُبَيِّنُ اعْتماد الرّياضيّات والتّقْنيـة والعلوم على بعْضها بعْضاً؛ وفَهْمَ بعْضِ المفاهيم والمبادئ الأساسيّة للعلوم، وتَأْسيسَ القُدْرَةِ على التّعامُلِ مع طُرُقِ التّفْكيـر العِلْميّة، ومَعْرِفَةَ أنّ العلوم والرّياضيّـات والتّقْنية هي أنْشطةٌ بشريّة، ومَعْرِفَةَ ما يَعْنيه هذا الأَمْر من نِقَاطِ القُوّةِ والضَّعْف، والقُدْرَةَ على اسْتِخْدَامِ المَعْرِفَةِ العِلْميّة وطُرُقِ التّفْكير لأغْرَاضٍ شخْصيّةٍ واجْتماعيّة).

وعُمومـاً فـإنّ «مَفْهُوم الثقافة العِلْميّة» فـي مُجْمَلِه لا يَخْرُجُ فـي عناصِره عن أرْبعة أَوْجُهٍ[٩٩]، هي:

١) المَعْرِفَـةُ العِلْميّـةُ: وهـي مَعْرِفَـةُ الحقائِـق والمفاهيـم والمبـادئ والقوانيـن والفَرْضيّات والنّظريّات والنَّماذِج العِلْميّة.

٢) الطَّبيعـةُ الاسْتِقْصَائيّةُ للعلوم: وهي تَهْتَـمُّ بالمُمَارَسَةِ الفِكْريّة والعِلْميّة للعلوم، واتِّخَـاذِ القرارات، وإجْـرَاءِ الاخْتبارات، واسْتِخْدَامِ النَّمـاذِجِ والطُّرقِ العِلْميّة مِثْـلَ المُلاحَظَـةِ والقِياسِ والاسْتِـدْلال، وتَدْوينِ المُعْطيـاتِ وتَحْليلِهـا، ونَقْلِ المَعْلُومـاتِ بوسائِل مُتَعَدِّدَةٍ كالكِتابـة والتّخَاطُبِ واسْتِخْـدَامِ الرُّسُومِ البيانيّة والبياناتِ المُصَوَّرةِ وغيرها.

٣) العلـومُ بصفتها طريقة تَفْكير: وهو الجَانِبُ الذي يَكْثُرُ التّركيزُ عليه والمَعْرُوفُ بـ«التَّفْكير العِلْميّ»، فيَتِمُّ هنا التّشْديدُ على مَنْهَجيّةِ التّفْكيرِ والتّعْليلِ المَنْطقيّ، وأُسُسِ «المَنْهَجِ العِلْميّ»، وأهميّةِ «الطَّبيعة التَّجْريبيّة» في هذا المَنْهَج، والتَّبَحُّرِ فـي «بِنْيَـةِ المَعْرِفَـةِ العِلْميّة» و«فَلْسَفَـةِ العلـوم»، والتّبَصُّرِ في أعْمـالِ العُلماء وتجاربِهم، و«تاريخ العلـوم» ومساراته، واسْتِخْدَامِ الفَرْضيّاتِ العِلْميّةِ والتّعْليلِ الاسْتِقْرَائـيّ والاسْتِنْبَاطِـيّ والعَلاقَـةِ السَّبَبِيَّـة، والحِرْصِ علـى «الموضوعيّة العِلْميّـة» عبْـر القُدْرَةِ على التّمْييـزِ بين البراهين والحقائِق مـن ناحيةٍ، وبين الآراء الانْطباعيّة والطُّرُوحَاتِ الخُرَافيّةِ من ناحيةٍ أُخْرى.

٤) التَّفَاعُلُ بيـن «العلوم والتّقْنيـة» و«المُجْتمـع»: ويَتَمَثَّلُ هذا المِحْوَرُ فـي إدْرَاكِ تَأْثيـر العلـوم فـي المُجْتمـع والعَلاقَـاتِ المُتداخِلَـةِ بيـن العلـوم والمُجْتمـع والتّقْنيـة، ويتضمَّنُ - أيضاً - فَهْم المِهَـنِ والمَسَائِلِ العِلْميّة المُرْتَبِطَةِ بقضايا المُجْتمع ومُشْكلاته.

لقد شَدَّدَتْ العديدُ من تَعْريفات «الثّقافة العِلْميّة» على اسْتِخْدَامِ «المعارِف العِلْميّة» فـي أُمُورِ الحياة اليوميّـة، خاصّةٍ فيما يَتَعَلَّقُ بعمليَّتَيْ «اتِّخاذ القـرار» و«حَلّ المُشْكلات»، ولذا كان لا بُدَّ من اعْتبار «الاسْتِخْدَامِ الشَّخْصيّ للمعارِف العِلْميّة» أحد مُكَوِّنَاتِ «الثَّقافة العِلْميّـة»، ويُمْكِـنُ اعْتبـارُهُ جُزْءاً من مِحْوَرِ «العلـوم كطريقة تَفْكير». وبشَـكْلٍ أوسع، فإنّ المَضْمُـونَ الأبْـرز في هذا الرُّؤية هـو المَفْهُومُ الـذي أسْمَاهُ روبرت هيـزن[٤٦] «التّرابُطُ الفِكْريُّ»، حيث يقول: (يَرْتَبِطُ مُجْتمعُنا ارْتباطاً وثيقاً باكْتشافاتِ العِلْم لدرجة أنّها غَالِباً مـا تَلْعَبُ دَوْراً حَاسِماً في تَشْكيلِ «المُنَاخ الفِكْريّ» للحِقْبَة)، وذلك ما دَفَعَهُ لطَرْحِ السُّؤال الاسْتِنْكَارِيّ: (كيـف نَأْمَـلُ أنْ يَتَمَكَّنَ أيُّ شخْصٍ من اسْتِحْسَانِ الخُيُـوطِ العميقةِ الكَامِنَةِ وراء «الحياة الفِكْريّة» في زمنِه دون فَهْمِ «العِلْم» الذي يَسْرِي معها؟!).

فـي هذا الإطَارِ يَنْبَغِي أنْ لا نُهْمِلَ أهميّة «القضايـا الأخْلاقيّة والقِيميّة» التي تُرافِقُ اتِّخاذ القرارات في المسائِل العِلْميّة، والتي تُعَدُّ من المُكَوِّنَاتِ المُهِمّةِ لـ«الثَّقافة العِلْميّة»، ولـذا يَنْبَغِي تَضْمينُها في أَوْجُهِ «الثَّقافة العِلميّـة»، وهي مَشْمُولةٌ - في رأْيي - في مِحْوَرَيْ «التّفكيـر العِلْمـيّ» و«التَّفَاعُل بين العلـوم والمُجْتمع». وفي هذا السِّيَاقِ يـرى مُؤلِّفو كِتَاب «العِلْـمُ لـكُلِّ الأَمْرِيـكان» أنّ: («العِلْم» في الوَاقِـع هو - في كثيرٍ مـن الجَوانِب - التّطْبيق المَنْهَجـيّ لبعْض القِيَـم الإنْسانيّة ذات التّقْديـر العَالِي مثْل النّزَاهَةِ والمُثَابَـرَةِ والعَدَالَةِ والانْفِتَـاحِ علـى الأفْكَارِ الجديـدة والشّكِّ والخيـال. إنّ العُلماء لم يَخْتَرِعُـوا أيّاً من هذه القِيَـم، وهم ليسوا الوحيدين الذين يَعْتَنِقُونَهَا. لكنّ المجال الوَاسِع للعلوم يَتَضَمَّنُ ويُؤَكِّدُ هذه القِيَم، ويُوضِّحُ - بشَكْلٍ مُؤثِّرٍ - مدى أهميّتها لتقدُّم المَعْرِفَةِ البشريّة والازْدهار. لذا فإنّـه إذا دُرِّسَـتْ العلوم على نَحْوٍ فعّالٍ، فـإنّ النتيجة ستُعَزِّزُ مِثْل هـذه التّوَجُّهَاتِ والقِيَم الإنْسانيّة المَنْشُودَة)[٩٤].

٧-٢-١) من «المُثقّف عِلْميّاً»؟:

فــي سِيَــاقِ ما سَبَقَ، نَسْتطيــعُ أنْ نقول - بإيجازٍ - إنّ الإنْســان «المُثقّف عِلْميّاً» هو: (إنْســانٌ يُــدْرِكُ أنّ العلوم والرياضيّــات والتّقْنية هي مَشْرُوعاتٌ بشريّــةٌ مُسْتقلّةٌ، ولكنّها مُتَداخِلَــةٌ ويَتَأثّرُ بعْضُها ببعْضٍ، وتَحْتَوي علــى مَوَاطِنِ قُوّةٍ ومنابِعِ إلْهَام ومُنْطلقاتِ خيالٍ، ولكنّهــا فــي الوَقْت نفْسه مُقَيَّــدَةٌ ومُنْضَبِطَةٌ وصَارِمَة. إنّــه إنْسانٌ يَفْهَمُ الأفْـكَارَ والأُسُسَ المُهِمّةَ في العلوم، ومُطَّلِعٌ على «العَالَم الطَّبيعيّ»، ويُلاحِظُ تَنَوُّعَهُ ووَحْدَتَهُ في آنٍ، ويُوَظِّفُ المَعْرِفَـةَ والطُّـرُقَ العِلْميّة في حياتــه الشَّخْصيّة)؛ وهذا ما أَوضحــه تشارلز سنو ضَارِباً مِثالاً لذلــك بأنّ مَعْرِفَةَ الفَرْدِ العاديّ بـ«القانون الثَّانــي للدِّيناميكا الحراريّة» تَحْتَاجُ لكي تُصْبِــحَ ذات قِيمــةٍ إلى (فَهْم لا يُمْكِنُ تَحْقيقُهُ ما لم يَتَعَلَّــمْ الفَرْدُ بعْضاً من لُغَةِ الفيزياء، وهذا الفَهْمُ يَنْبَغِي أنْ يكون جُزْءاً من ثقافةٍ عامّةٍ في القَرْنِ العشرين)[٣٢].

وأمّــا طبيعة مُعَالَجَــةِ الإشْكَاليّات التــي أَبْرَزَتْهَــا، أو أَوْجَدَتْهَا، «الحركــةُ العِلْميّةُ - التّقنيّةُ» فــي المُجْتمعات المُخْتلفة، فإنّها تُوَضِّحُ ضَرورة أنْ تَحْمِلَ «الثَّقافةُ العِلْميّةً» - في إطَارِهَا العامّ - الجَانِبَيْن «الكَمِّيّ» و «الكَيْفِيّ»، فيَنْطَبِقُ على مَفْهُومِهَا التّعْريفُ الذي تَبَنَّتْهُ «مُنَظَّمَــةُ التَّعاون الاقْتصاديّ والتّنْميــة» (OECD) بأنّ «الثّقافة العِلْميّــة» هي: (القُدْرَةُ على تَبَنِّــي فِكْرٍ عِلْميٍّ)[٩٥]، كما أنّها - بالضّرورة - مُصْطلحٌ عامٌّ تَنْضَوِي تحت لوائِه أنْوَاعٌ مُتَعَدِّدَةٌ من الأنْشِطة والمُمَارَسَاتِ والاهْتماماتِ والأشْكَالِ والوسائِط، وتُغَطِّي -كما سنرى لاحِقــاً - مِساحاتٍ وَاسِعَةً من التّنَوُّعِ والتّعَدُّدِ على مُسْتوياتٍ مُخْتلفة؛ لأنّ «الثّقافة العِلْميّة» تَحْمِــلُ نَبْضَ «الحياة المُعاصِرَة» وحَيويّتَهَا، وتَعْكِسُ وَاقِعَهَــا ومُتَغيِّراتِهَا، وتَشْمَلُ تَفَرُّعَاتِهَا ومضامينِها.

وأمّــا التّعْريفُ - الوَارِدُ أعْلاه - الــذي تَبَنَّتْهُ «مُنَظَّمَة التَّعاون الاقْتصاديّ والتّنْمية»، فمــن الوَاضِــح أنّه يظلُّ قَاصِراً عن الإحاطــة بأبْعَادِ «الإشْكَالِيّــة» القَائِمَةِ في المُجْتمعات المُتَقَدِّمَــة والنّاميــة بدرجــاتٍ مُتَفَاوِتَــةٍ، والدَّاعِيَــةِ إلى ضَرورة توفيــر «البِنْيَــةِ التَّحْتيّة الثَّقافيّــة» القَادِرَةِ علــى اسْتيعابِ مُعْطياتِ «الحركــة العِلْميّة - التّقنيّــة» وأفْكَارِهَا ضمْن

أُطُرِهَـا الثّقافيّة وتفاعُلاتِهَا الاجْتماعيّة وتَطَوُّرِهَا التّاريخيّ وقِيَمِهَا السّائِدَةِ؛ لكي تتكامل جَوانِـبُ «الإنْســان المُثقّف عِلْميّاً»؛ وهــذا يَصُبُّ في ذات الاتِّجَاهِ الـذي يَدْفَعُ به عبد الله القفـاري بقولـه: (إنّ أيَّ مُحَاوَلَـةٍ للإسْهَامِ في حالة تَنْوِيرٍ عِلْميٍّ أو نَشْـرِ ثقافةٍ عِلْميّةٍ لن تكـون فقط بمُحَاوَلَةِ تَبْسيطِ المادّة العِلْميّة ليتَـمّ تداولُها بين أفْرَادِ المُجْتمع، باعْتبار أنّ هـذا عَامِلٌ ضروريٌّ لتَقْديـرِ العِلْمِ والكُشُـوفِ والتّقْنياتِ المُتَجَـدِّدَةِ والتَّعَامُلِ معها، ومن ثـمّ الدَّفْع بهذا الاتِّجَـاهِ في سِيَاقِ المُجْتمع. مـن المُهِمِّ - أيضـاً - بالإضافة إلى هذا أنْ تكـون قِرَاءَةُ «تاريخ العلوم» ليستْ بمَعْزِلٍ عـن التّطوُّراتِ التي صَاحَبَتْهَا على صعيد الفِكْرِ الاجْتماعيّ والسّياسيّ والاقْتصاديّ)[١٤].

٧-٢-٢) مُؤشِّرُ أداء: «مُعَامِلُ كفاءَة الأداء المُجْتمعيّ»:

كُلُّ تلك المُصْطلحاتِ الحيويّةِ المُعَاصِرَةِ مِثْل «مُجْتمعُ المَعْرِفَة» و«التّنْميةُ المُسْتَدَامَة» و«توطيـنُ التَّقْنية»؛ كُلُّهـا - دون اسْتِثْنَاءٍ - تَتَطَلَّبُ شَرْطاً أساسـاً، وهو «الأداء المُجْتمعيّ الجَيِّـد في مجالات العلـوم والتّقْنية»؛ ولذا فالحاجةُ إلـى مِعْيَارٍ، قَابِلٍ للقِياسِ والمُتَابَعَةِ يكـون مُؤشِّراً إلى درجـة الاسْتِعْدَادِ ومدى التَّأْهيلِ لذلـك «الأداء المُجْتمعيّ الجَيِّد»، أَمْرٌ ضَروريٌّ. وفـي خِضَمّ تفاعُلاتِ «المُجْتمع المُعَاصِر» مع التّقَاطُعَاتِ المُتَنَوِّعَةِ والتّشَابُكَاتِ المُتناميـةِ لـ«العلوم والتّقْنية»، واقْتِحامها لمساقات «الحياة المُعَاصِرَة» بمُخْتلف أنْمَاطِهَا وأشْكَالِهَـا، فإنّـه يَتَحَتَّـمُ علينا - في رأْيـي[٧٨] - أنْ نُعَرِّفَ مـا يُمْكِنُ أنْ نُطْلِـقَ عليه اسْم «مُعَامِلُ كفاءَةِ الأداء المُجْتمعيّ» الذي هو بمثابة: (مِقْياسٌ يُحَدِّدُ مدى قُدْرَةِ المُجْتمع على توفيـر البيئة النّاجِحَةِ في تفاعُلاتِه مع مُشْكَلاتِ العَصْرِ الحديث وتحدّياتِه التّنافُسيّةِ في مُخْتلف المجـالات الإنْتاجيّة والعِلْميّة والبَحْثيّة وغيرها). إنّ هذا «المُعَامِلَ» - بالضّرورة - يتناسبُ طَرْديّاً مع ارْتِفَاعِ عَدَدِ «المُثقَّفين عِلْميّاً» في المُجْتمع، فيكون تَعْريفُهُ: (النِّسْبَةُ بيـن عدد الأشْخاص «المُثقَّفيـن عِلْميّاً» وبين إجْمالي عَدَدِ السُّـكان)؛ وذلك لأنّ السُّكان هـم الذين يَحْتَلُّون مَوَاقِع مُخْتلفةً في المُجْتمـع، ويُسْهِمُون في صُنْعِ القرار على مُسْتوياتٍ مُخْتلفـةٍ مـن الصَّلاحيّاتِ ودرجـاتٍ مُتَفَاوِتَةٍ مـن الأداء، ويُمارِسُون حياتهـم - الخاصّة

والعامّـة - على مُسْتويات نَوعيّة مُتَعَدِّدَة، وبالتّالي كُلّمـا ارْتَفَعَ عَدَدُ الأشْخاص «المُثقَّفين علْميّـاً» تَحَسَّـنَ «الأداءُ المُجْتمعيّ»، وتَطَوَّرَتْ عطاءاتُ المُجْتمـع، وارْتَفعَتْ فَعّاليّتُه، فوفْق «التَّقْريـر العَالَميّ لمُنَظَّمَة اليونسكو» - الصّادر في عـام ٢٠٠٥م- فإنّ: (النَّفاذ الشَّامِل للمَعْرِفَة هو الدّعامة التي تُسَانِدُ الانْتِقالَ إلى «مُجْتمعات المَعْرِفَة»)[٨٣].

بطبيعة الحال ستَدْخُلُ على تَعْريف «مُعَامِل كفاءَةِ الأداء المُجْتمعيّ» مُؤَثِّراتٌ أُخْرى، منْهـا على سبيل المِثال طبيعـةُ المَوْقِع الذي يَحْتَلُّـهُ «المُثقَّفُ عِلْميّاً»، فكُلّمـا كان المَوْقِعُ أكْثـر تَأْثيراً في قـراراتِ المُجْتمع وتَوَجُّهَاتِهِ، ارْتَفعَتْ «كفـاءَةُ الأداء المُجْتمعيّ»، والعَكْسُ صحيـح. وأمّـا ما يَجْعَلُ تلك العَلاقَة قريبـةً من وَاقِعِ الحياة فهو أنّ القَاعِـدَةَ العامّةَ تَدُلُّ علـى أنّه كُلّما ازْدَادَتْ أعْدادُ «المُثقَّفين عِلْميّـاً» زَادَتْ فُرَصُهُمْ، وكَبُرَتْ احْتمالاتُ تَبَوئِهِمْ مَواقِعِ مُؤَثِّرةٍ ذات نُفُوذٍ أكْبر في حياة المُجْتمع، وبالتّالي تَحْسينُ أحْواله وتَطْويرُ إمْكاناتِه وإنْجَـاحُ خُطَطِـه التّنْمَويّة، فوفْق «التَّقْرير العَالَميّ لمُنَظَّمَـة اليونسكو» - الصّادر في عام ٢٠٠٥م -،فإنّ: («الشَّرْخ المَعْرفيّ» يَنْتُجُ عن أنّ اسْتِيعاب المَعْلُومات أو المَعْرِفة يكون أقلّ لدى الغَالِبيّـة من تلك الفِئات التي تَشْغَلُ الدَّرجات الأكْثر ارْتفاعاً في السُّلَّمِ الاجْتماعيّ)[٨٣].

٧-٢-٣) نحو تَعْريفٍ شَامِلٍ لـ«الثّقافة العِلْميّة»:

نَسْتطيعُ أنْ نقول إنّ «الثَّقافة العِلْميّة» تُمَثِّلُ عَالَماً مُتَعَدِّدَ الأطْياف، ومُتَداخِلَ الألْوان؛ فهي الفيزياء والكيمياء والرياضيّـات وعُلوم الحياة وعُلوم الأرْض والفلك وعُلوم الفضاء بمبادئهـا ونظريّاتهـا، وهي التّطْبيقـاتُ الحياتيّةُ والتّقنيّـةُ المُتَنَوِّعَة، وهـي الاكْتشافاتُ والاخْتراعـاتُ، وهـي «تاريـخُ العلـوم» و«فَلْسَفَةُ العلـوم»، وهي سِيَـرُ العُلمـاء وعَلاقَاتِهِمْ وتفاعُلاتِهـم، وهـي «المَنْهَـجُ العِلْمـيُّ» بمُقَوِّمَاتِـهِ وأُطُرِه، وهـي التّأْثيـراتُ العميقةُ التي تَتْرُكُهَا «العلـوم والتّقْنية» على أفْكَارِ «العلوم الإنْسانيّة» ومُعْطياتِها، وهي «الخيالُ العِلْميُّ» بانْطلاقاتِـه وإبْداعاتِـه، وهـي «الإعْجَازُ العِلْمـيُّ فـي القـرآن والسُّنّة» بآفاقِـه وتَجَلّيَاتِه، وهـي القِيَمُ والمُمَارَسَـاتُ والمعاييرُ المُرْتَبِطَةُ بالتّفاعُلِ العِلْمـيّ والإنْتاجيّةِ العمليّة، وهي

المُسْتَجِـدَّاتُ اليوميّةُ على ساحة «العلوم والتّقْنية» التي تُبَدِّلُ مَعَالِمَ الأرْض، وتَسْبُرُ أغْوَارَ الفضـاء، وتُغَيِّـرُ أنْمَـاطَ العَلاقَات، وتُشَـكِّلُ مُعْطياتِ الاقْتصـاد، وتَفْرِضُ علينا - عبْر «الطَّبيعة الاقْتِحَامِيّة للعلوم والتّقْنية» - نَهْجَهَا وخَصَائِصَهَا ومُقْتضياتِها.

بإيجازٍ، نَسْتطيعُ هنا أنْ نَسْتَعِيرَ المَقُولَةَ التي تُعْزَى إلى جورج سارتون بأنّ: («العلوم الحديثـة» هي «شُمُوليّةُ المَعْرِفَةِ الإيجابيّة»)، فنقول بأنّ: («الثَّقافة العِلْميّة» هي «شُمُوليّةُ الثَّقافـة الإيجابيّة») ليَتَجَلَّى بذلك دَوْرٌ أرْحب، وتَبْـرُزُ تداعِياتٌ أكْبر، لـ«الثَّقافة العِلْميّة»، وهي ذات عَلاقَةٍ عُضْويّةٍ بالرُّؤية التي طَرَحَهَا زكي نجيب محمود بقوله: (ليستْ المَسْألَةُ هنا مَسْألَةَ طَائِفَةٍ من القوانين العِلْميّة يَحْفَظُهَا طُلّابُ العلوم، بلْ هي قبْل ذلك وبعْد ذلك مِنْهَـاجٌ للنَّظَـر، إذا ما اصْطَنَعْنَاهُ بحَـقٍّ، أَلْفيناه يُجاوزُ حُدُودَ الكُتُـبِ والمخابير، ليُصْبحَ طريقـةً للنَّظَرِ في شُؤون الحيـاة العمليّة كُلّها من سياسةٍ إلى اقْتصادٍ إلى عِمْرانٍ والْتِزامٍ بقَواعِـدِ الصِّحَّة وغيرها من جَوانِبِ العيش)[٣٤]. من هـذا المُنْطَلَق لجأ بَعْضُ المُهْتمّين إلـى «تَعْريـفٍ إجْرَائِيٍّ» بحيث تكـونُ «الثَّقافـةُ العِلْميّةُ» هـي: (تَزْويدُ الأفْـرَادِ بمَعْلُوماتٍ وظيفيّـةٍ مُرْتَبِطَةٍ بالعِلْمِ وتَطْبيقاتِـه، واتِّجاهاتٌ إيجابيّةٌ نحو العِلْـم كنِعْمَةٍ، وسَلْبيّةٌ نحوه كنِقْمَـةٍ، وتَفْكيرٌ عِلْميٌّ في حَـلِّ قضايا العِلْمِ ومُشْكلاته، وتَفْكيرٌ ابْتِكَاريٌّ نحو تَقَبُّلِ الجديدِ والمُسْتَحْـدَثِ فـي مجـال الاكْتشافـات والاخْتراعـات العِلْميّة، ومهـاراتٌ يدويّـةٌ وعَقْليّةٌ واجْتماعيّـةٌ، ومهاراتٌ اتِّصَالٍ في مجـالِ العِلْمِ وتَطْبيقاتِه، ومُيُـولٌ واهْتماماتٌ عِلْميّةٌ في مجـال العِلْـم، وتَقْديرُ جُهُودِ الدّولة في المجـالات العِلْميّة وجُهُودِ العِلْـم والعُلماء، واتِّبَاعُ السُّلُـوكِ البِيئِـيّ السّليـم، كُلُّ ذلك في إطَـارٍ قِيميٍّ وأخْلاقـيٍّ يَتَمَشَّى مع الإطَـارِ القِيميّ للمُجْتمع)[١٠٠].

وانْطلاقـاً من تلك المِساحاتِ الشّاسِعَـةِ التي تَتَمَدَّدُ عليها «الثَّقافـةُ العِلْميّة»، نجدُ أنّهـا ليستْ مُجَرَّدَ اهْتمامٍ بنَشْرِ الحقائِـقِ العِلْميّة والمَعْلُومات التّقنيّة؛ فهي ليستْ «ثقافة مَعْلُومـات» فقـط، ولكنّها أيضـاً حِرْصٌ على تَأْسيسِ عَلاقَةٍ بين «عَالَـم الأشْياء» و«عَالَم الأفْـكار» لتكون قُوّةً دَافِعَـةً للتَّحَوُّلاتِ الاجْتماعيّة المُعَاصِرَة، ورُؤيَـةً حضاريّةً مُتأصِّلَةً في القِوامِ الفِكْريّ، وعَامِـلاً مُحَفِّزاً للابْتكارِ والتّفاعُلِ الإيجابيّ مع طبيعة العَصْرِ ومُتَغيِّراته

عبْر مُشارَكَةِ الفرْدِ وإدْراكِهِ للتَّحَوُّلاتِ الكَيْفيّةِ التي تَفْرِضُهَا «العلوم والتّقْنية» على مُخْتلف مســارات المُجْتمع، والمَطْلُوب منْهــا أنْ تصل إلى درجةٍ من العُمْــقِ والاتِّسَاعِ لتتمكَّنَ من تَشْكيلِ وَعْي الفرْد، وتَكْوينِ التَّوَجُّهَاتِ الاجْتماعيّة، والتّأْثيرِ في السُّلُوك، وتَأْصيلِ مهاراتِ النّقْـدِ والتّحْليـلِ والتّفْكيرِ الموضوعـيّ، وذلـك لأنّ «المَعْرِفَةَ العِلْميّة»، كمـا يقولُ جلين سيبـورج،: (ليسـتْ عقيمةً أو مَلْفُوفةً بـأوراق السيلوفـان، ولكنّها تَقْبَعُ بالقُـرْبِ من قَلْبِ الفَلْسَفَة والثَّقافة)(٤٤).

ومـن المُهِـمّ الإشارة هنــا إلى أنّه في زمـن تَغَلْغُـلِ المُعْطيات العِلْميّــة والتّقنيّة في مُخْتلـف مناحي الحياة، ووجودِهــا المُؤثِّرِ في مُخْتلـف الأَصْعِدَة، فإنّ «الثّقافـة العِلْميّة» تقومُ بدَوْرٍ مُهِمٍّ في عمليّة التّمْييز بين الجَيِّدِ والرَّديء، والفَرْزِ بين الحَسَنِ والسَّيِّئ، فكما يقولُ ديفيد رزنيـك: (إنّ الجُمهُورَ يَحْتَاجُ إلى التّثقيف في شَأْن التّطوُّراتِ العِلْميّة المُهِمَّة ونتائـج البَحْـثِ العِلْميّ، كما أنّه يَحْتَاجُ إلى الحِمايةِ من مخاطِـر العِلْم التَّافِهِ والمَعْلُوماتِ الخَاطِئَـة)(٩٨). ولعـلّ من المُنَاسِب هنــا أنْ نَسْتَلْهِمَ من «عِلْم الفيزيـاء» رُؤيةً ثقافيّةً عبْر أحـد أبْرز مفاهيـم «النَّظريّة النِّسْبيّة الخَاصَّة» التي تَنُصُّ علـى: (تكافؤ المادّة والطّاقة حيث يُعْتَبَران وَجْهَيْن لعُمْلَةٍ وَاحِدَةٍ فيُمْكِنُ تَحْويلُ أحْدهما إلى الآخر)؛ فنقولُ إنّ تَرَاكُمَاتِ «الثّقافة العِلْميّة» - بمُحْتواها الفعّالِ من مَعْلُوماتٍ وقِيَم وضَوابط وخيالٍ وإنْجازاتٍ وتاريخٍ مُفْعَمٍ بمُتَغيِّراتٍ غير مَسْبُوقَةٍ في حياة البشر - قَادِرَةٌ على أنْ تُحَوِّلَ تلك «المَادَّة» الثّقافيّة - لـدى المُتَلَقّي - إلى «طاقــةٍ» دَافِعَةٍ إلى عَوالِمِ الابْتِكَارِ والاكْتِشَـافِ والإنْتَاجِ والمُشارَكَةِ الإيجابيّةِ في مُتَغيِّرَاتِ العَصْرِ بـ«رُوحِ العَصْر».

تَأْسيســاً على مــا سَبَقَ تُصْبِحُ «الثّقافــةُ العِلْميّةُ»، في إطَارِهَا العــامّ، هي: (الجُهُودُ التي تَحْرِصُ على تَقْليصِ الفَجْوَاتِ «العِلْميّة» و«التّقنيّــة» و«المَعْلُوماتيّة» دَاخِلَ المُجْتمع، وتُعْنَى بتَبْسيطِ مُعْطياتِ العلوم ومُنْتَجَاتِ التّقْنية، وما تُحْدِثُهُ «الحركةُ العِلْميّةُ - التّقنيّةُ» مـن آثارٍ وانْعكاساتٍ علـى المُسْتوياتِ المَعْرفيّة والفِكْريّة والفلْسفيّــة والسُّلُوكيّة والقِيميّة والبِيئيّة والاجْتماعيّــة والاقْتصاديّة، وغير ذلك من مُكَوِّنَاتِ المُجْتمع المُعَاصِرِ ومَلامِحِهِ فــي سَيْرِهِ الحثيثِ نحو تَحْقيقِ «المُجْتمع العِلْميّ»)(٣٤،٣٥). وتَأْسيساً على ما سَبَقَ - أيضاً -

تَتَّضِحُ أهميّةُ «الثَّقافة العِلميّة» كأداةٍ مُعَاصِرَةٍ للتّغْييرِ والتّطْويرِ والتّنْمية: «تَنْميةُ التَّفْكير» و«تَنْميــةُ المَوارِد»؛ وهكذا نجــدُ أنّ «الثَّقافة العِلمْيّة» تَقَعُ - بالضّــرورة - ضمْن ما أَسْمَاهُ محمــد عابد الجابريّ بـ«الأدوات الجديــدة» عندما كتب يقول: (لا يُمْكِنُ أنْ نُقِيمَ لأنْفسنا فَهْمــاً جديداً لثقافتنا الماضِيــة، ولا بِنَاء ثقافةٍ جديــدةٍ، إلاّ باسْتِعْمَالِ أدواتٍ جديدةٍ من هذا النَّوْع، أَعْنِي مفاهيم ومناهِج الفِكْرِ المُعَاصِر)[١].

وبغَضِّ النَّظَرِ عن الطَّبيعةِ الانْفعاليّةِ والسَّجِيّــةِ العَاطِفيّةِ لـ«الثَّقافة العربيّة» اللتين تَلَمَّسْنَــا سِمَاتِهُمَــا في فُصُــولٍ سَابِقَةٍ من هذا الكِتاب، فــإنّ الحقيقة تَبْقَى بــأنّ الإنْسان بطبيعتِه عَاطِفــيّ المِزَاج، ويُعَانِي من خاصِّيَّةِ «القُصُورِ الذّاتيّ» التي تُقاوِمُ التَّغْيير، وهذا هــو الجَانِبُ الذي عَبَّــرَتْ عنه «إشْكَاليّةُ الثَّقافَتَيْن» التــي طَرَحَهَا تشارلز سنو[٣٢] (انْظر: الفَصْــل الثّاني). ولــذا فإنّ «الجَانِبَ العِلْميّ» الــذي يَسْتَوْجِبُ اسْتِبْعَــادَ العَاطِفَة، وتَغْليبَ الصَّرَامَــةِ في التّحْليلِ والتّقْييــم، يَتَطَلَّبُ «تَدْريباً» خاصّاً على أساليبِــه وفِكْرِه، ويَسْتَدْعِي «ثقافةً» تَتَوَاءَمُ مع خَصَائِصِهِ وتَسْتَوْعِبُ آفاقَه، فكما يقولُ زهير الكرمي[٧٧]: (إنّ «العِلْمَ» بطبيعتــه غريــبٌ عن طبيعة الفِكْرِ الإنْسانــيّ المُعْتَاد)، ويقولُ أيضاً: (مــن الوَاضِحِ أنّه لا يُمْكِــنُ أنْ يكون الإنْســانُ عَالِماً بالفِطْــرَةِ، ولا أنْ يُصْبِحَ عَالِماً بدون مِــرانٍ شَاقٍّ وتَدْريبٍ مُتَّصِــلٍ، شريطــة أنْ يكون ذلك في مُنَاخٍ عِلْمــيٍّ يُوَفِّرُهُ المُجْتمعُ والدّولــةُ ويَحْرِصَان على تَنْميتــه). وأمّا فيما يَتَعَلَّقُ بالبَحْثِ عن تَعْريفٍ جَامِــعٍ مَانِعٍ لـ«الثَّقافة العِلْميّة» فقد تَعَدَّدتْ الجُهُــودُ لمُحَاوَلَةِ وَصْفِ هــذا الأخْطُبُوطِ الذي يَمْتَدُّ ويَتَشَعَّبُ يوميّــاً، وتَلْتَفُّ دَوائِرُهُ بشَكْلٍ مُتنامٍ حول حياة الإنْسان بكُلِّ أبْعَادِهَا ومضامينِها؛ ولكنّي أُفَضِّلُ أنْ أصوغ تَعْريفَ «الثَّقافة العِلْميّــة» علــى أنّها: («المُحْتَــوَى العِلْميّ - التّقنــيّ - الفِكْريّ» القَادِرُ علــى القيامِ بعمليّةِ «التَّأْهيل الثَّقافيّ» للمُجْتمع ليَتَمَكَّنَ من خَوْضِ غِمَارِ «مُجْتمع المَعْرِفَة»)[٧٨،١٠١].

٧-٣) «الثّقافة العِلْميّة»: التّفرُّعات:

انْطلاقاً من الإطَارِ العامّ لـ«الثَّقافة العِلْميّة»، فإنّنا نَسْتطيعُ أنْ نَتَعَرَّفَ على صُنُوفِهَا وتفرُّعاتِهَــا، فهــي تَتَنَوَّعُ بتنوُّعِ «الجُمْهُــور المُسْتَهْدَف»، كما أنّها تَتَلَــوَّنُ بطَيْفِ «المجال أو التَّخصُّص المَعْنيّ».

٧-٣-١) «الثّقافة العِلْميّة» في ضوء «الجُمْهُور المُسْتَهْدَف»:

لقـد أَدْرَكَ تشارلز سنو عند طَرْحِهِ لـ«إشْكَاليّة الثَّقافَتَيْن» أنّ حَصْرَ «الإشْكَاليّة» في الفَجْـوَةِ بين «أصْحـاب التَّخصُّصات العِلْميّة» و«أصْحاب التَّخصُّصـات الأدبيّة» يَتَضَمَّنُ قَـدْراً كبيراً من تَبْسيـطِ الحقائِق، ولقد ساعد ذلـك التّبْسيطُ على توفيـرِ زَخْمٍ للقضيّة لبساطتِـه ووضوحِه، فحسب قول سنو: (لقـد وَقَعَ الاخْتيارُ علـى المُفكِّرين الأدباء لأنّهم يُمَثِّلـون ويُبْرِزُون، وإلى حَدٍّ كبيرٍ يُشَكِّلُون ويُعَبِّـرُون عن مِزَاجِ «الثَّقافة غير العِلْميّة»)(٣٢). أمّا وَاقِعُ الأَمْرِ، فإنّ شرائِحَ المُجْتمع من المُفكِّرين والمُثقَّفين وصَانِعي القرار تُمَثِّلُ أطْيافاً مُخْتلفـةً من الاهْتمامات والتّخصُّصات في مجالاتٍ أدبيّةٍ وإنْسانيّةٍ واقْتصاديّةٍ وسياسيّةٍ وقانونيّـةٍ وغيرها، وكُلُّ شريحةٍ تَحْمِلُ ثقافتها الخاصّـة المُرْتَبِطَةَ بطبيعة اهْتمامِها ونَوْعِ تَخَصُّصِهَـا، ممّا يضعنا في مُوَاجَهَةِ مِئات الثّقافات بَدَلاً من «الثَّقافَتَيْن» اللتين طَرَحَهُمَا تشارلز سنـو. في الوَقْت نفْسه فإنّ تَشْخيصَ سنو لـ«الإشْكَاليّـة» يَكْتَسِبُ رَمْزيّةً مُهِمَّةً في ضـوء تلك التّعْقيـدات والتّداخُلات، ويُؤكِّـدُ أنّ «الانْفِصَـامَ الثَّقافيّ» يَتَعَمَّـقُ ويَتَرَسَّخُ مع تنامي العلوم والتّقْنية والآداب والدّراسات الإنْسانيّة والاقْتصاديّة وغيرها، ويُبْرِزُ ضَرورة التَّصَـدِّي للشَّرْخِ المُتَفَاقِـمِ بين «الحركة العِلْميّـة - التّقنيّة»، وبيـن «الجُمْهُور» بمُخْتلف شرائحه وفِئاته وثقافاته.

تلـك الحقيقةُ تُكْسِبُ «الثَّقافة العِلْميّـة» مضامين مُخْتلفةً وأساليب مُتَعَدِّدَةً تتناسَبُ مع اهْتمامات «الشَّريحة المُسْتَهْدَفَة» وخَلْفيِّتِهَا العِلْميّة ورصيدِها الثّقافيّ؛ فمن ضَرورات برامِـج التّوعية والتّثقيف والحِوار أنّ «لكُلِّ مقام مقالاً» وفْقاً للمَقُولَةِ المَشْهُورَة: (خَاطِبُوا النَّاسـ على قَدْرِ عُقُولِهِمْ). ولذا فإنّ من الواضِـحِ أنّ مَضْمُونَ «الثَّقافة العِلْميّة» المُوَجَّهَةِ إلـى شرائح من النُّخَبِ المُتَخصِّصةِ ليسـ بالضّرورة مُتَوافِقاً في «المُحْتَوَى»، أو مُتَطابِقاً فـي «الأهْداف»، مع النَّهْجِ الـذي يَنْبَغِي اتِّبَاعُهُ مع عامّة النّاسـ، ونَذْكُرُ هنا - على سبيل المِثال - خصائِصـ «الثَّقافة العِلْميّة» المُوَجَّهَةِ لـ«الطِّفْل»، وهي قضيّةٌ حَاسِمَةٌ في خُطَطِ «التّنْمية العِلْميّـة والثّقافيّـة والتّقنيّة»، ونجدُ هنـا - بطبيعة الحـال - أنّ مضامين هذه

«الثَّقافة» ووسائـلِ إيضاحِها وأساليبِ طَرْحِهَا تَتَمَيّزُ عن غيرهــا بالمفاهيمِ والشُّرُوحَاتِ والرُّسومات المُنَاسِبَةِ لمدارك «الطِّفْلِ» ومَرْحلتِه العُمْرِيّة.

ويـرى «التّقْرير العَالَميّ لمُنَظَّمَة اليونسكو»، الصّـادر في عام ٢٠٠٥ م، أهميّة نَشْرِ «الثَّقافـة العِلْميّة» بين «أصْحَـابِ القَرَارِ»، حيث يُقَرِّرُ أنّه: (يجبُ إضافة «الثّقافة العِلْميّة» على مَنْهَجِ إعْدَادِ أصْحَابِ القَرَارِ وكِبَارِ مُوظَّفي الدّولة، وسيُشَكِّلُ ذلك نُقْطَةً كبيرةً للبلدان النّامية حيث يُكْبَحُ التّجْديدُ أحْياناً بسبب الصُّعُوبَةِ التي يُجَابِهُهَا أحْياناً «أصْحَابُ القَرَارِ» فـي فَهْمِ الرِّهانـاتِ وأهميّةِ الإشْكاليّاتِ العِلْميّـة والتّكنولوجيّة. إنّ تَكْويـنَ «ثقافةٍ عِلْميّةٍ» يَهْـدِفُ إلى مَنْـحِ الأفْرَادِ القُدْرَةَ علـى المُشَارَكَةِ الفعّالـةِ في حُكْمِ المُجْتمعـات المُتَأثِّرَةِ بصُـورةٍ مُتزايدةٍ بالعلوم والتّكنولوجيّات أكْثر مـن هدفه في إغْنَائِهِمْ بكَمِّيّةٍ من المعارِفِ المُحَدَّدَة)[٨٣].

أمّا خريطة التّخصُّصات العلْميّة والمجالات التّقنيّة نفْسها فإنّها تَتَمَدَّدُ وتَتَّسِعُ؛ فكُلُّ تخصُّصٍ يُفْرِزُ مزيداً من التّخصُّصات التي تَبْتَعِدُ تدريجيّاً عن «التَّخَصُّص الأُمّ»، كما أنّ «الدِّرَاسات البَيْنِيّة» (Interdisciplinary Studies)، وهي عمليّةٌ نَشِطةٌ ومُتناميةٌ، وَلَّدَتْ مزيداً من التّخصُّصات الجديدة والتِّقْنيات الحديثة؛ ولذا نجدُ - مع تباعُدِ التّخصُّصاتِ ونُمـوِّ تداخُلاتِهـا - أنّ كثيـراً مـن المُتخصِّصين عِلْميّاً هـم - في الوَاقِـع - «أُمِّيّون» في مجالاتٍ عِلْميّةٍ تَقَـعُ خَارِجَ نِطَاقِ تخصُّصِهِم الدّقيق، وهذا ما يُؤَكِّدُهُ روبرت هيزن بقوله: (مـن المُدْهِشِ أنّ الدِّرَاسَةَ المُكَثَّفَةَ لمجالٍ مُحَدَّدٍ من العلوم لا تَجْعَلُ صاحبها بالضّرورة «مُثقَّفـاً عِلْميّاً». في الوَاقِعِ إنّني مُنْدَهِشٌ أنّ العُلمـاء العَامِلين يصلون - في الغَالِب - إلى درجـةٍ مُثيـرةٍ للشّفقة في عـدم إلْمَامِهِـمْ بمجالاتٍ عِلْميّـةٍ تَقَعُ خَارِجَ نِطَـاقِ تخصُّصهِم المِهْنـيّ)[٤٦]. ولا يُمْكِنُ هنا إغْفَـالُ الدَّوْر الحيويّ للعَامِلين التّقنيّين والفنّيين في مُخْتلف المجـالات؛ فالتّعْقيـدُ المُتزايدُ في الأجْهِـزَةِ التّقنيّة - بمُخْتلف أغْرَاضِهَـا وتَطْبيقاتِها - تَسْتَدْعِـي مُسْتوياتٍ من «الثّقافة العِلْميّة» والخِبْرَةِ التّقنيّة والانْضِبَاطِ العمليّ لدى العُمّال والفنّيّيـن الذين يتولّـون صِناعتَها وصِيانتَهـا وتَشْغيلَها، وهذا ما يُوَضِّحُـهُ زهير الكرمي بقولـه: (لقد ثَبَـتَ أنّ العَامِلَ الذي يكون على عِلْمٍ ودِرايةٍ، ولو مَحْـدُودَةٍ، بالأُسُسِ العِلْميّةِ

التي بُنِيَتْ عليها تكنولوجيّة آلتِه التي يَعْمَلُ بها يكون أقْدر على إتْقَانِ العمل واتِّقَاءِ الأخْطاء وزيـادة الإنْتاج بالمُقَارَنَةِ مـع زميله الجَاهِلِ الذي يقوم بعمله بعـد تَدْريبٍ آليٍّ ودون فَهْمٍ صحيـح. وفـوق ذلك يكون الأوَّلُ أقْدر علـى التّحَوُّلِ من آلةٍ تكْنولوجيّةٍ إلـى أُخْرى مُطَوَّرةٍ وأكْثـر تَعْقيـداً، ولهذا ما له من أثَـرٍ على حالته النّفسيّـة وثِقَتِهِ بنفْسِـه ومُسْتَقْبَلِه، وهذا يَنْعَكِسُ إيجابيّاً على سُلُوكِه وحياتِه وأُسْرَتِه ومُجْتمعِه) [٧٧].

كُلُّ تلك الحقائق تَعْنِي - بالضّرورة - أهميّة القيام أيضاً بعمليّات تَثْقيفٍ وتوعيةٍ بين أصْحاب التَّخصُّصات العِلْميّـة» أنْفسهم، وبين العَامِلين في المجالات التّقنيّة المُخْتلفة، ويَبْرُزُ هنا مِثَالٌ وَاضِحٌ على تَعَـدُّدِ أشْكَالِ «الثَّقافة العِلْميّة» ومُكَوِّناتها؛ فـ«الثَّقافة العِلْميّة» المُوَجَّهَـةُ إلى العَامِلين في «المجالات العِلْميّة والتّقنيّة» ستَخْتَلِفُ في مضامينِها وأشْكَالِهَا وأهْدَافِهَـا وأساليبِها عـن «الثَّقافة العِلْميّـة» المُوَجَّهَةِ إلى غيرهم مـن شرائح المُجْتمع؛ فدارِسُو العلوم يَلْتَقُون - على الأقلّ - عند حَدٍّ أدْنَى من المَعْرِفَةِ العِلْميّة، والفَهْمِ المُشْتَرَك، والمُنْطلقاتِ المُتَشَابِهَة.

٧-٣-٢) «الثّقافة العِلْميّة» في ضوء «التّخصُّصات العِلْميّة والتّقنيّة»:

تتأثَّـرُ «الثَّقافـةُ العِلْميّـةُ» المُوَجَّهَـةُ إلـى «الجُمْهُـورِ» بامْتـداداتِ السّاحـة العِلْميّة والتّطـوُّراتِ التّقنيّـة لتَتَفَـرَّعَ وفْق تلـك التّشْكيـلاتِ والأنْمَاطِ، وتَتَلَـوَّنَ بألْوانِهَـا، وتَتَبَنَّى أهْدَافَهَـا؛ فالثّقافـة الصِّحيّة، والإرْشـاد الزِّراعـيّ، والتّوعية الغِذائيّـة، والوَعْي البِيئيّ، والثّقافة التّقنيّة؛ كُلُّها فُرُوعٌ لـ«الثَّقافة العِلْميّة»، وهي تُعْنَى بمجالاتٍ مُحَدَّدَةٍ، وتَعْمَلُ دَاخِلَ أُطُـرٍ تُقَيِّدُهَـا طبيعةُ الاهْتمـام، ونَوْعُ التّخصُّـص، ودرجةُ التّجاوبِ المَنْشُـود. ولعلّه من اللاّفِتِ للانْتباه أنّ برامِجَ «الثَّقافة العِلْميّة»، المُرْتَبِطَةَ بالصِّحَةِ والغِذَاءِ والتّأْثيرِ المُبَاشِرِ فـي حياة الفَرْد، قد حَقَّقَتْ حُضُوراً مَلْمُوساً في كثيـرٍ من «المُجْتمعات العربيّة»، واهْتَمَّتْ بهـا وَسَائِلُ الإعْـلام، ممّا يُوضِّحُ أنّ الحاجة تَفْرِضُ درجة الاهْتمـام، وبالتّالي فإنّ تَفْعيلَ برامِـج «الثَّقافة العِلْميّة» الأُخْـرى مَرْهُونٌ بقُدْرَةِ المُجْتمعات على إدْرَاكِ أهميّة هذا النّوْعِ من «الثَّقافة»، ومدى ارْتِبَاطِهِ بتَحْديدِ مُسْتَقْبَلِهَا ورخائِها وتَنْميتِها؛ فكُلّما ارْتَقَى «المُسْتوى

الثَّقافــيّ - العِلْميّ» في أوساط المُجْتمع، ارْتَفَعَتْ «درجــةُ الإنْتاجيّة»، وازْدَهَرَتْ «مُقوِّمَاتُ الحيــاة المُعَاصِرَة»، ونما الطَّلَبُ علــى «الثَّقافة العِلْميّة»، وبَرَزَتْ الحاجةُ إليها. أمّا أحْدث مِثَــالٍ على التّنَوُّع والتَّوالُدِ الذّاتيّ لـ«الثَّقافــة العِلْميّة»، فهو ظَاهِرَةُ «ثقافة الإنْترنت وتَقْنية المَعْلُومــات» التــي اجْتَذَبَتْ إليها أعْداداً مُتزايدةً من مُخْتلــف الشّرائِح والاهْتمامات؛ لما يُقَدِّمــهُ هذا الطُّوفَانُ المَعْلُومَاتيُّ والاتِّصَالاتيُّ من خِدْماتٍ وآثارٍ على المُسْتويات الثّقافيّة والتّرْفيهيّة والمَعْلُوماتيّة والاجْتماعيّة والاقْتصاديّة وغيرها.

ومــن أنْواعِ «الثَّقافــة العِلْميّة» ما أشرنا إليه سابقاً، ونقْصــد به «ثقافة المَعْلُومات»، وهــي مــن أهمِّ أنْــواع «الثَّقافــة العِلْميّــة» لاهْتمامِها بشَــرْحِ الحقائِــق العِلْميّــة، وتَبْسيطِ المبادئ، وتوضيحِ عمل الأجْهزَةِ التّقنيّة، وحِرْصِهَا على توعيةِ «الجُمْهُورِ»، ورَفْعِ رصيدِهم المَعْلُوماتــيّ، ومُوَاكَبَةِ المُسْتَجِدَّاتِ العِلْميّة؛ ممّا يُتِيحُ للفَرْد فُرَصَ تَنْميةِ مَعْلُوماتِه العِلْميّة والتّقنيّــة وتَصْحيحِها. ولذا فــإنّ «ثقافة المَعْلُومات» جَانِبٌ لا يُمْكِــنُ إغْفَالُهُ في «مَنْظُومَةِ الثَّقافة العِلْميّة»؛ لما لها من تَأْثيرٍ حيويٍّ في تَفْعيلِ «الثَّقافة التّنْمَويّة» وتَحْقيقِهَا لوظيفتِها الاجْتماعيّــة؛ فمــن الوَاضِحِ أنّ «ثقافــة المَعْلُومات» تُسْهِمُ إسْهاماً جَمّــاً في تَنْمية «الحِسِّ العِلْميّ» لدى «الجُمْهُورِ»، وتَحْقيقِ «حَدٍّ أدْنَى» من «الثَّقافة العِلْميّة» في «النَّسيج المُجْتمعيّ»، وتُهَيِّــئُ عامّةَ النّاس لاسْتيعابِ طرائِق «الحركــة العِلْميّة - التّقنيّة» وقضاياها ومُشْكلاتِها وحُلُولِهَــا، ووسائــل توظيفِهــا لخِدْمَةِ الفَــرْدِ والمُجْتمع. ولكن على الرّغْم مــن أهميّة هذا الجانِــبِ إلاّ أنّ سَطْــوَةَ «الثَّقافة العِلْميّــة» تَمْتَدُّ لتَلِجَ إلى المضاميــن الفِكْريّة والاجْتماعيّة والثقافيّــة لتُنَاقِشَ ما يَرْتَبِطُ بـ«العلــوم والتّقْنية» من أفْكَارٍ ومُصْطلحاتٍ وتَوَقُّعَاتٍ ونتائِج، تَنْتَشِــرُ على مِسَاحَــاتٍ وَاسِعَــةٍ ومُسْتوياتٍ مُتَنَوِّعَــةٍ فِكْريّــةٍ وفَلْسفيّةٍ وعمليّــةٍ واجْتماعيّة وثقافيّةٍ وتَنْمَويّة.

وهكــذا نجدُ أنّ «الثَّقافــة العِلْميّة» مِسَاحَةٌ شَاسِعَةٌ من التّنَوُّعِ والتّعَدُّدِ على مُسْتوياتٍ مُخْتلفــةٍ تَعْكِسُ وَاقِــعَ «الحيــاة المُعَاصِــرَة» بأنْمَاطِهَا المُتَعَــدِّدَةِ وتداخُلاتِهــا المُتَجَدِّدَةِ ومضامينِهــا المُتَرَاكِمَــة، ومن المُتَوَقَّعِ أنْ يقــود «التَّرَاكُمُ الكَمّيّ» - فــي مُخْتلف مجالات «الثَّقافــة العِلْميّــة» - إلى «التَّحَوُّلِ الكَيْفــيّ» المَطْلُوبِ تَحْقيقه، لتُصْبِــحَ «الثَّقافةُ العِلْميّةُ»

جُـزْءاً حيويّـاً مـن «التَّكْوين الثَّقافـيّ» للمُجْتمـع، ومَعْلَماً أساساً فـي تفاعُلاتِـه التَّنْمَويّة والاجْتماعيّة والفِكْريّة. وتأْسيساً على ما سَبَقَ نجدُ أنّ «الثَّقافة العِلْميّة» هي الأدَاةُ الفعّالَةُ لتَحْقيقِ «امْتدادات التّنْمية» - أفقيّاً ورأْسيّاً -؛ فهي تَشْمَلُ كُلَّ تلك التّفاعُلاتِ والتَّقَاطُعَاتِ والتّداخُـلاتِ بين مُخْتلف قطاعات المُجْتمع ومناطقِه وأنْشطتِـه، فيَتَحَسَّنُ الأداءُ وتَرْتَفِعُ الإنْتاجيّة؛ وهي تَحْفِرُ دَاخِلَ «التَّخَصُّصات العِلْميّة والإنْسانيّة» أعْمَاقاً جديدةً عبْر إثْرَائِهَا وتَزْويدِها لـ«الجُمْهُور» بالمَعْرِفَـةِ المُتَنَوِّعَةِ في مُخْتلف مجالات «العلوم والتّقْنية»، فتَتَبَلْوَرُ المَدْلُولاتُ، وتَزْدَهِرُ الخِبْرَاتُ، وتَعُمُّ الفَائِدَة.

٧-٤) «الثّقافة العِلْمية»: الأهْدَاف:

ومـن مُنْطَلَقِ أنّ «الحركـة العِلْميّة - التّقنيّـة» حركةٌ بشريّةٌ تَنْتُجُ عـن تَدَافُعِ النّاس وإبْداعاتِهـم، وتَصُوغُهَـا تفاعُـلاتُ المُجْتمـع واهْتماماتُـه، وتُوَجِّهُهَـا حاجـاتُ العَصْرِ ومُتطلَّباتُه، ولأنّها أَصْبَحَتْ الهَمَّ الرّئيسَ في سياسات الدُّول وخُطَطِهَا بمُخْتلف مُسْتوياتِها العِلْميّـة وإنْجازاتِها التّقنيّة، وهي المُحَدِّدُ الأوّلُ لرفاهيّة المُجْتمعات وقُدْرَاتِهَا الإنْتاجيّة، فإنّ نَشْرَ «الثَّقافة العِلْميّة» في المُجْتمعات يَطْمَحُ إلى تَجَاوزِ «التَّعَامُل السَّطْحِيّ» مع العلوم والتّقْنية، والانْطلاق إلى تَحْقيقِ الأهْدَافِ التّالية:

١) الإسْهَامُ الفَاعِلُ في إزالة العَقَبَاتِ الفِكْريّة والعراقيل المَعْرفيّة التي تَحُولُ دون المُمَارَسَةِ العِلْميّة الرّصينة والتّفْكيرِ الجَادّ؛ لأنّ ضَخَّ جُرْعَاتِ «الثَّقافة العِلْميّة» فـي «البِنْيَةِ الفِكْريّـة» والتّفاعُلاتِ الثّقافيّـة السّائِدَةِ يُزيلُ كثيـراً من عناصرِ الرَّهْبَـةِ ومَشَاعِرِ الغُرْبَة، ويُؤَسِّسُ لتفاعُـلاتٍ عَصْريّة، وفَهْمٍ لشُرُوطِ «النَّهْضَة العِلْميّة - التّقنيّة» ومُقَوِّمَاتِهَا.

٢) تَهْيِئَـةُ تُرْبَـةٍ خِصْبةٍ لإنْتاج عُلمـاءٍ، ومهاراتٍ، وكفاءاتٍ، قَـادِرَةً على المُمَارَسَةِ العِلْميّة والإبْدَاعِ التّقنيّ والمهارات الإنْتاجيّة؛ فـ«القَاعِدَةُ الجماهيريّةُ» العريضةُ المُتفاعِلَةُ - بحيويّةٍ - مع «الفِكْر العِلْميّ»، والمُتواصِلَةُ - بحماسٍ - مع «الحركة العِلْميّة - التّقنيّة»، هي - بطبيعة الحال - مَنْبَتُ المَواهِبِ ومُسْتَودَعُ القُدْرَات. إنّ

من أبْرز نتائِج وجود هــذه «البيئة العِلْميّة» الجَادّة إسْهامها القويّ في اجْتِذَابِ «الأذْمِغَــة المُهَاجِرَة»، وهي مُشْكِلَةٌ تُعَانِي منهــا «المُجْتمعات العربيّة» بدرجاتٍ مُتَفَاوِتَةٍ، وتُمَثِّلُ أحد التّحدّيات التي تَسْعَى هذه المُجْتمعات إلى التَّغَلُّبِ عليها.

٣) توفيــرُ «الشَّفَافيّــة العِلْميّة» التي تُيَسِّرُ على الفَرْدِ فَهْــمَ ماهيّةِ «الحركة العِلْميّة -التّقنيّة»، واسْتيعــابِ مُنْطلقاتِها، وامْتصاصِ تقْنياتِهــا؛ ليَسْتَفِيدَ منها الفَرْدُ أقْصى اسْتفادةٍ مُمْكِنَةٍ في حياته العمليّة والفِكْريّة والاجْتماعيّة، ويتعامل معها وفْق ضَوابِطِهَا وشُرُوطِهَا في مُمَارَسَةٍ رشيدةٍ ومَسْؤوليةٍ وَاعية.

إنّ مُعْظَــمَ القــراراتِ الحَاسِمَةِ في «المُجْتمعات المُعَاصِــرَة» تَتَمَحْوَرُ حول قضايا عِلْميّــةٍ وتِقَنيّةٍ ابْتداءً من «ثُقْبِ الأوزون»، ومُــرُوراً بتَطْبيقات «الهنْدسة الوراثيّــة»، وانْتهــاءً بـ«أسْلِحَةِ الدَّمَــار الشَّامِل»، وتُؤثِّرُ هــذه القرارات في حياة الملايين مــن البشــر وفُرَصِهِمْ الوظيفيّــة ومُسْتوياتِهــم المعيشيّــة ومُسْتَقْبَلِ أجْيالِهــم وأوطانِهم. ولذا فإنّ مُشَارَكَتَهُمْ في اتِّخَاذِ القرار، وقُدْرَتَهُمْ على فَهْمِ المُشْــكلات وتَحْليلِهــا، وإسْهَامَهُمْ في طَرْحِ البدائِل وتَقْليــلِ الأضْرَار؛ كُلُّ ذلك يُصْبِــحُ أَمْراً ضَروريّاً مــن النّاحية الأخْلاقيّة والحضاريّــة والتّنْمَويّة، وتتنامى أهميّتُهُ مع ارْتفاع درجة الوَعْي السّياسيّ والرَّفاه الاقْتصاديّ.

٤) تَهْيئَــةُ مُنَاخٍ من «الرّأي العامّ» مُتَعَاطِفٍ مع «الحركة العِلْميّة - التّقنيّة»، ومُفْعَمٍ بالحماس والتّفاؤل والثِّقَة، لمُجابَهَةِ الانْطباعات الانْفعاليّة، والعادات السّلْبيّة، والخُرَافَــاتِ الشّائِعَة، التي تُلَوِّثُ «ثقافة المُجْتمع»، وتُشَوِّهُ تفاعُلاته، وتعوقُ نُموّ «الحركــة العِلْميّة - التّقنيّــة»، وهو الحالُ الذي تَطَرَّقَ إليه تشارلز سنو، عندما وَصَــفَ حالة «عدم فَهْم العلوم» بأنّها: (تَمْنَــحُ - بشَكْلٍ أعْمق ممّا نَتَوَقَّعُ - نَكْهَةً غير عِلْميّةٍ للثّقافة التّقْليديّــة برُمَّتِهَا، وتلك النَّكْهَةُ غير العِلْميّة تَتَحَوّلُ غَالِباً - وبشكْلٍ أكْبر ممّا نَعْتَرِفُ به - إلى مَوْقِفٍ مُضَادٍّ للعلوم)[٣٢].

٥) «التَّطْويرُ النَّوْعيُّ» لتَفْكيرِ الفَرْد، وتَعْميقِ قِيمَتِهِ الذّاتيّة، وتَنْميةِ «الحِسّ العِلْميّ» لديــه، فعلى سبيل المِثــال: ما زالتْ «ثقافــةُ الأرْقَامِ والمَعْلُومَــات» غريبةً على

«العَقْـلِ العربـيّ»، وما زلنا نَقْـرَأُ ونَسْمَـعُ نِسْبَاً مِئويـةً تُلْقَى علـى عَواهِنِهَا في المَحَافِلِ ووسائلِ الإعْلام، أو حقائِق عِلْميّةً تُشَوَّهُ، أو تُبْتَرُ، دون رقيبٍ أو حسيب.

٦) رَفْعُ درجةِ الإسْهَامِ الاجْتماعيّ، وتعزيزُ «الفَاعِليّة الثَّقافيّة»، وتَحْسينُ مُمَارَسَاتِ المُجْتمع، بما تُضْفِيه مُعْطياتُ «الحركة العِلْميّة – التّقنيّة» على الفَرْدِ من آفاقٍ مَعْرفيّـةٍ، ومهاراتٍ تِقَنيّـةٍ، وانْضِبَاطٍ عمليٍّ، وعَقْلانيّـةٍ مَسْؤولةٍ؛ فالحاجةُ إلى إحْدَاثِ «قَفْزَةٍ نَوْعيّةٍ» في «العَقْلِ العربيّ» في اتّجَاهِ الانْضِبَاطِ العمليّ و«التّفْكير العِلْمـيّ» ليستْ مكان اخْتِلافٍ، وقد وَصَفَهَا مالك بـن نبيّ بقوله: (نحن أَحْوَجُ مـا نكونُ إلـى المَنْطِقِ العمليّ لأنّ «العَقْـلَ المُجَرَّدَ» مُتَوَفِّرٌ فـي بلادنا، غير أنّ «العَقْـلَ التَّطْبيقيّ» الذي يَتَكَوَّنُ في جَوْهَرِهِ من الإرادة والانْتباه شيءٌ يكاد يكون مَعْدُوماً)[٢٨].

٧) جَعْـلُ «الثَّقافـة العِلْميّـة» جُـزْءاً عُضْويّـاً ومُكَوِّناً رئيسـاً من مُكَوِّنَـاتِ «الثّقافة الجماهيريّـة» السّائِـدَةِ لتَحْقيقِ شُـرُوطِ «المُعَاصَرَة» و«الكفـاءَة» و«التَّوَازُن»، ولتَأْصيلِ «الثّقافة التّنْمَويّة» في أعْمَاقِ «التّفاعُلات المُجْتمعيّة»؛ فنجاحُ الأنْشطة العِلْميّة، والمَشْرُوعات الإنْتاجيّـة، والجُهُود البَحْثيّة، مَرْهُونٌ بـ«إرادةٍ جماعِيّةٍ» وَاعِيةٍ تَدْفَعُ بها إلى الوَاجِهَةِ الاجْتماعيّة والسّياسيّة والثقافيّة والفِكْريّة، وتتفاعلُ معها بحماسٍ وإيجابيّةٍ. وهنا تَبْرُزُ أهميّةُ «الثَّقافة العِلْميّة» ودَوْرُهَا الحَاسِمُ في تَأْسيسِ «ثقافـة البَحْث العِلْميّ»، التي تُعَزِّزُ من مَكَانَةِ «العلوم والتّقْنية»، وتَفْهَمُ خَصَائِصَهَـا ومُتطلَّباتِها، وتتصدَّى – بحِكْمَـةٍ وموضوعيّةٍ وفَاعِليّةٍ – إلى «غُولِ البيروقراطيّـة» الـذي يَنْهَشُ في كِيان «المُجْتمعات العربيّـة»، ويُعَرْقِلُ «مسيرة التّنْمية»، ويَكْبَحُ «التَّفاعُل الإيجابيّ» مع أحْوال «الحياة المُعَاصِرَة».

٨) تَحْقيـقُ «الأَمْـن العِلْميّ» للمُجْتمع، وهو أَمْرٌ ذو أهميّـةٍ اسْتراتيجيّةٍ، ويَتَمَثَّلُ في قُـدْرَةِ المُجْتمع على اكْتِسَـابِ «المَعْرفة العِلْميّة»، وإنْتَـاجِ «التَّقْنيات الحديثة»، وتَنْميـةِ الإمْكانَـاتِ للتّطْويـرِ والتّطْويـعِ والإنْتـاج، وتَأْسيسِ آليّاتٍ قَـادِرَةٍ على توظيفِ المعـارِف بحيويّةٍ، والمُحافَظَةِ علـى المُكْتَسَبَاتِ بكفـاءَةٍ، ممّا يَتَطَلَّبُ

وَعْيــاً عِلْميّاً سَائِداً في جَنَبَاتِ المُجْتمع. إنّ «الأَمْنَ العِلْميّ» هو «البِنْيَةُ التَّحْتيّةُ» ذات القَاعِـدَةِ المُمْتَـدَّةِ والحَلَقَـاتِ المُتَرابِطَةِ التي تُؤَثِّرُ فـي كُلِّ أَوْجُهِ «الحياة المُعَاصِـرَة»، وتُحَـدِّدُ - بالضّـرورة - قُـدْرَاتِ الأُمّـة علـى تَعْظيـم مَوَارِدِهَا، وتوظيـفِ عُقُولِهَا، وتَرْسيخ كِيَانِهَـا، وتَحْقيقِ غاياتِها. إنّ النَّظْـرَةَ المُتَأَنِّيةَ إلى العَالَمِ الغَرْبيّ تُبَيِّن أنّ الغَرْبَ جعل من «البَحْثِ العِلْميّ» جُزْءاً جوهريّاً من أَمْنِهِ القومـيّ والوطنيّ؛ فقد رَبَطَ «البَحْثَ العِلْميّ» - بشَكْلٍ حيويٍّ ودَائِمٍ - بالنّواحي العَسْكريّـة والاقْتصاديّة والاجْتماعيّة، وبأَمْنِ الدَّولـة كُلِّها، وهذا ما ذَهَبَ إليه روبـرت ماكنمارا - وزير الدّفـاع الأمريكيّ الأسْبق - بـأنّ: (الأَمْنُ القوميُّ هو التّنْميةُ ذاتُها)[٩٩]؛ ولذا فإنّ لنا وَقْفَةً أشْمل مع «مَفْهُومِ الأَمْن العِلْميّ».

٧-٥) «الثّقافة العِلميّة» و«الأَمْن العِلْميّ»:

لا يُمْكِـنُ لقضايـا «الإصْـلاح» المُتَعَـدِّدَة، التـي يَطْرَحُهَـا السّياسيّـون والمُثقَّفون والمُفكِّرون بمُخْتلف توجُّهاتِهم وأطْيافِهم، أنْ تَعْمَلَ خَارِجَ إطار زمْنها وتحدّيات عَصْرِهَا؛ ممّـا يَجْعَلُ قضيّة «الإصْلاح العِلْمـيّ» الرّكيزة الأساس التي تَنْطَلِقُ منهـا، وتَعْتَمِدُ عليها، كُلُّ تلـك الأشْكَالِ المَرْجُوَّةُ من «الإصْـلاح»، والمُسْتَهْدَفَةُ من «برامِجِ التّنْمية»، فكما يقولُ عبد العزيـز التويجري فإنّ: (الإصْلاحُ مَنْظُومَةٌ مُتكامِلَةٌ من القِيَمِ والمبادئ والسّياسات تترابطُ عناصرُها، وتتكاملُ حَلَقَاتُهَا، ولكنّها جميعاً تقومُ على قَاعِدَةٍ عِلْميّةٍ عريضة)[١٠٢].

إنّ هذه المَقُولَةُ الصّائِبَةُ تعودُ بنا إلى «نُقْطَةِ البَدْء» لتُحَدِّدَ بوضوحٍ أولويّات المرْحلة التي تعيشُهـا الأُمّة؛ فبدون تلك «القَاعِدَة العِلْميّـة العريضة» التي تَتَغَلْغَلُ في «نسيج المُجْتمع»، وبـدون ذلك الدَّفْعِ الفعّـالِ الذي تُوَلِّدُهُ «الحركـة العِلْميّة - التّقنيّة» فـي حيوات الأفْراد، وبدون ذلك «التَّرَاكُمِ الخِصْبِ» الذي تَصْنَعُهُ آليّاتٌ حَاذِقَةٌ على مسارات «الإنْجاز العِلْميّ - التّقنـيّ»، فـإنّ كُلّ الطُّرُوحَاتِ والتَّنْظيـراتِ والآمالِ والطُّمُوحَاتِ عـن «الإصْلاح» تَبْقَى مُجَرَّدَ سَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمآنُ ماء.

وهكـذا نجدُ أنّ مفْهُومَ «الإصْلاح العِلْميّ» يَنْبَغِي أنْ يكون على رَأْسِ القَائِمَة؛ لأنّه هو القَـادِرُ على توجيه «برامِج الإصْلاح» في مُخْتلف الميادين عبْر بَلْوَرَةِ قُدْرَاتِ المُجْتمعات، وتَعْزِيـزِ مهـاراتِ الأفْراد، وتَطْويـرِ فِكْرِ الأُمّة. لقـد أَصْبَحَ من البدهيّـاتِ المَطْرُوحَةِ في «أدبيّات التّنْمية» المُعَاصِـرَةِ أنّ تَأْسِيسَ «المُجْتمع العِلْميّ» هو المَطْلبُ الجوهريُّ لتَحْقيقِ الأَمْـن وتَطْويرِ القُدْرَاتِ وتَحْقيقِ الطُّمُوحَات، وهي قضيّـةٌ مُعَقَّدَةٌ يتشابكُ فيها «الفِكْريُّ» مـع «السِّياسـيّ»، وتتداخلُ فيهـا أطْيَافُ «الاجْتماعـيّ» و«الاقْتصـاديّ»، ويتقاطعُ عندها «الثَّقافيُّ» مـع «التّرْبويّ»، ولكنّنا نَسْتطيعُ أنْ نضعها جميعهـا ضمْن إطَارِ مُصْطلحٍ شَامِلٍ وحيويٍّ، هو مُصْطلح «الأَمْنِ العِلْميّ».

وأمّـا عندمـا نَسْتَعْرِضُ كُلَّ صُـوَرِ «الأَمْنِ» التـي تَتُوقُ إليها المُجْتمعـات، ابْتداءً من طُرُوحَـاتِ «الأَمْـن الكُلِّيَّة» كمفاهيـم «الأَمْـن الفِكْريّ»، و«الأَمْـن الاجْتماعـيّ»، و«الأَمْن القوميّ»، وانْتهاءً بطُرُوحَاتِ «الأَمْن الجُزْئِيَّة» مِثْل «الأَمْن المَائيّ» و«الأَمْن الغِذَائيّ»، فإنّنا نجدُ أنّها كُلَّها - دون اسْتِثْنَاءٍ - تَصُبُّ في بَوْتَقَةِ «الأَمْن العِلْميّ» الذي يضع بين يدي الأُمّة مفاتيـح القُدْرَاتِ التّطْويريّـة والإنْتاجيّة والتّسْليحيّة والتّخْطيطيّـة، فيكون بذلك الوسيلة الوحيدة لتَأْمينِ الاحْتياجات القَائِمة، ومُجَابَهَةِ التّحدّيات المَفْرُوضَة.

٧-٥-١) مُقَوِّمَاتُ «الأَمْنِ العِلْميّ»:

لـو أردنا تَمْحيصَ مُقَوِّمَاتِ «الأَمْن العِلْمـيّ» وتَحْديدَ ركائزِه، فإنّنـا سنجدُ أنّها لن تَخْرُجَ في أُطُرِهَا العامّة عن ما يلي:

١) إشَاعَـةُ مُنَـاخٍ ثقافيٍّ عـامٍّ يتجاوبُ مـع «رُوحِ العَصْر»، ويَتَفَهَّـمُ ضُغُوطَ الزَّمن وشُرُوطَـه، ويُرَسِّخُ الحماس والاهْتمام بالعطاءات العِلْميّة والإنْجازات التّقنيّة؛ فعندمـا تَزْدَهِرُ «ثقافـةُ العِلْم» بين النّاس وتَتَغَلْغَلُ في «النَّسيـج الاجْتماعيّ»، تَضْمَحِلُّ تِلْقائيّاً «قَرَارَاتُ الجَهْلِ» المَبْنِيَّةُ على الحِسَابَاتِ الخَاطِئَة، والتَّوَهُّمَاتِ الانْفعاليّة، والتَّصَوُّرَاتِ النّرْجسيّة.

٢) توفيـرُ قَاعِـدَةٍ من المعـارِف العِلْميّـة، والبيانـات المُنْضَبِطَـة، والإحْصاءات الدَّقيقـة، في مُخْتلف المجالات الحياتيّـة؛ فصَانِعُ القَرَارِ والمُخَطِّطُ والبَاحِثُ يَحْتاجـون أوّلاً إلى المَعْلُومة الصّحيحة؛ لكي يكـون القَرَارُ سديداً، والتَّخْطيطُ سليماً، والبَحْثُ موضوعيّاً.

٣) تَكْوينُ قُدْرَةٍ ذاتيّةٍ على التّطْويرِ والتّطْويعِ والإنْتاجِ عبْر برامِجَ تَعْليميّةٍ وتَدْريبيّةٍ وبَحْثيّـةٍ لا تَغْـرَقُ فـي مُسْتَنْقَعَاتِ الإنْشائيّـاتِ الفَارِغَةِ والمُـدَاولاتِ التّنْظيريّةِ الجَوْفَـاء، ولكنّهـا تُصَافِـحُ عَصْرَهَا - بحزْمٍ وحيويّـةٍ - عبْر بَلْـوَرَةِ الأهْداف الجادّة، وانْتِقَاءِ المسارات العمليّة، وإطْلاقِ القُدْرَاتِ الكَامِنَة.

٤) تَأْسيسُ وتَفْعيلُ آليّاتٍ قَادِرَةٍ على توظيفِ المعارِف المُتَاحَة، واسْتيعابِ التّطْوير المُنْجَـز، وتَعْظيـمِ المَرْدُودِ النّاتِجِ عبْـر مَشْرُوعاتٍ وطنيّـةٍ تُلَبِّي الاحْتياجات، وتَتَصَـدَّى للتّحديّات بأهْـدَافٍ لا تَشُوبُهَا ضبابيّةٌ في الطَّـرْح، وببرامِجَ تَحْتَرِمُ الوَقْت، وباسْتِخْدَامِ معايير نَاجِعَةٍ للمُرَاجَعَةِ والتّقْييمِ والتَّصْحيح.

٥) توفيـرُ مَنْظُومَـةٍ سليمـةٍ ومُتَكَامِلَةٍ من القِيَـمِ والمفاهيمِ التي تُسْهِـمُ في إثْرَاءِ «المَعْرِفَـةِ الفَرْديّـة»، ودَفْعِ الفَرْدِ إلـى الاطِّلاعِ والبَحْـثِ والتَّشْخيص، وتوسيعِ مَعَارِفِهِ ومَدَارِكِه، بشَكْلٍ يُمَكِّنُهُ من الإنْتاجِ المَعْرفيّ.

لعلّ المُشْكلة الكُبْرى التي تعوقُ بُرُوزَ مُصْطلح « الأَمْن العِلْميّ» بُرُوزاً وَافِياً شَافِياً في «المُجْتمعـات العربيّة» هي ضبابيّةُ المفاهيم السّائِـدَة، وهَيْمَنَةُ «ثقافة الكلام» المَأْلُوفَة، والانْتِكَاسُ إلى الشّكليّاتِ والإنْشائيّاتِ عند التّعامُلِ مع المُشْكلات، والخَوْفُ من المُبَادَرَاتِ التـي تُحَاسِـبُ على الإنْتاجيّـة وتَفْرِضُ الانْضِبَاط. تلـك الأسْباب، وغيرهـا كثيرٌ، جَعَلَتْ من مُصْطلـح «الأَمْن العِلْميّ» ضيفاً خَجُولاً على مَوائِدِ «الفِكْـرِ التّنْمَويّ» في «المُجْتمعات العربيّـة»، وراح كثيرٌ من المُفكّرين والبَاحِثيـن والمُخَطِّطين يتعاملون مع المُصْطلح على اسْتِحْياء، ويَرْمُقُونَهُ عن بُعْدٍ بقَدْرٍ كبيرٍ من الوَجَلِ والتّوَجُّس، ليَرْتَدُّوا سِرَاعاً إلى ما أَلِفُوهُ مـن أفْكَارٍ ومفاهيم تَجْتَرُّ نفْسها اجْتِرَاراً، وتَرْتَعُ في ساحاتِ التّنْظيرِ المَقْهُورِ تحت وَطْأَةِ «إشْكَاليّة البُعْدِ الزَّمْكَانيّ» الذي تَطَرَّقْنَا إليها في أكْثر من مَوضْعٍ في هذا الكِتَاب.

إنّنــا لا نَحْتَاجُ إلى كبير جُهْدٍ لكي نَلْمَسَ تَفَاقُمَ الخَلَلِ الذي يُعَانِي منه العَالَمُ العربيّ فــي «مَنْظُومَــة الأَمْن العِلْمــيّ»، وتَمْتَدُّ جُذُورُ هذا الخَلَــلِ - عبْر عَلاقَــاتٍ مُتشابِكةٍ - إلى أنْمَــاطِ «الحياة العربيّة» لتُؤسِّسَ لأسْقَــام تَفْتِكُ في «مَنْظُومَاتِ الأَمْــن» الأُخْرى بأنْواعِها المُخْتلفــة. إنّ غِيَابَ «الأَمْن العِلْميّ» يُهَدِّدُ أمْنَ البَشَرِ وتَمَاسُكَ الحَجَرِ في الكِيان العربيّ؛ لأنّ هذا النَّوْعَ من الأَمْن يُمَثِّلُ «العمود الفِقْريّ» لـ«مَنْظُومَاتِ الأَمْن» الأُخْرى فيَصْبِغُهَا بلون العَصْــر، ويَبْنِي هياكلَها بلَبِنَــاتِ المرْحلة، ويَضْبِطُ إيقاعَها مع تحدّيــاتِ المُسْتَقْبَل. وأمّا إحْــدى أبْــرز الظّواهِرِ المُقْلِقَةِ في العَالَم العربيّ فهي أنّ الحديــثَ عن التّخَلُّفِ لا يَتَوَقّف، ووَصْــفَ المُؤامــراتِ المُوَجَّهَةِ إلى الأُمّــة - المُتَخَيَّل منها والحقيقــيّ - لا يَنْتَهِي، وتَفَاقُمَ المُشْــكلاتِ في التّعْليم والإنْتاج والتّوظيف هو السِّمَةُ الأبْــرز، ولكنّنا بعد أنْ نَمْنَحَ «العِلْمَ» و«التَّقَــدُّمَ» و«ثَــوْرَةَ المَعْلُومَات» زَخْمَاً كبيراً مــن الإنْشائيّات والشّكليّــات، فإنّنا لا نَضْبِطُ أفْعَالَنَا ومُمَارَسَاتِنَا وطُرُوحَاتِنَا بالمقاييس العِلْميّة الأصيلة.

إنّ الوَاقِــعَ الحزيــنَ يُؤَكِّدُ أنّ حِسَابَاتِ «الأَمْن العِلْمــيّ» ما زالتْ في حاجةٍ إلى الكثير مــن التّدْقيقِ والمُرَاجَعَة، والحقيقةُ المُؤلِمَةُ تقول إنّ القُوّةَ الكَامِنَةَ وراء تفاعُلاتِ «الحياة المُعَاصِــرَة» كانتْ آخــر اهْتمامــات مُجْتمعاتنا الحَائِــرَة، وحتّى أولئــك الذين وضعوها ضمْــن أولويّاتِهــم الخَطَابيّة والشَّكْليّة فَشِلُوا فــي تَفْعيلِهَا واحْتِضَــانِ قِيَمِهَا ممّا نقلها إلى خَانَــةِ «السَّهْل المُمْتَنِع». وأمّا الحقيقةُ الثّابِتَةُ فهي أنّ الأَمْرَ ليس خِياراً مَطْرُوحاً قد نَقْبَلُهُ أو نَرْفُضُــه، ولكنّــه «حَتْمِيّــةٌ تاريخيّةٌ»، وقضيّة «حيــاةٍ أو موتٍ»، ممّــا يَتَطَلَّبُ - في المقام الأوّل - «إرادةً سياسيّةً» تَدْفَعُ في اتِّجَاهِ «سَهْم الزَّمن»، وتَعْمَلُ على تَهْيئَةِ «البِيئة العِلْميّة»، وفَتْحِ الآفاق التّقنيّة، وتَشْجيعِ الاهْتمامات العِلْميّة، وتوجيهِ «ثقافة المُجْتمع» نحو احْتِضَانِ «الفِكْــر العِلْمــيّ» والتّفاعُلِ معه بإيجابيّة. وهكذا نجــدُ أنّ من المُهِــمّ أنْ يَتَحَوَّلَ مُصْطلحُ «الأَمْــن العِلْمــيّ» إلى رُؤيــةٍ اسْتراتيجيّةٍ وآليّــاتٍ فَعّالَةٍ ومُمَارَسَــاتٍ مُتراكِمَــةٍ تَنْقُلُ الفِكْرَ والأفْــرَادَ والثّقافةَ والمُجْتمعَ إلى مُسْتوىً أكْثر اقْتراباً مــن مُتطلَّباتِ المرْحلة، وأقلَّ غُرْبَةً عن «شُرُوطِ العَصْر».

٧-٦) «الثّقافة العِلميّة» و«الأَمْن الفِكْريّ»:

مــن أبْرز قضايــا «المُجْتمعات العربيّــة» قضيّةُ «الأَمْــن الفِكْريّ» الــذي تَطْمَحُ هذه المُجْتمعــاتُ إلــى تأْمينِه لضمــانِ نُضْجِ التّفاعُــلاتِ الفِكْريّة، وتَوَازُنِ المسيــرةِ الوطنيّة، وجَــدْوَى التَّلاقُحَاتِ الثّقافيّــة؛ وكُلُّها لا يُمْكِنُ أنْ تَتَحَقَّقَ بــدون التّواصُلِ مع «رُوحِ العَصْر» وفَهْــم مُقْتضياتِها. وهذا يعودُ بنا إلى «المُرَبَّعِ الأوّل» وهو «الكفــاءَةُ العِلْميّةُ» القَادِرَةُ على إشَاعَــةِ «فِكْر العَصْر» في البِيئة، وتوفير قَاعِدَةٍ وَاسِعَةٍ من المُنْتَمين إليه، وبطبيعة الحال كُلّما كَبُرَتْ تلك القَاعِدَة، ارْتَفَعَتْ نِسَبُ الإبْدَاعِ، وزَادَتْ الإنْتاجيّة، وتَأَصَّلَ «الأَمْنُ العِلْميُّ» في المُجْتمع، وتَحَقَّقتْ أسْبابُ «الأَمْنِ» بأنْوَاعِه.

إنّ قضيّــةَ «الأَمْن الفِكْريّ» في أيِّ مُجْتمعٍ قضيّةٌ مِحْوَرِيّــةٌ، وبدونها يُصْبِحُ المُجْتمع نَهْبــاً للقَلاقِل، ومَرْتَعَاً للارْتِجَال، وساحةً لكُلِّ نَاعِقٍ وحَاقِدٍ؛ فلا حضارة دون «أَمْنٍ فِكْريٍّ» يُرَسِّــخُ «هُويّة المُجْتمع»، ويَحْمِــي اسْتِقْرَارَهُ وعُنْفُوانَه، ويُبَلْوِرُ قِيَمَــهُ ومفاهيمَه. ولذا فإنّه لا غرابة فــي أنْ نَشْهَدَ عَقْدَ المُؤتمرات، واكْتِظَاظَ القاعــات، وتَحَدُّثَ الخُطباء، وإسْهَابَ المُفَوَّهِيــن، وتَشَبُّعَ الأرْفُــفِ العِلْميّة بأوراقٍ وبُحُــوثٍ وتوصياتٍ عن هــذا الأَمْر؛ فالقضيّةُ - ولا شــكّ - جوهريّــةٌ، والأَمْرُ جَلَلٌ؛ ولكن، يَنْبَغِــي أنْ نَسْأل: (هل يُمْكِــنُ أنْ نَتَحَدَّثَ عن «الأَمْــن الفِكْريّ» بمَعْزِلٍ عــن «العَصْر»، وخصائِصــ تحدّيّاته، وطبيعة القُــوى المُهَيْمِنَةِ عليه، والمُحَرِّكَةِ لمساراتِه؟، وهل يجوزُ أنْ تَنْصَبَّ حِواراتُنا وسِجالاتُنا ودِراساتُنا على ما أَلِفْنَــاهُ من كلامٍ وخِصَامٍ وجِدَالٍ واجْتِرَارٍ، بينما تَبْقَــى مُقَوِّمَاتُ «الحياة الحديثة» غريبةً عــن سِيَاقِ التّفْكير، وغَائِبَةً عن صُلْبِ الطُّرُوحَات؟). إنّ السُّؤالَ بصِياغَةٍ أُخْرى هو: (هل بالإمْــكان التّعامُلُ مــع التّحدّياتِ المُعاصِــرَة، والنَّظَرُ إلــى «المُسْتَقْبَــلِ» دون اللجوءِ إلى تَأْسيسِ «فِكْرٍ تَنْمَويٍّ» يُدْرِكُ أنّ أُصُولَهُ وجُذُورَهُ ومُقَوِّمَاتِه تَكْمُنُ في أعْمَاقِ «الفِكْرِ العِلْميّ» وآليّاتِــه ووسائِلــه ومُمَارَسَاتِه؟)؛ وإذا كان هنــاك إجْمَاعٌ على ضَــرورة مِثْل ذلك التّأْسيس لضمــان مُسْتَقْبَلٍ زَاهِرٍ لأجْيالٍ مُقْبِلَةٍ، فإنّ ذلك يَعْنِي أنّ طُرُوحَاتِ «الأَمْن الفِكْريّ» يَنْبَغِي أنْ لا تُهْمِلَ قضيّة «المُسْتَقْبَل»، ومُقَوِّمَاتِهِ المُعَاصِرَة، وتحدّياتِه المُتنامية.

لا أشكُّ لَحْظَةً في أنّ هناك قِيمَةً ذاتيّةً ومَقَاماً فِكْريّاً لكُلّ ما تَطْرَحُهُ النّدواتُ والمُؤتمراتُ والمَحَافِلُ من دِراساتٍ وتأمُّلاتٍ ومُرَاجَعَاتٍ إلاّ أنّها تَفْتَقِدُ الحيويّةَ التي تَرْبِطُهَا بعَصْرِهَا، وتَدْفَعُ بها نحو «المُسْتَقْبَل»، وتُؤصِّلُ فيها تحدّياته، وتُوَطِّدُ في ثناياها مُعْطياته؛ فمن البدهيّ أنّ الخِطَابَ مهما كان مُنَمَّقاً، والطَّرْحَ مهما كان مُعَمَّقاً، فإنّه إذا لم يَتَمَكَّنْ من تَكْوين رَوابِط حَيّةٍ مع وَاقِعٍ مُتَحَرِّكٍ في ساحةٍ عَالَميّةٍ مُتَغيِّرةٍ ذات تحدِّياتٍ مُتناميةٍ، فإنّ تَأْثيرَهُ وجَدْوَاهُ لن يتجاوزا - في أحْسن الأحْوال - عمليّةَ تَدْريبٍ عَقْليٍّ، وتَطْويرَ مَهَارَةٍ لَفْظيّةٍ، لتَبْقَى إشْكاليّاتُ الحياة المُتَجَدِّدَةِ على ما هِيَ عليه، وليَتَفَاقَمَ الأَمْرُ، وتَتَعَقَّدَ الأُمُور.

من المُهمّ أنْ نُدْرِكَ أنّ قضيّةَ «الأَمْنِ الفِكْريّ» مُرْتَبِطَةٌ جذْريّاً بـ«قضيَّة التّنْمية»؛ فـ«العَجْزُ التّنْمَويُّ» هو عدوُّها الأوّل، ولذا كان من المُهِمّ تَأْسيسُ «الفِكْرِ التّنْمَويّ» المُهْتَمّ بـ«المُسْتَقْبَلِ»، والقَادِرِ على توليد قِيَمٍ ومُمَارَسَاتٍ ومعارِف تتعاملُ مع مُعْطياتِ عَصْرِهَا بلُغَةِ زمانِها لتكون «القَاطِرَةَ» التي تَجُرُّ «المُجْتمع» في اتِّجَاهِ «سَهْمِ الزَّمن»، وتُعَمِّقُ اسْتِقْرَارَهُ وانْتِمَاءَهُ وتَنْميتَه، وذلك عبْر «الانْدِمَاجِ الحيويّ» - فِكْراً وثقافةً وسُلُوكاً - في «بَوْتَقَةِ التّنْمية» بتفاعُلاتِها المُجْتمعيّة المُتَوَافِقَةِ مع عَصْرِهَا، والمُتَّسِقَةِ مع طبيعة مُشْكلاتِها، والمُتَنَاغِمَةِ مع تطلُّعاتِ أجْيالِها. إنّ تجارِبَ «المُجْتمعات المُتَقَدِّمَة» تُؤَكِّدُ أنّه كُلّما اتَّسَعَتْ «القَاعِدَةُ العِلْميّة - التّقنيّة»، ازْدَادَ النّشاطُ الفِكْريّ والاجْتماعيّ والثّقافيّ والإنْتاجيّ، وتَوَطَّدَتْ صِلاتُ المُجْتمع مع عَصْرِه، واكْتَسَبَ الثِّقَةَ في قُدْرَاتِه، وانْخَرَطَ في التّفاعُلاتِ الحيويّة المُجْدِيَة، وتَعَزَّزَتْ في سُلُوكيّاتِ أفْرَادِهِ معاني الانْضِبَاطِ والعمل والإبْداع، وتَحَرَّرَ مَنْسوبوه من نَوَازِعِ «الإحْبَاطِ» وهَوَاجِسِ «الغُرْبَةِ الفِكْريّة» التي تَدْفَعُ إلى حماقاتٍ لا تُحْمَدُ عُقْبَاهَا، وتُشْغِلُ أهْلَهَا بتأويلاتٍ فَاسِدَةٍ، ورُؤىً أَحَاديّةٍ، ومفاهيم سقيمة. وأمّا الحقيقةُ التي لا مِرَاءَ فيها فهي أنّ ابْتِعَادَ «المُجْتمع» عن «المَنْظُورِ التّنْمَويّ»، يَدْفَعُ به إلى التَّوَغُّلِ في إشْكالاتٍ تَنْظيريّةٍ، وجَدَلٍ عقيم، وصِراعاتٍ عَبَثيّةٍ، وأوهام بَاليَةٍ، ليَسْقُطَ «المُجْتمعُ» في فَخِّ «الفَرَاغِ الحياتيّ» - فِكْريّاً ومَعْرفيّاً وإنْتاجيّاً واجْتماعيّاً -. ولذا كان لِزَاماً أنْ تُؤسِّسَ «المُجْتمعاتُ العربيّةُ» لـ«ثقافةٍ تَنْمَويّةٍ» تكون الرَّكيزةَ الصَّلْدَةَ لـ«الأَمْنِ

الفِكْريّ»؛ ولذا كان لِزَاماً - أيضاً - على مراكزِنا البَحْثيّة، ومؤسَّسَاتِنا الفِكْريّة، ومعاقِلِنا العِلْميّة، أنْ تَبْحَثَ مَلِيًّاً في أُصُولِ هذه «الثَّقافة التّنْمَويّة» ومُقْتضياتِها وآليّاتِها.

٧-٧) «الثّقافة العِلْميّة» و«الأَمْن الوطنيّ»:

أنّ «الأَمْـنَ الوطنــيّ» كُلٌّ لا يَتَجَزّأ، وهــو مَفْهُومٌ شَامِلٌ ذو أبْعَادٍ مُتَعَـدِّدَةٍ وآفاقٍ رَحْبَةٍ فــي عَصْرٍ تَعَقَّدَتْ أدواتُـه، وتسارعتْ مُتَغيِّرَاتُه، لتُصْبِحَ «القضيَّـةُ الأَمْنيّةُ» - في مُجْمَلِهَا - قضيّــةً يتشابكُ حولها «العَسْكريُّ» مع «السّياســيّ»، وتتداخلُ فيها أطْيَافُ «الاجْتماعيّ» و«الاقْتصاديّ»، ويتقاطعُ عندها «العِلْميُّ» مع «الثّقافيّ»، ويتلاقحُ في رُبُوعِهَا «الفِكْريُّ» مع «الإعلامــيّ»، ممّا يَفْرِضُ علــى القائمين عليها ليس فقط الاهْتمــام بالقضاء على تَشَتُّتِ الجُهُـود، وغِيَابِ التّنْسيق، وارْتِجَالِ القرار، وضَعْفِ الأداء، والخَلْخَلَةِ في معاييرِ التّقْويم، ولكــن - أيضــاً - اسْتِشْــراف «المُسْتَقْبَل» - بــكُلِّ مُقْتضياتِه ودعاماتِــه ومُتَطلَّباتِه - عبْر مَنْهَجِيّةٍ موضوعيّةٍ تُدْرِكُ طبيعة «العَصْر» وضُغُوطه، وتَسْتَوْعِبُ أبْعاده ومُتَغَيِّراته.

لــذا نَسْتطيعُ أنْ نقولَ إنّ «الأَمْنَ الوطنيّ» ليس قضيّــةً عَسْكريّةً بَحْتَةً، أو اخْتصاصاً أَمْنيّــاً مَحْضــاً، ولكنّــه - في المقــام الأوّل - «قضيّةٌ تَنْمَويّــةٌ» بامْتيازٍ تَسْتَدْعِــي - أوّل ما تَسْتَدْعِــي - تَأْسيسَ رُؤيــةٍ اسْتراتيجيّةٍ مُتَكامِلَةٍ وتَطْويرَهَا وتَقْييمهــا بشَكْلٍ دَائِب، وتوفيرَ الدِّراســات العِلْميّة المُنْضَبِطَــة، وتَحْليلَ الأوضاع المحليّة والظُّــروف الدّوليّة، ومُراجَعَةَ التّطْــوُّراتِ والمُسْتَجِدَّات، وبَلْوَرَةَ الآليّــاتِ والبرامِج والخُطَطِ القَادِرَةِ على حِماية مَصَالِحِ البــلاد الأَمْنيّــة والسّياسيّــة والاجْتماعيّــة والاقْتصاديّــة والعَسْكريّة، وتوظيــفَ المَوارِدِ والإمْكانَاتِ لإحْدَاثِ «النَّقْلات النَّوْعِيّة» على مُخْتلف الأَصْعِدَة.

وهكذا نجدُ - مَــرَّةً أُخْرى - أنّ «قضيّة التّنْمية» تَفْرِضُ حُضُورَهَا، بمُخْتلف أبْعَادِهَا العِلْميّة والتّقنيّة والاقْتصاديّة والاجْتماعيّة والسّياسيّة والعَسْكريّة، لتكون «مَرْبَطَ الفَرَسِ» في قضيّة «الأَمْنِ الوطنيّ»، ونَسْتطيعُ هنا أنْ نَتَعَرَّفَ في الحال على «الإشْكَالِيّةِ» التي يَنْبَغِي أنْ تتصــدَّى لهــا مُخْتلفُ المؤسَّسَــاتِ المَعْنِيَّةِ بتلك الجَوانِب، وهي تَتَمَثَّــلُ في ضَعْفِ - أو

انْعِـدَامِ - أدوات الاتّصال والتّفاعُـل والتّنْسيق بين أطْـرَافِ «المَنْظُومَةِ الوطنيّة»، وعدم التّرْكيـز على تَطْويـرِ خِبْـراتٍ مُشْتَرَكَةٍ علـى أصْعِدَةِ توظيـفِ المَوارِدِ وتوحيـدِ الجُهُود، والصُّعُوبَـةِ المُتَفاقِمةِ في تَرْجَمَةِ الأهْدَافِ والخُطَطِ إلى وَاقِـعٍ عمليٍّ، وحركةٍ فَاعِلَةٍ تَدِبُّ على الأرْض.

من هذا المُنْطَلَقِ، يَنْبَغِي أنْ تُصْبِحَ «إشْكَالِيَّةُ التّنْمية» من أبْرز هُمُوم «الأَمْنِ الوطنيّ» مُصْطَحِبَـةً معهـا - بالضّرورة - كُلَّ تداعياتِهـا الثّقافيّة والعِلْميّـة والتّقنيّة والاقْتصاديّة والاجْتماعيّـة. وبالرّغْـم من كُلِّ ذلك التّدَاخُـلِ والتّشَابُكِ في تَرْكيبـةِ «الأَمْنِ الوطنيّ» إلاّ أنّـه يَنْبَغِـي له أنْ يَسْتَقِرّ علـى أرْضٍ صُلْبَة، وأنْ يَنْطَلِـقَ من قَاعِدَةٍ مُتَمَاسِكَـةٍ تَسْتطيعُ أنْ تَضُمَّ عَنَاصِرَهُ المُتَنَوِّعَة، وتَسْنُدَ مُقَوِّمَاتِهِ المُخْتلفة، وفي عَصْرِ «العلوم والتّقْنية» فإنّ تلك «البِنْيَـةَ التَّحْتيّة» الصّلْـدَةَ لا يُمْكِنُ لها إلاّ أنْ تكون من جِنْسِ عَصْرِهَا، ويَتَحَتَّمُ عليها أنْ تتناغم مع تحدِّيات زمانِها.

٧- ٨) «الثَقافة العِلْميّة» و «الأَمْن الاجْتماعيّ»:

إنّ «الأَمْنَ الاجْتماعيّ» هو أَحَدُ مفاهيم «الأَمْن» الذي يَنْتُجُ عن توفير «الأَمْنِ العِلْميّ» إلاّ أنّنـا آثرنـا أنْ نُفْـرِدَ له مَبْحثاً خاصّـاً لأبْعَادِهِ المُهِمّـةِ في حياة الأُمم بعامّـةٍ، ولدَوْرِهِ الحَاسِمِ في الوَاقِعِ العربيّ الرّاهِنِ بخاصّة.

تُبَيِّـنُ القِـرَاءَات الاجْتماعيّة - فـي عُمُومِهَا - أنّ الفَشَلَ في «التّنْميـة» هو أَحَدُ أبْرز الأسْبـاب التـي تَقْضِي على التَّمَاسُـكِ الوطنيّ، وتُفَاقِـمُ الاخْتلافات الإثنيّـة والطّائفيّة، وتَتَخَلَّقُ في ظِلِّهَا كِياناتٌ صغيرةٌ مُتَصَارِعَةٌ فتَحْتَمِي كُلُّ فِئَةٍ بأنْصَارِهَا، وتُلْقِي باللومِ للكَارِثَةِ التّنْمَويّـةِ والفَشَلِ الحياتيّ على الفِئَـاتِ الأُخْرى. وفي الوَقْت نفْسه فـإنّ وجود اسْتِقْطَابٍ دَاخِـلَ المُجْتمعِ الوَاحِدِ بين ثقافـاتٍ مُتباينةٍ سَبَبٌ جوهريٌّ لحـالات «التّوَتُّرِ الاجْتماعيّ» وتَفَاقُم «إشْكَالِيّة التّنْمية»؛ فوجودُ فِئَاتٍ تَخْتَلِطُ لديها «الأَبْعَادُ الزَّمْكَانيّةُ» فتَبْتَعِدَ عن «رُوحِ العَصْـرِ» وفَهْـمِ مُعْطيات «الزَّمَـن»، وأُخْرى تَسْعَى - بحماسٍ أو حماقـةٍ -إلى التّفاعُلِ مع

مُتَطلَّبَـاتِ «الزَّمَن» ومُوَاكَبَـةِ مُسْتَجِدَّاتِهِ دون تَمْييزٍ لخصائِص «المـكان». كُلُّ ذلك يَضَعُ ضُغُوطـاً على «التّرْكيبة الاجْتماعيّة»، ويقودُ إلى حالةٍ من «عدم التّوَازُن»، ممّا يَنْتُجُ عنه – بالضّـرورة – «اضْطِرَابٌ فِكْرِيٌّ» يجدُ له تَجَلِّيَاتٍ وانْعكاساتٍ على وَاقِعِ المُجْتمع وعَلاقَاتِهِ المحليّـة والدّوليّة، وهذا ما يُنَبِّهُ إليه «التّقْريـر العَالَميّ لمُنَظَّمَةِ اليونسكو» – الصّادر في عـام ٢٠٠٥م – حيـث يقول: (إنّ الشَّـرْخَ المَعْرفيّ الذي يَفْصِلُ البلـدان الأكْثر حظْوةً عن البلـدان النّامية، وبخاصّةٍ البلدان الأقلّ تقدُّماً قد يتفاقم، بينما تَظْهَرُ ضمْن المُجْتمعات نفْسهـا شُرُوخٌ بالعُمْقِ ذاتـه أو تَتَوَسَّع. كيف إذاً لـ«مُجْتمعات المَعْرِفَة» المُسْتقبليّة أنْ تَقْبَلَ أنْ تكـون مُجْتمعـاتٍ مُفَكَّكَـة؟. إنّ دَوْرَ التَّخْطيطِ المُسْتقبلـيّ هو ألاّ يُسْتَخَـفّ بالتَّوَتُّراتِ والأخْطَـارِ المُسْتقبليّة باسْم نَزْعَةٍ تفاؤليّةٍ تَقْليديّـة)[٨٣]. ومن المُهِمّ أنْ نَلْحَظَ – في هذا المقـام – العَلاقَةَ العُضْويّةَ بين مُخْتلف أنْواع «الأَمْـن» والتّأْثيراتِ المُتَبَادَلَةَ بين عَنَاصِرِهِ المُتَنَوِّعَـة، إلاّ أنَهـا كُلّها تَخْضَعُ لظُرُوفِ العَصْـر، ويُشَكِّلُهَا مُنَاخُـه، وتَتَحَكَّمُ في حركتِها طبيعـةُ «المَعْرِفَةِ السَّائِدَةِ» وحَجْـمُ ذلك «الشَّرْخِ المَعْرفيّ» بين أرْكَانِـه، ومن الوَاضِحِ أنّ لـ«إشْكَاليّـةِ التّنْميـة» دَوْراً حَاسِماً في درجـةِ تَمَاسُكِ «مَنْظُومَةِ الأَمْـن»، ومدى قُدْرَةِ هذه «المَنْظُومَةِ» على تَحَمُّلِ ضُغُوطِ «العَصْرِ» والتّعامُلِ مع تحدّياتِه.

٧-٩) «البَنْدُولُ الفِكْريّ و«نُقْطة التّوازُن»:

ليسـ خَافِياً على أحدٍ درجة تَأْثيـر «العوامِلِ الفِكْريّة» في اسْتِقْرَارِ المُجْتمعات، ولذا كان التّـلازُمُ وَاضِحاً بين «الأَمْنِ الفِكْريّ» و«الأَمْنِ الاجْتماعيّ». وأمّا «الشَّرْخُ الفِكْريُّ» في المُجْتمع، وما يُصَاحِبُهُ من تَحَوُّلاتٍ وتَشَوُّهاتٍ وانْتِقَالٍ من النَّقيضِ إلى النّقيض، فهو أَمْرٌ شبيـهٌ بـ«البَنْدُولِ الفيزيائـيّ» المُتَذَبْذِبِ الذي يَهْتَزُّ حول مَوْقِـعِ تَوَازُنِهِ من أقْصَى اليمين إلـى أقْصَى الشّمال؛ ونجدُ أنّه في حالة الحركة في فَرَاغٍ، فإنّ هذا التّذَبْذُبَ يُحَافِظُ على حركتِـه ويُوَاصِلُ اهْتزازاته دون تَوَقُّفٍ، وأمّا في حالة وجود وَسَطٍ يُعِيقُ الحركة، فإنّ مدى التّذَبْذُبِ يَضْمَحِلُّ تدْريجيّاً حتّى يَتَوَقَّفَ «البَنْدُولُ» عند «نُقْطَةِ التّوَازُن»، وكُلّما زادتْ كثافةُ «الوَسَطِ»، كان الاضْمِحْلالُ أكْبر، وبُلُوغُ «التَّوَازُنِ» أسْرع.

إنّ تَطْبيـق هـذا المِثَالِ الفيزيائيّ على «الحالـة الفِكْريّة»، يقودُ مُبَاشَـرةً إلى الدَّوْرِ الحَاسِـمِ لـ«الثَّقافـة السَّائِـدَة»، فهـي ذلك «الوَسَـطُ» الذي يُمْكِنُ لـه أنْ يُعِيـقَ التّذَبْذُبَ والتّطَـرُّفَ في «البَنْدُولِ الفِكْريّ» إذا توافرتْ لهذه «الثّقافة» الخَصَائِصُ المُنَاسِبَة؛ فكُلّما زَادَتْ كثافتُهـا المَعْرفيّـة وقُدْرَاتُهَـا التّحْليليّة ومُمَارَسَاتُهَـا العِلْميّـة وإنْجَازَاتُهَا العمليّة، اسْتطاعـتْ أنْ تُؤثِّرَ في تلـك الارْتجاجات فيَثْبُتُ «البَنْدُولُ الفِكْـريّ» تدْريجيّاً عند «نُقْطَة التَّـوَازُن»، أو يَتَذَبْـذَبُ حولها تَذَبْذُباً ضئيلاً - بسبب مُؤَثِّـراتٍ خَارِجيّةٍ مَحْدودة التّأثير - لتتّسِمَ أوضاعُ المُجْتمع بـ«الوَسَطِيّةِ» والاعْتِدَالِ والعَقْلانيّة.

وأمّـا البَحْثُ عن «نُقْطَـةِ التّوَازُنِ» في «البَنْـدُولِ الفِكْريّ» للعَالَـمِ العربيّ فيعود إلى قُـرُونٍ طويلةٍ مَرَّتْ بها الأُمّـةُ باضْطِرَابَاتٍ فِكْريّةٍ وتَقَلُّبَاتٍ اجْتماعيّـةٍ وإخْفَاقَاتٍ سياسيّةٍ وهَزَائِـمَ عَسْكريّةٍ وكَـوارِث اقْتصاديّةٍ، ويَتَجَلَّى التَّحـدِّي في أقْسَى أشْكَالِـهِ ونحن نَدْلِفُ إلـى العُقُـودِ الأولى من «الأَلْفيّة الثّالثـة»، ومن الوَاضِحِ - انْطلاقاً مـن الطّبيعة المَعْرفيّة لهـذا العَصْـر - أنّ «نُقْطَـةَ التَّوَازُنِ» لـن تَتَحَقَّقَ إلاّ فـي «وَسَطٍ مَعْرفيٍّ» كثيـفٍ تقومُ فيه «الثَّقافـةُ العِلْميّةُ» بدَورٍ مِحْوَرِيٍّ بَارِز. مِثْلُ ذلك «التَّوَازُنِ» - في حالة «البَنْدُولِ الفِكْريّ» - يُحَقِّـقُ أبْرز ما يَحْتَاجُهُ «الأَمْنُ الاجْتماعيُّ»، وهو «عُنْصُـرُ التَّسَامُحِ» الذي يَتَحَقَّقُ عبْر ما أَسْميناه «التَّوَافُق التّنْمَويّ» (انظر: الفَصْل الرّابع)؛ فتتلاقى التّيارات الوطنيّةُ والمَشَارِبُ الاجْتماعيّـةُ حول «قضايـا تَنْمَويّةٍ» تَجْمَعُ كِيانَهُـمْ، وتُثْري وجودَهم، وتَخْـدِمَ ازْدهارَهم، فكما يقولُ محمد جابر الأنصاري: (إنّ التَّسَامُحَ مُمَارَسَةٌ عمليّةٌ بالدّرجة الأولى وحَصِيلةٌ لأسبابٍ موضوعيّةٍ قبل أنْ يُصْبِحَ قِيمَةً مُجَرَّدَة)[٢١].

إنّ لـ«الثَّقافة العِلْميّة» - في هذا السِّياق - الدَّوْرَ الأبْرزَ في مُعَالَجَةِ «إشْكَاليّة الفَجْوَةِ المَعْرفيّة» دَاخِلَ المُجْتمع الوَاحِد؛ ففي عَصْرٍ تَتَّسِعُ فيه «الهُوّةُ المَعْرفيّةُ» بين «المُجْتمعات النَّامية» و«المُجْتمعات المُتَقَدِّمَة»، فإنّ الضُّغُوطَ تَزْدَادُ على «المُجْتمعات النَّامية»، وتكون هنـاك فِئَاتٌ تَمَكَّنَـتْ لأسْبابٍ عِدَّةٍ من فُرَصِ التَّعَلُّمِ ووَسَائِلِ الاتّصـال الحديثة ومُوَاكَبَةِ عُلـومِ العَصْـرِ وتطوُّراتـه، بينمـا بَقِيَتْ فِئَـاتٌ أُخْرى خَارِجَ هـذه التّفاعُلاتِ؛ ممّـا يَنْجُمُ عنـه اضْطِـرَابٌ مُجْتمعيٌّ؛ وهنا تقـومُ «الثَّقافةُ العِلْميّـةُ» بتوسيع دَائِرةِ «نَشْـرِ المعْرِفَة»،

واسْتِقْطَـابِ الحماس للعلـوم المُعَاصِرَة، وتوفيرِ «التَّجَانُسِ الثَّقافـيّ» عبْر تَقْرِيبِ وِجْهَاتِ النَّظَرِ وتوحيدِ الرُّؤيةِ نحو العَصْرِ وأدواته ومُتَطلَّباتِه، وفَهْمِ مُقَوِّمَاتِ «التَّنْمية» وتحدّياتِها. من المُهِمّ أنْ نُدْرِكَ أنّ من شَأْنِ «الثَّقافة العِلْميّة» أنْ تُسْهِمَ في تَهْيئة تلك «البِيئة التَّنْمويّة» القَـادِرَةِ على تَنْظيمِ الفِكْر، وتَهْذيبِ الغَرَائِـز، وصَقْلِ الدَّوافِع، وتَقْريبِ الرُّؤى نحو العَالَمِ ووسائِلـه ومُقْتضياتِه، وهي شَـرْطٌ لازِمٌ لتَأْميـن «التَّجَانُسِ الثَّقافـيّ» و«الالْتِقَاءِ الفِكْريّ» لتَحْقيقِ «التَّكَامُلِ البُنْيويّ» بين مُكَوِّنَاتِ المُجْتمع، وتَأْسيسِ الأنْمَاطِ الاجْتماعيّة والأشْكَالِ المُؤسَّسِيّـةِ القَادِرَةِ على التّفاعُلِ – بإيجابيّةٍ – مع طُوفـان «الثَّوْرَةِ المَعْلُوماتيّة» وتحدّيات «ظَاهِرَةِ العَوْلَمَة»، وهذا ما أكَّدَتْهُ «مُنَظَّمَةُ اليونسكو» في عام ١٩٩٤م بقولها: (إنّ «الثَّقافة العِلْميّـة والتِّكنولوجيّة» حاجةٌ عَالَميّةٌ لكي لا يَتَغَـرَّبَ النّاسُ عن مُجْتمعهِم، ولكي لا يكونوا مُرْبَكِين وضعيفي المَعْنويّاتِ بسبب التَّغْيير)[٩٩]. وفي هذا الصَّدد يرى عبد الله القفاري أنّ: (أكْبر المكاسِب من نَشْرِ «ثقافة التَّفْكير العِلْميّ» هي بِنَاءُ جُسُورٍ بين «العِلْم» و«الوَعْي الاجْتماعيّ»، وإعادةُ صِياغَةِ العَقْلِ وفْق مَنْظورٍ عِلْميٍّ غير قَابلٍ للاسْتِلاب، بَلْ ربّما نَذْهَبُ بعيـداً لنقول بأنّـه حتّى مُوَاجَهَة بعض الظّواهِر التي يُعَانِي منهـا عَالَمُ اليوم كالإرْهَابِ أو التَّطَـرُّفِ أو النَّزْعَـةِ الجماهيريّةِ الغوغَائيّةِ لـن تكون بنَشْرِ الدِّيموقراطيّـة وَحْدَهَا، إنّها أيضـاً في اسْتِعادة عَقْلِ إنْسانٍ من بَرَاثِـنِ الأَسْرِ الفِكْريّ ليكون عَقْلاً عِلْميّاً لديه المَقْدِرَةُ علـى الفَحْصِ والاسْتِشْـكَالِ والقَبُولِ والرَّفْـض، وحينها سيكون من الصّعْـبِ تَطْويعُ هذا «العَقْلِ» لصَالِحِ مَشْروعٍ غير قَابِلٍ للحياة وغير مُتَمَاسِكٍ ووخيم النّتائِج)[١٤].

٧-٩-١) «مَلَفّ الإرْهَابِ» كمِثالٍ:

لقـد هَيْمَنَـتْ إشْكاليّاتُ «ظَاهِـرَةِ الإرْهَابِ» علـى العَالَمَيْن العربـيّ والإسْلاميّ في العُقُـودِ الأخيـرة، واسْتَفْحَـلَ أَمْرُهَـا لتُصْبِـحَ ظَاهِـرَةً مُؤرِّقَةً تَسْتَهْـدِفُ العُقُـولَ الغَضّةَ والمُكْتَسبـاتِ الوطنيّـة، وتُهَدِّدُ بـكُلِّ الرُّعُونَةِ والحَمَاقَـةِ أَمْنَ الوطـن ومُسْتَقْبَلَ المُواطِن، واستُنْفِرتْ لمُحاربتِهـا ومُكافحتِها الجُهُودُ الأمنيّةُ والمُعَالَجَاتُ الفِكْريّة. إنّ الوقوف أمام هـذه الظَّاهِـرَةِ المُزْرِيةِ – بتَرْكيبتِهـا المُعَقَّدَةِ وتفاعُلاتِهَـا المُتَشَابِكَةِ – يُؤَكِّـدُ أنّ «الحَلَّ

الأَمْنـيّ» ليس إلاّ حَلاًّ مُؤَقَّتاً يُعَالِجُ نتائِج الظّاهِـرَةِ ويتصدَّى لأَعْرَاضِهَا، ولكنّه لا يَسْتطيعُ أنْ يتعامـل بعُمْـقٍ مـع أسْبَابِهَا ودَوافِعِهَا؛ ولذا فإنّـه يَنْبَغِي عدم إهْمَـالِ الأدْوار المِحْوَرِيّة لـ«مُؤَسَّسَـات المُجْتمـع» المُخْتلفة في عِلاجِ هذه الظّاهِـرَةِ والتّخْفيفِ من وَطْأَتِهَا - إنْ لم يكنْ اسْتئصالها -.

إنّ «المُعَالَجَةَ الفِكْريّـة»، وهي الأبْرز بين التّحدّيات القَائِمَة، تَحْتَاجُ إلى إسْتراتيجيّةٍ عميقةِ الجُذُورِ ووَاضِحَةِ الملامِحِ، وتجدُ تَرْجَمَتَهَا على أرْضِ الوَاقِعِ في آليّاتٍ قَابِلَةٍ للتّطْبيق والتّقْييـم والتّطْوير، ومهما شَرَّقَتْ هذه الإسْتراتيجيّةُ أو غَرَّبَتْ، فإنّها - في نهاية المطاف - ستَلْتَـفُّ - بالضّرورة - حول عِدّة مَحَاوِر جوهريّةٍ، ومن أبْرزها مِحْوَرُ «الثّقافة العِلْميّة»، حيـث لا مناص مـن الاعْترَافِ بأنّ «المُنَـاخَ الفِكْريّ» في «المُجْتمعـات العربيّة» في حاجةٍ إلـى «تَحَوُّلاتٍ كيفيّةٍ» تُوَائِمُ بين بِيئتِه وبين صُوَرِ «الحياة المُعَاصِرَة» وتحدّياتِها المُتَجَدِّدَة. إنّ مِثْـلَ هـذا التّـوَاؤُم المَطْلـوب لا يَتَحَقّقُ بتلـك الأساليب السَّطْحيّـةِ الهَشَّةِ التـي تَعْتَقِدُ أنّهـا باسْتِفْزَازِهَا للمُجْتمع، وتَعْريضِهَـا بقِيَمِه، وتحدِّيها لمُسَلَّمَاتِه، سـوف تَنْقُلُهُ إلى قِمّةِ السِّلْـمِ الوطنيّ والتّقدُّمِ المَعْرفـيّ والازْدِهَارِ الاجْتماعيّ، فالعَكْسُ هو الصّحيحُ، فمِثْلَ هذه الأساليـب الفَجَّـةِ هي - في المقام الأوّل - أبْعد ما تكون عن فَهْمِ «رُوحِ العَصْرِ»، ومُقَوِّمَاتِ القُوّةِ، وعَنَاصِرِ التّمْكين، وهي التي - في نهاية المطاف - تُوَلِّدُ من «رُدُودِ الفِعْلِ» ما يَصُبُّ في قناة «الإرْهَاب»، ويُمِدُّ دُعَاتَهُ من الحَمْقَى بأوراق التّحْريضِ وصرخات التّمَرُّد.

إنّ القـول بأنّه - عند التّعامُل مـع «مَلَفِّ الإرْهَابِ» - يَنْبَغِي عدمُ إغْفَالِ دَوْرِ «الثّقافة العِلْميّة» في حياة المُجْتمع وتفاعُلاته، هو تأْكيدٌ لحقيقةٍ فِكْريّةٍ وحياتيّةٍ وثقافيّةٍ واجْتماعيّةٍ تَفْرِضُ ضُغُوطَهَـا ومُقْتضياتِهـا بشَكْلٍ يتنامـى مع تسـارُعِ «الحركة العِلْميّـة - التّقنيّة»، واتِّسَـاعِ «الفَجْوَةِ المَعْرفيّة» بيـن أولئك المَأْسُورين لـرُدُودِ الفِعْـلِ الوِجْدانيّة والانْفعاليّة والكلاميّـة، وبين أولئك المُنْطَلِقين في آفاق الإنْجـاز التّقنيّ والازْدهار المعيشيّ والتّفوّق العِلْمـيّ والأَمْن الوطنـيّ. لا بُدَّ أنْ نُدْرِكَ أنّ المُشْكلة الأساس فـي «مَلَفِّ الإرْهَابِ» مُشْكِلَةٌ فِكْريّـةٌ - ثقافيّةٌ تَمَخَّضَتْ عن طُوفَانٍ من المُتَغيِّـرَاتِ المُتسارِعَةِ التي تكالبتْ مع رَوَاسِبَ تاريخيّـةٍ وانْفعالاتٍ كَامِنَةٍ لم تُفْلِحْ الأُمّة في التّخَلُّصِ منها عبْر قُرُونٍ؛ لتَدْفَعَ على طريق

الهـلاك بعناصِرِ شَابّةٍ لديها الحماس والطّاقــة والطُّمُوح، ولكنّها افْتَقَدَتْ الرُّؤية ليَخْتَلِطَ عليهـا «الزَّمَان» و«المكان»، وتَصْطَدِمَ في دَواخِلِها مَشَاعِرُ الرّغْبَةِ في الإنْجاز والتّفوّق مع هجماتِ الإحْبَاطِ والاغْتِرَابِ عن العَصْر، لتكون المُحَصِّلَةُ ذلك «الإرْهَابيّ» الذي لا يَرْعَى إلاًّ ولا ذِمّة، ولا يَتَوَرَّعُ عن سَفْكِ الدِّماء وحَصْدِ الأرْواح.

نَسْتطيعُ أنْ نَفْهَمَ الظّاهِرَةَ في إطَارٍ أبْرز، عندما نضعُها في سِيَاقِ محاولات «النّهْضَة» التي عَجِزَتْ الأُمّةُ - عبْر أكْثر من قَرْنَيْنِ - عن تَحْقيقِهَا لتَتَكَرَّرَ الكَوارِثُ بأشْكَالٍ مُخْتلفةٍ، ونَسْتطيـعُ أنْ نَفْهَمَهَـا عندما نُـدْرِكُ أنّها جُزْءٌ مِحْوَرِيٌّ من فُقْـدَانِ «التَّوَازُن» الذي أصاب الأُمّـة عندما اضمحلَّ دَوْرُهَـا الرّياديّ، ودخلتْ في متاهاتِ التَّخَلُّـفِ والهزيمة، وهذا هو الحـال الذي يَصِفُهُ مالك بن نبيّ عندما يقول: (لـو أنّنا حَلَّلْنَا حياة مُجْتمعِنا لوجدنا فيه ألْواناً جديدةً تَدُلُّ في جُمْلَتِهَا على نَزْعَاتٍ مُتباينةٍ واسْتِعْدَادَاتٍ فَرْديّةٍ مُتَنَافِرَةٍ في مُجْتمعٍ فَقَدَ تَوَازُنَهُ القديم ويَبْحَثُ الآن عن تَوَازُنٍ جديد)[٢].

ممّا سَبَـقَ يَتَّضِحُ أنّ تَحْقيقَ «الأَمْن» بأنْواعِهِ المُختلفـة وشُرُوطِهِ المُعَاصِرَةِ يَتَطَلَّبُ تفاعُـلاتٍ مُجْتمعيّـةً مُتَوَافِقَةً مع زمنِهـا، وأنْسَاقاً ثقافيّـةً مُتَّسِقَةً مع طبيعـةِ مُشْكلاتِها، ومـدارِك مَعْرِفيّةً مُتَنَاغِمَـةً مع تطلّعات أجْيالِها؛ فلا تكونُ الأُمّةُ مُتطفِّلاً ثقيلاً على مَوائِدِ الآخَرين تُعَانِي من حالة الانْبِهَارِ والرَّهْبَة، ولا يَدْفَعُ الإحْبَاطُ بعض جماعاتِها إلى حَمَاقَاتٍ لا يُحْمَدُ عُقْبَاهَا، ولكنّها تتعاملُ مع مُعْطياتِ عَصْرِهَا بلُغَةِ زمانِها، وتَسْتَنْفِرُ قُدْرَاتِهَا بثِقَةٍ وعَقْلانيّـةٍ وتفاؤلٍ حيث يرى ديفيد رزنيك أنّ: (مـن الأرْجَح أنّ الجُمْهُورَ «المُثقَّف عِلْميّاً» يَتَّخِذُ بصُورةٍ جَيّدةٍ قراراتٍ وسياساتٍ أفْضل من التي يَتَّخِذُهَا جُمْهُورٌ جَاهِلٌ عِلْميّاً)[٩٨].

أمّـا «النَّقْلَـةُ المَطْلُوبَـةُ» فتَكْمُنُ في التَّغَلُّـبِ على حالة «الاغْتِرَابِ» عـن العَصْرِ التي تُسْهِـمُ في تَأْصيلِ كثيرٍ من حالات المَيْلِ إلى العُنْف، وتُعَمِّقُ مشاعِر العُزُوفِ عن «التَّعامُلِ الإيجابـيّ» مـع «مُتَطَلَّبَاتِ العَصْرِ» عبْر الانْعِزَالِ أو الانْغِـلاقِ أو الانْكِفَاء، ومن ثمّ الهُرُوب مـن تحدّياتِه إلى وَسَائِـلِ التّدْمير. إنّ انْعِدَامَ القُـدْرَةِ الذّاتيّةِ على التّعامُـلِ مع «مُكَوِّنَاتِ العَصْـرِ» الحيويّـة، أو الجَهْلَ بكُنْهِهَـا وطبيعتِها، أو الرّهْبَةَ من مُعْطياتِهـا ونتائجِها؛ كُلُّها

أُمُـورٌ كفيلةٌ – في كثيرٍ من الأحْيان – إلى دَفْـعِ بعْضهم إلى نَزْعَةٍ ارْتِدَاديّةٍ كَاسِحَةٍ تُهَيْمِنُ علــى الوِجْدَانِ، وتُغَيِّبُ العَقْلَ، وتُرَسِّـخُ الإحْبَاط. وأمّا إذا أَدْرَكْنَا مـدى عُنْفُوان «الطَّبيعة الاقْتِحَامِيّـة للحركـة العِلْميّة والتّقنيّة» (انْظـر: الفَصْل السّادس)، وما تُبَلْـوِرُهُ من أبْعَادٍ إنْتاجيّـةٍ فَاعِلَـةٍ، وما تُحَقِّقُهُ من إنْجازاتٍ بَاهِرَةٍ، وما تُضْفيـه على مدارِك العَقْلِ من رُؤىً جديدةٍ، فإنّنـا نُدْرِكُ أنّ مَشَاعِرَ «الاغْتِرَابِ»، وحالات «الإحْبَـاطِ»، ستجدُ لها دواءً نَاجعاً عبْـر التّعامُلِ مع «العِلْم كثقافةٍ»، و«العِلْم كقِيمَــةٍ»، و«العِلْم كمُمَارَسَة». إنّه من الواضِح أنّ رِحْلَـة الأُمّــة نحو «التَّوَازُنِ الجديد»، الذي نَوَّهَ به مالك بن نبيّ، قد طَالَتْ ودَخَلَتْ مَرْكَبَتُهَا اللّاهِثَـةُ فــي مُنْعطفاتٍ أشـدّ توتُّراً واضْطراباً، ومــا «مَلَفُّ الإرْهَابِ» إلاّ إفْـرازٌ شنيعٌ من إفْـرازاتِ حالة «انْعِـدَامِ التَّوَازُنِ»، ونتيجةٌ طبيعيّــةٌ لفُقْدَانِ القُدْرَةِ علــى التّحْليلِ السَّليمِ، والعملِ السَّديدِ، والرُّؤيةِ النّاضِجَة.

٧-٩-٢) نَحْوَ «خِطَابٍ مَعْرِفيٍّ» فَاعِلٍ:

مــن المُهـمّ – إذاً – توليدُ «خِطَابٍ مَعْرِفيٍّ» قَادرٍ على التّصَـدِّي للتّحدّياتِ الدّاخليّة والمُتَغيّــرَاتِ الخارجيّة، ولا يَقْتَصِرُ على مُجَرَّدِ «رَدّ الفِعْل»، بَلْ يُبَادِرُ بالسّعي نحو التَّطْوير والتّنْميــة ليُصْبِحَ الوطنُ فَاعِلاً على المُحيط المحلــيّ والإقليميّ والدّوليّ، فعندما يَنْشَغِلُ الإنْســانُ بـ«صِنَاعَةِ التَّقَدُّم» فإنّ مُبَرِّراتِ «مُنْطَلَقَاتِ الإرْهَــابِ» العَدَميّة تَضْمَحِلّ، ودَوافِعَ تلـك الانْفِعـالاتِ الهَوْجَاءِ تتلاشى، فمــن بدهيّات «التَّجْربة الإنْسانيّــة» أنّ هناك شُرُوطاً أخْلاقيّــةً وعَقْليّةً وقِيميّــةً وعمليّةً لازِمَةً للإنْسان لكي يَدْلِفَ إلــى عَالَمِ «صِناعة الحضارة والتّنْمية»، ومُوَاكَبَةِ «حركة التَّقَدُّمِ والتَّطَوُّر».

مــن ذلك المُنْطَلَـقِ، نجدُ أنّ أهميّة ذلــك «الفِكْـرِ» المُتَفاعِلِ مع «قضيّــة التّنْمية»، والمَهْمُومِ بـ«مُسْتَقْبَلِ المُجْتمع»، والحريصِ على «عمليّة البِنَاء»، تَتَجَلَّى في أنّ هذا «الفِكْرَ» بطبيعتِـه يَفْرِضُ شُرُوطاً عَقْلانيّــةً وعِلْميّةً وإنْتاجيّــةً وعَوْلَميّةً هي حِصْـنٌ من الحُصُونِ الرّئيسةِ في مُحَارَبَةِ التَّطَرُّف والإرْهَاب، وتوليدِ معايير «التَّوَازُنِ الجديدِ» وتَرْسيخ أرْكانه. ومن ذلك المُنْطَلَقِ – أيضاً – تَفْرِضُ «ثقافةُ العِلْم» دَوْرَهَا الحتْميّ على حياة المُجْتمعات،

وذلـك علـى الرّغم ممّا تُعَانيه من إهْمَـالٍ ثقافيٍّ، وتَجَاهُلٍ إعْلامـيٍّ، وإقْصَاءٍ اجْتماعيٍّ، فـي «الدُّول النّامية» التي ستَبْقَى تُراوِحُ مكانها فـي حالتها «النَّامية!» دون بُلُوغ غايتها في التَّقـدُّمِ والنُّضْجِ طالما أنّها لم تُدْرِكْ الأبْعَادَ الجوهريّةَ لـدَوْرِ «الثّقافة العِلْميّة» في تَهْيئة «البِيئة التَنْمَويّة» القَادِرَةِ على تَنْظيمِ الفِكْرِ والغَرَائِزِ والوسائِل، وتَقْريبِ الرُّؤى نحو العَالَمِ ووسائِله ومُقْتضياته.

نَسْتطيـعُ أنْ نقول - بكُلِّ ثِقَةٍ - إنّ «الثَّقافة العِلْميّـة» تُرْسِي لَبِنَاتِ «التّفْكير العِلْميّ» وتَجْعَـلُ منه تَطْبيقـاً عمليّاً حياتيّـاً يَفْرِضُ على الفَرْدِ الاحْتِـكَامَ إلى العَقْـل، والتَّأَمُّلَ في الأسْبَـابِ والنّتائِـج، والمزايا والعُيُوب، والإيجابيّـاتِ والسّلبيّات، والمَصَالِـحِ والمَفَاسِد، ليُزِيـلَ كُلُّ ذلك هَوْجَائيّـةَ الانْفعالاتِ والتَّحَيُّزَاتِ التي تَحْكُمُ «الخِطَـابَ الثّقافيّ العربيّ»، وتُهَيْمِـنُ على «رُدُودِ الفِعْلِ» لدى «العَقْلِ العربيّ» الغَارِقِ في المُتناقِضات. ولا شكّ أنّنا إذا اسْتطعنا أنْ نَجْعَلَ من «ثقافةِ العِلْم» جُزْءاً جوهريّاً من «الثَّقافة الجماهيريّة»، فإنّنا نكون قـد أَفْلَحْنَا في توطيدِ دعائِم «عَقْلَنَةِ المُجْتمع»، وتَأْسيسِ مُعْطيات ذلك «التَّوَازُنِ الجديدِ» الوَاعِدِ بالاسْتِقْرَارِ والازْدِهَارِ والأَمْنِ الحقيقيّ بأنْواعِه.

لا ريب في أنّ «الطّبيعة البشريّة» تَسْعَى إلى إثْبَاتِ الذّات، وتَكْريسِ القِيمَةِ الشّخْصيّة، وتَحْقيقِ المَصْلحة الخاصّة والعامّة، وتوفيرِ الرِّضا الحياتيّ؛ ولذا فإنّها ستتخلّصُ من قَدْرٍ كبيرٍ من ذلك الخَوَاءِ النّفْسيّ والتِّيهِ الفِكْريّ والاغْتِرَابِ المَعْرفيّ عندما يَحْتَفِي «المُجْتمعُ» وأفْـرَادُهُ بالقِيَمِ الإنْتاجيّة والمعاني العِلْميّة والانْطلاقاتِ التّقنيّة والمُكْتسباتِ اليوميّة على الصّعِيدَيْـن المادّيّ والمَعْنويّ، وبطبيعة الحال، لا يُمْكِنُ لمِثْلِ ذلك الحال أنْ يَتَحَقَّقَ إلاّ في مُجْتمعٍ تَبَوَّأَتْ فيه «الثَّقافةُ العِلْميّةُ» مَوْقِعَهَا الصّحيح، وتَغَلْغَلَتْ في أنْسِجَتِهِ وخلاياه.

إنّه لا يُمْكِنُ تَخَيُّلُ «إسْتراتيجيّةٍ» تَطْمَحُ إلى مُعَالَجَةِ «ظَاهِرَةِ الإرْهَابِ» دون أنْ تَسْتَنِدَ إلـى «بِنْيَةٍ تَحْتيّـةٍ» تَسْتطيعُ أنْ تَتَحَمَّـلَ الضُّغُوطَ الجَمّـةَ النّاجِمَةَ عن «تَداخُـلِ الأَمْكِنَة»، وتَشَابُكِ المصالِح، وهَيْمَنَةِ الأقْوياء، وشَرَاسَةِ «العَوْلَمَة»، واخْتِزَالِ الزّمن، وآنيّةِ الاتّصال، والتّأثُّرِ المُبَاشِرِ بمضامين المَعْلُومَة؛ وفي زمن «العلوم والتّقنية» فإنّ تلك «البِنْيَةَ التَّحْتيّة»

الصّلْدَةَ لا يُمْكِنُ إلاّ أنْ تكون من جِنْسِ عَصْرِها، ويَتَحَتَّمُ عليها أنْ تتناغم مع طبيعة زمنِها. ومن هنا كانتْ أهميّةُ «الثَّقافة العِلْميّة»، وضَرورةُ أنْ تُصْبِحَ جُزْءاً جوهريّاً ليس فقط من «مَلَفِّ مُكافَحَةِ الإرْهَابِ» أو برامِجِ «تَعْزيزِ الأَمْنِ» بمُخْتلف أشْكالِه ومضامينِه، ولكن يَنْبَغِي أنْ تكون جُزْءاً حيويّاً من «الرُّؤية الشّامِلَةِ» لأيِّ اسْتراتيجيّةٍ ثقافيّةٍ أو إعْلاميّةٍ أو تَعْليميّةٍ أو بَحْثيّةٍ أو تَنْمَويّةٍ، وذلك - بطبيعة الحال - إذا افْتَرَضْنَا أنّ هذه «الاسْتراتيجيّات» تَطْمَحُ إلى أنْ تتفاعل مع عَصْرِهَا، وتُوقِظَ أُمّتَهَا، وتَغْرِسَ «أَخْلاقيَّاتِ العمل»، وجِدّيّةِ الإنْتاج، وحيويّةِ التّفْكير، ومهارةِ الانْضباط، وتَوَازُنِ الرُّؤية.

عندما نُدْرِكُ أهميّة دَوْرِ «ثقافة العِلْم» بصفتها مِحْوَراً رئيساً في مُعَالَجَةِ «ظَاهِرَةِ الإرْهَابِ»، وتَحْقيقِ «التّوَازُنِ الاجْتماعيّ»، وتَعْزيزِ «التَّوافُقِ التَّنْمَويّ»، فإنّنا سنُدْرِكُ ساعتها سبب فَشَلِ الخُطَطِ التّعْليميّة والإعْلاميّة والثّقافيّة والاجْتماعيّة والتّنْمَويّة في «المُجْتمعات العربيّة»؛ فهي تتعاملُ مع «العلوم والتّقْنية» بأسْلوبٍ سَطْحِيٍّ هَشٍّ لا يتجاوزُ التّنْظيرَ العامّ، أو الاكْتِسَابَ العَائِمَ للمَعْلُومَات، أو الفَهْمَ الغَائِمَ للتّطْبيقات، دون الانْخِرَاطِ في عمليّة «التّأْصيل الفِكْريّ» التي تَزْرَعُ في العَقْلِ الضَّوابِطَ اللّازِمَةَ لمُمَارَسَةٍ رشيدةٍ، ومَسْؤوليةٍ وَاعِيةٍ، وحركةٍ تَنْمَويّةٍ جَادّةٍ، وحِرْصٍ صَادِقٍ على معايير «الأَصْلَح» و«الأَجْدَى» و«الأَنْفَع» في نَسَقٍ مُتَصَالِحٍ مع «العَصْر»، ومُتَّسِقٍ مع مُتَطلَّباتِه، وفي إطَارٍ شَامِلٍ يجدُ مُنْطَلَقَاتِهِ في ثَوابِت دينيّةٍ واجْتماعيّةٍ وعَقْليّةٍ لا تتعارضُ مُطْلَقاً مع الانْطلاق في «عَوالِمِ العَصْرِ» بأبْعَادِهَا التّقْنيّة والعِلْميّة والتّنْمَويّة.

من تلك الرُّؤى نَسْتطيعُ أنْ نَخْلُصَ إلى أنّه إذا كان ازْدهار «الاقْتصاد» بصفته مُؤَثِّراً مادّيّاً في «التّنْمية الاقْتصاديّة»، هو خير عِلاجٍ لاسْتِقْرَارِ المُجْتمعات وأَمْنِهَا وتَطَوُّرِهَا، فإنّ «الثَّقافة العِلْميّة» كمُؤثِّرٍ ثقافيٍّ في إطار «التّنْمية الشّامِلَة» هي خيرُ عِلاجٍ لـ«المُعْضِلَةِ الثَّقافِيَةِ» لتَجْعَلَ «الثَّقافة» ذات «فَاعِليّةٍ اجْتماعيّةٍ» تُوَطِّدُ دعائِم «الأَمْنِ» بمُخْتلف أشْكالِه، وتَبُثُّ «رُوحَ العَصْرِ» في جَنَبَاتِ «المُجْتمع» لتَدْفَعَ في اتِّجَاهِ حركةٍ نَشِطَةٍ على الأَصْعِدَةِ الفِكْريّة والاقْتصاديّة والتّعْليميّة والإنْتاجيّة والبَحْثيّة، وغيرها من مُقْتضياتِ «العَصْرِ» وتفاعُلاته.

٧-١٠) «الثّقافة العِلْميّة»: القِيَم والمعايير:

لكـي تَتَحَقَّـقَ «الفَاعِليّـةُ الاجْتماعيّةُ» في مضاميـن «مَفْهُومِ الثَّقافـة العِلْميّة»، فإنّه مـن المُهِـمّ التَّعامُل مـع هذا «المَفْهُومِ» علـى أنّه «جَسَـدٌ» و«رُوحٌ»، حيث يَتَمَثَّـلُ «الجَسَدُ» في الأشْـكَالِ الماديّـة، ووسائِل الإنْتـاج، والمُصْطلحـاتِ العِلْميّـة، والأدواتِ التّجْريبيّة، والمَعْلُومَـاتِ الوظيفيّة، وهي ما يُمْكِنُ أنّ نُسَمِّيـه «عَالَمَ الأشْياء»؛ بينما تَتَمَثَّلُ «الرُّوحُ» في «عَالَـمِ الأفْكَار»، وهو ما تَفْتَحُهُ «الثَّقافةُ العِلْميّةُ» من تَألُّقَـاتٍ فِكْريّةٍ، ومُنْطلقاتٍ فَلْسفيّةٍ، وطُمُوحَـاتٍ بَحْثيّةٍ، وأبْعَادٍ تأمُّليّةٍ من «عَالَمِ الذرَّات» إلـى «آفاق المَجَرَّات»، وفيما يَرْتَبِطُ بهـا من مُمَارَساتٍ وقِيَمٍ ومهارات، وبذلك يُصْبِحُ مَفْهُـومُ «العِلْمُ قِيمَةٌ» مُسَانِداً ومُعَاضِداً لمَفْهُـوم «العِلْمُ مَعْرِفَةٌ». وأمّا ذلك التّكَامُلُ، بين عَالَمَيْ «الأشْياء» و«الأفْكَار»، فإنّه يَتَحَقَّقُ عنـد بُلُـوغِ المُجْتمع نُقْطة «التَّحَوُّلِ الكَيْفـيّ» عبْر «التّرَاكُمَاتِ الكَمِّيّـة» لمُعطيات «الثَّقافة العِلْميّـة»، وفي إطار التّفاعُلِ الجَادِّ مع «الحركة العِلْميّة - التّقنيّة» ومضامينِها، ومُمارَسَةِ تَطْبيقاتها، والانْخِرَاطِ في مضاميرها.

ويُمْكِنُ حَصْرُ أهمّ ما يُنْجِزُهُ ذلك «التَّحَوُّلُ الكَيفيُّ» من قِيَمٍ ومعايير فيما يلي:

- المُلاحَظَةُ المُحَايِدَةُ في التَّعَامُلِ مع المُشْكلاتِ والقضايا.
- التَّواضُعُ المَعْرفيُّ والتَّعلُّمُ بالمُمَارَسَة.
- الأمانةُ العِلْميّة، والموضوعيّة، والاسْتِقْلاليّة، وإدْراكُ أنّ رأي الأنْدَادِ والنُّظَرَاءِ ضروريٌّ ومُجْدٍ في الوصولِ إلى الحقائِق.
- تَقْديرُ الإنْتاجيّة واحْتِرَامُ الكفاءَة، وإعْطَاءُ كُلِّ ذي حَقٍّ حَقَّه، وعدمُ بَخْسِ النّاس إسْهاماتِهم الفِكْريّة والعِلْميّة والحياتيّة.
- الدِّقّةُ العمليّة، والانْضِبَاطُ المَنْهَجِيّ.
- أخْلاقيّاتُ العمل، والحِرْصُ على الإتْقَان.
- تَطْويـرُ «ثقافة السُّؤال»، وتَعْزيزُ قُـدْرَاتِ التّحْليلِ ومهـاراتِ «التّفْكير العِلْميّ»، وغَرْسُ بُذُورِ «الإدارة العِلْميّة».

- تَرْسيخُ القناعة بأنّ «المِصْداقيّةَ» مُرْتَبِطَةٌ بالقَبُولِ الجماعيّ للأفْكَارِ والنّتائِج.
- دَعْمُ طُرُقِ «العمل الجماعيّ»، وتَرْسيخُ مفاهيم «العَدَالَة الاجْتماعيّة» و«التَّعاون» و«المَسْؤوليّـة» عبْر أُطُرِ «التَّكامُـلِ البُنْيويّ» و«التَّرَابُطِ العُضْـويّ» بين مُخْتلف مُكَوِّنَاتِ المُجْتمع وشرائحِه.
- بَثُّ رُوحِ المُبَادَرَةِ والابْتِكَارِ والبَحْثِ والاخْتِرَاع.
- تَعْزيزُ العَقْلانيّة، واحْتِرَامُ الحقائِـق، ونَبْذُ أساليب المُبَالَغَةِ والإيهام، وتَحْديدُ المُعْطياتِ والفَرْضيّاتِ والمَصَادِرِ بجلاءٍ عند التَّعامُلِ مع المُشْكلات.
- تَحْفيزُ الإنْتاجيّة، واحْتِرَامُ قِيمَةِ الوَقْت.
- تَأْكيـدُ أنّ الفُضُـولَ غريـزَةٌ يَنْبَغِـي تَشْجيعُها، وغَرْسُ حُبِّ الاسْتِطْـلاعِ ورُوحِ المُنَافَسَةِ والتَّحدّي، وتوليدُ الدَّوَافِعِ الذّاتيّة للمُتَابَعَةِ المَعْرفيّة والتَّطْويرِ الذّاتيّ.
- نَبْذُ الخُرَافَاتِ والدَّجَلِ والأوهامِ والعاداتِ السَّيِّئة، وتَقْليصُ مِساحاتِ الانْفعالاتِ والعَواطِفِ والمُعَوِّقَاتِ الفِكْريّة.
- اضْمِحْـلالُ انْتِشَـارِ الشَّائعَاتِ، فكُلّمـا قَوِيَ عُوُدُ «الفِكْرِ العِلمـيّ» في المُجْتمع، كانتْ الرّغْبَةُ في توليدِ الشَّائِعَاتِ أضْعف، وسُرْعَةُ انْتِشَارِهَا أقلّ.
- التَّأْكيـدُ علـى أنّ «التّنْظيرَ» ليس هدفاً في حَدِّ ذاتِـه، ولكنّه يَنْبَغِي أنْ يُؤدِّيَ إلى تَنْبـؤاتٍ قَابِلَةٍ للاخْتبـارِ والتَّحَقُّقِ، ووسائِل قَابِلَةٍ للتّفْعيـلِ والتّقْويم، وآثارٍ ذات جَدْوَى وفَاعِليّة.
- الابْتِعَـادُ عـن «أَحَادِيّـة الـرّأي»، وإشَاعَـةُ «رُوحِ التّسَامُح»، وعـدمُ الخَوْضِ في القضايـا دون براهيـنٍ، والحِرْصُ على جَمْعِ المَعْلُومَـاتِ وتَقَصّي البيانات قبل تَحْديدِ المَواقِف واتِّخَاذِ القرارات.
- تَكْريـمُ العُلماء والمُبْدعين في مجالات «العلـوم والتّقْنية»، وإبْرازُهم بصفتهم قُـدْوةً تُحْتَـذَى، ودَعْـمُ المَواهِـبِ الفَرْديّـة، وتَعْميقُ القِيمَـةِ الذّاتيّـةِ للإنْسان وكرامتِه.

- التَّغَلُّبُ على مَشَاعِرِ الانْبِهَارِ والتَّبَعِيَّةِ والإحْبَاطِ، وإشَاعَةُ رُوحِ التّفاؤل والثِّقَةِ في تَطْويرِ المُجْتمع وتَنْميته.
- تَقْليصُ مساحاتِ المَحْسُوبيّةِ والمُحَابَاةِ والوَسَاطَةِ والاعْتبـاراتِ الخاصّةِ كالتّمْييز غير المَشْرُوعِ بين الرَّجُلِ والمَرْأة؛ فـ(قِيمَةُ الفَرْدِ فيما يُتْقِنُه).
- تَأْصيلُ مَفْهُوم «المُجْتمع دَائِم التَّعَلُّم» عبْر التّطْويرِ المُسْتمرِّ للمهارات، وتَنْميةُ المَواهِبِ إلى أقْصَى قُدْرَاتِهَا، واسْتيعابُ المُسْتَجِدَّاتِ بعَقْلانيّةٍ وفَاعِليّة.
- إذْكاءُ حماسِ المُجْتمع لـ«العلوم والتّقْنية»، والحِرْصُ على توفير شُرُوطِهَا عبْر تَنْمية الشَّغَفِ بالبَحْثِ العِلْميّ والإبْدَاعِ التّقنيّ.
- الاسْتِخْدَامُ الأمْثل للمَوارِد، والحِفَاظُ على البِيئة، ومُكَافَحَةُ التَّلَوُّث، والمُحَافَظَةُ على المُنْجزاتِ الوطنيّة.
- تَحْفيزُ مَلَكَةِ التَّساؤلِ والاسْتكشاف، وتَنْميةُ القُدْرَةِ على النّقْدِ وطَرْحِ الفَرْضيّاتِ واخْتبارِها والتّحليلِ والمُقَارَنَةِ والانْتِقَاء.
- التَّأْكيدُ على أنّ «العلوم الطَّبيعيّة» ومَنْهَجَهَا هما الطّريقةُ الفُضْلى لمُحاكَمَةِ مُخْتلف الأُمُورِ الدُّنيويّة وتَقْييمِهَا والتَّعَامُلِ معها، وأنّ هناك مَنَافِع جَمّةً تَنْجُمُ عن فَهْمِ «الطَّبيعة» ودراسةِ قوانينها والتَّكيُّفِ مع مَنْهَجِهَا.
- الانْفِتَاحُ على الثّقافاتِ الأُخْرى واحْتِرَامُهَا، والتّعَامُلُ مع «العَوْلَمَة» بإيجابيّةٍ، فـ«الحِكْمَةُ ضَالَّةُ المُؤمِن»؛ فـ«النَّشَاطُ العِلْميّ» يُمَثِّلُ رَابِطَةً عامّةً ومُشْتَرَكَةً بين البشر بمُخْتلف أجْنَاسِهِمْ وأعْرَاقِهِمْ وألْوَانِهِمْ وعَقَائِدِهِمْ، فـ«المَعْرِفَةُ العِلْميّةُ» هي أكْثر أنْواع المَعْرِفَةِ التي أنْتَجَهَا «العَقْلُ البشريّ» مَوْثُوقِيّةً، كما أنّها العُنْصُرُ الأسَاسُ المَسْؤولُ عن التّقَدُّمِ والرَّفَاهِ الذي حَقّقَتْهُ البشريّةُ خلال ما يُقَارِبُ ثلاثة قُرُونٍ فقط من عُمْرِ البشريّة الضَّارِبِ في أعْمَاقِ الزّمن.
- تَعْميقُ «البُعْد الإنْسانيّ» في التّفاعُلاتِ البشريّة من مَنْظُورِ الهُمُومِ المُشْتَرَكَة، والمصيرِ الوَاحِد، والمَصَالِحِ المُتَشَابِكَة، والمُؤَثِّرَاتِ المُتَبَادَلَة.

- تَنْميـةُ أرْضيّــةٍ فِكْريّةٍ مُشْتَرَكَةٍ ومُسْتَنِـدَةٍ إلى أُسُسٍ عِلْميّــةٍ واهْتمامات تَنْمَويّةٍ فــي «التّرْكيبة الاجْتماعيّة»؛ ممّا يَعْضُـدُ أبْعَادَ «التَّوَافُـقِ التّنْمَويّ» في «النَّسيجِ المُجْتمعيّ».
- تفعيـلُ بعضُ مُنْطَلَقَـاتِ «نَمُـوذَجِ التَّوَافُـقِ التّنْمَـويّ» (انْظُـرْ: الفصْـل الرّابـع) الرَّامِيَــةِ إلــى الجَمْـعِ بيــن «التُّـرَاثِ» و«الحَدَاثَـةِ» عبْـر إثْـرَاءِ «الثَّقافــة العِلْميَّــة المُعَاصِـرَةِ» بمُعْطيـاتِ «الحضـارة الإسْلاميّــة» وإنجازاتِهـا فــي مجــالات «العلـوم والتقنيــة» عبْر عمليّـاتِ «تحقيـق التُّرَاثِ» واسْتِيعـابِ أُصُوله، ورَبْطِهِ بالتَّطـوّراتِ المُعَاصِرَةِ و«الفِكْرِ العِلْميّ»، وبَلْوَرَتِهِ في «مَنْظُومَــةِ العلوم الحديثة»، وتَرْسيخِهِ فــي «تاريخ العلوم»، وتَعْميقِهِ في «فَلْسَفَةِ العلــوم»، وتَأْصيلِه فــي أُسُسِ «المَنْهَــجِ العِلْميّ»؛ ليكون جُزْءاً مــن العمليَة التي أَطْلَـقَ عليها محمد عابـد الجابريّ اسم «امْتِلاك التُّـرَاث»، والانطلاق به إلى الآفاق المُعَاصِرَةِ، حيث يقول: (إعادةُ كِتابَةِ تاريخنا الثّقافيّ برُوحٍ نَقْديّةٍ ورُؤيةٍ عَقْلانيّةٍ تاريخانيّةٍ ضرورةٌ مُلِحَّـةٌ، ليس فقط من أجل امْتِلاكِ تُرَاثنا والتّحَرُّرِ من ثِقَلِ حُضُورِه، بَلْ أيضاً من أجل إعْدَادِ التُّرْبة الصّالِحَة الضّروريّة لاسْتِنْبَاتِ أُسُسِ التّقَدُّمِ والتَّطَوُّرِ في فِكْرِنَا وثقافتِنا المُعاصِرَة، الشَّرْط الضّروري لتَأْصيل «المُعَاصَــرَةِ» فينـا، أَعْنِـي تَحْويلها من مُعَاصَـرَةٍ قَائِمَـةٍ على التَّبَعِيّـةِ والنّقْلِ والاسْتِنْسَاخِ إلى مُعَاصَرَةٍ قَائِمَةٍ على المُوَاكَبَةِ والمُسَاهَمَةِ إنْتاجاً وإبْداعاً)[1].
- تَعْميــقُ الإيمــان بالخَالِقِ عزَّ وجلَّ عبْــر مَعْرفة أسْرَارِ «الطَّبيعــة»، والإبْداعاتِ الكَونيّــة، والتّنْظيــم المُذْهِـلِ فــي «الأَنْفُسِ والآفَــاق»؛ وفي هذا الإطــار، تقومُ الدِّراســاتُ المُرْتَبِطَةُ بمجال «الإعْجَازِ العِلْميّ في القُـرآن والسُّنّة» بدَوْرٍ مُهِمٍّ فــي المُجْتمعــات العربيّة والإسْلاميّة، كما أنّ لها دَوْرَهَــا البَارِزَ على «الصَّعيدِ الدَّعَوِيّ» في زمن هَيْمَنَةِ «الفِكْرِ العِلْميّ».

٧-١١) «الثّقافة العِلْميّة»: المُعَوِّقات:

تَتَحَكَّمُ في مسار «الثَّقافة العِلْميّة» وتطوُّرها مَجْمُوعَةٌ من المُعَوِّقَاتِ التي تتفاوتُ في درجتِهــا من مُجْتمعٍ إلى آخَــر، إلاّ أنّها تَبْقَى مُحَافِظَةً على ملامحِهــا الأساس التي يُمْكِنُ إيجازُها فيما يلي:

١) تَصْطَـدِمُ قضيّةُ «الثَّقافة العِلْميّة» فــي «المُجْتمعات العربيّــة» بتفشِّي «الأُمِّيَّة» فيهــا[١٥،٩٥]، فمــن البدهيّ أنّ مساعــي تَقْليص «الأُمِّيَّــة العِلْميّــة» تَعْتَمِدُ – في المقــام الأوّل– على التَّغَلُّبِ على مُشْكلة «الأُمِّيَّــة الأَبْجَدِيّة». أمّا تَدَنِّي المُسْتوى التّعْليمــيّ، ومُشْــكلاتُ الفَقْــرِ والبَطَالَــة، وتَدَهْــوُرُ الخِدْمَــات، وتَوَتُّــرُ الأجْواءِ السّياسيّة؛ فكُلُّها سَلبيّاتٌ تَصُبُّ في تضاؤلِ اهْتمام المُواطِن بالقضايا العامّة، ومن أبْرز الضّحايا في ظِلِّ هذه الظُّرُوفِ هي «الثّقافة العِلْميّة».

٢) مــن خَصَائِصِ «الثَّــوْرَةِ العِلْميّة» تَشَعُّبُهَــا وتَكَاثُرُها بشَكْلٍ مُطَّــردٍ، وهي تتوالدُ وتَنْمُــو بمُعَــدَّلاتٍ عَاليــةٍ عبْر مجــالاتٍ جديدةٍ وتقْنيــاتٍ مُتلاحِقَةٍ، ممّــا يَجْعَلُ مُتابعتَهَــا أمْــراً مُسْتَعْصِياً على أصْحَــابِ التّخصُّصات العِلْميّــة أنْفسهم، فما بالــك بغيرهم مــن أصْحَــابِ التّخصُّصــات الأُخْــرى ذات الطّبائِــعِ المُغَايِرَةِ والاهْتِماماتِ المُخْتلفة؟.

من ذلك المُنْطَلَقِ، فإنّ مُهِمّةَ «الثَّقافة العِلْميّة»، في تَقْليصِ «الفَجْوَةِ» بين أصْحَابِ التّخصُّصات العِلْميّة أنْفسهم من ناحيةٍ، وبين أصْحَابِ التّخصُّصات العِلْميّة و«الجُمْهُورِ» بشَكْلٍ عامٍّ من ناحيةٍ أُخْرى، تَزْدادُ صُعُوبَةً إلاّ أنّ تلك الحقيقة – أيضاً – تَجْعَلُ مُهِمَّتَهَا أكْثر ضَرورةً وإلْحَاحاً في وَاقِعِ «الحياة المُعَاصِرَةِ»؛ لأنّ معايير التّقَدُّمِ والتّطَوُّرِ في «المُجْتمعات الحديثة» مُرْتَبِطَةٌ بمدى اسْتيعابِ أفْرَادِ المُجْتمع لـ«العلوم والتّقْنية»، واسْتجابتِهم لها، وكفاءتِهم في التّفاعُلِ معها على طريــق تَحْقيق مُواصَفَاتِ «مُجْتمع المَعْرِفَــة». لقد أوضح تشارلز سنو[٣٢] أنّه لا يُوجَــدُ حَلٌّ كَامِلٌ لهــذه المُعْضِلَة، فـ«رَجُلُ النّهْضَــة» (Renaissance man)، أو

«الرَّجُلُ المَوْسُوعِيّ»، الـذي كان يُحِيطُ بكُلِّ العلوم الأدبيّة والعِلْميّة والفَلْسَفيّة، لم يَعُدْ له مكانٌ في عَصْرِ «انْفِجَارِ المَعْلُومَات»، ولكن هذا لا يَعْنِي عدم الاهْتمام بتَحْقيق «حَدٍّ أَدْنَى» من «الوَعْي العِلْميّ» بين الشَّرَائِحِ المُخْتلفة، وإنْجاز درجاتٍ مُتَفَاوِتَةٍ من المُشَارَكَةِ والتّفاعُلِ بين مُخْتلف فِئَاتِ المُجْتمع تَضْمَنُ «بِنْيَةً تحْتيّةً ثقافيّةً» دَاعِمَةً لـ«الحركة العِلْميّة»، ومُسَانِدَةً للنّشاطِ التّقنيّ.

٣) تُغَطِّـي مُهِمَّـةُ «الثَّقافـة العِلْميّـة» مِساحـاتٍ وَاسِعَـةً مـن المُجْتمـع وشَرَائِحِهِ المُتَنَوِّعَـة؛ فهـي قضيّـةٌ جَامِعَـةٌ شَامِلَةٌ تَبْدَأُ مـن المنْزل في سنـوات التَّكْوين الأولـى، عُبُوراً بالمراحِـل والمُؤَسَّسَـات التّعْليميّة المُخْتلفة، ومُـرُوراً بمُخْتلف التّفاعُـلات الاجْتماعيّة والفِكْريّة والفعّاليّـات الحياتيّة والثّقافيّة، والْتِحاماً مع كُلِّ الوَسَائِطِ المُتَعَدِّدَةِ والمُتَجَدِّدَةِ في «دُنْيَا الإعْلام»، و«عَالَم الاتِّصالات». وفي هذا السِّياق، نجدُ أنّ «تَقْرير التّنْمية الإنْسانيّة العربيّة لعام ٢٠٠٢م» يُولِي هذا الجَانِـبَ تَرْكيزاً خاصّاً، حيث يَنُصُّ على أنّـه: (تتوقَّفُ قِيمَةُ المَعْرِفَة لأغْرَاضِ التّنْميـة على مدى تَطْبيقِهَا بفعّاليّةٍ، لذلك يَتَطَلَّـبُ السّعي لإقامة مُجْتمعٍ يقومُ على المَعْرِفَة وَضْعَ اسْتراتيجيّاتٍ «فوق - قطاعيّةٍ» تُحَقِّقُ التّكامُل بين اسْتيعابِ المَعْرِفَـةِ واكْتسابِهـا ونَشْرِهَا)[١٥]. وهكـذا يَتّضِحُ أنّ تَفْعيـلَ «الثَّقافة العِلْميّة» مَنُـوطٌ بجِهَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ مِثْل التَّعْليم والإعْـلام والمَنْظُومَاتِ المَدَنِيّة ومُؤَسَّسَاتِ القطـاع الخاصّ، ممّا يَنْتُجُ عنـه مُعَوِّقاتٌ على مُسْتوياتٍ مُخْتلفـةٍ من التّنْسيق والتّخْطيط والتّكامُل والتّنْفيذ والمُتَابَعَة.

٤) تَكْتَنِـفُ أنْشِطَـةُ «تَعْزِيـز العلوم وتَرْويجها» فـي «المُجْتمعات النّاميـة» مَجْمُوعَةٌ مـن المُعَوِّقَاتِ الفنيّة والتّنْظيميّة والإداريّة والتّمْويليّـة المُرْتَبِطَة بتَفْعيل برامِجِ «الإعْلام العِلْميّ»، ومن أبْرز العَقَبَاتِ في هذا الشَّأْنِ «نُدْرَةُ الكَوادِر البشريّة» التي تَجْمَعُ بين الكفـاءَةِ العِلْميّة والتَّمَرُّسِ الإعْلاميّ، والقَادِرَةِ على طَرْحِ موضوعات «الثَّقافة العِلْميّة» وصِيَاغَةِ أفْكَارِهَا وتَنْفيذِ برامِجها بطريقةٍ شَائِقَةٍ وفَعَّالَة.

٥) عُـزُوفُ أصْحَـابِ التّخصُّصـات العِلْميّـة عـن عمليّـة «التَّوَاصُـلِ الجماهيريّ» والمُشَارَكَـةِ في نَشْـرِ «الثَّقافـة العِلْميّة»، ومَيْلُهُـمْ إلى قَصْـرِ اهْتماماتِهم على الجَوانِبِ البَحْثيّـة أو التّعْليميّة أو التّدْريبيّة. وسَواءٌ كان هذا العُزُوفُ نَاجِماً عن اسْتِعْـلاءٍ أو عـدم قُـدْرَةٍ أو قُصُورٍ في فَهْمِ طبيعة هذا النَّـوْعِ من الجُهُودِ ومدى أهميّتـه، فإنّ الوَضْعَ - بشَكْلٍ عامٍّ - يَتَطَلَّبُ المُوَاجَهَةَ الواقعيّة والاهْتِمامَ الجَادَّ لاسْتِقْطَـابِ الكفـاءاتِ والمَواهِـبِ - مـن بين أصْحَـابِ التّخصُّصـات العِلْميّة - القَـادِرَةِ علـى الإسْهَـامِ فـي مجالات «الثَّقافـة العِلْميّـة» المُخْتلفـة. إنّ هذه المُفَارَقَةَ المُحْزِنَةَ تَجْعَلُنَا نَطْرَحُ السُّؤالَ الاسْتِنْكَارِيّ الذي طَرَحَهُ نورمان كامبل (Norman R. Campbell) عندما قال: (إنّ رِجَالَ العلوم يَشْكُون من القُصُورِ فـي اتِّسَاعِ اسْتِحْسَانِ المَعْرِفَةِ العِلْميّة بين النَّاس، ولكن ماذا يَتَوَقَّعُونَ إذا كانوا فقط يُقَدِّمُونَ للعَالَم العِظَامَ الجَافّةَ للمَعْرِفَةِ التي غَادَرَتْهَا «رُوحُ التَّنَفُّس»؟)[٩٣].

لا بُـدَّ - إذاً - أنْ يُـدْرِكَ المُشْتَغِلُـونَ بالتّخصُّصـاتِ العِلْميّة والتّقنيّـة، أنّ واجبهم يَقْتَضِي التَّوَسُّعَ في «النَّشَاطِ العِلْميّ» على مُسْتَوَيَيْن:

١) المُسْتوى الرَّأْسيّ: ويَتَمَثَّلُ في التّعَمُّقِ في تخصُّصاتِهم وتَطْوير مجالاتِهم.

٢) المُسْـتوى الأفقـيّ: ويَتَمَثَّـلُ فـي رَبْطِ هـذه التّخصُّصات بالمُجْتمـع، وتَبْسيطِ علومِهـم، وطَرْحِ قضاياهم واهْتماماتِهم للجُمْهُور، ومَنْحِهَا «رُوح التّنَفُّس» التي أشار إليها نورمان كامبل.

وفي هذا الصَّدَدِ يقول جلين سيبورج[٤٤]: (إنّ الجامعات يجب أنْ تُؤدِّي مُهمّةً أبْعد، فهـي يَنْبَغِي لها أنْ تتجاوز الوَاجِبَ المَحْـدُودَ بتَقْديم العِلْم المِهْنيّ للعُلماء لتتولّى مُعَالَجَةَ مُشْكلة تَعْليم المُواطنين وتَهْيئتهم لـ«عَصْرِ العِلْم»)، ويُؤَكِّدُ جلين سيبورج أنّ: (الحال الآن أكْثر من أيِّ حالٍ مضى يَفْرِضُ علينا أنْ نكون جَاهِزين لاسْتِخْدَامِ كُلِّ الوَسَائِلِ والوَسَائِطِ المُتَاحَةِ لنا لرَفْعِ المُسْتوى العامّ من الإدْرَاكِ العِلْميّ في الوطن).

٧-١٢) «الثّقافـة العِلْميّة»: العَامِـلُ المُهَيْمِنُ على شُرُوطِ التّأهيلِ لـ«مُجْتمع المَعْرِفة»:

لقـد أَصْبَحَ الرِّهَانُ اليوم هو على تَأْسيسِ «مُجْتمع المَعْرِفَة» وتَطْويره، ولكن لن يَتِمَّ ذلك اعْتِبَاطـاً أو ارْتِجَالاً أو بحركات بَهْلوانيّةٍ دِعائيّةٍ، فـ«التَّحَوُّلاتُ الكُبْرى» في التّاريخ لا تَتَحَقَّـقُ إلاّ إذا ظَهَرَتْ مُوَاصَفَاتٌ تُؤَهِّلُ لهذه التَّحَـوُّلات؛ ولا يُمْكِنُ اسْتِبَاقُ نَتَائِجَهَا قبْل أنْ تَكْتَمِلَ مُقَدِّمَاتُهَا، وتَتَوافَقَ مُكَوِّنَاتُهَا، ويَتَوَفَّرَ مُنَاخُهَا.

هـذه الحقيقةُ الحَاسِمَةُ تَسْتَدْعِي التَّعَرُّفَ على شُـرُوطِ التَّأهيل لـ«مُجْتمع المَعْرِفَة» (انظـر: الفَصْلَيْـن السّادس والثّامن)، وأمّـا العملُ نحو تَحْقيقِ هـذه الشُّرُوطِ فيجب أنْ يَكْتَسِـبَ جِدِّيَّةً في الطَّرْحِ، وعُمْقاً في الدَّلالاتِ، وفَهْمـاً لطبيعةِ الإشْكَاليّة، وقد أَجْمَلْنَا[٧٨] هذه الشُّرُوطَ في أرْبعة شُرُوطٍ، وهي:

١) الشَّرْطُ المَعْرِفيّ. ٢) الشَّرْطُ الاجْتماعيّ.

٣) الشَّرْطُ الثّقافيّ. ٤) الشَّرْطُ اللُّغويّ.

إزاء هـذه الشُّرُوطِ اللازِمَةِ للتّأهيلِ لـ«مُجْتمع المَعْرِفَة»، فإنّ من المُهِمّ أنْ نَسْأَلَ إنْ كان هناك عَامِلٌ فَاعِلٌ يُهَيْمِنُ على تلك الشُّرُوطِ، ويَضْمَنُ تَحَقُّقَهَا؟. وبالتّأَمُّلِ الدّقيقِ نجدُ أنّ «الثَّقافة العِلْميّة» هي ذلك «العَامِلُ المُهَيْمِنُ»، حيث أنّها:

- هـي القَادِرَةُ على تَأْسيسِ «الشَّرْط المَعْرِفيّ» وتَنْميته، وتوليدِ الحماس له، وهي التـي تُرْسِي مُقْتضيـاتِ «إدارة المَعْرِفَة»؛ بمَعْنَى أنّ ما تَمْتَلِكُـهُ المُؤَسَّسَاتُ من مَعْرِفَـةٍ يجب أنْ يُوَثَّق، ثمّ يُنْتَج، ثـمّ يُعَمَّم، ليُسْتَغَلَّ في مُخْتلفِ برامِجِ الإصْلاح والتّطويـر والتّطبيق والإنْتاج فـي عمليّةٍ تَرَاكُميّةٍ سَلِسَةٍ تَعْضُـدُ بها المُؤَسَّسَاتُ بعْضها بعْضاً، وهذا يَقَـعُ في صُلْبِ ما تُرَسِّخُـهُ «الثَّقافةُ العِلْميّـةُ» من شُرُوطِ «التَّوَاصُـلِ العِلْمـيّ» و«التَّرَاكُـم المَعْرفيّ» و«الشَّفَافيَـةِ الكَامِلَـة» وتَقْديرِ قِيمَةِ «العمـل الجماعيّ»، وذلك بمَنْأىً عن النَّسَـقِ المَعْرُوفِ في العَالَمِ العربيّ حيث يَحْتَفِظُ كُلٌّ بما لديه، و«كُلٌّ يُغَنِّي على ليلاه».

- هـي القَـادِرَةُ علـى تَحْقيـقِ «الشَّـرْط الاجْتماعـيّ» عبْـر الانْتِشَـارِ المُجْتمعيّ لـ«المَعْرِفَـةِ المُعَاصِرَةِ» فهي الأداةُ الفَعَّالَةُ لتَحْقيقِ امْتدادات «مُجْتمع المَعْرِفَة» - أفقيّـاً ورأسيّـاً - للوصـول إلـى «العُمْـقِ المُجْتمعـيّ»؛ لتكـون بذلـك بمَثَابَةِ المَرْكَبَـةِ القَـادِرَةِ على توصيـلِ حُمُولَتِهَـا العِلْميّة بكفـاءَةٍ إلى مُخْتلـفِ مَواقِعِ المُجْتمع وشَرَائِحِه.
- أمّـا «الشَّرْطُ الثَّقافيّ»، فإنّه يَفْقِدُ فَاعِليّته إذا لـم تَتَأَصَّلْ «الثَّقافةُ العِلْميّةُ» في ثنايـاه وطيّاتِـه لأنّ «مُجْتمع المَعْرِفَة» هو «حالةٌ مُجْتمعيّـةٌ» لا تَتَأَصَّلُ ولا تَسْتَقِرُّ إلاّ عندمـا تتوافرُ شُرُوطُ «مُنَـاخٍ عِلْميٍّ» عامٍّ؛ فقضيّـةُ «توطين التّقنية» - على سبيـل المِثال - تُرَاوِحُ مكانها في العَالَمِ العربـيّ؛ لأنّها تَوَقَّفَتْ عند شَكْلٍ وَاحِدٍ مـن أشْكَالِهَا وهـو «عمليّةُ الاسْتِيـرَادِ» والاسْتِهْـلاكِ، ولم تَسْتَوْعِـبْ «التَّجْربة العربيّـة» طبيعة هذه القضيّة التي يرى أرغيري إيمانويل أنّها عمليّةٌ ذات ثلاث مراحِـل: «مَرْحَلَـةُ الاسْتِيـرَادِ»، و«مَرْحَلَةُ الاسْتِيعَـابِ»، ومن ثـمّ «مَرْحَلَةُ خَلْقِ التِّكنولوجيا» وهي مَرْحَلَةٌ لا يُمْكِنُ أنْ تكون إلاّ: (مَرْحَلَةً مَشْرُوطةً بتقدُّمٍ مُسْبَقٍ علـى الصَّعيدَيْن الاجتماعيّ والثَّقافيّ يكونُ من الأهميّة بحيث يُشَكِّلُ في الوَاقِعِ قَفْزَةً نَوْعِيّةً بالنِّسْبَةِ للمَرْحَلَةِ الثّانية..أَيْ مَرْحَلَةِ الاسْتِيعَاب)[٢٢].
- أمّـا «الشَّرْطُ اللُّغويّ»، فإنّه يَضْرِبُ في أطْنَابِ «الثَّقافـة العِلْميّة»، ويَتَمَدَّدُ على ساحاتِهـا بصُنُوفِهَا وفُرُوعِهَا وجماهيرِها المُسْتَهْدَفَةِ؛ لتكون «الثَّقافةُ العِلْميّةُ» هـي الحَامِلَـةُ لنَبْضِ «اللّغَـةِ الأُمّ»، فتتفاعلَ - فـي سُهُولةٍ ويُسْـرٍ - مع مُخْتلف الشَّرائِـح والقطاعات لدَمْـجِ المُجْتمع مع العَصْـرِ ومُسْتَجِدَّاتِـهِ ومُصْطَلحَاتِهِ ومفاهيمِه ومُتَغَيِّرَاته.

بإيجـازٍ نقـولُ: إنّ «الثَّقافةَ العِلْميّـةَ» «ثقافةٌ تَمْكِينِيّـةٌ» تقومُ بدَوْرٍ رئيسٍ في عمليّة التَّمْييـز بيـن الجيِّدِ والـرَّديء، والفَرْزِ بيـن الحَسَنِ والسَّيـئ، ورَبْطِ المُجْتمـع بعَصْرِه، وتَمْكينِـهِ مـن الفُرَصِ للانْطِلاقِ في آفـاقِ الابْتكار والتّطوير والإبْـداع؛ وهي القَادِرَةُ على

ضَبْـطِ اتِّجَاهِ «بَوْصَلَةِ الحَرَاكِ الثَّقافيّ» نحـو «الفَاعِليّة الاجْتماعيّة». يُمْكِنُنَا - أيضاً - أنْ نقـولَ إنّ «الثَّقافـةَ العِلْميّة» تَكْمُنُ في قَلْـبِ «الحياة المُعَاصِرَةِ» بـكُلِّ تفاعُلاتِها وأشْكَالِهَا وتداخُلاتِهـا ومُؤَثِّرَاتِهَـا، ولـذا فلعـلَّ الشِّعَـارَ الأكْثـر مُوَاءَمَةً لوَاقِعِ «الأَلْفيّـة الثّالثة» هو: («الثَّقافةُ العِلْميّةُ» هي الطَّريقُ للتّأْهيلِ لـ«مُجْتمع المَعْرِفَة»).

إنّني أَزْعُمُ أنّني لا أَعْرِفُ قضيّةً عليها إجْمَاعٌ عامٌّ بين مُخْتلف الفِئَاتِ في «المُجْتمعات العربيّـة» مِثْل قضيّة «مَرْكزيّة الحركة العلْميّة»، وحتميّتها في حيـاة الأُمّة، إلاّ أنّ القَنَاعَةَ بـدَوْرِ «الثَّقافة العِلْميّة» في تَعْميقِ هذه «الحركـة»، وتَطْويرها، وتوطيدِ مُنْطلقاتِها، تَحْتَاجُ إلـى جُهُودٍ كبيرةٍ للتّأْصيلِ والتّعْزيز، كما أنّ أنْصَارَ هـذا التَّوَجُّهِ قَلائِلٌ على صعيد الفِعْلِ والتّخْطيطِ والانْخِرَاطِ في تَجَلِّيَاتِهِ المُخْتلفة.

وفي ضوء كُلِّ تلك الهُمُومِ، من رُؤىً وأهْدافٍ ومُقَوِّماتٍ ومُعَوِّقَاتٍ، يَنْبَغِي لنا أنْ نَتَوَقَّفَ أمـام الوَسَائِلِ القَـادِرَةِ على إحْدَاثِ تلك «النَّقْلَـةِ النَّوْعِيّة» اللّازِمَةِ لنَشْـرِ «ثقافة العِلْم»، وبَـثِّ «رُوح العَصْرِ»؛ للتَّغَلُّبِ على «إشْكَاليّة التّنْمية» عبْر تَفْكيكِ «المُعْضِلَة الثَّقافيّة»، وهما - مُشْتَرِكَتَـانِ - تُمَثِّـلانِ - فـي رأْيي - الهَمَّ الأكْبر فـي مُشْكلاتِنا النَّهْضَويّـةِ، وتطلُّعاتِنا التّنْمَويّـةِ، وتفاعُلاتِنا الحياتيّة؛ ولذا فـإنّ الفَصْلَ التّالي يَهْتَمُّ بالوَسَائِـلِ الكفؤة القَادِرَةِ على إحْدَاثِ تلك «النَّقْلَةِ النَّوْعِيّة».



الطَّرِيقُ إلى تَعْزِيزِ «الثَّقَافَة العِلْمِيَّة»

٨-١) مَدْخَل:

لـن يكون الخُرُوجُ سَهْلاً من شَرْنَقَـةِ «ثقافة الكلام والإنْشائيّات والجَدَلِ» التي تُغَلِّفُ أبْعَادَ «الثَّقافة العربيّة»، وتُسَيْطِرُ على أُطْروحاتِها في صِراعٍ يُحِيطُ به الغُمُوضُ والتّعْميم، وتُهَيْمِـنُ عليه الأساليـبُ البلاغيّة، والحماسُ الوِجْدانيّ، والانْفعـالاتُ الآنيّة؛ ولن يَتَحَقَّقَ مِثْـلُ ذلـك الخُرُوجِ بين يـوم وليلةٍ، ولكنّه سيكون بالضّـرورة نِتَاجَ تَرَاكُمَـاتٍ مُتَنَوِّعَةٍ على مـدى عُقُودٍ من الجُهْـدِ والمُثَابَرَةِ والتّأْصيل؛ ولذا فإنّ الطّامحين إلـى إيجاد حُلُولٍ سَهْلَةٍ وسريعـةٍ سيُصَابُـونَ بخَيْبَةِ أملٍ، وهي ذات الخَيْبَةِ التي هَيْمَنَتْ علـى «مُحَاوَلاتِ النّهْضَةِ» و«برامـج التّنْميةِ» على مدى قَرْنَيْن. لقد جَرَّبَتْ «المُجْتمعـاتُ العربيّةُ» كُلَّ شيءٍ في مُتُونِ الـكلام وشُرُوحاتِ الجَدَلِ، كمـا جَرَّبَتْ الانْقِلابَاتُ والثّـوْرَاتُ بأنْوَاعِهَا، ولكنّها لم تُجَرِّبْ بعْد تلك «الثَّقافة» التي اسْتَطَاعَتْ أنْ تُحَقِّقَ لـ«المُجْتمعات المُتَقَدِّمَة» مجْدَهَا وإنْجازاتِها، ألا وهــي «الثَّقافة العِلْميّة»؛ فتجـارِبُ «المُجْتمعات العربيّة» ومُحَاوَلاتُهَـا، لتوطينِ التّقْنية ونَقْـلِ العلوم، والوُلُوجِ إلى عَالَمِ الكِبَـارِ إنْتاجاً وإسْهَاماً في «الحركـة العِلْميّة – التّقنيّة»، تَتَفَرَّعُ في كُلِّ اتِّجَاهٍ، ولكن لا يُمْكِنُ لها أنْ تَتَحَقّقَ في فَرَاغٍ لأنّه لا بُدَّ لها من «وَسَطٍ» يَدْعَمُ مُقَوِّمَاتِهَـا، ويُكَيِّفُ صُوَرَهَا، ويَضْبِـطُ اتّجاهاتِها، ويُغَذِّيهَا بالعُقُـولِ والمَواهِبِ، ويَسْنُدُهَا بالسّياساتِ والقرارات.

إنّ قضيّةَ «الثَّقافة العِلْميّة» قضيّةٌ جَامِعَةٌ شَامِلَةٌ، تَبْدَأُ من المنْزل في سنوات التَّكْوين المُبَكِّـرَة، عُبُوراً بالمراحِل والمُؤسَّسَات التّعليميّـة المُخْتلفة، ومُرُوراً بمُخْتلف التّفاعُلاتِ الاجْتماعيّـة والفِكْريّـة والفَعَّاليّاتِ الحياتيّـة والثّقافيّة، والْتِقَـاءً بكُلِّ الوَسَائِـلِ المُتَعَدِّدَةِ

والمُتَجَـدِّدَةِ فـي «عَالَمِ الاتِّصالات». من ذلـك المُنْطَلَقِ فإنّ النَّظرَ إلـى الوَسَائِلِ الكفيلةِ بنَشْـرِ «الثَّقافة العِلْميّة» في أرْجَـاءِ المُجْتمع، وتَأْصيلِها في الفِكْرِ والسُّلُوك، وتَعْزيزِهَا في مَظَاهِـرِ الحيـاة المُخْتلفة، يُصْبِحُ أمْراً لا مناص منه إذا كنّـا جَادِّين في «عمليّة التَّنْمية» وحريصين على «مَشْرُوعِ النَّهْضَة».

وأمّـا وَسَائِلُ تَعْزيزِ «الثَّقافة العِلميّة» ونَشْرِهَا في المُجْتمع فتَتَنَوَّعُ وتَتَعَدَّدُ (٣٤)؛ فمنْها الجمعيّـات والهيئـات العِلْميّة، والمطْبُوعـات بأنْواعِهـا، والمتاحِف والمعارِض العِلْميّة، والنّـوادي العِلْميّـة، والرّحْلات العِلْميّـة، والمُحاضرات والنّـدوات العامّة، وغير ذلك من وَسَائِـطِ «التّفَاعُـلِ الاجْتماعيّ». أمّا أبْرز تلـك الوَسَائِطِ وأكْثرها فعّاليّـةً فهما: «التَّعْليم» و«الإعْـلام»، والمَقْصُودُ بـ«الإعْلام» هنا نَوْعَاهُ: «التَّقْليـديّ» و«الجديد»؛ وأمّا قناةُ توصيل «الثَّقافـة العِلْميّـة» إلى «التّعليم» و«الإعْلام»، فهـي «التَّرْجَمَةُ والتَّأليـفُ العِلْميّ». وعندما نَقِـفُ - بقَدْرٍ مـن الإسْهَابِ - أمام هذا «الثُّلاثـيّ الحيويّ» من وَسَائِطِ «نَشْـرِ المَعْرِفَة»: (التَّعْليـم - الإعْـلام - التَّرْجَمَة والتَّأليـف العِلْميّ)، فإنّ ذلك يعودُ إلى مـا يَتَمَتَّعُ به هذا «الثُّلاثـيّ» من فَعّاليّـةٍ عَالِيَةٍ وتَأْثيـرٍ كبيرٍ في تَهْيئةِ «البِيئـة الثّقافيّة والفِكْريّـة والعِلْميّة» لـ«إنْتَـاجِ المَعْرِفَة» وتَطْويرِهـا، ولتَأْسيسِ «مُجْتمع المَعْرِفَة»؛ ولـذا سنَتَطَرَّقُ فيما يلي إلى هذا «الثُّلاثيّ الحيويّ» ونَسْبُرُ بعْض أغْوَارِهِ وتفاصِيلِه.

٨-٢) وسائِل تَعْزيز «الثّقافة العِلْميّة»:

٨-٢-١) التّعْليم:

لـم يَعُدْ سِـرّاً أنّ التَّحدِّي الأكْبر أمام «قضيّـة التّنْمية» هو «تَحَـدٍّ مَعْرفيٍّ»، ولم تَعُدْ القضيّةُ في حاجةٍ إلى جُهْدٍ كبيرٍ لكي نُدْرِكَ أنّ «العلوم والتّقْنية» هي المَدْخَلُ إلى مُوَاجَهَةِ ذلـك «التَّحَـدِّي»، والتَّعَرُّفِ علـى أدواتِه، والتّغلُّبِ علـى صِعَابِه؛ وليس سِـرّاً - أيضاً - أنّ «التّعْليم» - بأشْكَالِهِ وأنْمَاطِهِ ومُسْتوياتِه المُخْتلفة - يُمَثِّلُ «حَجَرَ الزَّاوية» في هذا «التَّحَدِّي المَعْرفـيّ». وتَزْدادُ أهَميّةُ «التَّعْليـم» كُلّما قطعنا مراحِلَ أكْبر على طريق «الأَلْفيّة الثّالثة»؛

فـ«التَّعْليـمُ المُسْتَمِرُّ مدى الحياة» هو من أبْرز معالِم «مُجْتمع المَعْرِفَة»، كما أنّ «التّفْكير» و«حَـلّ المُشْكلات» هما (الأساسان الجديدان للتّعْليم في القَرْنِ الحادي والعشرين)[٩٩]. وفـي هذا الإطَـارِ يُؤكِّدُ صوما بوجـودة[٩٩] أهميّـة: (أنْ نَتَخَلّى عن الفِكْـرَةِ التي ترى أنّ باسْتطاعتنا أنْ نُعَلِّمَ طُلّابَنَا «التّفْكير» دون أنْ يكون لديهم أساسٌ قويٌّ من «المَعْرِفَة»، كما يَنْبَغِي أنْ نَتَحَرَّرَ من الاعْتقاد السّائِدِ بأنّه يُمْكِنُ تَدْريسُ «المعْرِفَة» دون حَمْلِ الطُّلّابِ على «التَّفْكيـر»؛ فـ«المَعْرِفَةُ» و«التَّفْكيرُ» توأمان مُتلاصِقَانِ، ولذا يجبُ علينا إتِّبَاعُ منْهج تَرْبويّ يقـومُ على إعْطَاءِ الطُّلّاب المفاهيم المِحْوَرِيّة ومُسَاعَدَتِهـمْ على إتْقَانِهَا والتَّفْكيرِ بها)، ومِثْـلُ هذه الرُّؤيـة - في رأيه - تَسْتَدْعِـي: (تَمَثُّل مَبَاحِث «الثَّقافة العِلْميّـة» في أيِّ مَنْهَجٍ للعلـوم). ولذا فإنّـه لا يُمْكِنُ تَحْقيقُ «النَّقْلَـة النَّوْعيّة» المَطْلُوبَةِ لطَرْقِ أبْـواب هذا «المُجْتمع الجديد» إلاّ عبْر تَعْليم جَادٍّ يَهْتَمُّ بـ«توظيف المُنْتَج التّعْليميّ في خِدْمَةِ المُجْتمع» عبْر اسْتيعاب عَنَاصِـرِ «الثَّقافـة العِلميّـة» ومُقَوِّمَاتِهَا، وتوسيع رُقْعَـةِ «التَّفاعُلِ العِلْميّ» عبْـر إقْرَارِ البرامِج والأنْشِطَةِ والمُقَرَّرَاتِ العِلْميّةِ المُنَاسِبَةِ لكُلِّ الدَّارسين في مُخْتلف المراحِل الدّراسيّة.

لا بُدّ من الاعْتِرَافِ بأنّ «ثقافة الإنْشائيّاتِ والجَدَلِ والكلاميّاتِ» وأساليب «الاسْتِظْهَارِ والاجْتِـرَارِ والتَّلْقين» قد تَغَلْغَلَتْ فـي «النِّظَامِ التَّعْليميّ» في «المُجْتمعات العربيّة»؛ وقد تَهُونُ القضيّـةُ، وتَسْهُـلُ طُـرُقُ العِلاجِ، لو أنّ هـذا الأَمْرَ بَقِيَ فـي حَيِّزِ التّرْكيزِ علـى «الدِّراسات الإنْسانيّـة»، والتّسْليـمِ غيـر المُبَـرَّرِ بأولويَّتِهَـا علـى غيرها مـن «العلوم الحديثـة»، ولكن المُشْكلة أَدْهَى وأَمَرّ، فقد أَفْلَحَتْ «الثَّقافةُ العربيّةُ» في تَحْويلِ «العلوم الحديثة» ومناهجِها، وطُـرُقِ تَدْريسِهَا، ومعاييـرِ تَنْفيذِهَا، ووَسَائِلِ تَقْييمِهَا، إلى مُجَـرَّدِ «عُلوم نظريّةٍ» تَكْثُرُ فيها الشَّكْليَّاتُ، وتُهَيْمِنُ عليها «ظَاهِرَةُ الاسْتِظْهَارِ»، وتَنْعَدِمُ وَسَائِلُ التَّجْرِيبِ، وتَتَقَطَّعُ بها السُّبُلُ عـن طَرَائِـقِ «التّفْكير العِلْميّ». وهكـذا تَمَكَّنَتْ «المَوَاهِـبُ العربيّةُ!» مـن وَأْدِ تَعْليم «العلوم والتّقْنية» عندما مَسَخَتْهَا عن صُورتِها الحقيقيّةِ - فِكْراً ومَنْهَجاً وتَعَلُّماً ومُمَارَسَةً -، وجَعَلَتْ منهـا مُجَرَّدَ شَـكْلٍ آخَر من أشْكَالِ «الدِّراسـات الإنْسانيّة»، علـى الرّغم من الاخْتلافات الجوهريّـة بينهما في المعاييـرِ والمَنْهَـجِ والأدواتِ والتّفْكيرِ والتَّحْفيزِ وطُـرُقِ المُمَارَسَةِ والعمـل. وهكذا بَقِيَتْ مُعْظَمُ إشْكَالاتِنَا التّعْليميّةِ تَصُـبُّ في خَانَةِ «الثَّقافة» التي لم تَتَعَلَّمْ

كيف تَضَعُ المعايير الدّقيقة، وتُطَوِّرُ المَنْهَجِيّةَ العمليّة؛ وغَابَتْ عنها تلك «العَقْلانيّةُ» التي تَهْتَمُّ بموازين صَارِمَةٍ، وتتعاملُ مع «رُوحِ العصْرِ» وخَصَائِصِهِ المُمَيِّزَة.

إنّ البَحْـثَ عن «نُقْطَةِ التَّوَازُن» في «البَنْـدُولِ الفِكْريّ» للعَالَم العربيّ يعودُ إلى قُرُونٍ طويلـةٍ مَـرَّتْ بها الأُمّـةُ، سَيْطَرَتْ فيهـا الاضْطِرَابَاتُ الفِكْريّـةُ، والتَقَلُّبَـاتُ الاجْتماعيّةُ، والإخفاقـاتُ السياسيّةُ، والهزائِمُ العَسْكريّةُ، ويَبْقَى «التَّحَـدِّي» في أقْسَى أشْكَالِه، ونحن نَدْلِـفُ إلـى العُقُودِ الأولى مـن «الأَلْفيّـة الثّالثة». ومن الوَاضِـحِ – انْطلاقاً مـن الطّبيعةِ المَعْرفيّـةِ لهذا العَصْـرِ – أنّ «نُقْطَةَ التَّوَازُنِ» لن تَتَحَقَّقَ إلاّ فـي «وَسَطٍ تَعْليميٍّ – مَعْرفيٍّ» كثيفٍ تقومُ فيه «الثَّقافةُ العِلْميّةُ» بدَوْرٍ مِحْوَرِيٍّ بَارِزٍ، بحيث تَتَمَكَّنُ – عبْر أدواتِها الرّصينة وتفاعُلاتِهـا المُنْضَبِطَةِ ومُبادراتِها الحيويّة – من تَطْويرِ «تجارِب تَنْمَويّةٍ» تَصْنَعُ أَسْئلتَها، وتُبَلْـوِرُ إجاباتِهـا، وتُوَاجِهُ تحدّياتِها، وتَبْنِـي عُقُولَهَا في «مُجْتمع المَعْرِفَـة» المُنْطَلِقِ دون تَوَقُّفٍ، والمُتَسَارِعِ دون انْتِظَار.

إذاً يَنْبَغِـي أنْ نصـوغَ أولويّات تَعْليمنا وفْق «رُوحِ العَصْـرِ» – في وضوحٍ وجِدِّيّةٍ –نحو التّوَافُـقِ مع «مُجْتمع المَعْرِفَة»، والتَّواؤم مع شُرُوطِـهِ ومُقْتضياته، وبذلك نَضَعُ «الحِصَانَ أمـام العَرَبَـةِ» لنَقْضِي علـى العَوائِقِ المُسَبِّبَـةِ لتَعْطيلِ «التّنْميـة» وتوليدِ «البَطَالَـة» ووَأْدِ «الإنْتاجيّة»، ولتَتَحَرَّكَ القَافِلةُ – بعُنْفُوانٍ وحيويّةٍ – حَامِلةً كُلّ مضامينِها من عُلومٍ إنْسانيّةٍ واهْتمامـاتٍ اجْتماعيّـةٍ وطُمُوحَاتٍ تُعانِقُ سمـاء «الأَلْفيّة الثّالثة»؛ ومِـن المُهِمِّ – في هذا السِّيَاقِ – أنْ نُراعِي أبْعَادَ ما طَرَحَهُ كِتَابُ «العِلْمُ لكُلِّ الأَمْريكان» بأنّ: (ما يُخَبِّئُهُ المُسْتَقْبَلُ للأَفْرَادِ من البشر وللأُمّة وللعَالَم يَعْتَمِدُ بشَكْلٍ كبيرٍ على الحِكْمَةِ التي يَسْتَخْدِمُ بها البشرُ العِلْـمَ والتِّكْنولوجيا. وهذا، بدَوْرِهِ، يَتَوَقَّفُ على طَابَعِ وتوزيعِ وفَعَّاليّةِ «التَّعْليم» الذي يَتَلَقَّاهُ النّاس)[٩٤]. من هذا المُنْطَلَقِ فإنّ اخْتِرَاقَ «الثّقافة العِلْميّة» لـ«النِّظَام التّعْليميّ»، وتَغَلْغُلِهَا فـي نسيجه الإداريّ والمَنْهَجيّ والتّخْطيطيّ والتّجْهيزيّ، شَرْطٌ لا مناص منه إنْ كنّا نُريدُ فِعْـلاً الوُلُوجَ – باقْتِدَارٍ – إلى «مُجْتمع المَعْرِفَـة» الذي يَضَعُ شُرُوطاً قَاسِيةً على الرّاغبين في الانْضمام إليه (انْظر: الفَصْل السّادس)، وعلى رَأْسِهَا «الشَّرْطُ الثّقافيّ» المُتَمَثِّلُ في مُخْرَجَـاتٍ قَادِرَةٍ على تَمَثُّـلِ «رُوحِ التّنْمية»، والتّفاعُلِ مع «العَصْـر»، واسْتيعابِ مُعْطياته، وتَطْويعِ إيجابيّاته، وتَقْليصِ سَلْبيّاته.

٨-٢-١- أ) الأولويّة التي لم تَنْضَجْ في «اسْتراتيجيّات التَّنْمية» في العَالَم العربيّ:

لـن نَأْتِـيَ بجديدٍ عندما نقولُ إنّ «التَّعْلِيـم» يَقَعُ على قِمَّة هَـرَم الأولويّات في نَهْضَةِ الأُمـم، ولكـن المُهِمّ أنْ تكون هذه الحقيقـة هَاجِساً دَائِماً، فلا تَغْفَـلُ عنها العَيْنُ لَحْظةً، وهذا مـا أَدْرَكَتْهُ «الدُّولُ المُتَقَدِّمَـةُ»، فكان هَاجِسُهَا الدّائِمُ هو أحْـوالُ «التَّعْليم» ومعاييرُ تَقْويمِه وأدواتُ قِياسِه، وبالذّات فيمـا يَتَعَلَّقُ بمجالاتِ «الرّياضيّات» و«العلوم» و«التّقْنية»؛ فـ«المُجْتمـعُ المُعَاصِـرُ» مُجْتمـعٌ يَرْقَـى بهذه العلـوم، ويَنْمُو عبْـر تفاعُلاتِهـا المُجْتمعيّة والإنْتاجيّـة والبَحْثيّـة والفِكْريّة، وتَنْدَثِرُ إمْكاناتِه عندما يَضْمَحِـلُّ تَأْثيرُ «العلوم الحديثة» في مُؤَسَّسَاتِه التّعْليميّة والبَحْثيّة والثّقافيّة والاقْتصاديّة والإعْلاميّة.

تلـك بدهيّاتٌ أَدْرَكَتْهَا «الأُمَمُ المُتَقَدِّمَةُ»؛ فكانـتْ تَرْتَعِدُ فَرَائِصُهَا عندما تَشْعُرُ بأنّ تَعْليمها يتراجع؛ فأَطْلَقَتْ أمريكا صَرْخَةً مُدَوِّيَةً بشَأْن «التَّعْليم» في الخمْسينات من القَرْنِ الماضي عندمـا انْطلق القَمَرُ الرُّوسيّ الأوّل (سبوتنيـك) ليُمَثِّلَ تحدِّياً خطيراً لإمْكانات أمريـكا العِلْميّة والتّقنيّة، وارْتَجّتْ أَرْجاءُ أمريكا مَـرَّةً أُخْرى في مُنْتَصَفِ الثّمانينات من القَـرْنِ ذاته عندمـا شَعَرَتْ بتدهْورِ «التَّعْليـم» في مجالَيْ «الرّياضيّـات» و«العلوم» لتَشْرَعَ فـي برنامجٍ شَامِلٍ شِعَارُهُ «أُمّةٌ في خَطَـرٍ»؛ لتُوَظِّفَ في هذا البرنامج خيرة العُقُولِ، وأقْدر الكفاءات، وأفْضل الإمْكانات. وهذا ما يُؤَكِّدُهُ مُؤَلِّفو كِتَاب «العِلْمُ لكُلِّ الأَمْريكان» بقولهم: (لـدى الطُّلّاب فـي المدْرسة الابْتدائيّة اهْتمـامٌ عَفَويٌّ بالطّبيعة والأرْقـام. وبالرّغْم من ذلـك فإنّهم يَتَخَرَّجُونَ في المدْرسة خَائِفين من الرّياضيّات وكَارِهين للعلوم بحُجَّةِ أنّهما مُمِـلّان للغاية ومـن الصّعْبِ تعلُّمهما. إنّهـم يرون «العِلْمَ» فقط كنشـاطٍ أكاديميٍّ، وليس كوسيلة لفَهْمِ العَالَمِ الذي يعيشون فيه. إنّ عَواقِبَ هذا النُّفُورِ وخيمةٌ، لأنّها تَعْنِي أنْ تكون حياة أعْدادٍ كبيرةٍ من الطُّلّابِ مَحْدُودَةً، وأنْ يكون مُجَمَّعُ المَواهِبِ للأُمّة الذي يُجْلَبُ منه العُلماءُ وعُلماءُ الرّياضيّات والمُهندسون أصْغر ممّا يَنْبَغِي)[٩٤].

مـن هذا المُنْطَلَقِ، تكـون المَسْؤوليّةُ المُلْقَـاةُ على عَاتِقِ «المُجْتمعـات العربيّة» هي الأضْخَـمُ في دَلالاتِهَا، والأشَدُّ فـي تفاصيلِها، والأعْقَدُ في مُتَطَلَّبَاتِهَا؛ ففي نهاية المطاف

لا يُمْكِـنُ أنْ يَخْتَلِفَ عَاقِلان على أنّ «التَّعْليم» هو الـذي يُؤَسِّسُ للعُلماء والأطبّاء والقُضاة والمُهندسيـن وأساتـذة الجامعـات وغيرهم من فِئَـاتِ المُجْتمـع وشَرَائِحِـهِ المُخْتلفة، والبَاحِـثُ الجَادُّ يُـدْرِكُ أنّ أيَّ خَلَـلٍ يُصِيبُ المُجْتمع هـو في الأساس خَلَلٌ فـي التّعْليم»، وهـو أيضاً خَلَلٌ في «الثَّقافـة» لأنّه لا تَخْفَى على لبيبٍ درجةُ التّفاعُلِ القويّ بين «التَّأْسيسِ الثَّقافيّ» الصّحيح، و«خُطَطِ التَّعْليم» الفَاعِلَة.

مـن المُؤسِف أنّ «المُجْتمعات العربيّة» لـم تُفْلِحْ في صِيَاغَـةِ «إسْتراتيجيّةٍ مُتكَامِلَةٍ للتّعْليـم» – ذات أهْـدَافٍ قَابِلَةٍ للقِياس ومُرْتَبِطَةٍ بـ«عناصِر التَّنْميـة» – تَسْتطيعُ أنْ تَجْتَاحَ خلايا تلـك المُجْتمعات في «رُؤيةٍ تَنْمَويّةٍ» تتعاملُ مع «مُقْتضياتِ التَّنْمية» و«عُلومِ العَصْرِ» و«أَخْلاقِيّاتِ العمل» و«مُقَوِّمَاتِ الإنْتاج». لقد راحتْ هذه المُجْتمعاتُ تَغْرَقُ في إنشائيّاتٍ لا طَائِـلَ من ورائها، ومُؤتمراتٍ تَنْفَضُّ لتَنْعَقِدَ في طُرُوحَاتٍ فَضْفَاضَةٍ تَلْفِظُهَا «رُوحُ التّنْمية» التـي تُـدْرِكُ أنّ مَنْشَـأَ مِثْل تلك الطُّرُوحَـاتِ هو «فَـرَاغٌ تَعْليميٌّ»، وعدم فَهْـمٍ لخَصَائِصِ «التَّنْميـة». لـو انْشَغَلَ الجميـعُ بالبرامِجِ الفَاعِلَـةِ في السّعْـي لضَخِّ «إكْسِيـرِ التَّنْمية» في المُخْتبرات والمكْتبات، وتَطْويرِ المهارات والأنْشطة اللّاصفيّة، والمُرَاجَعَاتِ الموضوعيّة فـي التّطْويـرِ والتّقْويم، واسْتيعابِ مُقَوِّمَاتِ «التّفْكير العِلْمـيّ»، لما كان لدى أحد ما يَكْفِي مـن الوَقْت للدُّخُولِ في سِجَـالاتٍ تُكَرِّرُ نفْسها وتَجْتَرُّ مُعْطياتِها، ولا تُفْلِحُ في تَأْسيسِ «رُؤىً تَنْمويّةٍ – عِلْميّةٍ» تَتْرك بَصَمَاتِهَا المُتَرَاكِمَةِ على «التَّعْليم» و«المُتَعلِّمين».

ومن المُشْكلات التّعْليميّة المَلْمُوسَةِ في «خُطَطِ التَّعْليم» وجود «فَجْوَةٍ» تَزْدَادُ اتِّسَاعاً بيـن تَعْليم «العلوم» وطُـرُق تَعَلُّمِهَا، وبين الاسْتيعاب الحقيقيّ لهـذه العلوم، بحيث تُصْبِحُ مُرْشِـداً ومُوَجِّهاً في التّفْكيرِ والقـراراتِ والمُمَارَسَات، ولا يُمْكِـنُ تَحْجيمُ هذه «الفَجْوَة»، وتَقْليصُ سَلْبيّاتِهَا، إلاّ عبْر رَبْـطِ «التّعْليم» بـ«ثقافةٍ عِلْميّةٍ» حيويّـةٍ؛ فـ«التّعْليمُ» يَنْبَغِي أنْ يكون أداةً لتَطْويرِ «ثقافة المُجْتمع»، ورَفْعِ درجة وَعْيه، لأنّه البوابّة الرّئيسة التي يَعْبُرُ منها مُعْظَـمُ المُوَاطِنين – إنْ لم يكنْ كُلُّهم –، ويُعْتَبَرُ «النِّظَامُ التَّعْليميُّ» هو «النَّاقِلُ الاجْتماعيّ للمَعْرِفَـة»(٩)، حيـث إنّ: (المدْرسـة تَلْعَـبُ دَوْراً لا يُمْكِـنُ تجـاوزُه كمكانٍ لتَعَلُّـمِ المَعْرِفَةِ والثَّقافة العِلْميّة)(٨٣).

كُلُّ ذلـك يَعْنِي ضَرورة أنْ تَضْبِطَ المُجْتمعاتُ النّامية «مُؤشِّرَ البَوْصَلَةِ» على الاتِّجَاهِ الصّحيـح – في تَطْبيقٍ نزيـهٍ وحيويّةٍ فَاعِلَةٍ – حيث يَنْبَغِي أنْ يكـون الشِّعَارُ الرّائِدُ لتَعْليم «الأَلْفيّـة الثّالثة» هو: (التَّعْليمُ لعَصْرِ «مُجْتمع المَعْرِفَة») [٩٦] بحيث يَحْرِصُ «التَّعْليمُ» على تَأْسيسِ «البِنْيَةِ التَّحْتيّـة» القَادِرَةِ على إسْنَـادِ ركائِز «مُجْتمع المَعْرِفَـة»، وتَرْسيخِ قِيَمه، وتَعْزيـزِ تفاعُلاته، عبْـر إتاحة الإمْكانات المُعَاصِرَة لأفْرَادِ المُجْتمـع كافّةً؛ وهذه «البِنْيَةُ التَّحْتيّـةُ» بدَوْرِهَا مَسْؤولةٌ عن توليدِ الفُرَصِ، وتَطْويرِ المهاراتِ، وتَأْصيلِ المَعْرِفَةِ، وتَنْميةِ المَدَارِكِ، وإحْدَاثِ «النَّقْلَة النَّوْعيّة» في «الحركة التَّنْمَويّة».

٨-٢-١- ب) نَحْوَ «إسْتراتيجيّةٍ تعْليميّةٍ» فَاعِلَة:

يجـب علـى أيِّ «إسْتراتيجيّةٍ تَعْليميّـةٍ» أنْ تَسْتَوْعِبَ حقيقة أنّ أبْـرز شُرُوطِ «مُجْتمع المَعْرِفَـة» [٩٦،٧٨] هو تَحَقُّقُ «الشَّرْط المَعْرِفـيّ» عبْر إدْرَاكِ ضرورة «التَّكَامُلِ المَعْرفيّ» بين مُخْتلـف مُكَوِّنَـاتِ «الفِكْرِ البشريّ» وعَنَاصِـرِهِ في «البَوْتَقَةِ الحيّويّة» التـي تَرْبِضُ في قَلْبِ «مُجْتمع المَعْرِفَة»، مع إرْسَاءِ «الرّكيزة الأساس» في هذه «التّرْكيبة المَعْرفيّة المُعَاصِرَة»، وهي تلك النّاتِجَةُ عن التَّطَوُّرَاتِ العِلْميّةِ والمهاراتِ التّقنيّةِ والقُدْرَاتِ الإنْتاجيّة؛ فـ«الثَّوْرَةُ المَعْلُوماتيّـةُ» والمُتَطَلَّبَـاتُ التّنْمَويّةُ تُعَزِّزُ – بوضوحٍ – هَيْمَنَـةَ «المعارِف العِلْميّة والتّقنيّة» علـى أنْواع المَعْرِفَةِ الأُخْـرى. وهذا ما يُؤَكِّدُهُ «التّقْرير العَالَمـيّ لليونسكو» – الصّادر في عام ٢٠٠٥م – حيث يُقَرِّرُ أنّ: (مَفْهُوم «مُجْتمع المَعْرِفَة» يُوضِّحُ أنّ سياسات تَعْليم العلوم والتّكْنولوجيّات تُشَـكِّلُ اسْتِثْماراً اقْتصاديّاً واجْتماعيّاً له أولويَّتُـه) [٨٣]؛ ولذا فإنّ «إعْطَاءَ الأولويّـة للعلوم والتّقنيّة» فـي «إسْتراتيجيّة التّعْليم» وخُطَطِـه ومَنَاهِجِهِ يُصْبِحُ ضَرورةً لا مناص منها لإنْجـاز الطُّمُوحَاتِ التّنْمَويّـة، وضمان عدم انْحراف «قَافِلـة المُجْتمع» عن الطّريق إلى «مُجْتمع المَعْرِفَة».

وأمّـا «الشَّـرْطُ الاجْتماعيُّ» فـي تَرْكيبـة «مُجْتمع المَعْرِفَـة» فيَسْتَدْعـي «المُشَارَكَةَ الجماهيريّـة» الواعيـة، و تَحْتَلُّ «الثَّقافةُ العِلْميّـةُ» مَوْقِعاً مِحْوَريّاً لتَحْقيـقِ تلك المُشَارَكَةِ

ومُوَاكَبَـةِ عَصْرِ «مُجْتمع المَعْرِفَة»؛ لأنّ أبْرز خَصَائِصِ هذا «المُجْتمع» هو الكفاءَةُ العَالِيةُ فـي تَأْميـن (النَّفَاذ الشَّامِـل للمَعْرِفَة)[٨٣]، فوفْـق «التّقْرير العَالَميّ لليونسكـو»[٨٣] فإنّ: (مُجْتمعات المَعْرِفَة تَرْتَكِزُ على إدْمَاجٍ ومُشَارَكَةِ العَدَدِ الأكْبر)، ويَذْهَبُ التّقْريرُ إلى أبْعد مـن ذلك فيقول: (لـن تَتَمَكَّنَ «مُجْتمعاتُ المَعْرِفَةِ» في القَـرْنِ الواحد والعشرين من بُلُوغِ حِقْبَـةٍ جديدةٍ من التّنْمية الإنْسانيّـة والمُسْتَدَامَةِ إلاّ بشَرْطٍ لا يقومُ فقط على تَأْمين نَفَاذٍ شَامِـلٍ للمعارِف، بَلْ أيضـاً على مُشَارَكَةِ الجميع في «مُجْتمعـات المَعْرِفَة»). وهكذا يَبْرُزُ «الشَّـرْط الاجْتماعـيّ»، ليُشَكِّلَ رُكْناً أساساً مـن أرْكَانِ «مُجْتمع المَعْرِفَـة»، وليُمَثِّلَ مَطْلَباً لازِمـاً لتَحْقيـقِ «التَّنْمية»؛ ممّـا يُحَدِّدُ - بالضّرورة - مـدى نجاح «المَنْظُومَـةِ التَّرْبويّة - التّعْليميّـة» أو إخْفَاقِهَا فـي صَوْغِ «مُجْتمع المَعْرِفَـة»، وتوليـدِ «الإرادة الجماعيّة» الوَاعِيَةِ القَادِرَةِ على التَّغَلُّبِ على الحَواجِزِ الاجْتماعيّة والمَعْلُوماتيّة والمَعْرفيّة والثّقافيّة. وأمّا إذا لـم يَتَحَقَّـقْ الهدفُ الأساسُ، وهو عدم اسْتِبْعَادِ أحدٍ مـن المُشَارَكَة الحيويّة في تفاعُلاتِ «مُجْتمـع المَعْرِفَة»، فإنّ «المَنْظُومَةَ التّرْبويّة - التّعْليميّة» تكون قد فَشِلَتْ في «الاسْتِجَابَةِ الفَاعِلَـةِ لـ«تحدّيات» هـذا المُجْتمع ومُقْتضياتِه، وتكـون المُحَصِّلَةُ الحَتْمِيّـةُ هي «ضَعْفُ كفاءَة المُنْتَجِ التّعْليميّ».

يَنْبَغِـي - إذاً - أنْ يكـون لـ«الثَّقافـة العِلْميّـة» حُضُورٌ قـويٌّ في المناهِـج والأنْشطة اللّاصفيّـة، بحيث يَتَحَقّقُ ما اعْتَبَرَهُ نادر فرجاني «الهدف النّهائيّ للنَّسَقِ التّعْليميّ» وهو: (تَزْويـدُ البشر، بلا تَفْرِقَةٍ، بالمعارِف والمهـارات والقُدْرات اللّازِمة للمُشارَكَةِ - بفعّاليّةٍ وإبْـداعٍ - فـي تَطْويرِ المَعْرِفَةِ وعمليّات التّنْظيم والإنْتاج فـي المُجْتمع، وبصُورةٍ مُسْتمرّةٍ ومُتَطَوِّرةٍ، قَائِمَةٍ على تَأْكيدِ الهُويّة الحضاريّة من ناحيةٍ، واعْتِمَادِ «العِلْم الحديث» أساساً لاتِّخـاذ القـرارات من ناحيةٍ أُخْـرى)[١١]. إنّ «الثَّقافة العِلْميّة» هي جُـزْءٌ أساسٌ من تلك «الذِّهْنيّـةِ التَّنْمويّةِ» التي طالب بها غازي القصيبي؛ لأنّها حسب قوله: (مُرْتَبِطَةٌ ارْتباطاً عُضْويّـاً بـ«العِلْم»، و«العِلْمُ» يَرْتَبِطُ ارْتباطـاً مُبَاشِراً بـ«نِظَام التّعْليم»، ووَضْعُ «التَّعْليم» في العَالَـمِ الثّالث مأْساةٌ تُحْزِنُ الأعْدَاءَ قبل الأصْدقاء. ولعلّنا هنا نَضَعُ أيدينا على «المِفْتَاحِ السِّحْـريّ» للتّنْميـة؛ المِفْتَاحُ الـذي يَسْتَحِيلُ فـي غِيَابِهِ تَحْقيـق «التَّنْمية» رغـم توفُّر كُلِّ

عناصرِهــا، ويُمْكِنُ أنْ تَتَحَقَّقَ «التّنْمية» عند وجوده حتى مع غِيَابِ عَدَدٍ من عَوَامِلِهَا، هذا المِفْتَــاحُ هــو «التَّعْليم»)[١٠]. وأمّا أحمد زويل[٧٠]، فيُورِدُ مــا ذَكَرَهُ مهاتير محمد في حِوارٍ بينهمــا مــن أنّه كان (لا بُدَّ من خَلْــقِ حركةٍ في هذا البلد، وقد اسْتَلْــزَمَ ذلك تَغْييرَ عَقْليّةِ المُواطِــن الماليــزيّ) ليَذْكُرَ أنّ أحد العُنْصُرَيْنِ اللذين لجــأ إليهما لتَحْقيقِ ذلك الهدف هــو: (تَغْييرُ نظــام التَّعْليم حتى يُعَادِلَ التّعْليــمَ المُتَقَدِّمَ في العَالــمِ، ويتفاعل مع الثَّوْرَاتِ العِلْميّــة المُعَاصِرَة). وأمّا أسامة عبد الرحمن[١٢]، فيرى أنّ «التّعْليم»: (أداةٌ رئيسيّةٌ في تَحْقيقِ التّغْييــر الاجْتماعيّ والثّقافيّ والاقْتصاديّ)؛ لأنّ («التّعْليــم» يُعْتَبَرُ أحد المداخِل الرّئيسيّــة لـ«التّنْمية»، وبتكامُلِهِ مع «التّدْريب» يُمَثِّلُ المُرْتَكَزَ الأساسيّ لزيادة فَعّاليّة وأداء «إدارة التّنْميــة» ممّا يَجْعَلُ «التّعْليم» مُسَاعِداً علــى إحْدَاثِ تَغْييرٍ في الاتّجاهات والسُّلُوك يَتَّفِــقُ مــع مُقْتضيــات «التَّنْمية»). وأمّــا فلاح سعيد جبــر[٧٥]، فيرى ضــرورة (الاهْتمام بسياسات «التَّعْليم» وإعادة بَرْمَجَتِهَا، ابْتداءً من مراحلِها الابْتدائيّة، ووصُولاً إلى مراحلِها الأكاديميّــة العُلْيا، وفْق برامِجَ مُوَجَّهَةً لخِدْمَةِ «التّنْمية الشَّامِلَة»)، ويرى – أيضاً – أنّه (لا بُــدَّ من تَحْقيقِ الرَّبْطِ المُبَاشِرِ بين التَّقَدُّم العِلْميّ والتّكنولوجيّ وبين السِّياساتِ التَّعْليميّة والتّرْبويّة من أجل إيجاد البِيئة المُلائِمَةِ لخَلْقِ وتَطْويرِ التّكْنولوجيا).

عبْــر تلك الرُّؤى الجَازِمَةِ بالــدَّوْرِ الطّليعيّ لـ«التَّعْليم» نجــد أنّ المُرْتَكَزَاتِ المِحْوَرِيّةِ لتلك «العمليّة التَّربويّة – التَّعْليميّة» الحَاسِمَة، هي: («تَطْويرُ المَنَاهِجِ التَّعْليميّة» – «إعْدادُ المُعَلِّم» – «تَحْسينُ البِيئة التَّرْبويّة» – «برامِجُ النَّشاط اللّاصَفِّيّ»)؛ وكُلُّها تَحْتَاجُ إلى تفاعُلٍ مع «القِيَــمِ الثَّقافيّة» و«المُنْطَلقَاتِ التَّنْمَويّة» التي يَنْبَغِــي غَرْسُهَا وتَأْصيلُها؛ وهكذا – على سبيــل المِثال – يُصْبِــحُ من الضّروريّ كما يقــول علي علي حبيش: (الحُصُــولُ على مُعَلِّمٍ قَادِرٍ على بِنَاءِ الشّخْصيّةِ المُسْتقلّةِ القَادِرَةِ على التَّعَلُّم الذّاتيّ، والبَحْثُ عن المَعْلُومات في مصادرِهــا، وعلى انْتِقَــاءِ المَعْلُومة، وتَحْليلِها ونَقْدِهَا وتَنْظيمِهــا، وعلى الاسْتِخْدَامِ الأَمْثل لهــا، وتوظيفِهــا في حَلِّ المُشْــكلات)[٣٩]. لذا يَنْبَغِــي الحِرْصُ على إعْطَــاءِ عمليّة «إعْداد المُعَلِّــم» أولويّةً؛ لتَطْويــرِ قُدُرَاتِهِ المَعْرفيّةِ ومَدَارِكِــهِ الثّقافيّة وآفاقِه التّرْبويّــة لتَتَوَاءَمَ مع مُتَغَيِّــرَاتِ «العَصْرِ» ومُسْتَحْدَثَاتِــه، ولا يَنْطَبِقُ هذا فقط على «مُدَرِّسِي العلوم» ولكنّه يَنْبَغِي

أنْ يَشْمَـلَ كُلَّ شرائح المُعَلِّمين ليَسْتطيعوا أنْ يتحدَّثوا بـ«لُغَةِ العَصْر»، ويُسْهِمُوا في تَشْكيلِ الرُّؤى المُعَاصِرَةِ لدى طُلّابهم، وتَطْويرِ مهاراتِهم في «التَّفْكيرِ العِلْميّ» والنَّقْدِ الموضوعيّ.

وهكذا نجدُ أنّ الدَّوْرَ الرّياديّ لـ«التّعْليم» في «صِناعَةِ المُسْتَقْبَلِ» بمُكَوِّناتِهِ المُخْتلفة يَجْعَـلُ تَأْسيس دَوْرٍ بَارِزٍ لـ«الثّقافة العِلْميّة» في «إسْتراتيجيّـة التّعْليم»، وتَعْميق هذا الدَّوْرِ فـي مُخْتلـف التّفاعُلات التّرْبويّـة - التّعْليميّة»، من أبْرز الأولويّـات الوطنيّة التي لا تجوزُ المُزَايَـدَةُ عليها، فكمـا يقولُ جلين سيبورج: (مهمـا كانتْ تَكْلِفَةُ تَحْسيـن التّعْليم، فإنّها اسْتِثْمَارٌ في المُسْتَقْبَلِ يَنْبَغِي أنْ نَلْتَزِمَ به. إنّ التّميُّزَ يُكَلِّفُ كثيراً ولكن التَّوَسُّط في الجَوْدَةِ يُكَلِّفُ أكْثر بكثيرٍ على المدى الطّويل)(٤٤). ومن حَقِّنَا أن نَتَوَقَّفَ هنا لنتساءَل: (إذا كانتْ تلك هي ضريبةُ «التَّوَسُّط في جَوْدَةِ التّعْليم» كما يراها سيبورج في مُجْتمعه الأمْريكيّ، فيا تُرى ما هي ضريبة «التَّخَلُّف في التّعْليم» الذي تُعانِي منها مُجْتمعاتُ العَالَمِ العربيّ؟).

٨-٢-٢) الإعْلام:

لا يَخْتَلِفُ اثْنان حول التّأْثيرِ الكَاسِحِ لـ«الإعْلام» اليوم بوَسَائِطِهِ المُتَعَدِّدَةِ والمُتَنامية والمُتَجَـدِّدَة؛ فـ«الإعْـلامُ» هو أبْرزُ وسائل «القُوَّةِ النَّاعِمَةِ» التـي تُسْتَخْدَمُ لتَشْكيلِ العُقُولِ، وتَحْريكِ الوِجْدَانِ، والتّأْثيرِ في المُمَارَسَاتِ، دون الحاجة إلى اللجوء إلى الوسائل القَهْريّة (القُـوَّةُ الصُّلْبَة)؛ ومن أبْرز خصائص «القُوَّةِ النَّاعِمَةِ» أنّها قد تَسْتَغْرِقُ وَقْتاً حتى تَتَغَلْغَلَ وتَتَبَلْوَرَ إلاّ أنّها - في نهاية المطاف - أشدّ رُسُوخاً وأعْمق تَأْثيراً وأطْول أمداً، وفي إطَارِهَا يَدْخُلُ ما يُعْرَفُ بعمليّات «غَسِيل الدِّمَاغ».

لذا فإنّ «مَنْظُومَةَ الإعْلام» مَنْظُومَـةٌ مُعَقَّدَةٌ بطبيعة عناصرِها التّقنيّة، ومُتَطَلَّبَاتِهَا المِهْنيّـة، ووسائلِهـا المُتَعَدِّدَة، وخياراتِها المُمْتَدَّةِ في آفاق الحيـاة، وتفاعُلاتِها الضَّارِبَةِ في أعْماق المُجْتمع، وتَأْثيراتِها الجَارِفَةِ في العَقْلِ والوِجْدان، وانْعكاساتِها الزّاخِرَةِ بالغَثِّ والسَّميـن، والتَّافه والأصيل، والسُّـمِّ والعَسَل. وهذا - بالضّـرورة - يَسْتوجِبُ اسْتِحْضَارَ دَوْرِ «الإعْـلام» عندمـا نَتَحَدَّثُ عن «ثقافـةٍ تَنْمَويّةٍ» ضروريّةٍ لنَهْضَـةِ المُجْتمع، وذلك ما

يُؤَكِّـدُهُ عمر الخطيب[٧٦] بقوله: (إنّ وسائِل الاتِّصــال الجماهيريّ أدواتٌ لتَحْقيق «التَّغيُّر الاجْتماعــيّ» الذي يَخْدِمُ أغْراض «التّنْمية»، كما تَسْتطيعُ وسائل الاتِّصال إضْفاء المكانة وتَأْسيس المعاييــر التي تَحْكُـمُ المَسْلَكيّات التّنْمَويّـة بين الشَّعْب، وتَسْتطيـعُ أيضاً رَصْدَ الانْحراف عن هذه المعايير، وتَلْعَبُ وسائلُ الاتِّصال دَوْراً حيويّاً في نَقْلِ المَعْرِفَةِ ونَشْرِهَا، ونَقْلِ نتائِج البُحوث العِلْميّة إلى الجماهير الوَاسِعَة، وتَسْتطيعُ البرامِجُ الشّعْبيّةُ عن العلوم والأحْداث الجَارِية وكذلك التّقارير الإخْباريّة والبرامِج الوثائقيّة أنْ تُثِيرَ الفُضُولَ الفِكْريّ الــذي يجبُ تَوَفُّرُهُ حتــى يُمْكِنَ فَهْمَ واسْتيعاب الأفْكار الجديــدة)؛ وفي هذا الصَّدَدِ يُقَرِّرُ عمــر الخطيب أنّه: (غَالِباً ما يكون التَّدَفُّقُ المُتزايدُ للمَعْلُومات هو العَامِلُ الأساسيُّ الذي يَغْرِسُ بذْرة التّغْيير، ويُهَيِّئُ المُنَاخَ المُلائِمَ لـ«التّنْمية»).

٨-٢-٢- أ) الوَاقِعُ العربيّ و«الإعْلام»:

إنّ نَظْرَةً فَاحِصَةً لوَاقِعِ «الإعْلام العربيّ» تُبَيِّنُ ذلك الدَّوْرَ المُتنامي لإعْلام «الغَرَائِز والإثارة الحِسِّيّة» الذي تُؤَجِّجُ نيرانه مقاصِد تجاريّةٌ بَحْتَةٌ، أو أهْدافٌ تَخْريبيّةٌ مَحْضَةٌ، أو خَلْطَةٌ مَاكِرَةٌ من ذا وذاك؛ وكُلُّها تَحْرِصُ على جَرِّ «طاقات المُسْتَقْبَلِ» من شبابٍ وشابَّاتٍ إلــى مَحْرَقَةِ المَلَـذّاتِ الحِسِّيّة، والمتاهــاتِ العَاطِفيّــة، والانْفعالاتِ المُتَمَـرِّدَة، والفَرَاغِ الفِكْريّ، بَدَلاً من سَكْبِ حماسهم وطاقاتهم في قَوالِبَ رصينةٍ من «التَّوَازُنِ الحياتيّ» الذي يُحَقِّـقُ مُتَطلَّبَاتِ «الأَمْنِ الفِكْريّ» من اسْتِقْرَارٍ وإنْجــازٍ وتَطْويرٍ للذّات، ومُعالَجاتٍ رصينةٍ للمُشْـكلات، وحِمايــةٍ للهُوِيّــة. أمّا البدائِـلُ الإعْلاميّةُ الأُخْـرى المَطْرُوحَةُ علــى السّاحة العربيّــة فهي تتراوحُ بين التّعْميق المُسْتمرّ للجَدَلِ العَبَثِيّ، أو الاسْتِفْزَازِ المُتَعَمَّدِ للمُجْتمع عبْــر الإساءة لقِيَمِهِ وانْتِهَاكِ ثَوابِتِهِ، والأمثلةُ كثيــرةٌ لنماذج عجيبةٍ على السّاحة الثّقافيّة والإعْلاميّــة العربيّة؛ وكُلُّها تُبْرِزُ مُعْطياتٍ هَشّــةً، لا تَمْتَلِكُ مُقَوِّمَاتِ «الرُّؤية التّنْمَويّة» التي يُدَنْــدِنُ حولها الجميع، ولا تَتَمَتّــعُ بإرْهَاصَاتِ «الفِكْر الإصْلاحــيّ» الذي يتنادون إليه، ولا تتفاعلُ مع مُتَطَلّبَاتِ «رُوحِ العصْرِ» التي يُشِيدُون بها.

بطبيعــة الحال، لا يُمْكِـنُ أنْ نَنْسَى «الإعْلام الرَّسْميّ العربيّ» الـذي فَقَدَ تَأْثيره في خِضَمّ غَزْوِ الفضائيّات، وضَعْفِ الرّقابة أو تراجُعها تحت وَطْأةِ هَجْمَةِ «العَوْلَمَةِ» وتقْنيات الاتِّصــال الحديثة، وعَجْزِهِ عــن توفير إسْتراتيجيّةٍ قــادِرَةٍ على المُنافَسَــةِ وطَرْحِ البديل النّاجِـع. وبشَــكْلٍ عامٍّ فإنّنا نَسْتطيــعُ أنْ نَخْلُصَ إلــى أنّ شيئاً ما لم يَتَغيَّرْ، بَـلْ إنّه ازْداد اسْتِفْحَـالاً على ما خَلُصَتْ إليه «الخُطَّةُ الشّامِلَةُ للثَّقافة العربيّة» الصّادِرَةُ عن «المُنَظَّمَة العربيّــة للتَّربية والثَّقافة والعلوم (أليكســو)» - في عام ١٩٨٥م - حيث رأتْ أنّ أحد أبْرز السَّلْبيّات في حــال «الثَّقافة العربيّة» هي: (سِيَادَةُ الإعْلام التَّرْفيهيّ السَّطْحِيّ)[١٠٣]. أمّا الهَــمُّ الأكْبَرُ في حياة الأُمّة، وهــو «قضيّةُ التَّنْمية» بإشْكالاتِهــا وشُرُوطِهَا، فهو غريبٌ في ساحــات تلك البدائل الإعْلاميّة الجَاثِمَةِ على السّاحة العربيّــة، وأمّا السُّؤالُ الذي يَنْبَغِي طَرْحُــهُ، دون مُوَارَبَــةٍ أو مُجَامَلَةٍ، فهــو: (هل بالإمْكان التَّعَامُل مــع التّحدّيات المُعَاصِرَة، وتَحْقيق «الأَمْن الفِكْــريّ»، والتّعاطي مع ضُغُوطِ المُسْتَقْبَلِ وشُجُونِ الأُمّة وتطلُّعاتِ الوطن وأحْــلامِ الفَرْدِ وقضايــا المُجْتمع دون تَأْسيس «إعْلامٍ تَنْمَويٍّ» مُــدْرِكٍ لـ«شُرُوط التّنْمية»، ومُتفاعِلٍ مع مُتَطَلَّبَاتِهَا، ودَافِعٍ نحو سُبُلِهَا؟).

المُشْكِلَــةُ هي أنّه في كُلِّ البدائل المَطْرُوحَةِ أمامنا على السّاحة الإعْلاميّة الشّاسِعَةِ ووسائلِها المُتَعَدِّدَةِ وإمْكانيّاتِها المُتَنامية، فإنّ أكْثر ما يَصْدِمُنَا هو غِيَابُ «القِيَم التَّنْمَويّة» فــي تفاعُلاتِ «الإعْلام العربيّ»، وهو أمْرٌ كفيلٌ بــأنْ يُعَمِّقَ «إشْكَالِيّة التّنْمية»، بَلْ هو- في رأيــي - أحْد أهمّ أسْبابها، ممّا يَجْعَــلُ المُجْتمع غريباً على عَصْرِه، وطَارِئاً على مُجْريات زمنــه. وفــي غِيَابِ «موازين التّنْمية» تَنْمُــو متاهات «الفَرَاغِ الحياتــيّ»، وتَزْدَهِرُ مساحات الإسْفَــافِ والابْتِذَالِ والتَّطَرُّفِ والإفْرَاطِ والنّرْجسيّةِ والتّفْخيم والتّضْخيم، وما يَنْجُمُ عن كُلِّ ذلك من تَشَنُّجٍ، وتَطَرُّفٍ، وانْكِفَاءٍ، وتَغْريبٍ، وانْبِهَارٍ، واجْتِرَارٍ، وحركاتٍ بَهْلوانيّةٍ تُريد أنْ تعيش دَاخِلَ الزَّمن وخَارِجَهُ في آنٍ وَاحِد.

لعلّه من المُقْلِقِ أنْ يَجْتاحنا - إزاء الوَاقِع المعيش - شُعُورٌ بأنّ «المُجْتمعات العربيّة» لــم تُــدْرِكْ بعد أنّ «قضيّــة التّنْمية» ليستْ قضيّةً قَابِلَــةً للأخْذِ والعَطَــاءِ، ولا يُمْكِنُ تَرْكُهَا لجلســاتِ السَّمَــرِ ومُنَاظَرَاتِ الجَــدَلِ؛ فـ«التّنْمية» قضيّةُ حياةٍ أو مَــوْتٍ، وإذا كان هذا هو

الحال فإنّ «الإصْلاحَ الإعْلامـيّ» والانْخِرَاطَ في مَنْظُومَةِ «الإعْلام التَّنْمَويّ» من القضايا التي يجبُ أنْ تكون من أبْرز أولويّات «المُجْتمعات العربيّة».

٨-٢-٢- ب) هُمُومُ «الإعْلام التَّنْمَويّ»:

ليس بالإمْـكان الحديث عن «ثقافةٍ تَنْمَويّةٍ» دون أنْ يَعْضُدُهَا ويَنْقُلُهَا «إعْلامٌ حيويٌّ» - عبْـر وَسَائِطِهِ المَقْـرُوءَةِ والمَسْمُوعَةِ والمَرْئِيّةِ - بحيث تَتَحَقَّقُ فيـه مُوَاصَفَاتُ الكَفَاءَةِ والمِهْنيّـةِ والمَسْؤوليّـةِ والقُـدْرَةِ على التَّأْثيـرِ الوَاسِعِ على مُخْتلف الشَّرائـح الاجْتماعيّة. مـن هذا المُنْطَلَقِ يَبْـرُزُ مُصْطَلَحُ «الإعْلام التَّنْمَويّ» الذي أَصْبَـحَ - بالضّرورة - مُلازِماً لـ«عمليّـة التَّنْمية» وأهْدافها ليكون «الإعْلامُ» فَاعِلاً علـى ساحتها عبْر تَرْويجِ قِيَمِهَا، وبَثِّ أخْلاقيّاتِها، وتَعْميقِ مُقَوِّمَاتِهَا المَعْرفيّة والفِكْريّة والاجْتماعيّة.

إنّنا نَسْتطيعُ أنْ نَفْهَمَ أنْ يكون «الإعْلامُ» في «العَصْرِ الحديث» حريصاً على تَحْقيقِ «الرِّبْـحِ المَالـيّ» ليتمكَّنَ من مُوَاصَلَـةِ أداء وظائفِه المُتَعَـدِّدَة، ونَسْتطيـعُ أنْ نَفْهَمَ - إلى حَـدٍّ مـا - تلك النَّظرية التـي يَطْرَحُهَا بعضُ الإعْلاميين العرب بصِيَـغٍ مُخْتلفةٍ، ولكنّها - فـي نهاية المطـاف - تعودُ إلـى أصْلِهَا المُتَمَثِّلِ في تلـك المَقُولَةِ الشَّعبيّـة: (الجُمْهُور عايـز كِـدَه)؛ ولكنّنـا لا نَسْتطيـعُ أنْ نَفْهَـمَ كيـف يكـون مَقْبُولاً لـدى بعْض الإعْلاميين - قبْـل غيرهـم - أنْ يُخْتَـزَلَ دَوْرُهُم في مُجَـرَّدِ تَحْقيقِ الرِّبْـح، أو الاسْتِجَابَـةِ للنَّزْعَاتِ التِّلْقائيّةِ للطّبيعة البشريّة وغَرَائِزِهَا؟.

وعنـد التَّحاور مع الإعْلاميين العرب، قـد تَصْدُمُنَا المَقُولَةُ التـي يُكَرِّسُهَا بعْضهم عنـد التَّحَدُّثِ إليهم عـن مَسْؤوليّاتِهم نحو «التَّنْميـة»، ونَشْرِ «الثَّقافة الجَـادّة»، وتَرْسيخِ دعائِـم «مَنْظُومَـةِ مُجْتمع المَعْرِفَة»، حيـث يَحْتَجُّون بأنّه لا يُوجَدُ «جُمْهُـورٌ» يَسْتَهْلِكُ هذه «البِضَاعَـة»؛ فـدَوْرُ «الإعْلام» - فـي رأْيهم - هو أنْ يُقَـدِّمَ الخِدْمَـاتِ المَرْغُوبة، ويَطْرَحَ «البِضَاعَـةَ» التي يَطْلُبُهَا المُسْتَهْلِك؛ وفي رأْيهم أنّ على «المُجْتمع» تَهْيئة «الجُمْهُور» الذي يَسْتَهْلِكُ ذلك النَّوْعَ من «البِضَاعَةِ» المُرْتَبِطَةِ بـ«الوَعْي التَّنْمَويّ» و«صِنَاعَةِ المَعْرِفَة» ونَشْرِ

«الثَّقافة العِلْميّة»، ومن ثمّ يقومُ «الإعْلامُ» فيما بعْد - مَشْكُوراً - بتَقْديمِهَا وتوفيرِها!. ولا شَكَّ إنّ في مِثْل تلك المَقُولَةِ بَخْساً لـ«الإعْلام» وإهْمَالاً لدَوْرِهِ الرّياديّ في تَشْكيلِ القَنَاعَاتِ وتَأْسيسِ الـرُّؤى وتَطْويرِ الإمْكانـاتِ والالْتِحَام مع قضايا المُجْتمـع؛ فمن الأوصاف التي يُطْلِقُهَـا بعْضهم على «الإعْلام» أنّه «مِرْآةُ المُجْتمع»، ولكن هذا يَخْتَزِلُ حقائِق كثيرةً، من أهمِّهـا أنّ «المِـرْآةَ» مُحَايدَةٌ تُبَيِّـنُ ما أمامهـا دون أنْ تُؤثِّرَ في ما تُبَيّنُــهُ، وأمّا «الإعْلامُ» فالقَائِمُونَ عليه بَشَرٌ، والمُمَوِّلُونَ له بَشرٌ، والمُتَلَقُّونَ له بَشَرٌ، ممّا يَجْعَلُ له تَأْثيراً - سَلْباً أو إيجاباً -، كما أنّه سيكونُ - بطبَائِع البَشَرِ - مَشُوبَاً بتحيُّزاتٍ هنا، ومَصَالِح هناك، وأهْوَاءٍ بيـن ذا وذاك. ولذا فـإنّ لـ«الإعْلام» دَوْراً لا يُسْتَهَانُ به في صِنَاعَةِ ذلك «الجُمْهُورِ» الذي يَسْتَهْلِـكُ «الثّقافة الجَادّة» والـرُّؤى التّنْمَويّة والتّفاعُلاتِ العِلْميّة، ومن المُفْتَرَضِ أنْ يكون لـ«الإعْلام العربيّ» دَوْرٌ رياديٌّ في كُلِّ تلك المضامير انْطِلاقاً من هَيْمَنَتِهِ شِبْهِ المُطْلَقَةِ في التّأْثيرِ على العامّة ومُعْظَم الخاصّة من النّاس.

وأمّا المَقُولَةُ القديمةُ - المُتَجَدِّدَةُ بأنّ «التَّاجِرَ» المُسْتَثْمِرَ في «الإعْلام» يَبْحَثُ فقط عـن الرِّبْـحِ المـاديّ، وأنّ «الإداريَّ» القَائِمَ على المُهِمَّةِ مُطَالَبٌ من قِبَـلِ «رِجَالِ الأعْمال» بـأنْ يُحَقِّقَ ذلك الهدف وليَأْتِ بعد ذلك الطُّوفان، فإنّها مَقُولَةٌ أَصْبَحَتْ في أعْرَافِ اليوم تَخْضَـعُ لكثيرٍ من المُرَاجَعَاتِ والنّقْدِ حيث تَبَلْوَرَ «مَفْهُـومُ المَسْؤوليّة الاجْتماعيّة» للقطاع الخاصّ ليَنْمُو ويَسْتَقِرّ ويُصْبِـحَ أكْثر اتّساعاً وانْفتاحاً. ولا شَكّ فـي أنّ على «الإعْلام» - بوسائِلـه المُخْتلفـة - أنْ يَحْمِلَ القَدْرَ الأكْبر من ذلك «الهَـمّ الاجْتماعيّ»؛ فـ«الإعْلامُ» - وفْـق نظريّـات الإعْلاميين أنْفسهم الذين سَكُّـوا مُصْطلح «الإعْـلام التّنْمَويّ»- من أبْرز الأدوات القَـادِرَةِ على إحْدَاثِ «التّغْيير الاجْتماعيّ» الذي يَخْدِمُ «التّنْمية»، ويُعَزِّزُ الانْتماء، ويُكَرِّسُ الهُويّة، ويُؤَسِّسُ المعايير التي تَحْكُمُ السُّلُوكيّات والتّوجُّهات والمُمَارَسَات.

بطبيعـة الحال، ليس «الإعْلامُ التّنْمَويُّ» جَافّاً صَارِمَاً مُتَقَوْقِعَاً حول «الفِكْرِ العِلْميّ»، أو التّحْليل التّنْمَويّ، أو التّأْصيل المَعْرفيّ، أو الأُطُرِ التّجْريبيّة، بَلْ تَرْكُضُ - أيضاً - قِيَمُهُ علـى مجـالاتِ التّرْفيه والتّسْليـة والرّياضة، وتَرْبِضُ مُعْطَيَاتُهُ في عَوالِـم الشِّعْرِ والأدبِ والسِّجَالاتِ الفِكْريّة، وتَرْقُصُ أهْدَافُهُ على حُرُوفِ الرّوايات والمقالات، وتَلْتَحِمُ مَضَامِينُهُ

مع التّفاعُلاتِ الإنْسانيّة بمُخْتلف تخصُّصاتِها، وتَتَسَلَّلُ رُوحُهُ إلى الفعّاليّاتِ الاجْتماعيّة بمُخْتلف اهْتماماتِها؛ ولكنّ المَطْلُوبَ وَضْعُ «الإسْتراتيجيّة المُنَاسِبَة»، وتوظيفُ العُقُولِ القَادِرَة، وتَطْويعُ المهارات الكفؤة.

وهكذا، في ظِلِّ «تحدِّيات الأَلْفيّة الثّالثة» و«ثقافة العَوْلَمَة»، تَبْرُزُ مضامين جديدةٌ قد يُرَحِّبُ بها بعْضهم، وقد يُحَذِّرُ منها آخَرون، وقد تتقاعسُ فِئةٌ عن دَعْمِهَا؛ لأنّها لا تَعْرِفُ كيف تتعاملُ معها أو تُعَبِّرُ عنها، فـ«النَّاسُ أعْدَاءُ ما جَهِلُوا»، إلاّ أنّه يَنْبغِي أنْ نُدْرِكَ أنّ هناك مَوْجَةً ثقافيّةً وإعْلاميّةً ومُجْتمعيّةً تتنامى مع نُموِّ الشّرائِح الاجْتماعيّة المُخْتلفة التي تتعاملُ مع «العلوم والتّقْنية» بحُكْمِ المِهْنَةِ أو التّخصُّصِ أو الاهْتمام الفِكْريّ والثّقافيّ والاجْتماعيّ بأبْعَادِ «ظَاهِرَةِ العلوم والتّقْنية» وآثارِها؛ وبالتّالي يجبُ توفيرُ القَنَوَاتِ والوسائلِ والأنْمَاطِ التي تَسْتطيعُ أنْ تَسْتَوْعِبَ تلك المَوْجَة، وتُوَظِّفَهَا، وتَرْتَقِيَ بها. ولذا فإنّ السُّؤالَ المَطْرُوحَ بإلْحَاحٍ على «الضَّمير العربيّ» هو: (ألم يَئِن الأوان للإعْلاميّين والمُمَوِّلينَ العرب أنْ يَسْتَشْعِرُوا مَسْؤولية «صِنَاعَةِ المُسْتَقْبَلِ» فيَنْفَكُّوا من قَوْقَعَةِ الثَّقافة اللفْظيّة وضجيجِ الانْفعالات وبرامِج الإثارة الحِسِّيّةِ وساحاتِ «الوَغَى الكُرَويّة»، ويُطِلُّوا على «الثَّقافة العِلْميّة» بآفاقِها الرَّحْبَة، ويَفْتَحُوا نَوافِذَ جديدةً أمام «العَقْلِ العربيّ» ليَنْطَلِقَ - بتَوَاؤُمٍ وانْسِجَامٍ - مع «رُوحِ العَصْرِ» وتطوُّراتِ «الزَّمَنِ» وتحدّياته؟).

٨-٢-٢-ج) المَوقِعُ الرّياديّ لـ«الإعْلام العِلْميّ»:

إنّ أبْرز ملامِح «الإعْلام التّنْمَويّ» هو بُرُوزُ «الإعْلام المُتَخَصِّص»، ونُمُوُّهُ أفقيّاً ورأْسيّاً، فبرزتْ برامِجُ «الإعْلام الاقْتصاديّ» و«الإعْلام الرّياضيّ» وغيرهما، وأَصْبَحَ «الإعْلامُ المُتَخَصِّصُ» يَتَبَوَّأُ مكاناً حيَويّاً في «المَنْظُومَةِ الإعْلاميّة» في «المُجْتمعات المُتَقَدِّمَة» التي تَسْتطيعُ أنْ تقيسَ مدى رُقِيِّهَا بما حَقَّقَتْهُ من مُسْتوىً في مضامير «الإعْلام المُتَخَصِّص» المُخْتلفة، وهي تتفاعلُ - يوميّاً - مع خلايا المُجْتمع، وتَتَغَلْغَلُ في أنْسجتِه، وتصوغُ توجُّهاتِه، وتُنَظِّمُ حياته، وتُرسي قِيَمَه. في قَلْبِ «الإعْلام المُتَخَصِّص» يَرْبِضُ «الإعْلامُ العِلْميُّ» بكُلِّ تفرُّعاتِه وتشعُّباتِه، ومن المُهِمّ أنْ نَضَعَ هنا تَعْريفاً إجْرَائيّاً وَاضِحاً

لمَاهيّةِ «الإعْلام العِلْمـيّ»، نَسْتَخْلِصُهُ من المُمَارَسَاتِ المَطْلُوبَةِ منه، لنجد أنّه: (الإعْلام المَعْنيّ أساسـاً بمُعَالَجَةِ الأحْداث والتّطوُّرات التّنْمَويّة، والهَادِفِ إلى التّأْثيرِ في مسارات التّطـوُّر والتّغْيير عبْر التّوظيف المَاهِـر للوسائل الإعْلاميّة المُتَاحَـةِ وتقْنياتها المُتَطوِّرةِ للإسْهَـام الفَعَّالِ في اسْتِنْبَـاتِ «الحركة العِلْميّة – التّقنيّة» فـي المُجْتمع، وتَنْميةِ «الحِسِّ العِلْميّ» لدى الشَّرائح المُجْتمعيّـة المُخْتلفة، وتَبْسيطِ القضايا والمفاهيم العِلْميّة، ورَبْطِ «العِلْـم» بأَوْجُهِ الحياة وحركة المُجْتمـع وطرائِق التّفْكير، وجَعْلِ «الثَّقافـة العِلْميّة» جُزْءاً عُضْويّـاً من «الثَّقافـة السَّائِدَةِ»، وتَهْيئَةِ «المُنَـاخِ العامّ» القَادِرِ علـى اسْتيعابِ المُعْطيات العِلْميّـة والوفاءِ بشُرُوطِهَا وإعْـدَادِ المُواطِن للتّعامل بحماسٍ وأُلْفَةٍ وثِقَةٍ مع «رُوحِ العصْرِ» ومُتَطَلَّبَاتِ التّقْنية، وتوفيرِ البيئة الحَاضِنَةِ للإبْداع العِلْميّ والتّفوّق التّقنيّ).

إنّ المُعَالَجَةَ الصّحيحةَ لـ«إشْكَاليّةِ التّنْمية» لا يُمْكِنُ لها أنْ تَغُضَّ الطَّرْفَ عن الكَارثَةِ المُتَفَاقِمَةِ المُتَجَلِّيَةِ في اكْتِظَاظِ «الفضاء الإعْلاميّ العربيّ» بكُلِّ حَابِلٍ ونَابِلٍ، ولكن لا نكادُ نَلْمَسُ بين الحَابِلِ والنَّابِلِ «إعْلاماً عِلْميّاً» ذا تَأْثير. وهكذا نجدُ أنّه في الوَقْت الذي تتوالدُ فيـه قَنَوَاتٌ فضائيّةٌ وإذاعيّةٌ في «العَالَم الغَرْبيّ»، وتَنْمُو عندهم مجلاّتٌ وصُحُفٌ يَنْحَصِرُ كُلُّ اهْتمامِهـا في تَبْسيطِ العلـوم، ونَشْرِ المعْرِفَة التّقنيّة، وجَذْبِ مُجْتمعاتِهم إلى ساحات العلـوم والابْتكار، وتوسيـعِ أُطُرِ «الفِكْرِ العِلْميّ» وتفاعُلاته مـع «القَاعِدَةِ المُجْتمعيّة»، فإنّ «الفضـاء العربيّ» يَضِجُّ بالمزيد من صِياحِ الدِّيكَة، والمُمَاحَكَاتِ اللفْظيّة، وقَنَوَاتِ الإثارة الحِسِّيّـة. وأمّا المُؤَسَّسَاتُ الصّحفيّةُ، فقد انْصَرَفَتْ إلـى ما اعْتَقَدَتْ أنّه يَحْصُدُ الأرْباح حيـث تَنْمُو «الصِّحَافَةُ التَّقْليديّةُ» التي تُكَرِّرُ ذاتها، وتَسْتَنْسِخُ تجارِبها، دون العِنَايَةِ بذلك الجديـد التّنْمَويّ، القَادِرِ على الإسْهَامِ في إحْدَاثِ «النَّقْلَة النّوْعيّة» في حياة «المُجْتمعات العربيّـة»، الذي يَقَعُ الآن – إلى حَدٍّ كبيرٍ – في خَانَـةِ ذلك الإعْلامِ المَجْهُولِ والمَنْبُوذِ في «العَالَمِ العربيّ»؛ ألا وهو «الإعْلامُ العِلْميّ»!.

الطَّريـفُ المُحْزِنُ في الأَمْرِ أنّ قضيّةَ «الإعْلام العِلْميّ»، وبشَكْلٍ أعمّ قضيّة «الثَّقافة العِلْميّـة»، تُمَثِّـلُ «حَجَرَ الزَّاوية» في كُلِّ مـا تَصْبُو إليه الأُمّةُ من طُمُوُحَـاتٍ، وما يُنادِي به السّاسَةُ والقَادَةُ من تطلُّعاتٍ، وما يتنادى إليه رِجَالُ التّرْبية والتّعْليم من خُطَطٍ، وما يتحاورُ

حوله جَهَابِذَةُ الثّقافة والفِكْرِ والوَعْظِ من مُشْكلات. إنّ قضايا «التّنْمية» والتّطوير والإنْتاج والمَنَعَـةِ وإرْسَـاءِ دعائِـم «مُجْتمع المَعْرِفَة» تَلْتَـفُّ - كُلُّهَا - بإحْكام حـول قضيّة «العلوم والتّقْنيــة»، ومدى القُدْرَةِ على تَرْسيخ أدواتِها وفِكْرِهَا ومعانيها ومُقْتضياتِها في المُجْتمع؛ ودون ثقافةٍ قَادِرَةٍ على تَهْيئة تلك البيئة، ودون إعْلام يَحْمِلُ تلك «الثَّقافة» ويُشِيعُ مُعْطياتِها ويُبْـرِزُ دَلالاتِها، فإنّ كُلَّ تلـك الجُهُودِ تَبْقَى في مَهَبِّ الرِّيح. تلـك هي الحقيقة الجوهريّة التــي لم تَسْتَطِعْ «الثَّقافةُ العربيّةُ» أنْ تَسْتَوْعِبَهَا بعْـد، وتلك هي «الإشْكَاليّةُ الأساسُ» التي فَشِلَ «الإعْلام العربيّ» في التّعامُلِ معها؛ والطَّريفُ أنّ السّاحةَ تَعِجُّ بالإعْلاميين من شتّى الخَلْفيّـات والاهْتمامات، وعلـى مُخْتلف مُسْتويات صُنْعِ القَـرَارِ والأداء الإعْلاميّ، وكُلُّهم - دون اسْتِثْنَـاءٍ - يُقِـرُّونَ بذلـك العَجْزِ، ويُدْرِكُـونَ حَجْمَ الخَسَارَةِ الوطنيّــةِ النّاتِجَةِ عن إهْمَالِ «الفِكْرِ العِلْميّ»؛ وأمّا أدبيّاتُهم في الحماس لـ«الحركة العِلْميّة» و«نَقْلِ التّقْنية» فهي كثيـرةٌ، ولكنّهم كُلُّهم - دون اسْتِثْنَاءٍ - لديهم ما يَكْفِي مـن الأعْذَارِ الحقيقيّة والمُبَرِّرَاتِ المُتَوَهَّمَةِ لفشلهم الذَّريعِ في المُسَاهَمَةِ في التّفْعيلِ الجَادِّ لرُؤى «الإعْلام العِلْميّ» والتّعامُلِ مع شُرُوطِه!.

علــى مدى قُرابَةِ ثلاثة عُقُودٍ طَرَحْتُ قضايا «الثَّقافة العِلْميّة» و«الإعْلام العِلْميّ» مع إعْلاميّيــن في وطني - أكاديميِّين ومِهنيِّين في القِطَاعَيْنِ الخاصّ والعامّ - لأتَلَمَّسَ معهم طبيعــة الإشْكال، وأَسْتفيدَ من تَجْرِبَتِهِمْ الإعْلاميّة فــي تَشْخيصِ حقيقة المُعَوِّقَاتِ وسُبُلِ التَّغَلُّـبِ عليها ومُبَادَرَاتِ العمل اللّازمــة، واتّفَقْتُ معهم في أنّ عَدَداً من المُعَوِّقَاتِ يَرْتَبِطُ بطبيعــةِ «التَّرْكيبة الثَّقافيّة» السّائِدَةِ في المُجْتمع، وحَدَاثَةِ «التِّجْرِبَةِ العِلْميّة والتّقنيّة» في حيــاة النّاس، وصُعُوبَةِ المُعْطياتِ الفِكْريّة والعِلْميّة والتّقنيّة وصَرَامَتِهَا، ولكنّي اكْتَشَفْتُ - أيضاً - أنّ العَقَبَةَ الأولى الكَأْدَاءَ هي في أنْ يَتَغَلَّبَ الإعْلاميون أنْفسهم على تلك الهَوَاجِسِ والمَخَاوِفِ، ويتجاوزوا سَيْطَرَةَ «الثَّقافة الأدبيّة» المُتَمَكِّنَة من عُقُولِهِمْ ووِجْدَانِهِمْ، ويتأَقْلَمُوا مع مُتَطَلَّبَاتِ «الفِكْر العِلْميّ»، ويُقْبِلُوا على تَأْسيسه وتَفْعيلِه دون تَهَيُّبٍ أو حساسيّة.

أَدْري أنّ (النَّاس أعْدَاء ما جهلوا)، ولكن عندما يَتَعَلَّقُ الأَمْرُ بقضايا مصيريّة، فإنّ كُلّ الجُهُـودِ يَنْبَغِـي أنْ تُبْذَلَ للتّغلُّبِ على تلك العُقَدِ النّفْسيّـة والعَقَبَاتِ المِهْنيّة والظُّرُوفِ

المُجْتمعيّـة، وأنْ تَتَّجِهَ لفَتْحِ المجـال أمام قُدْرَاتٍ جديدةٍ قَادِرَةٍ على أنْ تتعامل مع قضايا القَـرْنِ الواحد والعشرين، وأنْ تَسْعَى إلى إعْدَادِ كفـاءاتٍ وَاعِيةٍ، وتَهْيئتِها لخَوْضِ «عَوالِم الإعْـلام العِلْميّ»، والتّعامُلِ معها بحِرَفِيّةٍ وجِدِّيَّـةٍ؛ وأمّا الوَاقِعُ الحزينُ فيُؤَكِّدُ أنّنا سنَتْعَبُ في البَحْثِ عن تلـك المُؤَسَّسَةِ الإعْلاميّة التي يَتَوَافَرُ لها قِسْمٌ جَادٌّ لـ«الصِّحَافَة العِلْميّة»، وسيعـودُ البَصَـرُ خَاسِئاً وهـو حسير. ولعـلّ الزَّمن كفيـلٌ بإقْحَـامِ الإعْلاميّين وغيرهم فـي «بَوْتَقَـةِ القَرْنِ الواحـد والعشرين»، ولكن هـل لدينا ذلك الوَقْت في زمـنٍ نَخْسَرُ فيه يوميّـاً نتيجةً لتفـوُّقِ الآخَرين المُتَسَارِع؟. وهكذا يَبْقَى سُؤالُ «الإعْـلام العِلْميّ» حَائِراً مع الإعْلاميّيـن وبينهـم!؛ وبالرّغم من أنّنـي أُدْرِكُ أنّ وِزْرَ قضيّة «الثّقافـة العِلْميّة» تتحمَّلُهُ أطْـرافٌ عديدةٌ في القِطَاعَيْنِ الخاصّ والعامّ، إلاّ أنّنـا نَتَحَدَّثُ هنا عن «قضيّةٍ إعْلاميّةٍ» بامْتيازٍ، ومن المُتَوَقَّعِ أنْ يَحْمِلَ الإعْلاميّون شُعْلَةَ الرِّيادَةِ فيها!.

٨-٢-٢- د) التَّلاوُمُ بين «التَّعليم» و«الإعْلام»:

من الطَّريفِ أنْ نَرْصُدَ – أحْياناً – حالةً من «تَبَادُل اللّوم» بين «أَهْل الإعْلام» و«أَهْل التَّعْليـم»؛ فيلومُ الإعْلاميّـون «التَّعْليم» لتَقْصِيرِهِ في تَهْيئة «الجُمْهُـور» للتّفاعُلِ مع قضايا أكْثـر جِدِّيّةً وأشدَّ الْتِصاقاً بتحدّيات «التّنْمية»، ويُسـارِعُ التّرْبويّون للومِ «الإعْلام» لتَأْثيرِه الكَاسِـحِ، حيث يرون أنّه يَهْدِمُ مـا يَبْنُونَ، ويُقَوِّضُ ما يُشَيِّـدُونَ. وأمّا الحقيقةُ المُرَّةُ فهي أنّ الطَّرَفَيْـنِ مَلُوْمَـان، وأنّ كِلَيهما مُقَصِّـرٌ؛ فـ«الثّقافةُ التَّنْمَوِيّةُ» تَحْتَـاجُ إلى تعاضُدِهِما، وتكامُلِهمـا، وتفاعُلِهما؛ لأنّهمـا المُحَرِّكَانِ الرّئيسانِ لآليّات «الثَّقافـة» وبرامِجِ «التّنْمية»، وتَقْصيـرُ أيٍّ منهما في هذا المجال يُعَرْقِلُ حركة الآخَر، ويُبْطِئُ أداءه، ويُضْعِفُ فَاعِليّته. إذا كانـتْ المضاميـنُ فـي «التَّعْليم» مُهمّـةً لصِناعة المُواطِـن القَادِرِ علـى الإسْهَام في «التّنْميـة»، فـإنّ «الإعْـلامَ» يَشْتَرِكُ في تلك الخصائِـص، فهو ليس مُجَـرَّدَ وسائل فَنِّيّةٍ، وأدواتٍ عمليّةٍ، واعْتبـاراتٍ مِهْنيّةٍ، ومَواهِب ذاتيّةٍ، ومهاراتٍ شَخْصِيّةٍ؛ فكُلُّ ذلك خَوَاءٌ إذا لم يَحْمِلْ مَضْموناً ولم يَخْدِمْ هدفاً، وبطبيعة الحال، قد يكونُ المَضْمونُ غَثّاً رَثّاً، وقد يكونُ الهـدف سقيماً مُتَهَالِكاً. ولذا فإنّ «الإعْلام» الذي يتبنّـى نظريّة «الجُمْهُور عايز كِدَه» هو

«إِعْلامٌ مُفْلِسٌ» بكُلِّ المقاييس، إضافةً إلى أنّه «إِعْلامٌ جَاهِلٌ» بوَاقِع «المُجْتمعات العربيّة» وحاجاتهــا؛ فلقد بَرَزَتْ شرائِحُ مُتنامِيةٌ ذات توجُّهاتٍ عِلْميّةٍ، ومهاراتٍ تقنيّةٍ، واهْتماماتٍ مَعْرفيّــةٍ، وهــي مــن ضمْن «الجُمْهُــور» الذي يَنْبَغِــي التّفاعُلُ مــع مُمَارَسَاتِــهِ واهْتماماتِه وقضايــاه. وأمّــا الحقيقةُ الثّابِتَــةُ، فهي أنّ «الإعْلام» الــذي لا يَسْتطيــعُ أنْ يَسْتَوْعِبَ دَوْرَهُ الرّيــاديّ في صِنَاعَةِ «مُسْتقبَـلِ الأُمّة»، ويَفْشَلَ في الارْتِقَاءِ بالمَــدَارِكِ والمعارِف، ويُصِرَّ علــى مُواصَلَــةِ جُهُودِهِ في تَكْريسِ إثــاراتٍ حِسّيَّةٍ، أو توجُّهاتٍ مَشْبُوهَــةٍ، أو انْفعالاتٍ آنيّةٍ، أو تَسْطيــحٍ ثقافــيٍّ؛ فإنّه يَحْرِمُ مُجْتمعه مــن تَأْسيس «البِنْيَة التَّحْتيّــة» اللاّزمة لاسْتيعاب تغيُّــراتِ «العَصْرِ» ومُعْطياتِه، ويَمْنَعُ شبابه من الانْطلاق في آفاق «الفِكْر العِلْميّ» الرّحْبة، والتَّطْويــر الذّاتيّ، والتّأْهيــل التّنْمَويّ، ليَجْثُمَ على ساحة «الإعْــلام العربيّ» ذلك السُّؤال القَاسِي الذي طَرَحَهُ محمد الرميحي: (هل يُقَدِّمُ لنا إعْلامُنا «تَنْمِيَةً» أمْ «تَعْمِيَة»؟)[١٠٤].

إنّ توظيــفَ «وسائل الإعْلام» في بَــثِّ «الثَّقافة العِلْميّة»، وتَرْويج قِيَمِ الإنْتاج، أَضْحَى عُنْصُــراً مُهِمّاً فــي اسْتراتيجيّات كثيرٍ من الــدُّول؛ فتَكْريسُ «وسائِــل الإعْلام» لجُزْءٍ من طاقاتِها وجُهُودِهَا لقضايا «العلوم والتّقْنية»، والاهْتمامُ بـ«الإعْلام العِلْميّ»، وتَبْسيطُ العلوم وتوفيرُهــا لأوسع القِطَاعَــاتِ بين «الجُمْهور»؛ كُلُّها تَعْمَلُ علــى تَأْسيس «ثقافةٍ جديدةٍ» في المُجْتمــع، وتُسْهِمُ في تَشْكيلِ «العَقْلِ المُعَاصِرِ»، وتَبْنِي – وبشَكْلٍ تَدْريجيٍّ – نَمَطاً تراكُميّاً وسُلُوكيّاتٍ جديــدةٍ ومُمَارَسَاتٍ تَتَّفِقُ مع مُقْتضياتِ «التّنْميــة» وشُرُوطِ «مُجْتمع المَعْرِفة»، كمــا أنّ لها «دَوْراً حيويّاً» في رأْي فــلاح سعيد جبر لا يَكْمُنُ فقط: (في تَطْوير التِّكنولوجيا المحليّــة، ولكــن على المــدى الطويل في تَحْديــدِ مُواصَفَــاتِ التِّكنولوجيــا المَرْغُوبِ في اسْتيرادِها وكيفيّةِ اسْتيعابِها وتَطْويعِها وتَطْويرِها)[٧٥].

٨-٢-٣) «التَّعْريبُ» و«النَّشْرُ العِلْميّ»:

فــي خِضَمِّ الانْتهاكَاتِ اللّغويّةِ والانْسياقِ الأعْمَى إلى لُغَاتٍ أجنبيّةٍ، سَواءً على صعيد التَّعْليــم أو التّعامُل، وفي إطَــارِ الإهْمالِ الذي يَبْدُو مَقْصُوداً فــي بعْض الحالات، فإنّ من حَــقِّ «لُغَةِ الضَّــاد» أنْ تَصْرُخَ بأعْلى صوتِها وتَسْتَغِيــثَ!. إنّ السّاحةَ – بأشْكالِها الإعْلاميّة

والتّعْليميّـة والحياتيّة والعمليّة - تَضِجُّ بالهَجَمَاتِ على «اللّغَةِ الأُمّ»، حيث انْتَشَرَ اسْتِخْدَامُ اللّهْجَـاتِ العاميّـة، وراحـتْ وَسَائِلُ الإعْـلام، وبالذّات القَنَـواتُ الفضائيّـة، تتسابقُ إلى إضْعَـافِ «اللّغة العربيّـة» واسْتِخْدَام اللّهْجَاتِ المحليّـة، وأَصْبَحَ التَّطَـوُّرُ مُقْتَرِناً باللّغات الأجنبيّـة فـراح بعْضهم يتسابـقُ إلى التَّفَاخِـرِ بالتَّحدُّث بهـا، والتَّباهـي بمُصْطلحاتِها ومُفْرداتِهـا، وكأنّ «اللّغـة العربيّة» - بتُرَاثِهَا الضَّخْـم ومُفْرداتِها المُتَنَوِّعَـةِ ومُترادِفاتِها المُتَعَـدِّدَةِ - عَجَـزَتْ عن اسْتيعاب تلـك المعاني، أو التّعْبير عن تلـك الأفْكار، أو مُسايرة «شُرُوط التَّطَوُّر»!.

إنّ قضيّـةَ «تَعْريـب العلوم» - تَأْليفـاً وتَرْجَمَةً -، كمُعْظم قضايانـا في «المُجْتمعات العربيّـة»، هي قضيّةٌ قديمةٌ جديـدةٌ، وهي قضيّةٌ تَفْرِضُ نفْسها باسْتمـرارٍ وإلْحَاحٍ؛ لأنّها مُرْتبطةٌ بأبْرز التّحدّيات التـي تُجَابِهُ الأُمّةُ العربيّةُ، وهو «التَّحَدِّي العِلْميّ- التّقنيّ»؛ ولذا نجـد أنّ قضيّـة «تَعْريـب العلوم» قد بَـرَزَتْ منذ اللحْظة التـي شَعَرَتْ فيهـا «المُجْتمعاتُ العربيّةُ» بضَرورة الأَخْذِ بأسْبَابِ القُوّةِ والنّهْضَةِ المُتَمَثِّلَةِ في «الحركة العِلْميّة - التّقنيّة». لقـد كان السُّـؤالُ، وما زال، هو: (هل تَسْتطيـعُ الأُمّةُ أنْ تَسْتَوْعِبَ «العلـوم الحديثة»، وأنْ تُوَطِّنَ «التّقْنية»، وأنْ تتفاعلَ مع مُقَوِّمَاتِ «الحركة العِلْميّة - التّقنيّة»، وأنْ تُبْدِعَ في رِحَابِهَا، إذا لم تكنْ لُغَتُهَا عُنْصُراً رئيساً وجوهريّاً في بَوْتَقَةِ التّفاعُلِ والتّلاقُحِ والإبْدَاعِ؟).

لقـد شَغَلَ هـذا السُّؤالُ بال أَصْحَـابِ القَـرَار والنّهضَويّين والتّنْمَويّيـن والتّرْبويّين والمُفكِّريـن من مُخْتلف المَشَـارِبِ والاهْتمامات، وانْقَسَمَ فيه سَـوَادُ النّاس إلى فريقَيْن: أوّلُهمـا يرى أنّ الأولويّة هي لصَهْرِ «العِلْـم والتّقْنية» في البَوْتَقَةِ الثّقافيّةِ والفِكْريّة للأُمّة، ولأنّ «اللّغة» هـي «وِعَاءُ الفِكْر»، و«أداةُ التَّواصُل والتَّفاعُل»، فإنّه لا يُمْكِنُ تَحْقيق «النَّهْضَة العِلْميّـة» دون جَعْـلِ «اللّغـة» وسيلـة التّعَلُّـم والتّخَاطُـبِ والتَّواصُلِ والتّفْكيـرِ في مجالات «العِلْـم والتّقْنيـة»؛ ولذا أَصَرّ هذا الفريق على أهميّة أنْ تجـد «الحركة العِلْميّة - التّقنيّة» طريقها إلى ذلك «الوِعَاءِ الفِكْريّ - اللّغويّ - الثّقافيّ». ويَخْلُصُ أصْحاب هذا الرّأي إلى أنّ اسْتِخْـدَامَ لُغَاتٍ أجْنبيّةٍ فـي تدْريسِ «العلوم والتّقْنية»، ومُناقَشَـةِ الأفْكار والنّظريّات والطُّرُوحـات العِلْميّـة، هو - فـي الوَاقِع - تَفْريغٌ لـ«اللّغـة العربيّة» مـن «المُحْتَوى العِلْميّ

والمَعْرفــيّ» المُعَاصِــر؛ ممّــا يَجْعَلُها تَنْزَلِــقُ - تدريجيّــاً -، لتُصْبِحَ فقط «لُغَــةَ التُّرَاثِ»، وليستْ لُغَــةً مُنْتِجَةً لـ«العِلْمِ الحديث»، ومُتفاعِلَةً مع مُعْطيــاتِ «العَصْرِ» ومُشْكلاته. ووفْق هــذا الــرّأي، يُصْبِحُ «التَّحَــدِّي المَعْرفــيّ المُعَاصِر» الــذي يُجَابهُ «المُجْتمعــاتُ العربيّةُ» عِبَارَةً عن تَحَدِّيَيْن، وكأنّ تَحَدِّياً وَاحِداً لا يَكْفينا!؛ فهناك «التَّحَدِّي العِلْميّ - التّقنيّ» بكُلِّ تخصُّصاتِــه ونُموِّه المُتَسَــارِعِ المُذْهِلِ، وهنـاك «التَّحَدِّي اللّغَويّ» بــكُلِّ شُرُوطِهِ ومُعَوِّقَاته. وأمّــا الفريقُ الثّاني فيَبْدُو أنّه على عَجَلَةٍ من أَمْرِه، فهو يرى أنّ الاهْتمام بدَمْجِ «اللّغَة» في التّفاعُلِ العِلْميّ «تَرَفٌ ذِهْنِيٌّ» لا يُسْعِفُنَا الوَقْتُ للسَّمَاحِ به، ويرى هذا الفريق - في أَحْسن الأحْــوال - تَأْجيــل تلك «المُهِمَّــةِ اللّغَويّةِ» إلــى أنْ يَتِمّ اكْتسابُ «العِلْــم والتّقْنية»، وبعْد أنْ يُصْبِحَ للأُمّة العربيّة حُضُورٌ قويٌّ ومُؤَثِّرٌ على السّاحة العِلْميّة.

عبْــر التَّأَمُّلِ المُتَأَنِّــي لمَوقِفَيْ الفريقَيْن يَتَّضِحُ أنّ الفريق الثّانــي يُهْمِلُ - في عَجَلَتِهِ لتَحْقيــقِ «التّنْميــة» وهَرْوَلَتِهِ نحــو تَكْثيفِ «الحركــة العِلْميّة» في «المُجْتمعــات العربيّة» - الحقيقــةَ الثّابِتَةَ عــن دَوْرِ «اللّغَةِ» في حياة الأُمّــة؛ فهي «وِعَاءُ الفِكْرِ» القَــادِرِ على تَشْكيلِ المفاهيــم وبَلْوَرَةِ التّفاعُلاتِ وتَعْميقِ الرُّؤى؛ فوفْق نبيــل علي[٩٩]، فإنّ: (الثّقافة محْوَرُهَا اللّغَــة)، وبالتّالي هــي (تَقَعُ في قَلْــبِ مَنْظُومَةِ الثّقافة)، وكما يقــولُ محيي الدين صابر، فــإنّ: (اللّغَــة هي مَنَــاطُ الثّقافــة فــي كُلِّ معانيها، فهي التــي تُحِيــلُ التَّصَوُّرَ إلــى فِكْرٍ، تَعْبيــراً عنــه، وتُحِيلُ الفِكْرَ إلى عمــلٍ، تَفْسيراً له)[١٨]. مــن المُهِــمّ - إذاً - أنْ نُدْرِكَ أنّ القضيّــة ليستْ سَهْلَةً، وهي أَبْعَــدُ ما تكون عن تلك الحُلُولِ السّريعــة المُرْتَجَلَةِ التي نُهْرَعُ إليهــا عادةً؛ فالإشْكَالِيّةُ تَكْمُنُ في طبيعة العَلاقَةِ بيــن «العِلْمِ» و«اللّغَةِ» وما يُحِيطُ بها من تداخُــلاتٍ فِكْرِيّةٍ، وتفاعُلاتٍ ثقافيّةٍ، وتحدّياتٍ حضارية. إنّ القضيّة ليستْ قضيّة تَعْريبِ مُصْطلحاتٍ، أو تَرْجَمَةِ بُحُوثٍ، أو تَأْليفِ مَرَاجِعٍ، وإنْ كان كُلُّ ذلك مُسَانِداً ومُهِمّاً، ولكنّها أَعْمَقُ بكثيرٍ وأشدّ تَعْقيداً، فهي قضيّةٌ تَرْتَبِطُ بوجود «العِلْمِ» في «التّرْكيبة الثّقافيّة» وجوداً طبيعيّــاً ومُتَنَاغِماً ومُنْسَجِماً مع «رُوحِ العَصْرِ»، ومُتَوَافِقاً مع «حَرَاكِ المُجْتمع» وتفاعُلاته، وهــذا «الشَّرْطُ الثّقافيّ - المُجْتمعيّ» لن يَتَحَقّــقَ إلاّ إذا أَصْبَحَتْ «اللّغة العربيّة» حَاضِنَةً لـ«العِلْمِ»، ومُوَاكِبَةً له بطلاقةٍ وتِلْقائيّةٍ وحماس.

فـي خِضَمِّ الانْدفاع نحـو «العَوْلَمَةِ»، وهُمُـوم «التّنْمية»، وتحدّيـاتِ «العَصْر»، تغيبُ الجِدِّيَّـةُ في تعامُلنـا مع قضايا «اللّغة العربيّـة» وهُمُومِها، سَواءً كان ذلـك على الأصْعِدَةِ التّعْليميّـة أو الإعْلاميّة أو الثّقافيّة، وننسى، أو نتناسى، أنّ كثيراً من تلك الإشْكالات تجد جُذُورَهَـا في إغْفالِنا للـدَّوْرِ الجوهريّ الذي تُؤدِّيـه «اللّغَةُ» في حياة الأُمـم؛ فالتّفاعُلاتُ المُجْتمعيّـة، والإرْثُ القوميّ، والفِكْرُ المُتَجَذِّرُ في كِيـان الأُمّة، وركائِزُ «مُجْتمع المَعْرفة»؛ كُلُّهـا تَلْتَفُّ حول قضيّـة «اللّغَة الأُمّ»، فهي التي تَسْتطيعُ أنْ تَلُـمَّ الشَّمْلَ، وتُوَصِّلَ الحماس، وتُغَذِّي الفِكْرَ، وتُؤسِّسَ الإبْدَاعَ، وتَحْمِي الهُوِيّةَ؛ وكُلُّها شُرُوطٌ لازِمةٌ لنَهْضَةٍ حقيقيّة.

٨-٢-٣- أ) «الشَّرْط اللّغَوِيّ» لـ«مُجْتمع المَعْرِفَة»:

مـن المُهِمّ أنْ نُشيـرَ هنا إلى أنّ إحْـدى أهمّ المُشْكلات التـي تُعَانِي منها «الحركة العِلْميّـة - التّقنيّة» فـي «المُجْتمعات العربيّة»، هي غُرْبَتُهَا عـن «الثّقافة السَّائِدَة»، وعدم قُدْرَتِهَا على التّغَلْغُلِ في نسيج البِيئة وخلايا «الفِكْرِ الجَمْعيّ» للأُمّة، فتظلُّ عُضْواً مَرْفُوضاً مـن الجَسَد، وهَامِشيّاً فـي التّأْثير. ولذا فـإنّ «الفَجْوَة» بين «الحركـة العِلْميّة - التّقنيّة» وبيـن «المُجْتمعات العربيّة» هي في ازْديادٍ بسبب غِيَـابِ دَوْرِ «اللّغَة» التي هي أساسٌ لازِمٌ لنَشْرِ «ثقافـة العِلْم»، وتَزْدادُ هذه «الفَجْوَةُ» اتّساعاً مع نُموّ التّقْنيات الحديثة وتَعْقيداتِها، وتَكْبُرُ مـع اسْتِخْدامات «الإنْترنت» وتَطْبيقات «تَقْنية المَعْلومـات». ومن المُؤسِفِ أنْ نرى أنّ أصْحـاب التّخصُّصـات العِلْميّـة والتّطْبيقيّـة هم الأكْثر بُعْـداً عن لُغَتِهِـمْ الفُصْحَى؛ لأنّهـم يَعْتَقِـدُونَ أنّ هـذا الموضوع لا يَقَعُ ضِمْـن اخْتصاصاتِهم، ولا يَنْضَـوِي تحت إطَارِ مَسْؤولياتِهم، ولا يَتَعَلَّقُ بعلومِهم، وهم بذلك يَنْسونَ تماماً أنّ وَاجِبهم الأوّل هو غَرْسُ تلك العلـوم في «اللّغَـة الأُمّ»، لتُصْبِحَ أكْثر اتّسَاعاً في اسْتيعابِها للكفـاءات، وأعْمق شُمُولاً في احْتضانِها للمَوَاهِبِ، وأكْثر قُدْرَةً على التّغَلْغُلِ في «نسيج المُجْتمع» وخلاياه الفَاعِلَة.

إنّ «مُجْتمع المَعْرِفَة» ليس «مُجْتمعاً نُخْبَوِيّاً» تَمْتَلِكُ فيه النُّخْبَةُ أدواتِ «العَصْرِ» وطُرُقَ التّعامُلِ معه، وتُخاطِبُهُ بلُغَةٍ مُهَيْمِنَةٍ عَالَمِيّةٍ - أيّاً كانتْ هذه اللّغَة -، ولكنّه «مُجْتمعٌ شَامِلٌ» قَادِرٌ على أنْ يتفاعل - بلُغَتِهِ وثقافتِهِ وهُوِيّتِه - مع مُعْطيات «العَصْرِ» ومُسْتَجِدَّاتِ «المَعْرِفَة»،

بحيث تُشارِكُ جميع الشَّرَائحِ ومُخْتلف الفِئَاتِ في اسْتيعابِ «المَعْرِفَة» وإنْتاجِها؛ ممّا يَضَعُ «شَرْطاً لُغَويّاً» على «عمليّة التَّحَـوُّلِ» إلى «مُجْتمع المَعْرِفَة». إنّ «اللّغَـةَ الأُمّ» هي الوسيطُ الوحيـدُ القادِرُ على تأْسيس «مُجْتمع المَعْرِفَة» والنُّهُوض بمُكوِّنَاتِهِ المُخْتلفة[٧٨،٩٦]، وهذا مـا يُؤكِّـدُه «التّقْريـرُ العَالَميّ لليونسكـو»[٨٣] - الصّادر في عـام ٢٠٠٥ م - بقوله: (يجب علـى «مُجْتمع المَعْرِفَة» أنْ يَتَمَكَّنَ من دَمْجِ كُلِّ فَرْدٍ من أعْضائه والنُّهُوضِ بأشْكَالٍ جديدةٍ مـن التّضامُن. يجب أنْ لا يكون هنـاك مُسْتَبْعَدُونَ فـي «مُجْتمعات المَعْرِفَة»، طالما كانتْ «المَعْرِفَةُ» مِلْكِيّةً عامّةً يَنْبَغِي أنْ تكون مُتَاحَةً لكُلِّ فَرْد).

مـن ذلك «المُنْطلـق العمليّ» البَحْت، قبْـل أيِّ اعْتبارٍ آخَر، يُصْبِحُ مـن أهمّ شُرُوطِ الوُلُـوجِ إلى «مُجْتمع المَعْرِفَة» هو أنْ تكون «اللّغة العربيّة» قِوَامَ «الحركة العِلْميّة» وعِمَادَهَا فـي «المُجْتمعات العربيّـة»، وأنْ تتفاعلَ بحيويّةٍ مـع مُعْطيات «العَصْـرِ» وتَجَلّيَاتِ «الفِكْرِ العِلْميّ»، فلا يجوزُ بحالٍ نَفْيُ «اللّغة العربيّة» إلى خَارِجِ «العَصْر»، وإقصاؤها عن عمليّات «التَّحَوُّل الكُبْـرى» على طريق «مُجْتمع المَعْرِفَة». ويَدْعَمُ «التّقْريـرُ العَالَميّ لليونسكو»[٨٣] قضيّـةَ «الحِفَاظِ على اللّغَاتِ الأَصْليّة» لـ«مُجْتمعـات المَعْرِفَة النَّاشِئَة»، ويتصدّى لحالات تَـرَدِّي أحْوال هذه اللّغَاتِ بحُجَجِ هَيْمَنَـةِ «اللّغَاتِ النَّاقِلَةِ للمَعْرِفَة» فيقـول: (إنّ التّصَدِّي لتآكُلِ التَّنوُّعِ اللّغَويّ، والتَّسَلُّحَ بوسائل لكَبْحِ انْطِفَاءِ لُغَاتٍ أَصْليّةٍ، أو الارْتِقَاءِ بتعدُّديّةِ اللّغَاتِ النّاقِلَـةِ الوَاسِعَـةِ الانْتشار، ليس نِضَالاً من أجل قضيّةٍ نوسْتالجيّـةٍ خَاسِرَةٍ مُقدَّماً، بَلْ هو اعْتِرَافٌ بأنّ اللّغَات هي أدواتٌ مَعْرفيّةٌ ونَواقِلُ ثقافيّةٌ وبيئةٌ تَكْوينيّةٌ لـ«مُجْتمعات المَعْرِفَة» يُشَـكِّلُ التَّنوُّعُ والتَّعَدُّدُ بالنِّسْبَةِ إليها ثَراءً ومُسْتَقْبَـلاً). وفي أكْثر من مقام يُعَزِّزُ «التّقْريرُ العَالَمـيّ لليونسكـو»[٨٣] أهميّة العِنَايَةِ باللّغَاتِ الأَصْليّة للسُّكّانِ، ودَمْجِهَا في «التّفَاعُلاتِ المَعْرفيّـة»، ويقـول: (إنّ مَسْأَلَـةَ مُسْتَقْبَلِ اللّغَات ستكون على جـدول الرِّهانات الرّئيسيّة لـ«مُجْتمعات المَعْرِفَة»؛ فالتَّنوُّعُ اللّغَويّ مُهَدَّدٌ فِعْلاً إذْ أنّ من المُحْتمل أنْ يَخْتَفِيَ من السّتة آلاف لُغَةٍ المُسْتَعْمَلَة حالياً نِصْفُهَا من الآن وحتى نهاية القَرْنِ الواحد والعشرين)، ويُؤكِّدُ التّقْريرُ على أنّه: (تظلُّ اللّغَاتُ الأَصْليّةُ الوسيلةَ الرّئيسيّةَ للتّعْبير عن التَّطَلُّعاتِ والرَّغَباتِ الحميميّـة والعَواطِف وعن الحياة المحليّة فهـي «المُسْتَودَعُ الحَيُّ للثّقافات»، وفي السِّيَاقِ

العامّ لتَعْزيزِ «التَّعَدُّدِ اللّغَوِيّ» لا يُوجَدُ - بالضّرورة - تناقُضٌ بين تَشْجيع «اللّغَاتِ النّاقِلَةِ» مِثْل الإنْجليزية التي قد تُسْتَعْمَلُ للنّفَاذِ إلى التّكنولوجيّات الجديدة، والإبْقَاءِ على اسْتعمالٍ نَوْعيٍّ للُّغَاتِ الأُمّ).

٨-٢-٣- ب) مُعْجِزَة التَرْجَمَة:

ممّا سَبَقَ من اعْتباراتٍ حيويّةٍ، نجد أنّ «حركة التّعْريب» - في المجالات العِلْميّة والتّقنيّة - قضيّةٌ من أهمّ قضايا «الثّقافة العِلْميّة» لتَحْويلِ «العلوم الحديثة» إلى وَاقِعٍ فِكْريٍّ وثقافيٍّ واجْتماعيٍّ، وتَأْصيلِها في «الثّقافة العربيّة»، وتَرْسيخِهَا في «نسيج المُجْتمع»، وإثْرَاءِ «اللّغة العربيّة» بـ«المُصْطلحات العِلْميّة والتّقنيّة»، لتَسْتَجِيبَ لطبيعة التَّحدِّيات التي تَفْرِضُهَا «الحركة العِلْميّة - التّقنيّة»، وتُوَلِّدُهَا مُقْتضياتُ «مُجْتمع المَعْرِفَة»؛ وهذا ما يُؤَكِّدُهُ نبيل علي[٩٩] بقوله: (إنّ اللّغَةَ هي مَدْخَلُنَا لتَهْيئةِ المُجْتمعات العربيّة وتَحْويلِهَا إلى مُجْتمعاتٍ مَعْلُوماتيّة)، ويُواصِلُ ليقول: (إنّ «تَعْريب العلوم» يُعَدُّ خُطْوَةً مُهمّةً للغاية لتَنْمية المهارات الذِّهْنِيّة وتَوثيقِهَا). وأمّا عبد العزيز السّماري، فيرى أنّ حَصْرَ «اللّغة العربيّة» فقط في «تَعْليم الدِّين والشَّريعة» يُؤدِّي إلى: (تَقْسيم وَعْي المُجْتمع إلى دِينيٍّ وغير دِينيٍّ، وهو حَاصِلٌ بالفِعْل، فالمُغَيَّبُونَ عن «العلوم الحديثة» بسبب «الفَجْوَة اللّغَويّة» يَظَلُّون مُتَقَوْقِعينَ في ثقافةٍ مَحْدُودَةٍ، وعَاجِزينَ عن فَهْم النُّخَبِ الاجْتماعيّةِ في المجالات الأُخْرى، والتي تَلَقَّتْ تَعْليمها الحديث باللّغة الإنْجليزيّة دَاخِلَ أو خَارِجَ الوطن، وهو ما قد يُؤدِّي إلى الانْقسام، وإلى وجود طَبَقِيّةٍ مَعْرفيّةٍ، لا تَلْتَقِي إلاّ في أشْياءٍ مَحْدُودَةٍ، لكن تَخْتَلِفُ في الرّأي بشِدّةٍ؛ نظراً لاخْتلاف المَرْجِعِيّة اللُّغوِيّة أو الحضاريّة)[١٠٥].

ومن المُهمّ أنْ نسوق هنا رأْي زكي نجيب محمود في هذا الشّأْن، حيث يقول: (إنّ أوضح ما يُمَيِّزُ «العَصْرَ» هو «العِلْمُ» وتكْنياته، هذا أمْرٌ لم يَعُدْ مَحَلّ خِلافٍ، فإذا صَبَبْنَا هذا المَضْمونَ العِلْميّ بمُمَيِّزاتِهِ في وِعَاءَيْن من عندنا، كانتْ النّتيجة التي نُريد؛ أمّا الوِعَاءُ الأوّلُ فهو «اللّغَة»، فانْقُلْ إلى «اللّغة العربيّة» نِتَاجَ «الفِكْرِ العَصْريّ» كما هو يُصْبِحُ هذا النِّتَاجُ عربيّ القَسَمَاتِ والمَلامِح، وأمّا الوِعَاءُ الثّاني هو قَواعِدُ السُّلُوكِ من

تَشْريـعٍ وعُرْفٍ، علـى شَرْطِ ألاّ تتعارض هذه القَواعِدُ مع مـا تَقْتَضِيه «عُلومُ العَصْرِ» على اخْتلافِهـا فـإنْ تعارضتـا وَجَبَ الإبْقَاءُ على «عُلـوم العَصْرِ» وحَذْفُ مـا تعارض معها من قَواعِد السُّلُوك، وإنّي على يقينٍ بأنّ الأنْمَاطَ السُّلوكيّة الإقليميّة المُحَايِدَةَ بالنِّسْبَةِ لأحْكَامِ «العِلْـم» كَافِيةٌ وَحْدَهَـا أنْ تصون للأُمّة مُمَيِّزاتٍ تُمَيِّزُهَا من سِواها، وبهذا - فيما أتصوَّر - نُسَايـرُ عَصْرَنَا بـ«الفِكْرِ العِلْميّ»، ونُمَيِّزُ أنْفسنـا بـ«اللّغَة» وبهذه الأنْمَاطِ السُّلُوكية التي نَتَفَرَّدُ بها)[٢٠]. وأمّا محمد عابد الجابريّ، فإنّه يرى أنّ «الحَلَّ الطَّبيعيّ» لـ«مُشْكلة اللّغَاتِ المحليّة» يجب أنْ يَمُرّ عبْر «تَعْميمِ العِلْمِ ونَشْرِ المَعْرفة العِلْميّة»، وذلك لأنّ: (لُغَةُ «العِلْمِ» في الوطن العربيّ، من الخليج إلى المُحيط، لا يُمْكِنُ أنْ تكون إلاّ اللّغة العربيّة، ليس لأنّها كانـتْ كذلـك في الماضـي، وهي كذلك إلى حَدٍّ ما فـي الحَاضِر، بَلْ أيضـاً لأنّ أيّة لَهْجَةٍ دَاخِـلَ الوطن العربيّ لا تَسْتطيعُ أنْ تَتَحَـوَّلَ إلى لُغَةٍ عِلْميّةٍ تطالُ اللّغة العربية، هذا فَضْلاً عن انْتشار هذه الأخيرة واحْتلالها مَكانَةً مَرْمُوقَةً بين اللّغَاتِ الحَيّةِ في العَالَم)[١].

وهكـذا تَتَجَلَّى أهميّةُ «التَّعْريبِ» و«النَّشْرِ» في مجالات «الثَّقافة العِلْميّة» على جَبْهَتَيْ «التَّرْجَمَـة والتَّأْليف» لتَعْزيزِ دَوْرِ «اللّغة العربيّـة»، وتَأْصيلِ تَفَاعُلِهَا مع «الحركة العِلْميّة - التّقنيّـة»، ودَمْجِ المُجْتمع بمُخْتلـف شَرَائِحِهِ في أبْعَادِهَا الفِكْريّـة والمَعْلُوماتيّة والثقافيّة والتَّنْمَويّـة. إنّ «التّرْجَمَةَ» لا تَعْنِي فقط «نَقْـلَ المَعْلُومات» من لُغَةٍ إلى أُخْرى، ولكنّها تقومُ بدَوْرٍ ريادي جَنْبَاً إلى جَنْبٍ مع نشاط «التّأْليف» في إذْكاء تفاعُلٍ فِكْريٍّ وثقافيٍّ ومُجْتمعيٍّ يُرَسِّـخُ القُدْرَةَ علـى اسْتيعابِ الوَافِدِ المُفيـدِ وهَضْمِهِ وتَطْويعِهِ - لُغَويّـاً وفِكْريّاً -، ليتهيَّأَ المُجْتمـعُ ثقافيّـاً للتَّعَامُلِ مـع المُسْتَجِـدَّاتِ الحديثة والمُتَغَيِّـرَاتِ المُتَسَارِعَـة؛ وهذا ما يُؤَكِّـدُهُ فلاح سعيد جبر، حيث يـرى أنّ سياسة «تَعْريب العِلْمِ والتّقْنيـة»: (تُوسِّعُ القَاعِدَةَ الجماهيريّـةَ التي تتعاملُ مع «العِلْمِ» في حُقُولِ الإنْتـاجِ المُخْتلفة، وتُطْلِقُ طاقات الابْتكار والإبْداع لأوسع قِطَاعَاتِ الشَّعْب)[٧٥].

إنّ الحديـث عن «العَوْلَمَةِ»، و«مُجْتمع المَعْرِفَة»، وتحدِّيات «الأَلْفيّة الثّالثة»، هو - في وَاقِـعِ الأمْرِ - حديثٌ عن طُرُقِ نَفَاذِ المُجْتمعِ بمُخْتلف شَرَائِحِهِ إلى «المَعْرِفَةِ المُعَاصِرَة»، وسُبُـلِ اسْتيعابِ «العلوم الحديثة»، ووسائلِ «توطين التّقْنيات المُتَطَوِّرَة»، وهذا لن يَتَحَقّقَ

بحـالٍ إلاّ بواسطـة «التّرْجَمَـةِ» التي تَدْفَـعُ بالمُجْتمع إلـى الانْفِتَاحِ على مُعْطيـاتِ العَالَم بأسْرِه، وتُمَكِّنُ كُلَّ الأطْيَـافِ الاجْتماعيّة من التّفَاعُلِ معها ومُوَاكَبَةِ إنْجازاتِها. ولهذا فإنّ مـا وَصَفَهُ بول ريكـور (Paul Ricoeur) بـ«مُعْجِـزَة التَّرْجَمَة»[٨٣] يَبْقَـى وَصْفاً دقيقاً لما تَتَمَخَّضُ عنه هذه العمليّة من نتائـجَ بَاهِرَةٍ عند النّجاح في تَطْبيقِهَـا بانْضِبَاطٍ وجِدِّيَّةٍ؛ ممّـا يَسْتَدْعِي الجُهْدَ الجَادَّ لنَقْـلِ «قضيّة التَّرْجَمَةِ» من إطَارِ الطُّمُـوحِ والتّنْظيرِ والتَّمنّـي إلـى وَاقِعِ التّطْبيقِ والعملِ والإنْجاز، فكما يقولُ عبـد العزيز السّماري: (المُجْتمعُ العربيُّ فـي أمسّ الحاجة لتوحيد الجُهُود العربيّة لإحْياء «بَيْت الحِكْمَة» من خلال مَنْظُومَةٍ عربيّةٍ مُوَحَّـدَةٍ ومُؤَهَّلَةٍ للقِيام بتَرْجَمَةٍ فَوْرِيّةٍ لمُخْتلف العلوم، ثمّ تَقْديمها للعامّة وللمُتَخصِّصين بلُغَةٍ عربيّـةٍ سَلِسَةٍ، وخُصُوصاً ما يَسْتَجِدُّ في العلـوم الأساسيّة في مُخْتلف التَّخصُّصات العِلْميّـة، وأكاد أَجْـزِمُ أنّ تَكْلِفَتَهَـا الماليّة ستكـونُ أقلّ بكثيرٍ ممّا يُصْـرَفُ على كثيرٍ من الأُمُور الثّانويّة والتّرفيهيّة في حياة الإنْسان العربيّ)[١٠٥].

٨-٢-٣-ج) بين «حِمَايَة البِيئة» و«حِمَايَة اللغَة»:

بالتّأَمُّـلِ في الوَاقِعِ العربيّ، نجد أنّ قضيـة «التَّعْريب» - تَرْجَمَةً وتَأْليفاً - في مجالات «العلـوم والتّقْنيـة» قد لَقِيَتْ إهْمالاً وجُحُوداً كبيرَيْن يَبْلُغَـانِ - في رأْيي - درجةَ الجِنَايَةِ في حَقّ فِكْرِ هذه الأُمّة ومُسْتَقْبَلِ أجْيالِها؛ فـ«التّعْريبُ» هو المِحْوَرُ الرّئيسُ الذي يَقِفُ وراء نجاح برامِجِ «نَقْل التّقْنية وتوطينها»، فلا يُمْكِنُ بحالٍ لأيِّ أُمّةٍ أنْ تُنْجِزَ على صعيد العلوم وتُوَاكِبَ التَّطَوُّرَ التّقنيّ إلاّ إذا أَصْبَحَتْ «الحركةُ العِلْميّةُ» جُزْءاً عُضْويّاً من «النَّسيج الثّقافيّ» للأُمّة، وتفاعلـتْ - بشَكْلٍ قـويٍّ - مع مُؤَسَّسَاتِه وجماعاتِـه وأفْرَادِه. بطبيعة الحـال، لا يتأتّى هذا الأَمْـرُ إلاّ إذا وجـدتْ هذه الحركـةُ جُذُورَهَا في «لُغَةِ الأُمّـة»، وتَرَسَّخَـتْ مَعَالِمُهَا في «بِنْيَةِ المُجْتمـع»، وبذلك يَتَحَقّقُ ما أشار إليه عبد العزيـز التويجري بقوله: (وفي جميع الأحْوال فـإنّ اللّغـة العربيّة تَحْتَاجُ مِنَّـا إلى تضافُرِ جُهُودِنَـا لخِدْمتِها ولتَجْديدِهـا، ولتوفيرِ أسْباب النُّهُوضِ أمامها، لتكـون لُغَةَ الحياة وليستْ لُغَـةَ الكُتُبِ التي نُسَطِّرُ، ولُغَـةَ المُسْتَقْبَلِ الذي نصوغُهُ بعملنا المُشْتَرَكِ في المجالات كافّة، وليستْ لُغَةَ الماضي الذي نَزْهُو به)[١٠٦].

مـن ذلك المُنْطَلق، فإنّه يَنْبَغِي أنْ لا نَسْتَغْرِبْ من المَوقِعِ الخَجُولِ الذي تَحْتَلُّهُ «الأُمّة العربيّة» على خريطـة «التَّنْمية والمَعْرفة والعلوم والتّقْنية»، فهو نِتَاجٌ طبيعيٌّ لإهْمَالٍ طويلٍ لقضيّـة «التَّعْريب والنَّشْر العِلْميّ»، حيث أَمْضَتْ مُؤسَّسَاتُنَا التّعْليميّة والثّقافيّة والإعْلاميّة عُقُـوداً من الزَّمنِ تتباكى عليها، وتَتَغَنَّى بهـا في كُلِّ مُنَاسَبَةٍ ومَحْفَلٍ، وتَخْطُبُ وِدَّهَا في كُلِّ مقامٍ ومقالٍ، ولكن العطاء بَقِيَ هزيلاً ومُشَتَّتاً في جامعاتِنا ودُورِ نَشْرِنَا وفعّاليّاتِنا الثَّقافيّة واهْتماماتِنــا الفِكْريّة، مُؤكِّداً بذلك حالاً مُزْرِياً من البُؤسِ الفِكْريّ والعَجْزِ المَعْرفيّ والتِّيهِ التّنْمَـويّ؛ وهذا مـا يُؤكّدُهُ عبد العزيز التويجـري بقوله: (إنّ النُّهُوضَ باللّغة العربيّة من النّواحِـي كافّةً يجبُ أنْ يَتَصَـدَّرَ أولويّات العمل العربيّ المُشْتَـرَك على جميع المُسْتويات. ولا أقولُ العمل العربيّ الثّقافيّ التّعْليميّ فحسبْ، بَلْ أقولُ العمل العربيّ العامّ على مُخْتلف الأصْعِـدَة، لأنّ النُّهُوضَ باللّغة ليس مَسْأَلَةً ثقافيّةً، ولا هــي مَسْأَلَةٌ تَرْبويّةٌ تَعْليميّةٌ فحسْب، وإنّما هي مع ذلك مَسْأَلَةُ السِّيادَةِ والأَمْنِ والاسْتِقْرَارِ والمصير)[١٠٦]. وأمّا الحقيقةُ الثّابتَةُ، التــي تُكَرِّسُهَا التَّجَارِبُ الماضية على مدى قَرْنَيْن، فهي أنّنــا سنظلُّ نراوحُ مكاننا، ونَجْتَرُّ أحْلامنــا، مــا لم نُحْدِثْ تلك النَّقْلَـةَ الثّقافيّة والفِكْريّة – نَوْعاً وكَمّاً – فــي كِيانِنا التّعْليميّ والاجْتماعــيّ والإعْلاميّ عبْر توظيـفِ «الثَّقافة العِلْميّــة» بأشْكَالِهَــا المَعْلُوماتيّة والثّقافيّة والفِكْريّــة والتَّنْمَويّة، وغَرْسِهَا في نسيج الحياة ومســار المُسْتَقْبَل، ومن الوَاضِحِ أنّ «اللّغَةَ الأُمّ» هي أداةُ «الثَّقافة العِلْميّة» ووسيلتُها ووعاؤها للتَّغَلْغُلِ في «خلايا المُجْتمع» ومُكَوِّنَاته.

عندما تَتَحَدَّثُ «أدبيَّاتُ التّنْمية» عن «التّنْمية المُسْتَدَامَة»، وتَضَعُ «الاعْتبارات البِيئيّة» على رَأْسِ القَائِمَةِ، حيث يُهَيْمِنُ الحِرْصُ على تَرْشيد اسْتِخْدَام «المَوارِد الطّبيعيّة» لضمان بقائِها واسْتمرارِها لأجيالٍ مُتتاليةٍ عبْر السّعي الدّائِم لتَطْويرِ نَوْعِيّة الحياة الإنْسانيّة، مع الأَخْذِ في الاعْتبار «قُدْرات النِّظَام البِيئيّ» الذي يَحْتَضِنُ الحياة وإمْكَانَاتِهَا، فإنّه لا يُمْكِنُ إغْفَـالُ «الجَانِب الثَّقافيّ والمُجْتمعـيّ» في تَأْسيسِ تلك المَنْظُومَــةِ المُتَنَاغِمَةِ وتَطْويرِها؛ فتفاعُـلُ الإنْسان مع «المَنْظُومَةِ التّنْمَويّة»، وانْسِجَامُـهُ مع مُقْتضياتِها الفِكْريّة والمعيشيّة والثّقافيّــة والبِيئيّة، وتَكَيُّفُـهُ مع مُقَوِّمَاتِهَا العِلْميّــة والعمليّة، وقُدْرَتُهُ علــى تَطْويرِ أدواتِها وتوظيــفِ مُعْطياتِها على الصّعيـد المحليّ المُبَاشِر؛ كُلُّ ذلك – فــي نهاية المطاف – هو

العُنْصُرُ الذي يُحَدِّدُ نجاح «التّنْمية» واسْتمرارها. ولذا فإنّنا إذا كنّا نَحْرِصُ على حِرَاسَةِ «مَنْظُومَـةِ التّنْمية المُسْتَدَامَة» وتَطْويرِهَا عبْر برامِج «حِمَايَـة البِيئة»، فإنّ «حِمَايَةَ اللّغَةِ» تَقَعُ حَتْماً ضمْن تلك الشُّرُوطِ والمُتَطَلَّبَاتِ والبرامِج؛ لتأْمين التّفاعُلِ الكَامِلِ بين مُكَوِّنَاتِ المُجْتمـع، واسْتقطـابِ جُلّ طاقاتـه ومَوَاهِبه، والتّوظيـف الأشْمل للإمْكانـات والمَوَارِد، والحِفَاظِ على المُقَوِّمَاتِ الفِكْريّة والتُّرَاثيّة.

إنّه من المَعِيبِ أنْ نرى أنّ بعض الجامعات العربيّة قد وَقَعَتْ في الخطأ الجسيم الذي يَتَوَقَّـعُ تَعْليماً رفيعاً، وبَحْثـاً أصيلاً، وتَنْميةً فَاعِلَةً، بينما تكونُ «اللّغَـةُ الأُمّ» في ذَيْلِ قَائِمَةِ اهْتمامات التّخْطيـط وإسْتراتيجيّات العمل، وتَحْظَى عندهم برامِـجُ «التّأْليف والتّرْجَمَة والتّعْريـب» بأقلّ الدّعْم المَعْنويّ والمـادّيّ، إنْ حَظِيَتْ بشيءٍ؛ والغريبُ أنّ هذه الجامعات تُخَطِّـطُ للّحَـاقِ بـ«مُجْتمع المَعْرِفَـة» وتَأْسيسِهِ في أوطانِها، وتَتَغَنّى بدَفْـعِ «عَجَلَة التّنْمية» وتَكْثيـفِ أنْشطتِها، بينمـا تُهْمِلُ الدّوْرَ الرّئيسَ لـ«اللّغَةِ الأُمّ» في تَأْسيسِ ذلك «المُجْتمع المَعْرفيّ»، وتَحْقيقِ «شُرُوط التّنْمية»!.

وأمّـا في خِتَامِ هذا الطَّرْحِ، فإنّي أُقِرُّ بأنّ جيلنا قد انْتَهَتْ صَلاحِيَّتُهُ في القُدْرَةِ على اسْتيعابِ هذه المُعْطيات، والتّفاعُلِ معها بحيويّةٍ؛ لإحْدَاثِ تلك «النَّقْلَة المَنْشُودَة» – فِكْريّاً وثقافيّـاً وعِلْميّـاً –، فكما قالوا «منْ شَبَّ على شيءٍ شَـابَ عليه»، ولكن يَنْبَغِي أنْ نَهْتَمَّ بما نَتْرُكُهُ لأجيالِ المُسْتَقْبَلِ، وبما نَزْرَعُهُ في تُرْبَتِهِمْ، وبما نُعَوِّدُهُـمْ عليه، فمن المُهِمّ أنْ نَتَأَكَّدَ بأنّنـا نَضَعُ البُذُورَ السَّليمةَ لـ«حَرَاكٍ ثقافيٍّ» قَادِرٍ علـى التَّعَامُلِ مع عَصْرِهِ – عِلْمِيّاً ولُغَويّاً وتَنْمَوِيّاً وفِكْرِيّاً –.



جِمَاعُ القَوْلِ

٩-١) مَدْخَل:

سعينـــا إلى التَحَرِّي – عبْر فُصُولِ هذا الكِتَاب – عن أَبْعَادَ «الأَزْمَةِ» التي تُعَانِي منها «المُجْتمعاتُ العربيّةُ» في مُحاولاتِها المُتَعَدِّدَةِ لـ«النَّهْضَةِ» وبرامِجِها المُتَنَوِّعَةِ لـ«التّنْمية»، ورَصَدْنَـا مَحَطَّاتٍ ووَقْفَـاتٍ لمسيرة «المُثقّف العربيّ» وهو يُحاوِلُ جَاهِـداً أنْ يَسْبُرَ أغْوَارَ «الإشْكَاليّـة» المُتَفَاقِمَـة، وأنْ يجـد مَخْرَجـاً منهـا، وأنْ يقوم بمـا وَصَفَهُ نـادر فرجاني بـ«المَشْرُوع التَّاريخيّ»[١١] في تَطْوير «نَمُوذَجٍ عربيٍّ للتّنْمية».

لقـد تَعَدَّدَتْ أُطْرُوحَـاتُ المُثقَّفين، وتَنَوَّعَتْ مُبَرِّرَاتِ المُفكّريـن، في تَحْديدِ أسْبَابِ فَشَـلِ «المَشْرُوعِ النَّهْضَويّ» وإخْفَاقِ «خُطَطِ التّنْميــة»؛ فمنهم من رأى أنّ الخَلَلَ يَكْمُنُ في «البِنْيَـةِ السِّياسِيّة» في العَالَمِ العربيّ، وشُيوعِ «ثقافة الاسْتِبْدَادِ»، وغِيَابِ «الدِّيموقراطيّة» و«الحُرِيّـة»، والقُصُـورِ فـي توفيـرِ مُتَطلَّبَـاتِ بِنَـاءِ «الدَّولـة العَصْريّـة» (دولـة القانون والمُؤَسَّسَـات)؛ ورأى آخَرُون أنّ العَيْـبَ يَكْمُنُ في «طبيعة المُجْتمعات العربيّة» التي تُعَظِّمُ مفاهيـم «القبيلة» و«العشيرة»، وتَرْتَعُ فـي رُبُوعِ المُحَابَاةِ والوَسَاطَـةِ والمَحْسُوبِيّاتِ التي تَطْغَـى على الرُّؤية السّديدة عند اتِّخَاذِ القرارات وتوزيـعِ المَسْؤوليّات؛ ورأى بعْضهم في «نظريّة المُؤامرة» مَرْتَعاً رَحْباً لتَبْرير وَاقِعِ التّخَلُّفِ والهزائم والنّكبات، واسْتَسْلَمَ بعْضهم لحـالاتٍ من «الانْبِهَـارِ» بحضارة الغَرْبِ ومُعْطياتِه؛ ممّا شَلّ مـن قُدْرتهم على التّمْحيص العَقْلانـيّ لأُسُسِ هذه الحضارة ومُقَوِّمَاتِهَا، بينما راح آخَرُون يَنْكَفِئُون على أنْفسهم خَوْفاً من ضيــاع «الهُويّة». وأمّا ثُلّةٌ أُخْرى، فقد تَلَمَّسَتْ في «الأُطُرِ الثّقافيّة»، وبرامِجِ «الإصْلاح الاجْتماعـيّ»، وتَطْويرِ «المَنَاهِجِ التّعْليميّة»، ودَعْـمِ مَشْرُوعات «البَحْث العِلْميّ»، واسْتِيرادِ

«مُقَوِّمَاتِ التِّقنيــة» ونَقْلِهَا، مَدْخَلاً إلى إحْدَاثِ التَّغْييرات الإيجابيّة في الوَاقِعِ العربيّ، إلاّ أنّ كُلَّ تلـك الطُّرُوحَــاتِ - فــي مُجْمَلِهَا - كانــتْ - وما زالتْ - تُعَانِي مــن صِياغَاتٍ تَتَّسِمُ بالعُمُوميّة والارْتِجَالِ والحماس اللّفْظيّ.

وهكــذا نجــدُ أنّــه بالرّغْم مــن كُلِّ تلـك الطُّرُوحَــاتِ والجُهُــودِ والاجْتِهــاداتِ فإنّ «المُجْتمعات العربيّة» في تَجْربتِهَا مع «النّهْضَة» - على مدى قُرابَة القَرْنَيْنِ - فَشِلَتْ فَشَلاً ذريعــاً في خَلْقِ مُسْتَلْزَمَــاتِ «الإصْلاح النَّهضَويّ» و«التَّنْمية الشَّامِلَــة»؛ وبالتّالي بَقِيَتْ كُلُّ الشِّعَــارَاتِ الكُبْرى، التي طَرَحَتْهَا التّياراتُ والنُّخَبُ العربيّة المُخْتلفة، مُجَرَّدَ راياتٍ تُلْهِبُ الحماس وتُدغْــدِغُ المشاعِر، وبَقِيَتْ كُلُّ الدِّراسات والأُطْرُوحــات حبيسةَ عُقُولِ أصْحابها أو أسيــرةَ مَوَاقِعِ النُّخَبِ في المكْتبات والجامعات والنّدوات والمُؤتمرات. وأمّا على صعيد الوَاقِــعِ الاجْتماعــيّ والسّياســيّ، وحِسَابات الإنْتاج و«معاييــر التَّنْميــة» الموضوعيّة، فإنّ المُشْكلات ما فَتِئَتْ تَتَفَاقَمُ، والأزْمَات تَسْتَفْحِلُ، ممّا يُعِيدُ إلى الوَاجِهَةِ السُّؤالَ ذاته الذي يــكادُ يَبْدُو أزليّاً، وتَرَدَّدَ في فِكْرِ الأُمّــة منذ بِدايات القَرْنِ التّاسع عشر الميلاديّ: (لماذا تَأَخَّرنَا وتَقَدَّمَ غيرُنا؟).

لقد تَنَبَّهَ زهير الكرمي(٧٧) - منذ السَّبعينات في القَرْن الماضي - إلى الوَضْعِ الفَادِحِ في «الفِكْرِ العربيّ» الذي لم يَسْتَطِعْ أنْ يُمَيِّزَ بين مَفْهُومَيْ «الحضارة الغَرْبيّة» و«الحضارة العِلْميّة الحديثة»؛ فللأولى: (جُذُورٌ دِينيّةٌ وفَلْسَفيّةٌ وَاضِحَةٌ ومُنَاخٌ فِكْريٌّ مُمَيِّز)، وللثّانية: (طبيعــةٌ عَالَميّــةٌ غيــر مُرْتَبِطَةٍ ببِيئةٍ مُحَــدَّدَةٍ أو بوطــنٍ أو بأُمّة)، ويَخْلُصُ الكرمي إلى نتيجــةٍ مُهِمّةٍ وهي أنّ: (زُعمــاء الفِكْرِ العربيّ المُتَفَتّحِ غرقوا فــي بِحَارِ الحضارة الغَرْبيّة «الليبراليّة» يُتَرْجِمُونَ تُراثَهَا وإنْتاجَها الثّقافيّ وبشَكْلٍ خاصٍّ الأدبيّ والفَنِّيّ منه، بَلْ وارْتَدَّ بعْضهــم إلــى أُصُولِهَا اليونانيّة والرومانيّة، وكُلُّ هذا جميلٌ، لو أنّه كان جُهْداً ثانويّاً، أو لم يَسْتَنْفِــدْ كُلَّ الطّاقاتِ الفَعّالَةِ في ذلك الزَّمن)؛ وأمّا المَأْخَذُ الرَّئيسُ - وفْق طرْح الكرمي - فهــو أنّ مُثقّفي الأُمّة (لم يُمَيِّزوا بين «الحضارة الغَرْبيّــة» و«الحضارة العِلْميّة»، لا..بَلْ أنّهــم عُمُوا عن «الحضارة العِلْميّة» كُلِّيَّةً، ووَجَّهُوا جُهْدَ الأُمّة العربيّة سنواتٍ طوالٍ توجيهاً

خَاطِئـاً، وكانتْ الأُمّةُ مُطْمَئِنَّةً خلالها إلى أنّها سَائِـرَةٌ على الدَّرْبِ، فإذا بها تَكْتَشِفُ أنّها كانتْ تَحُثُّ الخُطَى في دَرْبٍ آخَر مُخْتلفٍ، ولا يُؤَدِّي إلى نفْس الهدف المُبْتَغَى).

لقـد بَقِيَتْ الأَسْئلةُ حيرى تَائِهَةً منذ بُزُوغِ ما أَطْلَقُوا عليه اسْم «عَصْر النَّهْضَة»؛ لأنّ «المُجْتمعـات العربيّة» لم تُغَيِّرْ من صِيَغِ الأسْئلة، ولم تُبَدِّلْ طُرُقَ التّعامُل معها، ولم تُطَوِّرْ نَمَطَ خِطَابِهَا؛ وأمّا في حالاتٍ جريئةٍ وعميقةٍ مَحْدُودَةٍ - كما وجدنا في سِياق هذا الكِتَاب -، فإنّـه - بعـد محاولات التّفْكيكِ والنّقْدِ والتّحْديثِ والتّحْليـلِ - يَرْتَدُّ «الخِطَابُ العربيُّ» مـن جديدٍ إلى أُصُولِهِ الخَطَابيّة ومُتُونِهِ اللّغَويّة وشُرُوحَاتِهِ البلاغيّة، وفي أَحْسن الحالات يُغْـرِقُ في المُعالَجَاتِ الفَلْسَفيّة، ويَحُومُ حول الحِمَـى ولكنّه لا يَقَعُ فيه!. وفي هذا الفضاء التّنظيـريّ الشّاسِـعِ بين المُدَاولاتِ المُتَكَـرِّرَةِ واجْتِرَارِ الألْفَـاظِ المُتَشَابِهَة، فإنّ شيئاً ذا بـالٍ لم يَطْرَأْ علـى «الوَعْي العربيّ»؛ صحيـحٌ أنّ هناك تحوُّلاتٍ لَفْظيّـةً ومُعَالَجَاتٍ شَكْليّةً ومُصْطلحاتٍ حديثةً، ولكنّها كُلُّها لم تُلامِسْ شِغَافَ «الوِجْدَانِ العربيّ» لتَدْفَعَهُ في الاتّجاه الصّحيـح، ولـم تَسْتَثِـرْ فيروسات عَقْلِـهِ لتُحَفِّزَهُ على طريـق الإنْتاج والإبْـداع، ولذا بَقِيَ «الوَاقِعُ العربيّ» بمَنْأَىً عن ذلك «التَّحَوُّلِ النَّوْعيّ» على «دَرْبِ النّهْضَة» و«مَسَارِ التّنْمية».

٩-٢) بَرَامِجُ «التّنْمية النَّمَطِيّة»:

لقـد عَاشَتْ «المُجْتمعـاتُ العربيّةُ» أنْمَاطاً مُخْتلفة من سياســات «التَّنْمية» وتجارِب «النَّهْضَــة»، واعْتَمَدَتْ - اعْتِمــاداً شِبْه مُطْلَقٍ - على نَقْلِ نمــاذِج جَاهِزَةٍ من «المُجْتمعات الغَرْبيّة» واستِنْسَاخِ تجاربِها دون مُساءَلةٍ موضوعيّةٍ لمُحْتواها، أو تَكْييفٍ جَادٍّ لمضامينها؛ لتتحوَّلَ بذلك إلى مُجَرَّدِ «أنْمَاطٍ تَقْليديّةٍ» يُجَرِّبُهَا الجميع، وتَفْشَلُ مع الجميع، فكما يقولُ نادر فرجاني: (قد صار فَشَلُ هذا النّموذج مُوَثَّقاً ممّا يَجْعَلُ الخَوْضَ في الموضوع من قبيل التَّكْرَارِ المُمِلّ)[١١]. وفي هذا السِّياق يَنْبَغِي أنْ نَتَوَقَّفَ أمام فِكْرَةِ «المراكِز المُضِيئة» التي طَرَحَهَــا أحمد زويل[٧٠]، وهي: (مُدُنٌ عِلْميّةٌ رفيعةُ المُسْتـوى ومَرْمُوقةٌ بالمعايير العَالَميّة فــي أكْثر بلاد العَالَمِ تقدُّماً)، وهي بذلك تكونُ علــى النَّسَقِ نفْسه الذي عايشه وتَأَلَّقَ فيه أحمد زويل في أمريكا، ويرى زويل أنّ بإمْكان هذه المراكِز أنْ: (تَصِلَ بالعِلْمِ والتِّكنولوجيا

فـي المجالات التي عُنِيَتْ بها إلـى مُسْتوىً عَالَمِيٍّ بَالِغ الرِّفْعَةِ برغـم الفَقْرِ والجَهْلِ الذي يُحِيطُ بهذه المُدُن الاسْتثنائيّة من عُمُومِ الشَّعْبِ وعَوَامِّ النَّاس).

نَسْتطيـعُ القول إنّ مَفْهُومَ «المراكِز المُضِيئـة» قد اسْتطاع أنْ يَجِدَ له محاضِن عِدّةً منـذ فتْرةٍ ليستْ بالقصيرة في تَجَارِب «المُجْتمعـات العربيّة»، وبالرّغْم ممّا لهذه الرُّؤية مـن وَجَاهَةٍ في مُحاولةٍ للتّصدِّي للوَاقِعِ المُتَرَدِّي، وإنْقَـاذِ ما يُمْكِنُ إنْقَاذُه، إلاّ أنّها ليستْ حَلاًّ للسُّؤال الذي يَطْرَحُهُ ويُجيبُ عنه زويل نفْسه: (هل يُمْكِنُ لـ«العِلْم» أنْ يتفاعل ويُعْطِي دونمـا بيئةٍ مُنَاسِبَـةٍ وأجْوَاءٍ صَالِحَةٍ؟ الإجابـة: لا، فهناك ما يُمْكِـنُ تَسْميتها بـ«الشُّرُوطِ الاجْتماعيّـة للعِلْم»، ولـولا هذه الشُّرُوطِ لمـا أَمْكَنَ لـ«العِلْـم» أنْ يَنْهَضَ بذاتـه أو يَنْهَضَ بمُسْتَخْدميه، فـ«العِلْمُ» ليس وَهْبَاً أو عَطَاءً بقَدْرِ ما هو كَسْبٌ واجْتِهَاد)[٧٠]. وهكذا نجدُ أنّ هذه «المراكِز المُضِيئة»، باعْتِرافِ زويل، هي قَفْزٌ على وَاقِعِ «المُجْتمعات العربيّة» التي – في رأْيه – قد (تَأْخُذُ وَقْتاً طويلاً لتُصْبَغَ بالطّابَعِ العِلْميّ، وقد لا يكونُ من الحِكْمَةِ الانْتظارُ حتـى يَتَشَكَّلَ «المُجْتمعُ العِلْميُّ» تِلْقَاءَ ذاته ثم يكـون العِلْمُ والتِّكنولوجيا)[٧٠]؛ ولا شكَّ في أنّ هـذه المراكز وغيرها من برامِج «التّنْمية النَّمَطِيّـة» تَأْتي من باب القَاعِدَةِ المَعْرُوفة: (مـالا يُدْرَكُ كُلُّهُ لا يُتْرَكُ جُلُّهُ)، ولكنّها، دون شَكٍّ ووفْق تَعْبير عُلماء الرّياضيّات، (شَرْطٌ ضَروريٌّ ولكنّه غير كَافٍ) لقِيام «المُجْتمع العِلْميّ».

مـن الوَاضِحِ أنّ مِثْلَ هـذه «المراكِز المُضِيئة»، لو تَغَلَّبَتْ على عَوائِق البيئة المُحِيطة ومُشْكلات البيروقراطيّة المُهَيْمِنَة، فإنّ تَأْثيرها في ما حولها سيكون مَحْدُوداً، وإشْعاعها سيَتَفَـرَّقُ فـي سَمَاءٍ مُلَبَّـدَةٍ بضباب التَّخَلُّـف، ومَوْجَاتِهَـا ستَتَشَتَّـتُ بفِعْلِ غُبَـارِ السّلْبيّة واللامبالاة؛ وأمّا النّتيجةُ الحَتْميّةُ فهي ما أَقَرَّ به زويل[٧٠] عندما تَطَرَّقَ إلى جُهُودِ العُلماء (الذيـن غيَّرُوا شَكْلَ الحيـاة على وَجْهِ الأرْض) فكتب يقول: (ومـا كان لجُهْدهم العظيم وعطائهم الوفير أنْ يكون له هذا الأثر لولا تَهَيُّؤ البيئة الاجْتماعيّة لاسْتِقْبَالِ «العِلْم» الذي أتوه. وفي المَرَّاتِ التي كان المُجْتمع فيها غير أهْلٍ للتّعامُل مع نتائِج «العِلْم» وجُهُود العُلماء كان «العِلْـمُ» يَذْبُل). تلك الحقائق تُؤَكِّدُ أنّ الاهْتمام فقط بتَشْييد جُزُرٍ تِقنيّةٍ أو صِناعيّةٍ، أو بَحْثيّـةٍ مَعْزُولـةٍ عن وَسَطِهَا الجماهيـريّ، يَجْعَلُهَا تُصْبِحُ مُجَرَّدَ «مُجَمَّعَـاتٍ نُخْبَويّةٍ» لا

تُمَثِّلُ ولا تتفاعلُ مع القَاعِدَةِ الواسِعَـةِ من المُجْتمع، وبذلك تَتَحَوَّلُ - في أغْلب الأحْوال - إلـى مُجَرَّدِ «فِيلةٍ بيضاء» كما يقولون، أو تُصْبِـحُ - وفْق مَقولة زهير الكرمي - «مُعْتَقَلاتٍ عِلْميّـةً»[٧٧]؛ فهي غير قَادِرَةٍ على أنْ تُؤثِّرَ أو تَتَأثَّرَ بمُحِيطِهَا بالشّكْلِ المَطْلُوب، ويَبْقَى سِرُّ بقائهـا مُرْتَبِطَاً باعْتمادها الأكْبر على ما يَرِدُهَا من خَـارِجِ البِيئة في عُزْلةٍ عن تفاعُلاتِ الأغْلبيّـة من النّاس في الوطـن وهُمُومِهِمْ ومُتَطلَّبَاتِهِمْ، وهذا مـا يُؤكِّدُهُ فلاح سعيد جبر عندمـا وَصَفَ مِثْل هذه الكِيانـات بأنّها: (تُشَكِّلُ جُزُراً صِناعيّـةً أو زِراعيّةً قليلة الفاعِليّة والتّأْثير على مُجْمَلِ اقْتصاديّات تلك الكِيانات دون أيِّ روابط تَشُدُّهَا إلى بقيّةِ القطاعات التي تَسْتَخْدِمُهَا الأكْثريّةُ السّاحِقَةُ من الجماهير في معيشتِها)[٧٥].

إنّ الإشْكَالِيّـةَ في تلـك «المراكِز المُضيئة» - مهما صَاحَبَهَا من وَهَجٍ إعْلاميٍّ ساعة تَأْسيسِهـا، ومهمـا وَاكَبَهَا من إشـاداتٍ وتفاؤلاتٍ إبّـان تَجْهيزِهَا - هو أنّهـا عندما تَفْقدُ المُسَانَـدَةَ الثّقافيّـة والدَّعْـمَ المُجْتمعيّ، فإنّها تَنْفَصِـلُ تدْريجيّاً عـن مُجْتمعها - زماناً ومكاناً -، وتَذْبُلُ مُقَوّمَاتُهَا وقُدْرَاتُهَا؛ ليُضِيفَ حُضُورُهَا اضْطِرَاباً إلى «المَشْهَدِ الثّقافيّ»، وارْتِبَـاكاً فـي «التَّفَاعُـلِ المُجْتمعـيّ» في شـيءٍ مُمَاثِلٍ لمـا أَسْمَاهُ محمد عابـد الجابريّ (تَدَاخُلُ الأَزْمِنَةِ الثّقافيّة)[١]، بينما تَتَلَبَّدُ رُؤى المُسْتَقْبَل بغُيُوم تحدّياتٍ مُتزايدةٍ وضُغُوطٍ مُتنامية. في الوَاقِعِ أنّ هذه «المراكِز المُضيئة»، وغيرها من نماذِج نَمَطِيّةٍ، ليستْ جديدةً فـي «التّجْرِبَةِ العربيّة»، فهناك الكثيرُ مـن المراكِز الصّناعيّة والبَحْثيّة والعِلْميّة والتّقنيّة التـي تَأَسَّسَتْ وهي تَحْمِلُ أحْلاماً كبيـرةً، وتُبَشِّرُ بوعودٍ ليس هذا مقام عَدِّهَا وتَصْنيفِهَا، إلاّ أنّ الوَاقِعَ المُشَاهَدَ يُؤكِّدُ فَشَلَ كثيرٍ منها، بينما اسْتطاع بعْضها القليل أنْ يَحْتَفِظَ بقَدْرٍ من حيويّته عبْر ارْتباطه بشِرْيان الحياة العِلْميّة والمَدِّ التّقنيّ في العَالَمِ الغَرْبيّ.

وهكـذا تُصْبِحُ تلـك الجُزُرُ التّقنيّـة والبَحْثيّة والعِلْميّـة قليلة الفَاعِليّـة والتّأْثير في مُجْمَـلِ الأنْشطة القَائِمَة، وتَسْتَمِرُّ دون رَوابِط متينـةٍ، تَشُدُّهَا إلى التّفاعُلاتِ السّائِدَةِ في مُجْتمعِهـا؛ ولأنّ «ظَاهِـرَةَ العِلْمِ والتّقْنية» هـي «ظَاهِرَةٌ جماعيّةٌ» تَخْضَـعُ لجُهُودٍ تراكُميّةٍ وتفاعُلاتٍ عميقةٍ على المُسْتوى العملـيّ والفِكْريّ والثّقافيّ، فإنّ تلك «المراكِز المُضيئة» ستَذْوَى حَتْماً إذا انْعَدَمَتْ - أو ضَعُفَتْ - تلك «البِنْيَةُ التَّحْتيّةُ الثّقافيّةُ» التي تَسْنُدُهَا، وتَدْفَعُ

بها على طريق الإنْجاز والرُّسُوخ والتَّطوُّر. وبالرّغم من طَرْح أحمد زويل لمَفْهُوم «المراكِز المُضيئـة» كمَخْـرَجٍ من «عُنُـقِ الزُّجَاجَـةِ التّنْمَـويّ»، إلاّ أنّ الرُّؤية الثّقافيّـة والتّفاعُلات المُجْتمعيّـة تَبْقَى وَاضِحَةً لدى زويل حيث يقول: (وما اعْتَقِدُهُ في هذا الشّأْن هو أنْ لا أمل فـي إنْجاز عِلْمٍ أو تَنْمية شَعْبٍ أو إحْداث التّطوُّر اللائِق لنَمَطِ الحياة دون وجود «المُجْتمع العِلْمـيّ» بركائزه الثّـلاث: العِلْمُ والتِّكْنولوجيـا والمُجْتمع، وكُلُّهم يُشَكِّلُـون مُثَلَّثاً مُتساوي الأضْـلاع، فـ«العِلْمُ» يَخْلُـقُ «التِّكْنولوجيا»، وهـي تَدْفَعُهُ ثانيةً للتّطْويـر، وكِلاهُما لا يُوجَدُ علـى نَحْوٍ مُكْتَمِلٍ إلاّ في «مُجْتمعٍ عِلْميٍّ»، و«المُجْتمع العِلْميّ» بدَوْرِهِ يُهَيِّئُ السّبيل لـ«العِلْم»، ويَسْتَقْبِـلُ نتائِجَه، مُهَيِّئاً السّبيل مَرَّةً أُخْـرى لتَطْبيقاته، وفي الدُّولِ المُتَقَدِّمَةِ يكون إنْجَازُ «العِلْمِ» وإبْهَارُ «التِّكْنولوجيا» ودِقَّتُهَا على قَدْرِ تَشَرُّبِ المُجْتمع بـ«الثَّقافة العِلْميّة»)[٧٠].

وأمّا مالك بن نبيّ، فقد أدْرَكَ طبيعة تلك الجُهُودِ وضَعْفِهَا في تَأْمين العِلاج النّاجِع عندمـا كتب يقـول: (العالَـمُ الإسْلاميُّ يتعاطى هنـا «حَبَّةً» ضِـدّ الجَهْـل، ويَأْخُذُ هناك «قُرْصَـاً» ضِـدّ الاسْتعمار، وفي مكانٍ قَصِيٍّ يتناولُ «عقاراً» كي يَشْفَى من الفَقْر، فهو يَبْني هنـا مَدْرَسَةً، ويُطَالِبُ هنالـك باسْتقلاله، ويُنْشِئُ في بُقْعَةٍ قَاصِيـةٍ مَصْنَعاً. ولكنّنا حين نَبْحَـثُ حالته عن كثبٍ لـن نَلْمَسَ شَبَحَ البُرْءِ، أيْ أنّنا لن نجد حضارة)[٢]. ذلك «التَّفاعُلُ السَّطْحِـيُّ»، وتلـك المُفَارَقَاتُ المُؤَرِّقَـةُ في طبيعة تفاعُلات الحُضُـورِ العِلْميّ والتّقنيّ في العَالَمِ العربيّ، هي الأَمْرُ الذي تَنَبَّهَ إليه أيضاً نجيب عيسى وهو يُقَرِّرُ: (لم تَمُدّ التِّكْنولوجيا الوَافِـدَةُ جُذُوراً عميقة لا في المُجْتمع، ولا حتّى فـي الاقْتصاد، فلم يكنْ للصّناعات التي تَلَقَّتْهَـا وعلـى مُخْتلف أنْواعها ذلك المَفْعُـولُ الانْتشاريّ الكبير الذي عُقِـدَتْ عليه الآمالُ العِرَاضُ لإخْرَاجِ البلاد من مُسْتَنْقَعِ التَّخَلُّفِ، وبَقِيَتْ مَحْصُورَةً في جُيُوبٍ صغيرةٍ ضعيفة الرّوابِط فيما بينها وبين سَائِر قِطَاعَاتِ المُجْتمع والاقْتصاد)[٢٢].

٩-٢-١) هل نَحْتاج إلى آينشتاين عربيّ؟:

لقد تَسَاءَلْتُ أكْثر من مَرَّةٍ: (هل نَحْتَاجُ إلى آينشتاين عربيّ؟)[١٠٧]، والإجابةُ العمليّةُ القَاطِعَـةُ – فـي رأْيي – هي: (أنّنـا لا نَحْتَاجُ في هذه المرْحلة إلى هـذا النَّوْعِ من «التَّرَفِ

العِلْميّ»)؛ فنحن نُخْطِئ كثيراً إذا اعْتَقَدْنَا أنّ فَوْزَ وَاحِدٍ أو اثنين أو أكْثر من العُلماء العرب بـ«جائِــزة نوبل» أو مــا مَاثَلَهَا من جَوائِز قيِّمَةٍ فــي المجالات العِلْميّــة والتّطْبيقيّة، سيكون إعْلانــاً بتَسَنُّمِنَا القِمّة إلى جِــوَارِ عَمَالِقَةِ العَصْرِ الحديث ونُمُورِ الإنْتــاج والتّقْنية. إنّ مِثْلَ هــذا التّصوُّر يُبَيِّنُ سُوءَ فَهْمٍ فَــادِحٍ لطبيعة «الحركة العِلْميّة الحديثــة» ومُتَطَلَّبَاتِهَا، ويُبْرِزُ جَهْلاً جَليَّاً بشُرُوطِ «القَفْزَة التّقنيّة» وضَوابِطِهَا؛ فـ«التَّطَوُّرُ العِلْميّ – التّقنيّ» هو نِتَاجُ «عملٍ جماعــيٍّ»، تتضافرُ فيه جُهُودُ فِرَقٍ مُخْتلفةِ الاهْتمامات العِلْميّة والمهارات التّقنيّة، وليستْ كُلُّها في ذكاء آينشتاين ولا عَبْقريّة نيوتن، ولكنّها – في غَالِبيّتها السّاحِقَة – قُدُرَاتٌ عاديّةٌ جِــدّاً تَــمّ توجيهها وتَفْعيل طاقاتها؛ كُلٌّ في مجاله، وما تَيَسَّــرَ له، وكُلٌّ يُؤدِّي عمله المُحَدَّدَ فــي تلك المَنْظُومَةِ المُتَناغِمَةِ مُدْرِكاً أنّ دَوْرَهُ – مهما كان صغيراً – أمْرٌ لازِمٌ لدَفْعِ العَجَلَةِ وتَأْمين مَسَارِهَا.

إنّ الأسْئلــة، التي تُجَلِي طبيعة هذه الإشْكَاليّة، هي: (ماذا نَتَوَقَّعُ لو قَرَّرَ أحمد زويل، ونُخْبَةٌ من العرب المُهَاجِرين الأكْفَاء، أنْ يعودوا فجأةً إلى أيِّ بلدٍ عربيٍّ، ويضعوا علومهم في خِدْمَةِ «الحركة التَّنْمَويّة» فيه؟ هل سيَتَغَلَّبُ ذلك البلد على مُشْكلات التَّخَلُّف، ويُمْسِكُ بزِمام الإنْتاج، ويُنَافِسُ الآخَرين في مَتَانَةِ اقْتصاده، وجَوْدَةِ صِناعته، وتَفَوُّقِ مُبْتكراته؟ هل سيجــدُ أولئك العُلماء والتّقنيّون «البِنْيَةَ التَّحْتيّة» القَادِرَةَ على دَعْمِ جُهُودِهم، وامْتصاصِ عطاءاتِهم، وتَطْويرِ إبْداعاتِهم؟). وأمّا الإجابةُ عن هذه الأسْئلة فمَتْرُوكَةٌ لخيال المُواطِن العــاديّ، وهــو يجــوبُ بنظره في وَاقِــعِ العَالَمِ العربــيّ، وقــد أمْسَكَتْ بتلابيبــه مُشْكلاتٌ تَعْليميّــة، وبُحُــوثٌ مُشَتَّتَةٌ، وكفاءاتٌ مُهْــدَرَةٌ، وإخْفَاقَــاتٌ إداريّةٌ، وضبابيّــةٌ إستراتيجيّةٌ، وقــراراتٌ مِزاجيّــة. وأمّا الأَمْرُ المُؤَكَّــدُ عِنْدي، فهو أنّ أحمد زويــل، وغيره من الكفاءات المُهَاجِرَةِ، لن يَسْتطيعوا أنْ يَفْعَلُوا شيئاً إزاء هذا الوَاقِعِ إلاّ أنْ يَحْزِمُوا حقائبهم، ويعودوا مــن حيث أتوا، حيــث تتوافرُ لهم «بِنْيَةٌ تَحْتيّةٌ» تَدْعَمُهُمْ في تَفْعيل جُهُودِهِمْ، وتُؤازِرُهُم في تَطْوير طُمُوحَاتِهِمْ.

مــن المُهِمّ أنْ نُدْرِكَ أنّ «الحركة العِلْميّــة – التّقنيّة» حركةٌ بشريّةٌ مُتَلاقِحَةٌ، تتدافعُ على مِساحتها جُهُودٌ شَتَّى، وتتساندُ في رُبُوعِهَا اهتماماتٌ مُخْتلفةٌ، وتتضافرُ على طريقها

تخصُّصـاتٌ مُتَنوِّعـةٌ؛ ومن هـذه الحقيقة، يَنْبَغـي أنْ يَبْرُزَ نَمَطٌ فـي التّخْطيط والتّفْكير والمُمَارَسَـةِ، قَـادِرٌ علـى اسْتِيعابِ تلك المضاميـن، والتَّغَلُّبِ على عقباتِهـا، والتَّحَكُّمِ في مَسَارَاتِهَـا. لقـد أَصْبَحَـتْ «العلوم الحديثـة»، و«التّقْنيات المُتَطـوِّرَة»، عمـلاً مُؤسَّسَاتيّاً ضَخْمـاً، سواءً من ناحية التّمْويل اللاّزِم أو الكثافة البشريّة العَامِلَة، وأَصْبَحَ النُّبُوغُ نِتَاجاً طبيعيّاً لتُرْبَةٍ غنيّةٍ بعناصر النُّموّ المُتَمَثِّلَة في جحافِل من العَامِلين العاديّين ذوي مهاراتٍ مُخْتلفـةٍ وفـي مجالاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ، ودونها يُصْبِحُ أيُّ نُبُوغٍ صَيْحَةً في وادٍ لا تَجِدُ لها صدىً ولا تَتْـرُكُ أثراً. ومن هذا المُنْطَلَق، فإنّ الاهْتمام في «الدُّول النّامية» يَنْبَغِي أنْ يَنْصَبَّ بشَكْلٍ وَاضِـحٍ على توسيع «القَاعِدَةِ العريضة» التي تُمَثِّلُ «البِنْيَةَ التَّحْتيّة» اللاّزِمَةَ لدَفْعِ «الحركة العِلْميّـة - التّقنيّة» وتَعْميقِها فـي «نسيج المُجْتمع»، كما يَنْبَغِي الاهْتمامُ بتعدُّد المُؤسَّسَاتِ - الخاصّ منها والعامّ - التـي تَعْمَلُ - في تَكَاتُفٍ وتَنْسيقٍ - عبْـر «خُطَّةٍ وطنيّةٍ» وَاضِحَةِ الملامِـح وواقعيّةِ الرُّؤية، وتُعْنَى بالفَـرْدِ والجماعة، وتُطَوِّرُ القُـدْرَاتِ المُتَفَاوِتَة، وتُوَظِّفُ المهاراتِ المُتَعَدِّدَةَ، في مَنْظُومَةٍ مُتفاعِلَةٍ في حيويّةٍ وتَكَامُل.

وهكـذا نـرى أنّ الإجابة عـن سُؤالنا: (هـل نَحْتَاجُ إلـى آينشتاين عربـيّ؟) تُوجِزُ الأولويّـاتِ الـلاّزِم تَبَنِّيهَا، كما تُوجِـزُ طبيعـة «الإسْتراتيجيّة» اللاّزِمـة للإسْهَامِ في حَلِّ «إشْكَاليّـة التَّنْميـة»؛ فالعطاءُ العِلْميُّ إنْ بَقِيَ رهينة عَقْلٍ وَاحِدٍ انْتَهَى بنهايته، كما أنّ بقاء العمـل العِلْميّ حبيس أسْوَارِ معاقِل هنا وهناك هو حُكْمٌ عليه بالفَنَاءِ، أو ارْتِهَانُهُ لعطاءاتِ وإنْجازاتِ «المُجْتمعات المُتَقَدِّمَة». إنّ «التّنْمية» العَاجِزَةَ عن التّمَدُّدِ - أفقيّاً ورأْسيّاً - هـي تَنْميةٌ فَاشِلَةٌ؛ لأنّ «التَّجْرِبَةَ التّنْمَويّةَ» الحَقّةَ هي تلك القَادِرَةُ على «التَّمَدُّدِ الأفقيّ»، لتَكْسَبَ إلـى دَاخِلِ حُدُودِهَا يوميّاً قِطَاعَاتٍ جديـدةً ودِمَاءً شابّةً ومُعْطياتٍ محليّةً، وهـي القَادِرَةُ - أيضـاً - على «التَّمَدُّدِ الرّأْسيّ»، فتَتَحَسَّنَ نَوْعِيّتُهَا، ويَرْتَقِي أداؤها، وتَتَعَمَّقَ تفاعُلاتُها. ولا شـكَّ في أنّ تلك «المراكِز المُضيئة»، التي نَصَحَ بهـا أحمد زويل(٧٠)، وغيرها من وسائل «التَّنْميـة النّمَطِيّة»، جُـزْءٌ من الحَلّ، ولكنّها جُزْءٌ غيـر قادِرٍ وَحْدَهُ على إحْـدَاثِ «النّقْلَة» المَطْلوبـة؛ فاقْتِرَاحُ «المَشْرُوعـات التّنْمَوية» على غِرَارِ «المراكِز المُضيئـة» يَتَعَدَّدُ بشَكْلٍ لافِـتٍ للنَّظَرِ في العَالَمِ العربيّ في مجالات الصّناعة والتّعْليم والبَحْث والتّطْوير وغيرها،

ولكنّهـا - فـي مُعْظَمِ الحالات - تَبْقَى مُجَرَّدَ حِبْرٍ علـى وَرَقٍ، أو تَدْخُلُ في متاهات «ثقافة اللّفْـظ» و«مِصْيَدَة البيروقراطيّة»، أو تَخْرُجُ إلـى حَيِّز التّنْفيذ، وقد أصَابَتْهَا نَوازِلُ العَجْزِ والجَهْـلِ والتّخَبُّطِ، لتَتَرَنَّحَ على «خريطة التَّنْميـة» مُشَوَّهَةً وكَسِيحَة. إنّ أكْبَرَ خَوْفي هو أنْ تَتَحَوَّلَ تلك «المراكِزُ المُضيئَةُ» إلى «مُعْتَقَلاتٍ عِلْميّة» وفْق الوَصْفِ البليغ لزهير كرمي[٧٧]، وأكْبَرَ خَوْفِي أنْ لا يكون الطّريق أمام القَاطِرَةِ مُعَبَّداً وسَالِكاً، وأنْ تَعْتَرِضَ حركتها فَجْواتُ «الأُمِّيّـة العِلْميّة»، ويَنْخُرُ فـي قُضْبَانِهَا صَدَأُ «البيروقراطيّة»، ويُوهِـنُ تماسُكها «الفَسَادُ» بأنْواعِـه، وتَنْسِـفُ خُطُوطَهَا «ثقافـةٌ كلاميّةٌ» مُتأصِّلـةٌ تَنْخَرِطُ في متاهـات الإنْشائيّات، وعَواصِف الجَدَل، ونَعْرَاتِ التَّعَصُّب، وفوضى المَحْسُوبيّة.

عُموماً، فإنّنا نَتَّفِقُ بأنّ كُلَّ جُهْدٍ يَصُبُّ في توفيرِ مزيدٍ من الدّعائِم العِلْميّة والوسائِط التّقنيّـة أَمْرٌ مَطْلوبٌ وضَـروريٌّ لكُلِّ مُجْتمع، وبالتّالي فإنّ «المراكِـزَ المُضيئة»، و«معاهِدَ التَّمَيُّـز»، وقِلاعَ الصِّناعة، ومراكِـزَ التّدريب المُتَطوِّرَة، وحَمَلَةَ «جَائِـزَةِ نوبل»؛ كُلُّها أمورٌ مُرَحَّبٌ بها لرَفْعِ وتيرة «التَّنْمية»، ودَفْعِ حركة المُجْتمع، ولكن لكي لا نَحْرُثَ في البَحْرِ يجب أنْ لا تغيب عن إسْتراتيجيّتنا وخُطَطِنَا تلك «الأولويّةُ الأهَمُّ»، وهي العملُ على الحيلولة دون تَحَوُّلِهَـا إلى «فِيَلَةٍ بيضاء» وجُـزُرٍ مَعْزُولَةٍ، والحِرْصُ على تَفْعيلِ تلك الجُزُر، ورَبْطُ بعْضها ببعْضٍ، وتوفيرُ «المُنَاخِ المُنَاسِبِ» لها؛ لتَنْمُـوَ وتَتَرَعْرَعَ وتَزْدَهِر. إنّ هذه «الأولويّةَ الأهَمَّ» تَتَمَحْـوَرُ في أُطُرِهَا المُتَنَوِّعَة، وتَلْتَفُّ في تَرْكيباتِهـا المُتَعَدِّدَةِ، حول «الثّقافة العِلْميّة» بكُلِّ مُكَوِّنَاتِهَـا وأبْعَادِهَا وآفاقِها وقِيَمِهَا وضَوَابِطِهَا، وهي القضيّـةُ التي حَرَصْنَا على تَأْصيلِها في هذا الكِتاب، وسَعَيْنَا إلى إبْرازِ مَعَالِمِهَا وتَأْسيسِ «الرُّؤية الإسْتراتيجيّة» لها.

٩-٢-٢) «الرّأسمال البشريّ» و«نزيف الأدْمِغَة»:

لقـد مَيَّزَ فرانسيس فوكوياما بين مَفْهُـوم «الرّأسمال البشريّ»، ومَفْهُوم «الرّأسمال الاجْتماعـيّ»، وأوضح أنّ: («الرّأسمال البشـريّ» ليس قِيمَةً مُنْتِجَةً ما لم يَسْنُدْهُ «رأسمال اجْتماعـيّ»، بمَعْنَى أنّـك تَسْتطيعُ أنْ تُكَـوِّنَ النّاس في مُخْتلف ميادِيـن المعارِف والمهن والتّخَصُّصـات، ولكنّهـم لن يكونوا حقيقةً مُنْتِجين، ما لم يكـنْ مُجْتمعهم قد تواطأ على

قِيَـم اجْتماعيّةٍ من ثِقَةٍ فـي التَّعامل، والْتِزَام بالتَّعاقُد، ووجود بيئـةٍ اجْتماعيّةٍ تُتِيحُ تَدَفُّقَ المَعْلُومـات وأخْلاقيَّاتِ العمل والجِدِّ فيـه وإتْقَانِه. وهذا كُلُّهُ «رأْسمال اجْتماعيّ» يَأْتِي من التَّربية التي تُوفِّرُهَا الأُسْرَة، ومن رصيد القِيَم والسُّلُوكِ في المُجْتمع)[٣٧].

أمّا أحدُ أبْرز الأوجاع، الذي تُعانِي منه «الدُّول النّامية»، فهو ذلك النَّزيفُ المُسْتَمِرُّ، والخَسَارَةُ المُتَفَاقِمَةُ، فيما عُرِفَ بـ«نزيف الأَدْمِغَة»، ويَتَمَثَّلُ في الهِجْرَةِ المُتزايدةِ لعُلمائها ومُهندسيهـا وأطبّائهـا وتقنيّيها وفنِّيِّيهـا والأيدي العَامِلَـةِ المُدَرَّبَة، فتَنْتَقِـلُ تلك العُقُولُ والمهـاراتُ إلـى تُرْبَةٍ خِصْبَـةٍ في دُول «العالَم الغَرْبـيّ» التي وَفَّـرَتْ كُلَّ الحوافِز، وهَيَّأَتْ كُلَّ العناصِـر لاسْتِقْبَـالِ تلك العُقُـولِ، والاسْتِفَادَةِ مـن طاقاتِها، لتَعْمَلَ في بِيئَـةٍ مُنَاسِبَةٍ قَـادِرَةٍ على تَطْويرها وتَفْعيلِهـا وإثْرَائِهَا، ولتَجُوبَ آفاق «مُنَاخٍ عِلْمـيٍّ» مُحَفِّزٍ على الإبْداع والإنْجـاز. وأمّا ذلك الحديثُ المُتَكَـرِّرُ عن «تَنْويعِ مَصَادِرِ الدَّخْل» فـي «الدُّول العربيّة»، وجَـذْبِ الاسْتثمارات الأجْنبيّة، فـإنّ أشدّ مَوانِعِ «تَنْويع مَصَادِر الدَّخْل»، وأكْبر قُوّةٍ طَارِدَةٍ لـ«الاسْتِثْمَارِ الأجْنبيّ»، هي عَدَمُ توافُرِ البِيئة القَادِرَةِ على التّعامُل مع مُقْتضيات «الحركة العِلْميّـة - التّقنيّـة»، فلا يَتَوَافَرُ فيهـا الأعْداد الكبيرة من العمالـة المُدَرَّبَةِ والمُهندسين الأكْفَـاءِ والبَاحِثيـن المَهَرَةِ والمُجْتمـع المُتفاعِلِ بإيجابيّـةٍ مع احْتياجاتِهـا ومُتَطَلَّبَاتِهَا. وهكـذا نجدُ أنّنـا نَصْطَدِمُ بعَقَبَاتٍ مُتَنَوِّعَةٍ تعـودُ في جُذُورِهَا إلى غِيَـابِ «البِنْيَةِ التَّحْتيّة - الثَّقافيّـة» القَـادِرَةِ علـى التّفاعُلِ مع «شُرُوطِ العَصْـرِ» وتوجُّهاتِه العِلْميّـة، وامْتصاص مفاهيمه وإبْداعاته وأساليبه وآليّاته.

٩-٣) ثالوثٌ في حَاجَةٍ إلى تلاقُح:

عندمـا يَذْكُرُ عبد الله عبد الدائم[١٨] أنّ المُثقّفيـن العرب قد عَجَزُوا عن (تَحْقيق الالْتِحَـامِ العُضْويّ بيـن عطائهم الثَّقافيّ وبيـن مَطَالِبِ المُجْتمع العميقـة)، فإنّ أوَّل ما يَخْطُرُ على الأذْهان - في ضوء طَرْحِنَا في هذا الكِتَاب - ذلك «التَّحَدِّي الأكْبر» المُنْتَصِبُ أمـام «المُجْتمعـات العربيّة»، والمُتَمَثِّلُ في ثَالُوثِ «التّنْميـة - الثَّقافة - العِلْم»، ومن نَافِلَةِ القـول أنّ نُذَكِّـرَ هنـا بما أَكَّدَهُ عبـد الله عبد الدائم بأنّ هـذا لا يَعْنِـي أنْ: (نَفْرِضَ على

المُثقَّفين ألاّ يُجَاوِزُوا الثَّقافة المُلْتَزِمَةَ بهُمُوم المُجْتمع، وأنْ يُهْمِلُوا ألْوان الثَّقافة المُتَنَوِّعَةِ التي تُغَـذِّي الإحْسَاسَ بالجَمَالِ، وتُغْنِي المَشَاعِرَ الإنْسانيّـة على اخْتلاف أنْواعِها، وتُفَتِّقُ الخيـال الذي هـو شَرْطٌ من شُرُوطِ الإبْداع)، ويُقَرِّرُ عبد الله عبـد الدائم أنّه: (في وَسْعِ الثَّقافـة الرَّفيعة، أيّاً كان الموضوع الذي تُعَالِجُهُ، أنْ تُقَـدِّمَ للمُجْتمع زاداً فِكْريّاً وعَاطِفيّاً وجَمَاليّـاً هو بحَقٍّ من أهمّ مَواقِدِ التَّغْيِيـر الاجْتماعيّ)؛ وهنا نجدُ ضَرورة أنْ نَتَحَدَّثَ عن مـا أَسْمَاهُ عبد الإله بلقزيز «المُثقِّف المُنْدَمِـج» (المُثقّف العُضْويّ)، وهو النّمُوذَجُ الذي (يَتَحَوَّلُ رأْسماله المَعْرفيّ إلى أداةٍ من أدوات إنْتاج المَصْلَحَةِ وصَوْنِهَا)[١٨].

لقد انْصَبَّ اهْتمامُنا – في هذا الكِتَابِ – على بَلْوَرَةِ ارْتباط «الثَّقافة العِلْميّة» بالجُذُورِ الفِكْريّـة والاجْتماعيّة والتّنْمَويّة لـ«المُجْتمعات المُعَاصِـرَة»، وأهميّة تَأْسيس هذه «الثّقافة» وتَأْصيلهـا في هـذه المُجْتمعات. ولقد أَبْرَزْنَا – بقَدْرٍ من التّفصيل في هذا الكِتَاب – أنّنا لو نظرنـا إلى أَيٍّ من المُصْطلحـات والمفاهيم المُرْتَبِطَةِ بـ«الحيـاة المُعَاصِرَةِ» لوجدنا أنّ «الثَّقافـة العلميّـة» تقومُ بدَوْرٍ رئيسٍ فـي تَشْكيلِهِ أو تَحْديدِهِ أو تَعْميقِـهِ أو بَلْوَرَتِهِ أو تَفْعيلِهِ أو تَأْصِيلِـهِ؛ فـكُلُّ «المُصْطلحـات المُعَاصِـرَةِ» مِثْـل: «الحَداثَة» و«الحضـارة» و«العَوْلَمَة» و«مُجْتمع المَعْرِفَة»، و«اقْتِصـاد المَعْرِفَة» و«التَّنْمية المُسْتَدَامَة» و«تَنْويع مَصَادِرِ الدَّخْل»، وغيـرُ ذلك كثير؛ كُلُّها تَلْتَفُّ – بإحكام – حول «مَفْهُوم الثَّقافة العِلْميّة»؛ لتَتَّضِحَ أبْعَادُ هذه المُصْطلحات، ومَرَامِيهَا، وطُرُقُ تَفْعيلِهَا، وسُبُلُ تَأْصيلِهَا.

لقـد حَرَصْتُ – بين طيّات هذا الكِتَابِ – علـى تَسْجيلِ مُقْتضيات «الثَّقافة العِلْميّة»، وهـي تتقاطـعُ مع كُلِّ شرائح المُجْتمع، وتتفاعـلُ مع مُؤسَّسَاتِهِ كَافّـةً، وتُرْسِي الأُسُسَ لأيِّ تحَـرُّكٍ جَادٍّ نحو تَحْقيقِ «النَّهْضَة المَنْشُودَة»؛ ممّا يَجْعَلُ من هذه «الثَّقافة» ضَرورةً لازِمَةً فـي «الاعْتِبارات التّنْمَويّة»، ورَكِيزَةً حيويّةً فـي «المُرَاجَعَاتِ الفِكْريّة»، وقضيّةً حَاسِمَةً في «التَّفاعُـلاتِ الاجْتماعيّـة». ولذا فـإنّ دَوْرَ «الثَّقافـة العِلْميّة» في «صِنَاعَـةِ المُسْتَقْبَلِ» في «المُجْتمعـات العربيّة» أَمْـرٌ قَمينٌ بالتّمَعُّـنِ والتّمْحيصِ والتّأْصيلِ والجُهْـدِ الدَّؤوبِ حتى تَسْتَقِرّ القَنَاعَاتُ لدى صَانِعِيّ القَرَارِ في مُخْتلف الهيئات والمُؤسَّسَات والقِطَاعَاتِ – على الصَّعيدَيْنِ الخاصّ والعامّ – بأنّ القضيّةَ ليستْ قضيّةً اخْتياريّةً يَسْمَحُ لنا الزّمنُ بقَبُولِهَا

أو رَفْضِهَـا، ولكنّهـا في الوَاقِعِ قضيّةٌ مصيريّةٌ؛ ففي مَعْمَعَـةِ التّنَافُسِ والاهْتمام المُتنامي عَالَميّـاً بتَأْسيس «مُجْتمع المَعْرِفَة»، وهـو النِّتَاجُ الطَّبيعيّ والمُحَـرِّكُ الحقيقيّ لـ«تَفَاعُلٍ تَنْمَـويٍّ» أصيـل، تُصْبِـحُ الحاجةُ مُلِحَّةً إلـى إشَاعَةِ «ثقافـة المَعْرِفَة» فـي المُجْتمع؛ وفي «الأَلْفيّـة الثّالثة» يَنْبَغِـي أنْ نَعْتَرِفَ بأنّ «ثقافة المَعْرِفَةِ» هـي – في المقام الأوَّل – «ثقافةُ العلوم والتّقْنية».

٩-٣-١) نَحْوَ «التَّخْصيب الفِكْرِيّ»:

مـن المُهِـمّ أنْ تُدْرِكَ «المُجْتمعاتُ العربيّـةُ» أنّ «الإبْدَاعَ العِلْميّ» ليسَ وَمْضَةَ إلْهَامٍ اصْطَدَمَـتْ بالعَقْـلِ في «وادي عَبْقَر»، وليسَ تداعياتٍ تَلاقَحَتْ في جَلْسَـاتِ أُنْسٍ وسَمَر، وليسَ جَعْجَعَةً تَلاطَمَتْ في مُزَايَدَاتٍ بين البشر، ولكنّه أمْـرٌ يَخْتَنِقُ في مِثْلِ تلك الأجْواء ويَذْبُـل، ولا يَنْمُو ويَزْدَهِرُ إلاّ في بَوْتَقَةٍ خاصّةٍ مـن الخيال والانْضِبَاطِ والمُثَابَرَة. من هذه الطّبيعـة، ذات الخصائِـص الفريدة، كانتْ تحدِّياتُ «العمل العِلْمـيّ» مُخْتلفةً عن غيرها من الأعْمال والتَّوجُّهات، وكان القَادِرُونَ عليها والمُتَمَكِّنُونَ منها قِلَّةً نَادِرَةً في المُجْتمعات، وتَـزْدَادُ أعْدَادُهُمْ فـي «المُجْتمعـات المُتَقَدِّمَة» التـي اسْتَوْعَبَتْ تلك الطّبيعـة الخاصّة، وثَابَرَتْ على تَحْقيقِ مُوَاصَفَاتِها، وتَعْميقِ مُتَطَلَّبَاتِهَا، وتَأْصيلِ عَنَاصِرِهَا.

إنّ «الإبْـدَاعَ العِلْميّ» قَفْزَةٌ في «عَالَمِ المَجْهُول» تَسْتَنِـدُ أساساً إلى تَرَاكُمَاتِ «ثقافةٍ مُسَانِـدَةٍ»، تَهْتَـمُّ بالتّأسيسِ العِلْمـيّ الصّحيح، وتَنْميـةِ الحِسِّ الفَطِن، وتَطْويـرِ المُثَابَرَةِ المُتواصِلَـة؛ فتُوقِـظُ المَواهِبَ الكَامِنَة، وتَدْفَعُ بالعمل الإنْتاجـيّ، وتَشْحَذُ طاقات الإنْسان وفِكْـرَهُ لاخْتِـرَاقِ عَوالِم جديدةٍ وآفـاقٍ رَحْبَة. وإذا أخذنا – على سبيـل المِثال – ما أَطْلَقَ عليه آرثر كوستلر (Arthur Koestler)[١٠٨] اسْم «آليّات الرَّبْطِ الثُّنَائِيّ» (Bisociative Mechanisms) التي تَنْتُجُ عنها إبْداعاتٌ وإنْجازاتٌ، فإنّنا نجدُ أنّ المَوهُوبَ لا يَنْطَلِقُ من فَـرَاغٍ، ولكن ما يُقَدِّمُهُ من إنْتَـاجٍ مُتَمَيِّزٍ هو نِتَاجٌ طبيعيٌّ لما أُطْلِـقَ عليه آرثر كوستلر[١٠٨] اسم «عمليّة التَّخْصيب المُتَقَاطِع» (Process Of Cross – Fertilization) حيث تتداخلُ أنْمَـاطٌ فِكْريّةٌ مُتَعَدِّدَةٌ، وتتقاطعُ أُطُرٌ عِلْميّةٌ مُخْتلفةٌ، لتَنْدَمِجَ في ذِهْنِ المَوهُوب، وتتفاعلَ

فـي كِيانِـه، ليَخْلُصَ - عبْر تلـك العمليّة - إلى أبْعَـادٍ جديدةٍ لم تكنْ جُـزْءاً من الأنْمَاطِ الأوليّة التي اعْتَمَدَ عليها، وبَدَأَ منها.

ولكـن كيف تَتَحَقَّقُ شُرُوطُ عمليّة «التَّخْصيب الفِكْريّ» بأنْمَاطِهَا المُتَعَدِّدَةِ وأشْكَالِهَا المُخْتلفـة؟. إنّ الذيـن يَعْتَقِـدُونَ أنّ بإمْكانهـم إعادة «اخْتِـرَاعِ العَجَلَة»، يُهْـدِرُونَ وَقْتهم وجُهْدهم، والذين يُراهِنُون على بِنَاء كِياناتٍ عِلْميّةٍ مُسْتَنِدَةٍ إلى فَرَاغ، يَلْهَثُونَ وراء سَرَابٍ فـي صَحْراء قَاحِلَةٍ؛ فالتَّجْرِبَـةُ الإنْسانيّةُ، وطبيعةُ العَقْلِ البشـريّ، تُؤكِّدَانِ ضَرورة وجود «الوَسَـطِ المُلائِـمِ»؛ لكـي تَسْتَقِرَّ عمليّـةُ «التَّخْصيب الفِكْـريّ» في النّسيج العـامّ للبِيئة، وتَنْدَفِـعَ - بعُنْفُوانٍ تِلْقَائيٍّ - فـي مُجْتمعاتٍ قَابِلَةٍ للتّفاعُلِ معهـا، والانْصِهَارِ في بَوْتَقَتِهَا؛ ومـن الوَاضِحِ أنّه في زمن «العلـوم والتّقْنية» فإنّ «الوَسَطَ المُلائِمَ» هـو وَسَطٌ تَسْتَقِرُّ في قَلْبِهِ «الثَّقافةُ العِلْميّةُ» بصفتها مُرْتَكزاً أساساً ومِحْوَراً حيويّاً.

٩-٤) نَحْوَ «نَمُوذَجٍ عربيٍّ للتّنْمية»:

إنّ الدَّعْـوَةَ قَائِمَـةٌ فـي «المُجْتمعـات العربيّة» - علـى مُخْتلف الأصْعِـدَةِ السّياسيّة والتّعْليميّـة والثّقافيّة والإعْلاميّـة - لحَضِّ الأُمّة على اسْتِيعاب عناصِـر «الحركة العِلْميّة - التّقنيّـة - المَعْلُوماتيّة»، ولكنّها - فـي نهاية المطاف - دَعْوَةٌ غير قَادِرَةٍ على أنْ تُحْدِثَ «النَّقْلَـةَ» المَطْلُوبَةَ على الصَّعيدِ الإنْتاجيّ والعمليّ، بَلْ لعلّها تُسْهِمُ أكْثر في إحْبَاطِ الأُمّة، وتَفَاقُـمِ «الفَجْوَة»، عبْر الاعْتقاد بـأنّ الإنْشائيّات وَحْدَها تَكْفِي، أو أنّ النّواحي التّنفيذيّة، التـي ترى في «العلوم والتّقْنية» مُجَرَّدَ أدواتٍ ومُعِـدَّاتٍ وتَجْهيزاتٍ ووسائِل، كفيلةٌ بتَحْقيقِ المُهِمَّة. ومن الوَاضِحِ أنّ فَشَلَ «النَّمَاذِج التّنْمَويّة» التي تَمَّ تبنِّيها في «المُجْتمعات العربيّة» - عبْـر قَرْنَيْـنِ من المحاولاتِ المُتَعَثِّرَةِ لتَحْقيقِ «النّهْضَة» - تقـودُ بالضّرورة إلى تَكْريسِ أهميّـة السَّعـي نحو تَطْويرِ «نَمُوذَجٍ عربيٍّ للتّنْمية» يكون قَـادِراً - وفْق مَقُولَةِ نادر فرجاني - علـى أنْ: (يتفاعل جَدَليّاً مع فَهْمِ التَّغْييـر المُجْتمعيّ في الوطن العربيّ من ناحيةٍ، ومع العمل على التّغْيير من ناحيةٍ أُخْرى)[١١].

لـم تُفْلِحْ – عبْر قُرُونٍ – جُهُودُ المُفكِّريـن، وأفْعَالُ السّياسيين، وصَرْخَاتُ الثّوريين، وكاريزما الزُّعمـاء، وتَخْطِيطُ الاقْتصاديين، وحَمَاسِيَّاتُ الخُطَبَـاء، وبَلاغَةُ الدُّعَاة، في إحْـدَاثِ تلك «النَّقْلَة النَّوْعِيّة» في حياة «المُجْتمعات العربيّة»، وإخْرَاجِهَا من نَفَقِ الهزيمة والتَّخَلُّـفِ والتَّشَـرْذُمِ والفِتَـنِ؛ وهذا يَسْتَدْعِـي – بالضّرورة – مُرَاجَعَـةَ كُلِّ تلك المراحِل لاسْتِكْشَـافِ «العُنْصُـر الغَائِـب» في كُلِّ تلـك الطُّرُوحـات والبرامِج والمَشْرُوعَـات. إنّنا لـن نَجْهَـدَ كثيراً لنرى أنّ هنــاك إخْفَاقاً ثقافيّاً مُرَوِّعَـاً يَتَحَمّلُ المَسْؤوليـةَ الأكْبر في كُلِّ الإخْفَاقَـاتِ المُتَكَرِّرَةِ في مُحاولات «النّهْضَـة العربيّة»، ونَتَّفِقُ هنا مع نادر فرجاني في ما خَلَصَ إليه بـأنّ: (تَطْوير نَمُوذَجٍ عربيٍّ للتّنْميـة مُهِمّةٌ شَاقّةٌ، طويلـةٌ، وتَرَاكُمِيّة)[١١]، إلاّ أنّ هـذا – بالضّـرورة – يَفْرِضُ إرْسَاءَ مَحَـاوِرَ رئيسةٍ، تَلْتَفُّ حولها هــذه المُهِمَّةُ الشَّاقّة، وتَسْتَنِـدُ إليها فـي رِحْلَتِهَا الطَّويلة، وتَسْتَوْعِبُ مُقْتضياتِها العمليّـة ومُتَطَلَّبَاتِهَا التَّرَاكُمِيّة. إنِّـي أَزْعُمُ في هذا الكِتَاب – عبْر التّحْليـل والتّدْقيق في وَاقِعِ «التَّنْمية» وتجاربِها، وطبيعةِ «الثَّقافة» وتَرْكيبتِهـا – أنّ «إشْكَالِيّةَ التّنْمية»، وإخْفَاقَاتِ برامِجِ «التَّخْطيط التّنْمَويّ»، هي – فـي الأسـاس – مُشْكَلاتٌ ثقافيّةٌ، وليستْ مُشْكَلاتٍ اقْتصاديّةً أو تِقنيّةً؛ فلا يُمْكِنُ بحالٍ أنْ تَتَحَقّقَ طُمُوحَاتُ «الإصْلاح»، وأهْدَافُ «التّنْمية»، وتَطَلُّعَاتُ «النَّهْضَة»، وأشْوَاقُ «الرَّبيع العربـيّ»، دون تَحَوُّلٍ جِـذْرِيٍّ في القِيَم، وتَطَـوُّرٍ عَصْرِيٍّ في المفاهيـم، يَنْقُلُهَا من كَوْنِهَا مُعِيقَــةً لـ«برامِجِ الإصْـلاح» و«خُطَطِ التّنْمية»، إلــى كَوْنِهَا مُسَاعِدَةً ومُحَفِّـزَةً ودَافِعَةً إلى تَحْقيقِ تلك البرامج، وقَطْفِ ثِمَارِ تلك الخُطَط.

مــن المفاهيــم التــي أَصْبَحَتْ في حُكْــم المُسَلَّمَـاتِ فــي «الدِّراســات التّنْمَويّة» أنّ («التّنْميــة» ليستْ ظَاهِـرَةً اقْتِصاديّةً صِرْفَـاً)[١١]، وأنّ نَجَاحَ «التّنْميــة» لا يُمْكِنُ التَّعْبيرُ عنــه فقط بالمُعَدَّلِ السَّنويّ لنُموّ «النّاتِج القوميّ الإجْماليّ»، ممّا يَعْنِي، كما يرى إبراهيم العيسـوي[١١]، أنّ: («مَفْهُومُ التّنْمية الحديث» أوسع مــن أنْ يُقَاسَ بمُتَغَيِّرٍ وَاحِدٍ، حتّى إذا كان مُتَغيِّراً وَاحِداً يُشْتَقُّ من مُتَغَيِّرَاتٍ عديدةٍ، وأنّ الأَمْرَ يَتَطَلَّبُ صِياغَةَ مَجْمُوعَةٍ مُتكامِلَةٍ من المُؤشِّرَات تُغَطِّي مُخْتلـف أبْعَادِ العمليّة التّنْمَويّة)، ويُضِيفُ ليقول: (وفي تَقْديري أنّ الوَقْتَ مُلائِمٌ جِدّاً لبَدْءِ جُهْدٍ مُكَثَّفٍ من جَانِبِ الأقْطار العربيّة في مجال صِياغَةِ مُؤشِّرَاتٍ

لـ«التّنْميــة العربيّــة»، انْطِلاقاً مــن فَهْم خاصٍّ لـ«التّنْمية» في ظُرُوفِ الوطــن العربيّ، لا انْطِلاقــاً من المفاهيــم التي تَعْمَلُ الــدُّوَلُ الرّأْسماليّةُ المُسَيْطِرَةُ علــى تَرْويجِهَا في بلاد العَالَمِ الثّالث). وتُبَيِّنُ لنا هذه الرُّؤية أنّ من أبْرز أسْبَابِ «الإخْفَاقَاتِ التَّنْمَويّة» هو الفَشَلُ في إدْراك حقيقةٍ جوهريّةٍ، وهي - وفْق علي خليفة الكواري[١١] - تُوجَزُ في أنّ: («التّنْمية الاقْتصاديّة - الاجْتماعيّة» الشّامِلَة عمليّةٌ مُجْتمعيّةٌ واعِيَةٌ ومُوَجَّهَةٌ لإيجادِ تَحَوُّلاتٍ هيكليّةٍ تُؤدّي إلى تَكْوينِ قَاعِدَةٍ وإطْلاقِ طاقةٍ إنْتاجيّةٍ ذاتيّة)؛ وبالتّالي يكون: (النُّموُّ الاقْتصاديّ جُـزْءٌ من مُكَوِّنَـاتِ «عمليّــة التّنْمية»، يَسْبِقُــهُ الكثير من التَّوَجُّـهِ والاسْتِعْـدَادِ المُجْتمعيّ والتَّحَــوُّلاتِ الهيكليّــة، ويُصاحِبُهُ تَوَجُّهٌ اجْتماعيٌّ يَحْرِصُ على وجــودِ عَلاقَاتٍ تُؤَكِّدُ عَدَالَةَ توزيع ثمرات «التّنْمية»، وتَرْبُطُهَا عُضْويّاً بعمليّة التَّطَوُّرِ الحضاريّ).

وفي إطَارِ ذلك «النَّمُوذَجِ التّنْمَويّ» المَنْشُودِ يَنْبَغِي الاهْتِمَامُ - على مُسْتوىً قوميٍّ - بتَأْسيس كِياناتٍ - بجميع أنْمَاطِهَا واهْتماماتِها - مُتفاعِلَةٍ مع «الحركة العِلْميّة»، ومُهْتَمَّةٍ بـ«التّوعية العِلْميّة»، ولا يُمْكِنُ أنْ نُهْمِلَ هنا الأدْوار الأهليّة والمَدَنيّة والخيريّة والرِّبْحيّة في هذا المجال، كما يجب أنْ نُقِرّ بأنّه إذا كانتْ رَغْبَةُ «القِطَاعِ الخاصّ» في «توطين التّقْنية» و«تَطْوير المهارات الوطنيّة» رَغْبَةً صَادِقَةً، فإنّ هـذا يَتَطَلَّبُ الإسْهَامَ الجَادَّ والمُتَوَاصِلَ في تَأْسيسِ «البِنْيَةِ التَّحْتيّة - الثَّقافيّــة» القَادِرَةِ على احْتِضان قَاعِدَةٍ وَاسِعَةٍ من المُواطِنين، والدَّفْعِ بهم إلى مجالات التّقْنية والإنْتاجيّة والتّدْريب.

بطبيعــة الحــال، لا يَجُــوزُ النَّظَــرُ إلــى «عمليّــات التّنْمية» - فــي مُخْتلــف أشْكَالِهَا ومَسَارَاتِهَــا - على أنّها عمليّاتٌ مُجَزَّأةٌ؛ فكُلُّ الجوانــب التّطْبيقيّة والتّخْطيطيّة والثّقافيّة والاجْتماعيّــة والسّياسيّــة والاقْتصاديّة مُتَدَاخِلَــةٌ ومُتَرَابِطَــةٌ ومُتَكَامِلَةٌ، وهذا مــا يُؤَكِّدُهُ يوســف صايغ بقولــه إنّ: («عمليّة التّنْميــة» تَتَطَلَّبُ تداخُل عَدَدٍ مــن العَوامِلِ الاقْتصاديّة والتِّكْنولوجيّــة والاجْتماعيّــة والثّقافيّة والسّياسيّة ضمْن آليّةٍ مُعَقَّــدَة)[١١]؛ إلاّ أنّ «العَامِلَ الثَّقافــيّ» - كما يَتَّضِــحُ من فُصُول هذا الكِتَــاب - يَبْقَى صَاحِبَ التَّأْثيــر الأَقْوى، والأَكْثر فَاعِليّــةً، لقُدْرَتِهِ علــى الانْسياب إلى دَاخِلِ كُلِّ تلــك المَنْظُومَاتِ، ودَعْمِهِ لهــا، وتَخْصيبِهِ لتفاعُلاتِها. ولذا فإنّ «المُؤَشِّرَات الثّقافيّة» يجبُ أنْ تَأْخُذ مَوْقِعَهَا المِحْوَرِيّ في «مَنْظُومَةِ

التّنْميــة»، وعلى رأْس هذه المُؤَشِّرَاتِ يَنْبَغِي أنْ يكــون «مُؤَشِّرُ الثَّقافة العِلْميّة»؛ فـ«الثَّقافةُ العِلْميّــةُ» – فــي نهاية المطاف – هــي القَادِرَةُ علــى «عَقْلَنَةِ الثَّقافة العربيّــة»، وإخْراجِهَا مــن نَفَقِ الكلاميّات والإنْشائيّات وعَوالِمِ التّنْظير، إلــى وَاقِعِ التَّنْفيذ، ودِراسةِ التّفاصِيل، ووَضْــعِ المعايير الإنْتاجيّــة، وتَقْويمِ النَّتائج، وتَحْليــلِ المُؤَشِّرَاتِ العمليّــة، وإرْسَاءِ أُصُولِ «التّفْكير العِلْميّ».

يَنْبَغِــي لنــا أنْ نَتَوَقَّفَ هنــا أمام تلك «الإشْكَالِيّــة» التي يُطْلِقُ عليهــا علي أومليل[٣٧] اسْــم «الزَّمَــنُ الإصْلاحيُّ» لتزيد مــن مَواجِعِنَا عندما يقــول: (إنّ مُشْكِلَ الــدُّول النَّامية هــو «الزَّمَنُ الإصْلاحيُّ» وكيف يُمْكِنُ اخْتزالُه، أيْ كيــف يُمْكِنُ تَدَارُكُ الهُوّةِ التي تَفْصِلُهَا عــن العَالَمِ المُتَقَدِّم؟، والحال أنّ هذا الأخير تَطَــوَّرَتْ مُجْتمعاته بحركةٍ ذاتيّةٍ وفي زمانٍ غيــر مَضْغُوطٍ، ولم يكنْ أمامها مُجْتمعاتٌ جِدُّ مُتَقَدِّمَةٌ تَفْصِلُهَا عنها هُوّةٌ تاريخيّةٌ عميقةٌ تَسْتَعْجِــلُ الّلحَاق بها في زمنٍ مُخْتَزَل). وأمّا السُّؤالُ الــذي يَتَرَتَّبُ على هذه «الإشْكَالِيّة»، فــإنّ أومليــل يَطْرَحُهُ على النّحْــوِ التّالي: (كيف يكــونُ «الزَّمَنُ الإصْلاحــيُّ» تَرَاكُمِيّاً على مُسْتوياتٍ مُتَكَامِلَــةٍ ومُتَدَامِجَةٍ: تَرَاكُمٌ اقْتصاديٌّ يَدْمُجُ قَاعِــدَةً اجْتماعيّةً وَاسِعَةً، وتَرَاكُمٌ مَعْرفــيٌّ لاسْتيعــاب المَعْرِفَــةِ المُتَقَدِّمَة، وتَرَاكُــمٌ ديموقراطيٌّ تُصْبِحُ فيــه الدّيموقراطيّة كثقافــةٍ وآليّــاتٍ ومُؤَسَّسَــاتٍ رَاسِخَةً فــي العَقْليّةِ والمُمَارَسَــةِ رُسُوخاً لا رَجْعَــةَ فيه؟ تلك هي المَسْأَلَة).

أمّا تلك القضيّةُ – التي يرى أومليل أنّها «المَسْأَلَةُ الأساسُ» –، فإنّ أنْجَعَ الطُّرُق إلى حَلِّهَــا وتَفْكيكِها ودَمْجِهَــا وإحْدَاثِ تراكُماتِها، فيَكْمُنُ –كما وجدنا في ثنايا هذا الكِتاب– فــي «ثقافةٍ تَنْمَويّةٍ» تَتَمَثَّلُ الطّبيعــة الدّيناميكيّة والإنْتاجيّة لـ«حركة العلوم والتّقْنية». وأمّا «قضيّــةُ الدِّيموقراطيّة» فهي نِتَاجٌ طبيعيٌّ لمُنَظَّمَاتِ «المُجْتمع المَدَنِيّ» المُطالِبَةِ بحُقُوقِهَا ومُشَارَكتِهَــا، والفَارِضَةِ وجودها على «التَّرْكيبة الاقْتصاديّة والاجْتماعيّة والسّياسيّة» عبْر فاعِليّتِهــا ورِيادتِها فكمــا يقولُ أومليل: (تُسَاهِــمُ تَنْظيماتُ «المُجْتمــع المَدَنيّ» في تَنْمية الحركة الاجْتماعيّة كما في دَمَقْرَطَةِ المُجْتمع)[٣٧]. وبالتَأَمُّلِ الموضوعيّ، نجدُ أنّ «قضيّة الدِّيموقراطيّــة» تَرْتَبِطُ بما تُنْتِجُهُ «الحركةُ العِلْميّــةُ – التّقنيّةُ» من تخصُّصاتٍ وتفرُّعاتٍ

ومِهَـنٍ وهيئـاتٍ ومُنَظَّمَـاتٍ - حَامِلَةً معهـا ثقافتها واسْتقلاليّتهـا وشُرُوطَهَـا وإفْرَازَاتِهَا وضُغُوطَهَا -؛ لتتفاعلَ «قضيّةُ الدِّيموقراطيّة» وتَتَبَلْوَرَ دَاخِلَ «الدّولة الحديثة».

٩-٤-١) «مُجْتمعُ المَعْرفة» و«قضيّةُ التَّرْجَمَة»:

فـي «النَّمُوذَجِ العربـيّ للتَّنْمية»، يجب أنّ تَحْتَلّ قضيّةُ «العلـوم والتّقْنية» الأولويّة في التّفاعُـلات السّياسيّة والثّقافيّة والمُجْتمعيّـة؛ لتُؤَسِّسَ - بطبيعتِها وبمُكَوِّنَاتِهَا - اقْتصاداً حيويّـاً، وأَمْنـاً وطنيّاً، وقُـدْرَةً على «التَّفَاعُلِ الإيجابـيّ» مع هَجْمَةِ «العَوْلَمَـةِ» وتَشْكيلاتِها المُخْتلفـة. وفي هـذا الإطَارِ، تَبْـرُزُ أهميّةُ «اللّغَـة»، ودَوْرُهَا الحَاسِمُ، فـي تَعْميقِ «الهُويّة الثَّقافيّـة»، وتَأْصيلِ «الحركة العِلْميّة - التّقنيّة» فـي «التَّفاعُلات المُجْتمعيّة» على مُخْتلف المُسْتويـات، فكما يقولُ محيي الدين صابر: (اللّغَةُ هــي المَدْخَلُ المَشْرُوعُ إلى الحضارة المُعَاصِـرَةِ التـي بابها العِلْمُ والمَعْرِفَـة. ولتَحْقيقِ ذلك، فإنّ اللّغـة العربيّة يجب أنْ تكون لُغَـةَ عِلْمٍ عربيّةٍ، وأنّ الطّريـق إلى هذا هوتَحْديثُهَا، ودَعْمُ طاقاتِها التّعْبيريّة، للاسْتِجَابَةِ لمُتَطلَّبَـاتِ العَصْـر، في إطار تَعْريب مُقَوِّمَـاتِ الحضارة المُعَاصِـرَةِ ومَظَاهِرِهَا بتَعْظيمِ القُدْرَة العربيّة الاجْتماعيّة) [١٨].

لقـد حَرَصْنَا - في الفَصْل الثّامن - على تَأْصيـل مَوْقِعِ «اللّغَةِ» في «الحَرَاكِ العِلْميّ - التّنْمَـويّ» وتعْزيزه، وتَحَدَّثْنَا - ببعْض الإسْهاب - عـن «الشَّرْطِ اللّغَويّ» لقيام «مُجْتمع المَعْرِفَة»، وإذا كان الاسْتِشْهَادُ بأقْوَالِ المُثقّفين العرب، لدَعْم قضيّة «التّرْجَمَة والتَّعْريب»، أَمْـراً قد يـراه بعْضهم مَجْرُوحاً، فلعلّه مـن المُنَاسِبِ الاسْتِشْهَادَ بهيئـةٍ عَالَميّةٍ مُحَايدَةٍ، وهــي «مُنَظَّمَـةُ اليونسكو» حيـث أكَّدَ تَقْريرُهَـا العَالَميّ [٨٣] - الصَّادر فـي عام ٢٠٠٥م - أنّ «مُجْتمعـات المَعْرِفَـة» هي تلك المُجْتمعات التـي (تَرْتَكِزُ على إدْمَـاجٍ ومُشَارَكَةِ العَدَدِ الأكْبـر)، وبالتّالـي يَنْبَغِي ليسـ فقط (تَأْمين نَفَـاذٍ شَامِلٍ للمَعْلُومات، بَـلْ أيضاً مُشَارَكَة الجميـع في «مُجْتمعات المَعْرِفَة»)؛ وهذا يَفْرِضُ على «مُجْتمـع المَعْرِفَةِ» أنْ يكون مُتَمَكّناً مـن التَّفاعُلِ بـ«اللّغَة الأُمّ» مع جَوانِـبِ المَعْرِفَةِ المُخْتلفة ليَتَمَكَّنَ مـن (التَّكَيُّف من وِجْهَةِ نَظَرٍ تِقنيّةٍ وإدْراكيّةٍ وثقافيّةٍ مع حاجات مُسْتَخْدِميها الفِعْليّين والمحلّيّين).

لقـد تنـادى بعْضهم، في ظِلِّ هَجْمَـةٍ عَوْلَميّةٍ ضَاريـةٍ، إلى أنّ الطّريـق الأَسْرع نحو «العِلْـم والتّقْنية» هـو عبْر «تَدْريس العلـوم الأساسيّـة والتّطْبيقيّة» بلُغَـاتٍ أجنبيّةٍ، ورأى آخَرون أنّ مدارس تَتَأَصَّلُ فيها الهُويّاتُ الأَجْنبيةُ عبْر التَّدْريسِ بلُغَاتِهَا هي المَدْخَلُ الفَعَّالُ إلـى «مُجْتمع المَعْرِفَة»، ومـا دَرَوا - عفا الله عنهم - أنّ ذلك هو الطّريـقُ الأكيدُ لانْدِثَارِ الاثْنَيْـنِ معـاً: «المُجْتمعُ» بما يُمَثِّلُهُ من هُويّـةٍ وتُرَاثٍ وتَمَاسُكٍ، و«المَعْرِفَـةُ» بما تُمَثِّلُهُ من تَفْكيـرٍ واسْتيعابٍ وعُلـوم، وهذا ما يُعَزِّزُهُ «تَقْريـرُ مُنَظَّمَةِ اليونسكو» فـي أكْثر من مقام، مُؤكِّـداً أهميّة العِنَايَةِ باللّغات الأصْليّة للسُّكَّانِ ودَمْجِهَـا في «الحركة المَعْرفيّة»، ومُحَذِّراً من مَغَبَّةِ إهْمَالِهَا؛ لأنّ اللّغَاتِ الأصْليّة هي: (أدواتٌ مَعْرفيّةٌ، ونَوَاقِلُ ثقافيّةٌ، وبيئةٌ تَكْوينيّةٌ لـ«مُجْتمعـات المَعْرِفَة»)[٨٣]. من المُهِمّ الإشـارة هنا إلى أنّ «تَقْرير مُنَظَّمَةِ اليونسكو»[٨٣] يَهْتَمُّ بضَرورة إحْياء اللّغات المُهَدَّدَةِ بالانْقراض، ولُغَات الأقليّات وكثيرٌ منها لُغَاتٌ مَحْكيَّةٌ (ليسـتْ مَكْتُوبَة)، ويرى أهميّة تَفْعيلِها وحِمَايَتِهَا من الذّوبَـانِ في طُوفَانِ «اللّغَاتِ النّاقِلَةِ للمَعْرِفَة»، ويُؤكِّدُ دَوْرَهَا الحيويّ في تَأْسيسِ «مُجْتمعات المَعْرِفَة» وتَحْقيقِ أغْرَاضِهَا لكي لا يكـون هناك (مُسْتَبْعَدُونَ في «مُجْتمعات المَعْرِفَة»)[٨٣]. فإذا كان هذا هو الحالُ مع لُغَاتٍ مُهَـدَّدَةٍ، أو مُوشِكَةٍ على الانْقراض، فمـا المَوْقِفُ السَّديدُ إزاء «اللّغــة العربيّة»، وهي لُغَةٌ تَحْتَلُّ المَوْقِعَ السَّادس في «الأُمم المُتَّحدة»، وهي «اللّغَةُ الأُمُّ» لما يَرْبُو على ثلاثمائة مليون نسمـةٍ يَقْطُنُونَ في مَنْطِقَةٍ وَاسِعَةٍ مـن أهمّ مناطقِ العَالَم، ولهذه اللّغَة جُذُورُهَا التَّاريخيّة والدِّينيّة والوِجْدانيّة والفِكْريّة والاجْتماعيّة، وتُعْتَبَرُ رَمْزاً لما يفوقُ المليار من المُسْلِمين، وهي مَدْخَلُهُمْ لعلوم دينِهم، والتّفقُّهِ في عقيدتِهم؟.

في إطار كُلّ تلك التَّحدّيات - للتَّعامُلِ مع «إشْكَاليّةِ التّنْمية» -، يَبْدُو أنّه قد حان الوَقْتُ لأنْ يَنْتَقِلَ زِمَامُ المُبادَرَاتِ الإعْلاميّة والثّقافيّة والمُجْتمعيّة، وإدارةِ «التّنْمية» وتَخْطيطِها، إلـى أيدي القَادِرينَ على فَهْم «شُـرُوطِ التّنْمية» ومُقْتضياتِها، واسْتيعابِ «معاني النَّهْضَةِ» ومُنْطلقاتِهـا، في إطَـارٍ من «التَّوَافُـقِ التَّنْمَوِيِّ» بيـن «الخُصُوصِيّةِ» و«العَوْلَمَـةِ»، وإدْراكٍ عميـقٍ لأهميّة «الفِعْـلِ التّغْييريّ» لـ«الثَّقافـة العِلْميّة» علـى مُخْتلف الأصْعِـدَةِ عبْر غَرْسِ «الفِكْـرِ العِلْميّ» في مَنْهَجيَّتِهَا، واسْتيعابِ حقائِق «العَصْـرِ» في برامجِها وفعّاليّاتِهَا. لقد

أَوضحنـا – في سِيَاقِ هذا الكِتَـاب – أنّ «مُجْتمع المَعْرفَة» ليس «مُجْتمعـاً نُخْبَويّاً» تَمْتَلِكُ فيـه «النُّخْبَةُ» أدواتِ العَصْرِ وطُرُقَ التّعامُلِ معه، وتُخَاطِبُـهُ بلُغَتِه المُهَيْمِنَةِ العَالَميّةِ – أيّاً كانتْ –، ولكنّه «مُجْتمعٌ شَامِلٌ» قَادرٌ على أنْ يتفاعل – بلُغَتِهِ وثقافتهِ وهُوِيّتِهِ – مع مُعْطياتِ «العَصْـرِ»، ومُسْتَجـدَّاتِ «المَعْرِفَةِ»، بحيث تُشَارِكُ جميع الشَّرَائِـحِ، ومُخْتلف الفِئَاتِ، في اسْتيعـابِ «المَعْرِفَةِ» وإنْتاجها. إنّ هذه الحقيقة تَفْتَحُ على فضاءاتٍ وَاسِعَةٍ قارِعَةً الجَرَسَ – بقُـوّةٍ وعُنْفُوانٍ – أمام وَسَائِـلِ الإعْلام، ورِجَالِ التَّعْليم، وأكاديميّـي البحوث، وأطْيَافِ «المُجْتمـع المَدَنِيّ»، وقطاعات الخِدْمَاتِ والتّدْريبِ والإنْتَـاجِ؛ ليتولّى كُلُّ طَرَفٍ مَسْؤوليّته لتوليد «الإرادة الجماعيّة» الوَاعِية القَادِرَةِ على قَطْعِ الأشْواط العمليّة على طريق «مُجْتمع المَعْرِفَة»؛ وهذا ما يُؤَكِّدُهُ «تَقْريرُ مُنَظَّمَةِ اليونسكو»، حيث يقول: (لن يكون بِنَاءُ «مُجْتمعات المَعْرِفَـة» عمليّـةً مُسْتَدَامَـةً إلاّ إذا سَمَحَتْ الابْتكارات التِّكْنولوجيّـة بتَجْديدِ ما دعاه بول ريكـور – عـن حَقٍّ – بـ«مُعْجِـزَةِ التَّرْجَمَةِ» التي تَشْهَدُ على القُدْرَةِ التـي سيتمتَّعُ بها دائماً الإنْسانُ على خَلْقِ مَعْنىً مُشْتَرَكٍ من الاخْتلافات، فـ«التَّرْجَمَةُ» باعْتبارها تُوَفِّقُ بين الكُلِّيِّ والمُتَنَـوِّعِ، تَسْمَـحُ بصَوْغِ أفْـكَارٍ مُشْتَرَكَةٍ، تُحَافِـظُ على تَنَوُّعِ كُلِّ فَـرْدٍ وتُثْريه)(٨٣). ولا بُدَّ – فـي هـذا السِّياق – أنْ نُسَجِّلَ أنّ «تَقْرير مُنَظَّمَـة اليونسكو» يُعَزِّزُ – في أكْثر من مقام – دَوْرَ «التَّرْجَمَـةِ» الجوهريّ في حياة «المُجْتمعـات المُعَاصِرَةِ»، فيُؤَكِّدُ أنّ: («التَّرْجَمَةُ» هي الوسيـطُ بامْتيازٍ بين التَّنَوُّعِ الثّقافـيّ وعَالَمِيّةِ المَعْرِفَة، وبهذا المَعْنَى فإنّ الخَطَّ الأساس هـو أنّه لا تُوجَـدُ لُغَةٌ كَوْنيّـةٌ، ولكن فقط مُبَادَلات بيـن المَوْرُوثَاتِ الثّقافيّـة والرّوحيّة في البَحْـثِ عن لُغَـةٍ مُشْتَرَكَةٍ، ومن هذا المُنْطلـق، فإنّ «مُجْتمعات المَعْرِفَـة» يَنْبَغِي أنْ تكون «مُجْتمعات التَّرْجَمَة»)(٨٣).

كُلُّ ما سَبَقَ يَجْعَـلُ من قضيّةِ «تَعْريب العلوم» ومَشْرُوعَاتِ «التَّرْجَمَةِ والنَّشْرِ العِلْميّ» أساساً حَتْميّاً في «النَّمُوذَجِ العربيّ للتّنْمية»؛ وأمّا في سِيَاقِ الوَاقِعِ العربيّ اليوم وما يَشْهَدُهُ مـن تَرَاجُعَاتٍ وانْتِهَاكَاتٍ وإحْبَاطَاتٍ، فإنّنا نَسْتَطيعُ أنْ نقول إنّه إذا كان بول ريكور(٨٣) قد قَصَدَ بـ«مُعْجِزَةِ التَّرْجَمَةِ» ما يُولَدُ من رَحِمِهَا من مُنْجَزَاتٍ وقَفَزَاتٍ، فإنّ ذلك الوَصْفَ في وَاقِعِنَا العربيّ اليوم يَعْني أنّ «وِلادَةَ التَّرْجَمَةِ» ستكون هي – في حَدِّ ذاتها – «المُعْجِزَة»!.

٩-٤-٢) رَجْعُ الصَّدَى:

لقد وجدنا - في سِيَاقِ هذا الكِتاب - كيف يَعْبُرُ المُثقَّفون والمُفكِّرون العرب بخُيُولِهِمْ، الإنْشائيّ منها والتَّأمُّليّ والوَعْظيّ، على مِساحاتٍ شَاسِعَةٍ من المَخَاضِ الفِكْريِّ في مُحاولاتٍ تَسْتَنْسِخُ نفْسها وتَجْتَرُّ إخْفَاقَاتِهَا لمَعْرِفَةِ أَصْل البَلاء في «مُشْكلات النَّهْضَة»، ولتَشْخيصِ كُنْهِ «إشْكَالِيّة التَّنْمية»، ولكنّ الحِوارَ - في نهاية المطاف - يَبْقَى وكأنّه «حِوَارُ طُرْشَانٍ»، وتَبْقَى قضيّةُ «العلوم والتّقْنية»، وهي القضيّةُ الأساسُ التي تَقَعُ في قَلْبِ «التّنْمية»، بعيدةً عن التّفْعيلِ على أرْضِ الوَاقِعِ والبَلْوَرَةِ في خُطَطِ عملٍ جَادَّةٍ، وذلك برغْم ما تَتَمَتَّعُ به من إشاراتٍ وإشاداتٍ في الخِطَابِ العامّ والجَلَسَاتِ الخاصّة والمُؤلَّفَاتِ والدِّراسات. ولا شَكّ أنّ تَحْديدَ الأُسُسِ والخَلْفيّاتِ والمُنْطلقاتِ المُرْتَبِطَة بأيِّ قضيّةٍ هو أَمْرٌ لازِمٌ لبَلْوَرَةِ الإسْتراتيجيّات، وتَحْديدِ الآليّات اللاّزمة للتّعامُلِ معها، ومُعالَجَةِ إشْكالاتِها، وتَطْويرِ إيجابيّاتِها؛ ولذا فإنّ المُؤمَّلَ أنْ يُسْهِمَ الطَّرْحُ في هذا الكِتَاب في إبْرَازِ أهميّة إيلاء «الثَّقافة العِلميّة» أولويّةً بَارِزَةً في القرارات السّياسيّة، والمسارات الاجْتماعيّة، والمجالات الإعْلاميّة، والاسْتثمارات الاقْتصاديّة، والمَشْرُوعات البَحْثيّة، والإسْتراتيجيّات التّعْليميّة، والبرامِج التّدْريبيّة.

وبغَضِّ النَّظَرِ عن التَّصْنيفَاتِ التي تَطْرَحُهَا «أدبيَّاتُ التّنْمية»، مِثْل مُصْطلحات: «العَالَمُ الأوّل» و«العَالَمُ الثّالث»، أو «عَالَمُ الشَّمال» و«عَالَمُ الجنوب»، إلاّ أنّنا نَسْتطيعُ أنْ نرى أنّ الحَقَائِقَ وَاحِدَةٌ، وإنْ تَعَدَّدَتْ المُسَمَّيَاتُ، وأنْ نَتَعَرَّفَ - بسهولةٍ - على تمايزاتٍ بَارِزَةٍ، واخْتلافاتٍ جِذْريّةٍ، ومُفارَقَاتٍ مُرَوِّعَةٍ، بين وَاقِعِ «العَالَمِ العربيّ» وأحْوالِ «العَالَمِ المُتَقَدِّم». ولن أتوقَّفَ مَليّاً أمام الاسْتِقْرَارِ السّياسيّ، والازْدِهَارِ الاقْتصاديّ، والنُّفُوذِ العَالَميّ، والإبْدَاعَاتِ الفِكْريّة، والتّفاعُلاتِ التّرَاكُميّة، التي تُمَيِّزُ «العَالَمَ المُتَقَدِّمَ» إزاء ما نُشَاهِدُهُ في «العَالَمِ العربيّ» من اضْطِرَابَاتٍ سياسيّةٍ، وقلاقِل اجْتماعيّةٍ، ومُشْكلاتٍ اقْتصاديّةٍ، وإخْفَاقَاتٍ تَنْمَويّةٍ؛ فتلك فُرُوقٌ جوهريّةٌ، إلاّ أنّها «نتائجُ» وليستْ «أسْبَاباً»؛ فهي نتائِجُ حَتْميّةٌ لمساراتٍ مُتَنَاقِضَةٍ، حيث أَخَذَتْ «المُجْتمعاتُ العربيّةُ» بالشِّقِّ الأَسْهل،

وتَرَكَـتْ الشِّقَّ الأَصْعب، فتملَّكها الشَّغَفُ بالمَظَاهِرِ، والاهْتمامُ بالسَّفَاسِفِ، والتّكَالُبُ على الاسْتِهْلاكِ، وإهْمَالُ طبيعةِ التّحدّيات، وإغْفَالُ «رُوحِ العَصْر».

إنّ مُعْظَـمَ التّجلِّيَاتِ العَصْريّةِ في «العَالَم العربيّ» هي مُجَرَّدُ اسْتِعْرَاضٍ واسْتِهْلاكٍ وتَفَاخُـر؛ فالأفْكَارُ يتباهى بها المُثقّفون بعد نَقْلِهَا حرْفِيّاً من مصادرِها الأجنبيّة، أو بعد أنْ يُضِيفُـوا إليها بُهَارَاتٍ بيئيّةٍ ونَكْهَاتٍ تُرَاثيّـةٍ ولَمْسَاتٍ هَامِشيّةٍ، ثمّ بعد كُلِّ ذلك الجُهْدِ المَمْسُوخِ لا تجدُ لها على أرْض الوَاقِعِ تَطْبيقاً ولا نَفْعاً، وكُلُّ ما يَنْتُجُ عنها هو صِرَاعٌ فوضويٌّ، وجَـدَلٌ عقيـمٌ، و«حِوَارُ طُرْشَـانٍ» حول شِعَـاراتٍ لا تُسْمِنُ ولا تُغْنِي من جُـوعٍ، وكُلُّ غايتها هـو أنْ تَمْنَـحَ المُثقّفين شُعُوراً زَائِفاً بالزَّهْـوِ والأهميّةِ والأُسْتَاذِيّةِ والرِّيـادة. أمّا «العلومُ الحديثـةُ» التـي تَسْتَنِدُ إليها حضارةُ العَصْـرِ، وتَنْطَلِقُ منها مُقَوِّمَاتُ الحيـاة المُعَاصِرَة، فهـي - في «العَالَمِ العربـيّ» - مُجَرَّدُ عُلـومٍ للتّلقين، وحَشْوِ الأدْمِغَـة، وتوزيع الشّهادات، وتَخْريـجِ الخرِّيجين الذين يَتَوَلَّى كثيرٌ منهم إعادة «الـدَّوْرَةِ التّقْليديّة» من جديدٍ؛ وهكذا تَتَحَـوَّلُ عُلـومُ «التَّجْريب والتَّطْوير والإنْتـاج» إلى عُلوم «نَظَرِيَّاتٍ وكَلامِيَّـاتٍ»، تَعْتَمِدُ على الحَشْوِ والاسْتِظْهَـارِ بَدَلاً من المُمَارَسَةِ الإنْتاجيّةِ الفَاعِلَة، والفَهْمِ التّحْليليّ الدّقيق. وأمّا «قِصَّةُ الصِّناعة والتّقْنية» في «العَالَمِ الثَّالث»، فهي تَنْحَصِرُ - مع تَنَوُّعٍ في الكَيْفِ وتَفَاوُتٍ في الكَمِّ - في مجالات التَّجْميعِ والتَّوريدِ والتَّوزيعِ والاسْتِهْلاكِ، وهي تَنْتَهي دائِماً بأكْدَاسٍ من النِّفايات، ومُسْتودعاتٍ من الأجْهِزَةِ والمُعِدَّاتِ التي تَنْتَهي آجالُها سريعاً لتَبْدَأَ الدَّوْرَةُ - مَـرَّةً أُخْرى - فـي اسْتِجْدَاءِ الجديد والمُتَطَوِّر. وأمّـا عن أُسْطُـورَةِ «البَحْثِ العِلْميّ» في «المُجْتمعـات العربيّة»، فحَدِّثْ ولا حَرَج، وهي حالةٌ جديـرةٌ بالتَّمَعُّنِ والتَّدْقيق، ولا بُدَّ لنا معها من وَقْفَةٍ خاصّة.

٩-٤-٣) أسْطورَة «البَحْث العِلْميّ» في العَالَم العربيّ:

فـي الوَقْتِ الـذي يتعاملُ فيـه «العَالَمُ الأوَّلُ» مـع قضايا «البَحْثِ العِلمـيّ» على أنّها حِرْصٌ نزيهٌ على «المَعْرِفَة»، وجُهْدٌ جماعيٌّ تَرَاكُميٌّ، ووسيلـةٌ جَادَّةٌ لـ«التّنْمية»، وتوظيفٌ موضوعـيٌّ للمَـوَارِدِ الطّبيعيّـة والبشريّة، فـإنّ «المُجْتمعات العربيّة» وَجَـدَتْ في «البَحْثِ

العِلْميّ» ضَالَّتَهَا لخِدْمَةِ أغْرَاضِ «التَّرْقية العِلْميّة» في الجامعات، وتَعْميقِ النَّزْعَةِ الفَرْديّة، وزيادةِ صفحاتِ «السِّيَرِ الذَّاتيّة»؛ فكَثُرَتْ «الكراسي العِلْميّة»، وتَعَدَّدَتْ المُسَمَّيَاتُ، وشَحَّتْ «المدارسُ الفِكْريّة» - أو انْعَدَمَتْ -، وتَقَلَّصَ «البَحْثُ التّنْمَويُّ» الجَادُّ - أو انْقَرَض -. وأمّا أبْـرَزُ الشّكاوى في «دراسات التّنْميــة» في «العَالَمِ العربيّ» فهو شُحّ المَــوَارِدِ المُخَصَّصَةِ لـ«البَحْــثِ العِلْميّ» مُقَارَنَةً بما هو مُتَاحٌ في «العَالَمِ الغَرْبــيّ»، ولكن «قِصّةُ البَحْثِ العِلْميّ» أكْثر تَعْقيداً من تلك الصُّورَةِ المُبَسَّطَةِ التي تُعْطِي الانْطِبَاعَ بأنّ المُشْكلة ماليّةٌ بَحْتَةٌ، وأنّه بمُجَرَّدِ التّغَلُّبِ عليها سيَنْطَلِقُ المُجْتمعُ إلى آفاقِ «التّنْمية والبَحْث والتَّطْوير»؛ فحقيقةُ الأَمْرِ أنّ لـ«البَحْــثِ العِلْميّ» تَشَابُكَاتٍ عميقةً وتَدَاخُــلاتٍ جِذْرِيّةً مع الأُطُرِ الإداريّة والاجْتماعيّة والتّعْليميّة والإعْلاميّة والثّقافيّة والتّدْريبيّة ممّا يَجْعَلُ التَّعامُلَ معه في حاجةٍ إلى تَمْحيصٍ دقيــقٍ ورَبْطٍ وَاقِعيٍّ مع غيره من العَنَاصِرِ الجوهريّةِ فــي «إشْكَاليّةِ التّنْمية». إنّني أَزْعُمُ - دون تــردُّدٍ - أنّ مــن حُسْنِ الحَظّ أنّ الإنْفَــاقَ على «البَحْثِ العِلْميّ» لم يكــنْ أكْثر ممّا هو عليــه الآن؛ لأنّ «البَحْثَ العِلْميّ» يُصْبِحُ تَرَفَاً وإهْدَاراً للمَوَارِدِ عندما تغيبُ «الإسْتراتيجيّةُ الوَاضِحَــة، والأهْدَافُ المُحَــدَّدَة، والأولويّاتُ الوطنيّــة، والمعاييرُ المُنْضَبِطَــة، والثّقافةُ القَــادِرَةُ على اسْتيعــاب شُرُوطِه، والإدَارَةُ المَاهِــرَةُ المُتَمَكِّنَةُ من رَبْــطِ مُخْتلف العَنَاصِرِ وتوظيفِها - بكفاءَةٍ - في خِدْمَةِ «القضيّة التّنْمَويّة»؛ فحقيقةُ الأَمْرِ أنّ الإنْفَاقَ ليس هدفاً فــي حَدِّ ذاته، ولكنّ المَطْلُوبَ هو تَحْقيقُ الأهْــدَافِ وبُلُوغُ المَقَاصِد، كما أنّ من الضّروري أنْ تَتَوَافَرَ للمُؤسَّسَاتِ البحثيّةِ القُدْرَةُ على إدارةِ مُخَصَّصاتِها بكفاءَةٍ وفَاعِليّة.

عندما تَتَشَتَّتُ الجُهُودُ البَحْثيّة، وتَتَمَحْوَرُ الاهْتماماتُ حول بُحُوثِ «التَّرْقية العِلْميّة»، وتَتَسَابَــقُ الجامعــاتُ - أو مُعْظَمُهَــا - نحــو الوَهَجِ الإعْلامــيّ؛ وعندما تَتَكَدَّسُ الأجْهِزَةُ والمُعِــدَّاتُ فــي مَعَامِــل تَفْتَقِرُ إلى الخِبْــرَاتِ الحقيقيّة والكَــوَادِرِ المُسَانِــدَةِ القَادِرَةِ على الصِّيانــة والتّشغيل والتّطْوير؛ وعندمــا تَتَّجِهُ الأنْظَارُ إلى الشَّكْليّــات الدِّعَائيّة والمَظَاهِرِ المُزَيَّفَــةِ بعيداً عــن الفَاعِليّةِ المُنْتِجَةِ والجوهــرِ العِلْميّ، فإنّ أيَّ مَبْلَــغٍ مَرْصُودٍ لن يَصُبَّ في خِدْمَةِ «الأَغْرَاضِ التّنْمَويّة». قد تَكْثُرُ البُحُوثُ المَنْشُورة، وتَتَمَدَّدُ السِّيَرُ الذَّاتيّة، ولكنّ انْعكاساتِهــا الحقيقيّة علــى العمليّة الإنْتاجيّــة، والتّعْليم النَّافِع، والازْدهــار الاقْتصاديّ،

والإضافة المَعْرفيّة، تَظَلُّ مَحْدُودَةً وقَاصِرَةً إزاء حَجْمِ الإنْفَاقِ الفِعْليّ والبَهْرجَةِ الإعْلاميّة الصّاخِبَـة. إنّ من بدهيّات «الاقْتصاد» - على المُسْتـوى الفَرْديّ والجماعيّ - أنّ «كَفَاءَةَ الأداء» ليستْ مُرْتَبِطَةً بـ«حَجْمِ الإنْفَاقِ»، فمن الضّروري النَّظَرَ إلى اعْتبارات أُخْرى يكون بعْضها أكْثر أهميّةً من الدِّرْهَمِ والدِّينَارِ، بَلْ في حالاتٍ كثيرةٍ يكون العَكْسُ صحيحاً، حيث تُغْرِي وَفْرَةُ المال بالتَّوسُّعِ دون طَائِل.

إنّنـا نُخْطِـئ كثيـراً إذا سَمَحْنَا لخيالِ الشُّعَـرَاءِ أنْ يُداعِبَنَا؛ فنتصـوَّرَ أنّ مَجْمُوعَةً مـن الأبْحَاثِ المُتَفرِّقَةِ والمُتَوَالِدَةِ، مهمـا كان دَعْمُهَا وعَدَدُهَا، ستَنْقُلُ المُجْتمع من مَوْقِعِ «المُسْتَهْلِـكِ» إلـى مَوْقِـعِ «المُنْتِج»؛ فمِثْلُ تلـك التَّصـوُّرات تَعْكِسُ سوء فَهْـم لخَصَائِصِ «الحركـة العِلْميّـة - التّقنيّة» التي تَحْتَاجُ إلى «عمـلٍ جماعيٍّ» مُتَرَاكِم الجُهُـودِ، ومُتَكَامِلِ القَسَمَـاتِ، يَصُـبُّ في اتِّجَاهَـاتٍ وَاضِحَةٍ وأولويّـاتٍ وطنيّةٍ ثَابِتَـةٍ، وتَتَّسِعُ أُطُـرُهُ وقَنَوَاتُهُ لتتفاعـل مع الخُطَـطِ التّعْليميّة، والأنْشِطَـةِ الابْتكاريّة، والبـرامِجِ التّدريبيّـة، والتَّوَجُّهَاتِ الثقافيّـة، والسِّياسـات الإعْلاميّـة، وضَوابـطِ «التَّنسيـق الدّاخِليّ»، ومفاهيـمِ «الإدارة العِلْميّة»، ومَشْرُوعَاتِ «التَّعاون الدَّوليّ»، وغير ذلك كثير.

وأمّـا الحقيقةُ الأُخْرى، فهي أنّ «البَحْثَ العِلْميّ» ليس إلاّ جُزْءاً من «مَنْظُومَةِ العلوم والتّقْنيـة»، ووَجْهاً مـن أوْجُهِهَا الجوهريّة، ولذا لا نَسْتطيعُ أنْ نتعامـل معه بمُفْرَدِهِ بمَعْزِلٍ عـن بقيَّةِ المُكَوِّنَاتِ التي تتلاقحُ وتتفاعلُ لتُنْتِجَ «الحركة العِلْميّة - التّقنيّة» بكُلِّ مُعْطياتِها وإنْجازاتِهـا وانْطلاقاتِهـا؛ فـ«البحْـثُ العِلْمـيُّ» في بيئتِـهِ الصّحيحةِ هو جُـزْءٌ من ثقافةٍ قَـادِرَةٍ على تَعْبِئَةِ الجُهُودِ، واسْتِقْطَابِ المَوَاهِبِ، وتَفْعيلِ «العمل الجماعيّ»، والتّنْسيقِ بين الإمْكَانَـاتِ والمَوَارِدِ، وتوفيرِ البُنَى التّحْتيّة اللاّزِمَـةِ لتَحْقيقِ «البيئة المُنَاسِبَة» لاسْتيعابِ مُكَوِّنَـاتِ «مَنْظُومَـةِ العلوم والتّقْنية». ومن المُهِـمِّ - بدايةً - أنْ نَهْتَـمَّ بتَحْقيقِ الاسْتفادة القُصْوى من القُوى البشريّة والتّجْهيزات الأساس المُتَوَافِرَةِ في مُخْتلف الجامعات ومَوَاقِعِ البَحْـثِ ومؤسَّسَاتِ التّقْنية والصِّناعة، ومن المُهِـمّ - أيضاً - أنْ نَتَغَلَّبَ على ما يُؤَدِّي إلى تَعْطيـلِ الإمْكَانَاتِ وضَيَاعِ الفُرَصِ وهَدْرِ الطَّاقَاتِ؛ وعندمـا يَتَحَقَّقُ ذلك التّفعيلُ للآليّاتِ المُتَاحَـةِ لبُلُوغِ درجةٍ مَقْبُولَةٍ من الإنْجَازِ والتّنْسيق والإنْتاجيّة، نَسْتطيعُ ساعتها أنْ نُطالِبَ

بزيـادة الإنْفَاقِ على «البَحْثِ العِلْميّ» من مَنْظُورٍ إسْتراتيجيٍّ، وقِرَاءةٍ وَاقِعيّةٍ، ومَشْرُوعَاتٍ مُبرْمَجَةٍ - زمنيّاً وماليّاً ومكانيّاً -.

لقـد قُلْنَا إنّ ما تُبْرِزُهُ القِـرَاءةُ السّريعةُ عن أوضاعٍ مُمَيِّزَةٍ لـ«العَالَمِ الأوَّلِ» هو مُجَرَّدُ أعْرَاضٍ ونتائج لأسْبَـابٍ وإسْتراتيجيّاتٍ امْتَلَكَـتْ زِمَامَهَا تلك «المُجْتمعـاتُ المُتَقَدِّمَةُ»، وهَيَّـأتْ البُنَـى التّحْتيّـة والآليّات العمليّـة لتَنْفيذِهـا وتَعْميقِها، بينما اهْتَمَّـتْ مُجْتمعاتُ «العَالَمِ الثَّالثِ» بصِياغَـةِ المُبَرِّرَاتِ، وبَلْوَرَةِ المُسَوِّغَاتِ، وتَكْريسِ الشَّكْليّاتِ، والبَحْثِ عن «المَشَاجِب»؛ فالأَعْذارُ دائماً مُتَوَافِرَةٌ لكُلِّ شيءٍ وأيِّ شيءٍ. وأمّا الانْضِبَاطُ في أُطُرٍ مَنْهَجِيّةٍ وَاضِحَـةِ الملامِحِ، والأَخْـذُ بالأسْبَابِ الجوهريّـة، ورَسْمُ المَسَارِ، والصَّبْـرُ على تَنْفيذِه، والدِّقّـةُ في مُتَابَعَتِه، والمُحَاسَبَةُ على التَّقْصير، فإنّ ذلـك كُلَّه ليس من شِيَمِ الكِرَامِ عند الأَمْجَـادِ في «العَالَمِ الثَّالث»؛ وهكذا رَاحَتْ هذه المُجْتمعاتُ تَحُومُ حول «الحِمَى التّنْمَوِيّ» ولا تَقَعُ فيه.

وفـي سِياقِ البَحْثِ عن الأسْبَـابِ الجوهريّة التي قَادَتْ إلى ذلـك التَّصْنِيفِ القَائِم بيـن «العَالَمِ الأوَّلِ» و«العَالَمِ الثَّالث»، وأَحْدَثَتْ الفُرُوقَ الكُبْرى بين المُجْتمعات في عَالَمِنَا اليـوم، يَنْبَغِي أنْ نَتَوَقَّفَ أمـام مَقُولَةِ جورج سارتون، وهو يُـؤرِّخُ لحِقَبٍ طويلةٍ من التّاريخ البشـريّ، ليَخْلُصَ إلى أنّ: (الفَرْق الفِكْريّ العظيم بين البشـر ليس بسبب الجُغْرافيا أو الجَوانِـبِ العِرْقيّة، ولكن بين أولئك الذيـن يَفْهَمُونَ ويُطَبِّقُونَ «المَنْهَـجَ التَّجْريبيّ»، وبين أولئـك الذيـن لا يَفْهَمُونَـهُ ولا يُطَبِّقُونَه)[٩٣]. أمّـا قضيّـةُ فَهْمِ «المَنْهَـجِ العِلْميّ» وتَطْبيقه فهـي مَدْخَلٌ وَاسِـعٌ تتشابكُ عنـده القضايا وتَتَنَـوَّعُ التَّحدِّيات، وهو يَحْتَـاجُ - في المقام الأوّل - إلـى تَأْسيسِ «التّفْكيـر العِلْميّ» وتَأْصيلِه في البِيئة، وتَدْريـبِ العُقُولِ على التّحْليلِ والاسْتِنْبَـاطِ والاسْتِقْرَاء، وتَحْفيـزِ المُجْتمعات على العملِ الإنْتاجـيّ والمُمَارَسَةِ العمليّة؛ وكُلُّ هـذا يَتَطَلَّبُ عزيمةً قويّـةً وأولويّاتٍ ثَابتَةً؛ ولأنّ قَنَوَاتِه صَعْبَـةٌ، والأَخْذَ بأسْبَابِه شَاقٌّ، فـإنّ «العَالَمَ الثَّالثَ» رَضِيَ من الغنيمةِ بالإيـاب. ويَضَعُ جورج سارتون إصْبَعَهُ على جوهرِ القضيّـة حيث تُعْزَى إليه مَقُولة: (إنّ «العلوم الحديثة» هي «شُمُوليّة المَعْرفَةِ الإيجابيّة»)؛ فلقد أَخْفَقَتْ مُجْتمعاتُ «العَالَمِ الثَّالث» أمام تحدِّياتِ «العلوم الحديثة» وشُرُوطِ «التّقْنية»؛

لأنّهـا تَخَلَّتْ عن «المَعْرِفَـةِ الإيجابيّة»، وتَرَكَتْهَا لمُجْتمعاتِ «العَالَـم الأوَّل»، وانْصَرَفَتْ - كما هو ظَاهِرٌ للعِيان - إلى مُحاولاتٍ عَنْتَريّةٍ تارةً، ومُسْتَكِينةٍ تارةً أُخْرى، في خِضَمٍّ «رُدُودِ فِعْـلٍ» آنيّةٍ، واسْتِجَابَاتٍ غَرِيزيّةٍ للأحْدَاثِ ومُجْريات الأُمُور؛ وكُلُّ ذاك أَمْرٌ سَهْلٌ وتِلْقَائيٌّ، وأمّا «الفِعْلُ الرِّياديُّ» المَطْلُوبُ فقد هَجَرَتْهُ طَوْعَاً أو كَرْهَاً، وهو اتِّخَاذُ القَرَارِ الصَّعْبِ في الوَقْتِ الصَّعْبِ للهدفِ الصَّعْب.

وأمّا الخُلاصَةُ، فإنّه من الوَاضِحِ - عبْر هذا الطَّرْحِ - أنّ «النَّمُوذَجَ العربيّ للتّنْمية» يَنْبَغِـي أنْ يَحْتَضِنَ في مُخْتلف مساقاتِه التّربويّـة والتّعْليميّة والإعْلاميّة والمُجْتمعيّة تلك «الرُّؤيّةَ الحضاريّة - الثَّقافيّة» لجوهرِ طبيعة «العلوم والتّقْنية»، ودَوْرَهَا الرِّياديّ في تَنْميةِ المُجْتمع وازْدِهَارِهِ واسْتِقْرَارِهِ وأَمْنِه؛ وبالتّالي فإنّ تلك «الرُّؤيةَ الشَّامِلَةَ» يَنْبَغِي أنْ تَقَعَ في قَلْبِ «مَنْظُومَةِ التّنْمية»، وتُمَثِّلَ الأُسَّ الأكْبَرَ في نَمُوذَجِهَا لتَمْكينِ قَواعِدِ «مُجْتمع المَعْرِفَة»، وتَرْسيخِ أَرْكَانِه، وتَطْويرِ فَعّاليّاتِه.

٩-٥) العَلاقَة بين «الثّقافة» و«التّنْمية»:

لقـد حَرَصْـتُ - في هـذا الكِتَاب - علـى التّأكيـدِ علـى أنّ العَلاقَةَ بيـن «التّنْمية» و«الثَّقافة» هي «عَلاقَةٌ عُضْويّةٌ» حيث يَحْتَاجُ كُلٌّ منهما للآخَر لكي يُحقِّقَ وجوده، ولذا تجدُ «إشْكَاليّـةُ التّنْميـة» جُذُورَهَا في «مُعْضِلَةِ الثَّقافة». قد يَبْدُو هذا الطَّرْحُ على قَدْرٍ كبيرٍ من التّبْسيط، وأنّه لا يَأْخُذُ في الاعْتبار الطّبيعةَ المُعَقَّدَةَ لـ«عمليّة التّنْمية»، ولكن مهما تَنَوَّعَتْ العَنَاصِـرُ المُتداخِلَـةُ في تفاعُلاتِ «العمليّـة التّنْمَويّة»، فإنّـه لا يُمْكِنُ التَّهويـنُ من شَأْنِ «التّأْثيـر الثَّقافيّ»؛ بَـلْ إنّ كُلَّ عُنْصُرٍ من عَنَاصِرِ «التّنْميـة» مُرْتَبِطٌ - بالضّرورة - برُؤيةٍ ثقافيّةٍ، وهذا ما يُؤَكِّدُهُ مالك بن نبيّ بقوله: (كُلُّ وَاقِعٍ اجْتماعيٍّ هو في أَصْلِه قِيمَةٌ ثقافيّةٌ خَرَجَتْ إلى حَيِّزِ التّنْفيذ)[٢٨]. تلك الحقيقةُ تَجْعَلُ «الثَّقافة العِلْميّة»، وهي جَوْهَرُ قضيّتِنا في هذا الكِتَاب، ذات بَاعٍ طويلٍ في تَفْعيلِ «ثقافةٍ مُعَاصِرَةٍ» قَادِرَةٍ على أنْ تَحْتَضِنَ بَرَاعِمَ «التّنْمية»، وتُطَوِّعَ مُعْطياتِها، وتُؤمِّنَ مُقْتضياتِها. وفي الوَقْتِ نفْسه تَنْتَصِبُ «ثقافةُ العلوم» - فـي حَـدِّ ذاتها - لتكـون قضيّةً في حَاجَةٍ إلى الكثيـر من الدِّراسة والتَّعْميـق والتَّأْصيل

والتَّطْوير والتّفْعيل لأدواتِها ووسائلِها لجَعْلِهَا مُكَوِّناً رئيساً من مُكَوِّنَاتِ «الثَّقافة السَّائِدَة»، وعُنْصُـراً حيويّاً قَـويَّ التَّفاعُلِ ودَائِمَ التَّأْثيرِ في «قضيّة التّنْميــة» ومُتَغيِّرَاتِهَا الدّيناميكيّة العمليّــة وحَرَاكِهَا المُجْتمعيّ. كُلُّ هذا يَجْعَلُ من قضيّة «الثَّقافة العِلميّة» تَحَدٍّ قَائِم في حَدِّ ذاتــه، ولا يُمكنُ التّعامُـلُ - بنجاحٍ مَلْموسٍ - مع «فضاءات التّنْميــة» المُتَعَدِّدَةِ إلاَّ بإعْطَاءِ هذه القضيّة حَقَّهَا من الاهْتمامِ والدِّراسةِ والبَحْثِ والدَّعْمِ والتَّكْثيفِ والتَّفْعيل.

ومــن الأسْئلــة المُهمّة التي يجــبُ أنْ تَشْغَلَ ذِهْــنَ المُتَأمِّلِ للوَاقِعِ العِلْمــيّ - الثَّقافيّ سؤالُنــا: (إذا كان «مَفْهُــومُ الثَّقافــة العِلْميّــة» ومضامينُــه ومُقْتضياتُــه قــد اسْتَقَرَّتْ في العَقْـلِ والوِجْـدَانِ الغَرْبيّ عبْر «عمليّةٍ تَرَاكُميّةٍ» لها تجاذُباتُهــا وتحدِّياتُها ومُعَوِّقَاتُهَا على مــدى ثلاثة قُرُونٍ، فهل يَلْزَمُ «المُجْتمعاتُ العربيّةُ» انْتِظَــارَ الفتْرة نفْسها ليَتَأَصَّلَ «الوَعْيُ العِلْمــيُّ» في نسيجِها الحياتيّ، وتَتَكَثَّفَ «العَنَاصِــرُ المَعْرفيّةُ» و«الرُّؤى التّنْمَويّة» في بِنْيَتِهَا الذِّهْنيّــة؟). إنّ هــذا السُّــؤال - في حَــدِّ ذاته - يُمَثِّـلُ «تحدِّياً» كبيراً أمــام «المُجْتمعات العربيّــة»، ويَسْتَدْعِــي «اسْتِجَابَــةً» تتناســبُ مــع حَجْمِــهِ ودَلالاتِه وامْتداداتِــه. ومن ذلك المُنْطَلــقِ، يَنْبَغِــي أنْ نَهْتَمَّ بصِياغَةِ برامجِ ومَشْرُوعَاتٍ تُمَثِّلُ مُبَــادَرَاتٍ رِياديّةً شَامِلَةً على «المُسْتــوى الوطنــيّ» ذات اسْتِقْطَابَــاتٍ وتداعياتٍ وتَأْثيراتٍ على مُخْتلــف الجَبْهَاتِ - في القِطَاعَيْنِ العامّ والخاصّ - للوصولِ إلى «العُمْقِ المُجْتمعيّ»: تفاعُلاً، وإحْصَاءً، وتَأْسيساً لقَواعِدِ البيانات، ونَشْراً للمفاهيم العِلْميّة، وتوظيفاً للمَوارِدِ البشريّة والإمْكَانَاتِ الماليّة؛ وبذلــك تكونُ «الثَّقافةُ العِلْميّــةُ» بمَثَابَةِ المَرْكَبَةِ القَادِرَةِ على توصيــل حُمُولَتِهَا الثَّقافيّة - العِلْميّة بكفاءَةٍ إلى مُخْتلف مَوَاقِعِ المُجْتمع وشَرَائِحِه.

ومــن المُهــمّ أنْ تكون تلــك المُبَــادَرَاتُ والمَشْرُوعَاتُ قَــادِرَةً على اخْتِــرَاقِ «البِنْيَةِ الثّقافيّة والتّعْليميّــة والإعْلاميّة والمُجْتمعيّة»، فتتمتَّعُ بِصِفَةٍ مُؤَسَّسِيّةٍ ذات صِبْغَةٍ تفاعُليّةٍ لتُؤَصِّــلَ أبْعَادَ «الثَّقافة العِلْميّة» فــي المُجْتمع، وتُشَيِّدَ الجُسُورَ مع فِئَاتِــهِ المُخْتلفة، وتَفْتَحَ القَنَــوَاتِ بين «الحركــة العِلْميّــة - التّقنيّة» والتَّفاعُــلاتِ المعيشيّة والثّقافيّــة والتّنْمَويّة، وتُسْهِــمَ في تَهْيئَــةِ مُنَاخٍ تَزْدَهِرُ فيــه «الثَّقافةُ العِلْميّــةُ» بصفتها «ظَاهِــرَةً اجْتماعيّةً» لها فَاعِلِيّتُهَــا وصداهــا وامْتداداتُهــا. ولأنّ «الزَّمَــنَ» - في حَــدِّ ذاته - يُمَثِّلُ أحــد التَّحدِّيات

الكُبْرى لجيـل «الأَلفيّة الثّالثة»، فإنّ طبيعة التَّرَاكُمَاتِ المُؤهِّلَـةِ لإحْدَاثِ «النَّقْلَة النَّوْعيّة» المَنْشُـودَة ستتطلَّبُ مُواصَفَاتٍ خاصّةً، فليس من المَعْقُـولِ خَوْضُ مَعْركةٍ بأسْلِحَةٍ صَدَأَتْ بفِعْلِ الزَّمن، ولا يَجُوزُ قَبُولُ الأعْذَارِ والمُبَرِّرَاتِ ونحن نتعاملُ مع «مُقَدِّمَاتٍ» لا يُمْكِنُ بحالٍ أنْ تقودَ إلى «النَّتَائِجِ» المَنْشُودَة. إنْ كنّا جَادِّين في مُوَاجَهَةِ «تَحَدِّيات العَصْرِ» والانْطَلاقِ فـي «آفَـاقِ التَّنْمية» فلا مناص من رُؤيةٍ شَامِلَةٍ تَهْتَمُّ بصِيـاغَـةِ «مَشْرُوعَاتٍ وطنيّةٍ» تَمْتَلِكُ خاصيّةَ «الدَّفْعِ الذّاتيّ» و«التَّكَاثُرِ المُتَلاقِحِ» لتَسْتَوْعِبَ مُعْطياتِ «الزَّمان» و«المكان» لتَسُدَّ فَجْـوَةَ «البُعْدِ الزَّمَكَانيّ» الـذي تَطَرَّقْنَا إليها في الفَصْلِ الثّالث، ولتَدْفَعَ بالطَّاقَاتِ الشَّابَّةِ على طريقِ الإنْتاج والإبْداع والابْتكار، ولتَنْتَزِعَهَا من دَوَّامَاتِ العَجْزِ والإحْبَاطِ والغُرْبَةِ في عَصْرِ التَّفَوُّقِ العِلْميّ والهَيْمَنَةِ التّقنيّة.

وفي نهاية المطاف، فإنّ من المُهِمّ أن نَسْتَوْعِبَ حقيقة أنّ الأَمْرَ يَرْتَبِطُ برُؤيةٍ تُدْرِكُ أنّ «التَّغْيِيـرَ الثَّقافيّ» يَتَطَلَّبُ زَمَناً وصَبْـراً، وأنّ «الثَّقافة العِلْميّة» – بطبيعتِها ومضامينِها – قضيّـةٌ تَرَاكُمِيَّـةٌ، والمُهِمُّ هو توظيفُ آليّاتٍ وبرامِجِ ذات رُؤيـةٍ بعيدةِ المدى قَادِرَةً على التّأثير الفعّال، وقَابِلَةً للقِياسِ والتّحْليلِ والتّقْييمِ والتّصْحيح. ومن المُهِمّ – أيضاً – إدْراك أنّ لـ«الثَّقافـة العِلْميّـة» دَوْراً مِحْوَرِيّاً في مُعَالَجَـةِ مُعْظَمِ الهُمُوم التـي يَطْرَحُهَا المُثقَّفون العرب، مثْل: «قضيّةُ المَرْأة»، و«قضيّةُ الوَحْدَةِ العربيّة»، و«قضيّةُ الدِّيموقراطيّة»، وغيرها من «إشْكَالاتِ النّهْضَةِ» و«طُرُوحَاتِ التّنْمية». وبالرّغْم من أنّ هذه الموضوعات – في حَدِّ ذاتها – تَحْتَاجُ إلـى أسْفَارٍ ومُدَوَّنَاتٍ للإحَاطَةِ بتداخُلاتِهَا وتشعُّباتِهَا، إلاّ أنّنا نُعَرِّجُ عليها علـى عَجَلٍ، وفي إيجازٍ قد يَبْلُـغُ درجة التَّبْسيط، إلاّ أنّه ضَروريٌّ لإرْسَاءِ المُنْطَلَقِ الأساسِ لمُعَالَجَةِ هذه القضايا، ولإبْرازِ الدَّوْرِ المِحْوَرِيّ لـ«الثَّقافة العِلْميّة» في هذه المُعَالَجَة.

٩-٥-١) «قضيّة المَرْأة» في «المُجْتمعات العربيّة»:

لقد عَزَا «تَقْريرُ التَّنْمية الإنْسانيّة العربيّة لعام ٢٠٠٢ م»[١٥] – الصَّادر عن «برْنامج الأُمـم المُتَّحدة الإنْمائيّ» – أسْبَـابَ «الأَزْمَةِ التّنْمَويّة» في المنْطقـة العربيّة إلى نَواقِص ثلاثـة، كان أحدهـا «النَّقْصُ فـي تَمْكين المـرأة»؛ وعمومـاً، فـإن أوضاع «المَـرْأة» في

«المُجْتمعـات العربيّة»، وما يَدُورُ - منْذ أمدٍ طويـلٍ - عن دَوْرِهَا في المُجْتمع، وما يَعْتَريه مـن ضبابيّـةٍ أو تَهْميشٍ أو ظُلْمٍ، موضوعٌ ما زال يَحْتَـلُّ الوَاجِهَةَ في التّفاعُـلاتِ الثّقافيّة والسّياسيّـة والاقْتصاديّـة والاجْتماعيّـة السّائِدَة. وبغَضِّ النَّظَرِ عن طبيعـة المُداوَلاتِ المَطْرُوحَةِ في السّاحة العربيّة، وتَفَاوُتِ درجة حِدَّتِهَا من مُجْتمعٍ إلى آخر، فإنّ من المُهِمّ أنْ نُـدْرِكَ تلـك الحقيقـة التي تَنَبَّـهَ لها مالك بن نبـيّ منْذ أواخر الأربعينـات من القَرْن الماضـي عندما قـال: (ليستْ «مُشْكِلَةُ المَرْأَةِ» شيئاً نَبْحَثُهُ مُنْفَـرِداً عن «مُشْكِلَةِ الرَّجُل»، فهمـا يُشَكِّلانِ في حقيقتِهما مُشْكلةً وَاحِـدَةً هي مُشْكِلَةُ الفَرْدِ في المُجْتمع)[٢]. ومن هذا المُنْطَلَقِ تُصْبِحُ «قضيّةُ المَرْأَة» جُزْءاً من «المُعْضِلَةِ الثَّقافيّة» التي تعيشُها الأُمّة، ولا يُمْكِنُ حَلُّهَا بقـراراتٍ وتأمُّلاتٍ وانْفعالاتٍ ومُزايـداتٍ واسْتفزازاتٍ، ولكنّها تَكْمُـنُ في «التَّصَوُّرِ الثَّقافـيّ» الذي يَفْهَـمُ «رُوحَ العَصْرِ» ومُقْتضياتِه، ويُدْرِكُ «دَوْرَ الفَـرْدِ» وإسْهاماتِه، ويَهْتَمُّ بـ«التّنْمية» وشُرُوطِهَا، ويَسْتَوْعِبُ حقيقةَ أنّ «الوطن مِلْكٌ للجميع»، وأنّ «مُسْتَقْبَلَ المُجْتمعِ» رَهْـنٌ لتضافُرِ جُهُودِ «الرَّجُلِ» و«المَرْأَةِ» على حَدٍّ سَواءٍ، وتَمَثُّلِهِمَا الجَادِّ لـ«التَّفْكيرِ العِلْميّ» والالْتِزَامِ الأَخْلاقيّ والعمليّ بـ«التّنْمية» ومُعْطياتِها.

إنّ «المَـرْأَةَ» و«الرَّجُـلَ» شَريكَانِ في صِنَاعَـةِ «ثقافةٍ تَنْمَويّةٍ» تَهْتَـمُّ بصَالِحِ المُجْتمع، فكِلاهما طاقاتٌ كَامِنَةٌ يَنْبَغي تَفْعيلُها نحو «المُسْتَقْبَل»، ورُؤاه التّنْمَويّة، وتفاعُلاته الحيويّة، ومعانيـه الإنْسانيّـة؛ ليُصْبِحَ للفَرْدِ - ذَكَراً كان أَمْ أُنْثَى - قِيمَةً ومكانةً، ويكون اعْتِزَازُ الفَرْدِ بما يُحْسِنُهُ ويُتْقِنُهُ ويُنْتِجُهُ للمُجْتمع، فليس الهدف كما يقول مالك بن نبيّ أنْ تَتَحَوَّلَ «المَرْأَةُ» إلـى (صُورةٍ مُشَوَّهَةٍ للرَّجُـل)[٢]، ولكن الهدف أنْ تتكامل جُهُودهمـا، وتُؤَمَّنَ حُقُوقهما في بَوْتَقَةِ «إنْسانيّةٍ - تَنْمَويّةٍ - عِلْميّةٍ» تَذُوبُ فيها، أو تَتَبَخَّرُ منها، تلك الحساسيَّاتُ الغَرَائِزِيّةُ، والانْفعـالاتُ الاجْتماعيّـةُ، والمُبَالَغَاتُ الكلاميّةُ، وأنْمَاطُ التّغْريـبِ المَمْسُوخَةِ التي كانتْ - وما زالتْ - عَائِقاً أمام قِيَامِ «المَرْأَةِ» بدَوْرٍ فَاعِلٍ في «المُجْتمعات العربيّة».

مـن المُهِـمّ - إذاً - تَرْسيخُ تلك «الثَّقافة التّنْمَويّة» برُؤاهـا الشّامِلَة، وحِرْصِهَا على المعانـي الإنْسانيّة ومَكَانَةِ الفَرْدِ فيها؛ وبـذا تَتَعَزَّزُ هُويَّتُهُ، وقِيَمُ مُجْتمعِه، عبْر تلاقُحِ تلك العناصـرِ الحيويّـة مع قِيَمِ المُجْتمـع وتَطَلُّعَاتِهِ في بَوْتَقَةٍ تكونُ فيهـا، كما قال زكي نجيب

محمـود: (الحَوَافِـزُ من الدِّيـنِ والوَسَائِلُ مـن العِلْـم)[٢٠]. إنّ الدّوْرَ الرِّيـاديّ لـ«الثَّقافة العِلْميّة» – في هذه الحالة – هو في إشَاعَةِ رُؤيةٍ ثَاقِبَةٍ، وَاضِحَةِ الملامِح، وبَارِزَةِ التّفاصيل، تَحْتَكِـمُ بعَقْلانيّةٍ إلى «شُـرُوطِ العِلْم» و«ضَوابِطِ الدِّين» في «تَوَافُـقٍ تَنْمَوِيٍّ» يُعَزِّزُ «مَفْهُومَ الأولويَّـات»، ويَسْبُرُ أغْوَارَ الدّيناميكيّة اللّازِمَـةِ لتَفْعيلِ أُصُولِ «الثَّقافة السَّائِدَة»، ومَنْحِهَا رُوح عَصْرِهَا وفَاعِليّتها الاجْتماعيّة في تفاعُلاتِها مع أفْراد المُجْتمع – ذُكُوراً وإنَاثاً –.

وفـي نهايـة المطـاف، نَطْرَحُ مـن جديدٍ مـا وَضَعَهُ مالك بـن نبيّ كإطَـارٍ عامٍّ في حَاجَـةٍ إلى كثيـرٍ من التَّفْصيـلِ والتَّوصيـفِ والتَّدْقيقِ حيث يقـول: (إنّ قضيّتنـا مَنُوطَةٌ بذلـك التّرْكيب الذي مـن شَأْنِه إزالـة التّنَاقُضَـاتِ والمُفَارَقَاتِ المُنْتَشِـرَة في مُجْتمعنا اليـوم، وذلك بتَخْطيطِ «ثقافـةٍ شَامِلَةٍ» يَحْمِلُهَـا الغنيُّ والفقيرُ، والجَاهِـلُ والعَالِمُ، حتى يَتِـمَّ للأَنْفُسِ اسْتِقْرَارُهَـا وانْسِجَامُهَا مع مُجْتمعها، ذلك المُجْتمـعُ الذي سوف يكون قد اسْتَـوَى على تَوَازُنِـهِ الجديد)[٢]. نَسْتطيـعُ أنْ نقول إنّ ذلك «التّـوَازُنَ الجديد» سيتحقَّقُ فـي ظِلِّ «ثقافةٍ عِلْميّةٍ» تُحَرِّكُ «آليّاتِ التّنْمية»، وتَحْكُـمُ مساراتِها، وتَحْتَكِمُ إلى «الشُّرُوطِ التّنْمَوِيّـة»، و«المَقَاصِدِ الشَّرْعِيّة»، والفَهْمِ الحقيقيّ لـ«رُوحِ العَصْرِ» دون انْبِهَارٍ أو انْكِفَاءٍ؛ وسيكـونُ لـ«المَـرْأَةِ» دَوْرُهَـا الرِّياديّ مع شقيقهـا «الرَّجُل» في مُجْتمعٍ يَتَوَلَّـى كُلُّ فَرْدٍ فيه أمْـرَ ما يُحْسِنُهُ، ويَتَفَوَّقُ في مجال مهارتِه ومَوْهِبَتِه، ويصوغُ الإجابات لمُشْكلاتِه من وَاقِعِ «الحَرَاكِ التّنْمَوِيّ»، ويَسْتَمِدُّ أشْكالـه الحياتيّة من مَكَامِنِ الإنْجازات المَلْمُوسَة، ويتفاعلُ – بعَقْلانيّةٍ ورَوِيّةٍ – مع هُوِيَّةِ المُجْتمع وقِيَمِهِ وتطلُّعاتِه.

٩-٥-٢) قضيّة الوَحْدَةِ العربيّة:

من أبْرز ما شَغَلَ أذْهان «المُجْتمعات العربيّة» هي «قضيّةُ الوَحْدَةِ» بين أبْناء الشَّعْبِ الوَاحِد من ناحيةٍ، وبين الشُّعُوب العربيّة المُخْتلفة من ناحِيةٍ أُخْرى، ولقد جَرَتْ مُحاولاتٌ عِـدَّةٌ – سياسيّةٌ وفِكْريّـةٌ وثقافيّةٌ وثوريّـةٌ واقْتصاديّةٌ – نحو إرْسَاءِ النَّـوَى الوَحْدَوِيّة، ولا نَسْتطيـعُ – بعـد حِقَـبٍ طويلةٍ من التّجْريـب والمُعَانَـاةِ – إلاّ أنْ نُؤكِّـدَ أنّ مُعْظَمَهَا قد باء بالفَشَـلِ المُطْلَـقِ، بينمـا بعضها واصل تَعَثُّـرَهُ وتَقَهْقُرَه؛ وأمّـا الكِياناتُ العربيّـةُ القَائِمَةُ

فتُهَدِّدُهَــا انْفِصَامَــاتٌ طَائفيّةٌ وعِرْقيّــةٌ وأيديولوجيّة. وبالرّغْم من تَعَــدُّدِ الأسْبَابِ لذلك الفَشَــلِ والتَّعَثُّــرِ، إلاّ أنّ قَاصِمَةَ الظَّهْرِ تَكْمُنُ في غِيَابِ «البُعْــدِ التّنْمَوِيّ» الذي يَسْتطيعُ أنْ يَجْمَــعَ النّاس حول مُعْطياتِه التي تَمْتَصُّ طاقاتِهــم، وتَصْقُلُ إبْداعاتِهم، وتُفَعِّلُ قُدْراتِهم، وتَنْشُــرُ الرَّفَــاهَ والازْدهــار. وتَتَأَكَّدُ تلك الحقيقةُ فــي «التَّجْرِبَةِ الأوروبيّــة» التي نَجَحَتْ – فــي عُقُودٍ قصيرةٍ – فــي أنْ تَقْطَعَ خُطُواتٍ كبيرةً على طريــقِ اتِّحادِها وتكامُلِ تفاعُلاتِها الاقْتِصاديّــة والسّياسيّة والتّنْمَويّة، وذلك بالرّغْم من اخْتلاف لُغَاتِهَا وثقافاتِها، وما فيها مــن صِرَاعَاتٍ قديمةٍ وحديثةٍ وحُرُوبٍ دمَويّةٍ، تَسَبَّبَتْ في إشْعَــالِ نيران حَرْبَيْنِ عالَمِيَّتَيْنِ في القَرْنِ العشرين أكلتا الأخْضر واليابس، وقضتا على أرْوَاحِ ملايين البشر. وأمّا السُّؤالُ الذي قد يَبْدُو مُحَيِّراً فهو: (كيف نَجَحَتْ أوروبا بكُلِّ تلك الفُرُوقِ والتّنَاقُضَاتِ في أنْ تَصْنَعَ كِيَانَهَا الاتّحادي المُتَطَوِّرَ المُوَاكِبَ لمُشْكلاتِه، والمُتَّسِعَ – أفقيّاً ورأسيّاً –، في الوَقْتِ الذي فَشَلَتْ فيه تَجَارِبُ العربِ الوَحْدَوِيّة والاتّحَادِيّة بالرّغْم ممّا يَجْمَعُ بين شُعُوبِهَا من رَوابطِ اللّغَة والتَّاريخ والثّقافة والدِّين؟).

إذا كان «الوِجْــدَانُ العربــيُّ» يَحِــنُّ إلــى تلــك «الوَحْــدَةِ الشّامِلَــةِ»، وكان «التَّاريخُ» و«اللّغَــةُ» و«الثَّقافةُ» و«الدِّينُ» عناصر مُقَوِّمَاتِهَا، فــإنّ المُشْكلة – إذاً – لا تَكْمُنُ في غِيَابِ الإرادة والرّغْبَــة والحماس، ولكنّها تَتَجَلّى في غِيَــابِ «البِنْيَةِ التَّحْتِيّةِ» القَادِرَةِ على إسْنَادِ «التّجْربــةِ الوَحْدَوِيّةِ التَّكَامُلِيّــةِ»، وتَطْويرِ مُعْطياتِها بحيث تُحَافِــظُ على مصالِح الجميع، ويَسْتَفِيدُ منها الجميع، وهذا لا يُمْكِنُ أنْ يَتَحَقَّقَ إلاّ في إطَارِ «حَرَكَةٍ تَنْمَوِيّةٍ» أصيلةٍ وَاسِعَةِ النِّطَــاقِ، وعميقةِ التَّأْثير. إذا كان مَطْلَــبُ «الوَحْدَةِ» غايةً نِهائيّةً، وطُمُوحــاً قوميّاً، ورُؤيةً عمليّــةً، لأهميّــة «التَّكَتُّــلِ الإسْتراتيجيّ» بيــن مُجْتمعاتٍ تــرى وَحْدَتَهَا مُتَجَــذِّرَةً في لُغَتِهَا ودِينِهَــا وجُغْرافيّتِهَا وتاريخِها، فإن هناك بالضّرورة، كما يرى يوسف صايغ[١١]، (مراتِب ومراحِــل يَنْبَغِي اسْتهدافُها تَبْدَأُ بالتّعاون المُنَسَّق، وتَمْتَدُّ إلى التّكَامُل، فالانْدِمَاج، لتَنْتَهِي بالوَحْــدَة)؛ وأمّا «مَفْهُومُ التَّنْمية العربيّــة» فيَنْبَغِي أنْ: (يَرْتَقِي من مُجَــرَّدِ انْتِقَالِ أنْمَاطِ ومَسَــارَاتِ «التّنْميةِ القُطْرِيّةِ» من حالةِ التّعَارُضِ والتّنَاقُضِ فيما بينها في بعض جَوانِبِهَا، إلى حالةِ عدم التَّعَارُضِ والتّنَاقُض).

وفي هـذا السِّياق تَبْرُزُ «الثَّقافةُ التَّنْمَويّةُ» (انْظر: الفَصْل الخامس) بصفتها عَامِلاً يَحْمِـلُ تَوَافُقَاتِهِ وضَوَابِطَهِ وأُطُـرَهِ التي تتجاوزُ الوَاقِعَ القُطْـرِيّ والخُصُوصِيّاتِ المحليّة؛ فـ«التّنْميةُ» هي الهدفُ على المُسْتوى القُطْرِيّ والقوميّ؛ لأنّ حقيقةَ الأَمْرِ كما يُؤَكِّدُ يوسف صايغ[11] هي أنّ: («الوَحْدَة» دون «التّنْمية» تَظَلُّ ضعيفةً ومَهْزُوزةً وعقيمةً دون ثَمَرٍ)، وفي أغْلَبِ الأَحْوال - كما تُؤَكِّدُ التَّجَارِبُ العربيّة - تؤولُ تلك «التَّجَارِبُ الوَحْدَوِيّة» الخَالِيَةُ من «الرُّؤيـةِ التّنْمَوِيّةِ» الجَـادّةِ إلى الفَشَلِ والاضْمِحْلالِ والصِّرَاعِ، وكمـا يُؤَكِّدُ يوسف صائغ: (إنّ «الوَحْـدَة» لا يُمْكِنُ أنْ تُعمِّرَ طويلاً إذا نَجَمَ عنها إبْطَاءٌ مُسْتَمِرٌّ في مسيرة «التّنْمية»، وخَفْضٌ لأدائِها، وخَلَلٌ في بِنْيَتِهَـا). إنّنا إذا اتَّفَقْنَا مع ما يراهُ لؤي صافي بأنّ: («الثَّقافة النَّاهِضَـة» تتميَّـزُ بخصيصَتَيْنِ رئيسَتَيْـن: ١) القُدْرَةُ على توليد تضامُـنٍ دَاخِليٍّ، يَتَمَثَّلُ بتعـاون أَفْـراد المُجْتمع النّاهِضِ، وتلاحُمِهِـم وتكامُل جُهُودِهم. ٢) القُـدْرَةُ على تَحْرِيرِ الطّاقةِ الخَلاّقةِ المُبْدِعَـةِ للفَرْدِ والجماعة، وبالتّالي تَمْكينُهم من تَطْوير أدواتِهم وزيادةِ فَاعِلِيّتِهـم)[16]؛ أقـولُ: إذا اتَّفَقْنَا مع تلك الرُّؤية، فإنّنا نرى أنّ تلك الشُّرُوطَ لا تَتَحَقّقُ إلاّ في إطَـارِ ما عَرَّفْنَاهُ بـ«الثّقافة التّنْمَويّة» التي تكونُ قَلْبَهَـا ومِحْوَرَهَا «ثقافةٌ عِلميّةٌ» نَشِطَةٌ تتفاعَـلُ مع «الحَرَكَـةِ العِلْميّة - التّقنيّـة» مُسْتَقْطِبَةً الجُهُـودِ، ومُطَوِّرَةً للمَـوَارِدِ، وصَاقِلَةً للخِبْرَاتِ، ومُعَزِّزَةً للمهارات.

٩-٥-٢- أ) الوظيفة التّاريخيّة» لـ«الثّقافة العربيّة»:

يـرى محمد عابـد الجابـريّ[59] أنّ «الوظيفة التّاريخيّـة» لـ«الثّقافـة العربيّة» هي: (وظيفةُ التَّوحيـد المَعْنَوِيّ، الرُّوحيّ والعَقْليّ، وظيفةُ الارْتفـاع بالوطن العربيّ من مُجَرَّدِ رُقْعَةٍ جُغْرافيّةٍ إلى وِعَاءٍ للأُمّة العربيّة لا تكونُ إلاّ به، ولا يكونُ إلاّ بها)، ويتساءَلُ الجابريّ: (كيف العملُ على تَقْوِيةِ وتَنْميةِ هذه الوظيفة التّاريخيّة للثّقافة العربيّة حتّى تَسْتطيع الدَّفْعَ بالنُّزُوعِ الوَحْدَوِيّ في الوطن العربيّ خُطُواتٍ حَاسِمَةٍ إلى الأمام وعلى المُسْتويات كافّةً؟).

وأمّا محمد جابر الأنصاريّ[21]، فيرى ضَرورَةَ نُضْجِ «الدّولة القُطْرِيّة» وتَحَوُّلِهَا إلى «مُؤَسَّسَـةِ دَولةٍ حقيقيّةٍ»؛ لكي يكون الطّريـقُ مَفْتُوحاً إلى «الوَحْدَة»، فيقول: (إنّ «الوَحْدَة»

تَمُــرُّ عبْــر تَنْميةِ وإنْضَــاجِ «الدَّولــة القُطْرِيّة» وليســ تَدْميرها، فـ«الوَحْــدَةُ» لن تكون غير حَاصِــلِ جَمْعِ الوَحْدَاتِ القُطْرِيّة، والأصْفَارُ لا تَتَحَــوَّل إلى وَاحِدٍ صحيح، ذلك أنّ الأعْداد الصّحيحــة والسّليمــة والمُتَعَافِيَــة - وحدها - تُنْتِجُ عَــدَدَاً صحيحاً أكْبر منهــا). وسَواءٌ كان المَسَــارُ على طريــقِ «الوظيفة التّاريخيّة» لـ«الثّقافة العربيّة» يَبْــدَأُ من مَواقِعِ «الدّولة القُطْرِيّــة»، أو يَنْطَلِقُ من رِحَــابِ «الوَحْدَة العربيّة» الجَامِعَة، فــإنّ أيّاً من ذلك لن يَتَحَقّقَ فــي إطَارٍ سَــوِيٍّ، إلاّ بتَحْقيقِ انْدمَــاجِ «المُواطِن» فــي مُجْتمعه عبْر «التّنْميــة» والمُشَارَكَةِ و«التَّجَانُسِ الثَّقافيّ» والمَرْدُودِ النّفْعيّ؛ ويَخْلُصُ محمد عابد الجابريّ إلى أنّ: (التّعَارُض بيــن كَوْنِ «الدَّولة القُطْرِيّة» العربيّة حقيقــةً وَاقِعَةً لا يُمْكِنُ القَفْزُ عليه، وبين ضرورة قيام نَوعٍ جِدّيٍّ من «الوَحْدَةِ العربيّة» لمُوَاجَهَةِ مُتَطَلَّبَاتِ التّقدُّم، تعارُضٌ يُمْكِنُ تجاوزُه لمصْلحةِ هذا الأخير بتَعْميقِ الوظيفة التّاريخيّة لـ«الثّقافة العربيّة» بالصُّورة التي تُمَكِّنُ العرب من الانْخِرَاطِ الجماعيّ الفَاعِلِ في عَصْرِنَا: عَصْرُ العِلْمِ والتِّقانة)[١]. وهكذا تُصْبِحُ «الرُّؤيةُ التّنْمَويّةُ»، المُسْتَنِدَةُ إلى فَهْمِ وَاقِعِ العَصْرِ ومُتَطَلَّبَاتِهِ العِلْميّة والتّقنيّة، مَطْلَباً أساساً على طريــقِ تَهْيئةِ هــذه الوَحْدَاتِ؛ لتكون أعْــداداً مُتَعَافِيَةً وصحيحةً قَادِرَةً علــى تَحْقيقِ وَحْدَةٍ مُتماسِكــةٍ وفَعّالَةٍ، ولتُصْبِحَ هــذه «الرُّؤيةُ التّنْمَويّةُ» أكْثر دَلالــةً وأشدّ ضرورةً لتجاوز تلك الآفَــةِ المُتَكَــرِّرَةِ في «المُجْتمعــات العربيّة» التي وَصَفَهَا محمد جابــر الأنصاري بـ«القَفْزِ الخَطِــر في الفَــرَاغِ السّياسيّ» الذي يَفْتَقِدُ: (برنامج العمــل السّياسيّ المُتَحَدِّد والالْتِزام اليوميّ الطّبيعيّ بالتّمَرُّسِ والعطاء المَدَنِيّ والسّياسيّ في مجالاتِها المُحَدَّدَة)[٢١].

إنّ «قضيّــةَ العــرب مــع السِّياسَــةِ» ذات إشْكاليّــاتٍ تاريخيّــةٍ وجُغْرافيّــةٍ ووِجْدانيّةٍ واجْتماعيّةٍ وتُرَاثيّةٍ مُعَقَّدَةٍ ليس هنا مقام تَفْصيلها، ولكن مُعَالَجَةَ محمد جابر الأنصاري لهــا تُبَيِّنُ أنّ من أخْطــر مَواقعِ الخَلَلِ في الحياة العربيّة المُعَاصِرَة والطُّرُوحَاتِ الوَحْدَويّةِ تلــك «المُفَارَقَــةُ» القَائِمَةُ بين: (قُــوَّة «الرّوابِطِ المَعْنَويّــة» في الدِّينِ واللّغَــةِ والشُّعُورِ بين العــرب؛ إلى جَانِبِ ضَعْفٍ شديدٍ في «الرَّوابِطِ المادّية» الوَاقِعيّة بينهم من حيث الارْتباط الحياتــيّ الوَاقِعيّ، المعيشي والعمليّ، في مُخْتلف جَوانِــبِ الدَّولة والاقْتصاد والمُؤسَّسات المُشْتَرَكَــة. إنّ العرب يُعَانُونَ من تَضَخُّمٍ في «المَعْنَوِيَّاتِ» مع ضُمُورٍ شديدٍ في «المَادِّيَّاتِ»

المُوَحِّـدَةِ بينهـم)[٢١]. وأمّا زكي نجيب محمود، فقـد أَلْمَحَ إلى هذا «المَـأْزِقِ السّياسيّ» القديـم – الجديـد قبل حوالي نِصْف قَرْنٍ، عندما كتب يقـول: (كَلاَّ يا ابْنتي، لا تَسْألينـي عـن أيديولوجيا اليَسَارِ واليَمين، بَلْ اسْأليني عن طريـقِ «النَّظَرِ العِلْميّ» كيف يكون؟ لعلّ شُعَاعـاً منه أنْ يُبَدِّدَ شيئـاً من هذا الظَّلام الكثيفِ الذي ساعد علـى قِيَامِهِ – واأسفاه – نَفَـرٌ مـن قَادَةِ الكلمة مَقْـرُوءَةً ومَسْمُوعَة)[٢٨]. ومَرَّةً أُخْـرى – إذاً – تُطِلُّ قضيّةُ «الثَّقافة التَّنْمَويّـة» (انْظر: الفَصْل الخامـس) – بصفتها وِعَاءً قَادِرً على تَفْعيـلِ الطّاقات، وخَلْقِ الإنْتاج، وتَطْويرِ المَوَارِد، وتوليدِ عَنَاصِرِ التّغَلُّبِ على تلك «المُفَارَقَة»، وتَقْويضِ دعائِم ذلك الخَلَلِ الذي يَتَرَبَّصُ بمُحاولاتِ «الوَحْدَةِ»، وجُهُودِ توثيق الأوَاصِرِ بين «الدُّول القُطْرِيّة».

وأمّـا المَخْرَجُ – من هـذا الإشْكاليّات – الذي يَخْلُصُ إليـه محمد جابر الأنصاري فيَتَمَثَّـلُ في «خُطّةِ عملٍ عربيٍّ» أحد أهـمّ دعائمِها: (اعْتمادُ السِّياسَـة العربيّة، والثَّقافة العربيّـة، على الأساس المَعْرفـيّ العِلْميّ للقضايا التي تُوَاجِهُهَـا)[٢١]. وهكذا نَسْتطيعُ أنْ نقـول إنّ نُموَّ «الوَحْـدَاتِ القُطْرِيّة» ونُضْجَهَا لـن يتحقَّقا إلاّ بهَيْمَنَةِ «ثقافـةٍ تَنْمَويّةٍ» تكون «العلـوم والتّقْنية» وسيلتَهـا وسَنَدَهَا ووَقُودَهَا؛ وبالتّالي لن تَتَحَقَّقَ تلـك «الوَحْدَةُ العربيّةُ» التـي يَتَغَنَّـى بها العرب، وتَرْقُصُ عليها مَشَاعِرُهُـمْ، وتَتَأَجَّجُ بها عَوَاطِفُهُـمْ، ما لم تكنْ نِتَاجـاً طبيعيّاً لـ«وَحْدَاتٍ قُطْرِيّةٍ» تَعَمَّقَـتْ جُذُورُهَا التّنْمَويّة، وتواصلتْ تفاعُلاتُهَا العمليّة، وتشابكـتْ مَصَالِحُهَـا الاقْتصاديّة، وتَوَطَّـدَتْ رَوَابِطُهَا المادّية على أُسُـسٍ عِلْميّةٍ وتِقنيّةٍ ومَعْرفيّـةٍ، وانْتَشَرَتْ – بين فِئَاتِهَا المُخْتلفة وشَرَائِحِهَـا المُتباينة – «ثقافةٌ عِلْميّةٌ» نَشِطَةٌ تَشُدُّ من عَضُدِهَا، وتُوَثِّقُ عَنَاصِرَهَا، وتُرْسِي دعاماتِها، وتُؤلِّفُ بين مُكَوِّنَاتِهَا.

٩-٥-٣) قضيّة الدِّيموقراطيّة:

إنّ الشَّدَّ والجَذْبَ بين الحكوماتِ والشُّعُوبِ ظَاهِرَةٌ أزليّةٌ، فشُعُوبُ أوروبا لم تَكُنْ في عُصُورِهَـا الوسْطى بمَعْزِلٍ عن هذا الصِّرَاعِ والتَّجَاذُب، ولكنّ «مِيزان القُوى» لم يَمِلْ إلى صَالِـحِ اسْتِقْرَارِ «المُؤسَّسَاتِ الدِّيموقراطيّة» وتطوُّرِهَا، إلاّ عندما اسْتَقَرَّتْ «سفينةُ العلوم والتّقْنيـة» عنـد مَرْسَى الإنْتاج والتّطْوير والابْتـكار. وحقائِقَ التّاريخِ تُؤكِّـدُ أنّه كُلّما ازداد

وَعْـيُ الشُّعُوبِ بقُدْرَاتِهَـا الكَامِنَةِ في صُنْعِ حياتِهـا ومُسْتَقْبَلِهَا، وارْتَفعَـتْ مهاراتُها، ونما رصيدُهـا الإنْتاجيّ، مال «مِيـزانُ القُوى» إلى صَالِحِ الشُّعُوبِ فـي ضَبْطِ الأداء الحكوميّ، وتَحْديدِ مَسْؤوليّات الحكومة، ووَاجِبَاتِ الدَّولة، وحُقُوقِ المُواطِن. إنّ هذا الوَعْيُ، المُنْبَثِقُ عـن مُقَوِّمَاتِ «العِلْمِ والتّنْميةِ والإنْتاج»، يَتَسَلَّلُ - بالضّرورة - إلى الأجْهِزَةِ الحكوميّة على مُخْتلـف الأصْعِدَةِ والمُسْتويات؛ لأنّه من البدهيّ أنّ العَامِليـن في هذه الأجْهِزَةِ، وصَانِعِيّ القَـرَار، هم نِتَـاجٌ لمُجْتمعاتِهم، ويتفاعلون مـع وَعْيها وثقافتِهـا وإبْداعاتِها، وهذا الوَعْيُ المُشْتَـرَكُ والمُتنامِـي بين الحكومـةِ والشَّعْبِ هـو خير ضَامِـنٍ لـ«التّنْميـة المُسْتَدَامَة»، و«الاسْتِقْـرَارِ الشَّامِل»؛ وهذا يَعنِـي أنّ التَّحَوُّلَ إلى «الدِّيموقراطيّـة» لا يَنْشَأُ من عَدَمٍ، أو يَتَحَقَّـقُ بضَغْطَةِ زِرٍّ، ولكنّه مَرْهُونٌ بشُرُوطٍ تَعْليميّةٍ وثقافيّةٍ وإنْتاجيّةٍ، ومُرْتَبِطٌ بمُسْتوياتٍ لائِقَـةٍ من الرَّفَـاهِ والإبْدَاعِ والعَقْلانيّـة. وفي ظِلِّ «ثقافـةٍ تَنْمَوِيّةٍ» يُحَرِّكُهَـا دينامو «العِلْمِ والتّقْنيـة»، سيصوغُ كُلُّ مُجْتمـعٍ - وفْق هُويّتِهِ وتاريخِهِ ومُعْطياتِـهِ وقِيَمِهِ - ذلك النَّوْعَ من «الدِّيموقراطيّة» الذي يُحَقِّقُ «التَّوَازُنَ» بين «التَّغْييرِ» و«المُشَارَكَةِ الفَاعِلَة»، وبين «الفَوْضَى» و«الانْفِلاتِ الكَارِثيّ».

بإيجـازٍ، نَسْتطيعُ أنْ نقـول إنّ هناك شَرْطَيْـنِ لازِمَيْنِ لتَشَـكُّلِ «الدِّيموقراطيّة» في المُجْتمـع، ولتَحْقيـقِ مُمَارَسَتِهَـا الإيجابيّة من قِبَلِ أَفْـراده؛ أَوَّلُهما: «شَـرْطٌ قَبْلِيٌّ» يَنْبَغِي تَوَافُـرُهُ - ابْتداءً - ليُسْهِمَ في تَخَلُّقِ «الدِّيموقراطيّـة» واسْتِقْرَارِهَا في المُجْتمع، وهو تَنَوُّعُ الفُرَصِ الإنْتاجيّـةِ للمُواطِن، وتَعَدُّدُهَا - كَمّاً وكَيْفاً -؛ ليكون لهـذه الفُرَصِ دَوْرٌ فَاعِلٌ في تَحْقيـقِ بيئة رَخَاءٍ عامٍّ يَسْعَى الجميع إلى المُحَافَظَةِ عليهـا وتَنْميتها؛ لأنّ لكُلٍّ منهم فيها نَصيباً، وكُلٌّ منهم غَارِمٌ بجُهْدِهِ، وغَانِمٌ بمَكَاسِبِهِ. وهذا «الشَّرْطُ القَبْلِيّ» لا يَتَحَقَّقُ إلاّ في بيئةٍ نَشِطَ فيهـا «الفِكْرُ العِلْميّ»؛ ليُعَمِّقَ «آليّاتِ العِلْم» و«وَسَائِلَ التّقْنية» و«أدواتِ الإنْتاج»، ويُشْرِكَ العَدَدَ الأكْبر من أفْرَادِ المُجْتمع في سِيَاقَاتِهِ وأنْمَاطِهِ وحَرَاكِه.

وأمّـا «الشَّـرْطُ الثّانـي» فهو «شَـرْطٌ بَعْـدِيٌّ» يَتَطَلَّـبُ وَعْياً بـ«رُوحِ العَصْـرِ» وأَنْوَاعِ «التَّحَدِّياتِ» وأشْكَالِ «الاسْتِجَابَةِ» المَطْلُوبَةِ لها؛ لأنّه الضّامِنُ لاسْتمراريّةِ «الدِّيموقراطيّة»، ومُمَارَسَتِهَا الفَاعِلَةِ، وتَطْويرِ آليّاتِ «المُشَارَكَةِ الجماعيّة». وهذا «الشَّرْطُ البَعْدِيّ» يَتَطَلَّبُ

- أوّل مـا يَتَطَلَّبُ - انْتِشَارَ «ثقافـةٍ عِلْميّة» وَاسِعَةِ النِّطَاقِ؛ تَسْتَوعِـبُ المُتَغَيِّرَاتِ، وتَضْبِطُ إيقَاعَـاتِ «التَّفاعُـلِ الإيجابـيّ»، وتَدْفَـعُ بالإبْدَاعِ والمَوَاهِـبِ لتَطْويرِ عطـاءاتِ المُجْتمع، وتَأْسيسِ «اقْتصـاد المَعْرِفَـة» الذي تُؤَسِّسُـهُ العَنَاصِـرُ البشريّةُ في «مُجْتمـع المَعْرِفَة»، وتُطَـوِّرُهُ المُؤَسَّسَـاتُ الوطنيّةُ القَادِرَةُ علـى اكْتِسَابِ «المَعْرِفَةِ» -الحاليّـة والمُسْتقبليّة - واسْتِيعابِهـا وإنْتَاجِهـا ونَقْلِها وتَسْويقِهـا - بفعّاليةٍ وكَفَاءَةٍ - لرَفْعِ درجـة النُّموّ، وتَحْسين القُـدْرَاتِ التّنَافُسِيّـة. وهذا ما نَوَّهَ بـه التّقْريرُ الأمريكيُّ المَوسُومُ «التَّعْليـمُ لعَصْرِ العِلْم» الـذي صدر في عهْد الرئيس آيزنهاور حيـث ورد فيه: (يَنْبَغِي للمُواطِنين - في «المُجْتمع الدِّيموقراطـيّ» اليـوم - فَهْمُ العلـوم؛ ليتمكَّنُوا مـن المُشَارَكَـةِ الدِّيموقراطيّـةِ الوَاسِعَةِ والوَاعِيَـةِ في العديد من القرارات القوميّة) [٤٤]؛ وأمّـا جلين سيبورج، فيرى: (إنّ مبادئ العلـوم تُهَيْمِنُ على العديد من قضايا اليوم والغد؛ فـإذا كان جَوْهَرُ الدِّيموقراطيّة - كما أَعْتَقِـدُ - هو مُمَارَسَةُ التّأْثير بوساطة النّاس المُطَّلِعِين، فإنّ هذا يَعْنِي أنْ تكون المبادئ البسيطة للعلوم مُتأسِّسَةً على نِطَاقٍ وَاسِعٍ في المُجْتمع) [٤٤].

وهكـذا نجـدُ أنّ «الدِّيموقراطيّة» ليستْ آليّةً تُسْتَوْرَدُ، ولكنّهـا تَجْرِبَةٌ تَصُوغُهَا الأُمّةُ من وَاقِعِ ثقافتِها ومَوْرُوثِهَا وتفاعُلاتِهـا وتَجَارِبِهَا، و«الدِّيموقراطيّة» تَتَحَرَّكُ - بالضّرورة - دَاخِـلَ «آليّـات التَّنْمية»، وتَنْمُو في رَحِمِهَا، وتَتَبَلْوَرُ عبْـر تفاعُلاتِها، حيث المَطْلَبُ - في الحَالَتَيْـن: القَبْلِيّة والبَعْدِيّة - هو «المُشَارَكَـةُ الجماعيّةُ الواعيةُ» على مُخْتلف المُسْتويات لتَحْقيـقِ ذلـك «المُجْتمـع المَعْرِفيّ» الـذي يَقْتَنِصُ فُرَصَ «الزَّمَـان»، ويُـدْرِكُ مُعْطياتِ «المـكان»، ويَسْتَنِـدُ - في صِياغَةِ مُقَوِّمَاتِهِ - إلى «تَوَافُقٍ تَنْمَـوِيٍّ»، ورُؤىً مُتَجَدِّدَةٍ، وثَوابِت هي كالرَّواسِي تَمْنَعُ أَرْضِيَّةَ المُجْتمعِ أنْ تَمِيدَ بأَهْلِهَا.

٩-٦) حالة «القُصُور الذّاتيّ»... إلى متى؟:

سعينـا بين طَيَّاتِ هذا الكِتَابِ إلـى تَأْكيدِ «الوَجْهِ الثَّقافيّ للعلوم والتّقْنية»، وضَرورةِ مُوَاكَبَتِـهِ للحَـرَاكِ الثّقافيّ والمُجْتمعـيّ؛ لتَعْزيزِ أداءِ «العلـوم والتّقْنية»، وفَتْـحِ فُرَصِهَا، واسْتكشـافِ آفاقِها، وتَعْميقِ آليّاتِها في المُجْتمع. وهـذه الحقائقُ تُؤَكِّدُهَا تَجَارِبُ «الدُّول

المُتَقَدِّمَـة» ونجاحاتُها، وتُعَمِّقُهَا مُعَانَـاةُ «الدُّول النَّامية» وتَعَثُّرُهَـا، ويُمْكِنُ اخْتِصَارُ هذه الحقائـق في أنّ «إشْكَاليّـة التّنْمية» تَتَفَاقَمُ عندما نُهْمِلُ حقيقـةَ أنّ «العلوم والتّقْنية» هي فِكْرٌ وثقافةٌ وطريقةُ حياةٍ، قبل أنْ تكون أدواتٍ نَسْتَوْرِدُهَا، أو أَجْهِزَةً نَسْعَى إلى تَصْنيعها؛ فهنـاك شُـرُوطٌ أخْلاقيّـةٌ وعَقْليّةٌ وقِيميّـةٌ وثقافيّةٌ لازِمَـةٌ للإنْسان لكي يَدْلِـفَ إلى عَالَم «صِنَاعَـةِ الحضارة المُعَاصِرَة»، ويَسْتَوْعِبَ عَنَاصِـرَ التّقَدُّم والتّطَوُّر، فكما يقولُ علي علي حبيش: (إنّ مَوْقِـفَ المُجْتمـع والأفْراد تِجَـاهَ الإبْـداع والابْتكار والتّغْييـر والإصْلاح هي عَنَاصِرُ أساسيّةٌ للتّنْمية والتّقَدُّم العِلْميّ)(٣٩).

لقـد أُهْمِلَ «البُعْدُ الثَّقافيّ» فـي التّفاعُلاتِ الثّقافيّة، والخُطَـطِ التّنْمَويّة، والبرامج الاجْتماعيّة فـي العَالَم العربيّ؛ ممّا أثّرَ سَلْباً في قضايا تَحْفيزِ الابْتكارات، ودَفْع «البَحْثِ العِلْميّ»، و«توطين التّقْنية»، وتَأْصيلِ «التّنْمية»، وتَطْويرِ «التَّعْليم». إنّه من المُهِمّ أنْ نُدْرِكَ أنّ «مَنْظُومَـةَ العلـوم والتّقْنيــة» ليستْ مُجَرَّدَ عَابِـر سبيلٍ يُنْجِزُ مُهِمّتَـهُ ويَمْضِي إلى حال سبيلـه، ولكنّها أُسْلوبُ حياةٍ، وطريقـةُ تَفْكيرٍ، ومَنْهَجُ عملٍ، ويَنْبُوعُ ثقافـةٍ؛ فقُدْرَتُهَا على الإنْجَازِ تتناسبُ طَرْدِيّاً مع قُدْرَتِهَا على التَّحَوُّلِ إلى «ظَاهِرَةٍ اجْتماعيّةٍ» تَحْتَلُّ مَوْقِعاً قِياديّاً فـي ثقافة «الإنْسان المُعَاصِـرِ» ووَعْيِهِ وسُلُوكِه. وإذا كان عَدَدٌ كبيـرٌ من المُثقَّفين العرب يـرى ما يراه محمـد عابد الجابريّ(٦٧) بأنّ أبْرز عُيُوب «الثّقافة العربيّة» هي أنّها «خِطَابُ وِجْدَانٍ» وليستْ «خِطَابَ عَقْلٍ»، فإنّ الطّريقَ الأبْرَزَ لتَحْويلِ «خِطَابِ الوِجْدَانِ» إلى «خِطَابِ العَقْـلِ»، والانْتِقَالِ من «مَرْحلة الانْفِعَالِ» إلـى «مَرْحلة الفِعْلِ»، إنّما هو عبْر تَنْميةِ «الثَّقافة العِلْميّـة» وأُسُسِهَـا المَعْلُوماتيّـة، ومَنْهَجِهَا التّجْريبيـّ، ومُقَوِّمَاتِهَا الفِكْريّـة، وعَنَاصِرِهَا العَقْلانيّة، وضَوابِطِهَا الصّارِمَة.

أَدْري أنّ (النَّاسَ أعْـدَاء مـا جَهِلُوا)، ولكن «العلـوم والتّقْنية» أَصْبَحَـتْ ضَرورةً لا مناص منها؛ وبالتّالي، فإنّه يَنْبَغِي أنْ يكون على رأْس الأولويّات الوطنيّة - في المُجْتمعات العربيّـة - الاهْتمام بوَضْـعِ البرامِج والإسْتراتيجيّات للتَّغَلُّب على ذلـك الجَهْل، وتَقْليصِ مِساحـة ذلك «العَدَاءِ الخَفِيّ»، وتوليـدِ عَنَاصِر «التَّفاعُلِ الإيجابيّ» مـع «مَنْظُومَةِ العلوم والتّقْنية» التي أَصْبَحَتْ - دون جِدَالٍ - قضيّة «حياةٍ أو مَوْتٍ» للأُمّة.

أَدْرِي أنّ من سُنَنِ الله «ظَاهِرَةَ القُصُور الذّاتيّ» الفيزيائيّة التي تَسْرِي على الحَجَرِ، وتَنْطَبِـقُ على البَشَرِ، وهي ظَاهِرَةٌ طبيعيّةٌ يُوَضِّـحُ أَبْعَادَهَا «القانونُ الأوّلُ لنيوتن للحَرَكَة» فــي الفيزياء الذي يَنُصُّ على أنّ: (الأجْـرام في الطَّبيعة تُقاوِمُ التّغْيير، وتَميلُ إلى البَقَاءِ علـى حالتِهـا، ما لم تُؤَثِّرْ فيهـا قُوىً خَارِجيّــةٌ تُجْبِرُهَا على تَغْييرِ هــذه الحالة). ولا شَكَّ فــي أنّ هــذا الحال سُنَّةٌ كَونيّةٌ تَنْطَبِقُ على البَشَــرِ - أيضاً -، حيث يكون هناك دائماً مَيْلٌ بَشَــرِيٌّ للاسْتِمْــرَارِ على ما أَلِفَهُ الإنْسان، ولذا فإنّ التّمَسُّــكَ باسْتِمْرَارِ الوَضْعِ، والتّخَوُّفِ من التَّغْيير، قد يَأْتِيَانِ مُتَلَبِّسَيْن بأعْذَارٍ مُخْتلفةٍ، ومُبَرِّرَاتٍ مُتَنوِّعَةٍ، إلاّ أنّ مُعْظَمَهَا يَنْبُعُ - في الوَاقِعِ - من «ظَاهِرَةِ القُصُورِ الذّاتيّ».

فــي ضــوء تلك الظَّاهِــرَةِ، التــي تَتَلَخَّصُ فــي «مُقَاوَمَةِ التَّغْييــر»، نجـدُ أنّ «التَّغْيير الثَّقافيّ» هو أصْعَبُ أنْواع التَّغْيير، ولكن لا خِيَارَ أمام الأُمّة إزاء تحدِّيات «الأَلْفيّة الثّالثة»؛ فـ«المُسْتَقْبَـلُ» مُرْتَبِـطٌ - بالضّــرورة - بـالمُصَالَحَةِ مع «العلوم والتّقْنيــة»، والإسْهَام في فِكْرِهَــا ومُعْطياتِها وأدواتِها، والاسْتِيعابِ الكَامِلِ لمُقْتضياتِهــا وشُرُوطِهَا. ولا شَكَّ في أنّ مِثْل ذلــك «التَّغْيير» يَسْتَوْجِبُ تَكْثِيفُ جُرْعَاتٍ مُسْتمرّةٍ مــن «التّفْكير العَقْلانيّ» و«التَّوعية العِلْميّة» في المناهِجِ والحِوارات والوسائِل الإعْلاميّة والقرارات المُخْتلفة والإسْتراتيجيّات المُتَنوِّعَة، ولا مناص - إنْ أردنا النّجاة - من دَعْم هذا التَّوَجُّهِ من أعْلى المُسْتويات ليكون «قَـرَاراً سِياسِيّاً» فَاعِلاً في إطَارِ «إسْتراتيجيّةٍ تَنْمَوِيّــةٍ» حيويّةٍ تَسْتَجِيبُ لطُمُوحَاتِ الأُمّة، وتَسْتَطِيعُ توليد «الدَّفْع الذّاتيّ» القَادِر على التّصدّي للتّحدّيات المُعَاصِرَة.

إنّنــا نجد - في سِيَــاقِ هذا الكِتَــابِ - أنّ المُفكِّرين والمُثقّفين العــرب يقفون أمام «أَزْمَــةِ النّهْضَة»، و«إشْكَاليّةِ التّنْميــة»، في عُمُوميّاتٍ بدهيّةٍ تَسْتَهْلِــكُ نفْسها، ومُرَاجَعَاتٍ نَقْدِيّــةٍ تُكَـرِّرُ ذاتها، وقِـرَاءَاتٍ مَاضَوِيّــةٍ تَجْتَرُّ حُمُولَتَهَــا، واسْتِلْهَامَــاتٍ مُسْتَقْبَلِيَّــةٍ تُعَمِّمُ اسْتنتاجاتِهــا، وتوظيفــاتٍ اصْطلاحيّةٍ تزيــدُ الطِّينَةَ بِلَّة؛ ولكنّهم - فــي نهاية المطاف - يقفــون - بــكُلِّ التّقدير والإعْجاب - أمــام صَرْحِ «العلوم والتّقْنية» الــذي يَبْقَى - أمام كُلِّ أُطْرُوحاتِهــم ونَقْدِهــم وانْبهارِهــم - مُجَرَّدَ «صُنْدُوقٍ أسْــودَ» مُغْلَقٍ يَحْملُ أسْــرَارَ الحُلُولِ ولكنّنــا لا نَمْتَلِــكُ مفاتيحه، ويَبْــدُو أنّنا - أيضاً - لم نَتَعَرَّفْ بعْد علــى الطّريق الذي يقودُ

إلــى حِيَازَةِ تلك المفاتيح، وعلينا أنْ نَطْرَحَ - في كُلِّ مَحْفَلٍ ومُؤتمرٍ وجامعةٍ ومرْكز بُحُوثٍ واجْتمــاعٍ لصُنَّاعِ القرار- السُّؤال التّالي: (بعد الإشــادة بـ«مَنْظُومَةِ العلوم والتّقْنية»، هل هَيَّأْنَــا لها «البِيئَةَ المُنَاسِبَةَ» التي تُصَادِقُهَــا، وتُعِينُهَا، وتُوَصِّلُهَا في أَعْمَاقِ الكِيان الفِكْريّ والثّقافيّ والإعْلاميّ والاجْتماعيّ والتّعْليميّ؟).

مــن المُهــمّ أنْ نُتَرْجِـمَ كُلَّ الشِّعَـارَاتِ - التــي نَزُجُّ بهــا في المحافِل حــول ضَرورةِ «التَّوعيــة العِلْميّــة»، وأهميّةِ اللّحَاقِ بالرّكْبِ التّقنيّ، والقضــاءِ على التَّخَلُّفِ - إلى تجارِب مُتَرَاكِمَةٍ، وآليّاتٍ مَلْمُوسَةٍ، وإسْتراتيجيّاتٍ مَدْرُوسَةٍ؛ لتَصْنَعَ «ثقافة المُسْتَقْبَلِ» المُتَنَاغِمَةَ مــع مُتَطلَّبَاتِ «التّنْميــة»، والمُتَفَاعِلَةَ مــع «رُوحِ العَصْر». ومن المُهِمّ - أيضــاً - أنْ نُدْرِكَ أنّ القضيّــة ليســتْ خِيــاراً يَجُوزُ فيــه الأَخْذُ والعَطَــاءُ والجَــدَلُ والعِنَادُ، ولكنّهــا ضَرورةٌ أساسٌ بدونهــا يَصْعُبُ تخيُّلُ صِنَاعَةِ مُجْتمعٍ قَادرٍ على الأَخْــذِ بأَسْبَابِ «التَّنْمية» والرَّفَاه؛ فـ«مُجْتمــعُ المَعْرِفَــة» الذي نَطْمَــحُ إليه يَتَكَوَّنُ مــن مُصْطَلَحَيْــنِ مُترابِطَيْــنِ ومُتَكامِلَيْن، وهمــا «مُجْتمع» و«مَعْرِفَة»؛ ليكــون أساس تَكْوينه هو «التَّفاعُلُ المُجْتمعــيّ» مع «المَعْرِفَةِ»، و«التَّوَاصُــلُ المَعْرِفيّ» مع «المُجْتمع»، وليكون الشِّعَارُ الأَكْثَرُ مُواءَمَةً لوَاقِعِ «الأَلْفيّة الثّالثة» هو: («الثَّقافةُ العِلْميّةُ» هي الطَّريقُ إلى التَّأْهيلِ لـ«مُجْتمع المَعْرِفَة»).

٩-٦-١) إشْكَالِيّة «الثقافة العِلْميّة»:

أمّــا «إشْكَالِيّــةُ الثّقافــة العِلْميّة» في «المُجْتمعــات العربيّة»، فهــي الإشْكَالِيّةُ نفْسها الموجودة في حــالات كثيرٍ من المعاني والقِيَمِ الجوهريّة في حياة هذه المُجْتمعات، وهي تدورُ حول السُّؤالِ السّرْمَديّ: (كيف نُتَرْجِمُ «الثّقافة العِلْميّة»، و«المُوَاطَنَة»، و«الوَسَطِيّة»، و«أَخْلاقيّــاتِ العمــل»، و«توطيــن التّقْنيــة»، إلى وَاقِــعٍ عملــيٍّ مَلْمُوس؟، وكيــف نَنْقُلُ تلك المفاهيــم من صَفَحَاتِ التّنْظير، وبُطُونِ الكُتُبِ، وقاعــاتِ المُؤتمرات، ومَحَاضِرِ اللّجان، إلــى مُمَارَسَاتٍ مُفْعَمَةٍ بالنّشاطِ والحيويّةِ والتَّطَوُّر؟). ولا بُدَّ أنْ نَتَّفِقَ هنا على أنّ أيَّ جُهْدٍ فَرْديٍّ، أو مُؤَسَّسِيٍّ، في اتِّجَاهِ «الثّقافة العِلْميّة»، هو جُهْدٌ مَشْكُورٌ ومُحَبَّذٌ يُسْهِمُ في «العمليّة التّرَاكُميّــة»، إلاّ أنّ المُجْتمعــات الطَّمُوحَةَ تَتُوقُ إلى اخْتِزَالِ الوَقْــت، والاسْتِفَادَةِ القُصْوى

من المَوَارِد، والإسْراعِ في إحْداثِ «النَّقْلات النَّوْعيّة» في تفاعُلاتِها وإنْجازاتِها؛ وهذا لا يَتَحَقَّقُ، إلاّ في إطَارِ «قَرَارٍ سِياسِيٍّ» يَتَبَنَّى إسْتراتيجيّةً وَاضِحَةَ الأهْدَافِ والمَعَالِم، ويُوَظِّفُ - بجِدِّيّةٍ - الآليّاتِ والوسائلِ الفَاعِلَة، ويُكَرِّسُ المُتَابَعَةَ المُسْتمرّة للتّصْحيحِ والتّقْويم والتّطْوير، ويَغْرِسُ القَنَاعَاتِ المُلائِمَةَ لتُهَيْمِنَ على العَقْلِ والوِجْدان. وهكذا تَبْقَى مُعْظَمُ مُشْكلات «المُجْتمعات العربيّة» - إنْ لم تكنْ كُلُّها - دون حُلُولٍ نَاجِعَةٍ بالرّغْم من تَوَافُرِ المَوَارِدِ الماديّة والماليّة والبشريّة، وتَبْقَى إسْتراتيجيّاتها أَحْبَاراً على أوراقٍ تَلْتَفُّ حول ذاتها في سَطْحِيَّةٍ مَمْجُوجَةٍ غير قَادِرَةٍ على الغَوْصِ في دَقَائِقِ المُعْضِلاتِ وتفاصيلِ آليّاتِ العمل، وتَتَمَثَّلُ طُرُوحَاتُهَا في مُعَالَجَاتٍ تُفْلِحُ فقط في عَزْلِ الظَّواهِرِ عن مُكَوِّنَاتِهَا، وتَجْرِيدِها من أسْبَابِهَا، عبْر ما تميَّزَتْ به «الثَّقافةُ العربيّةُ» من انْفعالاتٍ وإنْشائيّاتٍ وكلاميّات (انْظر: الفَصْل الثّالث).

وأمّا المَخْرَجُ من الأزْمَةِ لدى محمد عابد الجابريّ فيَكْمُنُ في: (قِيام «إنتلجينسيا عربيّةٍ جديدة»: عربيّةٍ بانْتظامِها في التُّرَاثِ العربيّ لتَجْديدِه من الدّاخِل، وجديدةٍ بانْتظامِها في «الفِكْرِ العَالَميّ المُعَاصِرِ»، ومُوَاكَبَتِهَا له، بقَصْدِ توظيف أدواته المَنْهَجِيّة ورُؤاه العِلْميّة في إعادة بِنَاءِ الماضي وتَغْيِيرِ الحَاضِرِ وتَشْييدِ المُسْتَقْبَل. إنّه دون هذه «النُّخْبَة الإنتلجينسيا» سيَبْقَى الفِكْرُ العربيُّ سَجِين المعارِف القديمة يَجْتَرُّهَا على أنّها جديدةٌ، وسيظلُّ يُعانِي ليس أَزْمَةَ إبْدَاعٍ فقط، بَلْ لربّما من سَكَرَاتِ المَوْتِ وخَطَرِ الانْقِراض)[1]. وفي هذا السِّيَاق، نَسْتطيعُ أنْ نقول - بكُلِّ ثِقَةٍ - إنّه لا يُمْكِنُ لأيِّ بَاحِثٍ نزيهٍ أنْ يَنْزَعَ «الثّقافة العِلْميّة» ودَوْرَهَا المِحْوَرِيّ من خَصَائِصِ «الفِكْرِ العَالَميّ المُعَاصِرِ»، ولا يُمْكِنُ لأيِّ مُفكّرٍ موضوعيٍّ أنْ يَغْمِطَ حَقَّ «المَنْهَجِ العِلْميّ» في تَصَدُّرِ الأدواتِ المَنْهَجِيّة، والرُّؤى العِلْميّة القَادِرَةِ على «إعادة بِنَاءِ الماضي وتَغْيِيرِ الحَاضِرِ وتَشْييد المُسْتَقْبَل».

وللتَّغَلُّبِ على حالة «القُصُورِ الذّاتيّ» التي تُهَيْمِنُ على الوَاقِعِ العربيّ، فتُكَبِّلُهُ بالعَجْزِ التّنْمَويّ والشَّلَلِ الثّقافيّ، فإنّنا نَحْتَاجُ إلى تَشْخيصِ الحالة، والتَّعَرُّفِ على مَطَالِبِ المُسْتَقْبَل، وقد نَخْتَلِفُ حول بعضها، وقد نَتَّفِقُ في مُعْظَمِهَا، ولكنّي أَجْزِمُ بأنّ «التَّحَدِّي العِلْميّ - التّقنيّ» يَكْمُنُ في جوهر أيٍّ من تلك المَطَالِبِ؛ فلو أخذنا - على سبيل المِثال -

المَطَالِبَ التي حَدَّدَهَا محمد عابد الجابريّ، وطَرَحَهَا فيما أَسْمَاهُ «المَشْرُوعُ الحضاريّ العربيّ» الذي يَنْزَعُ إلى: (تَحْقيق هذه الأهْداف الثّلاثة: الوَحْدَة، التَّمَدُّن، العَقْلَنَة)[١]، فإنّنا نجدُ - كما أَسْهَبْنَا في هذا الكِتَابِ - أنّ في أساس كُلٍّ منها تَكْمُنُ قضيّةُ «الثَّقافة العِلْميّة» التي تُعَزِّزُ «التَّجَانُسَ الثَّقافيّ» المُتَنَاغِمَ مع «رُوحِ العَصْر»، وتُزَوِّدُ المُجْتمع بالوَقُودِ اللّازِمِ لتَحْقيقِ تلك الأهْداف، وتُسْهِمُ - بشَكْلٍ أساسٍ - في تَفْعيلِها، وضَخِّ دِمَاءِ الحياة في عُرُوقِ مساراتِها.

لقد نَظَرَ جلن سيبورج إلى «المُجْتمع الأمْريكيّ» في أوائِلِ السّتينات من القَرْنِ العشْرين، وقال: (في العَقْدَيْنِ الماضِيَيْنِ اسْتطاع مُجْتمعُنا أنْ يَلْتَهِمَ العلوم، ولكنّه لم يَتَمَكَّنْ بعد من هَضْمِهَا، وهذا مُؤَشِّرٌ على طُفُولَةِ «المُجْتمع العِلْميّ» لدينا، وهذا ليس بمُسْتَغْرَبٍ؛ فتَجْرِبتُنا السَّابقةُ لم تُهَيِّئْنَا لأيِّ شيءٍ قريبٍ من «الانْفِجَارِ العِلْميّ» الذي حدث في العشرين عاماً الأخيرة، ويجب أنْ نَتَوَقَّعَ أنْ تكون العشرون عاماً المُقْبِلَةُ أكْثر ديناميكيّةً، وهذا - بالضّرورة - يَسْتَوْجِبُ الإسْراعَ في «عمليّة الاسْتِيعَاب»)[٤٤]. وإذا كان «المُجْتمع الأمْريكيّ» - بكُلِّ انْجازاتِه ونجاحاتِه - يعيش مَرْحَلَةَ «طُفُولَةِ المُجْتمع العِلْميّ» - على الأقلّ في فتْرة السّتينات وفْق تَحْليل سيبورج -، فما بالُكَ بـ«المُجْتمعات العربيّة» التي ما زالتْ تَرْزَحُ تحت نِير «الأُمِّيّة العِلْميّة»، وتَقْبَعُ في خَانَةِ الاسْتِهْلاكِ والاسْتِجْدَاء؟. وأمّا النّتيجةُ البدهيّةُ لهذا التّحْليل، فهي أنّ «المُجْتمع العِلْميّ» لم يُولَدْ بعْد في «المُجْتمعات العربيّة»، وإنْ كانتْ هناك مُؤَشِّرَاتٌ لمَخَاضٍ أليمٍ في أَتُونِ صِرَاعَاتٍ بين مُتَنَاقِضَاتٍ عميقةٍ وسَلْبيّاتٍ مُتَرَاكِمَة. وفي إطَارِ التّفاؤل نقول إنّ من «المُؤَشِّرَاتِ الايجابيّة» لهذا المَخَاضِ، هو تَرَاكُمُ أعدادٍ وفيرةٍ من أصْحَابِ المهارات التّقنيّة والقُدْرات العِلْميّة، وبُروزُ اهْتمامٍ مُتنامٍ بدَوْرِ «الحَرَكَة العِلميّة» في تَحْسينِ وَاقِعِ الأُمّة وتَطْويرِ حياتها؛ وكُلُّها تَجْعَلُنَا في انْتِظَارِ وِلادَةِ «مُجْتمع المَعْرِفَة» في العَالَم العربيّ، وبطبيعة الحال فإنّنا نَتَطَلَّعُ إلى وِلادَةٍ طبيعيّةٍ، وإنْ كان ولا بُدَّ فلا مَانِعَ من تَدَخُّلِ المِشْرَطِ في وِلادَةٍ قَيْصَرِيَّةٍ، ولكننّا نخافُ - أكْثر ما نخافُ - من إجْهَاضٍ مَأْسَاوِيٍّ، أو أنْ تكون القضيّة برُمَّتِهَا عَلامَاتِ «حَمْلٍ كَاذِب»!.

٩-٧) نَحْوَ «عَقْلَنَة الثقافة»:

مِـن البدهيّاتِ أنّ «التّنْمية» تَسْتَهْدِفُ حياةَ «الإنْسـان» وتَطَوُّرَهَا، ومن البدهيّات أنّ «الثَّقافة» تُعْنَى بفِكْرِ «الإنْسان» ومُمَارَسَاته، ومن البدهيّاتِ - أيضاً - أنّ «العِلْمَ الطّبيعيّ» هـو صَاحِبُ الرّيادة في تَغْييـرِ أنْمَاطِ الحياة، وتَطْويـرِ قَوالِبِ العَيْـش، وتَأْسيسِ مَنْهَجِيّةِ التَّعامُـلِ مـع الكَوْنِ وفَهْمِ قوانينـه؛ ولذا فإنّ الانْفِصَـامَ بين عَنَاصِرِ «الثَّالُـوث التّنْمَويّ»: (التّنْميـة - الثَّقافـة - العِلْـم)، يُعْتَبَرُ وَصْفَـةً نَاجِعَةً للعَجْـزِ التّنْمَويّ، والتَّـرَدِّي الثّقافيّ، والتَّوَتُّرِ الاجْتماعيّ، والتَّخَلُّفِ العِلْميّ، والابْتِعَادِ عن «رُوحِ العَصْر». إنّ الغُرْبَةَ، التي يعيشُها «الإنْسـانُ العربيُّ» عـن عَصْرِه، التي تَتَجَلَّى فـي عَجْزِهِ الفَاضِحِ عـن الإسْهَامِ الفَاعِلِ في صِنَاعَةِ «مفاتيح العَصْر»، وانْكِبَابِهِ المُخْجِلِ على اسْتِهْلاكِ مُعْطياتِ الآخَرين ومُنْتَجَاتِهِمْ، ليستْ إلاّ التّعْبير الطّبيعيّ لفشل التّلاقُح بين عَنَاصِرِ هذا «الثّالُوث»، وهي عَنَاصِرُ أَصْبَحَتْ - بالضّرورة - تَخْتَزِلُ العناوين الرّئيسة لكُلِّ معاني «الحضارة المُعَاصِرَة» والتّطَوُّرِ الفَعّالِ في حياة «مُجْتمعات الأَلْفيّة الثّالثة».

يقـول شَاعِرُنَا إنّ: (الفَرَاغ مَفْسَدَةٌ)، ولكـنّ «الفَرَاغَ التّنْمَوِيّ» - في فضاءاتِ الوَعْيِ العـامّ - هو أَسْوأ أنْـوَاعِ الفَرَاغ، حيث تَنْعَدِمُ الإنْتاجيّة، ويَفْقِـدُ المُجْتمعُ بَوْصَلَتَه، ويَرْضَخُ لشُـرُوطِ الآخَرين القَادِرينَ على الإنْتَاجِ والإبْـدَاعِ والتّطْوير، ومن ثمّ تَتَخَبَّطُ جُهُودُ النّاس ومَشَاعِرُهُـمْ، وتَتَضَارَبُ مَصَالِحُهُـمْ واهْتماماتُهم، وتَتَعَمَّـقُ إحْباطاتُهم وهزائِمُهم. من المُهِمّ أنْ نُدْرِكَ أنْ لا مَخْرَجَ من هذا «المَأْزِق»، إلاّ عبْر «إسْتراتيجيّةٍ تَنْمَوِيّةٍ شَامِلَةٍ» يكون أحد أَرْكَانِهَا الأصيلة «إسْتراتيجيّةٌ ثقافيّـةٌ» تَعِي «الخَصَائِصَ العلْميّة» لعَصْرِهَا، وتَصْنَعُ «ثقافـة المُسْتَقْبَلِ» المُتَنَاغِمَةَ مع مُتَطَلّبَـاتِ «التّنْمية»، والقَادِرَةَ علـى إحْدَاثِ «التَّحَوُّلاتِ الكَيْفيّة» اللاّزِمَةِ في أنْمَاطِ التَّفْكير، وتَأْسيسِ «التَّغَيُّراتِ السُّلُوكيّة» المَطْلُوبةِ في تفاعُلاتِ الحياة، وإنْشَـاءِ «القِيَمِ العمليّـة» المُنْسَجِمَةِ مع «المُسْتَجِـدَّاتِ الاجْتماعيّة» و«التَّحَدِّياتِ المُعَاصِرَةِ» وما يَرْتَبِطُ بها من تطلُّعاتٍ فَرْديّةٍ وجَمَاعيّةٍ في رِحَابِ المُجْتمع.

هنالك عِـدَّةُ أَهْداف يَنْبَغِـي أَنْ تكون على رَأْسِ أولويّاتِ «الإسْتراتيجيّـة الثَّقافيّة» المَنْشُودَة، وأوّلُ هذه الأهْداف - في رأْيي - هو «عَقْلَنَةُ الثَّقافة»؛ فيَنْبَغِي أَنْ تَنْتَقِلَ «الثَّقافةُ العربيّـةُ» من مَرْحَلَـةِ الاهْتمـام بـ«خِطَـابِ الإنْشائيّات» إلـى مَرْحَلَةِ الاهْتمـام بـ«طبيعة المُحْتَـوَى»؛ فلقـد غَرِقَـتْ «الثَّقافـةُ العربيّةُ» في لُجَّـةِ «مُفْـرَدَاتِ الخِطَـابِ»، واسْتَنْفَدَتْ حماسيّاتُـه وانْفعالاتُه طاقاتِهـا وعطاءاتِها، وتَضَاءَلَ - أو انْعَـدمَ - الاهْتمامُ بـ«المُحْتَوَى العِلْميّ»، والمَضْمُـونِ الفِكْريّ، والآليّاتِ الفَاعِلَة، والجَوانِـبِ المَعْرفيّة، والنّقْدِ المَنْهَجِيّ. بطبيعة الحال، لا يُمْكِنُ أَنْ تَتَحَقّقَ تلك «النَّقْلَةُ النَّوْعيّةُ» المَنْشُودَةُ، إلاّ عبْر رَبْطِهَا بعَصْرِهَا ومُتَطلَّبَاتِـه، وتوثيـقِ أَوَاصِرِهَـا بخَصَائِصِ المرْحلـة وتداعياتِها، فلا تَلْتَـفّ «المسيرة الثَّقافيّـة» حـول دَوائِر لا تَتَغيَّرُ ولا تَتَبَدَّلُ، ولا تُحَاصِرُ نفْسها فـي إطَارِ جَدَلٍ يُجَدِّدُ - دَوماً - احْتِفَـاءَهُ بالقُشُـورِ وولاءَهُ للتّعَصُّـبِ، ولا تَجْتَرّ ذاتها في رِحْلةٍ دَاخِليّـةٍ مَعْزُولَةٍ، تَتَضَخَّمُ فيهـا رُؤىً ذاتيّةٌ عبْر الانْعكاسـاتِ المُتَكَرِّرَةِ على مرايا الأَوْهَـام النّرْجسيّةِ، والإنْشائيّاتِ البلاغيّـةِ، والمُحَسِّنَاتِ اللّفْظيّةِ، والحماسيّـاتِ العَنْتَريّة؛ ليُفْلِحَ كُلُّ ذلك في إنْتَاجِ شُرُوطِ الانْحِطَاطِ والإخْفاقِ والتَّخَلُّف.

قـد تكون «نُقْطَـةُ البداية» - على طريق «عَقْلَنَةِ الثَّقافة» - هـي الاعْترَافُ بمَسْؤوليّة «الثَّقافـة» في الخَلَلِ البَارِزِ فـي «البِنْيَةِ التّنْمَويّة» بشَكْلٍ عامٍّ، وفـي التَّشَوُّهَاتِ الكَامِنَةِ في البِيئَـةِ التّعْليميّةِ والحَرَاكِ الاقْتصاديِّ والمُمَارَسَاتِ الحياتيّة، وحَرِيٌّ بمِثْلِ هذا الاعْترَافِ أَنْ يقـود إلـى نتيجتِـه الحَتْميّةِ فـي أهميّةِ تَرْسيـخِ القَنَاعَة بـأَنّ هناك شُرُوطـاً أَخْلاقيّةً ومَعْرفيّـةً وسُلُوكيّـةً وقِيميّةً لازِمَـةً للإنْسان؛ لكي يَدْلِـفَ - باقْتِدَارٍ - إلى عَالَـم «صِنَاعَةِ الحضـارة والتّقَـدُّم». إنّ المَخْرَجَ مـن مَـأْزِقِ الحَيْرَةِ والتِّيـهِ والإحْبَاطِ، في عَالَـم يَمُوجُ بالتَّحدّيـاتِ والمُفَارَقَـات، يَتَطَلَّبُ «التَّكْوين الثَّقافيّ» القَادرَ على فَهْـم المُتَغَيِّراتِ بنُضْجٍ، واسْتيعَـابِ المُسْتَجِـدَّاتِ بفَاعِليّـةٍ، واحْتِواءِ حماسِ الشّبَاب وتطلُّعاتِهـم، ورَبْطِ النّتائج بالأَسْبـاب، وتَمْحيصِ العَنَاصِرِ وتَفْكيـكِ مُكَوِّنَاتِهَا، وإيقـاظِ رُوحِ المُبَـادَرَةِ والمُشَارَكَة، وتَأْسيسِ «التَّفْكيـر العِلْمـيّ»، وتَسْريعِ «عمليّة التَّحَـوُّل» نحو «مُجْتمع المَعْرِفَـة» بكُلِّ قِيَمِهِ وأدواتِهِ ومُقْتضياتِه.

تلـك «المُقَدِّمَاتُ العَقْلانيّةُ» في مَعْرِفَةِ «مُواصَفَاتِ العَصْرِ»، وطبيعة تحدّياته، تُعَزِّزُ أهميّــة فَحْصِ الأُمُورِ وتَقْييمِهَا باسْتِخْدَام «مِجْهَرٍ تَنْمَوِيٍّ» يَحْرِصُ على التَّلاقُحِ والتَّرَاكُم، ويُقَلِّصُ مساحـات التَّوَتُّر، ويَهْتَـمُّ بتَقْييـم «المَكَاسِبِ والخَسَائِـرِ»، ومُوَازَنَـةِ «المَصَالِحِ والمَفَاسِـدِ» في «حَرَاكٍ تَنْمَوِيٍّ» شَامِـلٍ يَتْرُكُ بَصَمَاتِهِ على الأَرْضِ، ويُشَكِّلُ – بتفاعُلاته وتراكُماته – وَاقِعَ المُجْتمع عبْر غَرْسِ «ثقافةٍ» تَضْبِطُ صِرَاعَاتِهَا الكلاميّةِ واسْتِعْرَاضَاتِهَا اللّفْظيّةِ وسِجَالاتِهَا الإنْشائيّةِ وحَمَاقَاتِهَا الانْفعاليّة، وتُنَمّي عَلاقَاتِهَا التّنْمَويّة ومَشْرُوعَاتِهَا الحياتيّـة ومَصَالِحَهَـا المُسْتَقْبَلِيّة، وتَنْخَرِطُ في برامِج عمليّـةٍ تُعِيدُ – بطبيعتِها وتَطَوُّرِهَا وتراكُماتِها – صِياغَةَ الأَسْئلة، ونَوْعيّةَ الطَّرْح، وطُرُقَ المُعَالَجَة.

لقـد حَرَصْـتُ – بين طَيّاتِ هـذا الكِتَابِ – على إجْـلاءِ ما أَسْمَيتُهُ «نَمُـوذَجُ التَّوَافُقِ التَّنْمَوِيّ» (انْظر: الفَصْل الرّابع)، ونجدُ أنّ «عَقْلَنَةَ الثَّقافة» – بمضامينِها وأدواتِها – تُعَزِّزُ هـذا النَّمُوذَجَ بين أَطْيَافِ المُجْتمع وشَرَائِحِهِ المُخْتلفة، حيث تكون «المعاييرُ التّنْمَويّةُ» – بأُسُسِهَا العِلْميّـةِ المُنْضَبِطَةِ – هي الحَكَمُ في الصِّرَاعَاتِ والخِلافَاتِ والقرارات، وتَتَوَلّى «مَوازيـنُ التّنْمية» مُهِمّـةَ تَقْليصِ مِساحات «الفَـرَاغِ التّنْمَوِيّ»، وما يَنْجُـمُ عنه من تَشَنُّجٍ وتَطَـرُّفٍ وانْكِفَاءٍ وتَغْرِيبٍ وانْبِهَارٍ واجْتِرَارٍ وحَـرَكَاتٍ بَهْلوانيّةٍ تُريدُ أنْ تعيش دَاخِلَ الزّمنِ وخَارِجَـهُ فـي آنٍ وَاحِدٍ. إنّ الحقيقةَ الثّابِتَةَ في حياةِ المُجْتمعات هي أنّها كُلّما ابْتَعَدَتْ عن «المَنْظُـورِ التَّنْمَوِيّ»، أَوْغَلَتْ في إشْكَالاتٍ تَنْظيريّةٍ وجَدَلٍ عقيمٍ وصِرَاعَاتٍ سقيمةٍ وأوهامٍ بَالِيَةٍ، وسَقَطَتْ في فَخِّ «الفرَاغِ الحياتيّ» فِكْرِيّاً ومَعْرفيّاً وإنْتاجيّاً واجْتماعيّاً.

بإيجـازٍ نقـولُ: إنّ «عَقْلَنَةَ الثَّقافـة» مُقَوِّمٌ إسْتراتيجـيٌّ يُدْرِكُ أنّ علـى «الثّقافة» أنْ تَلْتَصِـقَ باحْتياجاتِ مُجْتمعِهــا، وتَتَغَلْغَلَ في هُمُومِ وطنِها، وتَتَعَـرَّفَ على تحدّياتِ زمنِها؛ فتتولّـى توليدَ قِيَمٍ ومُمَارَسَاتٍ ومعـارِفَ قَادِرَةٍ على أنْ تكون «القَاطِرَةَ» التي تَجُرُّ المُجْتمع فـي اتِّجَـاهِ «سَهْمِ الزَّمَـن»، وتُعَمِّـقُ اسْتِقْـرَارَهُ وانْتِمَـاءَهُ وتَنْميته، وذلك عبْـر «الانْدِمَاجِ الحيويّ» في «بَوْتَقَةِ التّنْميــة» بتفاعُلاتِها المُجْتمعيّةِ المُتَوَافِقَةِ مع عَصْرِهَا، والمُتّسِقَةِ مع طبيعــةِ مُشْكلاتِها، والمُتَنَاغِمَةِ مــع تطلُّعاتِ أجْيالِها، فلا تكونُ الأُمّــةُ مُتَطَفِّلاً ثقيلاً على مَوائِدِ الآخَرين تُعَانِي من حالةِ الذُّهُولِ والرَّهْبَة، ولا يَدْفَعُ الإحْبَاطُ وسُوءُ التَّأْويلِ واحْتِكَارُ

الحقيقـة بعض جماعاتِها إلـى حَمَاقَـاتٍ لا يُحْمَدُ عُقْبَاهَـا، ولكنّها تتعاملُ مـع مُعْطياتِ عَصْرِهَا بلُغَـةِ زمانِها، وتَسْتَنْفِرُ قُدْراتِها بثِقَةٍ وعَقْلانيّةٍ وتفـاؤلٍ، وتَهْتَمُّ بما يَنْفَعُ الإنْسان ويُعَمِّرُ الأوطان.

إنّ أحـد الأسْئلة الكُبْرى التي تَطْرَحُهَا قضيّةُ «عَقْلَنَةِ الثَّقافة»، هو سُؤالٌ تَكَرَّرَ ورودُه في صَفَحَاتِ هذا الكِتَاب، ونَطْرَحُهُ هنا للمَرَّةِ الأَلْف: (هل يُمْكِنُ أنْ نَتَحَدَّثَ عن «الثَّقافة» بمَعْـزِلٍ عن عَصْرِهَـا وطبيعةِ القُـوى المُهَيْمِنَةِ عليـه والمُحَرِّكَةِ لمَسَارَاتِـهِ بينما تَنْصَبُّ حِوارَاتُنَـا وسِجَالاتُنَا على ما أَلِفْنَاهُ مِـن كَلَامٍ وجِدَالٍ وخِصَامٍ؟). إنّ الإجابة الموضوعيّة عـن هذا السُّؤالِ تُحَـدِّدُ اتِّجَاهَ «بَوْصَلَـةِ الإسْتراتيجيّة الثَّقافيّة»، وهنا تَبْـرُزُ أهميّة تَوَافُرِ «إرادةٍ سِياسِيّـةٍ» جَـادَّةٍ تَدْفَعُ في الاتِّجَاهِ الصَّحيحِ الذي يُحَقِّقُ مـا تَتَوَخّاهُ «الإسْتراتيجيّة التَّنْمَويّـة» من اسْتِقْرَارٍ للمُجْتمـع، وتَأَلُّقٍ لإبْداعاتِه، وتَطْويـرٍ لفعّاليّاتِه؛ وذلك عبْر تَنْفيذ «إسْتراتيجيّـةٍ ثقافيّةٍ - تَنْمَويّةٍ» تَسْتَوْعِبُ مُعْطيـاتِ «الزَّمَانِ» و«المكان»، وتَدْفَعُ بالطّاقاتِ على طريقِ الإنْتاجِ والإبْـداعِ والابْتكار، وتَنْتَشِلُهَا من دَوَّامَاتِ العَجْزِ والإحْبَاطِ والغُرْبَةِ في عَصْـرِ التَّفوُّقِ العِلْميّ، والهَيْمَنَةِ التّقنيّة، و«العَوْلَمَـة» الجَارِفَة؛ وتَتَجَلّى هنا بوضوحٍ أهميّةُ «الثَّقافة العِلْميّة» ونَشْرِهَا وتَكْريسِهَا بصفتها أداةً فَاعِلَةً لتوليد تلك العَقْلَنَة»، ودَمْجِ الفَرْدِ مـع عَصْرِه، وتوثيقِ صِلاتِه بطبيعة «تحدّيات الأَلْفيّة الثّالثـة»، وتَرْسيخِ أواصِرِهِ مع رَكَائِزِ «مُجْتمع المَعْرِفَة».

٩-٧-١) «مِسْطَرَةُ العَوْلَمَة» و«الإصْلاح»:

وَقَفْنَا - في الفَصْلِ الثّاني - أمام مُصْطلحِ «العَوْلَمَة» وتداعياتِه ومُقَوِّمَاتِه، ومن المُهِمّ أنْ نَقِـفَ فـي خَاتِمَةِ هذا الكِتَاب أمام هذا المُصْطلح مـن جديدٍ؛ وذلك لأهميّته وعَلاقَتِه العُضْويّـة بقضيّة «الإصْلاح» التي يُرَوَّجُ لها في جَنَبَـاتِ «المُجْتمعات العربيّة»، ولارْتباطه الجِذْرِيّ بأحْوالِ ما سُمِّيَ «الرّبيع العربيّ»، وما تَمَخَّضَ عنه من هَزَّاتٍ وارْتِدَادات. إنّنا إذا مَحَّصْنَـا طبيعة «المِسْطَرَةِ العَوْلَميّةِ» التي تُقَاسُ بها المَكَاسِبُ والخَسَائِر، وتأمَّلْنَا حقيقة أبْعَادِهَـا التي تُحَدِّدُ درجة النّجـاحِ أو الإخْفاق؛ فإنّنا نجدُ أنّه في زمن الشَّركاتِ الضّخْمَةِ

العَابِـرَةِ للقارّاتِ، والمُرَوِّجَةِ – عَالَميّاً – لخِدْماتِهـا ومُنْتَجاتِها، وفي ظِلِّ الضَّخِّ الإعْلامي الهَائِـلِ بعد تهاوي الحُدُودِ والقُيُودِ عبْر «تَقْنيات الإعْلام» ووسائله المُتَطوِّرَة، وتحت وَطْأةِ «ثَوْرَةِ المَعْلُومات» وهي تَتَمَدَّدُ في كُلِّ اتِّجَاهٍ في مُتَوالِيَةٍ هَنْدَسِيّةٍ مُطّرِدَةٍ؛ أقولُ: نجدُ – في ظِـلِّ كُلِّ ذلك اللّهاث والتّغيُّـرات – أنّ «مِسْطَرَةَ العَوْلَمَةِ» لا تَمْلِـكُ إلاّ أنْ تَنْحَازَ إلى الأَكْثر تنافُسِيّةً، والأَطْول بَاعاً، والأَعْمق تَأْثيراً على حيواتِ البشر ومعاشِهم وحاجاتِهم.

إنّ «ظَاهِـرَةَ العَوْلَمَةِ» في شُمُوليّتِهَا لكُلِّ مضامين الحياة المعَاصِرَة، وانْتِشَارِهَا عبْر كُلِّ مَرَافِق «المُجْتمع الحديث»، تَنْطَلِقُ – بحيويّةٍ – تحت تَأْثيرِ «القُوّةِ الدَّافِعَةِ» المُتَمَثِّلَةِ في «حَرَكَـةٍ عِلْميّـةٍ» دَؤوبةٍ، وقَفَزَاتٍ تقنيّةٍ مُتَلاحِقَةٍ؛ لنجـد أنّ «العَوْلَمَةَ» – في نهاية المطاف – ليسـتْ إلاّ الابن الشَّرْعِيّ للعلوم والتّقْنية؛ فهي التَّرْجَمَةُ الفِكْريّة والثقافيّة والاقْتصاديّة والعسْكريّـة والإعْلاميّـة للسَّطْوَةِ التّقنيّـة، وهي الفِعْـلُ المُتَحَرِّكُ على الأرْضِ بقُوَّةِ دَفْعِ «الهَيْمَنَـةِ العِلْميّة»، ولذا لم يكـنْ غريباً أنْ تُتَّهَمَ «العَوْلَمَةُ» بأنّها «أَمْرَكَةٌ»؛ لأنّه من البدهيّ أن يُمْسِـكَ بتلابيبِ «العَوْلَمَةِ» ويقود مسيرتَها ذلك الطَّرَفُ الذي قَبَضَ على زِمَامِ «العلوم والتّقْنية»، وتَمَكَّنَ من تَطْويعِهَا لأَغْرَاضِه وفِكْرِه ومَصَالِحِه.

وبوَقْفَـةٍ مُتَأَنِّيَـةٍ، أمام طبيعـة «المِسْطَـرَةِ العَوْلَميّة»، نُـدْرِكُ أنّ تَحَيُّزَهَـا هو تَحَيُّزٌ مَنْطقـيٌّ لصَالِـحِ «الفِكْـرِ العِلْمـيّ» و«الطَّفْـرَةِ التّقنيّة»؛ ولـذا فإنّها، وهي تَقِيسُ جَدْوَى الأُطُـرِ المُخْتلفةِ للتّفاعُلِ العَالَميّ، تتجاوزُ الشَّـكْلَ والمَظْهَرَ لتَسْبُرَ أَغْوَارَ الأَدَاءِ والجَوْهَرِ، ولتَفْرِضَ شُرُوطاً على كُلِّ الدُّول بقِطَاعَيْهَا العامّ والخاصّ ومُكَوِّنَاتِهَا التّعْليميّة والبَحْثيّة والتّدْريبيّـة والثّقافيّـة والإعْلاميّـة، ومُطَالِبَـةً بتجاوز مَرْحَلَـةِ «رُدُودِ الفِعْـل» الخَالِيَةِ من «الرُّؤيـة الإسْتراتيجيّة» والعمل المَدْرُوس، ومُلْزِمَةً بالانْتِظَام في قَوَالِب مُنْسَجِمَةٍ مع «رُوحِ العِلْم»، ومُعَمِّقَةٍ لـ«أَخْلاقيّات العمل»، ومُتَوَافِقَةٍ مع «ثقافة الإنْتاج». وأمّا «مَنْطِقُ الإصْلاح» – بأشْكَالِـهِ التّنْمويّـة – فإنّه يَطْمَحُ إلـى أنْ تَنْحَازَ «المِسْطَرَةُ العَوْلَميّـةُ» إلى صَالِحِه عبْر «إرادةٍ» جَازِمَةٍ فـي مُعَالَجَةِ أَوْجُهِ القُصُور، و«إدارةٍ» حَازِمَةٍ في التّوفيقِ بين اتِّخَاذِ القرار وبيـن تَرْجَمَتِهِ على الأرْضِ لإحْدَاثِ «النَّقْلَةِ النّوْعيّة» في دُنْيَا المُنَافَسَةِ التي تَزْدَادُ وَطْأتُهَا كُلَّ ساعـةٍ. لـن يَتَحقَّقَ الوُلُوجُ – باقْتِـدَارٍ – إلى عَالَمٍ يَضِجُّ بمُعْطيـاتِ «الفِكْرِ العِلْميّ»، إلاّ

بتَعْميقِ عمليّة «الإصْلاح الثَّقافيّ» في المَنَاهِلِ التّعْليميّة والبَحْثيّة والتّدْريبيّة، والتّفاعُلاتِ الثّقافيّـة والمُجْتمعيّـة والاقْتصاديّة؛ وفي ثنايا هذا الكِتَابِ يَتَجَلَّى الهَـمُّ الرّئيسُ المُتَمَثِّلُ فـي ضَرورة «الإصْلاح الثّقافيّ» الذي يَسْتَوْعِـبُ «رُوحَ العَصْرِ» وتحدّياتِه، ويَضْبِطُ إيقَاعَهُ مـع «إكْسِيـر التّنْمية» القَابِضِ على زِمَـامِ «الحَرَكَة العِلميّة» وامْتِدَادَاتِهَـا التّقنيّة؛ ألا وهو «الثّقافةُ العِلْمِيّةُ» وجذورُها المُجْتمعيّة.

٩-٧-٢) ما بَعْدَ «الرَّبيع العربيّ»:

لا يُمْكِـنُ الحديثُ عن مـا عُرِفَ باسْم «الرَّبيع العربيّ» الذي اجْتَاحَ المَنْطقة العربيّة فـي مَطْلَـعِ العَقْدِ الثّاني مـن «الألْفيّة الثّالثـة»، وتَجَلّى في شَـكْلِ ثَـوْراتٍ شَعْبيّةٍ وحركات احْتِجَاجٍ في تونس ومصر وليبيا وسوريا واليمن وغيرهم، دون الإشارة إلى الدَّوْرِ الرِّياديّ الـذي قَامَتْ به «التّقْنيـةُ الحديثةُ» - من هَواتِف خلويّةٍ وقَنَوَاتٍ فضائيـةٍ وشَبَكَاتِ تواصُلٍ اجْتماعـيٍّ واسْتيعابٍ عـامٍّ لـ«شُرُوط العَصْرِ» ومُتَطَلَّبَاتِه - فـي إضْرَامِ نار ذلك «الرَّبيع»، وإنْجَـاحِ أهْدافه الأُولى من تَغْييرِ أنْظِمَةٍ وإسْقَاطِ قيادات. وهذه الحقيقة تَصُبُّ في تَأْكيدِ مـا حَرَصْنَا - في هذا الكِتَاب - على إجْلائِهِ من التّأْثيراتِ العميقةِ لـ«العلوم والتّقْنية» في حيـاة المُجْتمعـات عامّةً، وما تُحْدِثُهُ من تَغَيُّراتٍ على مُخْتلـف الأصْعِدَةِ الحياتية خاصّةً؛ ممّا يُعَزِّزُ من مكانة «الثقافة العِلْميّة»، وأهميّة تَرْسيخِهَا في المُجْتمعات المُعَاصِرَة.

وأمّـا الجَانِبُ الآخَرُ المُهِمُّ في تَجَلِّيَاتِ ما سُمِّيَ «الرَّبيع العربيّ»، هو أنّ تلك الثّوْرات قد تَخَلّتْ عن الشِّعاراتِ الأيديولوجيّةِ، والتّنْديدِ بأعْداءٍ في الخَارِجِ، وادّعاءاتِ المُؤامرات الدوليّـة؛ لتَهْتَـمَّ بوَاقِـعِ الإنْسـان في بلـدِه، وتَحْقيـقِ كرامتِه في وطنـه، وحِمَايَـةِ حُقُوقِهِ وتطلُّعاتِـه. كُلُّ ذلك يَشِي بـأنّ «الإنْسان العربيّ» قد اسْتيقظ من تلـك «الغَفْلَةِ التّاريخيّة» التـي أهْمَلَتْ قضايا «التّنْمية»، وهُمُومَ حياته المُبَاشِـرَة، وأَصْبَحَ «الإنْسانُ العربيُّ» يَطْمَحُ إلـى تَعْزيـزِ مكانته في وطنـه، والمُشَارَكَةِ الفَاعِلَةِ فـي قضايا الحياة وأَحْـوال المُجْتمع. وبغَضِّ النَّظَرِ عـن النّتائجِ المُحْتَمَلَةِ في المَنْظُور القريب، والارْتِدَادَاتِ السَّلْبيَةِ، والهَزَّاتِ العنيفـةِ لحَرَاكِ «الرَّبيع العربيّ»؛ إلاّ أنّ المُحَصِّلَـةَ النّهائيّة تُبَشِّرُ بـ«ثقافةٍ جديدةٍ» تَحْمِلُ

بُـذُورَ تَغَيُّـراتٍ أساسٍ في الـرُّؤى والمسارات، وتَخْلُـقُ وَضْعاً جديداً علـى كُلِّ المُسْتويات السِّياسيّة والتَّعْليميّة والاجْتماعيّة والاقْتصاديّة وغيرها. ومن المُؤمَّلِ أنْ تَتَّضِحَ الأولويّات بشَكْلٍ لا يَقْبَلُ التَّرَاجُعَ أو التَّنَازُلَ؛ ليَحْتَلَّ «المَنْظُورُ التَّنْمَويُّ»، وبرامِج «التَّوَافُق التَّنْمَويّ» - بمُعْطَيَاتِهَـا وضَوابِطِهَا وثقافتِها - مَوْقِعَ الصَّدَارَةِ بمَنْأىً عن «ثقافةٍ» هَيْمَنَتْ رَدْحاً طويلاً مـن الزّمـن غَابَتْ فيه الأولويّات، واخْتَلَطَتْ الأوراق، وتَدَاخَلَـتْ - وما زالت - أطْيَافٌ من الدِّينيّ والقوميّ والحَدَاثيّ والطّائفيّ والانْتِهازيّ في عُقُولٍ مُضْطَرِبَةٍ؛ لتُصْبِحَ الاسْتِدْلالاتُ في غير مَحَلِّهَا، والمُقَارَنَاتُ خَارِجَ سِيَاقَاتِهَا.

ونَسْتطيعُ القول إنّ الدَّافِعَ الحقيقيّ وراء انْفجار أَحْداث «الرَّبيع العربيّ» هو «الفَشَلُ التَّنْمَـويّ» الـذي عَاشَتْهُ تلك المُجْتمعات، وما عَانَتْهُ من تنامِي مُعَـدَّلاتِ البَطَالَةِ، وانْتِشَارِ مَظَاهِـرِ الفَقْـرِ والفَسَـادِ المالـيّ والإداريّ، وتَردِّي الإنْتاجيّـة، وتَعْطيلِ المَـوَارِدِ المادّيّة والبشريّـة؛ ممّـا يُعِيدُنَا إلى «مَرْبَـطِ الفَرَسِ»، وهو مـا أَسْمَيْنَاهُ «إشْكَاليّـةُ التّنْمية»، ولقد حَرَصْـتُ - في هذا الكِتَابِ - على تَحْليل أَبْعَادِ هذه «الإشْكَاليّة» التي هَيْمَنَتْ على «حَرَاكِ المُجْتمعات العربيّة» طَوَالَ ما يَرْبُو على قَرْنَيْنِ، ممّا أَسْموه «عَصْرُ النّهْضَة».

ومن بدهيّاتِ الأُمُورِ، أنّه إذا لم يَسْتَفِدْ «الرَّبيعُ العربيُّ» من أَخْطَاءِ مُحاولات الماضي ومُبَادَرَاتِهـا بمُخْتلف أشْكَالِهَا ومَدَارِسِهَا، واسْتَمَرَّ في تَجَاهُـلِ مُقَوِّمَاتِ «إكْسِير التّنْمية»، وتَكْريسِ ما عَهِدَتْهُ «المُجْتمعاتُ العربيّةُ» من إهْمالٍ للتّلاقُحِ المَطْلُوبِ بين عناصِرِ «الثَّالُوث النَّاجِعِ»: (التّنْمية - الثَّقافة - العِلْم)، فإنّ شيئاً ما لنْ يَتَغَيَّرَ جِذْرِيّاً، وسيَسْتَمِرُّ المَخَاضُ الصَّعْـبُ الذي تَمُـرُّ به المَنْطقة العربيّة؛ بَـلْ وسيَتَفَاقَمُ، وستَنْخَـرِطُ «الثّقافةُ العربيّةُ» - كمـا فعلتْ طَوَالَ مُحاولاتِهـا النَّهْضَويّة - في متاهاتِ التّعْميـم والحماسيّاتِ، والاتّهاماتِ المُتَبَادَلَةِ، وجَـدَلِ «التُّرَاثِ والحَدَاثَةِ»، وخِلافَاتِ «العَوْلَمَـةِ والخُصُوصيّة»؛ لتكون النّتائِجُ أَسْـوَأَ مـن ذي قَبْلُ؛ فالتّاريخُ لا يَرْحَم. وأمّا ما ستؤولُ إليـه الأُمُورُ فسَيكونُ مَرْهوناً بمدى الفَهْـمِ لخَصَائِصِ «إشْكَاليّة التّنْمية»، وكمـا يُعَلِّمُنَا «عِلْمُ المَنْطِقِ»، فـإنّ: («المُقَدِّمَاتُ» نَفْسُهَا لن تقودَ إلى «نَتَائِج» مُخْتلفة).

لا شـكَّ في أنّ تلك التّغيُّراتِ الوَاعِدَةِ التي كَرَّسَتْهَـا أَحْلامُ «الرَّبيع العربيّ»، وحَمَلَ جَذْوتَهَـا شبـابٌ يَتطَلَّعُ إلى فُرَصٍ تَنْمَويّـةٍ، وإسْهاماتٍ عَصْريةٍ، وحُقُـوقٍ أصيلةٍ، وعَدَالَةٍ اجْتماعيّـةٍ، وأدْوارٍ فَاعِلَـةٍ؛ تُبْـرِزُ - في ثناياها - إطْـلالاتٍ تَنْمويّةً تَنْشُـدُ غَرْسَ «الرَّبيع التّنْمَـويّ»، ومُحَبِّذَةً لـ«نَمُـوذَجِ التَّوَافُقِ التّنْمويّ»، ومُؤَكِّدَةً علـى ضَرورتِه (انْظر: الفَصْل الرّابع)؛ وأمّا المَسْأَلَةُ الأساسُ فتَبْقَى مَرْهُونةً لطُرُقِ تَعْزيزِ هذا «الرَّبيع التَّنْمويّ» وتَمَثُّلِهِ وتَرْجَمَتِـهِ إلـى وَاقِعٍ مُتَحَرِّكٍ علـى الأرْض. إنّ هـذه «الرُّؤية» هي الهَمُّ الـذي حَمَلَهُ هذا الكِتَـابُ، مُحاوِلاً تَقَصِّي أسْباب إخْفَاقِ «البرامِجِ التّنْمَويّة» و«المَشْرُوعَاتِ النَّهْضَويّة» في الماضـي، ومُتَوَخِّيَاً الاسْتِدْلال بإرْهَاصَاتِ المُثقَّفيـن والمُفكِّرين، وهي تَبْحَثُ عن مَخْرَجٍ مـن «إشْكَاليّـة التّنْمية». وهذا يعودُ بنا - من جديدٍ - إلى فُصُـولِ هذا الكِتَابِ ومَبَاحِثِهِ؛ لنَخْلُصَ إلى إيجـازٍ نقولُ فيه: (دون «ثقافةٍ عِلْميّةٍ» مُتَفَاعِلَةٍ مـع «القَاعِدَةِ الجماهيريّة» الوَاسِعَـة، ودون «تَأْسيسٍ ثقافيٍّ» يَحْتَضِنُ «تفاعُلاتِ العَصْر»، ودون «رُؤيةٍ تَنْمَويّةٍ» تَصْنَعُ «الاسْتِجَابَـةَ» الفَاعِلَـةَ لـ«التَّحَـدّي» القَائِم؛ أقولُ: دون كُلِّ ذلـك - مُجْتَمِعَاً - لن تَسْتطيعَ «المُجْتمعـاتُ العربيّـةُ» أنْ تَزْعُـمَ أنّهـا اسْتَفَـادَتْ من أَخْطَـاءِ الماضي، ووَظَّفَـتْ كَامِلَ مَوارِدِهَا، وحَفَّزَتْ كُلَّ طَاقَاتِهَا، واسْتَنْفَرَتْ جميع قُدْرَاتِهَا، واسْتَخْلَصَتْ لمَشْرُوعِ «التَّنْمية والرُّقيّ» أَفْضَلَ عُقُولِهَا).

٩- ٨) الخَاتِمة:

لن يُنْكِرَ علينا أحدٌ إذا قُلْنَا إنّ أَقْصَى الشَّرائِحِ القَابِعَةِ على سُفُوحِ «الفِكْرِ اليَسَارِيّ» المُتَمَـرِّدِ بطبيعتِه وخَصَائِصِه، وإنّ أَقْصَى الشَّرائِحِ الجَاثِمَـةِ على تِلالِ «الفِكْرِ اليَمينيّ» المُتَشَـدِّدِ بمُنْطَلَقَاتِه وغاياتِه؛ كُلُّها - دون اسْتِثْنَاءٍ - تَلْتَقِي حول رُؤيةٍ جَامِعَةٍ لكُلِّ أطْيَافِهَا وألْوَانِهَـا، وهـي أنّ «الفِكْرَ العِلْميّ» هو عِمَادُ «الحياة المُعَاصِـرَة»، وأنّ «الحركة العِلْميّة - التّقنيّـة» هي الصَّانِعَةُ لعَنَاصِرِ القُوّةِ والهَيْمَنَـةِ والنُّفُوذِ التي هي - بالضّرورة - المَطَالِبُ المِحْوَرِيّة التي تَتَصَارَعُ لتَحْقيقِهَا تلك الشَّرائِحُ المُتَضَادَّة، وهي الغاياتُ التي تَتَنَافَسُ على إنْجَازِهَا تلك التَّوَجُّهَاتُ المُتَبَايِنَة.

تلك حقيقةٌ بدهيّةٌ على المُسْتوى العَالَميّ، فنجدُ في «المُجْتمعات الغَرْبيّة» -بتاريخِها وتفاعُلاتِها وتجاربِها - أنّ «العِلْمَ الطَّبيعيّ» لم يكنْ فقط قَادراً على إطْلاقِ ثَوْرَةٍ صِناعيّةٍ وإنْتاجيّـةٍ ومَعْرفيّةٍ كَاسِحَةٍ، ولكنّـه أيضاً غَيَّرَ من طبيعةِ عُلومِهـم الإنْسانيّة، وفَلْسفاتِهم الوَضْعيّة، ومفاهيمِهم الحَرَكيّة. إنّ الصِّرَاعَ التّاريخيّ - في «ثقافة الغَرْب» - بين «الدِّين والعِلْـم»، دَفَعَ بفلاسفتِهـا ومُنَظّريها إلـى الاسْتِنْجَادِ بـ«الفِكْـرِ العِلْميّ» لحَـلِّ إشْكَالاتِهِمْ وصِرَاعَاتِهِمْ، وراحوا يَسْتَعِيرُونَ مُصْطلحاتٍ ومفاهيمَ من رِحَابِ «الفِكْرِ العِلْميّ» ليُؤَصِّلُوا اجْتِهَادَاتِهِـمْ الوَضْعيّة، وأحياناً يُلْوُونَ أعْنَاقَ «النُّصُوصِ العِلْميّة» بشَكْلٍ قَسْرِيٍّ فَجٍّ كما هو الحال مع «الفَلْسَفَةِ الماركسيّة» و«الفِكْرِ اللّيبراليّ» و«التَّوَجُّهَاتِ الإلْحَاديّة».

ذلـك على صعيدِ «المُجْتمعـات الغَرْبيّة» وثقافتِها الغَازِيَةِ الغَالِبَـة، وأمّا على صعيدِ «المُجْتمعـات العربيّة»، فالقضيّةُ أكْثر إلْحاحاً وأشدّ وضوحاً؛ فأَكْثَرُ الليبراليّين ليبراليّةً، وأَشْرَسُ الحَدَاثيّين حَدَاثَةً، يَلْتَقُونَ - بالضّرورة - مع أَعْتَى المُتَشَدِّدين وأَعْنَتِ المُتَزَمِّتين فـي أنّ مَصَالِـحَ الأوطان تَرْتَبِـطُ مُبَاشَرةً بمدى قُـدْرَةِ مُجْتمعاتِهم علـى «تَطْويعِ العلوم» و«توطينِ التّقْنية». كُلُّ الأَطْياف - دون اسْتِثْنَاءٍ - تُؤَكِّدُ أنّها تَنْشُدُ تَحْقيقَ «مُجْتمع المَعْرِفَة»؛ وهـو «حالةٌ مُجْتمعيّةٌ» لا تَتَحَقَّقُ إلاّ عندما يُصْبِحُ «المُجْتمع» قَادراً على اكْتِسَابِ «المَعْرِفَةِ العِلْميّـة» والتّقنياتِ الحديثة وإنْتاجِهـا، وتَنْميةِ الإمْكَانَاتِ والمَـوَارِدِ وتَطْويرِهَا، وتَأْسيسِ آليّـاتٍ قَـادِرَةٍ على توظيفِ المعارِف بحيويّـةٍ، والمُحَافَظَةِ علـى المُكْتَسَبَاتِ بكفاءَة. وفي هذا السِّيَاقِ يَصِفُ عبد العزيز التّويجري طُمُوحَ التّعاون بين الدُّول الأَعْضاء في «مُنَظَّمَة التَّعاون الإسْلاميّ» في ميادين «العلوم والتّقْنيّة» بأنّه: (ضَرورةٌ من ضَرورات الانْتقال من مَرْحَلَـةِ الضّعْفِ والقُصُورِ إلى مَرْحَلَـةٍ يَمْتَلِكُ فيها العَالَمُ الإسْلاميُّ شُرُوطَ القُوّةِ والتّفَوُّقِ والتّقَدُّم، فالتّعـاونُ في هذا المجال الحيويّ على جميع المُسْتويات وعبْر مُخْتلف القَنَوَات هـو الأساسُ في إرْسَاءِ «القَاعِـدَةِ العِلْميّةِ» بما يُمَهِّدُ السَّبيل لإيجـادِ «البِيئة العِلْميّة» التي تَتَبَلْوَرُ في مُحيطِهَا «الثَّقافةُ العِلْميّةُ» التي هي النَّوَاةُ الأولى لـ«المُجْتمع العِلْميّ»)[١٠٢].

إذاً «مُجْتمعُ المَعْرِفَة» «حالةٌ مُجْتمعيّةٌ»، لا تَتَأَصَّلُ ولا تَسْتَقِرُّ إلاّ عندما تَتَوَافَرُ شُرُوطُ «مُنَـاخٍ عِلْميٍّ» عامٍّ، وأهمُّها - على الإطْلاق - ذلـك «الشَّرْطُ الثَّقافيّ» المُتَمَثِّلُ في «ثقافةِ

عِلْميّـةٍ»، ووَعْـيٍ مُعَاصِرٍ، يَدْفَعَانِ فـي حركةٍ دَؤوبةٍ نحـو تفاعُلاتٍ مُجْتمعيّـةٍ مُتوَافِقَةٍ مع زَمَنِهَـا، ومُتَّسِقَةٍ مع طبيعةِ مُشْكِلاتِهَا، ومُتَنَاغِمَةٍ مع تطلُّعاتِ أجْيالِهَا، ومُتَصَالِحَةٍ مع قِيَمِ مُجْتَمَعِهَـا، بصفتها مُتطلَّباً جَوْهَرِيّاً لـ«التَّوَاؤم الاجْتماعيّ»؛ فلا تكونُ الأُمّةُ مُتَطَفِّلاً ثقيلاً على مَوَائِدِ الآخَرين تُعَانِي من حالاتِ الذُّهُولِ والانْكِفَاءِ والانْبِهَارِ والإحْبَاطِ والانْبِطَاح.

تلـك التَّطَلُّعَـاتُ المُجْتمعيَّةُ نحو «التّنْمية»، والأهْدَافُ الوطنيّـةُ نحو «النَّهْضَة»، التي تَجْمَعُ بين مُخْتلف الأطْيَافِ الفِكْريّة، تَسْتطيعُ أنْ تكون حَاضِنَةً وطنيّةً رَحْبَةً تَسْتَمِدُّ الدِّفْءَ والحيويّـة من حِـوَارٍ شَامِلٍ على «أَرْضيّـةِ التّنْمية»، ومعاييرِها الموضوعيّـة، ومُقْتضياتِها العمليّـة، ولن يَتَحَقَّقَ ذلـك إلاّ إذا اسْتَنَدَ إلى قَاعِدَةٍ صُلْبَةٍ من «الثّقافـة العِلْميّة» القَادِرَةِ علـى فَرْزِ الزَّائِفِ من الاعْتبارات، ونَبْذِ الغَثِّ من الطُّرُوحَـات، وتَعْميقِ «التَّوَافُقِ التّنْمَويّ» نحـو ما اتَّفَقَ عليه الجميـع من أهميّةٍ حَاسِمَـةٍ لقضايا «توطين التّقْنيـة»، ونَشْرِ «العِلْم»، وتَحْفيـزِ «الإنْتَـاجِ»، وتَفْجيرِ مَنَابِـعِ القُوّة. وأمّا أولئـك الذين يُراهِنُونَ علـى بِنَاءِ كِياناتٍ عِلْميّـةٍ شَامِخَةٍ مُسْتَنِدَةٍ إلى «فَرَاغٍ ثقافـيٍّ»، فإنّهم يَلْهَثُونَ وراء سَرَابٍ في صَحَرَاء قَاحِلَةٍ؛ فالتّجْرِبـةُ الإنْسانيّـةُ، وطبيعةُ «العَقْلِ البشـريّ»، تُؤكِّدَانِ أهميّةَ وجـودِ «الوَسَطِ الثَّقافيِّ» المُلائِـمِ؛ لكي تَسْتَقِرَّ عمليّةُ «التَّخْصيب العِلْميّ» في التّفاعُلاتِ العامّة، وتَرْسَخَ «مُقَوِّمَاتُ العِلْمِ» في النَّسيجِ المُتَنَوِّعِ للمُجْتمع.

وأمّـا المُضْحِـكُ المُبْكِي في حـال «المُجْتمعـات العربيّة»، فهو عودتُهـا المُتَكَرِّرَةُ – بعـد قَرْنَيْنِ من الشَّدِّ والجَذْبِ حول «مَشْـرُوعِ النَّهْضَة» و«قضيّة التّنْمية» – إلى صِرَاعَاتِهَا القديمـة، ودَوَائِرِهَا المُغْلَقَـة، وجَدَلِهَا العَبَثِـيّ، وأَسْئلةِ «الانْبِهَارِ والاجْتِـرَار»، بينما تَقْبَعُ «الثَّقافـةُ العِلْميّةُ»، بكُلِّ ما تَحْمِلُهُ من عَقْلَنَةٍ وآفـاقٍ وإمْكانات، في أسْفل قَائِمَةِ الأولويّات، وأدْنَـى اعْتباراتِ «التَّنْمية». لقد أَهْمَلَ «الخِطَابُ الثَّقافـيُّ العربيُّ» «المَنْظُورَ التَّنْمَويّ» في حيـاةِ الإنْسان، وانْصَرَفَ إلى تَكْريسِ شِعَارَاتٍ فَضْفَاضَةٍ، وتَأْجيجِ انْفعالاتٍ مُنْفَلِتَةٍ، تُريدُ أنْ تُنْقِذَ العَالَمَ بأسْرِهِ، ولكنّها تَفْشَلُ – ابْتِدَاءً – في إنْقَاذِ نفْسِها وتَطْويرِ حياتِها وتَصْحيحِ مَسَارَاتِهَـا. وهكذا نجـدُ أنّ الغَائِبَ الوحيدَ عـن السّاحة هو ذلك «المَنْظُـورُ» القَادِرُ على امْتِـلاكِ رُؤيةٍ فَاعِلَةٍ تَتَحَرَّكُ في اتِّجَـاهِ «المُسْتَقْبَل»، وتُوَازِنُ بيـن «المَصَالِحِ والمَفَاسِد»،

وتَأْخُـذُ بالأسْبَابِ في تفاعُلاتٍ تَعْرِفُ طبيعة عَصْرِهَا؛ فتكـونُ «الـحَرَكَةُ التَّنْمَوِيّةُ» - بكُلِّ مُعْطياتِهـا وضَوابِطِهَـا - هَاجِسـاً مُقِيمـاً يَحْتَلُّ مِساحتـه وأولويّته في الجُهُـودِ الثّقافيّة، والاهْتِماماتِ الفِكْريّة، والإبْداعاتِ الإنْسانيّة، والتّفاعُلاتِ المُؤسَّسِيَّة.

ولإيماننـا بحَتْمِيّةِ السُّنَنِ الكوْنيّةِ؛ فإنّه لن يكون هنـاك مَخْرَجٌ من هذا «المَأْزِقِ» إلاّ عبْـر الاهْتِمَامِ بـ«قضايا الإنْسان» بَدَلاً مـن الانْشِغَالِ بـ«مهارات اللّسان»، ولن تَتَقَدَّمَ الأُمّةُ إلاّ بالانْصِرَافِ إلى البِنَاءِ والتَّعْميرِ عِوَضاً عن الفِتْنَةِ والتَّدْمير، ومن البدْهيّ أنّ مِثْلَ هذه «الرُّؤيـة» لا يُمْكِـنُ أنْ تَتَحَقَّقَ إلاّ في إطَارِ «ثقافةٍ تَنْمويّـةٍ» تَتَغَلْغَلُ في «النَّسيجِ الاجْتماعيّ» والحياةِ اليوميّة والفِكْرِ السَّائد.

وبإيجـازٍ أَخْتِمُ بما خَتَمَ به تشارلز سنو مُحاضرتـه الشَّهيرة في «جامعة كامبردج» ببريطانيـا - في عام ١٩٥٩م - وهو يَطْرَحُ رُؤيَتَهُ لـ«إشْكَالِيّةِ الثَّقافَتَيْن»: (أَلَمْ يَحِنِ الوَقْتُ للبَدْءِ في العمل؟ إنّ الأَمْرَ الخَطِيرَ أنّنا تَرَبَّيْنَا على الاعْتِقَادِ بأنّنا نَمْلِكُ كُلَّ الوَقْتِ الموجودِ فـي العَالَـم، ولكنّنا في الوَاقِـعِ لا نَمْلِكُ إلاّ وَقْتاً قَصِيراً. إنّه وَقْتٌ بَلَـغَ من القِصَرِ دَرَجَةً لا أَجْرُؤُ على تَخْمِينِهَا)[٣٢].



ثَبْتُ المَرَاجِع

أ) المَرَاجِعُ العربيّةُ والأجْنبيّة:

١. محمـد عابد الجابـريّ، إشكاليّـاتُ الفِكْرِ العربـيّ المُعاصِـر، مرْكز دراسـات الوحْدة العربيّة، بيروت، ١٩٨٩م.

٢. مالك بن نبيّ، شُرُوطُ النّهْضة، دار الفِكْر (دمشق)، ١٩٨٥م.

3. Bernard Lewis, What Went Wrong?, Oxford University Press, 2002.

٤. سليم البستاني: «افتتاحيّاتُ مجلّة الجنان البيروتيّة»، ١٨٧٠-١٨٨٤»، إعداد وتحقيق: يوسف قزما خوري، (جُزْءان)، دار الحمراء للطباعة والنّشر، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٩٩٠م.

٥. أحمد أمين، زُعماء الإصْلاح في العصْر الحديث، دار الكاتب العربيّ، بيروت، ١٩٧٩م.

٦. ز.ل.ليفـين، الفِكْـر الاجتماعيّ والسّياسـيّ الحديث في لبنان وسوريـا ومصر، ترجمة: بشير السّباعي، دار ابن خلدون ، بيروت، ١٩٧٨م.

٧. شكيـب أرسـلان، لمـاذا تأخَّر المُسْلمـون؟.. ولماذا تقـدَّم غيرهـم؟، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٣١م.

٨. مسعـود ضاهـر، مجلّةُ «شُـؤون عربيّة»؛ عددٌ خاصٌّ بعنوان: «العـرب والقرن الحادي والعشريـن: حصاد قرْنٍ ورؤية مُسْتقبل»، العـدد ١٠٤، الأمانة العامّة للجامعة العربيّة، ديسمبر ٢٠٠٠م.

٩. مجْموعةٌ من الباحثين، دراسات التّنمية العربيّة: الوَاقِعُ والآفاق، مرْكز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، ١٩٩٨م.

١٠. غازي عبد الرحمـن القصيبي، التّنْمية: الأسْئلةُ الكُـبْرى، المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر، بيروت، الطّبعة الثانية، ٢٠٠٤م.

١١. مجْموعةٌ مِن الباحثِين العرب، التّنْمية العربيّة: الوَاقِعُ الرّاهنُ والمُسْتقبل، مرْكز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، الطّبعة الثانية، ١٩٨٥م.

١٢. أسامة عبد الرحمن، البيروقراطيّةُ النّفطيّةُ ومُعْضِلَةُ التّنْمية، عَالَمُ المعْرفة، العدد ٥٧، سبتمبر ١٩٨٢م.

13. «What is Science?», presented at the fifteenth annual meeting of the National Science Teachers Association, in New York City (1966), published in The Physics Teacher, Vol. 7, issue 6 (1969).

١٤. راشد المبارك، نحو استراتيجيّةٍ وطنيّةٍ لنشْر الثّقافة العِلْميّة، المُلتقى الثقافيّ – العلْميّ (أوراق العمل)، مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتّقنية، الرياض، ١٤٢٧/٤/٤هـ (٢٠٠٦/٥/٢م).

١٥. تقْريرُ التّنْمية الإنسانيّة العربيّة للعام ٢٠٠٢م، برنامج الأُمم المتّحدة الإنمائيّ، الصّندوق العربيّ للإنْماء الاقتصاديّ والاجتماعيّ، المكتب الإقليميّ للدّول العربيّة.

١٦. أحمد موصللي – لؤي صافي، جذورُ أزْمَةِ المُثقّف في الوطن العربيّ، دار الفِكْر، دمشق، ٢٠٠٢م.

١٧. طه حسين، مُسْتقبلُ الثّقافة في مصر، دار المعارف، الطّبعة الثانية، ١٩٩٦م.

١٨. أحمد صدقي الدجاني وآخرون، المُثقّفُ العربيّ: همُومُه وعطاؤه، مرْكز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، ١٩٩٥م.

١٩. عبد الإله بلقزيز، أسْئلةُ الفِكْرِ العربيّ المُعاصِر، دار الحِوار للنّشر والتّوزيع، الطّبعة الأولى، اللاذقية، ٢٠٠١م.

٢٠. زكي نجيب محمود، هذا العَصْرُ وثقافتُه، دار الشّروق، القاهرة، ١٩٧٧م.

٢١. محمد جابر الأنصاري، العربُ والسّياسة: أين الخَلَل؟ (جِذْرُ العطل العميق)، دار السّاقي، بيروت، ١٩٩٨م.

٢٢. نجيب عيسى، مجلّة «الفِكْرُ العربيّ»، العدد ٤٥، معْهد الإنْماء العربيّ، بيروت،آذار ١٩٨٧م.

٢٣. خضر الشيباني، الثّقافة العِلْميّة: القضيّةُ الغَائِبَةُ، جريدة الرياض السّعودية، ١٤٢٢/٣/٧هـ، ١٤٢٢/٣/١٥هـ، ١٤٢٢/٣/٢٢هـ، ١٤٢٢/٤/٣هـ.

٢٤. خضر الشيباني، إشْكَاليّةُ التّنْمية والإعْلامُ العِلْميّ، مجلّة أهلاً وسهلاً (الخطوط الجويّة السّعوديّة)، العدد الثامن، السّنة ٢٧، أغسطس ٢٠٠٣م.

٢٥. راشد المبارك، قِراءةٌ في دفاتِر مَهْجُورَة، دار أبي حيّان، دمشق، الطّبعة الأولى، ١٩٩٥م.

٢٦. محمود أبو سليمان، أَزْمَةُ العقْلِ المُسْلم، المَعْهد العالَميّ للفِكْرِ الإسلاميّ (فيرجينيا)، ١٩٩٤م.
٢٧. تيري إيجلتون، فِكْرَةُ الثّقافة، ترْجمة: ثائر أديب، دار الحِوار، اللاذقيّة، ٢٠٠٠م.
٢٨. مالك بن نبيّ، مُشْكلَةُ الثّقافة، دار الفِكْر، دمشق، ١٩٨٤م.
٢٩. حسين مؤنس، الحضارة، عَالَمُ المعْرفة، المجلس الوطنيّ للثّقافة والفنون والآداب، الكويت، يناير ١٩٧٨م.
٣٠. سلامة موسى، الثّقافة والحضارة، مجلّة الهلال، القاهرة، ديسمبر ١٩٢٧م.
٣١. مجْموعةٌ من الكُتّاب، نظريّةُ الثقافة، ترْجمة: د.علي سيد الصاوي، عَالَمُ المعْرفة، العدد ٢٢٣، يوليو ١٩٩٧م.
32. C.P.Snow, The Two Cultures, Cambridge University Press, Canto Edition, 1993.
٣٣. مالك بن نبيّ، الثّقافةُ والأَزْمَةُ الثقافيّة في العَالَمِ العربيّ، جريدة الشّرق الأوسط، ١٩٩٧/٧/١٧م.
٣٤. خضر الشيباني، خلفيّةٌ وقضايا المفاهيم العامّة للثّقافة العِلْميّة والتِّقنيّة، ورقةُ عمل مُقدَّمةٌ إلى «المُنَظّمَة العربيّة للتّربية والثقافة والعلوم – تونس» (أليكسو) في إطار مشْروع إعداد «إستراتيجيّة نشْر الثّقافة العِلْميّة والتِّقانيّة في الوطن العربيّ»، ٢٠٠٣م.
٣٥. إستراتيجيّةُ نشْر الثّقافة العِلْميّة والتِّقانيّة في الوطن العربيّ، «المُنَظّمَة العربيّة للتربية والثقافة والعلوم – تونس» (أليكسو)، ٢٠٠٦م.
٣٦. إبراهيم البليهي، كيف تكوّنتْ الثّقافة العربيّة؟، جريدة الرياض السّعوديّة، ١٤٢٧/٣/٢٥هـ.
٣٧. علي أومليل، سُؤالُ الثّقافة: الثّقافة العربيّة في عَالَمٍ مُتَحَوِّل، المرْكز الثّقافيّ العربيّ، الدّار البيضاء، ٢٠٠٥م.
٣٨. زكي نجيب محمود، هُمُومُ المُثقّفين، دار الشّروق، القاهرة/بيروت، الطّبعة الثانية، ١٩٨٩م.
٣٩. علي علي حبيش، المَوْجَةُ الثّالثة وقضايا البقاء، مؤسّسة الأهرام، القاهرة، يونيو ٢٠٠٥م.
٤٠. مُقَدِّمَةُ ابن خلدون، دار الفِكْر.
٤١. برهان غليون – سمير أمين، ثقافةُ العَوْلَمَة وعَوْلَمَةُ الثّقافة، دار الفِكْر، دمشق، ١٩٩٩م.
٤٢. خضر الشيباني، هل العَوْلَمَةُ مَأْزِقٌ دَائمٌ؟، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٤٢٣/٧/٢٢هـ، ١٤٢٣/٨/١هـ، ١٤٢٣/٨/٨هـ.

٤٣. محمد محفوظ، العَوْلَمَةُ وتحوّلاتُ العَالَم، المرْكز الثّقافيّ العربيّ، بيروت، ٢٠٠٣م.

44. Glenn T. Seaborg, A Scientist Speaks Out (A Personal Perspective on Science, Society and Change), World Scientific Publishing Co. Pte. Ltd., Singapore, 1996.

٤٥. خضر الشيباني، بين ثقافة التّغيير وتغيير الثّقافة، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٤٢٥/١١/٢٣هـ.

46. Robert Hazen, Why should you be scientifically literate?. Bioscience, December 2002.

47. Michel Seres, Conversations on Science, Culture and Time, The University of Michigan Press, 1995.

٤٨. إبراهيم البليهي، إعادةُ تكْوين الثّقافة العربيّة، جريدة الرياض السّعوديّة، ١٤٢٨/٣/٢٠هـ .

٤٩. عبد الله الغذّامي، النّقدُ الثّقافيّ: قِرَاءةٌ في الأنْساق الثّقافيّة العربيّة، المرْكز الثقافيّ العربيّ، الدّار البيضاء، ٢٠٠٠م.

٥٠. عبد الله الغذّامي، المَوْقفُ من الحَدَاثَة ومسائِلُ أُخْرى، مطابع دار البلاد ، جدة، ١٩٨٧م.

٥١. مقولةٌ مشْهورةٌ تُنْسَبُ إلى الشّاعر الحطيئة.

٥٢. خضر الشيباني، العَقْلُ العربي: ترْميمٌ أم إعادة بِنَاء؟، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٤٢٨/١/١١هـ، ١٤٢٨/١/١٨هـ.

٥٣. حسن صعب، تحْديثُ العقْل العربيّ، دار العِلْم للملايين، ١٩٦٩م.

٥٤. خضر الشيباني، ثقافتُنا العَوْرَاءُ و«ثقافة الثّقافة»، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٤٢٥/٨/٢١هـ.

٥٥. خضر الشيباني، «المُثقّفُ العربيّ» تحت الحِصَار، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٤٢٣/٣/١هـ.

٥٦. خضر الشيباني، اللونُ البَاهِتُ في الكلمة العربيّة، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٤٢٥/١٢/٢٨هـ.

٥٧. خضر الشيباني، المثقّفون العرب والبُعْدُ الغَائِب، مجلّة الفيصل السّعوديّة، العدد ٢٢٨، أكتوبر/نوفمبر ١٩٩٥م.

٥٨. خضر الشيباني، غِيَابُ «البُعْد الرّابع» في حياة العرب، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٤٢٩/٤/١هـ.

٥٩. محمد عابد الجابريّ، المسألةُ الثقافيّةُ في الوطن العربيّ، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، الطّبعة الثانية، ١٩٩٩م.
٦٠. خضر الشيباني، «إشكاليّةُ التُّراثِ والحَداثَة» من منظورٍ علميّ، محاضرةٌ في «مُنتدى الجمعة» في دارة الأستاذ معتوق شلبي، الرياض، ١٩/١٠/١٤٢٧هـ.
٦١. كريم الوائلي، تناقُضاتُ الحَداثَةِ العربيّة، ، موقعُ د. كريم الوائلي، .http://www.karim-alwaili.com
٦٢. أدونيس، زمن الشِّعْر، دار العودة، بيروت، ١٩٨٣م.
٦٣. أدونيس، النّصُّ القرآنيّ وآفاقُ الكِتابة، دار الآداب، بيروت، ١٩٩٣م.
٦٤. أدونيس، فَاتِحَةٌ لنهايات القرْن، دار العودة، بيروت، ١٩٩٣م.
٦٥. طه عبد الرحمن، روحُ الحَداثَة: المدْخلُ إلى تأْسيس الحَداثَة الإسلاميّة، المركز الثّقافيّ العربيّ، بيروت/الدّار البيضاء، ٢٠٠٦م.
٦٦. حسن الهويمل، مُلْحَقُ الرّسالة، جريدة المدينة السّعوديّة، ٢٠/٦/١٤٣٣هـ.
٦٧. محمد عابد الجابريّ، الخِطَابُ العربيُّ المُعاصِر (دراسة تحليليّة نقديّة)، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، الطّبعة السّادسة، ١٩٩٩م.
٦٨. رواهُ أحمد ومُسْلِم.
٦٩. رواهُ أحمد.
٧٠. أحمد زويل، عَصْرُ العِلْم، دار الشّروق، القاهرة، الطّبعة الأولى، ٢٠٠٥م.
٧١. يوسف أبا الخيل، العَقْلُ العربيُّ بين المِعْياريّة والموضوعيّة، جريدة الرياض السّعوديّة، ١١/١٠/١٤٢٩هـ.
٧٢. خضر الشيباني، العَقْلُ العربيُّ: مُجرّدُ لحْظة انْفعال، جريدة المدينة السّعودية، ٤/١/١٤٢٨هـ.
٧٣. خضر الشيباني، طلاسِمُ الثّقافة العِلْميّة: أين المخْرج؟، جريدة المدينة السّعوديّة، ٢٠/٦/١٤٢٩هـ.
٧٤. علي الوردي، وُعّاظُ السّلاطين، شركة دار الورّاق للنّشر المحدودة، لندن، ٢٠٠٩م.
٧٥. فلاح سعيد جبر، مشاكلُ نقْل التّكنولوجيا «نظْرةٌ إلى واقِعِ الوطن العربيّ»، المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر، الطّبعة الأولى، ١٩٧٩م.

٧٦. عمر الخطيب، الإعْلامُ التّنْمَويّ، دار العلوم للطّباعة والنّشْر، الرّياض، ١٩٨٤م.
٧٧. زهير الكرمي، العِلْمُ ومُشْكلاتُ الإنسان المُعاصِر، عَالَمُ المعْرفة، المجلس الوطنيّ للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٧٨م.
٧٨. خضر الشيباني، شُرُوطُ التّأْهيل لـ«مجْتمع المعْرفة»، ورقةُ عملٍ مُقدَّمَةٌ في «المؤتمر السّعوديّ الـدّوليّ للثقافـة العِلْميّـة ٢٠١٣م» المُنْعَقـد في «مدينة الملك عبـد العزيز للعلـوم والتّقنية» بالرّياض في الفترة ٣ – ٧ جمادى الآخرة ١٤٣٤هـ، الموافق ١٣ – ١٧ أبريل ٢٠١٣م.
٧٩. خضر الشيباني، البَحْثُ عن المُثقّف التّنْمَويّ، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٤٢٨/٦/٢٥هـ.
٨٠. خضـر الشيبـاني، نحـو المُصالحـة مع العلـوم والتّقنيـة، جريـدة المدينـة السّعوديّة، ١٤٢٦/٤/١٦هـ، ١٤٢٦/٤/٢٣هـ، ١٤٢٦/٤/٣٠هـ، ١٤٢٦/٥/٦هـ.
٨١. عبد الله بن بيّه، توازُنُ الضّرورات، جريدة عكاظ السّعوديّة، ١٤٣٤/٩/١٦هـ.
٨٢. محمـد صـلاح الدّين، عن الجهـاد والسّيـادة والمُسْتقبل، جريـدة المدينـة السّعوديّة، ١٤٢٦/٢/٢٠هـ.
٨٣. التّقْريرُ العالَميّ لمُنّظمة اليونسكو، من مُجْتمع المعْلومات إلى مُجْتمع المعْرفة، ٢٠٠٥م.
٨٤. حسن صعب، تحْديثُ العقْل العربيّ، دار العِلْم للملايين، بيروت، ١٩٦٩ م.
٨٥. أنطونيوس كرم، العرب أمام تحدّيات التّكنولوجيا، عَالَمُ المعْرفة، الكويت، ١٩٨٢م.
86. Bertrand Russell, The Impact of Science on Society, Unwin Ltd, London, 1985.
٨٧. أحمد شوقي، العِلْمُ: ثقافة المُسْتقبل، المكتبة الأكاديميّة، القاهرة، ١٩٩٣م.
88. J.D.Bernal, Science in History, Vol.3, Penguin Books Ltd, London, 1969.
89. Bernard Dixon, What is Science For?, Penguin Books Ltd. London, 1976.
٩٠. ماهـر إسماعيل صـبري – محب محمود كامل، التّنَوُّر التّقنـيّ: مفْهومُه وسُبُلُ تحقيقه، مجلّـة العلوم والتّقنية، مدينة الملـك عبد العزيز للعلوم والتّقنيـة، الرّياض، العدد ٥٥، سبتمبر ٢٠٠٠م.
٩١. مجلّةُ «الفِكْر العربيّ»، العدد الأوّل، معْهد الإنْماء العربيّ، بيروت، يونيو ١٩٧٨م.
٩٢. عبـد الرحمن المحسني، أثرُ التّقنية على التّكويـن الفِكْريّ الذي يصْنع النّص، جريدة الوطن السّعوديّة، ١٤٢٩/٦/٩هـ.

93. Lloyd W. Taylor, Physics: the Pioneer Science, Volume 1, Dover Publications, 1959.

94. Science for all Americans, The American Association for the Advancement of Science, Oxford University Press, New York, 1989.

٩٥. عبد الكريم بن أعراب، نَشْرُ الثّقافة العلميّة والتّقانيّة في الجزائر: دِراسة ميدانيّة، الاجْتماع العربيّ بشأن إستراتيجيّة نشْر الثّقافة العِلْميّة والتّقانيّة في الوطن العربيّ، القاهرة، ٢٨-٣٠/١٠/٢٠٠٢م.

٩٦. خضر الشيباني، شُرُوطُ اعْتبار «مشْروع الملك عبد الله» بوابّة دخول التّعليم السّعوديّ إلى «مُجْتمع المعْرفة»، مجلّة المعْرفة، وزارة التربية والتعليم السّعوديّة، العدد ١٤٩، أغسطس ٢٠٠٧م.

٩٧. خضر الشيباني، الثّقافةُ النّمطيّةُ والتّفْكيرُ العِلْميّ، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٤٢٥/٧/١هـ.

٩٨. ديفيد رزنيك، أخلاقيّاتُ العِلْم، ترْجمة: عبد النور عبد المنعم، عَالَمُ المعْرفة، العدد ٣١٦، الكويت، يونيو ٢٠٠٥م.

٩٩. مجْموعةٌ من الباحثين العرب، العلوم والتّكنولوجيا في الوطن العربيّ: الوَاقِعُ والطّموح، المؤسّسة العربية للدّراسات والنّشْر، بيروت، ٢٠٠٢م.

١٠٠. محمد علي نصر، رؤيةٌ مُستقبليّةٌ للتّربية العِلْميّة في عصْر المعلوماتيّة والمُسْتحدثات التّكنولوجيّة، المؤتمر العِلْميّ الرّابع: (التّربية العِلْميّة للجميع)، الجمعيّة المصريّة للتّربية العِلْميّة، الإسماعيليّة، ٣١/٧ - ٣/٨/٢٠٠٠م.

١٠١. خضر الشيباني، طلاسِمُ الثّقافة العِلْميّة: ما هو المُحْتوى؟، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٤٢٩/٦/١٣هـ.

١٠٢. عبد العزيز التويجري، الإصْلاحُ العِلْميُّ: الطّريقُ إلى المُسْتقبل، جريدة الشّرق الأوسط، ٢٠٠٤/٧/٢٠م.

١٠٣. مجموعةٌ من الباحثين العرب، الثّقافةُ العربيّةُ: أسْئلةُ التّطوّر والمُسْتقبل، مرْكز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، ٢٠٠٣م.

١٠٤. محمد الرميحي، سندوتش الإعْلام الخليجيّ، صحيفة البيان الإماراتيّة، ٢٠٠٧/٢/١٣م.

١٠٥. عبد العزيز السماري، واحلُلْ عُقْدَةً من لساني، جريدة الجزيرة السّعوديّة، ١٠/٤/١٤٣٠٧هـ.

١٠٦. عبد العزيز التويجري، مشْروعُ النُّهوض باللغة العربيّة: مشْروعُ أمّة، جريدة الحياة، ١٨/٤/٢٠٠٩م.

١٠٧. خضر الشيباني، هل نحْتاجُ إلى آينشتاين عربيّ؟، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٢/٣/١٤٢٢هـ، ١٩/٣/١٤٢٢هـ.

108. Arthur Koestler, The Act of Creation, Hutchinson of London, 1976.

١٠٩. خضر الشيباني، إشْكَاليّةُ التُّراثِ والحَدَاثَة: أين الخَلَل؟، مُحاضرةٌ في «مركْز حمد الجاسر الثقافيّ»، الرّياض، ٢٩/١/١٤٣٦هـ.

١١٠. خضر الشيباني، ألبرت آينشتاين في «عام العجائِب»، مجلّة أهلاً وسهلاً (الخطوط الجويّة السّعوديّة)، العدد ١٢، ديسمبر ٢٠٠٥م.

111. Craig Rusbult, Einstein's Theory of Relativity should be called a Theory of Invariance, , 2007, http://www.asa3.org/ASA/education/views/invariance.htm.

112. Francis Fukuyama, End of History and the Last Man, Simon and Schuster, 2006.

١١٣. خضر الشيباني، «نهايةُ التّاريخ»: بين «حالة الانْبِهَار» و«نَشْوَة الانْتِصَار»، مقالٌ منْشورٌ في كِتاب «نهاية التّاريخ: تحت مِجْهَرِ الفِكْرِ العربيّ» للدكتور عبد العزيز قاسم، العبيكان للنّشر، ١٤٢٨هـ (٢٠٠٧م).

*****

ب) مقالاتٌ مَنْشُورةٌ للمُؤلِّف:

- الطّريقُ إلى «المُعْجزة السّعوديّـة»، مجلّة التّجارة، الغرفة التّجاريّة الصّناعيّة بجدّة، العدد ٦٢١، أغسطس ٢٠١٢م.
- «رأس المال الجريء» وسِرْبَالُ المجانين، مجلّة التّجارة، الغرفة التّجاريّة الصّناعيّة» بجدّة، مايو ٢٠١٢م.
- سـوقُ الأسْهم و«قانونُ حِفْظ الطّاقـة»، مجلّة التّجارة، الغرفة التّجاريّـة الصّناعيّة بجدّة، يونيو ٢٠١٢م.
- «ريادةُ الأعْمال» بين الجامعات والقطاع الخاصّ، مجلّة التّجارة، الغرفة التّجاريّة الصّناعيّة بجدّة، نوفمبر ٢٠١١م.
- الحِوارُ بين «القطاع الخاصّ» و«اقْتصاد المعْرفة»، مجلّة التّجارة، الغرفة التّجاريّة الصّناعيّة بجدّة، أكتوبر ٢٠١١م.
- المدْخلُ إلى «الإصْلاح الاقْتصاديّ»، مجلّة التّجارة، الغرفة التّجاريّة الصّناعيّة بجدّة، مايو ٢٠١١م.
- الأطْبـاقُ الطّائِرةُ و«مُنْتدى التّنافُسيّة»، مجلّة التّجارة، الغرفـة التّجاريّة الصّناعيّة بجدّة، أبريل ٢٠١١م.
- التّفْكيرُ خارج الصّندوق، مجلّة التّجارة، الغرفة التّجاريّة الصّناعيّة بجدّة، يناير ٢٠١١م.
- هل يحْتاجُ القطاع الخاصّ إلى «ثقافة»؟، مجلّة التّجارة، الغرفة التّجاريّة الصّناعيّة بجدّة، ديسمبر ٢٠١٠م.
- ستيفن هوكينج ومَأْزِقُ المَلاحِدَة، جريدة الرّياض السّعوديّة، ٢٧ ذو القعدة ١٤٣١هـ.
- اقْتصادُ «المِسْيار»، مجلّة التّجارة، الغرفة التّجاريّة الصّناعيّة بجدّة، أكتوبر ٢٠١٠م.
- القطـاع الخاصّ و«حجر الفلاسِفـة»، مجلّة التّجـارة، الغرفة التّجاريّـة الصّناعيّة بجدّة، سبتمبر ٢٠١٠م.
- «الإدارة» علـى الطّريقـة الفيزيائيّة، مجلّـة التّجارة، الغرفـة التّجاريّـة الصّناعيّة بجدّة، أغسطس ٢٠١٠م.

- بين المُصْطَلح والمِعْيار، مجلّة التّجارة، الغرفة التّجاريّة الصّناعيّة بجدّة، يوليو ٢٠١٠م.
- أحْضِروا الذَّهَبَ من الشّمْس، مجلّة التّجارة، الغرفة التّجاريّة الصّناعيّة بجدّة، يونيو ٢٠١٠م.
- «التّنافُسيّة»: المفْهومُ القديمُ المُتّجدِّد، مجلّة التّجارة، الغرفة التّجاريّة الصّناعيّة بجدّة، مارس ٢٠١٠م.
- مِسْطَرَةُ «العَوْلَمَة» وأبْعادُها الحقيقيّة، مجلّة التّجارة، الغرفة التّجاريّة الصّناعيّة بجدّة، فبراير ٢٠١٠م.
- «القطاع الخاصّ» و«مُجْتمع المعْرفة»، مجلّة التّجارة، الغرفة التّجاريّة الصّناعيّة بجدّة، يناير ٢٠١٠م.
- قِراءةٌ في «ثقافة المُبادَرَة»، مجلّة التّجارة، الغرفة التّجاريّة الصّناعيّة بجدّة، ديسمبر ٢٠٠٩م.
- النّاشرون العرب...إلى أين؟، جريدة المدينة السّعوديّة، ٨ ذو القعدة ١٤٣٠هـ (٢٧ أكتوبر ٢٠٠٩م).
- «كاوست»: جزيرةٌ معْزولةٌ أمْ فُرْصَةٌ واعِدَةٌ؟، جريدة المدينة السّعوديّة، ٢٤ شوال ١٤٣٠هـ (١٣ أكتوبر ٢٠٠٩م).
- «جامعةُ الملك عبد الله»: المنْظور التّنْمَويّ، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٧ شوال ١٤٣٠هـ (٦ أكتوبر ٢٠٠٩م).
- جامعةُ الملك عبد الله: القيمةُ الأساسُ، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٠ شوال ١٤٣٠هـ (٢٩ سبتمبر ٢٠٠٩م).
- «لُغَةُ الضّاد» و«المَجْمَعُ» و«التّنْميةُ المُسْتدامة»، جريدة المدينة السّعوديّة، ٢٥ شوال ١٤٣٠هـ (١٥ سبتمبر ٢٠٠٩م).
- «السُّؤالُ الحائِرُ» مع الإعْلاميين وبينهم، جريدة المدينة السّعوديّة، ٢٧ شعبان ١٤٣٠هـ (١٨ أغسطس ٢٠٠٩م).
- «سُؤالُ المُواطَنَة» و«التّوَافُقُ التّنْمَويّ»، جريدة المدينة السّعوديّة، ٢٠ شعبان ١٤٣٠هـ (١١ أغسطس ٢٠٠٩م).
- الحَصَادُ قبل الزّرْع، جريدة المدينة السّعوديّة، ٢٥ ربيع الثّاني ١٤٣٠هـ (٢١ أبريل ٢٠٠٩م).
- «قِيَمُ التّنْمية» لا تَسْتَعْدِي أحداً، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٨ ربيع الثاني ١٤٣٠هـ (١٤ أبريل ٢٠٠٩م).

- هل التّحدّي عصيٌّ على الأمّة؟، جريدة المدينة السّعوديّة، ١١ ربيع الثاني ١٤٣٠هـ (٧ أبريل ٢٠٠٩م).
- «الثّقافة العِلْميّة»: نصيرُ الجميع، جريدة المدينة السّعوديّة، ٢٠ ربيع الأول ١٤٣٠هـ (١٧ مارس ٢٠٠٩م).
- خِطابٌ مفْتوحٌ إلى وزير الثقافة، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٣ ربيع الأول ١٤٣٠هـ (١٠ مارس ٢٠٠٩م).
- «الثّقافة التّنْمَويّة» ليستْ «ثقافة التّنْمية»، جريدة المدينة السّعوديّة، ٢٢ صفر ١٤٣٠هـ (١٧ فبراير ٢٠٠٩م).
- «التّعليم العامّ» بين ثقافَتَيْن، جريدة المدينة السّعوديّة، ٣٠ جمادى الآخرة ١٤٣٠هـ (٢٣ يونيو ٢٠٠٩م).
- «التّعليم» بين «الخَفِيّ» و«الخافِي»، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٦ جمادى الآخرة ١٤٣٠هـ (٩ يونيو ٢٠٠٩م).
- «التّعليم العامّ»: ظَالِماً ومظْلوماً، جريدة المدينة السّعوديّة، ٩ جمادى الآخرة ١٤٣٠هـ (٢ يونيو ٢٠٠٩م).
- «الإعْلام التّنْمَويّ»: هل من بديل؟، جريدة المدينة السّعوديّة، ٢ جمادى الآخرة ١٤٣٠هـ (٢٦ مايو ٢٠٠٩م).
- في خضمّ الجلبة: أين «المُثقّف التّنْمَويّ»؟، جريدة المدينة السّعوديّة، ٤ ربيع الثاني ١٤٣٠هـ (٣١ مارس ٢٠٠٩م).
- «المسؤوليّةُ الاجْتماعيّةُ» و«السُّؤالُ الثّقافيُّ»، مجلّة التّجارة، الغرفة التّجاريّة الصّناعيّة» بجدّة، يناير ٢٠٠٩م.
- أدونيس و«العلْمُ التّجريبيّ»، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٨ ذو الحجّة ١٤٢٩هـ (١٦ ديسمبر ٢٠٠٨م).
- أيُّها «العَقْلُ»...مَن رآك؟، جريدة المدينة السّعوديّة، ٤ ذو الحجّة ١٤٢٩هـ (٢ ديسمبر ٢٠٠٨م).
- «الأمْنُ الفكْريّ»: لماذا نُهْمِلُ «المُسْتقبل»؟، جريدة المدينة السّعوديّة، ٢٠ ذو القعدة ١٤٢٩هـ (١٨ نوفمبر ٢٠٠٨م).

- مجلّـةُ «المُقْتطف»: العودةُ إلى نقْطة الصِّفْر، جريدة المدينــة السّعوديّة، ٩ رمضان ١٤٢٩هـ (٩ سبتمبر ٢٠٠٨م).
- مُحاكمةُ «الإعْلام العربيّ»: بين السُّمّ والعسل، جريدة المدينة السّعوديّة، ٢ رمضان ١٤٢٩هـ (٢ سبتمبر ٢٠٠٨م).
- نظريّــةُ «الإفْلاس الإعْلاميّ»، جريدة المدينــة السّعوديّة، ١٨ شعبان ١٤٢٩هـ (١٩ أغسطس ٢٠٠٨م).
- «المسْؤوليّــةُ الاجْتماعيّــةُ»: القطاع الخاصّ والشّبــاب، جريدة المدينــة السّعوديّة، ٢٦ رجب ١٤٢٩هـ (٢٩ يوليو ٢٠٠٨م).
- كيف أفْلَحْنَا فِي ظُلْمِ أبنائنا وبناتنا؟، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٩ رجب ١٤٢٩هـ (٢٢ يوليو ٢٠٠٨م).
- مُفارقــاتُ «الثّــوْرَة الجِينيّة» و«الثّوْرَة الجِنّيّة»، جريدة المدينــة السّعوديّة، ١٢ رجب ١٤٢٩هـ (١٥ يوليو ٢٠٠٨).
- «المعْلومــاتُ الخَافِيَــة» وليس «المنْهجُ الخَفِيّ»، جريدة المدينــة السّعوديّة، ٢٧ جمادى الآخرة ١٤٢٩هـ (١ يوليو ٢٠٠٨)،
- «الوَسَطيّةُ» الحياتيّةُ وفيزياءُ «المُرونة»، جريدة المدينة السّعوديّة، ٢٩ جمادى الأولى ١٤٢٩هـ (٣٠ يونيو ٢٠٠٨م).
- مِسْكينةٌ هي مُجْتمعاتُ «العِلْم والتّقنيّة»، جريدة المدينة السّعوديّة، ٨ جمادى الأولى ١٤٢٩هـ (١٢ يونيو ٢٠٠٨م).
- إشْكاليّةُ التُّرَاثِ والحَدَاثَة: «التَّوَافُقُ التّنْمَويّ» هو الحلّ، جريدة المدينة السّعوديّة، ١ جمادى الأولى ١٤٢٩هـ (٥ يونيو ٢٠٠٨م).
- الثّقافة: «خُطّةُ اسْتفزاز» أمْ «نَهْجُ تنْمية»، جريدة المدينة السّعوديّة، ٩ ربيع الثاني ١٤٢٩هـ.
- «المَسْألــةُ الثقافيّــةُ» و«الحَثُّ الكهرومغناطيســيّ»، جريدة المدينة السّعوديّــة، ٢٤ ربيع الأوّل ١٤٢٩هـ.
- ثُنائيّــةُ «العقْل العربيّ»: إمّا «الاسْتِبداد» وإمّا «الفوضــى»، جريدة المدينة السّعوديّة، ٣ ربيع الأوّل ١٤٢٩هـ.

- رسائلُ من «مُنْتدى التّنافُسيّة»، جريدة المدينة السّعوديّة، ٢٨ محرّم ١٤٢٩هـ.
- جَلْدُ الذّات: داءٌ أَمْ دواء، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٤ محرّم ١٤٢٩هـ.
- الهروب من ساحة «الإعْلام التّنمَويّ»، جريدة المدينة السّعوديّة، ٦ محرّم ١٤٢٩هـ.
- نحو «غَزْوٍ ثقافيٍّ» من نَوْعٍ جديد، جريدة المدينة السّعوديّة، ٣٠ ذو الحجّة ١٤٢٨هـ.
- من «المُعْجزة الماليزيّة» إلى «المُعْجزة السّعوديّة»، جريدة المدينة السّعوديّة، ٢٣ ذو الحجّة ١٤٢٨هـ.
- جامعةُ الملك عبد الله: الأسْئلةُ المُلِحّةُ في الوَاقِعِ التّنْمَويّ، جريدة المدينة السّعوديّة، ٣ ذو القعدة ١٤٢٨هـ، ١٠ ذو القعدة ١٤٢٨هـ.
- الإسْتراتيجيّةُ الثّقافيّةُ: نحو «عَقْلَنَة الثقافة»، جريدة المدينة السّعوديّة ، ٢٦ شوّال ١٤٢٨هـ.
- مُراجعاتُ الإسْلاميّين وأزْمَةُ «الثّقافة التّنْمَويّة»، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٩ شوّال ١٤٢٨هـ.
- الإسْتراتيجيّةُ الثّقافيّةُ: أيُّ ثقافة نُريد ؟، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٢ شوّال ١٤٢٨هـ.
- «سبوتْنك»: الشِّعْرُ ديوانٌ... والعِلْمُ ميزان، جريدة المدينة السّعوديّة، ٦ رمضان ١٤٢٨هـ.
- بين «الإسْتراتيجيّات الكُبْرى» و«التّفاصيل الصّغيرة»، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٥ شعبان ١٤٢٨هـ.
- في انْتظار «الجنّي»، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٥ شعبان ١٤٢٨هـ.
- أزْمَةُ المُثقّف: فَعَلَ...يَفْعَلُ...فعْلاً، جريدة المدينة السّعوديّة، ٨ شعبان ١٤٢٨هـ.
- أين نحن من «مُعْجزة التّرْجمة»؟، جريدة المدينة السّعوديّة، ٣ رجب ١٤٢٨هـ.
- «اليونسكو»: شفيعٌ لحماية «اللغة العربيّة»، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٨ جمادى الثانية ١٤٢٨هـ.
- «التُّرَاثُ» و«الحَدَاثَةُ» و«النّظريّةُ النِّسْبيّة»، جريدة المدينة السّعوديّة، ٢٥ جمادى الثانية ١٤٢٨هـ.
- ملفّ «الإرْهاب» والبَحْثُ عن «التّوازُن الجديد»، جريدة المدينة السّعوديّة، ١١ جمادى الثانية ١٤٢٨هـ.
- بين «العلوم الطّبيعيّة» و«الإنْسانيّة»: صِرَاعٌ أم إبْدَاعٌ؟، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٩ جمادى الأولى ١٤٢٨هـ.
- ملفُّ الإرْهاب و«ثقافةُ العِلْم»، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٣ جمادى الأولى ١٤٢٨هـ.
- قِرَاءَةٌ في «مشْروع الملك عبد الله لتطوير التّعليم العامّ»، جريدة المدينة السّعوديّة، ٢٨ ربيع الثاني ١٤٢٨هـ.

- «مؤسّسةُ الفكْر العربيّ» وسُؤالُ التّعليم، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٤ ربيع الثاني ١٤٢٨هـ.
- الدُّعَاةُ: التَّحَرُّكُ في اتّجاه التّنْمية، جريدة المدينة السّعوديّة، ٢٧ ذو الحجّة ١٤٢٧هـ.
- التّنْمية المُسْتَدَامَة: رؤيةٌ ثقافيّةٌ – اجْتماعيّة، جريدة المدينة السّعوديّة، ٢٠ ذو الحجّة ١٤٢٧هـ.
- هل يحْتَاجُ الأعْدَاءُ إلى مؤامرة؟، جريدة المدينة السّعوديّة، ٧ ذو الحجّة ١٤٢٧هـ.
- إشْكَاليّةُ «التُّراثِ والحَدَاثَة» من منْظورٍ علْميّ، جريدة المدينة السّعوديّة، ٧ ذو القعدة ١٤٢٧هـ، ١٤ ذو القعدة ١٤٢٧هـ، ٢١ ذو القعدة ١٤٢٧ه، ٢٨ ذو القعدة ١٤٢٧هـ.
- «البنْدولُ الفكْريُّ» والوسَطيّة، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٢ شعبان ١٤٢٧هـ.
- الطّبيعةُ الاقْتحاميّةُ للعلوم والتّقنية، جريدة المدينة السّعوديّة، ٥ شعبان ١٤٢٧هـ.
- الحضارةُ الغَرْبيّة: حالةُ انْبِهارٍ ووَقْفَةُ تأمُّل، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٥ جمادى الثانية ١٤٢٧هـ.
- نحو «المُواطَنَة التّنْمَويّة»، جريدة المدينة السّعوديّة، ١ جمادى الثانية ١٤٢٧هـ.
- نحو إسْتراتيجيّةٍ وطنيّةٍ للثّقافة العِلْميّة، جريدة المدينة السّعوديّة، ١١ ربيع الثاني ١٤٢٧هـ،
- ١٨ ربيع الثاني ١٤٢٧هـ، ٢٥ ربيع الثاني ١٤٢٧هـ، ٣ جمادى الأولى ١٤٢٧هـ.
- متى تتكلّمُ العربيّةُ العِلْم؟، جريدة المدينة السّعوديّة، ٢٧ ربيع الأوّل ١٤٢٧هـ.
- متى يتكلّمُ العِلْمُ العربيّة؟، جريدة المدينة السّعوديّة، ٢٠ ربيع الأوّل ١٤٢٧هـ.
- «أسْلَمَةُ العلوم»: المَوقِفُ بعد ١١ سبتمبر، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٥ محرّم ١٤٢٧هـ.
- قانون نيوتن الاجْتماعيّ، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٧ ذو الحجّة ١٤٢٦هـ.
- المَشْهَدُ الثّقافيّ: حِوارٌ مع زكي نجيب محمود، جريدة المدينة السّعوديّة، ١١ ذو القعدة ١٤٢٦هـ، ١٨ ذو القعدة ١٤٢٦هـ، ٢٥ ذو القعدة ١٤٢٦هـ، ٣ ذو الحجّة ١٤٢٦هـ.
- يا أهْل الثقافة: لقد ولّى زمن الجاحِظ، جريدة المدينة السّعوديّة، ٤ ذو القعدة ١٤٢٦هـ.
- أحمد زويل و«المراكز المُضيئة»، جريدة المدينة السّعوديّة، ٩ شوال ١٤٢٦هـ، ١٦ شوال ١٤٢٦هـ.
- زغلول النّجار و«الاعتداء في التّأويل»، جريدة المدينة السّعوديّة، ٢٣ رمضان ١٤٢٦هـ.
- المغناطيسيّة: من «الفيزيائيّ» إلى «الاجْتماعيّ»، جريدة المدينة السّعوديّة، ١ رمضان ١٤٢٦هـ، ٨ رمضان ١٤٢٦هـ، ١٥ رمضان ١٤٢٦هـ.

- فيزياء المجْتمع: الدّلالات والأبْعاد، جريدة المدينة السّعوديّة، ٢٣ شعبان ١٤٢٦هـ.
- ثقافةٌ..وثقافة، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٠ شعبان ١٤٢٦هـ.
- «التّفاعُل المُتسلْسل»: من الفيزيائيّ إلى الاجْتماعيّ، مجلّة أهلاً وسهلاً، الخطوط السّعوديّة»، السّنة ٢٩، العدد ٧، يوليو ٢٠٠٥م.
- «الطّيف»: من الفيزيائيّ إلى الاجتماعيّ، مجلّة أهلاً وسهلاً، الخطوط السّعوديّة، السّنة ٢٩، العدد ٥، مايو ٢٠٠٥م.
- فوكوياما...وياما...ياما!، جريدة المدينة السّعوديّة، ٤ رجب ١٤٢٦هـ، ١١ رجب ١٤٢٦هـ.
- عن الجِهاد والسِّيادَة والاسْتِقْلال، جريدة المدينة السّعوديّة، ٩ ربيع الثاني ١٤٢٦هـ.
- صنْدوق البحْث العِلْميّ: العربة أمام الحصان، جريدة المدينة السّعوديّة، ٥ صفر ١٤٢٦هـ.
- بين «ثقافة المُسْتقْبل» و«مُسْتقْبل الثّقافة»، جريدة المدينة السّعوديّة، ٢٣ ذو القعدة ١٤٢٥هـ، ٣٠ ذو القعدة ١٤٢٥هـ.
- الإصْلاح الاقْتِصاديّ والانْتماء العِلْميّ، جريدة المدينة السّعوديّة، ٦ رمضان ١٤٢٥هـ.
- مُلْتقى المُثقّفين و«إشْكاليّةُ المُصْطلح»، جريدة المدينة السّعوديّة، ٢٨ شعبان ١٤٢٥هـ.
- العَقْلُ العربيّ: بين التّفاؤل والشّعْوذَة، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٤٢٥/٧/٢٢هـ.
- ومضات على طريق «الإبْداع العِلْميّ»، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٤٢٥/٧/٨هـ.
- «الإصْلاحُ العِلْميّ» و«السّهْلُ المُمْتَنِع»، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٤٢٥/٦/١٧هـ.
- خالد الفيصل والإسْتراتيجيّة المطْلوبة، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٤٢٥/٦/٣هـ.
- أمريكا التي نشْتمها: ما هو الحَلّ؟، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٤٢٥/٥/٤هـ.
- هِجْرَةُ الأدْمغة: بين لَطْم الخُدُود وغِيَاب البُنُود، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٤٢٥/٤/٢٠هـ.
- السّياسة الوطنيّة للعلوم والتّقنية: البيئة المُناسبة، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٤٢٥/٤/٢٠هـ.
- إسْتراتيجيّةٌ للثّقافة: هل نحن جادُّون؟، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٤٢٥/٤/١٣هـ.
- «المَأزِقُ الثّقافيّ»: إلى متى؟، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٤٢٤/١١/١٤هـ.
- في «الحوار الوطنيّ»، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٤٢٤/٤/١٦هـ.
- «أسْلَمَةُ العلوم»: تَرَفٌ أمْ ضَرورة، مجلّة أهلاً وسهلاً، الخطوط السّعوديّة، السّنة ٢٧، العدد ١٢، ديسمبر ٢٠٠٣م.

- «إشْكَاليّــة التّنْمية» و«الإعْلامُ العِلْميّ»، مجلّة أهــلاً وسهلاً، الخطوط السّعوديّة، السّنة ٢٧، العدد ٨، أغسطس ٢٠٠٣م.
- «وادي عَبْقَر» و«الإبْداع العِلْميّ»، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٤٢٢/٨/١٢هـ، ١٤٢٢/٨/٢٠هـ.
- في انْتِظار الوِلادَة، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٤٢٢/٦/٨هـ.
- حِوارُ التّنْمية، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٤٢٢/٥/١٦هـ.
- مِطْرَقَةٌ وسِنْدَانٌ للدّول النّامية، جريدة المدينة السّعوديّة، ٤ /١٤٢٢/٤هـ.
- الأَمْنُ العِلْميّ، جريدة المدينة السّعوديّة، ٦ /١٤٢٢/٢هـ ، ١٤٢٢/٢/١٢هـ.
- الكلامولوجيا والتّكنولوجيا، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٤٢٢/٢/٢٧هـ ، ١٤٢٢/٢/٥هـ.
- الإعْلاميّون و«الإعْلام العلْميّ»، جريدة المدينة السّعوديّة، ١٤٢٢/١٢/٢٧هـ، ١١،٤ محرم ١٤٢٣هـ.
- الثّقافــة العِلْميّــة: مِفْتَاحُ التّقنيــة، مجلّة العلوم والتّقنيــة، مدينة الملك عبــد العزيز للعلوم والتّقنية، العدد ٥٥، شهر رجب ١٤٢١ (سبتمبر ٢٠٠٠م).
- «الإعْلامُ العِلْميّ»: الدَّوْرُ الغَائِب، مجلّة أهلاً وسهلاً، الخطوط السّعوديّة، السّنة ٢٣، العدد ٩، سبتمبر ١٩٩٩م.
- فوكوياما...وياما...ياما!، مجلّة اليمامة السّعوديّة، العدد ١٤٥٢ ، ١٩ ذو الحجة ١٤١٧هـ.
- «التّفْكيرُ العِلْميّ» و«الإبْدَاعُ العِلْميّ»، مجلة «أهلاً وسهلاً»، الخطوط السّعوديّة، أغسطس ١٩٩٧م.
- قُيُودُ الهُويّة وسَلاسِلُ التّاريخ، مجلّة اليمامة السّعوديّة، العدد ١٤٤٥، ١٤١٧/١٠/٢٢هـ.
- الجامعــات بين نَمَطِيّةِ التّفْكير والانْقيادِ للمُسْتَـوْرَد، مجلّة اليمامة السّعوديّة، العدد ١٤٣٧، ١٤١٧/٨/١٨هـ.
- وَعْيُ الأرْقام والمعْلومات، مجلّة اليمامة السّعوديّة، العدد ١٤٣٣، ١٩ رجب ١٤١٧هـ.
- التّنْمية في التّعليم، مجلّة اليمامة السّعوديّة، ١٤١٧/٧/٥هـ.
- لُغَةُ الضّاد تَسْتَغيث، مجلّة اليمامة السّعوديّة، ١٤، ٢١ جمادى الآخرة ١٤١٧هـ.
- عــن «المنْهج العِلْميّ»، مجلّة أهلاً وسهــلاً، الخطوط السّعوديّة، العدد الرّابع، السّنة الثّانية، محرّم ١٣٩٩هـ.

*****

مَسْرَدُ الأَعْلَام

فيما يَلي حَصْرٌ للأَعْلام الذين وَرَدَتْ أسْمَاؤهُم في الكِتَاب، وتَعْريفٌ مُوجَزٌ بهم:

(أ)

إبراهيم البليهي	كاتِبٌ سعوديّ، وعضْو «مجْلس الشُّورى» السّعوديّ.
إبراهيم العيسوي	أكاديميٌّ وخبيرٌ اقْتصاديٌّ مِصْريّ، والمُستشار بـ«معْهد التّخْطيط القوميّ» في مصر.
أبو حيّان التّوحيدي	فيلسوفٌ وأديبٌ من أعْلام القرْن الرّابع الهجْريّ.
أحمد زويل	عَالمُ الكيمياء المعْروف، والحَائِزُ على «جائِزة نوبل في الكيمياء» لعام ١٩٩٩م.
أحمد صدقي الدّجانيّ	كَاتبٌ ومُؤرِّخٌ فلسْطينيٌّ رأس «المجْلس الأعْلى للتّرْبية والثّقافة والعلوم» بـ«مُنظَّمَةِ التّحْرير الفلسْطينيّة».
أحمد موصللي	أكاديميٌّ لبنانيٌّ وبَاحِثٌ في شؤون الحركات الإسْلاميّة.
إدوارد تايلور (Edward Taylor)	أكاديميٌّ بريطانيّ، ومن أبْرز الدّارسين لظَاهرَة «الثّقافة»، ويُعْتَبرُ أحد مُؤسِّسي «عِلْمُ الإنْسان» (الأنثروبولوجيا).
أدونيس	الشّاعر الحَداثيّ المعْروف.
آرثر كوستلر (Arthur Koestler)	روائيٌّ وكاتِبٌ بريطانيٌّ من أصْلٍ مَجَريّ.
أرنولد توينبي (Arnold Toynbee)	المُؤرِّخُ البريطانيّ المعْروف.

أرغيري إيمانويل (Arghiri Emanuel)	اقْتصاديٌّ فرنْسيٌّ من أصْلٍ يونانيّ.
أسامة عبد الرّحمن	أكاديميٌّ وكَاتبٌ وشاعرٌ سعوديٌّ، وأحد أبْرز المُهْتَمِّين بـ«مُعْضِلَة التَّنْمية» في العالَم العربيّ.
إسماعيل صبري عبد الله	أكاديمـيٌّ واقْتصـاديٌّ مِصْريٌّ، تقلَّد عِـدَّة مناصِب وزاريّة في مِصْر.
إسماعيل سراج الدّين	كَاتِبٌ مصريٌّ مُهْتَمٌّ بقضايـا «التَّنْمية»، وعمل نائِباً لـ«رئيس البنْك الدّولي» بواشنطن.
ألبرت آينشتاين (Albert Einstein)	عَالمُ الفيزياء المعْروف.
أنطونيوس كرم	أكاديميٌّ وكَاتبٌ لبنانيٌّ مُتخصِّصٌ في «الاقْتصاد»، ومُهْتَمٌّ بقضايا «التَّنْمية».
أنور عبد الملك	كَاتـبٌ وأكاديميٌّ مصريٌّ حَائـزٌ على «جَائِزة الدَّولة التَّقديريّـة في العلـوم الاجْتماعيّـة» في مصـر لعام ١٩٩٦م.
أنيس صايغ	كَاتـبٌ وأكاديمـيٌّ فلسْطينيّ، وعمل رئيسـاً لـ«مرْكز الأبْحـاث الفلسْطينـيّ» بـ«مُنظَّمَـةِ التّحْريـر الفلسْطينيّة».
أوزوالد سبنجلر (Oswald Spengler)	مُؤرّخٌ وفيلسوفٌ ألْمانيّ.
(ب)	
برنارد لويس (Bernard Lewis)	أكاديميٌّ ومُـؤرِّخٌ أمْريكيٌّ من أصْـلٍ بريطانيّ، ومن أبْرز المُهْتَمِّين بالدّراسات الشّرقيّة.

برهان غليون	أكاديميٌّ وكاتِبٌ سوريٌّ وأسْتاذُ «عِلْم الاجْتماع السياسيّ» في «جامعة السّوربون» بفرنسا.
بول ريكور (Paul Ricoeur)	أكاديميٌّ وفيلسوفٌ فرنسيّ.
(ت)	
تشارلز سنو (C.P.Snow)	عَالمٌ كيمياء وروائيٌّ بريطانيٌّ، اشْتهر بكِتابه الموسوم «الثّقَافَتَان» الصّادِر في عام ١٩٦٥م.
توماس إليوت (T.S.Eliot)	أديبٌ وشاعِرٌ ونَاقِدٌ بريطانيٌّ من أصْلٍ أمْريكيّ.
تيري إيجلتون (Terry Eagleton)	أكاديميٌّ وأديبٌ ونَاقِدٌ بريطانيّ.
كونراد وودنجتون (C.H.Waddington)	أكاديميٌّ وفيلسوفٌ بريطانيّ.
(ج)	
جلين سيبورج (Glenn Seaborg)	عَالمٌ وأكاديميٌّ أمْريكيّ، وحَائِزٌ على «جَائِزة نوبل في الكيمياء» لعام ١٩٥١م.
جمال الدين الأفغانيّ	العَالمُ الأفغانيُّ المشْهور، ويُعْتَبَرُ أحد أبْرز أعْلام الفكْر الإسْلاميّ المُجَدِّدين، وأحد الأعْلام البارزين في «حركة النَّهْضة» في أواخِر القرْن التّاسع عشر الميلاديّ في مصر.
جورج سارتون (George Sarton)	أكاديميٌّ وبَاحِثٌ أمْريكيٌّ من أصْل بلْجيكيّ، ومُتخصِّصٌ في «العلوم الطّبيعية والرِّياضيّات»، ويُعْتَبرُ مُؤسِّسَ «عِلْم تاريخ العلوم»، وعمل أسْتاذاً لـ «تاريخ العلوم» في «جامعة هارفارد»، وأبْرز أعْماله كتابه الموسوم «مُقدِّمَةٌ لتاريخ العِلْم» ذو الثّلاثة أجْزاء.

(ح)	
حازم القرطاجني	شَاعِـرٌ وأديبٌ من أهْل «قرطاجنة» بالأنْدلس، عاش في القرْن الرّابع عشر الميلاديّ.
حسن الهويمل	أكاديميٌّ وأديبٌ وكَاتِبٌ سعوديّ.
حسن صعب	أكاديمـيٌّ ودبلوماسيٌّ وإعْلاميٌّ لبنــانيٌّ أسَّس «نَدْوة الدّراسات الإنْمائيّة» في عام ١٩٦٤م.
(د)	
دافيد رزنيك (David B. Resnik)	أكاديمـيٌّ أمْريكـيٌّ مُهْتَـمٌّ بـ«أخْلاقيّـات العلـوم»، وحاصِلٌ على درجة «الدّكتوراه في الفلْسفة»، ودرجة «الدّكتوراه في القانون».
دافيد لاندز (David S. Landes)	أكاديميٌّ أمْريكـيٌّ، عمل أسْتاذاً للاقْتصاد والتّاريخ في «جامعـة هارفـارد»، ولـه مُؤلّفـاتٌ في «تاريـخ الاقْتصاد» نالتْ حظَّها من المدْح والنّقْد.
(ر)	
راشد المبارك	أكاديميٌّ سعوديٌّ جمـع بين «العلْم الطَّبيعيّ» والأدب والفلْسفة، وله عدَّةُ مُؤلَّفـات فكْرِيّة وعلْميّة، كما أنّ لـه إسهاماتـه في الشِّعْـر، وهو أحدُ أبْـرز مُناصري «الثّقافـة العلْميّة» في العَالَم العربي، واشْتهر بنَدْوته الثّقافيّة الأسْبوعيّة التي عُرِفَتْ بـ«الأحَدِيَّة».
رفاعة رافع الطّهطاويّ	الأزْهـريُّ المعْروف، وأحد قادة «النّهْضَة العلْميّة» في مصر في مُنْتصف القرْن التّاسع عشر الميلاديّ.

رمزي زكي	اقْتصـادِيٌّ مصريّ، وحَائِزٌ علـى «جائِزة الدَّولة في الاقْتصاد والماليّة العامّة» في مصر.
روبرت ماكنمارا (Robert McNamara)	وزير الدّفاع الأمْريكيّ الأسْبق.
روبرت هيزن (Robert Hazen)	أكاديمـيٌّ أمريكـيٌّ، وعَالمٌ في مجال «علـوم الأرْض والتّعْدين».
ريتشارد فاينمان (Richard Feynman)	أكاديمـيٌّ وفيزيائـيٌّ أمْريكـيٌّ، ساهـم في تَطْويـر «القُنْبلـة النّوويّة» في أمريكا خـلال الحرب العالميّة الثّانية، وحَائِـزٌ على «جَائِزة نوبل في الفيزياء» لعام ١٩٦٥م.
ريموند ويليامز (Raymond Williams)	أكاديميٌّ وروائيٌّ ونَاقِدٌ بريطانيّ.
رينيه ماهيو (Rene Maheu)	أكاديمـيٌّ فرنسـيٌّ، والمديـر الأسْبـق لـ«مُنظَّمَـة اليونسكو».
(ز)	
زكي نجيب محمود	المُفكّرُ المصْريُّ المعْروف.
زهير الكرمي	إعْلامـيٌّ أردنيّ، اشْتهر بتقْـديم البرنامج الوثائقيّ «العِلْمُ والحياة».
زين العابدين الرّكابي	أكاديميٌّ وإعلاميٌّ سعوديّ.

(س)	
سلامة موسى	صحفيٌّ وكَاتِبٌ مصْريّ، ومن أبْرز دُعاة «العَلْمانيّة» و«تَحْرير المرأة» و«الاشْتراكيّة» في مصْر، وأحد مُؤسّسي «المَجْمَع المصْريّ للثّقافة العِلْميّة» في عام ١٩٣٠م.
سليم البستانيّ	كَاتِبٌ وصحفيٌّ لبنانيٌّ، عاش في النِّصْفِ الأخير من القرْن التّاسع عشر الميلاديّ، وساهم مع والده في تَحْرير «دائِرةُ المعارِف: قاموسٌ عامٌّ لكلّ فَنٍّ ومَطْلَب».
(ش)	
شاكر مصطفى	مُؤرّخٌ وأديبٌ سوريّ، شغل منْصب وكيل «جامعة دمشق»، وتقلَّد عدَّة مناصِب دبلوماسيّة، كما شغل منْصب «وزير الإعْلام» بسوريا، وعمل أسْتاذاً للتّاريخ والدّراسات الإسلامية بـ«جامعة الكويت».
شكيب أرسلان	سياسيٌّ وكَاتِبٌ وشَاعِرٌ ومُؤرّخٌ لبنانيٌّ، اشْتهر بلقب «أمير البيان»، ومِن مُؤلَّفاته كتاب «لماذا تأخّر المُسْلمون؟، ولماذا تقدّم غيرهم؟».
(ص)	
صوما بوجودة	أكاديميٌّ وبَاحِثٌ ترْبويٌّ لبنانيّ، وزميلٌ بـ«أكاديميّة العلوم للعَالَمِ النّامي» في مدينة «ترييست» بإيطاليا.

(ط)	
طه حسين	الأديبُ المصْريُّ المعْروف.
طه عبد الرحمن	مُفكِّرٌ وفيلسوفٌ مغْربيٌّ مُتخصِّصٌ في «المنْطق وفلْسفة اللّغة والأخْلاق»، وحَائزٌ على جَائِزة «الإسيسكو» في «الفِكْر الإسْلاميّ والفلْسفة» لعام ٢٠٠٦م.
طيّب تيزيني	فيلسوفٌ وبَاحِثٌ سوريٌّ من أنْصار «الفِكْرِ القوميّ الماركسيّ».
(ع)	
عبد الإله بلقزيز	أكاديميٌّ وكَاتِبٌ مغْربيٌّ، حاز في عام ٢٠١٢م على «جَائزة السُّلطان قابوس التّقديريّة للثّقافة والفنون والآداب» في مجال «قضايا الفِكْرِ المُعاصِر».
عبد الحميد أبو سليمان	أكاديميٌّ وبَاحِثٌ سعوديٌّ، ومُؤسّسُ «المعْهد العَالَميّ للفكْر الإسْلاميّ» بأمريكا، و«الجامعة الإسْلاميّة العَالَميّة» بماليزيا.
عبد الحميد الكاتب	من أعْلام الكُتَّابِ في أواخر العصْر الأمويّ، ويُعَظِّمُ النُّقّاد العرب من مَنْزلته في «الأدب العربيّ»، فيقولون فيه: «بدأتْ الكِتَابَةُ بعبد الحميد، وخُتِمَتْ بابن العميد».
عبد الخالق عبد الله	أكاديميٌّ وكَاتِبٌ أماراتيّ.
عبد الرحمن المحسني	أكاديميٌّ وأديبٌ سعوديّ.

عبد الرحمن بن خلدون	المُـؤرِّخُ العربـيُّ المعْـروف، ويُعْتَـبرُ مُؤسِّسَ «عِلْـم الاجْتماع».
عبد الله الغذّامي	أكاديميٌّ وكَاتِبٌ ونَاقِدٌ سعوديّ.
عبد الله القفاري	كَاتِبٌ سعوديّ.
عبد الله بن بيَّه	أحـد أبْـرز عُلمـاء السُّنـة المُعاصِريـن، وأسْتاذٌ في «جامعـة الملك عبـد العزيـز» في جـدّة، وتقلَّد عدَّة مناصـب وزاريّة في موريتانيا، وحَائِـزٌ على «جائِزة الملك عبد العزيز» من الدَّرجة المُمتازة.
عبد الله النّديم	أديـبٌ وشاعِرٌ مصْريٌّ، عاش في النِّصف الثاني من القرْن التّاسع عشر الميلاديّ، ويُعْتَبَرُ «خطيب الثّورة العُرابيّة» في مصْر.
عبد الله عبد الدّائم	أكاديميٌّ وترْبويٌّ سوريّ، ومن أهمّ المُشْتغلين بـ«الفِكْر القومـيّ العربـيّ»، وشغـل منْصب «وزيـر الإعْلام» ثُـمّ «وزير التّرْبيــة» في سوريا، وحَائِـزٌ على «جَائِزة سلطـان العويـس الثّقافيـة» في مجـال «الدِّراسات الإنْسانيّة والمُسْتقبليّة».
عبد العزيز التويجري	أكاديمـيٌّ وترْبويٌّ سعوديّ، والمدير العـامّ لـ«المُنظَّمَة الإسْلاميّة للتّرْبية والعلوم والثّقافة (الإيسيسكو)».
عبد العزيز السّماري	كَاتِبٌ سعوديّ.
عبد الغني عبود	أكاديميٌّ وترْبويٌّ مصْريّ.
علي الوردي	عَالِمُ الاجْتماع العراقيّ المعْروف.

علي أومليل	أكاديمـيٌّ مغْربيّ، وبَاحِثٌ في «عِلْم الاجْتماع»، وشغل منْصـب الأمـين العـام لـ«مُنْتـدى الفِكْـرِ العربـيّ» بعمّان، وعمل سفيراً للمغْرب في القاهرة وبيروت.
علي خليفة الكواري	كَاتِبٌ قَطَريٌّ، وبَاحِثٌ مُهْتَمٌّ بقضايا «التّنْمية».
علي علي حبيش	أسْتاذُ كيميـاء وتكْنولوجيا النَّسيج بـ«المرْكز القوميّ للبحوث» بمصْـر، وشغل منْصب رئيـس «أكاديميّة البَحْـث العلْميّ» بمصْر، وحَائِزٌ على «جَائِزة مبارك للعلوم التّكنولوجية المُتقدِّمة» لعام ٢٠٠٤م.
عمر الخطيب	أكاديميٌّ وإعْلاميٌّ أرْدنيّ.
(غ)	
غازي القصيبي	أكاديمـيٌّ وكَاتِبٌ وشَاعِرٌ سعوديٌّ، تقلَّد عدَّة مناصِب وزاريّة ودبلوماسيّة في الممْلكة العربيّة السّعوديّة.
(ف)	
فرانسيس فوكوياما (Francis Fukuyama)	أكاديمـيٌّ أمريكـيٌّ، وبَاحِثٌ في «العلـوم السّياسيّة»، واشْتهـر بكتابـه الموسـوم «نِهايـةُ التّاريـخ والرَّجُل الأخير».
فريدريك تشيللر (Friedrich Schiller)	شَاعِـرٌ وفيلسوفٌ ومُـؤرِّخٌ ألْمانيٌّ، عاش في النِّصْفِ الثّاني من القرْنِ الثّامن عشر الميلاديّ.
فريدريك جيمسون (Fredric Jamson)	أكاديميٌّ ونَاقِدٌ أمْريكيّ، ومُنَظِّرٌ ماركسيّ.

فلاح سعيد جبر	مُهْندسٌ فلسْطينيّ، شغل منْصب الأمين العامّ لـ «اتّحاد الصّناعات الغذائيّة العربيّة»، وأحد مُؤسّسي مجْموعة من الاتّحادات والهيئات منها «الاتّحاد العامّ للمُهنْدسين الفلسْطينيين» و«اتّحاد الفيزيائيّين والرّياضيين العرب»، وعمل مُستشاراً للدّراسات والبحوث في «الجامعة العربيّة».
فيكتور هوجو (Victor Hugo)	شَاعرٌ وأديبٌ وروائيٌّ فرنْسيٌّ، عاش في مُنْتصف القرْنِ التّاسع عشر الميلاديّ، ومن أشْهر رواياته «البُؤساء» و«أحْدَبُ نوتردام».
(ق)	
قسطنطين زريق	أكاديميٌّ ومُؤرِّخٌ سوريّ، وأحد أبْرز دُعاة «القوميّة العربيّة».
(ل)	
لؤي صافي	أكاديميٌّ أمْريكيٌّ من أصْلٍ سوريّ، ومُهْتَمٌّ بقضايا «التّنْمية والحدَاثَة»، وعملَ مديراً لـ«المعْهد العالَميّ للفكْرِ الإسْلاميّ» بأمريكا.
(م)	
ماثيو أرنولد (Matthew Arnold)	شَاعرٌ وأديبٌ ونَاقدٌ بريطانيٌّ، عاش في مُنْتصف القرْنِ التّاسع عشر الميلاديّ.
ماكس بلانك (Max Planck)	فيزيائيٌّ ألمانيٌّ، ومُؤسِّسُ «نظريّة الكَمّ» في الفيزياء، وحَائزٌ على «جَائزة نوبل في الفيزياء» لعام ١٩١٨م.

ماكس فيبر (Max Weber)	فيلسوفٌ ألمانيّ، وعَالمٌ في الاقْتصاد والسّياسة، ويُعْتَبَرُ أحد مُؤسّسي «عِلْم الاجْتماع» الحديث.
مالك بن نبيّ	المُفكّرُ الجزائريُّ المعْروف.
مايكل سبنس (Michael Spence)	أكاديميٌّ واقْتصاديٌّ أمْريكيّ، وحَائزٌ على «جَائِزة نوبل في الاقْتصاد» لعام ٢٠٠١م.
مايكل فاراداي (Michael Faraday)	عَالمٌ إنْجليزيٌّ من أبْرز عُلماء الطّبيعة، وعاش في القَرْنِ التّاسع عشر الميلاديّ، وله الدّوْر الرّياديّ في تَأْسيس مَجَالَيْ «الكهرومغناطيسيّة» و«الكهروكيميائيّة»، ويُعْرَفُ بـ «أبو الكهْرباء».
محمد أزهر سعيد السمّاك	أكاديميٌّ عِراقيٌّ مُتخصّصٌ في «الدِّراسات الجغْرافيّة».
محمد الرميحي	أكاديميٌّ وكَاتبٌ كويتيٌّ مُتخصّصٌ في «عِلْم الاجْتماع السّياسيّ»، ورأس تَحْرير مجلّة «العربيّ» الكويتيّة، وشغل منْصب الأمين العامّ لـ«المجْلس الوطنيّ للثّقافة والفنون والآداب» في الكويت.
محمد الميلي	كَاتبٌ وصحفيٌّ جزائريٌّ، التحق بالثّورة الجزائريّة في عام ١٩٥٥م، وتقلّد منْصب «وزير التّعْليم» في الجزائر، وعمل سفيراً للجزائر في القاهرة، وشغل منْصب المدير العامّ لـ«المُنظّمَة العربيّة للتّرْبية والثّقافة والعلوم (أليكسو)» بتونس.
محمد جابر الأنصاريّ	أكاديميٌّ وكَاتبٌ بحرينيٌّ، وعضْو «المجلْس الوطنيّ للثّقافة والآداب والفنون» بالبحْرين، وحَائزٌ على عدد من الجوائز منها «جَائزة الدّولة التّقديريّة» في البحرين، و«جَائزة سلطان العويس الثّقافيّة» في مجال «الدّراسات الإنْسانيّة والمُستقبليّة».

محمد صلاح الدّين	كَاتِبٌ وإعْلاميٌّ ونَاشِرٌ سعوديّ.
محمد عابد الجابريّ	المُفكّرُ المغْربيُّ المعْروف.
محمد عبده	أزْهريٌّ وفقيهٌ مصْريٌّ، وأحد رموز «التَّجْديد الإسْلاميّ» في العصْر الحديث، واشْترك في «الثّوْرَة العُرابيّة» في مصْر، وشغل منْصب «مُفتي الدّيار المصْريّة»، وتأثَّر بالإصْلاحيّ جمال الدين الأفغانيّ، وأصدرا معاً جريدة «العرْوة الوثقى» من منْفاهما في باريس في عام ١٨٨٤م.
محمد لبيب شقير	أكاديميٌّ مصْريٌّ مُتخصِّصٌ في «العلوم السّياسيّة والاقْتصاد»، وتقلَّد عدَّة مناصِب وزاريّة في مصر، وشغل منْصب «رئيس مجْلس الشّعب المصريّ» في أواخر الحقْبة النّاصريّة، وعمل مُستشاراً بـ «صنْدوق النّقْد الدّوليّ».
محمد محفوظ	كَاتِبٌ سعوديّ.
محمود عبد الفضيل	أكاديميٌّ وكَاتِبٌ مصْريٌّ مُتخصِّصٌ في «الاقْتصاد».
محيي الدين صابر	كَاتِبٌ سودانيٌّ مُشْتَغلٌ بقضايا «التّنْمية والتّعليم والثّقافة»، ورأس تَحْرير عدّة صُحف يوميّة في السّودان، وشغل منْصب «وزير التّرْبية والتّعْليم» بالسّودان، وعمل مديراً لـ«المُنظَّمَة العربيّة للتّرْبية والثّقافة والعلوم (أليكسو)» بتونس.
مسعود ضاهر	أكاديميٌّ وكاتِبٌ لبنانيٌّ مُتخصِّصٌ في «التّاريخ الاجْتماعيّ».

مهاتير محمد	رائدُ «النّهْضة الماليزيّــة الحديثة» المعْروف، ورئيسُ وزراء ماليزيا الأسْبق.
ميشيل سير (Michel Seres)	أكاديميٌّ وكَاتِبٌ وفيلسوفٌ فرنْسيّ.
(ن)	
نادر فرجاني	أكاديمــيٌّ وكَاتبٌ مصْريّ، رأس فريق تَحْرير تقارير «التّنْمية الإنْسانيّة العربيّــة» الصّادِرة عن «برْنامج الأُمم المتّحدة الإنْمائيّ».
نبيل علي	كَاتــبٌ مصْريٌّ حَاصــلٌ على الدّكتــوراه في «هنْدسة الطَّــيران»، وأحد أبْرز خُبراء «المعْلُوماتيّة» في العَالَم العربــيّ، وتقلَّــد عــدَّة مناصِــب في شــركاتٍ عربيّةٍ وعالَميّةٍ في مجال «الحاسوب».
نجيب عيسى	أكاديميٌّ وكَاتِبٌ وخبيرٌ اقْتصاديٌّ لبنانيّ.
نورمان كامبل (Norman R. Campbell)	أكاديمــيٌّ وعَــالِمُ فيزيــاء بريطــانيٌّ، اهْتَــمّ بمجال «فلْسفة العلوم».
(ي)	
يوسف أبا الخيل	كَاتِبٌ سعوديّ.
يوسف صايغ	أكاديميٌّ وكَاتبٌ فلسْطينيٌّ مُتخصِّصٌ في «الاقْتصاد السّياســيّ»، وأحــد أبْرز دُعــاة «القوميّــة العربيّة»، وعمــل مُستشــاراً في «مُنَظَّمَــة الأقْطــار العربيّــة المُصــدِّرة للنّفــط» و«الصّنْــدوق العربــيّ للإنْمــاء الاقْتصاديّ والاجْتماعيّ».